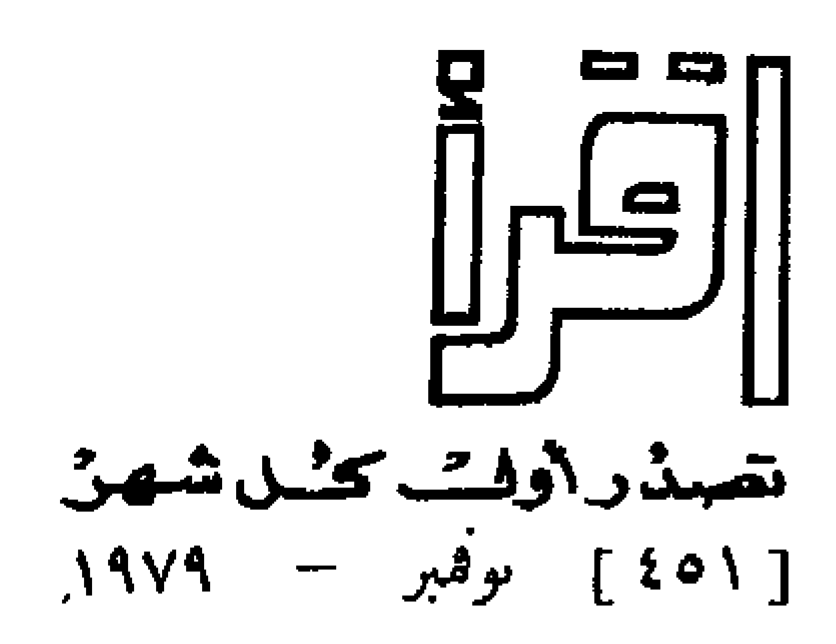


اقرأ

دكتور سعد ظلام

من دروس الهجرة





تصدر أول كل شهر

[٤٥١] نوفمبر – ١٩٧٩

رئيس التحرير أنيس منصور

دكتور سعد ظلام

مِنْ دُرُوسْ الهِجْرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربَّنا افْتَح بيْنَنا وبَيْنَ قَومنا بالحقِّ وأنت خيرُ الفاتِحين)

(الأعراف – ٨٩)

(ربَّنا عليْكَ توكَّلْنا وإليْكَ أَنَبْنَا وإلَيْك المصيرُ)

(الممتحنة – ٤)

[قرآن كريم]



وماحوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمى
فالصِّدقُ فى الغار والصدِّيق لم يَرِمَا ... وهم يقولون ما بالغار من إرم
ظنُّوا الحمام وظنُّوا العنكبُوت على ... خير البريَّة لم تَنْسج ولم تَحُم
وقايةُ اللهِ أَغْنت عن مُضاعفةٍ ... من الدُّروع وعن عالٍ من الأُطُم

« البوصيرى »

أعْظِم بمقدمه فخراً ومنقبة ... لِمعْشر الأوْس والأحْياء من جُشم
فخرٌ يدومُ لهم فضلٌ بذِكْرته ... ماسارت العِيسُ بالزوَّار للحَرَم
يومٌ بهِ أَرَّخ الإسلامُ غرَّته ... وأدْرك الدِّين فيه ذِرْوة النُّجم

« محمود سامى البارودى »

مقدمة

العبقرية تثير كثيراً من الحسد وفضول القول ، وتثير حول صاحبها كثيراً من الجدل ، وحول تصرفاته كثيراً من التساؤلات وعلامات الاستفهام .

والأصدقاء يثيرون فضول القول بدافع الحب وحسن النية ، والأعداء يثيرهم الحسد فيثيرون مريض القول وسقيم الاتهام ، ويكثر ذلك ويحتد حول العبقرى ذاته بغض النظر عن تصرفاته ، أما تصرفاته فتثير كثيراً جداً من الجدل والخصام بغض النظر عن النظرة الفاحصة ، وإلى ماحققته من نتائج وماتتغياه من غايات بل ربما يكون تحقيق النتائج أكبر داع للحسد ، وأكبر مثير للحقد والخصام .

فهناك ثلاث درجات للإثارة : العبقرية ذاتها ، وتصرفاتها ، ونجاحها ؛ ولايكتفى الحساد بوقوفهم وحدهم فى الميدان بل يؤلبون غيرهم ممن خلا بالهم ، فيزرعون فى نفوسهم الكره والمرارة والتعصب ، ويجمعون المشايعين لهم فى

تكتلات ؛ ليكون الحصار محكماً ،وعلى قدر عظمة هذه العبقرية ، وعلى قدر تأثيرها وبقدر نجاحها – يكون إذكاء الجدل والحسد والفضول ، بل إن العبقرية لابد أن يثار حولها الجدل ؛ لأنها عبقرية ؛ والعبقرية حدث كونى مزلزل يأتى على غير ارتقاب ؛ ويخرج على ناموس الحياة وقانونها ، يبهر العالم ويهزه هزًّا ، فلابد أن تلتفت الأذهان ، وتنعطف القلوب ، ولابد أن يتجه الإحساس ، ولابد أن يثار حولها مايثار حول النبوغ والعبقرية من افتئات وحقد وفضول .

العبقرية – لأنها عبقرية – مثيرة لفنون الجدل والأقاويل والإفاضة والكذب والافتئات ، وهى بما تخلقه وتبدعه وتضيفه إلى رصيد نجاحها – تضيف به أيضاً إلى رصيدها فى قلوب الحاسدين والحاقدين والشانئين حقداً وضغينة ، وحسداً وغيظاً .

أما التافهون والقانعون فليست لديهم مواهب الإثارة ، وليس فى قدرتهم وليس فى طبعهم أن يثيروا ؛ لأن ذلك فوق طاقتهم ومواهبهم : فهم يثيرون ولا يثار حولهم ؛ لأنهم عاجزون ، والعجز ضعف ؛ وهو قصور ، والضعف يثير الإشفاق والسخرية أكثر مما يثير الحسد والغيظ والتقول .

فإذا وجدت فنون القول وفضوله ، وألوان الحسد المنمق موجهة إلى شخص مشتعلة حوله – فلا يخطر ببالك أن هذا الشخص ليست له قيمة أو ليس له اعتبار ، بل على العكس من ذلك تماماً يجب أن تعلم أن هذا الشخص له قيمة وله اعتبار ، وله تأثير وله إيجابية ، وإلا فما أثير من حوله هذا الجدل ، أو نمّقت هذه الفنون المريضة من التقول .

ويقاس قدر العبقرية والنبوغ بشدة الإثارة والافتراء والافتئات وضعفها ؛ فهى مقياس لقيمة العبقرية وأصالتها ومقامها ، وميزان لصحتها وثباتها : فكثرتها دليل على قدر العبقرية ، وقيمتها وكمالها وجلالها ، وليس يعنينى التنويه بنجاح العبقرية ؛

فهذا أمر مفروغ منه ؛ فكونها عبقرية غنية عن التنويه باجتيازها واقتحامها وتجاوزها المشكلات والموانع كشلال هادر جياش . وهذا ماحدث بالنسبة إلى سيدنا رسول الله ﷺ :

فقد ثار الجدل حوله ، واضطربت فنون القول الآثم ، وكثر الافتراء والافتئات من الغرب ومن الشرق على السواء من كل ذى نفس مغيظة وقلب حاقد . وفؤاد سقيم :

فكتّاب الغرب وفلاسفته يحيكون هذه الفنون المريضة لأنهم مرضى بالحقد والإثم والتربص والغيظ الكظيم ؛

وكتّاب الشرق وفلاسفته يحيكونها إما مرضاً أو جهلاً أو تقليداً ، أو ادعاء للتحرر ، وفتح آفاق العلمانية ، وكلهم حاقد جاهل مريض .

والعبقرية – كما قلنا – كالنور تثير حولها الفراش الذى يلقى فى حواشى النور الصادق حتفه ، والحدث الكونى لايخضع لقانون الجاذبية ، بل لايعترف بها ، ولايمكن أن يحكمه قانونها .

لقد زعم المستشرقون ومن والاهم من المستغربين العرب أن الهجرة هروب وفرار من شدة الأحوال فى مكة إلى رخائها وهدوئها فى المدينة. ولما قيل لهم : إذا كانت الهجرة فراراً – فلماذا لم يهاجر الرسول العظيم إلى الحبشة وكانت أبوابها مفتوحة أمامه ؟ صمتوا صمت القبور وتلاشى قولهم هباء .

لقد أذن لأصحابه بالهجرة إليها مرتين ، ووجههم إليها ، وودعهم ودعا لهم . ولم يشأ أن يهاجر وبقى فى مكة سيفاً يناضل وحقًّا يجاهد ، ومصباحاً يكافح وحده سحب الضباب والغيم والقتام ، ويبدد حمق الكفر وجهالته ، وينشر رسالته الغراء فى الناس هداية وأمناً .

إذا ما قيل لهم : لماذا لم يهاجر الرسول إلى الحبشة إذا ماكانت الهجرة غاية فى

ذاتها ، وكان اللجوء إلى حصن أمن هدفاً مقصوداً إليه ، وبدا لهم أن يذعنوا للحق ويعترفوا به - سيطر عليهم الحسد والحقد مرة أخرى ، فراحوا يشككون فى كل نجاح ، ويثيرون الجدل حول كل فكرة تحققت ؛ لأنهم حساد والحاسد لايرضيه إلا زوال النعمة ، فإن لم يستطع فليس أمامه خيار فى محاربتها ، فأثاروا جدلاً حول كل شيء وتساؤلات إزاء كل فكرة تحققت أو سنحت ولم تتحقق ، شككوا فى دواعى الهجرة ، ولما ثبت لهم كذبهم واختلاقهم - راحوا يروجون لحملتهم الضالة حول كل ما أقيم أو اقتضت الظروف إقامته فى المدينة ، فأثاروا الجدل بل كثيراً من الجدل حول المؤاخاة التى عضدت من الوجود الإسلامى فى المدينة ، وحول معاهدة اليهود مع الرسول ، وتحويل القبلة ، وحول استنقاذ أموال المهاجرين من براثن قريش ، وتعرضهم لقوافلها وحول العهد المكى والعهد المدنى وقالوا : إنه كانت للرسول شخصيتان : شخصية الواعظ العابد فى مكة ، وشخصية رجل الدولة وصاحب السلطان فى المدينة ؛ وأثاروا تقولات كثيرة حول الغزوات النبوية ، وأشعلوا نار غيظهم حول فكرة الجهاد فى الإسلام ، وزعموا أن الإسلام انتشر بالسيف أو كان السيف وسيلة انتشاره ، وحول جلاء اليهود عن المدينة ومن الجزيرة ، وحول بسط النور الإسلامى رواقه على الجزيرة ، وامتداده إلى ضلال الوثنية القابع فى فارس ، وفساد المسيحية المعشعش فى روما ، وتقويض هاتين الدولتين فى زمن قياسى ؛ وأثاروا حول زواج الرسول بأكثر من أربع جدلاً كثيراً مع أن زواجه بهذا العدد كان قبل تحديد العدد بالأربع ، فلما نزل قول الله سبحانه وتعالى : (لا يحل لك النساء من بعدُ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك)[1] وقف الرسول عند أمر الله ولم يتزوج واكتفى بمن معه ..

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الأحزاب.

وحاشاه أن يخالف أمر الله .

أثاروا حول هذا كله جدلاً وتساؤلات ، وأغلب الظن أنه لن ينتهى الجدل . ولن تنتهى التساؤلات مادامت العبقرية ومادام الحاسدون ؛ لأن العبقرية فى ذاتها تجذب هذا الفضول فتثيره بشخصيتها المفردة ، وبنجاحها المطرد وأعمالها السوامق الفصاح . والجدل والحسد والفضول تتهاوى فى هذا النور المشتعل تهاوى الفراش . ومنجم الذهب يكون حول التراب ، ويجثم فوقه ويتربص به ، والأصالة وحدها تفرض نفسها وتنفى الزيف : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض)[1]

ويدخل فى هذا الفضول الفراشىّ ما أثاره الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) حول العامل السياسى بعد الهجرة وأثره فى تاريخ الإسلام والدعوة الإسلامية وما أثاره المستشرقون وما أكثرهم !

وقد حاولت فى هذا البحث المتواضع أن أستخلص من هجرة الرسول ﷺ دروساً نقتدى بها فيما عسانا أن نقدم عليه من الأمور ، وفى الهجرة دروس واعية لمن أراد أن يذّكر ، دروس فى الإيمان بالمبدأ والثبات عليه ، والنفاذ البصير لأبعاد المستقبل فى عدم الهجرة إلى الحبشة ، ودروس فى التخطيط والكتمان ، ونحن فى أمس الحاجة إليها ، ودروس فى التنفيذ والعمل الجاد المتواصل ونحن أحوج مانكون إليه ، ودروس فى القيادة ، ودروس للقادة وهم بصدد البناء وإقامة الحضارات . ودروس فى التوجيه والريادة .

وقد حاولت كذلك أن أضع تصوراً لفكرة الهجرة وأهدافها ووضعها فى مسيرة الدعوة وأثرها على مستقبل الإسلام والأمة الإسلامية ، وكيف أنها كانت فيصلاً

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد .

بين عهدين :

عهد من الجهاد بالكلمة والحجة، تطاولت فيه قريش، وصال الباطل وجال اعتداء وإبذاء وبغياً وعدوانا فلم تُجدِ الكلمة فى غوغائيين ، وكان لابد من وقفة .

ولا بد من تغيير فى التكتيك والمواقف ، وكان لابد من إحداث تغيير عظيم فى الوسائل لحماية الغايات العليا والأهداف السامية ، وهذا ماحدث .

وقد طرأ التغيير الجوهرى الأساسى على الموقف كله منذ بيعة العقبة الثانية : أى بعد أن وجدت الكلمة الفاهمة أنصاراً لها وعوناً وحماية وعزّة ومنعة .

ومنذ هاجر الرسول بدأ عهد جديد تحقق فيه الجهاد بكل أنواعه وبدأ عهد للإسلام جديد وعهد للكلمة الفاهمة والحق النبيل والرشاد الإنسانى كله ، وهو عهد - وإن اتسم بالعزة والمنعة والجهاد بكل أنواعه وصوره والتصدى والدفاع والعمل الجاد - كان العهد المكى الأساس والمقدمة الطبيعية . وكان أمرا ضروريًا للانطلاقة القوية الهائلة التى دفعت الإسلام إلى مرافئ المجد والخلود وبنت لله وللحق وللدعوة وللإسلام دولة وأمة وإمبراطورية عظمى خالدة .

ولقد كان عمر رضى الله عنه بعيد النظر عندما أرخ للإسلام بالهجرة الشريفة

دكتور سعد ظلام

غرة شوال ١٣٩٨

٣ من أغسطس سنة ١٩٧٨

الإيمان بالمبدأ

لن تمر ذكرى هجرة رسول الله ﷺ دون أن نأخذ منها العبرة ونستلهم الرشد والهداية ، ونستوضح معالم الطريق فى محاولة التأسى بالرسول وهو يبنى دولة الإسلام الفتية ، ويشيد دعوته الناهضة ، ولا شك أن فى الهجرة دروساً نافعة لمن يريد التعرف على المبادئ الأصلية والمقومات الأساسية لبناء الدولة وإقامة نهضتها وحضارتها .

لقد هاجر رسول الله إلى المدينة خاوى الوفاض من كل شىء إلا من إيمانه بالله .. نافضاً يده من كل ما فى الحياة إلا من دينه ودعوته .. ليس معه سلاح إلا سلاح الحق .. وعزيمة لاتفتر أو تلين . ترك ماله ؛ لأنه وازن بين حبه لماله وحبه لدينه ، فاختار دينه ؛ وخلف أهله ؛ لأنه قارن بين عاطفته نحو أهله وبين عاطفته نحو دعوته فغلب جانب الدعوة ، وهجر موطنه ؛ لأنه رأى أن الدين عنده أهم

مايمكن الحفاظ عليه ، وأنه حقيقة تتضاءل أمامها الحياة والوجود معاً .

لم يهاجر من مكة فراراً بدينه من أذى قريش وعنتها كما تصور بعض أو كما يحلو لهم أن يتصوروا .. لقد جربت قريش معه كل وسائل القمع والتهديد والمساومة والاسترضاء لتثنيه عن دعوته النامية ورسالته الهادية ، ولكن إرادته وعزيمته وإيمانه وعقيدته كانت صخرة تحطمت عليها أحلامهم الباهتة ، وتكسرت عندها أمواج أمانيهم الخادعة الصفراء ! جربوا معه صنوفاً شتى من الاضطهاد ، وألواناً كثيرة من الحروب : جربوا حرب الدعاية والتشويش ونشر الإشاعات الكاذبة والافتراءات الضالة والأقوال الزائفة ، فوقفوا فى طريق قوافل الحجاج فى موسم الحج ، والرسول يعرض نفسه على القبائل ؛ لعله يجد من تتفتح نفسه للشروق ، أو يهفو قلبه نحو الحق ، فيكون معه من ينصره أو يساعده على تبليغ الرسالة ، وقفوا يشهرون به ويسخرون منه ، وينفرون الناس عن دعوته وهم ينهون عنه وينأون عنه .. وإن يهلكون إلا أنفسهم .. ومايشعرون !

- وإذا كان غرضهم من الدعاية محاربة الإسلام وتعويق تقدمه وعرقلة خطاه فقد كان فى طياتها ماعجل بانتشار الإسلام .. لقد كان لها فى الوقت نفسه وجه آخر مضىء .. فقد شوقت النفوس للتعرف على الدين الجديد وعطفتها نحو غدرانه السمحة .. وحركت فيها نوازع نهمة لأخذ فكرة عنه .. فجعلت القلوب تنعطف نحوه والأفئدة تهوى إليه ولكل جديد لذّة .. والنفس أشوق ماتكون إلى معايشة الجديد .. وسواء أعلمت قريش ذلك أم لم تعلم ، فالشىء الذى نود أن نذكره أن هذه المحاولة لم تؤت ثمارها المرجوة ولم تحقق نجاحاً .. ورأت قريش نفسها إقبال النفوس على الدين إقبال الظامئ على الرى ، وظاعن الحر على ظلال الدوح الوامضة وجداوله الرقراقة الفينانة .. فرأت أن تتحول من سياسة تكميم الأفواه إلى مزيج من سياسة الملاينة والإغراء .. والملاطفة والاسترضاء فعرضوا على رسول الله ﷺ

مراتب الشرف والسيادة .. وقدموا له عروض المال والجاه لعل فى هذا مايثنيه عن دعوته أو يغير من عقيدته ويلين من عزيمته ! ولكنه وهو الواثق بالله المؤمن بالحق لم ترق فى نظره تلك المساومات الرخيصة .. أو تغرّه هذه الاسترضاءات المبذولة .. ولم يغير من نفسيته ﷺ جو المودة المقنّع وبسمات الود المفتعلة وأحوال المهادنة الخادعة ! وماكانت لتلين من عزيمته أو تغير من حدته وصلابته ، بل أصر على مبدئه إصرار الحق ،وثبت عليه ثبات الشُّم .. وترفع عن سخافاتهم ترفع السماء ، فانطلقت كلماته الهادئة الرزينة الواضحة تذيب ماعرض الكفار عليه .. وتذهب به كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف شديد ، قال لهم رسول الله ﷺ : «ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً .. وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة .. وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم»

لم تُجدِ حيلهم معه ، ولم تنطل على رسول الله هذه الخدع المكشوفة ، فجن جنون القوم ، وتحولت أفكارهم الثائرة إلى أتون ملتهب يقذف بالضرام والثورة ويضطغن بالحقد والنقمة ، وذهب وفد منهم إلى أبى طالب قائلين له : إن لك منزلة وشرفاً منا ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنّا .. وإنا والله لن نصبر على هذا من شتم آبائنا وعيب آلهتنا وتسفيه أحلامنا فانهه عنا ، أو خل بيننا وبينه ، فأشار أبو طالب إلى رسول الله ليبقى عليه وعلى نفسه ،فظن أن عمه يخذله فقال : ياعم .. والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه !

ملحمة من ملاحم البطولة استمدت إلهامها من الله وروحها من خلق الرسول الكريم .. وإصرارها من حرارة الإيمان وذوب العقيدة ووقدة الشعور .. وكيف

ينزل محمد على مارأوا .. أو يجيبهم إلى ماطلبوا وهو يرى أن الكون عنده والحياة أيضاً بدون مايدعو إليه تافهة كعقولهم .. ناقصة كتفكيرهم ؟ وكيف يرضى وهو يعتقد أنه مصباح يجاهد ظلام الجهل وضباب الحقد والأغشية المتخلفة من بقايا فهم ذابل هزيل ؟ وبمقدار وقوفه بجانب الحق وحمايته للمثل بقدر مايقوى المصباح على هزيمة الظلام والضباب والأغشية المتخلفة والفهم الذابل السقيم . وماكان محمد فى تصورنا إلا نوراً : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)[1]

(يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً)[2] ولم يكن رسول الله ليستجيب لدعوة الإلحاد والوثنية أو يهادنها أو يقبل الحلول الوسط وماهو بمستجيب لها ؛ فالطريق واضح والمنهج مستقيم .. والله أرسل الرسل وأنزل الكتب ؛ ليقوم الناس بالقسط وما محمد إلا رسول من هؤلاء الرسل الذين اختارهم الله على علم على العالمين ، فلا مهادنة ؛ لأن الحق ليس فيه شيء إلا الحق .. ولاحلولا وسطا ؛ لأن الدين عقيدة صحيحة لاتقبل الحلول الوسط وعقيدة تدعو كل الناس للدخول فيها .. ولاترضى المفاوضة ؛ لأن القضايا العادلة لاتقبل المفاوضات كذلك .. والدين قضية عادلة تستند فى جوهرها إلى توضيح المبادئ وتصحيح المفاهيم وتحديد القيم والمثل الإنسانية ، واعتراف بربٍّ كلنا مربوبون له .. وموجد كلنا وجوده .. وخالق نحن خلقه وصنعه .. صنع الله الذى أتقن كل شيء .. ولأنها عادلة كانت لاترضى المفاوضات ولا أنصاف الحلول

---

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ ، المائدة

(٢) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ ، الأحزاب

ولا المصالحات !

ونجح محمد فى امتحان الإرادة والعزيمة والقدرة ، وكيف لاينجح وهو الذى جاءه قبل الهجرة بقليل (خباب) صاحبه وهو متوسد ببردة فى ظل الكعبة ، فقال يارسول الله : ألا تدعو لنا وأحسّ الرسول أن فى قالته رنّة أسى ونغمة شكوى فأقلق رسول الله هذا القول ، فقعد رسول الله محمر الوجه ، ثم قال لخباب : إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ، مايصرفه ذلك عن دينه ثم طمأن (خبابا) على الدين وعاقبته فقال : وليظهرن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه !

ولما أحسوا بهزيمتهم أمام إرادته الصادقة وعزيمته الثابتة انقلبوا على أصحابه القلائل ، وصور لهم زعمهم الواهن وعقليتهم المنحرفة وتفكيرهم الساذج أن إيذاءهم سيفتنهم فى دينهم .. ويصرفهم عنه .. ويباعد بينهم وبين ربانهم السائر المشوق .. وفى زعم قريش أنهم سيأتون بنيان الدعوة من القواعد ويقتلعونها من القلوب . ويقوضون دعائمها من الأساس ، فينصرف عن الدعوة أتباعها ، وعن الرسول أصحابه الأولون وعن الدين الجديد طلائعه الهادية المهتدية ، فيكون التخذيل لمحمد ولدعوته ، فيضيع بذلك سعيه ، ويكون كالداعى فى وهاد أو النافخ فى رماد !

ولكن عزيمة الصحابة كانت شمساً أذابت تحت وهجها الصامد الملتهب قتام المنى وضباب الفكر وثلوج الأمل والأفكار ، والشمس تظهر فى الأفق ضاحية الوجه ، فتمس الكون تيارات من الدفء الوامض وأنفاس من الحيوية الناشطة والتماعات من الأضواء التى تمسح كدح الحياة وتغسل أدران الجو وتنضج حرارتها مراحل الكفاح ..

وكذلك كان الصحابة وهكذا كان وقوفهم فى معمعات الحوادث : عزيمة أنضجتها حرارة الإيمان ، ونور من التنزيل والفرقان ، وثبات من العقيدة والتشريع ، وآيات من الوحى المهيب تملأ قلوبهم ، فينسون فى ذوبها روحهم وقلوبهم ودنياهم .. ويذيبون فى وهجها نفوسهم وأجسامهم ، فلا يحسون أمام معترك الحياة بضجر ولايلمسون من الأذى إلا مناجاة حانية تدعوهم إلى محراب الصفاء الأطهر والنقاء الأقدس ، فيغمسون الأجسام المخدوشة والنفوس المنهوشة فتهدأ جراحاتها وتسكن ..

ورائدهم رسول الله :

لقد تحرش به الكفار : آذوه ، أدموا قدميه كادوا له .. استفرغوا طاقاتهم لكامنة وحقدهم الأسود ، فأغروا به نساءهم وعبيدهم يسبونه ويقذفونه بالحجارة الدامية عبر الطريق .. فى مجيئه ومراحه ومسائه وصباحه ، فلم تنفجر فى عينه دمعة باكية أو تنبعث من قلبه زفرة شاكية .. إلا لله وحده ، فما كان ألذ عنده أن يبعثر آثار الألم ، ويغسل قلبه وجسده الداميين بدعوة تائبة وهمسة من النجوى منيبة إلى الباري سبحانه : اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى .. وقلة حيلتى وهوانى على الناس ياأكرم الأكرمين .. أنت رب المستضعفين .. وأنت ربى ؛ إلى من تكلنى . إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى .

وهكذا سار الصحابة مسار نبيهم ولهم به القدوة وحسن الأسوة

لقد رماهم الكفار بالصخر الملتهب فى القيظ ، وبالحقد الأشد التهاباً من قلوبهم ، وألقوا فوقهم الحديد المحمى فى النار .. وجروهم فى دروب مكة على الأرض فى بطحائها وشعابها فى وهج الشمس ، ولكن كان إيمانهم بالله كإيمان رسولهم – أكبر دائماً من الألم وأقوى من الإيذاء وأشد من التحمل .. والمؤمن

الصادق فى إيمانه الذائب فى حرارة دينه وأشواق عقيدته يرى فى الأذى الواقع عليه سعادة ؛ لأنه فى الله ؛ ويحس فى الألم لذة ، لأنه فى سبيل دينه ؛ ويتذوق فى الإساءات طعماً يجعله يرتفع بإحساسه فوق مستواها .. ويسمو بنفسه فوق لسع الأذى ووقع الخطوب !

ولقد هاجر الصحابة إلى الحبشة فراراً بدينهم والتماسا لأفق متسع ينشرون فى جوّه كلمة الحق ودعوة الإسلام .. لكن القرشيين هالهم أن يسمعوا للكلمة الفاهمة ، وهالهم كذلك أن يستمع غيرهم إليها أو على الأصح : لقد خافوا أن يَنْهِضَ إلى الدين نفوساً تتلقاه بالتقبل والاستحسان فى الحبشة ، فأرسلوا وراءهم رسولين منهم ومعهما هدايا للنجاشى ملك الحبشة ؛ ليوغر الرسولان صدرَ النجاشى عليهم ، فيرجعوا من حيث أتوا ، فتوصد دونهم أبواب العلاقات ، وينسد فى وجوههم طريق النمو السياسى والعقائدى ، فلا يؤمن بهم أحد ، ولايعترف بقضيتهم العالم الخارجى ، أو يسمع عن دعوتهم الإنسانية الرشيدة فيغلق أمامهم أبواب العالم الحر ، فلا تثبت دعوتهم وعقيدتهم النامية ، ولا يتأكد وجودها فوق مسرح الحياة ومنبرها الواسع المدى ، ولاتنتشر دعوتهم فى الآفاق .

أذن الله لدينه أن يجد متسعاً فى قلب النجاشى ومتنفساً لشعور غامض يخفيه .. أذن الله لدينه ، فوجد قلوباً رحيمة تمنعه من دهاء قريش ودهاتها .. فاستقرت آياته فى قلب النجاشى برداً وسلاماً ، فطرد سفيرى قريش وردّ هداياهما .. وأذعن لأمر الله ، فلقى عنده المسلمون خير منزل ، وكانوا عنده فى ملاذ آمن

طرد النجاشى سفيرى قريش مؤذناً باعترافه بهذه الدعوة .. وكان ذلك كفيلاً بأن يؤلب الكفّار على رسول الله ﷺ وصحبه من جديد .. لكن ياترى ؟ ماذا يريدون أن يفعلوا ؟ وماذا هم فاعلون وقد جربّوا صنوفاً لا حصر لها من اللؤم الماكر والخبث العنيد ؟ ماذا تقصد قريش أن تفعل وقد أشغلت ألواناً كثيرة من الاضطهاد

وشيئاً غير قليل من اللؤم والدهاء؟

لقد أكل الحقد قلوب الزعماء منهم ، وباض وأفرخ ضراوة على الإسلام ومعتنقيه ..

هداهم التفكير المضطرم بالثأر المطلول بالأحقاد أن يشعلوا حرب التجويع وسياسة الحصار الاقتصادى ، فاجتمعوا وعقدوا معاهدة على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى المطلب فلا ينكحون إليهم ولا ينكحونهم .. ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم .. وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا .. فلا يصل إليهم شىء إلا سرًّا مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش .. وشق الأمر على الرسول وعشيرته حتى كانوا يأكلون ورق الشجر .. ولكن الله سلم ، فتبعثرت وسائل الحرب فى الميدان نفسه الذى أشعلوا فيه الحرب ؛ إذ قام ثلاثة رجال من أشرافهم ، فنقضوا الصحيفة ، وكانت الأرض قد أكلتها ، ولم يبق منها إلا لفظ « الله » .

ضاعت فرصة قريش السانحة ، وخسرت معركة الحرب الاقتصادية التى هى حرب التجويع والإذلال ، وهى حرب أشد وطأة وأضرى ألماً ، وخاب سعيهم وتبخرت آمالهم العجاف على الصحيفة نفسها التى قد أثبتوها فى جوف الكعبة وفاء عهد وميثاق .. ومن قبل خسروا معركة الحرب السياسية مع النجاشى ومعارك الدعاية وتكميم الأفواه والقهر وسياسة الملاطفة والملاينة وعروض الجاه والسيادة .. فماذا تبقى فى كنانة قريش من سهام الغدر والمكر؟ . ماذا يخبئون من شر؟ وماذا يضمرون من كيد؟ ماذا وقد ذهبت كل وسائلهم هباء ، وذهبت أمانيهم أدراج الرياح؟ . ولم تزل آثار هزائمهم ماثلة تدمغهم بالخيبة والخسران . وتؤرث فى قلوبهم الحقد والأضغان والامتهان .

أخيراً وليس آخراً طاش سهمهم ...وضل صوابهم وأخطئوا التقدير فمالوا إلى سياسة الغوغائية والمنحرفين ، واتخذوا من آخر سهم لهم مرسى ظلمهم ومباءة

ظلامهم ، فعمدوا إلى الاغتيال والتصفية الجسدية وهذه ثالثة الأثافى ، ونهاية المطاف ، وآخر ما فى جعبتهم من دبلوماسية خرقاء وسياسة حمقاء ، ونوايا حاقدة . . فاجتمعوا فى دار الندوة وقرّروا قرارهم الآثم بقتل محمد ﷺ ، ليخلو لهم الجو ، وتستريح أفكارهم الثائرة الهوجاء : (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)[1]

---

(١) التوبة الآية ٣٢.

الثبات على المبدأ

وقفنا فى موضوع سابق عند تفصيل تاريخى لما حدث للرسول فى مكة ، وكيف تعرّض هو وأصحابه لألوان الاضطهاد والإيذاء من المشركين ؟ وكيف ثبت إيمانهم وربط على قلوبهم ؟

ولقائل أن يقول : مالنا ولهذه التفاصيل الطويلة العريضة التى لاتدخل أصالة فى صميم مانحن بصدده من محاولة معايشة الرسالة الإسلامية فى مراحل بنائها المظفر فى عاصمتها (الثانية) (المدينة) ؟ مالنا ولهذه القضايا المتداخلة التى تنسج صورة لحياة رسول الله فى مكة .. ونحن فى بلد النور (يثرب) الخضراء ، أو على الأقل نحاول أن نبدأ من حيث دخل أرض يثرب ؛ لنمارس فى أعماله فى معقل الإسلام الجديد فهمَنا لوجود الدولة الإسلامية وعوامل وجودها وعناصر بقائها وما أرسى بناءها من قيم أصلية وتفكير عملى .. وتخطيط منظم ومنهج مدروس قاعدى

وعقائدى ؟ ثم ما الذى حدا بنا أن ندخل فى فصول التاريخ المثيرة التى حدثت بمكة الفيحاء .. ونحن هنا فى معرض الحديث عن دواعى النمو المضطرد وأسباب التقدم المتزايد والنهضة البناءة للدعوة الإسلامية فى محيط مرساها ومستقرها الحديثين ؟

وجوابى على هذا السؤال أن كل فكرة من الأفكار التى ذكرناها آنفا ترسم عنصرا من عناصر الموضوع ، وكل حدث يشير إلى ملامح هامة .. وجوانب مضيئة فى القضية وتمس جوهرها .. وربما تلاقت هذه العوامل مجتمعة ؛ لتمثل خيوطاً مختلفة تكون فى مجموعها صورة للأجواء التى صفقت فيها أجنحة الدعوة ورفرف على أدواحها شدوها الوامض المثير .. وتكونت فيها أفراخ الفكر المسلم ، وتربت بدائيات العقيدة .. وتمثل هذه الأجواء بيئة الرسالة المقدسة من يوم أن أشرقت أضواء الحق فى حراء النور وماتلاها من طلائع الوحى المهيب ومراحل الدعوة فى سرها وجهرها ومالاقى الرسول فى سبيلها من عنت أو تحمل من مشقة وإيذاء .. ومن حوله أصحابه يفدونه بكل مرتخص وغال .. طريق مضرج بالدم إلا أنه فى سبيل الله محفوف بالمكاره إلا أنها من أجل رفعة الحق وإعلاء رايته وخفق بنوده ، وسبل مطلولة بالدموع مفروشة بالقتاد ، مفروش على جانبيها الشوك والأذى والألم .. غير أنها فى الوقت نفسه صورة كفاح ودرب نضال .. ولابد لمن يريد تمحيص الحقائق وتحديد المفاهيم وتوضيح المبادئ أن يبين السبيل، ويكشف الستار عن الماضى ليطل من شرفته على نور المستقبل وهوادى الغيب وإشراقة الغد .. وتبدو من نوافذه معالم الحياة المقبلة البعيدة المغيبة .. أو ليس لكل ذلك – دخلٌ فى الموضوع وله تأثير فى مفهوم الأوضاع التى نحن بصدد الحديث عنها وشرحها وتوضيحها ؟

لاشك أن كل ذلك أسباب وثيقة الصلة فيما نحن من أجله نحاول الحديث ..

ومادمنا قد وصلنا إلى هذه النقطة من القول يحق لنا أن نقول : إن موضوعية الموضوع والتفكير المنظم والمنهج العلمى ، كل ذلك أمور تستدعى معرفة ما كان قبل التعرف على ماسيكون .. ومن هنا كان لا بد للطبيب أن يبحث كل الجوانب التى ترشده عن المرض ، أو تضع يده على الموطن الذى يكمن فيه الداء ، أو يعطيه فكرة كاملة وواضحة عنه فى الوقت نفسه حتى يختار على ضوئها وهداها أنجح الوسائل وأضمنها للعلاج .

والوضع والواقع الاجتماعيان يقرران التعرف على البيئة التى كان فيها الإنسان لمعرفة ماقد يؤثر عليه فى مهاجره ، أو يتأثر هو به فى بيئته الجديدة .. فالإنسان عنصر اجتماعى قبل أى شىء آخر .

ولنا قبل ذلك وبعده أن نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن بدعاً من الرسل : (قل ماكنت بدعا من الرسل)[1] .

ولم تكن دعوته هى الدعوة (الوحيدة) التى وقف منها أعداؤها هذا الموقف العدائى المشين .. فقد وقف الرفاق له من قبل يرودون الناس إلى الطريق القويم ويهدونهم إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ولكنهم وقف فى طريقهم المكذبون الضالون ، وكان بين هؤلاء الرسل ومن تبعهم وبين هؤلاء الملاحدة جولات اتسمت بالصدق والإصرار : (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين.وما كان قولهم إلا أن قالوا ربَّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم

---

(١) الأحقاف الآية ٩.

الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين)[1] .

وكان هؤلاء الرسل مثار الدهشة والإعجاب والصبر ، وأولى بأس شديد وعزم أكيد ، فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل . .

بل لنا أن نقول : إن كل دعوة جادة وكل فكرة هادفة . . وكل رسول أو مصلح أو مفكر ذى مبدأ وعقيدة . وقف منه ومن دعوته ودون رأيه وفكرته رهط الشرك والوثنية ودعاة الإلحاد والإباحية : يدعو فيعرضون . . ويبلغ رسالة ربه فيتربصون به الدوائر وينهض بقومه فيكون الازورار والإعنات ! وينصح لهم فيكون التربص والترصد والوثوب ، ويجمع المؤمنين بفكرته حوله فينهضون إليهم ينفضونهم عنه ويقصونهم عن دعوته . . فإن رأوا فيهم إيماناً بالدعوة وإخلاصاً للفكرة أو لمسوا منهم ثباتاً على عقيدتهم ووقوفاً بجانب الحق وإصراراً على نصرته بدءوا معه سلسلة الخشونة والاعتداء والتآمر والإيذاء ،وفرشوا طريقهم وطريقه بالزجاج والأشواك ، وضرجوه بالدموع والقتاد والدم والاضطهاد ، والأصالة وحدها هى الكفيلة بتثبيت أركان هذه الدعوة وتدعيم كيان ذلك الداعية فى قلوب الناس : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض)[2].

كل أمة ناشئة وكل دولة نامية يصب المعتدون عليها وابل الأحقاد ، ويرمون فوقها أتون الغضب ، وترتمى فوقها الحمم واللعنات .. وأول ماتحاول النهوض بمقدراتها وتحمل مسئولياتها واشتمام أنفاس حريتها وكسر قيود التبعية .. من أول يوم تصحو فيه لتعانق بشائر الشمس وتحضن أضواء الفجر وترتفع راية الحق والإشراق .. ومن أول يوم يقوم رائد من روادها مطالباً بالحرية والعيش الكريم له

---

(١) آل عمران الآيات ١٤٦ – ١٤٨.

(٢) الرعد الآية ١٧.

ولشعبه المستكين وأمته المستذلة – من أول يوم يقف منه ومن دعوته أفاقوا الشعوب وممتصو خيراتها ومغتصبو ثمارها وجناها ، يقفون منه موقف الحاقد المستريب والغاصب الغضوب ، ويشعلون حوله النار من جميع المنافذ ، ويضيقون عليه الخناق من كل الجوانب ويبدءون معه سلسلة من حروب مختلفة تتدرج فى سلم الأحداث تبعا لتدرج الداعية وتفوقه فى الدعوة وفنائه فيها .. وتشتعل تلك الحروب ضراوة حتى تتلاقى جميعاً لتمثل غلاً ضخماً يكتم أنفاسه ، ويغل قضيته ، ويخنق صوته وقد يحدد مصير دعوته ومصيره أو يئدهما !

وربما كان للأعداء خبث ماكر وخبرة لئيمة ، وقد تكون لديهم قدرات وإمكانات ، فتكون الخشونة أقسى والعداء أنكى والخصومة أشد .. وقد ينتهج العدو فى ذلك نهجا يختلف اختلافا يسيرا عما اتبع مع سيّد الخلق عليه الصلاة والسلام من تحرشات ومضايقات إلا أن الأعمال والنتيجة غالباً ماتكون واحدة وإن اختلفت التعابير والأساليب .

وأول مايجرب العدو من ألوان العداء حرب الدعاية ؛ كما فعلت قريش مع رسول الله فى موسم الحج باعتبار أن الدعاية تحمل الرأى وتدافع عن الكيان .. فلا يؤيدونه فى الرأى أو يعترفون بدولته فى المجال الدولى أو المنابر العالمية .. وربما اتخذوا من وسائل الإعلام دعايات مغرضة تثير من حوله السموم ، وتذيع من حوله الأباطيل وتلفق التهم والشائعات ، ثم يجربون سياسة الإغراء واشتراء الذمم إن كان ممن يعشقون المال والجاه أو يستهويه بريق الشرف والسيادة ..

أما إذا أصر المناضل وثبت الداعية فى موقف المساومات والملاطفة ، ولف هذه العروض كتلة جامدة ضرب بها وجوههم ، وأثبت أنه فوق مستوى السفاسف – فقد انتقلوا إلى سياسة القمع والتهديد فصبوا جام غضبهم عليه وعلى أتباعه وذوى قرابته وكلما ازداد إصراراً ازدادوا إضراراً والتجئوا إلى سياسة المعاهدات الاقتصادية

والأحلاف العدوانية وحرب التجويع أو كما يسميها البعض الحصار الاقتصادى ؛ ليشنقوا دعوته فوق أعواد الطمع والجشع والحقد والغرور ، ويخنقوا صوته المدوى فى أفق العالم بالكلمة الهادئة والحق الواعى الهداف .. فالحرب الاقتصادية فيما تعرف الإنسانية أشد الحروب ضراوة وأقساها بأساً وأشد تنكيلاً ..

وتأتى بعد ذلك مرحلة غوغائية ملعونة ، مرحلة تحجر العاطفة واحتقان الجو بالكراهية والأضغان ، فيكون الاغتيال ومؤامرات القتل وسفك الدماء وانتهاج شريعة الغاب فى التصفية الجسدية .

تيارات من الصراع العنيف وسحائب غائمة من الظلام والظلم ، وألوان من العناد اللئيم الماكر الخبيث .. وبالصمود أمام كل هذه المحاولات وبالإصرار والثبات — تنكسر أطماعهم فوق صخرته الصلبة ، وتتفتت أحلامهم على صلد إصراره الرائع وثباته العظيم .

اتفقت قريش على اغتيال رسول الله فى مؤامرتها العدوانية فى دار الندوة ، ولم يكن لرسول الله إزاء هذه المؤامرة الغادرة إلا الله يرعاه ويعصمه ، (والله يعصمك من الناس) . فماذا يفعل محمد وليس له بهم طاقة ؟ وماذا يعمل والموقف عسير ، وكيف يكون الخلاص وماله بهم من سبيل ؟

أخبره الله سبحانه وتعالى بما أضمروا من غدر وما دبروا من مكيدة ، وماقرروا فى مؤتمرهم الباغى من تآمر على حياته واتفاق على اغتياله .. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .. أخبره الله بما صمموا على تنفيذه وما استقروا عليه ، وأوحى إليه بالهجرة متخفياً تحت جنح الليل وأستار الظلام .

الهجرة بين الحبشة والمدينة

الهجرة بين الحبشة والمدينة المنورة هى عنوان هذا البحث ، وهى موضوع له قيمته وهو جدير بالبحث والدراسة .. وقد يبدو للوهلة الأولى أنه لا أهمية له فى بنائية الأحداث ونموّها وأصالتها ، ولكنه من العمق والموضوعية بحيث يمكننا القول فى غير غرور ولا ادعاء : إنه كان يتوقف عليه أمر هذا الدين ومستقبله وحقيقته . . ولابد أن الرسول راوده هذا التساؤل وعايشه وعمقه بحثاً بفكره وعقله وقلبه . وقارن واستقصى الأسباب واتخذ قراره بالهجرة إلى المدينة وهو مدرك تماماً لغاية الهجرة وأهدافها .

ذلك لأن الهجرة لاتراد لذاتها .. على معنى أنه لايمكن أن يتصور أحد أن إنسانا كائناً من كان يريد أن يهاجر أو يخطر بباله أمر الهجرة .. أو يجعله يخطر بباله مجرد خطور على البال من مكان إلى مكان تاركاً أهله ومريديه وأصدقاءه ومحبيه

وبلده وذكرياته وعمره الماضى والآنىّ لمجرد أنه يريد الهجرة ؛ إذ إن لكل هجْرة هدفاً ، وبقدر هدف الهجرة وغايتها من التسامى والنيل من عدمها يمكن أن يحكم على الهجرة وعلى المهاجر فى الوقت نفسه بعد النظر إلى ماتفيأ من غايات أو حقق من أهداف .

وقد تكون الغاية نشدان آفاق من الحرية أرحب .. وقد يكون الالتجاء إلى مكان بعيد فيه الرزق أكثر وأوسع .. وقد تكون الهجرة نوعاً من تحليق النسور ؛ كما يراها إيليا أبو ماضى فى تعليل هجرته إلى أمريكا .

والرسول ﷺ لم يكن ينشد الهجرة إلا لغاية سامية ، ولم يكن يهدف إليها إلا من أجل الحرص على الدين الإسلامى فى أن يكسب موقع انطلاق ووثوب جديد .. بعد أن بحث موقف الإسلام فى مكة ثلاث غشرة سنة ولم ير من المكيين تفاعلاً معه ولا إقبالاً شديداً عليه ، بل على العكس من ذلك رأى تعصبهم عليه .. وكتمهم أنفاسه والتصدى له ولأتباعه .. حتى لايكسب موقعاً ولا يحرز أنصاراً .. لأنهم رأوا فيه خطراً هائلاً على مصالحهم وكياناتهم .. فوقفوا يصدون عنه ، ويؤذون أتباعه ما وسعهم إلى ذلك الإيذاء ؛ حتى عرض الرسول على أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة التجاء إلى مأمن وفراراً من الأذى وخوفاً من فتنة .. ولكنه لم ير ولم يشأ أن يهاجر معهم إلى الحبشة .. وبقى ينافح الشرك ويكافحه ، ويعرض نفسه على القبائل ؛ حتى قيّض الله له الأنصار فى المدينة ، فآمنوا وبايعوا الرسول على العزّة والمنعة لو أنه هاجر إليهم .. وعلم المكيون فكثّفوا من عذابهم .. وزادت من حمقهم وطمعهم أكثر وأكثر وفاة وزوجه . وسنقف مع الرسول فى أقواله وأعماله ، لنتبين : لماذا لم يهاجر إلى الحبشة؟ ولماذا وآثر الهجرة إلى المدينة؟ وما أجمل أن نستعرض قول الرسول عليه الصلاة والسلام عندما عرض على المسلمين الهجرة إلى الحبشة وقوله عليه السلام عندما أذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ، ثم ندرس الحبشة

ومكة والمدينة دراسة جغرافية وإستراتيجية لنعرف الإجابة على هذا التساؤل الخطير.

توجيه وتوجيه :

عندما أذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة قال لهم : «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لايظلم عنده أحد .. وهى أرض صدق .. حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه».

يقول ابن هشام معقباً على قول الرسول هذا بقوله : فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الإسلام»[1] .

وعندما أذن لهم بالهجرة إلى المدينة المنورة قال لهم :

(إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا وداراً تأمنون بها)[2]

ويمكننا من خلال معايشة صادقة للتوجيهين أن نقارن بين موقفين للرسول ﷺ وأن نتبين الفروق الهائلة بين موقع الهجرتين من الدعوة الإسلامية ومن نفس الرسول المتألمة وتخطيطه لمستقبل الدولة والدعوة الإسلامية :

فالتعبير «بلو خرجتم إلى أرض الحبشة» لايصدر إلا عن نفس متألمة ضائقة بالوضع حزينة على ماوصلت إليه الأمور .. وإذا عرفنا أن الرسول كان يكره التعبير «بلو» وينهى عنه ، لأنها تفتح عمل الشيطان – فإن التعبير بلو بما تفيده يعطينا أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما أذن لهم كان إلى جانب تألمه لم يكن يرى أن الحبشة موطن إقامة أو دار هجرة أصلح .. ولكنه رآها دار التجاء ربما تكون أحوالهم فيها أحسن من أحوالهم الراهنة فى مكة .. ولهذا أذن لهم فى الهجرة إليها خوفاً من الفتنة

---

(١) و (٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٠ وجـ ٢ ص ٨٠ .

وتوقعاً للفرج وخروجاً من الأزمة .. وتلمساً للأمل وفراراً بالدين وجاء إذنه على صيغة الإباحة لمن يريد دون أن يأمرهم .. أذن لهم أن يهاجروا حتى يحدث الله أمراً كان مفعولاً .

وكان جاه ملك الحبشة وما عرف عنه من حماية للغريب هما المأمن الذى طمع فيه الرسول وركن إليه المسلمون .. لأن الرسول قال : إن بها ملكاً لايظلم عنده أحد .. ولم ير الرسول شيئاً فوق هذا .. ولم يطمع فى غيره ، ولم يخطر على باله أن الحبشة أصلح من مكة من ناحية الدعوة ومستقبلها ؛ وإنما من حيث خوف الفتنة – وقد فتن بعضهم – ومن حيث الأمن وقد بعثت إليهم قريش من يستردهم .

أما التوجيه الآخر فنلمس الثقة والتفاؤل والأمل فى المستقبل فى كلام الرسول والأمن هنا جعله الرسول فى الإخوان الذين عاهدوه على النصرة والحماية والعزة والمنعة والتكافل الذى أشار الرسول إليه عندما قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم .. وأنا كفيل على قومى يعنى المسلمين .. قالوا نعم[1] بما تدل عليه الكفالة فى قمة ما عرف عنها وهى كفالة الحواريين لعيسى ابن مريم فى دار الأمن التى يأمنون بها .. وقد حمل هذا كله تأكيداً فى الكلام ،واسمية الجملة و « قد » وتقديم الجار والمجرور « إن الله قد جعل لكم إخوانا وداراً تأمنون بها » والتأكيد بأن واسمية الجملة قمة الثقة .

ومن هنا كانت النظرتان مختلفتين .. والتوجيهان مختلفين أيضاً وكانت الهجرتان مختلفتين تمام الاختلاف فى الغاية والهدف والاتجاه والأمل وفى الإنجاز والمستقبل والمصير .

أما لماذا لم يهاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الحبشة مع أنه هو الذى وجه

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٦ .

أصحابه إلى ذلك ودعاهم إليه بعد أن اشتد البلاء بهم, فذلك ناتج عن وجهة نظر بعيدة جداً وسديدة جداً : فالرسول كان فى منعة من قريش وهو فى حماية عمه أبى طالب الذى أقسم له أنهم لن يصلوا إليه بجمعهم وفى حماية زوجه ورعايتها ، أما أصحابه ، أما المسلمون المستضعفون فالأمر غير ذلك تماماً .

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يرى الهدف الأساسى من الهجرة مجرد الالتجاء من الظلم إلى مأمن .. ولو كان هدفه ذلك لكان من المحتمل أن يهاجر مع أصحابه .. ولكنه لم يفعل وظل فى مكة يتحمل الأذى والاضطهاد ، ويعرض نفسه على القبائل وفى موسم الحج حتى استجاب الأوس والخزرج فى بيعتى العقبة .. فكانت هجرته إلى المدينة ، وهى هجرة داخلية فى الجزيرة العربية .

والحبشة مع وقوعها فى شرقىّ أفريقية وقربها من مهد الإسلام وغناها النسبى لم تكن فى عصورها التاريخية منطقة انطلاق فى أفريقية ؛ وإنما كانت فى الغالب منطقة انزواء وعزلة .

ويذكر سير وليام موير معلقاً على عدم هجرة الرسول إلى الحبشة قائلاً : لو لم يتوافر للإسلام مهجر فى المدينة فربما هاجر النبى إلى الحبشة .. وهنا كان من المنتظر أن ينزوى الإسلام ويتحول إلى مذهب مسيحى قصير العمر مآله الانقراض »(1)

لقد استعرض الرسول الموقف من كل جوانبه ، وعمقه بحثاً وفرض جملة من الافتراضات سأل نفسه : مامصير الدين العربى فى بيئة غير عربية ؟ هل سينمو أو تتواطأ عليه الإمبراطورية الرومانية فى الحبشة ؟ من سيقبل على حفظ القرآن العربى من قوم لسانهم غير عربى ؟ ما عدد هؤلاء الحفظة مع تباين اللغات واختلافها ؟ ثم هل يمكن أن تكون الحبشة وهى مناطق عزلتها الأنهار ومزقتها إلى مجتمعات منعزلة –

---

(١) قيام الإسلام د . عبد العزيز كامل دراسة فى الجغرافية التاريخية مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية ٦٠/ ١٩٦١.

هل يمكن أن تكون قاعدة وأساساً للتماسك ؟ وكيف ينظر العرب فى جزيرتهم إلى الإسلام عند عودتهم إلى مهده الأول ؟ وهل من السهل عليهم أن يقبلوه والطبيعة العربية لها مزاجها الخاص .. وحريتها التى ألفتها طول حياتها جعلتها تأنف من كل ماهو دخيل عليها أو أجنبى عنها ؟

لهذا لم يهاجر الرسول من مهد الإسلام إلى منطقة الالتجاء التى لاتصلح أن تكون منطقة انطلاق .. وذلك لأن الرسول أدرك جيداً أن الانطلاق الحقيقى للإسلام يكون من الجزيرة العربية أو بالأحرى من مكة قلبها النابض ؛ لأن مكة حباها الله من الميزات مالم يحبه غيرها ، فكانت إلى كونها قلب الجزيرة العربية لم تخضع للنفوذ السياسى الأجنبى .. إلى جانب سهولة التنقل وبعدها عن أطماع الطامعين ، والأمن الذى هيأته لها رحلتا الشتاء والصيف .. وكانت على علم ووعى بالسياسة العامة والعلاقات .

لهذا آثر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبقى بها ؛ ليتابع نمو الإسلام فى مهده الأول ، وينزل القرآن عربيًّا بلغة العرب وبلسانهم ، فيكون إعجازاً يزوعهم فتحدث المعجزة .. ولهذا بقى فى هذه البيئة العربية ؛ لتكون ولتظل قاعدة انطلاق للإسلام .

والذى لاشك فيه أن بقاء الرسول فى مكة ثلاث عشرة سنة دون تحقيق تفاعل كبير نحو إيمان العرب فى مكة وانعطافهم نحوه جعله يفكر فى نقطة انطلاق أخرى على أن تكون محصورة فى دائرة الجزيرة العربية وتكون عمقاً إستراتيجيا للدعوة .. وقد حدث أن فتح الله قلوب الأوس والخزرج للإسلام .. وقويت شوكة المسلمين .. وبايعه الأنصار البيعة الأولى وتسمى بيعة النساء .. ثم البيعة (الثانية) التى بايعوا الرسول فيها على أن يمنعوه من كل مايمنعون منه نساءهم وأبناءهم .. وقد حضر العباس عم النبى ﷺ هذه البيعة وكان لايزال على دين قومه .. إلا أنه

أحب أن يستوثق لابن أخيه فقال لهم : «يامعشر الخزرج .. إن محمداً منا حيث علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه .. فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده .. وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحاق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وماتحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ؛ فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده ؛ فقالوا قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله فتلا القرآن .. ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم قال : «أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»[1] فعاهدوه ووثق أن يمنعوه وينصروه .

أذن رسول الله للمسلمين بالهجرة إلى المدينة . . فبادر الناس إلى ذلك وخرجوا أرسالاً متتابعين ، ولم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله وأبو بكر وعلىّ أقاما بأمره الشريف . . وإلا من احتبسه المشركون كرهاً . . وخافت قريش خروج الرسول ولحاقه بهم فيشتد عليهم أمره فاجتمعوا فى دار الندوة ، ودبروا أمر قتله وقد أعد الرسول جهازه انتظاراً للإذن بالهجرة . . وأعد أبو بكر جهازه للإذن بالهجرة إلى المدينة . . وكان كلما استأذن الرسول استمهله قائلاً : يا أبا بكر ، لعل الله متخذ لك صاحباً .

ومن هنا نجد الرسول يفرق بين هجرة الإيواء والالتجاء إلى الحبشة ، وبين الهجرة إلى المدينة التى هى هجرة انطلاق .. ورضى لأصحابه وأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة أمناً لهم وحماية من الظلم ولمعتقداتهم من الفتنة .

كانت الهجرة عربية لم يترك فيها الرسول الجزيرة العربية إلى بيئة أخرى كما فعل

---

(١) سيرة ابن هاشم جـ ٢ ص ٦٣ ، ٦٤ .

أصحابه حين أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة ؛ لأن مكة كانت لها كل مقوماتها الطبيعية والبشرية التى أهلتها لزعامة العرب وفيها نشأ الإسلام .. ولكنها لم تكن الموطن الذى تقبل الإسلام فى سماحة ويسر ، مما دعا النبى أصحابه إلى الهجرة منها ، وكانت حرماً آمناً ، ولهذا لم تكن بحاجة إلى تخطيط على أساس دفاعى ، وقد كانت وحدة القبيلة أساس التشدد فى الدين .. وقد رأت فى الدين الجديد تهديداً خطيراً يهدد وضعها الدينى ومنزلتها الاقتصادية ووحدتها الاجتماعية ، ورأت فيه ثورة كاملة على النظام المستقر الذى تنعم به ..

وكانت المدينة وهى على محور الواحات تمتد من اليمن إلى الشام إلا أن هناك فروقاً واسعة طبيعية وبشرية بينهما : فاقتصاد مكة كان دينيًّا تجاريًّا فاجتمع رأيها وتوحدت كلمتها على هدف الدين والتجارة ، وكان اقتصاد المدينة زراعيًّا .. لكن التكوين البشرى أعدها عقليًّا لقبول الإسلام .. وإن لم يعدها لتكون على رأى واحد .

والإجابة على السؤال (الثانى) وهو متى وكيف فكر الرسول فى الهجرة إلى المدينة ، الإجابة تتصل بمعرفة الرسول العميقة بتكوين المدينة البشرى والزراعى .. والأرض والإنسان هما العنصران الرئيسيان الضروريان فى أية دراسة .

لقد استفاد سكانها من مواردها المائية وجودة تربتها ، فجعلوها واحة زراعية تشتهر بالنخيل والبساتين .. ولم تكن المدينة قبل دخول الإسلام تتمتع بأنها حرم الله .. ولهذا كانت لابد أن تفكر فى حماية نفسها .. فخططت مبانيها على أسس دفاعية وانتشرت فيها القلاع والحصون والآطام .

والتكوين القبلى للمدينة قبل الإسلام يختلف عنه فى مكة .. فقد سكنتها قبائل من اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة .. وقد سيطروا وسادوا أول الأمر .. ولكن عندما هاجر عرب الجنوب بعد تحطيم سد مأرب واتجه الأوس

والخزرج شمالاً واستقروا فى المدينة وقامت بينهم وبين اليهود حروب ساد الأوس والخزرج فيها . ولم يكن التماسك والتضامن الاجتماعى سائداً فى المدينة .. فقد كانت الحروب والتوعد بين الأوس والخزرج من جهة وبين اليهود من جهة أخرى ، وبين الأوس وبين الخزرج حروب وقتال .. حاول بعض المغرضين إشعالها حتى بعد قدوم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأطفأها الرسول قائلاً : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ ولهذا كان لكل قسم من أقسام المدينة منازله وحصونه ومع ثرائهم العظيم – لم تتوحد كلمتهم ، واستنزفت الحروب كل مواردهم الاقتصادية .

أما الناحية الدينية فاليهود أهل كتاب ، وكانوا يتوعدون ببعثة نبى قد قرب زمانه يقتلونهم معه قتل عاد وإرم .

وكانت الأوس والخزرج من عرب الجنوب الذين يدينون لقريش بالزعامة .. إلا أن موقعهم فى المدينة أعطاهم نوعاً من التحرر العقلى وحرية أوسع فى تحديد موقفهم من اختيار الإسلام .. وقد أثار فى نفوسهم ماسمعوه من اليهود عن بعث الرسول الذى يتواعدونهم بقتلهم معه.. وكانوا يحجون البيت بمكة .. فلما سمعوا عن الرسول وعن سماحة دعوته آثروا أن يسبقوا اليهود إليه .. وكان الخزرج أسبق من الأوس إلى الإسلام .. وكانت البيعة الأولى فى العقبة كلها من الخزرج .. وحضر بعد ذلك نفر من الأوس والخزرج حتى كانت البيعة (الثانية) فى العام الثالث .. وهى البيعة التى أشرنا إليها سابقاً والتى تحددت فيها شروط الهجرة .. وتحدد هدفها .. واستوثق العباس للرسول .. وأذن الرسول للمسلمين بالهجرة إلى المدينة فى العام التالى ، فهاجروا جميعاً .. حتى لم يبق إلا من منعه قومه وإلا الرسول ﷺ وأبو بكر وعلى استبقاهما الرسول معه .

فالرسول كان على وعى تام بكل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسكانية والدينية لأهل المدينة ، وكان يعرف حجم التكوين البشرى وقيمته ، واستفاد من

حجم الخلافات التي كانت بين كل فريق والآخر أو خدمته هذه الخلافات .. وكان على علم أيضاً بنظم الدفاع ومبرراته ، فقارن بين هذه الأوضاع فى المدينة ومثيلاتها فى مكة .. ورأى أن بقاءه فى مكة لايفيد الدعوة فقرر الانطلاق إلى المدينة ، لتكون ركيزة ودعامة قوية من دعائم الإسلام ونقطة وثوب أصيلة .. استقر رأيه على الهجرة وأخذ شروطه لها ، ووثق من نصرة الأنصار له ، فتحدد هدف الهجرة ، وبقى أن يتحدد وقتها .

لقد فكر الرسول ﷺ فى أن يتخذ مكاناً آخر للدعوة .. ونقطة أخرى غير مكة بعد أن تحقق له تعذر وتعسر ما تمناه فيها .. ولقد كانت مكة بأوضاعها لاتشجع على بقاء الدعوة فيها .. أو على إيثار البقاء فيها .

ولقد أراد الرسول ﷺ أن يكوّن قوة للمسلمين تدافع عنهم وتحميهم .. وتصدُّ كلَّ عدوان وظلم .. وأن يقيم دولة للإسلام لها كل ملامح وأسس الدول .. ولها مميزاتها الخاصة وخواصها .. ولم تكن هذه الملامح وتلك الأسس بمستطاع تحقيقها فى مكة .. ولا بمستطاع تحقيقها فى الحبشة من باب أولى .

ومن هنا كانت الهجرة إلى الحبشة هجرة التجاء فقط .. لم يرض الرسول بها .. ولم يكن بالطبع من اللائق ولا من الجائز للمسئول عن الدعوة أن يهاجر إلى الحبشة .. وقد وثق أنها لاتصلح نقطة وثوب .. وليس فى هجرته إليها مايفيد الدعوة ولا الدولة اللتين يهدف إليهما .

ومن هنا قرر ﷺ أن يبقى فى مكة ريثما تهيئ له الظروف مكاناً أحسن ومنطلقاً أفضل .. ولقد هيأ الله له قلوب الأنصار ، وفتح بقبولهم فتحاً جديداً لفكرة الدولة لدى الرسول العظيم .. ولهذا فكر فى الهجرة وأمر أصحابه بالهجرة الجماعية إليها إيذاناً ببدء عهد للدعوة وللدولة جديد .

من دروس الهجرة

الإعداد .. والكتمان

بسم الله الرحمن الرحيم

(إلاَّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم) صدق الله العظيم

الآية ٤٠ من سورة التوبة

نعنى بالإعداد مرحلة التهيؤ للعمل قبل الإقدام عليه والتخطيط له والتبصير الرشيد الواعى بكل دقائقه وتفصيلاته .. والتدبير المحكم لتنفيذها .. والاحتياط بالخطط البديلة .. وأن يكون هناك تصور محدد عن الأهداف والغايات القريبة

والبعيدة والعمل الدقيق المنظم لتحقيقها ومواجهة المشكلات التى تجدّ فى سرعة ونفاذ والعمل على حلها بأنجح السبل والوسائل .

ونعنى بالكتمان إخفاء الخطط والتدابير .. وأن يكون هناك تكتم وستر وصيانة وحياطة شديدة .. واعتبار ذلك أهم ضمانات النجاح والظفر .

ولاتخفى مكانة التخطيط اليوم وموقعه من الموكب الحضارى لدول العالم تستوى فى ذلك الدول الغنية والنامية .. وهو أوجب مايكون للدول النامية المتطلعة نحو مستقبل مشرق سعيد .. وقد أصبح الإعداد الجيّد للخطط أهم أدوات التطور وأقرب الوسائل للنماء والحياة الرغيدة .. وصارت حياة الغد -فى كل ألوانها وصورها رهناً بخطط اليوم .. فكانت هناك خطط مرحلية لكل الأجهزة والمشروعات فى الدولة مؤقتة بزمن معين وبرامج محددة .

وقد أصبحت وزارات التخطيط وزارات المستقبل .. وأصبح الرخاء والانتعاش مقرونين بما تحققه سياساتها وبرامجها وتقاريرها وقراراتها وتوصياتها .. ويتوقف نجاح المشروعات أو فشلها على نجاح التخطيط لها وبرامجه وسياسته أو فشله .. بقدر ماصار الاحتياط فى تكتم المعلومات المتعلقة بخطط الدولة وتطلعاتها أمراً واجب الرعاية والصيانة إلى حد بعيد جداً .

وصارت قدرة كل دولة وسبقها رهناً بمعرفة مالدى الدولة الأخرى المنافسة من قدرات وبرامج ومعلومات ومعدات ومدى ما أحرزت من نجاحات .. وكانت هناك معاهد للبحث عن تلك القدرات واختباراتها بمختلف الوسائل الممكنة وعلى أوسع مدى .. واستخدمت التقنية ووسائلها المتقدمة فى هذا المجال الحيوى .. وكانت هناك بنوك للمعلومات ومعاهد متخصصة للتخطيط والدراسات والإستراتيجيات والتمويه وإخفاء الخطط .. وكانت هناك فى الوقت نفسه شبكات التجسس وأجهزة التصنت والتجنيد لها بمختلف الإمكانات .

يحدث هذا الآن فى العصر الحديث . . وما أجمل بنا لو عدنا إلى عبق تاريخنا الخالد المعطاء لنرى كيف خطط الرسول للهجرة ؟ وكيف حسب لكل أمر حسابه بدقة متناهية ؟ وكيف تكتم معلوماته من أن تتسرّب إلى أجهزة التصنت لدى المشركين فيكون الوبال والخسران ؟

ويهمنا بعد استقراء لكل جوانب الهجرة أن نبيّن أن الهجرة انتظمت مرحلتين :

أولاً : مرحلة الإعداد والتخطيط.

آخراً : مرحلة التنفيذ

وقد شملت مرحلة الإعداد دراسات تفصيلية دقيقة حول مداخل مكة وغار ثور والطرق التى بين مكة والمدينة وشعابها ومساربها ومسالكها ومائها . . إلخ ، كما شملت التجهيز للهجرة بكل أشكاله وصوره من رفيق وزاد وراحلة وخادم ودليل وأخبار .. وخليفة للرسول ﷺ ينام مكانه .

وشملت مرحلة التنفيذ كل ماسبق فى مرحلة الإعداد مضافاً إليها النفاذ البصير والدقة المتناهية وسنتعرض بالتفصيل لكل هذه المراحل وتلك الجوانب الخصبة إن شاء الله .

مرحلة الإعداد

تمهيد :

كان خوف مكة على سيادتها ومنزلتها الاقتصادية وزعامتها الدينية للعرب ووحدة كلمتها وتماسكها الاجتماعى ماجعلها تنظر إلى الدين الجديد على أنه ثورة هائلة خطيرة على مصالحها .. وقد تصدت له بكل الوسائل .. ومنعت العقول والقلوب أن تهوى إليه .. وبذرت فى طريقه الأشواك والعراقيل .. ولكن ذلك لم يمنع الرسول أن يدعو وأن يعرض نفسه على القبائل غير آبه بما فعلوا ويفعلون ! وقد

أذن لأصحابه بالهجرة للحبشة التجاء إلى أمن .. ولم يشأ أن يهاجر ؛ لأنه رأى أن هجرته لاتفيد الدين ولاتنميه .. وعندما أذن الله أن تتفتح قلوب الأنصار له وتشرق بنوره فكّر وقدّر واستبشر خيراً .. وعندما بايعوه البيعتين كانت البيعة (الثانية) بداية عظيمة لمرحلة جديدة من مراحل نمو الإسلام وازدهاره .. ولقد قرر الرسول أن يهاجر إلى المدينة .. وهو لم يهاجر إليها إلا لغاية سامية هى أن تكون المدينة نقطة انطلاق جديد للإسلام .

كانت قريش تتبع أخبار الرسول . وقد حوّلها خوفها على مصالحها إلى جهاز كبير لمراقبة خطواته وحركاته وسكناته وتعد عليه خفقاته .. وتحسب لمقابلاته ألف حساب وحساب .. وقد علمت ببيعة العقبة (الثانية) التى قوت من أزر الدعوة وثبتت من أركانها ، لأن قريشاً تعلم قوة الأنصار .. لكن كيف علمت بأمرها ؟ لقد كان العباس عم النبى حاضراً عقدها وشروطها .. وكان يستوثق للرسول ، وكان على علم بهجرة الرسول المزمعة .. وأستبعد أن يكون العباس أخبر قريشاً لأن التماسك القبلى هو الذى دفع العباس – وقد كان لايزال على دين قومه – إلى أن يستوثق لابن أخيه[1] وللسبب نفسه يستحيل أن يكون علم قريش بالبيعة عن طريقه .. وفى كتب السيرة مايفيد أن شيطاناً صرخ فى أهل مكة بعد البيعة قائلاً : يأهل (الجباجب) المنازل ، هل لكم فى مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم ؟ ويذكر ابن هشام أن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر اسم هذا الشيطان .. وأنه أقسم ليتفرغن له .

وسواء أعلمت قريش بوسائلها الخاصة استجابة لما ذكرنا سابقاً أم علمت عن أى طريق فإن هذه البيعة أصابتها بسعار شديد حجب ضوء العقل وهدايته .. وحوّلها إلى ثورة هائجة من الانفعال العاصف والغضب العصيب .. وكان غضبها

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٧ وزاد المعاد لابن القيم جـ ٢ ص ٥١ مع اختلاف يسير

على الأنصار عنيفاً لأنها اعتبرت هذه البيعة مبايعة على حربها ، كما جاء على لسان الشيطان ، وكما جاء على لسانهم فيما سيجيء .

وقد ذهب بعض زعماء مكة إلى الانصار يجادلونهم ويستوثقون مما حدث وقالوا لهم : يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا .. وإنه والله مامن حيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .. فانبعث من هناك من مشركى الأنصار يحلفون بالله ماكان من هذا شيء وماعلمناه .. وصدقوا ، فلم يكونوا يعلمونه .

وروى ابن إسحق أنهم أتوا عبد الله بن سلول فقال لهم : إن هذا الأمر جسيم .. ماكان لقومى ليتفوتوا علىّ [1] بمثل هذا وما علمته كان فانصرفوا عنه .

ولما دققوا فى الخبر ووجدوه صحيحاً خرجوا فى طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيباً : فأما المنذر فأعجز القوم وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رجله ، وجعلوا يضربونه ويجرونه من شعره حتى أدخلوه مكة .. وعذّبوه وأهانوه ولم يخلصه إلا جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل أو مطعم بن عدى والحَرِث أو الحارث بن أمية ؛ لأنه كان يجيرهما ويجير تجارتهما بالمدينة [2] وقد بقى فى نفس سعد بن عبادة من هذا الأمر شيء ، وقد ظهر ذلك عند فتح مكة لما ولاه الرسول أمر الفرقة التى ستدخل من (كداى) .

قال ابن إسحق : فزعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وجه داخلاً قال : اليوم يوم الملحمة .. اليوم تستحل الحرمة .. فسمعها رجل من المهاجرين — لعله عمر بن الخطاب — فقال يارسول الله ، اسمع ماقال سعد بن عبادة مانأمن أن يكون

---

(١) فى زاد المعاد ليفتاتوا .. ولو كنت بيثرب ما صنع قولى هذا حتى يؤامرونى جـ ٢ ص ٥١.

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥١ ، ٥٢ وابن هشام جـ ٢ ص ٦٨ ، ٦٩ .

له فى قريش صولة ، .. فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب : أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها[1].

كان ما كان من أمر قريش من الأنصار بعد علمها ببيعة العقبة (الثانية) والتى اعتبروها مبايعة على الحرب .. وتأكد لديهم أن الرسول مهاجر إليهم ، لأنهم قالوا للأنصار كما سبق : إنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا .. وكانوا يخشون أمر الأنصار لأنهم أهل قوة وحرب .. وهم يخشون أن تقوم الحرب بينهم وبين الأنصار .. وزاد من غضب أهل مكة رؤيتهم المسلمين وهم يخرجون أرسالاً (جماعات) جماعة وراء جماعة مبادرين بالهجرة إلى المدينة ، ولم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلىٌّ أقاما بأمره ، وإلا من احتبسه المشركون كرهاً ، وقد أعد رسول الله جهازه ينتظر ، وأقام بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة كما أعد أبو بكر جهازه أيضاً[2] .

مداخل مكة :

قام الرسول بدراسات مستفيضة حول مكة ، وكان على علم بها وبما حولها لأنها بلده وقد أفاد ذلك فى إعداده للهجرة والتخطيط لها .

ولمكة ثلاثة مداخل رئيسية : طريق الغرب وطريق المعلاة الشمالى وطريق المسفلة الجنوبية ، والطريقان الأول والثانى أقرب إلى المدينة من الطريق الثالث ، ولهذا اتجهت نية الكفار إلى البحث عن الرسول فى الأجزاء الشمالية والغربية من مكة ، لأنها هى المؤدية إلى المدينة ، ولم تفكر فى أن يسلك الرسول طريق اليمن على

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٣٦.

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٢ وابن هشام جـ٢ ص ٨٠.

حين أن هدفه المدينة .

ولقد اتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام طريق المسفلة الجنوبية : أى أنه اتجه جنوباً ليخلف ظنهم ، ثم يتابع بعد ذلك سيره شمالاً ، فكانت خطته تستهدف التمويه على العدو وقلب خططه ، وذلك لايكون إلا عن علم ومعرفة ودراسة مسبقة .

الطرق بين مكة والمدينة :

هناك طريقان موصلان بين مكة والمدينة .. وهذان الطريقان معلومان لأهل مكة :

أحدهما طريق الساحل الذى يسير فى تهامة ، ويمر بالجحفة فرابغ حتى (ينبع) موازيًا البحر الأحمر وعند (ينبع) يأخذ طريقه إلى المدينة .. ويعتمد من يسلكه على مياه الآبار التى فى بطون الأودية المنحدرة من الحافة الغربية لجبال الحجاز نحو البحر الأحمر .. وهو طريق قديم معروف ومطروق ، ولقد كانت تسلكه قوافل قريش إذا أرادت أن تتجنب المرور فى المدينة .

والآخر طريق نجد ، وهو طريق كله حرار تنخفض وترتفع .. وأكبر هذه الحرار حرة رهط التى تبدأ شمال مكة بما يقرب من خمسة عشر ميلاً .

وتتبع القوافل من مكة إلى المدينة أو العكس أحد الطريقين : إما طريق الساحل أو الطريق الشرقى (طريق نجد) .

ولقد سار الرسول فى الطريق الساحلى ، ولكنه تجنب الجادة المطروقة والمناطق الآهلة التى فيها استقرار سكانى حتى وصل الجحفة ، وعندها سلك طريق الحرار .. وهو غير الطريق المعتاد بين مكة والمدينة حتى وصل (بدر) وعندها سلك المنطقة الجبلية متجهاً إلى الشمال الشرقى إلى (وادى العقيق) ومنها إلى (قباء) فى جنوب

المدينة .. فأقام بها أربعة أيام أسس بها مسجده ولحقه فيها على بن أبى طالب بعد أن رد الودائع .. ثم وصل الرسول إلى المدينة فى يوم الجمعة الموافق ستة عشر من ربيع الأول ، فخطب بالناس لأول مرة .

وهناك اختلاف يسير بين رواية ابن هشام ورواية ابن القيم فى زاد المعاد وبين رواية ابن الأثير فى[1] البداية والنهاية .

ويستفاد من ذلك أن الرسول اختار فى هجرته طريقاً لم يألفه العرب .. فبدأ باتجاه جنوبى مع أن المدينة فى الشمال ثم تتبع طريق الساحل وكأنه لم يسلكه .. فهو لم ينزل المنازل المعهودة ولم يسلك المسالك المطروقة حتى الجحفة .

والطريق المعتاد عند العرب أن يسلكوا من الجحفة الطريق الساحلى إلى (ينبع) ومنها يتجهون شمالاً شرقيًّا إلى المدينة ..

وهذا الطريق أسهل من الطريق الذى سلكه الرسول ؛ لأنه مألوف ومأمون ، والقوافل فيه كثيرة وهو معروف للعرب جميعاً ، ولكن الرسول آثر الطريق الذى سلكه تفادياً للعيون الراصدة وبعداً عن طلب قريش وقافتها ومن يهمه أمر المكافأة التى رصدتها مكة ، ولهذا آثر الرسول أن يسلك طرقاً وعرة يضرب بها المثل فى وعورتها وخطورتها محفوفة بالمهالك وقطاع الطرق حتى إن بعضهم كما يذكر (ابن كثير) أسلم على يديه[2] حتى هبط العرج ثم وادى العقيق فقباء فالمدينة .

---

(١) راجع معجم البلدان الياقوت جـ ٤ ص ١٣٨ و جـ ٥ ص ٨٦ وجـ ٣ ص ٦٤ وآثار المدينة لعبدالقدوس الأنصارى ص ١٥٧ المكتبة العلمية بالمدينة وراجع أيضا الإمتاع والمؤانسة للمقريزى جـ ١ ص ٣١ وص ٤١ – ٤٦ تحقيق محمود شاكر طبعة لجنة التأليف – القاهرة والبداية والنهاية لابن كثير حـ ٣ ص ١٩٥ وهامشها طبعة – السعادة وراجع أخبار مكة للأزرق حـ ٢ ص ١٢٣ – ١٢٥ – وص ٢٣٦ ، ٢١٥ – ٢٤٥ والألوسى بلوغ الأرب حـ٣ ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٩٠ – السعادة – القاهرة .

غار ثور :

غار ثور على مسافة خمسة كيلو مترات ونصف الكيلو متر إلى الجنوب الشرقي من مكة ويبلغ ارتفاعه حوالى سبعمائة وستين متراً تقريباً فوق سطح البحر.

والطريق إليه شاق للغاية حتى إن الرسول لم يصل إليه إلا بعد أن دميت قدماه وحتى أن فصاصي الأثر من الكفار لم يستطيعوا أن يصلوا إلى فم الغار إلا بعد ثلاثة أيام أمضوها فى البحث[1].

وقد روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قبل أن يأذن الله له بالهجرة وبعد أن قرر الهجرة كان كثير التردد على غار ثور ، ربما ليزداد به إلفة وليعرف طرقه ومسالكه ومكان المخافة منه ؛ لأنه كان يعلم أن الكفار لابد أن يتتبعوا أثره فى محاولة لمنعه من الوصول إلى المدينة بكل الطرق .. وسوف يكون بحثهم عنه أشد وبغيتهم فى طلبه أبقى وأقوى .. وفيه دليل على معرفة رسول الله بمكة ومايحيط بها أو يحاديها من أودية وجبال وغيران ، وفيه دليل الاستعداد للأمر قبل الإذن به . . والتفكير فيه قبل الإقدام عليه . . ودراسته دراسة فاحصة ؛ لأن الرسول استعد كل هذا الاستعداد قبل الإذن له بالهجرة .

التآمر والإذن بالهجرة :

أقام الرسول بمكة بعد هجرة أصحابه ينتظر أن تأذن له السماء فى الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن وغير عليّ وأبي بكر ،

---

(١) محاضرة «طريق الهجرة للدكتور عبد العزيز كامل منشورات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الموسم الرابع مطبعة الأزهر سنة ٦١ ، ١٩٦٢ .

وكان أبو بكر رضى الله عنه كثيراً مايستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فيقول له : لا تعجل يا أبا بكر لعل الله يجعل لك صاحباً ؛ فيطمع أبو بكر فى أن يكونه .

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليه عرفوا أنهم نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة فحذروا لخروج الرسول إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة وهى دار قصىّ بن كلاب التى كانت قريش لاتقضى أمراً إلا فيها يتشاورون فيما يصنعون فى أمر رسول الله حين خافوه .

ويروى ابن إسحق عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : لما أجمعوا لذلك ، واتعدوا أن يدخلوا فى دار الندوة ليتشاوروا فى أمر رسول الله ﷺ غدوا فى اليوم الذى اتعدوا له ، وكان يوم الرحمة ، فاعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل .. فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر ليسمع ماتقولون[1]

يقول ابن القيم : فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ ، فأشار كل أحد منهم برأى والشيخ يردّه ولايرضاه .. إلى أن قال أبو جهل : قد فرق لى رأى ماأراكم قد وقعتم عليه ؛ قالوا ماهو؟ قال : أرى أن تأخذوا من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً جلداً ثم نعطيه سيفاً صارماً فيضربونه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا تدرى بنو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنع ؟ ولايمكنها معاداة القبائل كلها وتسوق إليهم ديته . . فقال الشيخ : لله درّ الفتى هذا والله الرأى .

فتفرقوا على ذلك واجتمعوا عليه . . وقد أخبر الله رسوله بمكر قريش . . وأمره

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٨٩ - ٩٠ .

ألا ينام فى مضجعه تلك الليلة[1] وأنزل الله عز وجل : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)[2] .

الرفيق :

أذن الله لرسوله بالهجرة بعد أن وصل الأمر إلى تلك الحالة ، قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ بمكة فأمر بالهجرة وأنزل الله عليه : (وقل ربِّ أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا)[3] قال قتادة : أخرجه الله من مكة مخرج صدق .. ونبى الله يعلم أنه لاطاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان .. فسأل الله سلطاناً نصيراً وأراه الله دار الهجرة وهو بمكة .. فقال : أرأيت دار هجرتكم بسبخة ذات نخل بين لابتين؟ وذكر الحاكم فى صحيحه عن على بن أبى طالب أن النبى ﷺ قال لجبرائيل : من يهاجر معى ؟ قال : أبو بكر الصديق[4].

أذن الله لرسوله بالهجرة بعد أن اتجه إلى الله طالباً نصرته وسلطانه فلا طاقة له بهذا الأمر .. وقد طمأنه الله فى كل أحواله ، فخرج مخرج صدق ، وعلم أنه سيعود عودة صدق إلى مكة .. وهذا غاية الثقة والاطمئنان .. وأراه الله سبحانه دار الهجرة وفيها أمارة وصوله سالماً .. واختار له أبابكر صاحباً .. واختيار الله فوق كل

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٢.

(٢) الأنفال الآية ٣٠.

(٣) الإسراء/ ٨٠.

(٤) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٥.

اختيار .. فجاء إلى أبي بكر نصف النهار فى ساعة لم يكن يأتيه فيها متقنعا[1] (أى لابساً قناعا) تقول عائشة : وكان لايخطئ رسول الله أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذى أذن الله فيه لرسوله بالهجرة .. والخروج من مكة من بين ظهرانى قومه .. أتانا رسول الله ﷺ بالهجرة فى ساعة كان لايأتى فيها ؛ فلما رآه أبو بكر قال : ماجاء رسول الله هذه الساعة إلا لأمر حدث ، فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله .. وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء ؛ فقال رسول الله : أخرج عنى من عندك .. فقال : يارسول الله إنما هما ابنتاى .. وماذاك ؟ فداك أبى وأمى ؟ فقال : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .. وفى رواية إنما[2] هم أهلك يارسول الله فقال : إن الله أذن لى فى الخروج .. قالت عائشة : فقال أبو بكر: الصحبة يارسول الله .. قال : الصحبة .. وفى رواية أخرى قال : نعم ؛ فعلم أهل أبى بكر باتفاقهما على القرار ، ولكن لم يعلموا مقصدهما ولا طريقهما .. فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه .. فلما رأى رسول الله مكانهم .. قال لعلىّ بن أبى طالب : نم على فراشى وتسجَّ ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم .

كان عمر علىٍّ إذ ذاك إحدى وعشرين سنة ؛ لأنه أسلم وسنه ثمانى سنوات .. والهجرة كانت بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة .. ولأنه ولد فى السنة الثانية والثلاثين من ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام .. وقد ربّاه الرسول فى حجره لكثرة عيال أبى طالب ، فأقدم فادياً للرسول ، ونام مكانه ، وقد طمأنه الرسول بأنه لن يصيبه أذى .

---

(١) و (٢) المصدر السابق ص ٥٢ ، ٩٣ ، لم يكن الرسول قد بنى بعائشة لأنه بنى بها بعد الهجرة وبعد بناء المسجد والمساكن .

قال فى الروض[1] الأنف قال السهيلى : وذكر بعض أهل التفاسير السبب المانع لهم من التقحم على رسول الله ﷺ مع قصر الدار وأنهم جاءوا لقتله .. فذكر فى الخبر أنهم هموا بالولوج عليه .. فصاحت امرأة من الدار ، فقال بعضهم لبعض : والله إنها لسبّة فى العرب أن يتحدث عنا أنا تسوّرنا الحيطان على بنات العم .. وهتكنا ستر حرمتنا ! فهذا الذى أقامهم بالباب وأصبحوا ينتظرون خروجه .. فطمس الله أبصارهم .. وخرج الرسول يدعو الله ويقرأ آيات من سورة (يس) حتى بلغ قوله تعالى (فأغشيناهم فهم لايبصرون)[2] فأخذ بعض الحصى ورمى به فوقهم .. وعصمه الله فخرج قاصداً دار أبى بكر.

ونرى من هذا أن الرسول لم يخبر أحداً بالهجرة إلا عليًّا الذى استخلفه لينام مكانه ، وليوهم القوم أنه ما زال نائماً ، وليؤدى ما عند الرسول من ودائع ، وإلا أبا بكر الذى اختاره الله ليكون رفيقاً له فى رحلته .. بل إن أبا بكر كان عندما يستأذن الرسول فى الهجرة كان الرسول يكتفى بأن يقول له : لا تعجل لعل الله يجدّ لك صاحباً وإن كان قد طمع فى صحبة الرسول .. وفهم من قوله إنما يعنى نفسه ..ولم يخبره الرسول إلا عند الإذعان على الرحيل ، وعندما ذهب إلى أبى بكر ليخبره ذهب إليه فى وقت لم يكن من عادته أن يذهب إليه فيه .. ومبالغة فى الحيطة والتكتم ذهب متقنعاً . واستيثاقاً فى الحيطة طلب من أبى بكر أن يخرج من عنده .. وقد طمأنه أبو بكر أنهم أهله .

الراحلة :

كان أبو بكر اشترى راحلتين وأعدهما للهجرة .. ولما عرض أفضلهما على رسول

---

(١) جـ ٢ تحقيق طه عبد الرءوف سعد .

(٢) من آية ٩ .

الله قال الرسول : إني لا أركب بعيراً ليس لى ، قال : فهى لك يارسول الله بأبي أنت وأمى ، قال : لا .. ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا . قال : قد أخذتها به ، قال : هى لك يارسول الله .. ولم يرض الرسول أن يركب الراحلة إلا بعد أن دفع ثمنها مع أن الرسول قال : ليس من أحد أمنّ عليّ فى أهل ومال من أبى بكر .. ،

أراد الرسول ﷺ أن تكون تضحيته للدعوة بالمال ليست على حساب أحد من أصحابه .. وأن تكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام فى استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالها .

الدليل :

استأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط الليثى .. وكان على دين قومه ، ولكنه كان هادياً ماهراً بالطريق .. فسلما له الراحلتين ووعداه غار ثور بعد ثلاث .

ويعتقد أنهما كانا يثقان به ثقة كاملة ، وأنه كان أهلاً لتلك الثقة .. وقد كان عنده كل مايهم قريشاً : الراحلتين والمكان الذى سيذهب إليهما فيه والموعد .. وباختصار كان معه كل المعلومات عن الهجرة وعن المهاجرين الكريمين .. ولم نسمع أنه أفشى إلى أحد سرًا أو ألمح إلى أحد بخبر .

واختيارهما له وهو كافر كان عن اقتناع به أولاً وبخلقه وبخبرته العظيمة فى هذا الشأن ، وفيه تقدير لأمر الخبرة والخبراء والانتفاع بهما بشرط الخلق والثقة والأمانة .

ضروريات الرحلة :

وكان لابد للرسول ﷺ من تدبير أمر الطعام والشراب والزاد والحصول عليها

من مكة فى الأيام التى سيكون فيها فى غار ثور .. ولابد له أيضاً من تدبير بعض الأمور الأساسية التى تهمه والتى يريد أن يطمئن عليها ؛ إذ لابد أن يكون على صلة بما تجرى به الحوادث والأحداث فى مكة : ماذا فعلت قريش ؟ وماذا ستفعل ؟ وماذا تفكر فى فعله ؟ ولابد أن يكون الطريق مأموناً مفتوحاً أمامه إلى المدينة بغير أشواك ولاعقبات ، ولابد أن يكون معهما خادم يقوم على شئونهما .

وكان أهمَّ ما يهمه – أخبار قريش حتى يعد العدة لكل احتمالات المستقبل .. وقد رتّب الرسول لكل أمر من هذه الأمور الجهاز الخاص به فى تناسق وشمول ونظام عظيم .. فكانت الأخبار تصله فى كل دورة النهار : فكان عبد الله بن أبى بكر يبيت عندهما فى الغار إذا أظلم الليل ، ثم يعود فى الفجر إلى قريش ، فيظن أهل مكة أنه كان معهم ، ويمضى نهاره بينهم يسمع مايقولون ، ثم يرجع إلى الغار ليخبر النبى ﷺ بما كان من أمر قريش وأخبارها .. وكان عامر بن فهيرة يرعى عليهما غنماً لأبى بكر ويستمع مايقال بمكة ، ثم يأتيهما بالخبر ، فإذا كان السحر سرح مع الناس[1] .

وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام ، وتتكفل بإحضاره وقد قطعت قطعة من نطاقها فأوكت بها الجراب .. وقطعت الأخرى فصيرتها عصاماً لفم القربة ، فلذلك سميّت بذات النطاقين .. أما آثار أقدام عبد الله وأسماء فكان عامر ابن فهيرة يروح على الغار بأغنامه بعد أن يرعى نهاراً فيشرب الرسول وأبو بكر ماشاءا من ألبانها ولحومها .. ثم يتابع سيره بالقطيع .. وكانت حوافر الغنم تعمى على آثار الأقدام التى يتركها سير أسماء وعبد الله ، فلا يبقى أثر ينم عن إنسان .

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٣ .

الخادم :

قام بخدمة الرسول وأبى بكر فى الغار عبد الله وأسماء ابنا أبى بكر وعامر بن فهيرة مولاه كما ذكرنا .. أما الخادم الذى قام على شئونهما فى الهجرة فقد كان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر .. وقد كان ثقة أميناً .. حفظ سرّهما فى الغار ونقل إليهما أخبار مكة .. وزودهما بالألبان واللحوم .. ولم يكشف عن هذا السر لأحد .. ولا باح به لمخلوق .

وقد كان عامر حيث وثق به الرسول وصاحبه كفاء ونزاهة وتفانيا فى خدمتهما والقيام على شئونهما .. وكان محل ثقتهما وموضع سرهما .

مرحلة التنفيذ :

نام علىّ فى مضجع الرسول واتشح ببرده الحضرمى .. واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صير الباب ويرصدونه .. وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من البطحاء ، فجعل يذره على رءوسهم وهم لايرونه وهو يتلو قوله تعالى من سورة يس : (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون)[1] ومضى الرسول تحرسه عناية الله إلى بيت أبى بكر فخرجا من خوخة فى دار أبى بكر ليلاً[2] ولم يشر ابن إسحق إلى الوقت الذى خرج فيه الرسول وصاحبه ، ومضى رسول الله وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه وزاد ابن هشام أنهما دخلا ليلاً[3] .

---

(١) آية ٩.

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٢.

(٣) ابن هشام جـ ٢ ص ٩٣.

وقد سبق أن قلنا : إن المسافة بين الغار وبين مكة حوالى خمسة كيلو مترات ونصف الكيلو متر .. ويكون الرسول وأبو بكر خرجا منتصف الليل تقريباً ؛ ليقطعا هذه المسافة ويصعدا إلى الغار الشاهق ويصلا ليلاً ..

ويصف المقريزى وعورة الطريق بين مكة وغار ثور بقوله : إن النبى وأبا بكر مضيا إلى غار بجبل ثور فلم يصعدا الغار حتى قطرت قدما رسول الله دماً .. وعادت قدما أبى بكر كأنهما صفوان[1] ..

وذكر الحاكم فى مستدركه عن عمر قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الغار ومعه أبو بكر ، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله ﷺ فسأله . . فقال له : يارسول الله ، أذكرُ الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ! فقال : يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دونى ؟ قال : نعم ، والذى بعثك بالحق .. فلما انتهى إلى الغار قال أبو بكر : مكانك يارسول الله حتى أستبرئ لك الغار ، فدخل فاستبرأه حتى إذا كان فى أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة فقال : مكانك يارسول الله حتى أستبرئ الحجرة ، فدخل واستبرأ الحجرة .. ثم قال : انزل يارسول الله ، فنزل فدخلاه وضرب العنكبوت على بابه ، وباضت الحمامة على فمه ..

تركنا القوم بباب الرسول بعد خروجه ﷺ وهم لم يشعروا به .. وجاء رجل ورآهم ببابه فقال : ماتنتظرون ؟ قالوا : محمداً ؛ قال : خبتم وخسرتم ! قد والله مر بكم وذرّ على رءوسكم التراب وماترك رجلاً منكم إلا قد وضع على رأسه تراباً .. وانطلق لحاجته ! أفما ترون مابكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، وقام ينفض التراب عنه !

ولم يذكر ابن هشام ولا ابن إسحق أسماء الذين كانوا يلتفون حول بيت الرسول ،

---

(١) إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٠ والصفوان الصخر الأملس.

ولكن بعض المدونين للسيرة ومنهم ابن القيم ذكر أسماءهم .. وهم أبو جهل والحكم ابن العاص وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وأمية بن خلف وزمعة ابن الأسود وطعيمة بن عدى وأبو لهب وأُبّى بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج .

جعل هؤلاء الرصد يتطلعون إلى فراش النبي فيرون عليًّا نائماً متسجّيًا ببرد الرسول فيقولون : والله إن هذا لمحمدٌ نائماً عليه برده فلما أصبحوا قام على عن الفراش ، فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال : لا علم لى به[1] .

وأتى نفر من قريش فيهم أبوجهل بن هشام - دارَ أبي بكر ، فخرجت أسماء فقالوا : أين أبوك يابنت أبي بكر؟ قالت : لا أدرى والله أين أبى .. فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً . فلطم خدها لطمة طرحت قرطها !

أصاب قريشاً الذهول ومايشبه السعار المحموم .. واحتقن أفقها بالحقد والكراهية .. وجدّت فى طلبهما .. ففتّشَتْ شمالاً وشرقاً وغرباً أى فى مداخل الطرق الموصلة إلى المدينة ، ولم تدر أن الرسول اتجه جنوباً على حين أن اتجاهه شمالاً ! أضاعوا وقتاً وجهداً فى البحث حتى أخذ القافة يتتبعون الآثار .. وكانوا مهرة فى الاقتفاء .. وبرغم الاحتياطات التى قام بها النبي والتمويه الذى فعله فقد استطاع قصاصو الأثر أن يصلوا إلى فم الغار بعد ثلاثة أمضوها فى البحث ، ولكنهم لم يتابعوا البحث فيه .. بل انتهوا إلى باب الغار فوقفوا عليه ، وقال أبو بكر لرسول الله كما جاء فى الصحيحين :

يارسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى ماتحت قدميه لأبصرنا .. فقال الرسول : ياأبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما .. لاتحزن ياأبا بكر إن الله معنا .

وفى هذا نزل قوله تعالى : (إلاتنصروه فقد نصره الله إذ أخرجهُ الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٢ - ٥٣ وابن هشام جـ ٢ ص ٩٢ - ٩٣.

معنا)[1].

إنها الثقة فى الله تشرق فى قلب الرسول وبين جنبيه فهو لايلقى بالاً للهول الذى يحيط به ولا للموت الذى يلتف من حوله التفاف السوار بالمعصم ! بل يثبّت من خواطر الصديق ويقوى من معنوياته أن معهما أقوى القوى والقدر .. معهما الله .. يؤازرهما ويمنعهما من القوة الحمقاء.

والمعية هنا تعنى الحفظ والنصر.. والقدرة والحماية والثبات والتفاؤل والأمل والثقة فى المستقبل ، وتلك عدة الأحداث حفظ الله رسوله بالعنكبوت وبما نسج وبالحمامة وبيضها .. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت .. والحمامة شعار السلام والأمان ، والعنكبوت والحمامة من جند الله وكان صنعهما عدة الحماية ووسيلة النصر.

مكث الرسول وصاحبه فى الغار ثلاث ليال حتى خمدت عنهما نار الطلب . فجاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين فارتحلا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة، وسار الدليل أمامهما وعين السماء كأم الوحيد تحوط وترعى موكبهما السائر المشوق .

يئس المشركون من الظفر بهم أو العثور عليهم ، فرصدوا لمن جاء بهما دية كل واحد منهما ، وكانت الدية مائة من الإبل ، فجدّ الناس فى الطلب :

يقول ابن هشام : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم .. والرواية الأولى رواية ابن القيم وبينها وبين رواية ابن هشام خلافاً :

فالأولى تفيد أن قريشاً رصدت لمن جاء بهما أى بالرسول وأبى بكر دية كل واحد منهما ، ومعنى هذا أن الدية المرصودة هاهنا ديتان لا دية واحدة أى مائتا ناقة لامائة واحدة ..

---

(١) الآية ٤٠ سورة التوبة

ورواية ابن هشام تفيد أن المكافأة المرصودة مكافأة واحدة ودية واحدة لمن يرد الرسول فهي مائة ناقة لامثنان .

ولا تعارض لجواز أن يكون ما رواه بن هشام ، قاله القرشيون أولاً بعد علمهم بهجرة الرسول وقبل علمهم بهجرة أبي بكر معه .. ثم لما اكتشفوا هجرة أبي بكر معه قالوا الرواية الأخرى ورصدوا المكافأة لكل منهما .

خرج الرسول من مكة قاصداً المدينة فمر في طريقه على (عسفان[1] وأقج[2] وقديد والخدّار والجداجد والعرج وبئر أريس فقباء فالمدينة) وهو طريق الساحل وإن كان قد تجنب فيه الجادة المطروقة والمناطق المستقرة الآهلة بالسكان حتى وصل الجحفة ، وعندها سلك طريقاً غير الطريق المعتاد كما سبق أن قلنا .

سراقة بن مالك :

وبينما كان الرسول ومن معه يمر بحي بني مدلج مصعدين من (قديد) وهي الآن قرية صغيرة على وادي ستارة الذي ينبع من حرة رهط ، ويتجه إلى البحر ويذكر البكري أنها قرية جامعة مذكورة في رسم الفرع وفي رسم العقيق وهي كثيرة المياه والبساتين[3] : بينما كان الرسول يمر بحي بني مدلج مصعدين من (قديد) بصر بهم رجل من الحي فوقف فقال : لقد رأيت آنفا بالساحل أسودة ما رآها إلا محمدٌ

---

(١) عسفان بلدة لاتزال قائمة حتى الآن على واد يحمل مجراه الأعلى اسم وادي فايد ومجراه الأدنى اسم وادغولة .

(٢) أمج أو أقج كما روى ابن هشام – لم ترد على الخرائط الحديثة وهي واد يأخذ من حَرة بني سليم وينتهي إلى البحر .

(٣) معجم ماستعجم جـ ٣ ص ١٠٥٤ نشر المعهد الخليفي للأبحاث المغربية تحقيق مصطفى السقا طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٩ .

وأصحابه .. ففطن للأمر سراقة بن مالك وزاد ابن هشام قول سراقة فأومأت إليه بعيني .. يعني .. اسكت ، لأنه أراد أن يظفر بالمكافأة خاصة .. وقال له : بل هم فلان وفلان خرجا فى طلب حاجة لهما ، ثم مكث قليلاً ودخل خباءه وقال لخادمه : أخرج بالفرس من وراء الخباء وموعدك وراء الأكمة .. ولبس لأمته ، وأخذ رمحه وسلاحه من وراء الحجرة وأخذ قداحه .. وركب فرسه وانطلق وراء الطيف ..

أخرج سراقة قداحه فاستقسم بها فخرج السهم الذى يكره : أى أنه لايظفر بهم .. ولما كان قد أزمع على أن يردهم إلى قريش ليحصل على مائة الناقة فلم يعر الأقداح اهتماما ، وسار وراءهم فلما اشتد فرسه عثر به فسقط عنه فقام وأخرج القداح فاستقسم بها ، فخرج السهم الذى يكره أيضاً . فأبى إلا أن يتابع الرحلة ، فلما اشتد فرسه عثر به فسقط عنه ، ثم قام فأخرج قداحه فاستقسم بها فخرج السهم الذى يكره فأبى إلا أن يتبع الركب .. فلما بدوا له ورآهم عثر به فرسه فذهبت يداه فى الأرض ، وسقط عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعها دخان كالإعصار ! قال سراقة : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر .. ثم قال : فناديت القوم .. فقلت : أنا سراقة بن جعشم انظروا أكلمكم .. فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ؛ فقال رسول الله لأبى بكر : قل له : وماتبتغى منا ؟ فلما قال له ذلك أبو بكر قال سراقة : تكتب لى كتاباً يكون آية بينى وبينك قال : اكتب له يا أبا بكر فكتب له[1] .

وفى هذه الرواية يظهر لنا أن سراقة استقسم قداحه ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان يخرج السهم الذى يكره .. وأن فرسه عثرت به ثلاث مرات وأنه لما عثرت به فى المرة الثالثة التى رآهما فيها غاصت يدا الفرس فى الأرض فانتزعها .. وأنه لما

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٩٦ - ٩٧.

انتزعها تبعها دخان كالإعصار ، فأيقن حينئذ أن الرسول ظاهر وأنه لن يدركه ، ثم نادى فأمر الرسول أبا بكر أن يرد عليه بما يبتغى ، ثم كتب له كتاباً كرغبة سراقة .

وفى رواية أخرى أنه لما دنا منهم وسمع قراءة رسول الله ﷺ وأبوبكر يكثر الالتفات ورسول الله ﷺ لايلتفت فقال أبو بكر : يارسول الله ، هذا سراقة بن مالك قد رهقنا ؛ فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه فى الأرض ، فقال سراقة : قد علمت أن الذى أصابنى بدعائكما .. فادعوا الله لى ولكما على أن أردّ الناس عنكما .. فدعا رسول الله ﷺ فأطلق .. وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً ، فكتب له أبو بكر بأمر رسول الله فى أديم .. وظل الكتاب معه حتى يوم فتح مكة .. فجاءه بالكتاب فوفاه له رسول الله ﷺ وقال : هذا يوم وفاء وبر .. وعرض عليهما الزاد والحملان فقالا : لاحاجة لنا به .. ولكن عمّ عنا الطلب فقال : قد كفيتم ورجع فوجد الناس جادين فى الطلب فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر .. وقد كفيتم ماهاهنا وكان أول النهار جاهداً عليهما وآخره حارساً لهما[1] .

ويتبين لنا من هذه الرواية أنه عرفهم من قراءة رسول الله التى سمعها وأن الرسول لم يلتفت ، ولم يشأ أن يكلم سراقة ، وإنما كلمه أبو بكر بأمر الرسول ، ولم يكتب له الرسول ؛ وإنما كتب أبو بكر وأن فرس سراقة ساخت يداها بدعاء الرسول ، وأنه اعتقد أنه لن ينال من الرسول وأن بركة الرسول هى التى جعلت يدى الفرس تغوصان فى الأرض ، وأن الرسول لم يدع له بخلاص فرسه وخلاصه إلا بعد أن استيقن منه أنه لن يكون منه مايكرهون ؛ كما يتبين لنا أن أبا بكر عرفه لما ناداهما وقال لهم : أنا سراقة كما فى الرواية الأولى

ويظهر لنا من مجموع الروايتين أن الرسول عمل كل مافى جهده البشرى معتمداً على كل خبراته ومعارفه واحتاط فى كل شىء حتى فى تلك الأشياء البسيطة التى

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٣ .

لانهتم بها .. فلم يلتفت الرسول ولم يتكلم برغم معرفة سراقة بأنهم هم الطلب .. وعلم الرسول بذلك وكان الرسول واثقاً من نصر الله فلم يخف ولم يتسرب الخوف إلى قلبه حتى فى أدق اللحظات وهو فى الغار أو فى مشهد سراقة ، ولم يعر ذلك اهتماما لوثوقه بالعناية الإلهية ، كما أنه لم يشأ أن يعطيا سراقة الكتاب يدا بيد وإنما رمياه له .

لقد عمل كل مافى قوة الجهد البشرى ، ثم ترك للعناية الإلهية تدبر بعد ذلك كل ماتراه نحوه ، فكانت إشارة القدرة الإلهية تسبق إشارته إلى فرس سراقة . فشقت الأرض ، وغاصت حوافر الفرس فاقتنع سراقة حين ذاك بأنه لن يظفر به فى الوقت الذى أخبرته قداحه ثلاث مرات بذلك .. وأدرك أن الرسول ظاهر مؤيد بأسباب السماء .. وعلم أن الذى أصابه بدعائهما .. وطلب منهما أن يدعوا له : أى أنه طلب من القدرة ولجأ إليها أن تحميه مما وقع فيه .. وتصرف عنه مابه قد نزل وماله قد حصل .. فدعا له الرسول فأطلق .. ولما عرض عليهما الزّاد واللبن لم يرضيا .. وماندرى : أكان عدم رضائهما لأنهما كانا لم يزل معهما فضل زاد .. أم لأنهما احتاطا منه .. ولا أقول : مايزالان يشكان فى نيته والقول بالاحتياط أوجه لأنهما وجّهاه إلى أن يعمى عليهما الطلب وهو حياطة لهما ونوع من الصيانة كانا فى مسيس الحاجة إليها .

ولقد وفى رسول الله لسراقة بكل ماكتبه : فقد جاء يوم فتح مكة ، فأسلم ودفع إلى الرسول الكتاب فوفاه .. وهناك رواية أخرى تفيد أن الرسول قال لسراقة .. فكيف لك ياسراقة بتاج كسرى وقيصر ، أو بكنوزهما ؟

وتفيدنا هذه الرواية أن الرسول كان واثقاً فى مستقبل الإسلام حتى فى أدق مراحله وأخطر ظروفه ، أو يكون ذلك من الله تثبيتاً لقلب الرسول وخاطره ، أو أن الله أطلعه على ذلك استلهاماً لبوادر الأمل والثقة والرجاء فى الله .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يكون فى ذلك صرف لسراقة عن المكافأة

السخية التى بذلتها قريش إلى مكافأة أكبر وأعظم .. فكنوز كسرى وقيصر كانت تمثل فى انطباع العربى شيئاً خطيراً جدًّا لما كان يسمعه ويراه ويحسّه من بهرج حضارى ونعمة يتمتع بها كل منهما .. ومايُغرق كلاًّ منهما إلى أذنيه فيه من مال وكنوز .. وكان ذكر البلاط القيصرى أو الكسروى يعنى شيئاً أسطوريًّا يذهب بخيال العربى فوق الخيال والأساطير.

وقد تحقق ذلك لسراقة بعد أن فتح الله على المسلمين الدولتين العظيمتين ..

سار الرسول هو وأبو بكر ومن معهما .. ومرا فى مسيرهما بخيمتى أم معبد الخزاعية واسمها عاتكة. قال ابن هشام هى بنت كعب بن خالد .. وهى امرأة من خزاعة .. والصحيح[1] أنها عاتكة بنت خالد إحدى بنى كعب من خزاعة .. وكانت امرأة برزة[2] جلدة تحتبئ بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقى من مرّ بها فسألاها : هل عندك شىء ؟ قالت : والله لو كان شىء ما أعوزكم القرى والشاء عازب .. وكانت سنة شهباء أصابها القحط .. فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة وقال : ماهذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم .. فقال لها : هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك .. قال الرسول : أتأذنين لى أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً فاحلبها ؛ فمسح الرسول ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ودعا فتفَاجت عليه .. ودرت فدعا بإناء لها بربض الرهط ، فحلب فيه حتى علته الرغوة ، فسقاها فشربت حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ، ثم شرب وحلب فيه مرة أخرى حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها فارتحلوا .. وجاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافاً يتساوكن هزالاً . فلما رأى اللبن عجب فقال : من أين لك هذا والشاة عازب ولا حلوبة فى البيت ؟ فقالت : لا ، والله

---

(١) هامش ص ٩٥ جـ ٢ ابن هشام.

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٣.

إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ومن حاله كذا وكذا وقصت عليه ماحدث .

وصف أم معبد للرسول :

قال : والله إنى لأراه صاحب قريش الذى تطلبه .. واتجه إلى أم معبد وقال لها : صفيه لى يا أم معبد .. قالت له : إنه ظاهر الوضاءة أبلج الحسن .. حسن الخلق لم تعبه نجلة[1] ولم تزر به صعلة[2] وسيم قسيم .. فى عينيه دعج[3] وفى أشعاره وطف[4] وفى صوته صحل[5] وفى عنقه سطح[6] أحور أكحل[7] أزج أقرن[8] شديد سواد الشعر .. إذا صمت علاه الوقار .. وإن تكلم علاه البهاء .. أجمل الناس وأبهاهم من بعيد .. وأحسنه وأحلاهم من قريب .. حلو المنطق .. فصل لانزر[9] ولا هزر[10] .. كأن منطقه خزرات نظمن يتحدرن ربعة .. لاتقحمه عين من قصر .. ولاتشنؤه من طول .. غصن بين غصنين .. فهو أنضر

---

(١) النجلة – العيب والشق .

(٢) العوج والطول .

(٣) سواد العين وسعتها .

(٤) الوطف محركة كثرة شعر الحاجبين والعينين .

(٥) بحة فى الصوت .

(٦) بسطة واستواء .

(٧) أن يشتد بياض العين ويسود سوارها وتستدير حدقتها وترق جفونها ، أو قسوة بياضها وسوادها فى بياض الجسد ، أو اسوداد العين كلها مثل الظباء .

(٨) خصلات من الشعر .

(٩) (١٠) لا هو طويل ولا قصير .

الثلاثة منظراً .. وأحسنهم قدراً .. له رفقاء يحفون به .. إذا قال استمعوا لقوله .. وإذا أمر تبادروا إلى أمره محفود محشود .. لا عابس(١) ولا مفنّد(٢) .. فقال أبو معبد : والله هذا صاحب قريش الذى ذكروا من أمره ما ذكروا .. لقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً . وصاح صوت بمكة عالياً يسمعونه ولا يرون القائل :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين قالا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به ... وأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصى مازوى الله عنكم ... به من فعال لا يجازى وسؤدد
لِيَهْنِ بنى كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

تقول أسماء : مادرينا أين توجه الرسول وأبو بكر إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة ، فأنشد هذه الأبيات والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولايرونه حتى خرج من أعلاها قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ وأن وجهته المدينة .

قدوم رسول الله ﷺ قباء :

بلغ الأنصار مخرج رسول الله من مكة وقصده المدينة ، فتوقعوا قدومه ، فكانوا يخرجون كل يوم إذا صلوا الصبح إلى ظاهرة الحرة ينتظرون قدومه الميمون .. ولايبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا بيوتهم من شدة

(١ ، ٢) مطاع فى إخوانه مهيب يخفون لخدمته .

الحر[1] .. حتى كان اليوم الذى قدم فيه الرسول ﷺ وهو يوم الاثنين الثانى[2] عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة خرجوا على عادتهم ، فلما حميت الشمس رجعوا وصعد رجل يهودى على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه ، فرأى الموكب النبوى فصرخ بأعلى صوته : يابنى قيلة يريد الأنصار . هذا جدكم الذى تنتظرونه فبادروا لحمل السلاح ليلتقوا ورسول الله ﷺ وتكبيرهم يهز أرجاء الأرض ، وخرجوا إلى رسول الله وهو فى ظل نخلة ومعه أبو بكر ، فحيوا الرسول بتحية النبوة وأحدقوا به مطيفين حوله والسكينة تغشاه وقد نزل الوحى عليه : (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير)[3]

يقول ابن هشام : وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك وما يعرفونه من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ ، فقام أبو بكر ، فظله بردائه فعرفناه عند ذلك .

مسجد قباء :

وسار الرسول حتى نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف ، فنزل على كلثوم بن الهدم[4] أخى ابن عمرو بن عوف ، فأقام فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة ، وأسس

---

(1) كان وصول الرسول المدينة فى شهر أيلول (سبتمبر)

(2) قال غير ابن إسحق وابن القيم لثمان خلون من ربيع الأول

(3) التحريم / ٤

(4) كان شيخا كبيراً مات بعد قدوم الرسول بوقت يسير ، وهو أول من مات من الأنصار وكان بيته بيت الأعزاب وكان الرسول آن ذاك عزبا ليس معه أهله . وفى زاد المعاد جـ ١ ص ٢٥ كلثوم بن الهدم وهو خطأ كما لايخفى .

مسجد قباء وهو أول مسجد أسس بعد النبوة ، ونزل أبو بكر على خبيب بن أساف وقيل على بخارجة بن زيد أحد بنى الحارث من الخزرج .

قدوم عليّ :

يذكر ابن هشام أن عليًّا أقام بمكة ثلاث ليال وأيامها[1] ويذكر أيضاً أن الرسول أقام بالغار ثلاثاً[2] .. ومعنى هذا اتفاقهما فى توقيت الخروج من مكة .. ويذكر أيضاً أن عليًّا لحق برسول الله فى قباء ونزل معه على كلثوم بن هدم[3] .. ومعنى هذا أن توقيت وصولهما المدينة كان قريباً .

فهل يعنى هذا أن الرسول أخبر عليًّا بوجهته عندما استخلفه مكانه ليلة الهجرة .. أو أن عليًّا رضى الله عنه علم بوجهة الرسول وأبى بكر من الهاتف الجنى الذى تصادف أن يصيح فى مكة بعد ثلاث ليال من خروج الرسول وأبى بكر .. تقول عائشة : فكثنا ثلاث ليال وماندرى أين توجه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر ؟ أو أن عليًّا علم بوجهتهم من القافة أو من الناس وهو يتبع أثر الرسول فى الطريق . أكاد أقتنع بأن عليًّا إنما علم من الجن ويكون توقيت الهاتف إشعاراً لعلى بالجهة أو علم على من الطريق .. ولا شك أنه كان فى لهف شديد لأخبار الركب ، وكانت كل حواسه متتبعة للركب باحثة عنه .. ولكن لايمنع مطلقاً أن يكون الرسول أخبر عليًّا بوجهته .. وعلىٌّ قد تربى فى بيت النبوة وارتوى من نبعها النورانى وتخلق بخلق الرسول .

---

(١) ، (٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٩٩ و ٩٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٩.

المدة التى قضاها بقباء وأول جمعة :

كان قدوم رسول الله المدينة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة من ربيع الأول .. أو يوم الاثنين ثانى عشر من ربيع الأول على حسب مارأى ابن القيم .

وقد أقام بقباء فى بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده .. ثم خرج يوم الجمعة .. وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك كما يقول ابن هشام ، فأدركت الرسول الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة [1] .

ويرى ابن القيم أنه أقام فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء [2] .. ويقول ابن الكلبى : إن الرسول خرج من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول .. ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتى عشرة منه .

وابن القيم قد يكون أخذ بقول بنى عمرو بن عوف وقد ذكر ابن هشام أنهم يزعمون أن الرسول مكث فيهم أكثر من الأيام المذكورة .

ويؤيد هذا أن ابن الكلبى يذكر اليوم الذى خرج فيه الرسول من الغار واليوم الذى وصل فيه .. ومعنى كلامه أنه لم يقض أياماً عند بنى عمرو بن عوف .

وأياًّ ماكان . . فاليوم الذى قدم فيه الرسول كان يوم اثنى عشر من ربيع الأول أو ليلة اثنتى عشرة من ربيع الأول . . وأن أول جمعة فى الإسلام كانت بالمدينة فى بنى سالم بن عوف فى المسجد الذى فى بطن الوادى .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ .

وصوله المدينة :

ركب الرسول وأخذ الأنصار يمسكون بخطام ناقته كلٌّ يود لو يقيم عنده .. فكان الرسول يردهم فى لطف ويقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .. قال هذه العبارة لبنى سالم بن عوف .. ولرجال من بنى بياضة وبنى ساعدة وبنى الحارث وبنى عدى بن النجار أخوال جده .. فلم تزل ناقته سائرة حتى وصلت إلى موضع مسجده اليوم وبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت ، وسارت قليلا ثم التفتت فرجعت فبركت فى موضعها الأول فنزل عنها ، وذلك فى بنى مالك بن النجار أخواله ﷺ .

يقول ابن القيم : وكان ذلك من توفيق الله له فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول الله فى النزول عليهم .. وبادر أبو أيوب فحمل رحله ، فأدخله بيته ، فجعل الرسول يقول : المرء مع رحله .. وجاء أسعد بن وزارة فأخذ بزمام ناقته وكانت عنده .

فرح الأنصار بقدوم رسول الله :

ولما جاء رسول الله فرح الأنصار بمقدمه المبارك .. قال البراء : مارأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به .. حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول قد جاء .. وقال أنس : شهدته يوم دخل المدينة ، فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا .

وقد انتهت رحلة الهجرة ، ولكن الهجرة لم تنته .. الهجرة بأهدافها وغايتها بدأت بعد وصول رسول الله ﷺ راشداً سالماً إلى المدينة .. وبدأت معها رحلة المصاعب والتحديات فتغلب عليها للوصول إلى المستقبل العزيز للأمة وللدولة

وللدعوة .

ومن ير أن الهجرة رحلة ولاتتعدى كونها رحلة يقف بها إلى هذا الحد لايتعداه .. وينهى الدور .. ويسدل الستار على حدث الهجرة .. وهذا قصور بالفكر .. وغيبوبة قسرية له .

فالهجرة لم يكن دورها فى أن ينجح الرسول فى الخروج من مخالب القرشيين الذين تسوروا داره .. وقرروا اغتياله وتمزيقه لو ظفروا به .. وكان نجاحه فى ذلك يعنى نجاح الهجرة وأنها أدت الغاية المطلوبة .. وهذا غير صواب ؛ لأن الهجرة لم ترد لذلك فحسب .. ولكن لغايات سامية نبيلة تتصل بتاريخ الإسلام وتحرير بداياته .. وفتح سجل للدولة الإسلامية فى عناق تاريخى حميم .. بل أكاد أجزم لو أن الرسول ﷺ بقى فى مكة ولم يتطلع لفتح جبهة المدينة للإسلام .. لما كان هذا التآمر على قتله .. ولا التفكير فيه .. ولا عقد المؤتمرات له ، لأن ذلك كله بدأ مع طلائع التحدى فى بيعة العقبة (الثانية) .. التى تصورّت قريش وحق لها ذلك أنها كانت حرباً موجهة إليها وإلى مستقبلها السياسى والدينى والتجارى كله .. ولهذا قررت أن تدافع عن كيانها بكل السبل وتحميه مهما كلّفها من مخاطر .. ومهما اتخذت فى سبيله ولو كان القتل والتصفية الجسدية .

كانت الهجرة كما سنرى بداية الجهاد المتصل .. وفجر الأمل الحلو .. وانطلاقة الوثوب .. وبوابة التاريخ الأسنى لدولة الإسلام العظيمة .

الرسول فى المدينة

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)
الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة التوبة

(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)
الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الصف

لا يهمنى وخُطى الرسول المباركة الشريفة تلثم صدر المدينة فى حنو ورأم .. وتزرع الشروق فى كل منعطف وثنية .. وترويه بالغبطة والسعادة .. لا يهمنى أن أصف

شعور المسلمين وهم يستقبلون أملهم وعمرهم ووجودهم الأسنى ممثلاً فى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وكيف تلقوه بالهتاف والأغاريد .. ولا يهمنى أن أصوّر مبلغ فرحتهم به وسعادتهم بلقائه .. وترحيبهم المتجدد بوجوده بينهم ، ولا يهمنى أيضاً أن أصف سعادة الرسول بلقائهم .. ولا أن أصور فرحته السَّامية وبشره الغامر .. ووجوه الأنصار الضاحكة المستبشرة تحيط به فى شوق وحب إحاطة الهالة بالقمر المكتمل .. والسوار بالمعصم الكريم .. والجنود باللواء الحر الخفاق وقلوبهم المغردة المضيئة تهدر بالنعيم الذى بدا عليها وهى تتلقاه بالبشر والترحيب .. وترسم حول حضرته الميمونة حديقة من البهجة والتألق والسرور والعبير .

لا يهمنى أن أصف ذلك ولا أن أصوره لأدع الآذان والأبصار والقلوب تسرح معه كل مسرح .. وتهيم به ماشاء لها أن تهيم وتذهب فى تُصوره كل مذهب .. ولايهمنى ذلك أيضاً .. لأن ذلك مما قد فاضت به كتب السيرة واستفاض وذاع حديثه بين الخاصة والعامة .

لا يهمنى ذلك .. لأننى أعتقد أنه حتى مجرد الإشارة إليه يعتبر تطفلاً لاداعى له .. وطعناً موجهاً إلى الحب الإلهى الباسق الذى صنعته السماء .. وبذره الله فى القلوب فأينع وأزهر وأثمر وآتى أكله ولم يظلم منه شيئاً .. وأصبحت الإشارة إليه إساءة إلى الصفات النبيلة الأصيلة للأنصار .. بل إلى أخص تلك الصفات وهو الحب والإيثار اللذان وصفهم الله بهما (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجرَ إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[1] ويكفيهم هذا الوصف من الله .. ويغنينا عن كل كلام يقال .

---

(١) الأية ٩ الحشر.

الذى يهمنا بالدرجة الأولى أن نسرع الخطى لنلحق بركب رسول الله .. ونعايشه فى مهاجره .. وهو يضع اللمسات النهائية لملامح الدولة فى مرحلتها الجديدة .. ويكتب شهادة ميلاد الأمة الإسلامية .. ويراجع خططها الأخيرة قبل أن يزفها إلى الآفاق .

وإذا كانت الهجرة نهاية رحلة .. فإنها فى الوقت نفسه بالدرجة والحماس نفسهما نهاية لمرحلة وبداية لمرحلة أخرى .. والوقوف عند وصفها بأنها نهاية رحلة وصف يزرى بفكرة الهجرة ذاتها وبغايتها وبما تحمّله الرسول العظيم والمسلمون معه فى سبيلها .. بل ويزرى بوضعها فى التاريخ الإسلامى وفى مسيرة الدولة والدعوة الإسلامية .

لقد كانت الهجرة نهاية مرحلة من الضعف والتحسب وعدم القدرة على الدفاع عن النفس والعقيدة .. وبالقدر نفسه بداية لمرحلة متميزة من إثبات الذات وبناء الشخصية المسلمة وإعدادها الذى يتدرج من الفرد إلى الجماعة والمجتمع ثم إلى الدولة ككيان كبير على أساس من الثقة بالنفس والتحمس والإباء والشموخ .. والتصدى والدفاع عن النفس .. ثم تجاوز ذلك إلى الوثوب والانطلاق .

ولقد استدعى ذلك جهداً خارقاً وعملاً شاقاً مضنياً متواصلاً من أجل هذه المرحلة المتميزة القادرة .

مفهوم الدولة :

لقد كانت الغاية من الهجرة – كما سبق أن ذكرنا – إقامة الدولة الإسلامية وإرساء قواعدها فى ظل القوة الشابة للأنصار .. وفى ظلال المبادئ التى بايعوا عليها الرسول .. وهو أن ينصروه ويمنعوه من كل ما يمنعون منه نساءهم وأطفالهم وأنفسهم ..

والدولة فى مفهومها البسيط شعبٌ وأرض وحكومة ودستور وتشريعات ومجالس تشارك فى تسيير دفة الأمور .. وقوة تحمى هذا الكيان ولواء ونشيد.

وسنرى كيف استطاع الرسول ﷺ أن يقيم شعباً من طوائف المدينة المتنازعة .. وأما الدستور فسنجده على صورة من الروعة فى المعاهدة التى أبرمها الرسول بين اليهود وبين المسلمين.

لقد كفلت هذه المعاهدة حقوق الأفراد وحريتهم فى التملك والعقيدة والأمن .. وكفلت حماية المال والأعراض والنفس .. وأقرت كل مايكفل أمن الدولة الداخلى والخارجى ولاتعاون بين المجموعات المختلفة من السكان للدفاع عن المدينة.

وأما مجلس الشورى فقد تمثل فى نقباء الأوس والخزرج الاثنى عشر الذين اختيروا ليبايعوا الرسول على التكافل فى بيعة العقبة (الثانية) .. وكان الرسول يستشيرهم كلما حزبه أمر كما حدث فى غزوة بدر امتثالاً لقول الله تعالى (وشاورهم فى الأمر) (وأمرهم شورى بينهم).

وأما التشريعات الخاصة بكل فئة فلم يتدخل الرسول فى التشريعات الخاصة بالمجتمع اليهودى ؛ وإنما أوجد نوعاً جديداً من التشريعات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية تمثل فى المؤاخاة التى جعلت من الأنصار والمهاجرين جبهة واحدة تتكافل فى المنشط والمكره والبأساء والضراء، وجعلت لكل مهاجر أخاً من الأوس أو الخزرج يتقاسمان الألم والأمل .. وقد بلغ من عناية الإسلام بهذه المؤاخاة أن جعلها أساساً للتوارث، دون موجبات الإرث من القرابة بالدم والعصبية.

وأما الحكومة فكانت تتمثل فى القيادة الدينية الحكيمة المتمثلة فى الرسول ﷺ .. وقد نص فى المعاهدة التى بين اليهود وبين المسلمين على أن مااختلفوا فيه من شىء فرده إلى الله ورسوله.

وأما النشيد القومى .. فقد كان الأذان.

وأما اللواء .. فكان مع الفيالق المحاربة دفعه الرسول إلى قائد أول غزوة أو سرية سيرها الرسول ﷺ بعد مقدمه الكريم بسبعة أشهر .. وكان لونه أبيض وكان معه رايتان سوداوان .

وسنقف مع الرسول لنرى كيف صاغ الدولة فأحسن صياغتها ؟ وكيف وجهها فأحسن التوجيه ؟ وقام على أمرها فأوصلها إلى حيث يريد الله لها من الظهور والعزة .. لقد كانت حياته الشريفة فى المدينة سلسلة متصلة الحلقات .. كل حلقة تسلم إلى الأخرى فى تناسق وتعاون وتآزر ، وكل عمل يقوم به كان مدروساً بعناية شديدة .. وله موقعه وحسابه فى مسيرة الأحداث وتطورها ، وكانت الفترة الزمنية القصيرة فى المدينة جهاداً متصلاً من أجل إرساء قواعد الإمبراطورية الإسلامية .

بناء المسجد :

أول عمل قام به الرسول بناء المسجد .. بناه فى الموضع الذى بركت فيه ناقته .. وقد كان يصلى فيه رجال من المسلمين .. وكان أسعد بن زرارة يجمع الناس ويصلى فيه قبل مقدم رسول الله ﷺ .. ثم سأل عن المكان الذى بركت فيه الناقة .. فقال معاذ بن عفراء[1] : إنه مِرْبَد لسهل وسهيل ابنى عمرو .. وهما غلامان يتيمان من الأنصار كانا فى حجر أسعد بن زرارة[2] .. وكانا غلامين لبنى النجار .. وقال ابن هشام[3] : بل كانا فى حجر معاذ بن عفراء .. وهو قد اشترك فى غزوة بدر واشترك فى قتل أبى جهل كما ذكره ابن هشام نفسه[4] .

وقد عرض الرسول عليهما شراءه فقالا له : بل نهبه لك يارسول الله ، فأبى ،

---

(١) المربد المكان الذى يجفف فيه التمر

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٦ وجـ ١ ص ٢٥ .

(٣) السيرة جـ ٢ ص ١٠١ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٣ و٢٥٣ .

فابتاعه منهما بعشرة دنانير .. وكان فيه بعض الشجر والنخل وقبور المشركين ، فأمر الرسول بالنخل والشجر فقطع وصف فى القبلة ونبشت القبور .. وقيل : إن هذا المكان الذى بنى الرسول فيه مسجده كان حائطاً لبنى النجار .. فقد روى من طريق آخر أن الرسول قال : تؤمنونى بحائطكم .. فقالوا : لا ، والله لانطلب ثمنه إلا إلى الله ؛ ويروى أنه أبى إلا الثمن (١) .

وقد بنى المسجد باللبن ، واشترك الرسول فى بنائه ، وكان ينقل اللبن والحجارة بنفسه وهو يرتجز :

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

ويقول :

هذا الحمّال لاحمال خيبر ... هذا أبر ربّنا وأطهر

وجعل يحمس المهاجرين والأنصار ويحفزهم للعمل ، ويعطيهم من ذات نفسه وأشواق روحه الأسوة والقدوة .. فانطلقوا إلى العمل فى ثقة وشوق وفناء نبيل .. جعلوا يرتجزون وهم يحملون اللبن :

لئن قعدنا والنبى يعمل ... لذاك منا العمل المضلل

وجعل علىّ رضى الله عنه يرتجز :

لايستوى من يعمر المساجدا ... يدأب فيها قائماً وقاعدا

لقد وقف الرسول ﷺ ، فوقفوا معه يبنون حياتهم وغدهم .. وكان أول عمل قاموا به بناء المسجد حتى يعدَّهم الرسول فى هذا المسجد على عين الله إعداداً جديداً روحيًّا ونفسيًّا وجسميًّا ويربطهم بالمسجد .. وما أعظم أن تكون البدايات

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى جـ١ ص ٩٩ ط ٢ سنة ١٣٨٢هـ - التجارية - القاهرة .

بناءً وأن يكون البناء مسجداً يبنى على أسس من التقوى ! ولكم كان يشوق الرسول أن يبنى مسجداً بعد أن تعسر عليه بناؤه فى مكة ؛ لأنه يعلم أن إعداد الرجال يبدأ به والإعداد للمستقبل ينطلق منه .. وبناء الدولة الرشيد يكون من محاريب الصلاة والصفاء والخشوع والقرب منُ الله .

بنى الرسول المسجد .. وجعل قبلته إلى بيت المقدس وعمده الجذوع ، ولم يشأ أن يسقفه وإنما اكتفى بسقفه بالجريد .. ولما قيل له : ألاتسقفه ؟ قال : لاعريش كعريش موسى .

الرسول يقدر العاملين :

دخل عمار بن ياسر على رسول الله ﷺ وقد أثقلوا ظهره باللبن فقال : يارسول الله .. قتلونى .. يحملون علىّ مالا يحملون .

قالت أم سلمة[1] زوج النبى ﷺ : فرأيت رسول الله ﷺ ينفض فروته[2] بيده .. وكان رجلاً جعداً وهو يقول : «ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك .. إنما تقتلك الفئة الباغية ؛ وجعل عمار يرتجز برجز علىّ رضى الله عنه :

لايستوى من يعمر المساجدا ... يدأب فيها قائماً وقاعدا

وظل يردده حتى ظن بعضهم أنه يقصده ، فغضب وقام ليضربه ، فغضب رسول الله ﷺ وقام إلى عمار ثم قال :

«ماالهم ولعمار ؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ؟ إن عماراً جلدة مابين عينى وأنفى .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٣

(٢) فى الأصل وفرته وصحته ماذكرت .

وروى عن الشعبى قال : إن أول من بنى مسجداً عمار بن ياسر وما ذاك إلا تقدير للدور والجهد اللذين قام بهما عمار .

وظيفة المسجد :

كان هذا المسجد على تواضعه العظيم كل شىء بالنسبة للمسلمين جميعاً .. كان معبداً .. ومجلساً للشورى ومقرًّا للسلطة التنفيذية ومركزاً للقيادة العليا .. وبيت الأمة التى تصدر عنه الدعوة والشرائع إلى الخلق .. وجميع الخطط والتدابير الإدارية والسياسية والعسكرية ؛ كما كان قاعة لاستقبال الوفود .. وحلقة للدرس والوعظ والفتيا وجامعة للعلم .. يلتقى فيه المسلمون يؤدون شعائرهم ويعرضون مشاكلهم .. ويبحثون أمور دينهم ودنياهم .. ويضعون برامج غدهم .. والخطوط العريضة لحياتهم القابلة .. ويتدارسون مواقف أعدائهم .. ويقررون أساليب مواجهتها .

كان هذا المسجد على سذاجة بنائه وأثاثه يمثل نقطة الانطلاق وقلعة الوثوب .. ومركز إعداد القادة والتدريب .. وغرفة عمليات لم يدعها القائد ولم يتركها إلى أن لحق بربه .. أدار فيها كل عملياته .

من هذا المسجد الصغير تمت تدريجاً الإدارة الإسلامية إلى أن شملت الجزيرة كلها .. ودانت الروم والفرس لها .. وفى هذا المسجد اتخذت تدابير قد تكون مما استلزمته أسباب مؤقتة وأحوال طارئة .. ولكنها بما انطوت عليه من الحكمة السامية وما صدرت عنه من الإدراك كانت بذوراً لأوسع الإدارات الإمبراطورية وقواعد لأكبر إصلاح بشرى[1] .

---

(١) بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام ط ٢ سنة ١٣٧٣هـ ، ١٩٥٤م ـ دار الكتاب العربى - مصر - ص ٧٣ .

مساكن أزواجه :

ثم بنى الرسول إلى جانب المسجد مساكن أهله .. حتى يظل إلى جانب المسجد بكل ماأثبتنا له من وظائف .. وكانت بيوته التسعة بناء متواضعاً جداً .. بعضها من جريد مطيّن بالطين .. وسقفها جريد .. وبعضها من حجارة مرصوصة بعضها فوق بعض .. مسقفة بالجريد أيضاً .. ينال سقفها باليد .. وكانت حجره أكسية من شعر مربوطة فى خشب عرعر .. وكان بابه عليه الصلاة والسلام لاحلق له .. وكان سريره خشبات مشدودة بالليف[1] .

بناء وأثاث متواضع لايصلح لأقل الناس فى عصرنا .. ولكنهما يصوران نظرة الرسول إلى الحياة وإقباله بكيانه على العمل والنفاذ إلى الأمور .. بعيداً عن الزخرف والمظهر والوجاهة .. وكان قرب دوره من مقر القيادة إصراراً على أن يبقى قريباً من غرفة العمليات ليدير منها عجلة الأمور كلها .

مقدم أهله :

ثم بعث الرسول ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة .. فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه .. وسودة بنت زمعة زوجته .. وأسامة بن يزيد وأمه أم أيمن .. وأما زينب فلم يمكنها زوجها أبو العاص ابن الربيع من الخروج .. وخرج عبد الله بن أبى بكر معهم بعيال أبى بكر ومنهم عائشة .. فنزلوا فى بيت حارثة بن النعمان .. فلما فرغ من بناء مساكن أهله بنى بعائشة فى البيت الذى بناه لها شرق المسجد وجعل لسوره بيتاً آخر[2]

---

(١) السيرة جـ ٢ هامش ص ١٠٣ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٥ ، ٥٦ .

وأقام الرسول بالمدينة حتى بنى له فيها مسجده ومساكنه ، واستجمع له إسلام هذا الحيّ من الأنصار .. فلم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلا بعض القبائل .

الأوضاع فى المدينة :

جاء الرسول ﷺ إلى المدينة والأنصار أوسهم وخزرجهم قريبو عهد بيوم بعاث .. وهو اليوم الذى قال فيه الرسول : كان يوم بعاث يوماً قدّم الله فيه لرسوله .

وكان يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج .. وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج .. والعداوة القديمة بينهما تثير الأحداث الجديدة .. واليهود يذكون الفتن ويتربصون ويخشون سوء المنقلب إذا ما اتحد الأوس والخزرج .. وكثيراً ما أثاروا الفتنة وأشعلوا نار الخلاف .. فتسل السيوف .. وتكاد تطل الدماء .. وقصة شاس ابن قيس ودسه غلاماً يثير بينهم ماحدث بيوم بعاث لما رأى من اجتماعهم فى مجلسهم يتحدثون – معروفة [1] .

والمهاجرون لاحول لهم ولا طول .. إلا حصول اللاجئ المستظل بحمى أخيه يحس أنه لايحب أهله وعشيرته فى مكة .

والذى لاشك فيه أن الرسول استقبل من المسلمين بحماس شديد وعظيم .. ومن اليهود والمشركين ببشر لابأس به .

وقد أمل كل فريق أملاً :

أمل الأوس والخزرج أن يكون ذلك ختاماً لعهد الحروب .. وأن يصلح الله

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ١٤٦.

بينهم .. وأمل اليهود طمعهم فى أن يستخدموا العربى الخارج على عبادة الأوثان المنبوذ من أهله .. والمعروف لأهل الكتاب القريب من توحيدهم .. يطمعون فى أن يستخدموه للاعتزاز به على العرب .. ومقاومة النصرانية فى الشمال .

يقول ابن القيم[٢] : لما قدم الرسول إلى المدينة صار الكفار ثلاثة أقسام :

قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولايظاهروا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ، ونصبوا له العداوة .

وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه .. بل انتظروا مايئول إليه أمره وأمر أعدائه .. ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن .. ومنهم من كان يحب ظهور أعدائه عليه وانتصارهم .. ومنهم من دخل معه فى الظاهر .. وهو مع عدوه فى الباطن ليأمن الفريقين .. وهؤلاء هم المنافقون .. فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى .. فصالح يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمن .. وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة .

وقد رأى الرسول ﷺ بثاقب نظره حاجة هذا الخليط من الناس إلى السلام وإلى التنظيم الداخلى .. وأدرك حاجة المدينة كلها للأمن الخارجى .. فحشد أمره لينظم أوضاع المدينة وليوجد أنواعاً من الأمن تدخل الطمأنينة على القلوب .. وليوحد الأنظار ويوجهها إلى العدو الخارجى .

ورأى الرسول هذا الخليط البشرى عرضة لدعوى العصبية ، فأراد أن ينزع بمبضع النطاسى البارع سبب العصبية ومضغتها وأن يوجد فى شرايينهم دماء الحب ، وأن يزرع فى قلوبهم شجر الإخاء .. فيتحدوا ويتآلفوا : أى أنه أراد أن يجعل من هذا الشتات وحدة .. ومن هذا التمزق قوة .. وأن يوحد الصفوف قبل

---

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٧٠ – ٧١ .

توحيد السيوف .. وأن يؤلف من هذا الخليط جبهة واحدة تصمد أمام سيل الأحداث الجارف فماذا هو فاعل ؟

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

كان أول مابدأ به فى ميدان المجتمع .. أن أقام المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ..

وقد ذكر ابن هشام المعاهدة بين المسلمين وبين اليهود قبل المؤاخاة .. وذكرها ابن القيم وغيره بعد المؤاخاة .. وقد آثرنا مافعله ابن القيم ؛ لأنه الأليق عقلاً والأسبق عملاً .

وقد ذكرنا دواعى المؤاخاة فى بحث خاص رددنا فيه على من يزعم أن المؤاخاة كانت فى مكة نثبته هنا لأن هذا موضعه .

المؤاخاة كانت فى المدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم)

الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الحشر.

نشرت بعض المجلات الإسلامية التى تصدر فى إحدى الدول العربية بحثاً لأستاذ فاضل انتهى فيه إلى أنه كانت هناك مؤاخاة بين المهاجرين فى مكة قبل المؤاخاة التى حدثت فى المدينة بين المهاجرين والأنصار .

وردًّا على هذا الرأى وتمحيصاً لهذا الموضوع سنبين أحوال أهل مكة والمدينة .. ونذكر دواعى المؤاخاة التى رآها الأستاذ الكريم ، ونعقب عليها بالدواعى الحقيقية لمؤاخاة المدينة .. ثم نستعرض رأيه وأدلته التى استشهد بها ونناقشها ونستخلص بعض النتائج تصحيحاً للمسار التاريخى للدعوة الإسلامية .

أولا : الحالة فى مكة :

يصور إبراهيم عليه الصلاة والسلام مكة وهو يتجه بكليته إلى الله سبحانه وتعالى فى عبير عاطفى خالد وهو يُودِعُ مكة فلذة كبده إسماعيل وأمه (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى ذرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) [1] .

وقد يتصور بعضٌ أن مكة كانت بائسة محرومة لأنها فى واد غير ذى زرع .. وقليل منهم يعلمون أنها فى وقت ظهور الدعوة الإسلامية كانت من أغنى القرى .. بل كانت سوقاً من أربح الأسواق التجارية فى العالم القديم .. وكانت قريش فيها من أعظم التجارة همة وأخبرهم بحال من حولهم من الأمم .. ولعل الموقع نفسه والحرمان الطبيعى هو الذى حفز هممهم وضاعف نشاطهم ، فساحوا فى الأرض وابتغوا التجارة[2] .

لقد استفادت من موقعها المتوسط على محور الواحات الممتد بين اليمن والشام

---

(١) الآية ٣٧ إبراهيم .

(٢) بطل الأبطال جـ ٢ ص ٨٣ .

وبين البحر الأحمر والخليج الفارسى ، واستطاعت رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة ورحلة الصيف إلى الشام وفارس أن تهيئ لها اقتصاداً قويًّا .

وكان تنظيم هذه القوافل مظهراً لتضامن قريش وتعاونها الاقتصادى ، وكان بعض القرشيين قبل تنظيم هذه القوافل التجارية إذا أصاب واحداً منهم فقر خرج هو وعياله إلى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ويؤثروا الموت على سؤال الناس وإذلال نفوسهم .. إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه فأنكر مايفعله هذا البعض ووجه القرشيين إلى تنظيم روابطهم التجارية مع الشمال والجنوب ، فما ربحه الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان غنيهم كفقيرهم .. وجاء الإسلام وهم على ذلك .. فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش .. وإلى هذا يشير شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم ... حتى يكون غنيهم كالكافى [1]

كان أهل مكة فى بسطة من الرزق ومتاع بكل مالذ وطاب من منتجات العالم القديم .. وإلى ذلك تشير الآية الكريمة (أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يُجْبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لايعلمون) [2]

ولقد قدّرت صادرات مكة وقت الهجرة بخمسين ومائتى ألف دينار من الذهب .. وإذا كانت هذه قيمة الصادرات أدركنا قيمة البضائع التى كانت تتبادلها مكة وهى وسيط بين اليمن والحبشة والإمبراطوريتين الرومانية والفارسية .. وكانت هذه التجارة الواسعة غير محصورة فى بيت أو فريق من الناس [3]

(١) بلوغ الأرب من أحوال العرب للألوسى جـ ٣ ص ٢٨٦ – ٢٨٧ طبع الأهلية – مصر

(٢) الآية ٥٧ – القصص .

(٣) بطل الأبطال ص ٨٣ .

كان المكيون يشتركون فى قوافل التجارة كل على حسب قدرته المالية ، ولهذا كانت القوافل كبيرة .. والقافلة التى حاول المسلمون اعتراضها والتى كانت سبباً فى غزوة « بدر » كانت مكونة من ألف بعير فيها أموال عظام تقدر بخمسين ألف دينار[1].

وروى أن أبا سفيان لما أحس الخطر على القافلة قبيل بدر استنهض مكة كلها ، فخرج إليه ألف من المقاتلة معها مائة من الخيل وسبعمائة من الإبل .. ولما أصيبت قريش فى بدر تبرع أهل مكة بقافلة أبى سفيان كلها ليعدوا بها للانتقام من محمد وأصحابه .. وقد كانت أرباح مكة من هذه التجارة الواسعة تقدر بخمسين فى المائة من رأس المال مما أتاح لها حياة من البذخ تلحظونه فى كرم أهلها وهم يضيفون حاجّ الجزيرة كلها .. ويسرفون فى اللهو بالخمر والميسر والقيان والطرب[2].

كانت هذه أحوال مكة قبل الإسلام وبعده .. وبعد أن هاجر المهاجرون إلى المدينة .

ثانيا : أحوال أهل المدينة :

لم تكن بهذه المثابة .. لقد أصاب أهلها جهد شديد بعد الهجرة لم يسلم منه الرسول نفسه .. يؤيد ذلك ماروى أن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال : يارسول الله ، أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً .. فقال النبى ﷺ : ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يارسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لاندخر له شيئاً

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى جـ ١ ص ٦٦ تحقيق وشرح محمود شاكر طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) بطل الأبطال ص ٨٣ .

فقالت : والله ماعندى إلا قوت الصبية قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئى السراج ونطوى بطوننا الليلة ففعلت .. ثم غدا الرجل على رسول الله فقال : لقد عجب الله عز وجل أو ضحك من فلان وفلانة وأنزل الله تعالى : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[1] .

والمهاجرون صودرت أموالهم .. وحبس متاعهم فى مكة .. وقد جاءوا إلى المدينة وليس لهم مايملكون سوى إيمانهم : فهذا مصعب بن عمير لا يجد مايتستر به ، وهذا على بن أبى طالب يطل من ثقب الباب على يهودى ليعمل فى بستانه .. كلما نزع دلواً نال تمرة حتى نال حفنة ، وهذا رسول الله ﷺ يخرج إلى المسجد فيجد أبا بكر وعمر فيقول لهما : ما أخركما ؟ فيقولان : الجوع .. فيقول : وما أخرجنى إلا الجوع !

وفى المدينة أصيب المهاجرون بحمى يثرب من أول حلولهم فيها نظراً لاختلاف المناخ عنه فى مكة .. ويروى أن جمعاً من الصحابة المهاجرين أصيبوا بالحمى عقب الهجرة .. بسبب الوباء واختلاف المناخ ، واشتدت عليهم الحمى كما اشتد بهم الحنين إلى موطنهم الأول وذكرياتهم ، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق وبلال بن رباح وعامر بن فهيرة خادم رسول الله وأبى بكر فى الهجرة .

وتروى السيدة عائشة رضى الله عنها أنها سألت عامر بن فهيرة وهو محموم فقالت له : كيف تجدك يا أباعامر؟

---

(١) الآية ٩ - الحشر .

فأجاب بقوله :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه   أن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه   كالثور يحمى جلده بِرَوْقِه

وقد تشاءموا من عقم نسائهم .. حتى إن امرأة الزبير لما ولدت كان نفاسها عيداً .. وصحبهم الفقر بعد أن تركوا أموالهم فى مكة ذلك الأمر الذى لامخرج منه إلا بالجد والعمل .. ورسول الله قد برهن فيه على فيض من العقل .. وحسن السياسة لم يؤت مثله مصلح ولا فاتح فى زمن من الأزمان[1].

وقد زادت وحشتهم وزاد شوقهم إلى أهلهم وذوى قرابتهم .. وبدأت العوامل النفسية والاجتماعية تعمل عملها فى نفوسهم ، وبدأ النزوع الفطرى إلى الوطن والأهل يراودهم صباح مساء ، وزاد من قلقهم ووحشتهم شعورهم بالضيق .. واشتداد ظروفهم المادية والنفسية والاجتماعية عليهم .. وقد شعر الرسول بما يشعرون وأحس بما به يحسون فدعا ربه .. وكثيراً ماكان يدعوه .. « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » .

ولم تكن الزكاة قد فرضت بعد .. فلم تفرض إلا فى السنة الثانية للهجرة على الأصح .: لأنها من ملامح المجتمع المسلم ، ولم تكن ملامحه قد تشكلت فى أرض الشرك .. وإنما كانت هناك الصدقة .. والزكاة التى فى السور المكية يراد بها الصدقة ، لا الزكاة المفروضة بشروطها وأركانها على الوجه الذى فرضت عليه بعد .

ولقد وصف رسول الله ﷺ حال المسلمين وماهم عليه من جهد وشدة فى غزوة بدر ؛ كما وصف حال المشركين فقال : « اللهم هذه قريش جاءت بخيلها وفخرها .. جاءت تحاربك وتكذب رسولك .. ونظر إلى المسلمين وقال : « اللهم

---

(١) بطل الأبطال ص ٨٢ ، ٨٣ .

إنهم جياع فأطعمهم عراة فأكسهم ، حفاة فألبسهم .. اللهم ؛ إن تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض » .

وقد قال تعالى : ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ آل عمران/ ١٢٣.

قال ابن كثير : كان العدو مابين التسعمائة والألف فى سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسوّمة والحلى الزائدة ، والمسلمون كانوا ثلثمائة عشر رجلاً.. منهم فارسان وسبعون بعيراً والباقون مشاة ليس معه من العدد جميع يحتاجون إليه »[1].

ومن يقرأ معاهدة الرسول مع اليهود يجد أنه قد نص فى بعض بنودها على أنه لايجير مشرك مالاً لقريش ولانفساً ولايحول دونه على المؤمن[2].

ومن يتابع الغزوات والسرايا التى بدأت بعد سبعة أشهر فقط من مقدم رسول الله المدينة يجد أن مقاتليها كانوا جميعاً من المهاجرين فقط .. ولم يشترك واحد من الأنصار فيها : فسرية عبيدة بن الحارث وسرية حمزة وسرية سعد بن أبى وقاص وسرية عبد الله بن جحش وهى التى سبقت غزوة بدر الكبرى لم يكن فيها واحد من الأنصار ، ولم يشترك أنصارى واحد .. وكانت تعنى قوافل التجارة لأن قريشاً أخرجت المسلمين من ديارهم وأموالهم بغير حق ، وقد كان عدد هذه الغزوات والسرايا ثمانياً فى سنة وبضعة شهور .. مما يدل على أن العامل الاقتصادى كان له أثره البالغ .. وكان هذا نوعاً من الدفع الذى تكفل الله به لحماية الأديان ومنع الفساد فى الأرض : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠٠ — الحلبى القاهرة .

(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٨٠٧ .

إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)[1].
(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)[2].

ثالثاً : دواعى المؤاخاة :

يذكر الباحث الكريم أن المؤاخاة فى مكة كانت ضرورية لتقوية صفوف المسلمين ولزيادة تعاونهم فى مجالات الدعوة والعقيدة والحياة ولتثبيت قلوب المسلمين .. وأن اضطهاد قريش للمسلمين فى مكة دعا رسول الله إلى أن يقيم بين المسلمين فيها مؤاخاة كريمة نبيلة يتقاسم فيها المسلمون ما يملكون من مال .. حفظاً للحياة وقياماً بمئونة الأهل وسداً لحاجات الأطفال والنساء . ومعاونة على مواصلة الجهاد فى سبيل الله والعقيدة والقرآن .

وهذا لم يثبت .. ولم يرد ولم يصح .. بل العكس هو الثابت وهو الصحيح .. فقريش كانت قدراتها المالية كلها موجهة بصفة أساسية إلى النظام التجارى الذى حددنا كلٌ على حسب طاقته أى أنها كلها مشتركة فى القوافل .. وكانت وحدة القبيلة وتماسكها يمنعان من تلك المؤاخاة بما تحوى من تناصر وتآزر استغناء بالعصبية القبلية التى كانت وراء إسلام حمزة[3] رضى الله عنه وقريش عندما حاصرت رسول الله وأبا طالب وقاطعتها اقتصادياً واجتماعيًّا .. وأرادت الضغط بذلك ليتوقف الرسول عن الدعوة .. لم يكن الرسول وأبو طالب .. وحدهما بل انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا[4] إليه ولم تكن

---

(١) الآيتان ٤٠ – ٤١ الحج .
(٢) الآية ٢٥١ – البقرة .
(٣) ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٠ .
(٤) المصدر جـ ٢ ص ٣ .

شروط المقاطعة التى اتفقوا عليها فى صحيفتهم المشهورة مقصورة على رسول الله وأبى طالب وحدهما ، وإنما شملت بنى هاشم وبنى المطلب . . ولم يخرج إلا أبو لهب . . وقد نال بنى هاشم وبنى المطلب جهدٌ شديد مع الرسول وأبى طالب لولا أبو البخترى وحكيم بن حزام ومطعم بن عدي النوفلى[1].

ويذكر من دواعى المؤاخاة فى المدينة بعد الهجرة حالة المهاجرين .. فقد كانوا غرباء دون مال ودون متاع ودون دور يقول : وفى المدينة وبعد الهجرة حدثت مؤاخاة (ثانية) شارك الأنصار المهاجرون فيها فى أموالهم ودورهم ومتاجرهم وكل مايملكون مواساة للذين قدموا عليهم من المهاجرين من صحابة رسول الله ممن فارقوا ديارهم وأموالهم ودورهم وتجارتهم وأراضيهم ومساكنهم .

وهذا مانوافقه عليه عدا قوله مؤاخاة (ثانية) .. لأن المؤاخاة استدعتها دواع كثيرة بعد الهجرة .. وهذا نتفق جميعاً عليه ، أما فى مكة فلم يكن هناك دواع إليها .. ويؤكد ماذهبنا إليه الأسباب الآتية إلى جانب الأسباب التى سبقت :

أولاً : الآيات التى سبقت آية المؤاخاة مباشرة .. والتى وقعت آية المؤاخاة فى حيزها وسياقها تتعرض للناحية المادية وتؤكدها وآية المؤاخاة فى سورة الحشر.. وهى تصور ماحدث لبنى النضير عندما أجلوا عن المدينة وتتعرض لغنائمهم وفيئهم : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون .

---

(١) المصدر جـ ٢ ص ٣ – ٥ .

والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[1].

فقد ذكرت الآيات أن الفيء الذى غنمه المسلمون من بنى النضير من غير قتال هو لله ولرسوله ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايئول إلى الأغنياء وهم الأنصار.

يقول ابن كثير : أى جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كى لا يبقى مأكلة يتقلب فيها الأغنياء ؛ ثم ذكر أن من مصارف هذا الفيء الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله .. الآية .

وقد قدم صفة الفقراء على المهاجرين وهى أبلغ مما لو قيل المهاجرين الفقراء .. ليدل ذلك على شدة حاجتهم للمال .. وهو أدنى من المسكنة وأشد منها .. فالمسكين من عنده قوت يومه والفقير لايملكه .. ثم وصف المهاجرين بأنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وهو دليل عظيم على حالتهم النفسية والاقتصادية والاجتماعية .. ثم يذكر بعد ذلك الأنصار .. وقد وصفهم أولاً بأنهم تبوءوا الدار والإيمان وهذا إشارة إلى بقائهم فى دارهم .. ثم وصفهم بالإيثار الحق النابع من عمق إحساسهم وصدق مشاعرهم ، فهم يحبون من هاجر إليهم ولايبغضونه ، ولايحسدون المهاجرين على ما أعطاهم الله من فضله من فيء بنى النضير دونهم .. يؤيد ذلك مارواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قالت الأنصار لرسول الله : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل ؛ قال : لا .. فقالوا : أتكفوننا المئونة ونشرككم فى الثمرة قالوا : سمعنا وأطعنا »[2] .

---

(١) الآيات ٧ – ٩ الحشر .

(٢) رواه البخارى .

فآية المؤاخاة وقعت فى سياق التعبير عن الجانب المادى والنفسى والاجتماعى القلق فى حياة المهاجرين .. وإن الله حين أسهم لهم فى الفىء وصف الأنصار بما يقوى جانب اليقين فى نفوسهم فلا يضيقون ولايحسدون .. روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال المهاجرون : يارسول الله : ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير لقد كفونا المئونة وأشركونا فى المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأمر كله قال : لا .. ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم .

ثانياً : الآية التى أذن فيها للمسلمين بالقتال وهى قوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)[1] هذه الآية تعلل الإذن بالجهاد والقتال بأن المسلمين قد ظلموا وأنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق وبغير سبب إلا إيمانهم واعتقادهم الحق .. والظلم والإخراج من ديارهم بغير حق سببان كافيان للإذن بالقتال لرد الظلم والحصول على معادل لأموالهم ومتاعهم ودورهم المصادرة .. وهى حقوق مادية للمهاجرين .

ثالثاً : ولقد بلغ من اعتناء الإسلام بالمؤاخاة أن جعلها من موجبات الإرث دون ذوى الأرحام كما يقول ابن القيم فى زاد المعاد[2] .

ووصل بهذا التآخى فى العقيدة إلى مقام أسمى من أخوة الدم ، فقدمه عليها وجعل الميراث للأخ فى العقيدة دون الأبناء والآباء مّن غيرهما .. وقد بقيت المؤاخاة موجباً من موجبات الإرث إلى حين وقعة بدر حتى نزل قوله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) الأنفال/ ٧٥ . . وقد ذكر ابن هشام أنها بقيت إلى عهد عمر[3] .

---

(١) الحج الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) جـ ٢ ص ٥٦ .

(٣) ابن هشام جـ ٢ : ١١٠ .

وقد قال القرطبى عند قوله سبحانه وتعالى (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم . .) الآية . . قال : « عندما أجلى الرسول بنى النضير وأخذ غنائمهم جاء إلى الأنصار فقال لهم : تأخذون أنتم والمهاجرون هذا الفيء أنتم النصف وهم النصف ويبقون معكم فى منازلكم أو أعطيه المهاجرين كله ويستقلون عنكم ؟ فقالوا : بل أعطه المهاجرين ويستقلون عنا أى فى دور خاصة بهم ومتاع خاص بهم » .

ويؤيد هذا ماذكره ابن القيم فى زاد المعاد [1] .. فقد ذكر « أنه لما انهزم المشركون فى حنين غنم الرسول غنائم كثيرة .. فأمهلهم بضع عشرة ليلة ليأتوا إليه مسلمين ثم بدأ بالأموال فقسمها ، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ثم أمر زيد بن حارثة بإحضار الغنائم والناس ثم فرقها على الناس .

ولما أعطى رسول الله ﷺ من تلك العطايا الكبار فى قريش وفى قبائل العرب ولم يكن فى الأنصار شىء منها وجد هذا الحىّ من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم لقى والله رسول الله ﷺ قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يارسول الله . . إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب .. ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار منها شىء .. قال : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال : يارسول الله ، ما أنا إلا من قومى قال له الرسول : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة .

ثم أتاهم الرسول فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يامعشر الأنصار ، مقالة بلغتنى منكم وجدتموها فى أنفسكم .. ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله بى .. وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل ثم قال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟

---

(١) جـ ص ١٨٨ - ١٨٩ .

قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله .. لله ولرسوله المنّ والفضل ..

قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتكم .. أتيتنا مكذباً فصدقناك .. ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلاً فواسيناك .. ؟

أوجدتم عليّ يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به .. ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار .. ولو سلك الناس شعباً ووادياً وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووادبها ، الأنصار شعار .. والناس دثار .. اللهم ارحم الأنصار .. وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظًّا »

وكلام القرطبى إلى جانب ماذكره ابن القيم يفيد أموراً ثلاثة :

الأمر الأول : أن السبب الأصيل للمؤاخاة هو قلة مابأيدى المهاجرين من مال ومتاع يستطيعون به مواجهة الحياة وأعباءها ومتطلباتها .

الأمر الثانى : أن هذا العامل الملح ظل باقياً حتى غزوة بدر ، كما قال ابن القيم حتى نزلت الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) أو حتى جلاء بنى النضير حيث استقل المهاجرون بالفىء الذى استطاعوا به مواجهة الحياة . . وكان فيه شبه استقلال ذاتى عن كاهل الأنصار .

الأمر الثالث : كان بعض المهاجرين غنيًّا فى مكة .. وقد ترك ماله ومتاعه وكل مايملك عند هجرته .. فلما صارت حاله إلى ماصارت إليه من فقر وغربة وهو أمر له آثاره التى لاتخفى .. تعبت نفسه حتى إن أبابكر رضى الله عنه فى غزوة بدر نادى ابنه عبد الرحمن وكان مايزال مشركا فقال له :

أين مالى ياخبيث ؟

فرد عليه عبد الرحمن فى سخرية وشماتة :

لم يبق غير شكة ويعبوب   وصارم يقتل ضلال الشيب[1]

أى لم يبق غير سلاح وخيل لقتال من شاب وضل .

رابعاً : ولقد كان العرب أهل عصبية يعتزون بها ويتفاخرون .. وقد شعر المهاجرون بأنهم ضعفاء .. غرباء ليست لهم تلك العصبية ، وكان لابد من تدارك هذا الأمر .. والمشرع الذى ينظر إلى المقتضيات الإنسانية والنفسية والاجتماعية فى تشريعه مشرع حكيم .

ويذكر الأستاذ عبد الرحمن عزام[2] أن رسول الله بعد هجرته رأى هذا الخليط من أتباعه فى يثرب عرضة لدعوى العصبية ، فدعاه إلى التآخى وجعل للرجل من قريش أخاً من الأوس وللآخر أخاً من الخزرج مازال يؤاخى بين هذا وذاك .. ويعقد بينهم أواصر أخوة فى الله حتى شمل القبائل والبطون ، ووصل بهذا التآخى فى العقيدة إلى مقام أسمى من أخوة الدم ، فقدمه عليها ، وجعل الميراث للأخ فى العقيدة دون الأبناء والآباء وغيرهم .

هذه هى دواعى المؤاخاة وهى كلها تشير إلى الحالة النفسية والاجتماعية والاقتصادية القلقة التى كان يحياها المهاجرون فى المدينة والتى من أجلها كانت المؤاخاة التى حلت محل العصبية القبلية فى الفخر ومحل الأرحام فى الإرث .

لقد أقامها الرسول تثبيتاً للألفة وأواصر الأخوة وإقامة لقواعد المجتمع على أسس من المحبة والرحمة والعطف والنبل والتعاون والتكافل والتراحم ، بل إن الرسول أراد بعد بيعة العقبة الثانية أن يوجد نوعاً من التكافل بين عنصرى الأنصار

---

(١) جـ ٢ ص ٢٠٣ السيرة لابن هشام .

(٢) ص ٧٣ .

الأوس والخزرج .. فقرر نوعاً من التكافل أو الكفالة العامة بين الأنصار أوسهم وخزرجهم لدفن ماكان بينهم من حروب ونسيان ماكان يسودهم من إحن وخلافات .. فبعد أن بايع النقباء رسول الله بيعة العقبة (التانية) قال لهم كما يرويه ابن إسحق :

«أنتم على قومكم بما فيكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى يعنى المسلمين .. قالوا : نعم»[1].

استعراض لأدلته والرد عليها :

النصوص التى أوردها الباحث الفاضل فى هذا الشأن والتى استشهد بها فيها اضطراب كثير.

فقد نقل عن ابن الأثير من كتابه «أسد الغابة» جـ ٢ ص ٢٧٩ وذكر أن الرسول آخى بين الزبير بن العوام وبين عبد الله بن مسعود كما آخى بين الأنصار والمهاجرين بمكة .. فلما قدم الزبير المدينة وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين سلامة بن وقش.

ثم ينقل عن المصدر جـ ٣ ص ٢٩ قوله : «لما أسلم طلحة بن عبد الله والزبير ابن العوام آخى رسول الله بينهما بمكة قبل الهجرة فلما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى رسول الله بين طلحة وبين أبى أيوب الأنصارى.

والاضطراب فى الرواية ظاهر وهو فى الحق لم يقف عند ابن الأثير .. بل إن ابن هشام اضطرب فيما يرويه عن ابن إسحق حين يذكر أن الرسول جعل الزبير بن العوام وسلامة بن وقش أخوىْ عبد الأشهل أخوين .. ويقال : بل إن الزبير وعبد الله ابن مسعود من بنى زهرة كانا أخوين .. فالتعبير بقوله (يقال) يفيد الشك ؛ فإن

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٦.

الزبير وابن مسعود كانا أخوين فى المدينة لا فى مكة وهو مايؤكده الباحث فى صدر حديثه ص ١٥ من مجلة منار الإسلام من أنه كان ابن الزبير وعبد الله بن مسعود أخوين .

أما طلحة بن عبد الله الذى ينقل الأستاذ الكريم عن ابن الأثير أن الرسول آخى بينه وبين أبي أيوب الأنصارى فى المدينة .. فإن ابن هشام فى سيرته يذكر أن طلحة بن عبد الله وكعب بن مالك كانا أخوين ومصعب بن عمير بن هشام وأبو أيوب خالد بن زيد أخو بنى النجار أخوين[1] .

ويشير ابن القيم فى زاد[2] المعاد إلى أنه قد قيل : إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية .. واتخذ عليًّا أخاً ..

فهو قد أشار إلى هذه المؤاخاة التى قيل : إنها حدثت فى مكة وذكر أنها رواية ضعيفة . لاستغنائهم بأخوة الإسلام فى مكة وأخوة الدار وقرابة النسب .. وماحدث فى مكة بأخذ صفة الصداقة والتآخى والتآزر بين أصدقاء أسلموا مع بعضهم كطلحة والزبير.

خاتمة بالنتائج :

١ - كان هدف المؤاخاة إيجاد نوع من الألفة بين العناصر الجديدة المهاجرة التى زرعت فى مجتمع جديد لم تألفه وبين هذا المجتمع وتقوية جبهة المسلمين تغلباً على المشاكل الاقتصادية والنفسية والاجتماعية التى تواجههم .. وتلافياً لما قد يصيب المهاجرين والأنصار معاً من خلاف .. وقد قرر الرسول نوعاً من التكافل بين الأنصار أنفسهم بعد بيعة العقبة (الثانية) تلافياً لخلافاتهم الماضية .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٩.

(٢) جـ ٢ ص ٥٦.

٢ – المؤاخاة التى ذكر الكاتب الفاضل أنها حدثت فى مكة والتى ذكر أنها مجهولة لم يشر إليها أحد من مؤرخى السيرة على الإطلاق ولم يكشف عن فكرتها أحد من قبل .. ولم يُكتَبْ عنها شىء قبل بحثه ، هذه المؤاخاة تحدث عنها ابن القيم فى زاد المعاد وضعفها ورفضها .. وأثبت بالدليل ضعفها ورفضها .. ويكون عدم إشارة المؤرخين أو تعرض لها لذلك السبب .

٣ – لو ثبتت هذه المؤاخاة لكانت ذات مظهر بارز فى تاريخ الإسلام ولا يمكن تجاهلها .. وتاريخ الدعوة الإسلامية لايؤرخ له بخبر الواحد .

٤ من يقل بوجود تلك المؤاخاة فى مكة يجهل الحياة المكية بوحدتها وتماسكها وعصبيتها .

٥ – المؤاخاة لم تكن لها دواعيها فى مكة ؛ لأن المسلمين كانوا فى دارهم وأموالهم وبين أهليهم ، وكانوا يستغنون بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب .. أما فى المدينة فالأمر مختلف تماماً ، وقد أراد الرسول أن يلغى الاعتماد على العصبية وأن يوجد نوعاً من التآخى فى العقيدة يحل محل أخوة الدم ويصبح موجبا للإرث حتى تقوى العلائق وتزداد تمكناً .

٦ – النصوص القرآنية والنبوية التى وصفت حال المهاجرين تصور فقرهم وإخراجهم من الأهل والمال .. وشعورهم بالقلق والضيق المادى والنفسى .

٧ – الإذن بالقتال علل بأن المهاجرين ظلموا وصودرت أموالهم وممتلكاتهم .

٨ – النصوص التى استشهد بها الباحث الكريم لوحظ عليها الاضطراب ، وهى ليست قطعية ومطعون فيها .

٩ – ماذكره الباحث لايعدو أن يكون نوعاً من الصداقة بين رجلين كانا صديقين قبل الإسلام وأسلما معاً ، فآخى الرسول بينهما تأكيداً لتلك الصلة .. ولو

كانت المؤاخاة قائمة فى مكة بصورة عامة لضربتها قريش وحاربتها .. وهو مالم نسمع عنه .

من هذا كله يتضح لنا أن المؤاخاة كانت فى المدينة للدواعى التى ذكرناها .. وكانت غايتها تقوية بناء المجتمع السليم ، ليصمد فى وجه المشكلات الملحة والأحداث العارضة .. وإيجاد نوع من المحبة والألفة بين عناصره المختلفة فى النشأة والبيئة .

ولقد كان المهاجرون غرساً زرع فى غير بيئته يلزمه الرعاية والتعهد ، وكان فراقهم لكل معطيات الحياة يجعلهم قلقين .. فأقام النبى هذه المؤاخاة ، ليجعل من الأنصار والمهاجرين جبهة واحدة ويداً واحدة يخرج بهم على الناس جميعاً قوة يفك بها نطاق الشرك المضروب حول المدينة .. ويؤمن بها المدينة نفسها من الفتنة التى يثيرها اليهود بين الأوس والخزرج وبين المشركين والمسلمين عامة .. وليقيم دولة الإسلام على أسس من الحب والتضحية والإيثار .

نظر الرسول إلى المسلمين فى ظل الظروف التى كان يدركها جيداً ، وخاف على الأنصار أن تدب الفرقة بينهم وتسعى الفتنة إليهم وتطل فيهم أحقاد الماضى .. ويذر قرن الشيطان .. وأدرك أحوال المهاجرين وظروفهم النفسية والاجتماعية والاقتصادية وخاف على نفوسهم أن يدمرها التفكير السيئ .. أو يدب إليها الوهن والقلق والاضطراب : أى أنه أدرك أن هذا وذاك فى حاجة إلى صياغة جديدة وإلى علاج بعد أن شخص المرض وعرف موطن الداء .

قصد الرسول إلى هذه اللبنات الهشة .. وذلك البناء المتداعى وتلك الخلايا المعرضة للأدواء والعلل .. وحاول أن يمحو مابها من قصور .. ويعدل مابها من اعوجاج .. وأن ينظف تلك الحبات الكريمة ليسلكها فى عقد عظيم .. وأن يهيئها لحياة ملؤها الألفة والطمأنينة والأمن والسلام .. وأساسها العقيدة المتوهجة المتألقة

فى النفوس .

وباختصار شديد .. اهتم الرسول بالإنسان باعتباره العامل الحاسم فى إحداث التغيير الذى يوده .. والشىء الأهم فى إيجاد التفاعل الديناميكى والميتافيزيقى مع طبيعة المجتمع المتغير فى ظل الظروف المتغيرة والمتجددة .

اهتم به من حيث قيمه وتقاليده ومثله ، فأحدث بها وبه تغييراً كان لابد أن يحدث .. ومن حيث سلوكه الاجتماعى فهدأ من سعار العصبية المرتفع وشرتها المتضخمة .. ودمدم عليها وأزالها .. وهدم قلاعها فى النفوس .. وحرثها .. ومهدها وزرعها بحدائق الخير والأمل والإشراق والعبير .. وسكب عليها من سكينة الروح وطمأنينة النفس وسمو الروح ما أبعد غلواءه وفخره وتعاظمه بالقبوريين من الآباء والأجداد .. وذكى فيه طبيعة الإيثار والتحاب .. وكانت المؤاخاة أساس كل ذلك .. وكان لابد منها كتشريع اجتماعى يكفل الحب والرحمة والتكافل والتعاطف والنبل والإيثار بين فئات المسلمين المختلفة الظروف نفسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا .. ولكى يصبح السلك الحامل للكهرباء موصلاً جيداً لابد أن يكون متجانساً مهيأ لحمل الشحنة والتلقى .

دعا الرسول الأنصار والمهاجرين إلى وليمة الحب .. وجعل للرجل من المهاجرين أخاً فى الله من الخزرج أو من الأوس ومازال يؤاخى بينهم فى الله بكل وسائل القربى .. بعيداً عن دواعى العصبية وقرابة الدم حتى شمل كل القبائل والبطون .. وأصبح لكل رجل من المهاجرين أخ من الأنصار .. كما أصبح لكل رجل من الأنصار أخٌ من المهاجرين فى تعانق ذكى وتصارح نبيل .. وارتفع الإسلام بهذه المؤاخاة فى الله والعقيدة إلى درجة أقوى من قرابة العصبية ومقام أسمى من أخوة الدم حين جعل الميراث للأخ فى العقيدة دون الأخ فى الدم .

أراد الرسول أن يزيل الوحشة الصامتة فى عواطف المهاجرين والمشاعر القلقة

من نفوسهم وأن يربت على جراحاتهم ونوازعهم من فقد الأخ والزوج والأب والابن والأهل والمال والمتاع والدار والعشيرة والأصحاب والأحباب .. وأن يعوضهم عن هذا الحرمان البشري بحب صاف نبيل فيه من ألق الروح وعناية السماء الرائمة .

ومن أراد أن يعمق أمر هذه المؤاخاة وموقعها فى ظروفها وزمانها فليبحث أمر الأسرة فى الجاهلية ومنزلة الفرد فيها .. وتماسكها وتآلفها .

وقد استطاع الرسول أن يزيل الحاجز النفسى الذى كان يفصل بين الأنصار والمهاجرين .. وأن يزيل الوحشة من نفوس القادمين من مكة .. وأن يجعل المهاجر لاينظر إلى تمزقه النفسى الذى يزلزل صميمه من جراء نزوعه الفطرى إلى مكة ومافيها ومن فيها .

كانت المؤاخاة ضرورية .. وبها أصبح المسلمون إخوة فى الله لايكاد الأنصارى يحس بالأثرة ولايكاد المهاجر يحس بالألم والامتعاض ، وقد كان الأنصار حقًّا على مستوى الحب والإيثار الذى وصفهم الله به ، وبذلك سلب الرسول سيطرة القبلية والعصبية .. وأحل محلها الحب فى الله والإيثار والأريحية .

وقد بلغت هذه المؤاخاة من نفوس الفريقين درجة كبيرة ، وبلغ تمكنها من عواطفهم ومشاعرهم درجة كبيرة .. حتى بعد أن قدم عليها العهد .. وتقدمت بها خطى الأيام .. فحمزة رضوان الله عليه كان هو وزيد بن حارثة أخوين .. وقد ترك حمزة وصيته لزيد عندما حضره الموت فى غزوة أحد . . وكان بلال وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى أخوين . . ولما دون عمر الدواوين وكان بلال قد خرج مجاهداً إلى الشام . . فأقام بها مجاهداً . فقال عمر لبلال :

إلى من تجعل ديوانك يابلال ؟

قال بلال :

أجعله مع أبي رويحة .. لا أفارقه أبداً للأخوة التي كان الرسول ﷺ عقدها بيني وبينه[1] .. وقد طالب زيد بن حارثة بحضانة ابنة حمزة لأن الرسول كان قد آخى بينه وبيني.

ولقد حرص الرسول كل الحرص على بقاء هذه المؤاخاة جليلة متينة فى النفوس .. فمنع إنشاد[2] الشعر الذى يحرض على الفتنة .. ولما حاول اليهود إثارتها تصدى لهم وقال : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم .. وحرص الصحابة كذلك على أن تبقى بعد الرسول فى مكانتها من النفوس : جاء أن ابن الزبعرى وضرار بن الخطاب أصرا على الذهاب إلى المدينة ومثول حسان بين يديهما يقولون شعراً فاستثاره بإنشادهما ماقالته قريش فى الأنصار حتى فار وغلى كالمرجل فتركاه وانصرفا .. وذهب حسان مغضباً إلى عمر فأخبره فاستردهما عمر ثم قال لحسان : أنشدهما ماشئت فأنشدهما حتى اشتفى[3] .

كان لابد أن تحدث هذه النقلة الاجتماعية لتهيئ المجتمع لإقامة الفرائض من صلاة وصوم وزكاة .. وأن يشيع فيه التراحم والتآخى والترابط .

وبدأ الرسول فى توجيه المهاجرين إلى الجهاد والغزو .. وتدريبهم عملياً للقاء العدو .. وحفزهم لاستخلاص حقهم من عدوهم وشغلهم عما عساهم فيه يفكرون .. فوجه بعد ستة أشهر أو زهائها أول سرية أو غزوة .. وبدأت الغزوات والسرايا حتى بلغت قبل غزوة بدر وبعد مضى ثمانية عشر شهراً أو أقل ثمانياً مابين غزوة أو سرية.

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ١٠٩ - ١١٠.

(٢) الدرارى المضيئة جـ ١ ص ٩٣ للشوكانى ط ١ سنة ١٣٤٧هـ وزاد المعاد جـ ٢ ص ١٥٣ .

(٣) فى الأدب الجاهلى ص ١٢١-١٢٢- المعارف سنة ١٩٦٤ والأغانى جـ ٤ ص ٥ بولاق .

المعاهدة بين الرسول وبين اليهود

بسم الله الرحمن الرحيم

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً)

الآية ٢٩ من سورة الفتح

كان اليهود يقيمون مع المسلمين فى المدينة كما سبق أن ذكرنا ، وبعد أن استقر الرسول فيها كان المسلمون يمثلون الأغلبية .. وقد رأى الرسول أنه لكى يقيم دولة لابد له من الشعب والأرض .. فالأرض موجودة وعليها أصحاب ملة أخرى ..

وهم يظهرون له وداً ويضمرون شراً .. فرأى الرسول بثاقب فكره أن يقيم بينه وبينهم معاهدة – وبرغم أنه يعرف نواياهم وشرورهم – رأى أن المصلحة تقتضى أن يقيم هذا الصلح ، لأن الجولة مع قريش وشيكة الوقوع .. وهو لا يريد أن يفتح جبهتين أو يكشف ظهر المسلمين ، أو يجعله موطن مخافة ، ويريد الرسول أيضاً أن يكون من هذا المجموع البشرى كله اليهود والمسلمين ومن معهم شعباً يصلح نواة الدولة .

وكما أقام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصد إلى أن يوجد علاقة بين المسلمين وبين اليهود على أساس من الاحترام المتبادل ، فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم .. وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط وقد بادر حبرهم وعالمهم عبد الله بن سلام فدخل فى الإسلام وأبى عامتهم إلا الكفر .. وكانوا قبائل ثلاثاً (بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة)

ومما جاء فى تلك المعاهدة[1] :

بسم الله الرحمن : هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .. إنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرين من قريش على ربعتهم يتعاملون بينهم وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) .. بالمعروف والقسط بين المؤمنين والأنصار (بنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحارث وبنو جشم وبنو النجار وبنو عمرو بن عوف وبنو النبيت وبنو الأوس كل قبيلة منهم على ربعتهم يتعاملون ويفْدونَ عانيهم) وإن المؤمنين لا يتركون مفرجا (مثقلا بالدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .. وألا يحالف مؤمن

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٦ – ١٠٨ .

مولى مؤمن دونه .. وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم .. وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولامتناصرين عليهم .. وأنه لايجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على المؤمنين .. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ .. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .. وإن يهود (بنو عوف) أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. وإن ليهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة وجفنة وبنى الشبيطة ماليهود بنى عوف .. وإن البر دون الإثم .. وإن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإن على نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة .. وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأن النصر للمظلوم .. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .. وإن الجار كالنفس غير مضار وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وأن الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأبره وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دَهَمَ يثرب .

وينضح لنا من تلك المعاهدة أن الرسول أكد جملة من المبادئ الهامة :

١ – أن قوة المسلمين أصبحت قوة فعالة لها تأثيرها وزاد من هذه القوة اعتراف اليهود بها وبنبيها .

٢ – أصبحت المدينة مدينة مفتوحة لكل من أسلم ؛ لأن هذه المعاهدة جعلتها موطناً للمسلمين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فلحق بهم .

٣ – زادت هذه المعاهدة من تضامن المسلمين وتناصرهم وقد نص فيها على أن ما كان من خلاف وشجار فإن المرجع فيه إلى الله والرسول ، وجعلت كل طائفة من

المسلمين تتعامل فيا بينهم تفدى عانيها .. ولكن المؤمنين جميعاً لايتركون مثقلاً بالديون أو كثير العيال إلا أعطوه بالمعروف .

٤ - كفلت المعاهدة حرية العقيدة للمسلمين دينهم ولليهود دينهم ومواليهم كأنفسهم وقد ضمن اليهود بذلك حرمة دينهم وعدم اعتداء المشركين عليهم .

٥ - ترك الرسول الباب مفتوحاً لكل راغب من اليهود فى الإسلام على أساس النصرة والأسوة .

٦ - تعهد اليهود بألا يجيروا مالاً ولا نفسا لقريش .. ولا يحولوا على المؤمنين دونها .. ويكون الرسول بذلك قد بدأ يضع قريشاً فى حصار ويقطع عليها الطرق .

٧ - بهذه الصحيفة انقادت إلى النبى السلطة الزمنية فى يثرب دون قصد .. فقد نصت المعاهدة على أن الرسول هو الحكم الذى يرجع إليه فى حالة الخلاف وقد كرر الرسول هذا الشرط مرتين ومنذ تلك الساعة وضع الرسول الحجر الأساسى لدولة الإسلام .

٨ - كما جعلت منه حاكماً يستأذنه من يريد الخروج والدخول من اليهود والمرجع عند كل خلاف .

٩ - اشترطت المعاهدة تضامن اليهود والمسلمين فى تحمل نفقات الحرب وصد العدوان الخارجى .. وقد أكد الرسول ذلك مرتين .

١٠ - جعلت هذه المعاهدة يثرب مدينة آمنة لأول مرة فى تاريخها .. وبهذه التدابير ظهرت يثرب وطناً لأهلها لامسكناً لأقوام متنازعين فيها .. وطناً آمناً للمسلمين واليهود والمشركين على السواء وللنازحين إليها من أية قبيلة ومن أى عنصر[١] .

---

(١) بطل الأبطال ٧٨ ، ٧٩ .

١١ – زاد هذا الصلح من عزة الإسلام وأهله .. وقد جعل بعض الفقهاء هذا الصلح فتحاً إسلامياً للمدينة واعترافاً من كل الطوائف بسيادة الإسلام .. وإنما لم تفرض الجزية على اليهود لسببين يذكر ابن القيم[١] أنه لم تكن قد فرضت الجزية بعد ، ويرى آخرون أنه لم تفرض عليهم الجزية ؛ لأن اليهود قبلوا أن يتحملوا نفقات الحرب مع المسلمين .

الأهداف والنتائج :

ونظرة إلى ماسبق مما استخلصناه من شروط المصالحة يتضح لنا أن المعاهدة لم تكن صلحاً بين المسلمين وبين من عداهم من اليهود بقدر ماكانت دستوراً عاماً لكل سكان المدينة ، فهم مواطنون أمام القانون سواء متكافئون فى الحقوق والواجبات .. متضامنون لحمايتها باذلون لها النفس والمال مكلفون بالدفاع عنها ضد التدخل الأجنبى والغزو الخارجى مع كفالة الحرية الدينية فيها لكل مواطن وحرية المال والدم والعرض والجوار .

وظهر لأول مرة معنى الوطن الذى يتساوى فيه المواطنون جميعاً فى ظل نظام يعطى حقوقا ويلزم واجبات .. وكل حق نظيره واجب من غير نظر إلى لون أو جنس أو فوارق الحسب والنسب والعصبيات .

قضى هذا الدستور على الإباحية والفوضى وسيطرة القوة ، وقرر حق الأمة وجعله فوق حق القبيلة وأرجع حق إقامة الحدود إلى الله ورسوله : أى إلى الشريعة .. والرسول منفذ الشريعة .. بعد أن كانت تتولاها القبيلة والعصبية التى لاتفرق بين جان ومجنى عليه وبين مذنب وبرىء.

ونرى بعد ذلك كله أن الرسول قد أوجد معطيات حضارية وبذر للحضارة

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٧٤ .

بذورها ورعاها وتعهدها وصانها من وصاية القبائل والعصبيات والتكتلات الضاغطة فى أشد الأقوام ميلاً إلى الفوضى والهمجية.

وكانت المعاهدة إلى جانب ذلك ذات معنى كبير.. إذ إن المصطفى عليه الصلاة والسلام كان يدرك أن لحظة الصدام مع قريش وشيكة الوقوع كما قررنا سابقاً.. ولم يشأ أن يبدد جهد المسلمين وطاقتهم.. ويشغل بالهم فى جبهتين.. فأقام المعاهدة وهو يعلم جيداً ويدرك جيداً أن اليهود ليس لهم عهد ولا ميثاق ولا ذمة ولا شرف.. فكان جلاؤهم كتاباً مؤجلاً والصدام معهم نظرة إلى فرصة قابلة.

تحويل القبلة :

كان المسلمون يتجهون فى صلاتهم إلى بيت المقدس وظلوا يتجهون إليه حتى شهر شعبان من السنة الثانية من قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة.

وكان الرسول يحب أن ينصرف إلى الكعبة.. وقال لجبريل : وددت أن يصرف الله وجهى عن قبلة اليهود.. فقال له جبريل : إنما أنا عبد فادع ربك واسأله.. فجعل يقلب وجهه فى السماء يرجو ذلك حتى أنزل الله سبحانه وتعالى : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام)[1] وكان الرسول لايرضى أن يتجه إلى قبلة يتجه إليها اليهود.

وبعد ستة عشر شهراً من مقدمه المدينة قبل وقعة (بدر) – بشهرين تقريبا جاءه الأمر بالاتجاه إلى الكعبة فى الصلاة. والذى لاشك فيه أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتحرق شوقاً لأن يتجه إلى الكعبة.. وقد زاد من شوقه بُعده عن مكة بعد هجرته الشريفة وذكى شوقَه ما يعاوده من نزوع فطرى إليها وإلى الكعبة المشرفة بعد وداعها الوداع المشوق وهو مهاجر عنها :

---

(١) الآية ١٤٤ – البقرة.

ولقد كان بعض الصحابة من مسلمي الأنصار يتجه إلى الكعبة ويأبى ألا يدع الكعبة خلف ظهره وألا يصلى لها .. وكان فى سفر مع أصحابه إلى مكة فكانوا يصلون إلى بيت المقدس .. ويتجه هو إلى الكعبة ، ولما وصلوا مكة ذهب هذا الصحابى وكان هو البراء بن معرور ومعه كعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ فقال البراء : يانبى الله إنى خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام فرأيت ألا أجعل هذه البَنِيَّة منى بظهر فصليت إليها وقد خالفنى أصحابى فى ذلك حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء فماذا ترى يارسول الله ؟ قال الرسول له : كنت على قبلة لو صبرت عليها . . فرجع البراء إلى قبلة الرسول ﷺ وصلى إلى الشام . . وقد زعم أهله أنه صلى إلى الكعبة حتى مات .. يقول عون بن أيوب الأنصارى مشيراً إلى البراء :

ومنا المصلى أول الناس مقبلاً   على كعبة الرحمن بين المشاعر (١)

وكان تحويل القبلة محنة واختباراً للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .. فأما المسلمون فقالوا : سمعنا وأطعنا .. وقالوا آمنا به كلٌّ من عند ربنا .

وأما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا .. وما رجع إليها إلا أنها الحق .

وأما اليهود فقالوا : خالف قبلة الأنبياء قبله ولو كان نبيًّا لكان يصلى إلى قبلة الأنبياء .

وأما المنافقون فقالوا : ماندرى محمدًا أين يتجه ؟ إن كانت الأولى حقًّا فقد تركها .. وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل .

وكثرت أقاويل السفهاء (سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ..) (٢)

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٢ – ٦٣ .

(٢) البقرة/١٤٢ .

وكانت القبلة كما قال الله : ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾[1]

وأكد الله أمر التوجه إلى الكعبة أكثر من ثلاث مرات ، وأمر به حيثما كان رسول الله ﷺ ومن حيث خرج .. وأخبر أن الذى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم هداهم إلى هذه القبلة ، وأنها هى القبلة التى تليق بهم وهم أهلها ؛ لأنها أوسط القبل وأفضلها وهم أوسط الأمم وخيارهم ، فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب .

الأذان :

وأتم الله نعمته على المسلمين مع القبلة بأن شرع لهم الأذان فى اليوم والليلة خمس مرات ، وزادهم فى الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية ، فكل هذا بعد مقدمه المدينة[2] بعد أن اطمأن بها واجتمع له أمر الأنصار ولم يبق بالمدينة غير القليلين من اليهود والمشركين وأصبح المسلمون أغلبية .. استحكم أمر الإسلام فشرع الرسول يقيم المجتمع المسلم الذى يتحقق بإظهار الشعائر دون تخويف أو أعداء ، فقامت الصلاة ، وبنيت المساجد ، وفرضت الزكاة تقوية للمجتمع وتثبيتاً لأركانه ، وقامت الحدود لصيانته ودعمه ، وفرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلام مكانته بين أظهرهم كما تبوأها فى صدورهم ونفوسهم .

وكان المسلمون يجتمعون ، فيتحينون الصلاة وليس ينادى بها أحد فتكلموا يوماً فى ذلك فقال بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم بل قرناً[3] مثل قرن اليهود .. فقال عمر : أولا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة ؟ فقال

---

(١) البقرة/١٤٣ .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٧ – ٥٨ . (٣) البوق .

رسول الله ﷺ : يابلال قم فناد بالصلاة [1]

وعن عبد الله بن زيد فى رواية أخرى : «لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس ليضرب به الناس فى الجمع للصلاة ، وفى رواية أخرى (وهو كاره لموافقته النصارى) طاف بى وأنا نائم رجلٌ يحمل ناقوساً فى يده فقلت له :

ياعبد الله أتبيع الناقوس ؟

قال : ماذا تصنع به ؟

قال فقلت : ندعو به إلى الصلاة

قال : أفلا أدلك على ماهو خير من ذلك ؟

قال فقلت له : بلى ،

قال : تقول : الله أكبر.. وأملى عليه صيغة الأذان الحالية .

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت فقال : إنها لرؤية حق إن شاء الله . . فقم مع بلال فألق عليه مارأيت فليؤذن به .. فإنه أندى صوت منك .. قال : فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به .. فسمع بذلك عمر وهو فى بيته فخرج يجر رداءه يقول : والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى .. فقال النبى ﷺ : فلله الحمد .

والأذان إلى جانب مايعنى من الإعلام بحلول وقت الصلاة يعنى الإعلام بالعقيدة بصورة أسمع والإعلان عن وجود المسلمين السياسى ، فلا يعقل أن يؤذن للصلاة فى بلد غير إسلامى ، ولايمكن أن يحدث .

ومن هنا كان الأذان إشعاراً بالوجود الإسلامى وثباته ونموه ويعنى تحولاً أساسيًّا وجوهريًّا فى حياة هذه الأمة وهذه الدولة الإسلامية .

ونلاحظ أنه كما كان الرسول غير راض هو وبعض الصحابة عن توجههم إلى

---

(١) رواه البخارى وأحمد .

بيت المقدس كان أيضاً كارهاً لأن يتخذ البوق أو الناقوس شعاراً وإعلاماً بحلول وقت الصلاة .. وهذا يعنى أن الرسول يكره لأمته ولدولته فكرة التقليد والتبعية .. وينشد لها الفكرة الاستقلالية فى الشخصية والذات بعيداً عن بصمات اليهودية والنصرانية أو طريقهما فى الإعلام بالصلاة .

وقد سبق أن قلنا : إن الأذان كان يمثل النشيد القومى فى الدولة الإسلامية .. والرسول يود أن يفرد لها نشيداً خالداً يرتبط بمقوماتها ويدعو إلى تمجيد العقيدة والعزة والدعوة إلى الخير والفلاح ، فلم يكن الأذان مجرد دعوة إلى الصلاة .. وهذا وحده كاف فى إثبات استقلال الشخصية السياسية للدولة .. ولكنه إلى جانب ذلك كان يمثل النشيد القومى .. وهو يشكل ملمحاً من ملامح الدولة .

اللــواء :

اللواء للدولة شخصيتها المعنوية وهويتها التى تعرف بها بين الدول .. ولذلك تحرص كل دولة حصلت على استقلالها أن تختار علمها ونشيدها القومى تأكيداً لملامحها وإبرازاً لشخصيتها الدولية .. وقد جعل الرسول عليه الصلاة والسلام للمسلمين لواء أبيض كما كانت هناك رايتان سوداوان أمام الرسول فى الحرب .

وقد اختلف المؤرخون وكتاب السيرة حول اسم أول من حمل لواء للمسلمين : فابن هشام مثلاً يرى أنه عبيدة بن الحارث . . وغيره يرى أنه حمزة بن عبد المطلب . . وهو الصحيح .

ولايعنينا الآن تحرير الخلاف .. وسنذكره فى موضعه إن شاء الله من هذا البحث ..

والأذان واللواء يمثلان فى الأعراف الدولية والدبلوماسية والسياسية اعترافا بالوجود السياسى والحقوق السياسية فى الوقت نفسه والتعامل المتكافئ . . ولذلك

يعزف النشيد القومى ويرفع اللواء فى زيارة رؤساء الدول أو الوزراء وغيرهم عند زيارتهم لدول أخرى .

وقد صدح بالأذان بلال .. وزلزل صداحه المدينة كلها .. وكبت شعور الحاقدين .. وهذا قمة الاعتراف بالوجود الإسلامى من سكان المدينة أجمعين.

الإذن بالقتال والجهاد :

الإذن بالقتال سبق فرضيته .. ولكن هل الإذن بالقتال نزل فى مكة أو نزل الإذن به بعد استقرار الرسول بالمدينة وتأييد الله بنصره وبعباده المؤمنين ؟

يرى ابن هشام[1] أن آية الإذن بالقتال مكية وأن الإذن بالقتال جاء بعد بيعة العقبة الثانية .. وكان الرسول قبل هذه البيعة يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل .. فلما عتت قريش عن أمر ربها أذن الله عز وجل لرسوله فى القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم فكانت أول آية نزلت فى إذنه له تعالى بالحرب وإحلاله الدماء والقتال فنزل قوله : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله ﴾ [2] .

ويرى هذا الرأى كثير من العلماء والمؤرخين والدارسين منهم المرحوم محمد الخضرى الذى يرى أن أكثر القرآن نزل فى مكة وأهم ماتناوله فى العهد المكى مايلى :

١ – التوحيد ورفض الأوثان والأصنام .

٢ – الإيمان بالبعث واليوم الآخر والحساب .

٣ – بين القرآن الخصال التى تقرب الإنسان من الله.

---

(١) السيرة جـ ٢ ص ٧٩ .

(٢) الحج/٣٩ ، ٤٠ .

٤ – بيان العبادات العملية التى تربطهم بالله وتوجههم إلى الخير.

٥ – مما شرع فى آخر أيام الرسول بمكة الإذن له بالقتال[1].

ويرى ابن القيم أنه لما استقر رسول الله بالمدينة ، وأيده الله بنصره وبعباده والمؤمنين ، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التى كانت بينهم فمنعته الأنصار وبذلوا نفوسهم دونه . وكان أولى بهم من أنفسهم – رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساعد العداوة وصاحوا بهم من كل جانب .. والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة واشتد الجناح ، فأذن لهم حينئذ بالقتال ، ولم يفرضه عليهم فنزلت الآية التى فيها إذن بالقتال .

وردّ على من قال إن هذا الإذن كان بمكة وإن السورة مكية بوجوه : منها أن الله لم يأذن بمكة لهم فى القتال ولا كان لهم شوكة وأن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم وأن قوله تعالى : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) الحج/ ١٩ نزلت فى الذين تبارزوا فى يوم بدر : أى وهى فى السورة المكية ومنها أن الله خاطبهم فى آخرها بقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)[2] . والخطاب على هذا الأسلوب مدنى .. فأما الخطاب (يأيها الناس) فمشترك ..

ومنها أنه قد يكون أمرهم فى هذه الآية بالجهاد الذى يعم الجهاد باليد وغيره ..

ومنها ما روى عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون لَيَهْلكُنَّ فأنزل الله عز وجل : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ..) وإن سياق السورة يدل على أن منها المكى والمدنى .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ٨٦ – ٩٣ ط ٨ – التجارية – مصر .

(٢) الحج / ٧٧ .

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا)[1]

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة . وكان محرما ثم مأذوناً به ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال .. ثم مأموراً به لجميع المشركين[2] (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)[3].

والترتيب الزمنى أن ينزل الإذن بالقتال أو فرضيته بعد أن يشتد أزر المسلمين ويقوى ساعدهم وأن يجىء الأمر بالقتال دفاعاً عن كيان يعرف قوته وحسن استعداده .. كيان يدافع عن وجوده ولم يكن للمسلمين قوة ولا وجود مستقل يصح الدفاع عنه .. ولقد أمر الرسول أصحابه بعد بيعة العقبة (الثانية) بالهجرة .. فأين يقع الإذن بالقتال ؟ ولهذا نرى أننا مع ابن القيم فى رأيه .. ويمكن توجيه الإذن بالجهاد قبل المدينة إلى أن يكون إذناً بأى نوع من أنواع الجهاد .

كان لابد من الإذن بالقتال وفرضيته الجهاد لصيانة الدولة والذود عن حياضها والدفاع عن الوجود المسلم ؛ لأن الدولة دون الإعداد لحمايتها لاتعيش ولاتصمد ولايكتب لها البقاء .

ولقد كان الرسول يدرك جيداً أن لحظة الصدام مع قريش وشيكة الوقوع .. وكان أبعد الناس نظراً وأرجحهم عقلاً .. فمنذ أن وصل أخذ فى إعداد العدة لحماية الدعوة من قوم لايحترمون غير القوة .. ولم يفلح فيهم النصح ثلاثة عشر عاماً أو زهاءها[4] .

---

(١) الآية ١٩٠ البقرة .

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٨ .

(٣) الآية ٣٦ التوبة .

(٤) بطل الأبطال ص ٧٥ .

فبدأ الرسول فى إعداد أصحابه وتدريبهم على وسائل الدفاع عن النفس والمهارات الفردية كالمصارعة والرماية والمسابقات وركوب الخيل .. فأحسن ابتكارها وهيأهم وأعدهم لحمل السلاح .. وبدأ يتهيأ ويعدهم للعمل الحاسم الذى يرد به قريشاً إلى صوابها بإصابتها فى أعز ماتعتمد عليه حياتها وهو تجارتها .. ويكسر نطاق الحصار الذى ضربه الشرك حول المدينة ليؤمن المدينة ذاتها من الفتن والقلاقل والاضطرابات .

تلك أغراض ثلاثة لابد لإدراكها من القوة .. وخلق هذه القوة وتنظيمها وتدريبها والاستعانة بها على أسمى المقاصد عمل امتاز به محمد ﷺ على من سبقه من الرسل .. وذلك الدور فى تدريب المهاجرين والأنصار والخروج بهم على الناس جميعاً قوة ضاربة – من أدق ماامتحن به محمد مصلحاً ورجل دولة ، وفيه تجلى له من حسن الذوق السياسى والعسكرى مالايضاهيه إلا أخلاقه الفاضلة .

لم يضيع الرسول فرصة واحدة ولا لحظة واحدة منذ قدم المدينة ولم تغفل عينه طرفة عين .. وكان يعمل بكل ماأوتى من قوة .. وكأنه فى صراع مع الزمن .. فلم يستقر به المقام فى المدينة حتى بدأ تدريبه للمهاجرين والأنصار .. ليصوغهم صياغة خلقية ودينية وعسكرية جديدة أساسها النظام واحتقار الموت .. فكانوا رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار .

وبدأ يعتمد على المهاجرين أولاً فى توجيه بعض الغزوات والسرايا[1] ، فبعد وصوله بسبعة أشهر فقط عقد أول راية فى الإسلام لحمزة أو لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب .. وفى أقل من عام ونصف العام بلغت سراياه وغزواته ثمانياً .. كان هدفها أولاً إحياء آمال المهاجرين فى الظفر بممتلكاتهم ورفع روحهم المعنوية وإبعاد

(١) الغزوة ماخرج الرسول فيها بنفسه سواء قاتل أم لا والسرية ماوجه فيها جيشا بقيادة بعض الصحابة .

شبح القنوط الذى كان قد بدأ يساورهم ويخيم عليهم .. والتدريب العملى الدائم والإعداد المشترك لخطط الحرب .. وإعلام أهل المدينة ومن حولها من الأعراب الطامعين فيها أن الرسول جاد فى مقاومته القوة بالقوة .. وأن الرجل الذى يتعرض لقريش ليس بالرجل الذى ينال منه أو يظفر به أو يستباح حماه .

وعلمت قريش أن محمداً والمستضعفين معه من الذين أخرجتهم قريش بالأمس أصبحوا خطراً داهماً على ثرواتها وكيانها الاقتصادى وهو أعز ماتملك . بقدرما أصبحوا خطراً على كيانها الدينى وسيطرتها وزعامتها للعرب .

كانت الغزوات والسرايا بيانات عملية .. وتدريبات بالذخيرة الحية التى أحسن المسلمون استخدامها والعمل عليها فى عام ونصف العام وهو زمن قياسى فى قوة وليدة .

ولما أنس الرسول فيهم القوة والمهارة وحسن الاستعداد ووثق بهم وفى قدرتهم وإيمانهم وصبرهم وبلائهم وكفاءتهم القتالية .. لم يتردد فى معركة حاسمة .

وقد علم الرسول بعير قريش التى ضمت أموالاً كثيرة .. لم يخل من الاشتراك فيها بيت فى مكة ، فأراد أن يضرب اقتصاد مكة ويهدم كيانها .. فتعرض للقافلة ، ولكن أبا سفيان نجح فى الهرب بها .

وبرغم تحذيرات أبى سفيان وحكيم بن حزام والأخنس بن شريك لقريش بعدم التعرض لمحمد وصحبه فإن الزعماء القرشيين نادتهم مصارعهم ، فأبوا إلا ورود ماء بدر والتحرش بالمسلمين وإغاظتهم وعزف القيان وشرب الخمور .

وانتصرت القلة المسلمة فى بدر ، ثم كانت أُحُد وانتصر القرشيون فى جولتها .. ثم كانت غزوة الأحزاب التى ابتلى فيها المسلمون وزلزلوا زلزالا شديدا ؛ لأن اليهود نقضوا عهد الرسول ، وجاء العدو من فوقها ومن أسفلها .. ولكن الرسول أتم بالرأى والحيلة مابدأه بالشجاعة والصبر فانصرف الأحزاب .

كانت غزوة الأحزاب قمة الصراع بين المسلمين والمشركين .. وروى أن الرسول ﷺ بعد أن انهزم المشركون يوم الأحزاب قال :

«إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم وتسمعون منهم أذى ويهجونكم »[١] ثم صالح قريشاً فى الحديبية على أن تضع الحرب أوزارها بينه وبينهم عشر سنوات .. ولكنهم نقضوا العهد بتعدى بكر على خزاعة بالقتال .. فكان فتح مكة وإزالة معاقل الشرك .. ثم استقر فى حنين وطهر ماحول مكة أيضاً .. وأما اليهود فقد حاربت بنو قينقاع بعد غزوة بدر .. فقد ساءهم نصر المسلمين وملأ الحقد نفوسهم فسار إليهم بعد بدر بأقل من شهر فمن عليهم وأخرجهم من المدينة إلى أذرعات بالشام وطهر المدينة منهم .

وأما بنو النضير فقد نقضوا العهد بعد بدر بستة أشهر فأجلاهم أيضاً .

وأاما بنو قريظة فكانوا أشد عداوة ، وقد انتهزوا فرصة غزوة الأحزاب ، فنقضوا عهدهم مع الرسول وسبّوه .. فظفر بهم فقتل بنى قريظة وسبى ذراريهم .. ونزلت سورة الحشر فى بنى النضير .. وسورة الأحزاب فى بنى قريظة .. وصالح أهل خيبر على إجلائهم منها ولهم ماحملت ركابهم .. ثم طُرِد اليهود بعد ذلك من الجزيرة كلها .

وامتد نور الله بعد ذلك ؛ ليمحو ضلال الشرك والوثنية فى فارس وفساد المسيحية المتهالكة فى الروم .

كانت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة سلسلة متصلة الحلقات من الأعمال والجهاد والإعداد ووضع الخطط والتشريعات والنظم ورسم سياسة الأمة الناشئة .. لم يهدأ ولم يغفل .. ولم يكل ولم يدع الظروف تغلبه .. حتى ثبتت أركان الدولة وأخضع لنورها القاهر رقاب الشرك وجحافل الوثنية واعترف به عتاة

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ٢٣٣ – دار الكتب .

قريش .. وسادة الجزيرة .. وبدأت فتوح الإسلام تتجه إلى خارجها .

كانت الهجرة بداية إرساء الدولة والعامل الحاسم الأهم فى نشأتها وقوتها وازدهارها وانتصارها .. ولقد وضع الرسول فى اعتباره قبل الهجرة هذا كله .. فعمل له.. ولم يضيع لحظة واحدة ولا فرصة واحدة .

عمل ماوسعه العمل ، وجاهد ماوسعه الجهاد حتى أقام دولته التى التهمت فى أحشائها فى زمن قياسى أكبر دولتين فى العالم آن ذاك وصارت الإمبراطورية الإسلامية .

الرسول بين العهدين المكى والمدنى

بسم الله الرحمن الرحيم

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) .
سورة الأنفال/ ٢٦

ذكرنا أن الهجرة كانت نهاية لمرحلة من الضعف والتحسب .. وبداية لمرحلة من الحماية والدفاع والقوة والتصدى والقتال .. وذكرنا أن الرسول ﷺ كان مقدمه للمدينة بداية لوضع اللبنات الأولى للدولة الإسلامية .. وبناء المجتمع المسلم الذى يقوم بشعائره الدينية فى حرية تامة .. إلى غير ذلك .

وتميزاً للمرحلة الزمنية فى المدينة عنها فى مكة جعل بعض كتاب الغرب يحاول أن يصور الرسول فى شخصيتين (مكى – مدنى) ويقول : إن محمداً فى مكة كان

نبياً .. أما فى المدينة فكان رجل دولة وصاحب سلطان .. وهذا وهم دفعهم إليه تصورهم المريض لطبيعة المرحلتين وتميزهما .. فقد نظروا إلى الرسول فى مكة واعظاً يعظ .. وداعية يدعو ومرشداً يرشد ويهدى .. وما رأوه بالصورة نفسها فى المدينة يعبد الله حتى تتورم قدماه .. شخصية واحدة كانت تدعو لتهيئ النفوس للخير وتهديها سواء السبيل .. ثم لاتنسى أن تفنى نفسها فى هذا الضوء .. فما اختلفت الشخصية فى مرحلتيها .

محمد الذى رأوه فى مكة يعرض نفسه على القبائل ، ويلقى الإهانات ، ويشيعه العبيد والصبية والسوقة من (الطائف) بالسخرية والحجارة ، ويقيمونه إذا جلس من الإعياء .. فيدعو الله لهم بالهداية والغفران والعفو هو نفسه محمد الذى منّ على رءوس قريش بالعتق يوم فتح مكة وهو الذى ناول عثمان بن طلحة مفتاح الكعبة .

ومالاحظوا أن أيام المحنة فى مكة كانت هى التى وضعت نواة الدولة .. وماعلموا أن الصراع الذى ساد طبيعة المرحلة فى مكة ثلاثة عشر عاماً أو زهاءها[1] كانت نتيجة وضع المخططات للدولة ، وماكانت الدولة والدعوة الإسلامية ببالغتين رشدهما ونضجهما فى المدينة إلا على يد الطلائع الراشدة من الأنصار التى اهتدت وأقبلت على الدعوة فى مكة أيام المحنة والصراع .

تميز المرحلة بعد الهجرة بما فى هذا التميز من ملامح أملتها طبيعة المرحلة من كثرة التشريع والتنظيم وتصريف شئون الحياة .. ماهو إلا برهان قاطع وحجة دامغة على حيوية الرسول وتفوق شخصيته .. ومعايشته الصادقة الواعية للظروف التى تعترضه والمشاكل التى تتصدى له .

---

(١) يرى الخضرى فى تاريخ الأمم الإسلامية أن الرسول مكث فى مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر وواحدا وعشرين يوما إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء جـ ١ ص ٨٥ طبعة ٨ .

وقد أملت عليه طبيعة المرحلة فى المدينة .. أن يعد العدة لحماية الدعوة من قوم لايحترمون غير القوة .. ولقد كان أمله وهمّه أن يبلغ دعوته وينشر دينه .. ويبسط على الشرك سيادة الدين.ولقد اقتضت ظروف كل مرحلة أن يكون الرسول متأهباً لها برجاحة العقل وبعد النظر وحسن الاستعداد .

ردود وحدود :

ويرى الدكتور طه حسين أنه «منذ هاجر النبى إلى المدينة تكونت للإسلام وحدة سياسية لها قوتها المادية وبأسها الشديد ، وأحست قريش أن الأمر قد تجاوز الأوثان والآراء الموروثة والسنن القديمة إلى شيء آخر كان فيما يظهر أعظم خطراً فى نفوس قريش من الدين ومايتصل به .. وهو السيادة السياسية فى الحجاز .. والطرق التجارية بين مكة وبين البلاد التى كانت ترحل إليها بتجارتها فى الشتاء والصيف وأنت تعلم أن محاولة الاستيلاء على العير هو أصل الوقعة الكبرى الأولى بين النبي وقريش فى (بدر) فليس من شك إذن فى أن الجهاد بين النبى وقريش قد كان دينيًّا خالصاً ما أقام النبى فى مكة .. فلما انتقل إلى المدينة أصبح هذا الجهاد دينيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وأصبح موضوع النزاع بين قريش والمسلمين ليس مقصورا على أن الإسلام حق أو غير حق .. بل هو يتناول مع ذلك الأمة العربية أو الحجازية على أقل تقدير .. لمن تذعن؟ والطرق التجارية لمن تخضع ؟ »

ومعنى هذا كما يقول الدكتور أن الهجرة قد وضعت مسألة الخلاف بين النبى وقريش وضعاً جديداً .. جعلت الخلاف سياسيًّا يعتمد فى حله على القوة والسيف بعد أن كان دينيًّا يعتمد على الجدال والنضال بالحجة ليس غير[1] .

فقد تبنى الدكتور طه حسين فى هاتين الفقرتين عن قريش تصوير آراء قريش

(١) فى الأدب الجاهلى ص ١١٧ – ١١٨ دار المعارف سنة ١٩٦٤.

وعرضها عرضاً ربما كان يدور فى فكرها وربما ماكان يدور لها ببال .

وقد نوافقه عليه أو لا نوافقه .

ولكن الذى لانوافقه عليه ماذكره ممايتصل بالجهاد .. فهو يشتم منه رائحة الغمز والطعن على الجهاد ووضعه فى سياق الدعوة .. وتاريخ الإسلام .. إذ معناه أن الرسول كان همه الأول من الحرب الاستيلاء والسيادة .. وبهجة السلطان ورواق العز وعظمته . . وهذا مالم يخطر للرسول على بال .. وماكان ليخطر له .. وأظن ويظن الدكتور طه حسين معى هذا .. وهو ترديد مقنع لما زعمه أساتذته من المشرقين .

فالسيادة السياسية فى الحجاز لم تكن لتدخل فى مقصد الرسول الأسمى من الجهاد .. إلا من أجل بسط السيادة الدينية والسيادة عنده لاتتجلى فى مظهرية السلطان وعظمته .. وإنما تتجلى فى صورتها السامية فى إتمام نور الله وعدم إطفائه وفى سيادة الحق وبسط كلمته ورفعها لواءه واعتناقها مبادئنا

. والسيادة على الطرق التجارية لم تدخل فى حساب الرسول ﷺ .. وماكان لها أن تدخل فى حسابه .. أو يدخلها هو فى حسابه .. بل لاتعتبر هدفاً أساسيًّا للدعوة الإسلامية بقدر ماكانت إصابة عير قريش هى الهدف .. وبقدر ماكان ضرب النظام الاقتصادى لقريش بعد مافعلت بالمهاجرين وأموالهم ومتاعهم ودورهم مافعلت .. أى بعد ماصادرت ممتلكاتهم .. وأوصلتهم إلى ماهم فيه من فقر وضنك وبعد أن ضربت حول الإسلام والمسلمين فى المدينة الحصار الاقتصادى .

وهل يتصور أن يتمتع مغتصب المال به ويسرف فيه أمام صاحبه وصاحبته برم ضائق فقير ، ثم لايتحرك .. ولايتحفز ولا يحاول استرداده ؟

لعل الدكتور (طه حسين) كان يتصور ذلك .. وخصوصاً أنه يدافع عن قريش أو يتبنى وجهة نظرها .. ولاسيا أنه لم ينوه بالسبب الأصيل فى التعرض للعير

من قريب أو من بعيد .. وهو مصادرة قريش لأموال المسلمين المهاجرين واستيلاؤها عليها ..

أما الجهاد فقد فرضت عليه الظروف مرحلة .. وأقام لنفسه مرحلة ، أما المرحلة التي أقامها فكانت في قريش .. وكان جهاداً بالحجة كما قال الدكتور (طه حسين) .. جهاداً بالقرآن كما أمره الله (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً) [1] أي بالقرآن .

والجهاد منه جهادٌ بالقلب .. وجهادٌ باللسان وجهادٌ بالمال وجهادٌ باليد وبالنفس وهو آخرها .

وقد كان الجهاد المأمور به في مكة جهاد الحجة وجهاد التبليغ ولكن قريشاً آذت الرسول وصحبه وأخرجتهم .

فهل يستمر الجهاد بالحجة ؟ وهل تكفي الكلمة مع غوغائية قريش ؟ وهل إذا وقف الرسول عند الجهاد بالكلمة – لاقدر الله – كان سيكتب للإسلام البقاء والنمو ؟ وهل سيقال إن الرسول لن ينتصر للكلمة ، ولم يدافع عنها ولم يرم عن قوس الحق .. ولم يحمها من لؤم أو كيد المرضى بالحقد والأنانية والسيف والقوة ؟ وهل تستطيع الكلمة الفاهمة أن تنفذ إلى قلوب وأسماع من أصموا آذانهم وأغلقوا قلوبهم .. وكادوا للحق وتعصبوا عليه .. وناصبوه العداء ورموا داعيه بالأذى والكيد والحقد والتربص .. ونصبوا لكل من أسلم فخاخ الذل والهوان ؟

كان لابد من أن تتغير الوسيلة .. ويتغير أسلوب الجهاد بعد أن تعددت أسبابه من الناحية الدينية إلى الناحية الاقتصادية باستيلائهم على أموال المهاجرين وتبديدها وحصار الإسلام في المدينة ، ومن الناحية السياسية بعد وجود قوة ضاربة تحمي الإسلام وكلمته وترفع رايته . . وتدافع عن أهله .

---

(١) سورة الفرقان/ ٥٢ .

«كان الرسول فى المدينة[1] على مفترق طريقين .. طريق يريده له بعض كتاب الملل الأخرى وبعض قصار النظر ممن يحلو لهم الكلام ويعجزون كل العجز إذا اعترضتهم عقبات الحياة وسخافات البشر وسنن الوجود .. وطريق آخر هو الذى سلكه .. لأن الله أرشده وأعده ليكون المثل الكامل فى القول والفعل» .

أما الأول فهو الطريق السلبى .. وأما الآخر فهو الطريق العامل .. فى الأول كان عليه أن يكتفى بالإقامة فى المدينة كما كان فى مكة واعظاً مرشداً .. معولاً على حماية من عادوه من أهل المدينة منتظراً ماتفعل قريش ومن حول يثرب من الأعراب .. فإن أحسنوا وتركوه فى عزلته كان لهم الفضل .. وإن جاءوا فقضوا عليه كان له أجر الشهادة ولهم فخر النصر.

وأما الطريق العامل .. فهو أن يدرك هذا الخطر ويعمل على منعه .. ويقوم على دعوته مناضلاً مجادلاً مجاهداً حتى يفوز بغايته ويضمن للذين آووا ونصروا والذين جاهدوا معه السلامة والعزة .

لم يكن محمد ﷺ من الوعاظ الذين يمرون على الحياة يلقون إلى الدنيا كلمة الخير .. ثم لاينظرون أذهبت مع الريح أم بقيت ؟ فهو بمقتضى رسالته ومروءته ورجولته الكاملة شخص آخر ، هو الجد فى صورة رجل .. والإيمان العامل الراسخ ينسف الباطل نسفاً

ماجاء محمد ﷺ المدينة ليبنى صومعته .. ويسأل المشركين واليهود حمايتها .. فلم يكن ذلك بمقتضى طبعه وفطرته .

---

(١) بطل الأبطال ص ٨١ – ٨٢ .

فهرس

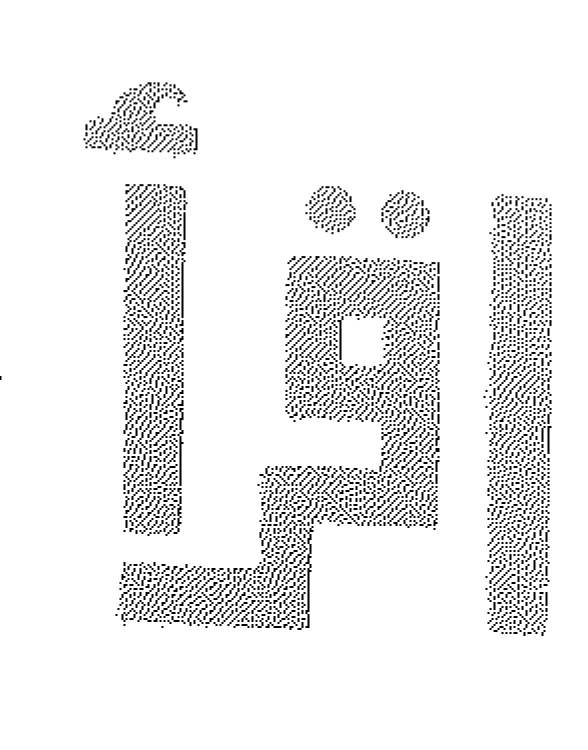
رقم الإيداع	١٩٧٩ /٣٩٩٣
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧٩٩ - ٨

١ /٧٩ /١٠١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



محمد إبراهيم أبو سنة



دراسات في الشعر العربي

أعز مكان في الدنا سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب



تصدر أول كل شهر

[٤٥٢] أغسطس – ١٩٨٢

رئيس التحرير أنيس منصور

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

محمد ابراهيم أبو سنة

دراسات في الشعر العربي

(طبعة ثانية)



دار المعارف

فهرس

صفحة

هذا الكتاب

القمة هى الوطن الخالد للشعر ، فما من شعر عظيم إلا وينبثق من لحظات الذروة : الحب ، النصر ، الهزيمة ، الفراق ، الموت . وهذه الذُّرا هى مدخل الروح الإنسانية إلى الشعر ، إلى هذا الفردوس الذهبى الذى يحمل كل عناصر الجحيم . ودائماً تهيم روح الإنسان شوقاً وراء عالم مستحيل يستغرقه البهاء والجمال والجلال . وهذا الكتاب مجرد خطوات قصيرة فى الفردوس . لم أحمل معى كاميرا خاصة لأخطف بها ألوان البحيرات الزرقاء ولا مساحات الخضرة على شواطئ الأنهار ، ولكننى ببساطة حملت قلبى لأجعله مرآة تنعكس عليها هذه المشاهدة السريعة لوميض هذه المدن العامرة بالأسرار الخطيرة . مدن الشعراء الغامضة . لم أحاول أن أضع تعريفاً للشعر فقد حاول قدامة بن جعفر ذلك حين قال : «الشعر هو قول موزون مقفى له معنى» ، وكانت هذه الكلمة سبباً فى الاشتباك النقدى معه

منذ ذلك الوقت حتى الآن ، لأنه حاول الإمساك فى عُلبة مغلقة بضوء الشمس ، لقد حاول المستحيل وربما كان الرد عليه هو رأى الشاعر الفرنسى رامبو ، فى أن هدف الشعر هو رؤية مالا يرى وسماع مالا يسمع ، وربما كان رامبوا بهذا قد وضع الشاعر فى زمرة المجانين ، ولكنه بكل تأكيد اقتبس ومضة من ضياء المدن المجهولة ، وحاول ذلك الشاعر الألمانى نوفاليس حين قال : «الشعر هو الواقع الأصيل المطلق» وقال : «الشعر بالنسبة للإنسان كالجوقة بالنسبة للمسرحية الإغريقية هو مسلك النفس الجميلة الموقعة ، صوت مصاحب لذواتنا المكنونة – مسيرة فى بلد الجمال ، أثر ناعم يشهد فى كل مكان على إصبع الإنسانية – قاعدة حرة – انتصار على الطبيعة الفجة فى كل كلمة – فطنته تعبير عن فاعلية حرة مستقلة – علو وارتفاع – بناء للنزعة الإنسانية – تنوير – إيقاع – فن الشعر تصوير للوجدان لعالم الباطن بكليته ، إن وسيلته – وهى الكلمات – تدل بنفسها على هذا ، فهى كما نعلم المظهر الخارجى الذى يكشف عن تلك المملكة الباطنة» ولكن كل هذه التعريفات قد عجزت عن الوصول إلى ما يحدده المناطقة من هدف للتعريف ، وهو الإحاطة بالمُعرَّف بحيث تكون جامعة لكل صفاته مانعة لغيره من الاشتراك معه ، وما أصعب تعريف الشعر لأنه يشبه تعريف الحياة . لم نعد فى عصر التعريف بل فى عصر التعرف . عصر الاقتراب المتعاطف من الأشياء التى نحبها والتى تضىء حياتنا المحدودة على هذه الأرض . لم أطمح إلى التعريف وإنما إلى التعرف ، ومن هنا قمت بهذه الرحلات القصيرة إلى عوالم عدد من الشعراء ، آثرت أن تجمع الرحلة بين القديم والحديث لأؤكد عدة حقائق .

أولاً : انتساب الحديث إلى القديم وهذا سبيله إلى مشروعيته

ثانياً : وحدة المسيرة الشعرية كتعبير عن الوجدان القومى .

ثالثاً : وحدة الزمن فى الوجدان الشعرى طمعاً فى تأصيل التأثير الدائم لفن الشعر قديمه وحديثه .

ومن هنا آثرت أن أبدأ الرحلات من اللحظة الراهنة . من أقرب المسافات إلى أبعدها ، وليس معنى هذا أنك أيها القارئ أمام بحث تاريخى منتظم المراحل ، بل أنت أمام مناورات على أبواب العصور المختلفة ، مناوشات على الحدود لإثارة الوجدان والعقل بقضايا الشعر واتجاهاته ومستقبله . ودائماً هناك الذين يقولون إن الشعر يموت فى هذا العصر ، والذين يقولون لا بل هو على أعتاب عصره الذهبى . حيث ستوفر المدنية للإنسان رخاء الاستمتاع بوقت طويل من الراحة والتأمل . ولا أحسب إلا أن الزمن سوف ينتصر لقضية الشعر ، وذلك لأنه ، أى الشعر لم يكف منذ نبض قلب الإنسان عن التحليق بأجنحته فوق مسيرته الطويلة وسيظل الشعر هذا الفردوس الذى يشبه الجحيم . إن هذا الكتاب دراسات ، تقدم محاولة لإثارة الاهتمام أساساً بقضية الشعر . وإذا أفلح هذا الكتاب فى إثارة هذا الاهتمام فقد حقق هدفه الأساسى ، وسيعثر القارئ على عدد من القضايا ، وعلى عدد من الشعراء ، وعلى كثير من الظواهر ، ولكن كل هذه المحاولات لا تدعى لنفسها إطاراً نقدياً أكاديمياً وإنما تزعم لنفسها الحب الصادق للشعر ، والعمل المخلص لكى يتحقق لهذا الفن العزيز مستقبل ترفرف على حدوده أعلام الجمال والجلال ، وتضيئه المواهب الخلاقة . فهل تصاحبنى أيها القارئ فى هذه الخطوات القصيرة فى الفردوس .

الشعر الجاهلي والحرية

إن تاريخ الحضارة البشرية الذى يبدأ من الفوضى ويتجه إلى الحرية ، يجد فى الشعر سنداً قويًّا لإضاءة هذا الطريق العسير الذى يسلكه الإنسان وسط المخاوف والوحشة والعدوان والظلم والظمأ إلى الحب والتعاطف . وإذا كان الشعر فى الماضى شرطاً لاحتمال الحياة ولمواجهة الآلام الروحية التى يسببها الضياع والعجز أمام الكون ، فإنه يصبح فى الحاضر والمستقبل شرطاً لبناء عالم متناغم جدير بالإنسان . كان الشعر فى الماضى سلاحاً يواجه به الإنسان بطش الطبيعة وعدوان الإنسان ، واليوم أصبح الشعر سلاحاً وغذاء ودواء ، ويظل ضوءاً معلقاً فوق المسالك الشائكة ووعاء لمعاناة الإنسان الروحية . وإذا كان لنا حتى نكون قريبين مما يدور فى أعماقنا أن نتأمل هذه العلاقة الجدلية الحميمة بين الشعر والحرية ، فإن تاريخ الشعر العربى يقدم صورة نابضة بالحياة والقوة والعمق لهذه العلاقة . وإذا كان من الشائع

أن الشاعر الجاهلى يمثل اهتمامات قبيلته ويعكس سياستها الخارجية ونشر فضائلها والتغنى بتقاليدها ويرفع من شأن أبطالها ويبشر بمطامحها . فإن هذا لا يكفى ذاتيته التى كانت تطمح – وطبقا لتركيب المجتمع الجاهلى – إلى التفرد ، والتروع إلى الحرية ، وتأكيد شخصية الشاعر من خلال انتهاج سلوك اجتماعى يختلف بل يتناقض مع التقاليد الاجتماعية السائدة ، وعلى مستويات متعددة ومتباعدة كان الشعراء يعبرون عن تحديهم المستمر للشكل الاجتماعى الحتمى والذى أقرته القبيلة من خلال حكمائها وأبطالها وتجربتها التاريخية ، كان الشاعر يتحدى الإطار العام للمجتمع الجاهلى من خلال الاعتراض على الطبقية التى تترك الفقراء فى العراء وتغرق الأثرياء فى الثراء . وقد انعكس هذا الاتجاه شاملاً وحاسماً فى مدرسة الصعاليك التى كانت تسعى لوضع تصور اجتماعى يرتكز على العدالة بين الناس ، وكانوا ينفذون هذا التصور من خلال شعرهم وفروسيتهم وغزواتهم ، وهذا الاتجاه كان يسعى لوضع إطار للحرية يشمل المجتمع كله من خلال إدراكهم لحقيقة بالغة الخطورة ، وهى أن حرية الإنسان مرتبطة أساساً بقدرته ، وأن هذه القدرة تتبدى فى طاقة الإنسان الاقتصادية ، وهذا مادفع الشاعر الصعلوك عروة بن الورد إلى تقديم تصوره لحدود الفقير وقدرة الغنى ، وهو ما يفرض الإطار الاجتماعى لحرية الفرد . يقول عروة مخاطباً زوجته التى يبدو أنها كانت تخشى عليه مخاطراته بنفسه :

دعينى للغنى أسعى فإنى ... رأيت الناس شرهم الفقير
ويقصيه الندى وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
ويمشى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور

وهذه الصورة الفنية الاجتماعية تعد وثيقة من وثائق الحرية الاجتماعية . إن حرية

الفقير لا تشبه فى شىء حرية الغنى ولأن مكانة الفقير أدنى كثيرا من مكانة الغنى ؛ وهذا مدخل أساسى للحرية إذا فهمنا الحرية على أنها توظيف للإرادة فى حدود الطاقة ليست الحرية مجالا لانهائيا إلا فى الخيالات ، ففى الطبيعة تصبح الضرورة عائقا حتى يتم السيطرة عليها وتسخيرها للاستخدام الإنسانى من أجل البشرية وقد عرف الشاعر الجاهلى ثلاثة أبعاد لمفهوم الحرية — المفهوم الاجتماعى للحرية — وقد عبر عنه الشعراء الصعاليك والمفهوم الوجودى أو السلوكى وقد عبر عنه امرؤ القيس — والمفهوم الفكرى وقد وجد هذا المفهوم تجسيده فى شعر طرفة بن العبد .

أما مفهوم الحرية الاجتماعية عند الصعاليك فهو يصدر فى المقام الأول عن وضعهم الطبقى فى العصر الجاهلى حيث كان هؤلاء الصعاليك يعانون الفاقة والتشريد والاحتقار ونبذ المجتمع لهم باعتبارهم طائفة وضيعة ، ولذا كان تصورهم للعدل متلازما ومندمجا فى مفهوم الحرية وأى تصور إنسانى معاصر لا يستطيع أن يفصل بين العدل والحرية بل إننا لا نجد قيمتين مرتبطتين عضويا ومنطقيا كما ترتبط هاتان القيمتان بل وتندمجان ، ويمكن تقسيم الصعاليك إلى ثلاث جماعات متمايزة كما يقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه العصر الجاهلى مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدى وقيس بن الحدادية وأبى الطمحان القينى ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السكة وتأبط شرا والشنفرى وكانوا يشركون أمهاتهم فى سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافا وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبسى وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتى هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالى ، وإذا كان

بعض الصعاليك لا يخرجون عن كونهم لصوصا أو قطاع طرق أو متمردين من أجل وضعهم الخاص ، فإن بعضهم الآخر كان ماجداً كريماً شجاعاً فى الحرب كما كان عروة بن الورد الذى تؤكد أشعاره أنه كان صعلوكا شريفا وهو القائل :

وإنى امرؤ عافى إنائى شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

إن تلازم العدل والحرية فى نصوص شعراء الصعاليك يثبت لهذا الفريق أسبقية خطيرة فى تحديد مفهوم الحرية بأنها القدرة على توظيف الإرادة طبقا للضرورة الاجتماعية التى تحكم الفرد فى مجتمعه وكان عروة بن الورد يشبه القادة الثوريين فى إطار قيم عصره بالطبع .كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة وتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة ثم يحضر لهم الأسلاب ويكنف عليه الكنف (الحظائر) أويكسيهم ، ومن قوى منهم إما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب إليه قوته خرج به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه غنيمة إن كانوا غنموها فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى فلذلك سمى عروة الصعاليك هو إذن ليس مجرد قاطع طريق أومتمرد من أجل سد حاجته من الطعام والشراب والكساء بل هو ثائر يقود جيشا يبحث عن العدل وإنصاف الفقراء والمحتاجين ، ولكن هذا بالطبع لا يقودنا إلى الإفراط فى إسقاط مفاهيمنا الحديثة على مثل هذه الأعمال البدائية لنضعها فى صياغة تقترب من النظريات العصرية مثل الاشتراكية والديمقراطية ولكن هذا لا يعفينا من الإيمان بأن هذه الطائفة من الشعراء الفرسان كانوا أول من آمن بقضية الحرية من منظار الإيمان بالعدالة الاجتماعية .

أما – المفهوم الآخر للحرية – والذى كان يمثله امرؤ القيس وما يمكن أن نطلق عليه تعبير «المفهوم السلوكى – فقد وجد هو الآخر معبراً عنه فى كثير من أشعار الشعراء الثوار والمتمردين الذين كانوا يختارون متعهم ويفضلون أن تكون لهم أنماط خاصة لحياتهم ، كانت حياة امرئ القيس وشعره خروجاً على نظام أسرته حيث كان أبوه ملكا يأمل أن يكون أبناؤه مهيئين لتسنم أعباء هذه الرياسة ، فنشأ امرؤ القيس شاعراً لا هياً لا يكترث بقيم مجتمعه ولا بتقاليد أسرته ، يتخذ من الشعر والصيد ومعاقرة الخمر ومعاشرة النساء ديدن حياته ، كان ملكاً للشعراء بدلاً من أن يكون ملكا على قبيلته ، وكان سلطاناً للغرام واللهو بدلاً من أن يكون سلطاناً على رءوس الناس ، وقد وضعه هذا الخروج السافر على نظام القبيلة والأسرة فى صفوف المعارضة ، ويبدو أن اضطهاد أبى امرئ القيس له كان له آثره الغالب على تطور الشاعر فى اتجاه الرفض وتأسيس فلسفة ممعنة فى التمتع باللذات والإغراق فى اللهو – ويبدو أن امرأ القيس كان شديد الصدق فى تناول أسلوب حياته متمسكاً به ، فلم يرتدع بالروادع ولم تزجره الزواجر ، والذى يؤكد لنا صدقه فى حياته ليس كثرة أخباره المتعلقة بمغامراته وكثرة النساء فى أشعاره ، وإنما هذا التطرف الغريب الذى ساد موقفه بعد الانقلاب الخطير الذى وقع فى حياته بعد مقتل أبيه حجر على يد بنى أسد . فقد يتصور المتعجلون فى الحكم على ظواهر الأشياء أن الشاعر الذى خلع العذار بحثاً عن شهوة النفس وعكف على لذته لا يقدر على النهوض بأعباء المطالبة بثأر الملك القتيل ، ولكن الذى حدث أن امرأ القيس انقلب مع الحدث انقلاباً شديداً ، فأظهرلنا وجهه الآخر ، وجه الفارس المقاتل الذى لا يفرط فى حقه مهما وقفت فى وجهه الصعاب . أغرب مانلحظه فى حياة امرئ القيس هو أنها تنشطر شطرين ، كل شطر منها يناقض الآخر . يعطى نصف حياته الأول صورة الخروج

السافر على مواضعات المجتمع والتحلل من قيود وتقاليده ، فى حين يقف النصف الآخر على الالتزام بتقاليد هذا المجتمع والتمسك بقيمه الثابتة . متمثلة فى إصراره على أخذ ثأر أبيه ، بل الإسراف فى هذا الثأر . لقد اختار حريته فى شبابه الأول واختار حرية المجتمع فى شبابه المتأخر أوكهولته . وهذه آية الصدق . لم يكن منطقيًّا ولا يمكن أن يكون تحرر امرئ القيس متجاوزاً لإيمانه بشرفه وتمسكه بكرامة قبيلته .

إن الحرية لا تعنى نفى الأسس بل إعادة تشكيلها ، وكما كان الشاعر صادقا فى لهوه فقد أصبح جادا فى جده وكما كان مسرفاً فى طلب لذته أصبح مسرفاً فى طلب أعداء أبيه لقتلهم حتى أفضى به الشطط إلى الهلاك ، تلك هى الحياة الأصيلة التى تقف أحداثها متميزة والتعبير عنها متميزاً أيضاً ولا يعنى هذا الالتزام المفاجئ نفيا للتحرر السابق ، إنه وجهه الآخر فقط .

وهناك مفهوم ثالث للحرية يمثله طرفة بن العبد . إنه المفهوم الذى يتأسس فوق إدراك فلسفى وجودى لطبيعة الحياة والموت ، لقد وضع نفسه طبقاً لفلسفته على يسار مجتمعه فوقف مجاهرا بحريته فى اختيار أسلوب حياته ، وبرغم أن هذه الفلسفة عرفت من قبله عند أبيقور فيلسوف اللذة إلا أن إدراكه الفطرى لفلسفته يعطيها طابعاً أصيلا ، إن خروجه يستند لأول مرة على منطق محكم وليس خروجا فوضويًّا ، وهذا ما جعلنى أميز مفهومه فى الحرية عن مفهوم امرئ القس ، إنه مفهوم فلسفى للحرية وليس مفهوما شعريا يقوم على مبدأ النزوة واتباع الشهوة وإن كان مفهومه للحرية قد انبثق من ردود المجتمع على سلوكه :

ومازال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

إن هذا الموقف المتمرد والذى يظهر متحديا لتقاليد وأعراف قومه قد قوبل بالمعارضة الاجتماعية التى ظلت تتصاعد فى وجهه حتى تحولت إلى حصاره وحصره منبوذا مكروها لا يطيقه أحد وكأنه بعير أجرب ، فأى ثمن فادح قرر طرفة أن يدفعه من أجل حريته واختياره لمنهج حياته وهو يتوجه بالدفاع عن نفسه إلى هذا المجتمع الذى يتهمه والذى يلومه على فروسيته وعلى إسرافه فى الإقبال على اللذة والاستغراق فى المتعة .

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

هل أنت مخلدى ياله من سؤال معجز ومفحم لخصومه ، إنه الموت إذن مدخل الحياة وهو مصدر فلسفته . لم تكف هذه الفلسفة عن الظهور منذ نشيد الجامعة إلى عمر الخيام حتى فلسفة الوجوديين فى فرنسا ورائدهم جان بول سارتر مع اختلاف زاوية الرؤية التى تحددها معطيات كل عصر .

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

إن خوفه من الموت يدفعه بقوة إلى حب الحياة ، ومادام الموت قدراً لا نملك دفعه فإن الحياة تصبح حقًّا غير مشروط ، وينبغى لمن كتب عليه الموت أن يأخذ ملء رئتيه حقه من الحياة لكى تكون الأقدار عادلة ، أقدار الحياة والموت . وما الحياة ؟ تلك التى يحرص عليها طرفة ويخاف من أجلها الموت .

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت متى ماتعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف محنباً كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب وكرى تحت الطراف المعتمد

إن الحياة هى الشرب والحرب ، وهو من أجل هذا الموت المتربص بالأحياء يدافع عن حقه فى الحياة .

فذرنى أروى هامتى فى حياتها   مخافة شرب فى الحياة مصرد
كريم يروى نفسه فى حياته   ستعلم إن متنا غدا أينا الصدى

وهو يعلن أن الموت الذى لافكاك منه هو عذره فيما يقبل عليه من حياة .

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلة   وماتنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى   لكالطول المرخى وثنياه باليد

هذا طرفة بن العبد . يمثل الفلسفة الوجودية فى الجاهلية – ولقد كانت قضية الحرية طوال التاريخ شاغلا أساسيًّا من شواغل البشر ، وفى مقدمتهم الشعراء الذين رأوا فى الحياة معادلا وجوديًّا للحياة نفسها .

الغزل فى شعر أبى الطيب المتنبى

ولد أبو الطيب المتنبى فى أول القرن الرابع الهجرى عام ٣٠٣ هـ مغمور النسب لايكاد أحد يعرف له أصولاً من شعره ، ولكن الدكتور طه حسين يؤكد عروبته وينفى عنها كلّ شك --كان القرن الرابع مملوءاً بالاضطرابات السياسية بعد أن تمزقت أوكادت الإمبراطوريةُ الإسلاميةُ الشاسعة ، وانقسمت إلى دويلات اغتصبها القادرون فى شتى الأقاليم ، فقامت دولة الحمدانيين فى حلب ودولة الأخشيديين فى مصر ودولة بنى بويه فى فارس والدولةُ الفاطمية فى المغرب — وقد صاحب هذا التمزق السياسى تمزقٌ اجتماعى وفساد واضطراب فى مناحى الحياة المختلفة ، وكان هذا الاضطراب وهذا الفساد أحد الدوافع الأساسية لظهور الدعوات المنادية بالإصلاح والعدالة الاجتماعية مثل دعوة القرامطة فى العراق ، وكانت التحولات السريعة والصراعات الدامية والمكائد الخطيرة قد جعلت من هذا القرن بركاناً يفور

بالقلق النفسي والخوف ، ومن شأن مثل هذه الأزمات والصراعات أن تدعو إلى التأمل فازدهر الفكر والأدب ونشط العلماء والشعراء والأدباء ، وكانت نزعة التفكير الفلسفي تكاد تصبغ إنتاج شعراء هذه المرحلة ، ويكفي ما نراه من تأملات أبي الطيب الفلسفية وهي التأملات التي وجدت استمراراً وتكاملاً ونضجاً بعد ذلك في أشعار أبي العلاء المعري – شغل أبو الطيب المتنبي النصف الأول من القرن الرابع وشغل أبو العلاء النصف الثاني من هذا القرن نفسه – كان هذا هو الزمن الذي تفتحت وأينعت فيه موهبةٌ كبيرة هي موهبة أبي الطيب المتنبي ، وكما كان العصر باذخاً في تحولاته ومأساويته وما انطوى عليه من أحداث كذلك كان أبو الطيب نموذجاً شعرياً لهذا العصر ، ففيه تقلبه السريع وطموحه ومأساويته . ولاشك أن الواقع هو الذي يخلق المِثالَ ويعطي النموذج ، ولقد كان المثال والنموذج في عصر السيطرة على الدويلات هو الفارس الذي يسيطر على المملكة . وشاء القدر أن يكون المتنبي شاعراً عظيماً ولكنه كان ينطوي على مثال ونموذج آخر ، هو مثال ونموذج الملك الحاكم ، وربما كان من حسن طالع المتنبي أن يكون شاعراً في عصر كثر فيه الفتك بالملوك وازدهر فيه حظ الفكر والشعر . ولو جاء المتنبي ملكاً لكان حظه أقلَّ بكثير مما حظي به كشاعر عظيم ، يعد شعره مفخرة للملوك وصفحة لمجدهم وطريقاً للشهرة العالية التي نالوها في التاريخ . كانت موهبةُ المتنبي الشعرية أبرَز من ضوء النهار مِنذُ صباه ، ولكن طبيعةَ العصرِ جعلته يطمحُ إلى مالا يَملك ، وكان طموحُه هو عنصَر المأساةِ في شخصيته ، فقد نشأ صراعٌ في نفسهِ بين الواقعِ والمثالِ ، بين الشاعرِ الذي كانه والملكِ الذي تمنى أن يكونه ، وهذا جوهرُ مأساوية حياةِ المتنبي ، ولقد وجد الباحثون والنقاد وعلماء اللغةِ ورواةُ السيَر والبلاغيون في شعر المتنبي وحياته كنزاً لا ينفد من القضايا

والملاحظات والشواهد والمزايا والمآخذ ، وأفاض الجميع فى كل ناحية من نواحى فنه وحياته - ويكاد الرأى يكون غالباً على أن حياة المتنبى العريضة التى كانت دائماً فى حالة تطلع إلى المجد عامرة بالآلام والأسفار التى وجد نفسه مرغماً عليها وكبرياءه الشامخة التى جعلته أقرب إلى الاكتفاء بنفسه عن العالم ، كل هذا شغله عن المرأة وقضية الحب التى تشغل غيره من الرجال ، وكثير من الكتاب والباحثين رأوا فى المتنبى شاعر الآمال الكبيرة ، وقالوا إنه لم يعشق إلا نفسه — وإن هذه النفس لم تكن تتسع بحال من الأحوال لحب امرأة حبًّا عاديًّا بسيطاً مثل كل حب عادى وبسيط . ولاشك أن هذا الرأى الذى خاض فيه كل من درس المتنبى أبعد ما يكون عن الصواب — أولاً — أن الطموح وامتلاء الذات بالزهو والكبرياء لا يعطل الغريزة الطبيعية فى الإنسان خاصة إذا كان شاعراً حساساً ينبض قلبه بكل ما فى الحياة من بهجة وحياة ومتعةَ ، والمرأة فى مقدمة متع هذه الحياة ، ثانياً أن من كانت حياتهُ عاصفةٌ مملوءة بالمرارة مثل حياة أبى الطيب هو أحوجُ من غيره للحب والعاطفة ، للتخفيف من هجير العداوات التى تحيط به ، وقد كان المتنبى كثير الأعداء يكسبُ الأعداء بسهولة منقطعة النظير بسبب شموخه ومكانته الشعرية واعتزازه بنفسه واحتقاره الدائم للآخرين ، ولقد كانت العاطفة الإنسانيه عنصراً بارزاً فى شعره برغم قسوته الظاهرة . ثالثاً : إن قارئ ديوانه يدهش لكثرة الشعر العاطفى فيه ، ومن الحق أن نعترف بأن القصائد التى خلصت كاملة لشعر العاطفة قليلة ، ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن القصائد التى خلت من الشعر العاطفى قليلةٌ جدًّا أيضاً ، إن ربع ديوانه تقريباً إذا أخذنا بمقدمات القصائد هو من شعر الحب والغزل . ولا شك أن هذا الشعر العميق الرؤى والواسع الخيال والخبير بحقيقة المرأة يؤكد أنه شعرٌ نشأ عن تجارب

متصلة . وربما لم يشأ المتنبي أن يكتب قصائد كاملة مكرسة للحب لأنه يرى أولاً أن مكانته الشعرية العالية قد ألزمته نوعاً من الوقار والرزانة وادعاء الحكمة مما يجعل الإفاضة فى شعر الحب نوعاً من اللهو الذى لا يليقَ به ، كما أن مشاغل المتنبى الكثيرة واهتمامه بالدفاع عن مركزه كشاعر فى كنف فارسٍ وملكٍ كسيف الدولة قد جعلته يكرس شعره لمدحه أولا ، ولإعجابه الشديد به كفارس جسد الصورة المثلى للعصر ، ثم من ناحية أخرى باعتباره وسيلة الشاعر إلى المجد وإرغام أنف حاسديه والحاقدين عليه ، ولكن هذا الشعر العظيم الذى صور معارك سيف الدولة ومجده قد انطوى على عواطف جامحة متأججة ، لاشك أن المتنبى لم يجد الوقت ولا الزَمن ولا الفرصَةَ ، لكى يفرد لها قصائد كاملة . وكانت هذه المقدماتُ الغزلية تجنب الشاعر ما حرص على تجنبه من تعريض وقاره للاهتزاز أوكشف عواطفه أمام أعدائه وما أكثرهم ، ولقد تحدث الكثيرون من الأدباء عن حبه لخولة أخت سيف الدولة ، واستشهدوا بحرارة العاطفة فى مرثيته لها التى يقول فيها :

أرى العراقَ طويلَ الليل مذ نُعِيَتْ ... فكيف ليلُ فتى الفتيان فى حلبِ
يظن أن فؤادى غيرُ ملتهب ... وأن دمع جفونى غيرُ منسكب

ويقول عنها :

وان تكن خُلِقَت أنثى لقد خلقت ... كريمةً غيرَ أنثى العقلِ والحسب
وان تكن تَغْلِبُ الغَلْباءُ عنصرَها ... فإن فى الخمرِ معنىً ليسَ فى العنب
فليت طالعة للشمس غائبةٌ ... وليت غائبة للشمس لم تغب
وليت عينَ التى آب النهار بها ... فداءُ عينٍ التى زالت ولم تؤب
فما تقلد بالياقوت مُشْبِهُها ... ولا تقلد بالهندية القُضُب
ولا ذَكرتُ جميلا من صنائِعها ... إلا بكيتُ ولاوُدٌّ بلا سبب

قد كان كل حجابٍ دون رؤيتها فما قَنعْتِ لها يا أرضُ بالحجب

ولا رأيت عيون الإنس تدركها فهل حَسَدت عليها أعين الشهب

وهل سمعت سلاما لى ألم بها فقد أطلتُ وما سلّمتُ عن كثَب

ولا شك أن المتنبي قد حاول أن يوهمنا بأنه لم يقع فى الحب أبداً ولم يترك أمره للنساء كما يقول :

وما العشق إلا غِرَّةٌ وطماعةٌ يُعَرِّضُ قَلْبٌ نفسه فَيُصابُ

وغيرُ فؤادى للغوانى رِميةٌ وغيرُ بنانى للرماح ركابُ

تركنَا لأطراف القنا كلَّ شهوةٍ فليس لنا إلا لهن لُعَابُ

أعزُّ مكانٍ فى الدُّنا سَرْج سابحٍ وخيرُ جليسٍ فى الزمانِ كتابُ

ويعلق الدكتور جلال الخياط على هذه الأبيات قائلا :

«ولكن الشاعر العاشق الواثق لا يستطيع أن يحجب عنا الحقيقة بهذه الأبيات ، ففى فترات من حياته وإن كانت قصيرة ومتباعدة أضناه الحب وترك أثراً ولم يكشف ذلك فى شعره ، وحاول أن يتجاوزه ، ترفعاً وخجلا وإبتعاداً عن المواجد الخاصة وترسيخاً لموقف الجَد والبطولة والنضال وإيمانا بأن الحب يكشف بوضوح عقدة الكمال التى اجتاحت الشاعر بإظهار نقص فيه محتّم تطمئنه وتتممه المرأة ، فهو بدونها لا يستقل بذاته عن هذه الدنيا . ولا يصطنع عالما خاصًّا له حدود وأسوار ، فيرفض وجودها أحياناً ليوهم نفسه بالكمال التام . إلا أن حبه للنساء ورد بالرغم منه واضحاً فى ثنايا بعض قصائده «ومن يعشق يَلذُّ له الغرام» وسواء أحب المتنبي خولة أم سواها فإن للحب سلطاناً لا يعترف إلا بمجده ، ولقد كان فى شعر المتنبي كثيرٌ من الأبيات التى تفيض بالوجد والإحساس بالحاجة والحب للمرأة .

ولكن غزل المتنبي يختلفُ عن غزل سواه من الشعراء فهوا أولاً يأتى فى سياق

لا ينفصل عن ملحمة حياته المتعالية التى تتعلق بأوهام لا سبيل لتحقيقها فهو غزل
افس أدمتها أوجاعُ الطموح إلى المستحيل – ثم هو أيضاً غزل يأخذ من خبرة الشاعر
فى الحياة ويجسد هذه الخبرة فى نظرة إلى المرأة لاتنى عنها ضرورتها ولكنها لاتعترف
بكفايتها . ومن هنا جاء شعره فى الغزل فى نفس مستوى شعره فى الحرب ، والحكمة
والشكوى والفراق والفخر . ذلك لأن الشاعر متكاملٌ فى نظرته الفنية ومنقسمٌ فى
إدراكه للحياة . ولا يخفى على أحد أن موهبة أبى الطيب الشامخة كانت واضحة منذ
الصبا ، ويزعم ناشرُ ديوانه سليم ابراهيم صادر فى الطبعة التى صدرت عن دار
صادر عام ١٩٢٦ أن أولَ شِعر نظمه ارتجالا قوله وهو صبى :

بأبى مَنْ وددتُه فافترقنا وقَضَى اللهُ بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حَوْلاً فلمّا التقينا كان تَسْليمُه علىّ وداعا

ولاشك أن البيتين يجيشان بعاطفة أصيلة صادقة ، وذلك واضح فى البداية
بالقسم بأبيه ثم فى اختيار أرق الألفاظ للتعبير عن عاطفته ، ولكن عبقريةَ الشاعرِ
الحقيقية تتضح فى هذا المعنى الرائع «كان تسليمه علىّ وداعاً» وشعر الصبا عامر
بالإشارات إلى هذا الإعجاب الشديد بالنساء ، مثل قصيدته التى يشير فيها إلى دار
اثلة وهى موضع بظاهر الكوفة

كم قتيلٍ كما قُتِلْتُ شهيدُ لِبياضِ الطُّلَى ووردِ الخدود
وعيونُ المَها ولا كَعيونٍ فَتَكَتْ بالمُتَيَّم المعمود
عَمْرَكَ اللهُ هل رأيتَ بُدوراً طَلَعَت فى براقعٍ وعقود
راميات بأسهم ريشها الهد ب تَشُق القلوبَ قبل الجلود
يترشّفن مِن فمى رَشَفَاتٍ هُنَّ فيهِ حَلاوةُ التوحيد
كُل خُمْصَانة أرقُّ من الخمـ ـرِ بِقَلْبٍ أقْسَى من الجلمودِ

ذَاتُ فرعٍ كأنما ضربَ العَنْـ ـبرُ فيهِ بماء وَرْدٍ وعود
تحمل المسك عن غدائرها الريـ ـحُ وتفترُّ عن شَنيبٍ برود
هذه مُهْجتى لديكِ لحَيْنى فانقُصِى من عَذَابِها أو فزيدى

وواضح فى هذه القصيدة أنها فعلا من قصائد المرحلة الأولى ، ففيها تأثر مباشر بمحفوظاته من الشعر العربى خاصة البيت الأولى الذى يستدعى بيت جميل بن معمر .

لِكلِّ قَتيلٍ بينَهُن بَشَاشَة وكلُ قَتيلٍ بينهن شهيدُ

كما أن الشاعر يهتم فى وصفه بالأوصاف الحسية الخارجية ، ولا شك أن الأوصاف الخارجية هى أول ما يلفت الغر الساذج . كما توحى الأبيات بنرجسية المتنبى حيث يصور إقبال النساء عليه . «يترشفن من فمى رشفات» ولو كان ناضجاً فى ذلك الوقت لأدرك أن من العيب أن يصور نفسه هذا التصوير السلبى ، ويتقدم الشاعر فى العمر والتجربة والنضج فتطالعنا هذه الأبيات الراسخة التى تنبئ عن تعمق وفهم يقول :

حشاشةُ نفسٍ ودَّعت يوَم ودَّعوا فلم أدرِ أىَّ الظاعِنين أشيِّعُ
أشاروا بتسليمٍ فجدنا بأنْفُسٍ تسيل من الآماق . والسُّم أدمعُ
حَشَاى على جمْرٍ ذكى من الهوى وعَيْناىَ فى رَوضٍ من الحُسْنِ ترتعُ
ولو حَمَلَت صُمُ الجبَالِ الذى بنا غداةَ افترقْنا أوشكَتْ تتصدَّعُ
بما بين جنْبىَّ التى خاضَ طَيفُها إلىَّ الدياجِى والخَلِيُّون هُجعُ
أتتْ زائِراً ما خامَرَ الطيبُ ثوبَها وكالمِسْكِ من أردانِها يتَضَوعُ
فما جلَسَتْ حتى انثنت توسِعُ الخطى كفاطمةٍ عن دَرِّها قبلَ ترْضعُ
فَشرَّدَ أعطَافِى لها ما أتى بهَا من النومِ والتَاعَ الفؤادُ المُضجعُ

فَيا لَيْلَةً ما كان أطولَ بِتُّها ... وسُم الأفاعى عَذْبٌ ما أَتجرعِ

تَذَلَّلْ لَها واخْضَعْ على القُربِ والنَّوى ... فَمَا عاشقٌ من لا يَذِلُ ويَخْضَعُ

هذه أبيات وردت فى مقدمة قصيدة مدح ، ولكن من ذا الذى يترك نفسه لهذه الحيل الشعرية التى يلجأ إليها الشعراء دائماً فيضعون أسرارهم فى غير موضعها ويصورون لواعج يوهمون بغيرها — ألم تكن قصائد المديح التى صاغها الشاعر فى أميره سيف الدولة تحمل من الفخر والاعتزاز بالشاعر كما تحمل من المدح للأمير .

لم تكن قصائد الشاعر المتنبى تخلص لغرض واحدٍ ولكنها كانت تصويراً نادراً لتجربة حياته الكلية : هذه التجربة التى احتلت الحكمةُ فيها مكانا بارزاً واحتل الفخر والمدح ووصف الحروب والغزل مكانا لائقاً بها . وهاهى أبياته تجىء من أعماق فؤادٍ يعرف جيداً مرارة الحب ولوعة الهوى . خبير بهذه التجربة الإنسانية الكبيرة .

عزيزٌ إساً مَن دَاؤهُ الحَدَقُ النُّجلُ ... عَيَاءٌ به مات المُحِبُّون مِن قَبْلُ

فمن شاء فلينظرْ إلىَّ فمَنْظَرِى ... نذيرٌ إلى من ظنَّ أن الهوى سهلُ

وما هي إلا لحظةٌ بعدَ لحظةٍ ... إذا نزلتْ فى قلبهِ رحلَ العقلُ

جرى حبُّها مَجْرَى دمِى فى مفاصلى ... فأصبَح لى عن كلِّ شُغْلٍ بها شُغْلُ

سَبَتْنِى بِدَلٍّ ذاتُ حُسْنٍ يزِينُها ... تَكَحُّلُ عينيها وليس لها كحلُ

كأنَّ لِحَاظِ العينِ فى فتكه بنا ... رقيبٌ تَعَدَّى أو عدوٌّ له دَخْلُ

ومن جسدى لم يترك السقمُ شعرةً ... فما فَوقها إلا وفيها له فعلُ

إذا عذلوا فيها أجبتُ بأنه ... حبيبتى قلبى فؤادى هيا جُمْلُ

كأن رقيباً مِنك سد مَسَامِعى ... عن العذلِ حتى ليس يَدْخلُها العَذْلُ

كأن سهادَ الليلِ يَعْشَقُ مقلتى ... فبينهما فى كلِّ هجرٍ لنا وصلُ

أُحِبُّ التي في البدرِ منها مُشَابِهٌ وأشكو إلى من لا يُصَاب له شَكْلُ

هذا شعر صادق في التعبير عن العاطفة الصادقة ، وهنا يثور سؤال جوهرى هل كان المتنبى عاشقاً أبدياً حيث إن معظم قصائده بدئت بالغزل وهل هذا منطقى ؟ والرد على هذا السؤال هو أن الشاعر كان فى معظم قصائده يعبر عن نفسه وما يجيش فيها من عواطف ومشاعر ، فلم يكن شاعراً عبداً لممدوحه يرجو منه النوال فحسب ، بل كان شاعراً حرًّا يكرس شعره لنفسه قبل أن يكرسه لغيره ، ومن هنا فما الذى يمنع أن يكون الشاعر إنما يعبر عن لوعة حب صادق مر به فى حياته ، وكان المتنبى شاعراً نابه الذكر شهيراً ، ولاشك أنه كانت له معجبات يفضلن ويتقن إلى الاستماع له ، وكانت لديه الفرصة واسعة لرؤية الجميلات وما الذى يمنع قلباً مثل قلبه أن يكون معلقاً بالجمال طوال حياته ، ثم إن المتنبى كشاعر كبير كان حرًّا فى اختيار مقدمات قصائده وليس من المنطقى أن نتصور أن المتنبى كان أسير التقليد العربى القديم بافتتاح القصائد بالغزل وهو نفسه لم يلتزم دائماً بهذا التقليد . كما أن هذا التقليد كان يهدف إلى جذب القلوب إلى الاستماع إلى القصيدة بما للغزل من أثر طيب فى النفوس . وكان شعر المتنبى بما فيه من جزالة وعذوبة وروعة وحيوية وحكمة بليغة فى أشد الغنى عن افتعال هذه المقدمات ، ولاشك أن الفصل فى كل هذا إنما هو حرارة الصدق التى تبدو واضحة وجلية فى كل أشعاره ، ولعل مايقف حجة إلى جانب الرأى القائل بأن المتنبى عرف المرأة معرفة العاشق الخبير ، هذا التحليل العميق لنفسية المرأة ، وإن كان يبدو متحاملا عليها ، إلا أنه يوحى بأن وراء التحليل خبرة واسعة وتجارب مريرة ، ولما كانت هذه التجارب قد حيل بينها وبين أن تظهر فى قصائد كاملة فإن مقدمات قصائده كانت خير مكان لهذه التجارب ، يقول فى مقدمة قصيدته التى يمدح بها الحسين بن على الهمذانى :

لقد حَازَنِي وَجْدٌ بِمَنْ حازَهُ بُعْدُ ... فياليتنى بُعْدٌ ويا ليتَه وَجْدُ
أُسَرُّ بِتَجدِيدِ الهوى ذِكْرَ ما مضى ... وإن كان لا يبقَى له الحجرُ الصَّلْدُ
سهادٌ اتانا مِنك في العين عندنا ... رُقَادٌ وقُلام رعى سِربكم وَرْدُ
مُمثلّةٌ حتى كأنْ لم تُفَارِقِي ... وحتّى كأن اليأس من وصلك الوَعْدُ
وحتّى تكادِي تَمْسَحِين مدامعي ... ويعبقُ في ثوبيَ من ريحِكِ النَدُّ
إذا غَدَرَت حسناءُ وفَّتْ بِعَهْدِها ... فَمِن عهدِها ألّا يدومَ لها عَهْدُ
وإن عَشِقَتْ كانت أشَدَّ صبابةً ... وان فَرِكَتْ فاذهب فما فِرْكُهَا قَصْدُ
وإن حَقَدَتْ لم يبق في قَلْبِها رضىً ... وإن رَضِيتْ لم يَبْقَ في قِلْبها حِقْدُ
كذلك أخلاقُ النساء وإنما ... يَضِلُّ بها الهادِي ويَخفَى بها الرُّشْدُ
ولكن حبّاً خامَرَ القلبَ في الصِّبَا ... يَزِيدُ على مر الزمانِ وَيشتَدُّ

هذه الأبيات في هذه القصيدة أبلغ دليل على ما ذهبنا إليه من أن المتنبى كان يضمن قصائده أغراضه الذاتية ، وإلا فما هو الداعى لهذه الإفاضة فى تحليل أخلاق النساء ، وهو تحليل أقرب إلى نتائج التجارب منه إلى الحكم الشائعة . ما علاقة الممدوح بهذا الفهم العميق للمرأة . هذه الصور المترابطة القوية التى تعبر عن وجهة نظر ممدوحه ما هى ضرورة وضعها فى هذا الموضع من المدح ؟ وربما يعثر بعض علماء البلاغة والنقد اللفظى على مقارنات بين المقدمة والقصيدة ، ولكن ذلك يظل بعيداً عن طبيعة المتنبي الشامخة المعتزة بنفسها وقضاياها وشواغلها ، وها هو المتنبي فى واحدة من أعظم قصائده يصرح بأنه ليس ممن يعشق ، ولكن ماحيلته أمام الجمال ، هو نفسه يعرف أن الضعة الإنسانية ليست صماء أمام الجمال : يقول :

لعينيكِ ما يلقى الفؤادُ وما لَقِي ... وللحبِ مالم يَبْقَ مني وما بقِي
وما أنا ممن يدخلُ العشقُ قَلْبَه ... ولكن مَن يُبْصِرْ جفُونَكِ يَعْشَقِ

وبين الرِّضا والسُّخْطِ والقربِ النوى   مجالٌ لدمعِ المُقْلَةِ المترقرقِ
وأحلى الهَوى ماشَكَّ في الوصلِ ربُّه   وفي الهجرِ فهو الدهرَ يرجو ويتقى
وغضبى من الإدلالِ سكْرَى من الصبا   شفعتُ إليها من شبابى بريِّقِ
وأشنب معسولِ الثنياتِ واضحٍ   سترتُ فمى عنه فقبَّلَ مفرقى
وأجيادِ غزلانٍ كجيدكِ زُرْنَنى   فلم أتبين عاطلاً من مطوَّقِ
وما كلُّ من يهوى يَعِفُّ إذا خلا   عفافى ويُرضِى الحبَّ والخيلُ تلتقى
سقى اللهُ أيامَ الصبا ما يسرُّها   ويفعلُ فعلَ البابِلِيُّ المُعتَّقِ
إذا ما لبِستَ الدهرَ مستمتِعا به   تَمَزَّقْتَ والملبوسُ لم يتمزقِ
ولم أرَ كالألحاظِ يومَ رحيلهم   بَعَثْنَ بِكُلِّ القتلِ مِن كُلِّ مُشْفِقِ
أدَرْنَ عيوناً حائراتٍ كأنها   مُرَكَّبَةٌ أحداقُها فوق زئبق
عَشِيَّةَ يعْدُونا عن النَّظَرِ البُكا   وعن لذةِ التوديعِ خوفُ التفرقِ

لم يكن المتنبي إذن بشموخه وطموحه ليخرج من دائرة الإنسانية ، ولو خرج من دائرة الإنسانية لما وقع فى هذا العذاب الذى تجرع مرارة كئوسه طوال حياته بسبب العجز عن التوحيد بين الواقع والمثال . كان المتنبى إنساناً عشق كما يعشق الشعراء ولكنه آثر أن يطوى لواعج نفسه فى ثنايا قصائده التى كرسها لخدمة مجده . كان يتقى أعداءه لأنه كان كثير الأعداء ، وقد مر شعره فى الغزل بنفس مراحل النضج التى مر بها شعره كله ، بدأ بالتكلف والمبالغة والنرجسية وتصاعد بالفهم وإقامة علاقات عميقة بين العالم ونفسه ، فكان فى شعره الغزلى قمة كما كان فى شعره فى الحكمة ووصف الحرب والطموح إلى المجد . ولقد كان المتنبى صورة شامخة للجانب اللامع فى عصره . وتحقق وجوده كما لم يتحقق شاعر آخر . ولكنه ظل يتجرع مرارة الألم طوال حياته ، فهل كان قلق الفنان الدائم هو النار التى ألهمته

كل هذه القصائد . ولو لم يكن بهذه الطبيعة الجامحة هل كان يقدر لنا أن نحصل على هذا الكنز الذى وَهَبَنا إياه .

كان أبو الطيب المتنبى شاعراً عظيماً فى عصر التناقض والقلق فجاء صورة رائعة لعصره .

كان مجنون ليلى سيد العقلاء

طالما شغل الناس ذكر هذا العاشق الذى أشرف به عشقه على الجنون أو هو قد أودى به إلى الجنون فعلا ، كما تذيع الروايات . حتى لقد عرف فى الأدب العربى باسم مجنون ليلى قيس بن الملوح ، وقصة عشقه لليلى ابنة عمه ذائعة شائعة ، ويكاد الرواة يتفقون على معظم حوادثها ، وهى حوادث تستنبط أساساً من شعره ولا تختلف الروايات إلا فى التفاصيل الدقيقة ، ولكن الهيكل العام واحد فى معظم كتب الأدب الكبرى ، وبالطبع لم يكن جنون قيس تقليدياً وإلا لما استطاع أن يبدع هذه الروائع الشعرية التى بلغت حداً راقيا من العذوبة والرقة والأصالة وتماسك البناء والدقة فى تصوير البيئة الصحراوية التى كانت مسرحاً مفتوحاً متنوعاً لهذا الغرام المشبوب ، ليس شعر رجل مجنون هذا الذى استطاع أن يهز الوجدان العربى طوال هذا الزمن الموغل فى القدم ، ومازال يهزه ، وإنما هو شعر عاشق غلبه

الحب على أمره حتى لقد بدا العقل مهزوماً فى قضية قلما احتكم إليه أحد فى شأنها ، وهى قضية الحب ، ولعل إفراط المجنون فى التمسك بحبه وسط ظروف معادية تعمل بوسائل تاريخية وبالغة القهر والحيلولة دون وصول هذا الهوى إلى نتائجه التقليدية وهى الزواج . هذا الإفراط المشبع باليأس والذى هو مزاج الشعراء الكبار قد أغرى القوم باتهامه بالجنون ، فهو قد آمن بما يبدو مستحيلا وأسلم زمام نفسه لحب يائس ، واغترب وحده فى الصحراء مستوحشاً إلا من الظباء التى يراها تشبه ليلى شبهاً بعيداً . وخلو هذا الموقف من الانسجام المنطقى طبقاً للتقليد الاجتماعى قد أكد الاتهام ، خاصة وأن قيس قد كثر إغماؤه ووضع ليلى فى مكان القداسة من نفسه ، ولا شك أن الرواة قد وجدوا فى هذا الجنون مدخلا لبناء قصة غير مألوفة فى تاريخ الأدب العربى مما يجعلها شديدة الصلة بما للأساطير من سحر وجاذبية ، وكلما تواترت الشواهد على جنون قيس توفرت الأدلة على عقله أيضاً ، فربما كان قيس مجنوناً بالمقاييس الصغيرة ، ولكنه حتماً كان عاقلا بالمقاييس الكبيرة ، هذه المقاييس التى تحقق الكشف عن عالم قيس ، هذا العالم الذى امتزج فيه الشعر بالحب امتزاجاً مطلقاً فاكتمل له أفق صوفى واسع وعميق ، ذلك أن الشعر والحب شبيهان . كلاهما ينبثق من المحدود وهو الذات والتجربة الذاتية إلى اللامحدود وهو التوق إلى الاتحاد بجوهر الأشياء . فالشعر والحب كلاهما محاولة للإمساك بالمستحيل المدهش وجعل ما هو زمنى خارج الزمن وجعل ما هو تاريخى فوق التاريخ بمعنى أنه لا يسقط العناصر التاريخية بل يتجاوزها بعد احتوائها : الشعر والحب يجعلان ما هو غائى ، أى يهدف إلى الغاية — غاية فى حد ذاته فليس الحب فى نظر العاشق الكبير وسيلة لكسب أو جاه وإنما هو فيض الطبيعة العظيم ، يملأ شعاب النفس بالفرح والأمن ويدفعها إلى عناق حميم للعالم . فى هذا البناء البالغ البساطة والتعقيد —

بسيط لأنه ذو طبيعة سهلة ومعقدة لأنه لابد من تحطيم عشرات القواعد للوصول إليه – فى هذا البناء الذى وجد قيس نفسه مشغولا بتصميمه والحياة بداخله فى نفس الوقت يحتل العقل مكاناً متواضعاً فى المهمة ، فى حين ينشط الإحساس الكلى بدافع روحى بإنجاز كل شىء . وكما يعمل الشعر على استخدام العالم كرموز للصورة الداخلية للنفس ، كذلك الحب يرى فى الأشياء رموزاً بليغة للمحبوب . ولحظة الحب والشعر تشبه فى جانب كبير منها تجربة الصوفى التى تفضى به إلى الاستغراق الكلى فى فيض من السعادة والشوق تعدل لحظة التحقق على مستوى الوجود . وبرغم أن العاشق المعشوق يكون مقبولا من شخص واحد فإن ثقته بنفسه توحى له بأنه مرغوب من العالم كله ، وإن وجوده لم يعد متحققاً فقط بل ضرورياً أيضاً ، لا من أجل نفسه بل من أجل غيره ، وكذلك الشاعر يكتشف فى لحظة الإبداع معنى وجوده بعيداً عن العابر واليومى .

هذه التجربة – الشعر والحب – التى تتجاوز العقل بمفهومه الاصطلاحى تسوق قيساً إلى القبول بالمخاطرة لأنها تعدل فى نظره الجائزة الكبرى يقول :

فلو خلط السم الزعاف بريقها تمصصت منه نهلة ورويت

فالسم نفسه لا يصده عن ريقها ، ذلك أن السم قد فقد حين دخل عالم الشاعر خصائصه المعروفة ، أو أن الشاعر بعد أن داخله الحب قد فقد مخاوفه المألوفة ، فالحب من شأنه إعادة تركيب العناصر طبقاً لرؤية جديدة ومفهوم جديد . والحب هو الذى جعله يقبل التحدى ، فها هى ذى الشجاعة لا تنقصه .

ولو أحدقوا بى الانس والجن كلهم لكى يمنعونى أن أجيك لجيت

وما الذى يمنعه من شرب السم وتحدى العالم كله ، وهو يرى ليلى فرحه الحقيق ومجده والملك التليد الذى يسعى له .

بكى فرحا بليلى إذ رآها محب لا يرى حسناً سواها
لقد ظفرت يداه ونال ملكاً لئن كانت تراه كما يراها

إن قيساً وهو يصور الحب إنما يتعقب خطوه فى دمه وجوارحه . وكأن الحب قد حل فيه حلول الروح بالجسد وأنه لم يعد يملك خياراً فيما هو فيه .

سرت فى سواد القلب حتى إذا انتهى بها السير وارتادت حمى القلب حلت
فللعين تهمال إذا القلب ملها وللقلب وسواس إذا العين ملت
ووالله مافى القلب شىء من الهوى لاخرى سواها أكثرت أم أقلت

من هنا كان عجبه ودهشته لهؤلاء الناصحين له بالسلو عنها . كان يعجب لأنه توهم أنهم يتصورونه قادراً على خلع هذا الحب من قلبه ولو قدر لما أراد . ولعل قيمة هذه العاطفة الكبيرة أنها تفضى إلى سلم متصاعد من القيم النبيلة وهو شأن كل الأنهار لابد أن تمر بمدن كثيرة وتروى أراضى شاسعة . إنه ليس لحظة انغلاق على لذة عابرة بل لحظة انفتاح تستوعب العالم ، وتحتضنه وتدفئه بحنانها فها هو ذا برغم العذاب الذى يعانيه يحس بالتسامح والعفو يملأ نفسه تجاه ليلى .

عفا الله عن ليلى وإن سفكت دمى فإنى وإن لم تجزنى غير عاتب

ثم إن الحب قد أوصله إلى الإحساس بالآخرين من أجل ليلى :

يقولون ليلى بالعراق مريضة فمالك لاتضنى وأنت صديق
شفى الله مرضى بالعراق فإننى على كل مرضى بالعراق شفيق

ولم يقف حبه للعالم عن الإنسان وحده بل تجاوزه إلى الحيوان أيضاً ، وتروى كتب الأدب أن قيساً رأى ظبياً مرة فتأمله ، وذكر ليلى فجعل الظبى يزداد حسناً فى عينيه ثم إنه عارضه ذئب فهرب منه فتبعه حتى خفيا عنه ، ثم وجد الذئب قد صرع الظبى وأكل بعضه فرماه بسهم فقتله وبقر بطنه فأخرج منه ماأكل منه ثم

جمعه إلى بقية جسده ودفنه وأحرق الذئب ثم قال :

أبى الله أن تبقى لحى حُشاشة فصبراً على ماشاءه الله لى صبراً
رأيت غزالا يرتعى وسط روضة فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهرا
فياظبى كل رغدا هنيئاً ولا تخف فإنك لى جار ولاترهب الدهرا
وعندى لكم حصن حصين وصارم حسام إذا أعملته أحسن الهبرا
فاراعنى إلا وذئب قد انتحى فأعلق فى أحشائه الناب والظفرا
فبوأت سهمى فى كتوم غمزتها فخالط سهمى مهجة الذئب والنحرا
فأذهب غيظى قتله وشفى جوى بقلبى إن الحر قد يدرك الوترا

وبرغم أن جزءاً من القصة محتمل الحدوث إلا أن المبالغة واضحة فى رواية الرواة ، وهناك قصة أخرى تقول إنه رأى صياداً قد أمسك بظبية فأقنعه بإطلاقها من أجل شبهها بليلى وقال :

أياشبه ليلى لاتراعى فإننى لك اليوم من بين الوحوش صديق
وياشبه ليلى أقصر الخطو إننى بقربك إن ساعفتنى لخليق
عتقت فأدى شكر ليلى بنعمة فأنت لليلى إن شكرت طليق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك دقيق

ولأنه عاشق فإن أصوات الحمائم تضرم نار لوعته .

ألايا حمامات الحمى عدن عودة فإنى إلى أصواتكن حنون
فعدن فلما عدن لشقوتى وكدت بأسرار لهن أبين
وعدن بقرقار الهدير فكأنما شربن مداما أو بهن جنون
فلم تر عينى مثلهن حمائما لها مثل نوح النائحات رنين
تذكرنى ليلى على بعد دارها رواجف قلب بات وهو حزين

ولم يقف به حبه عند حدود التواصل مع الحيوان بل تواصل مع الطبيعة نفسها في رموزها ، تواصل مع الأودية والجبال في علاقة صوفية تجعل من الأشياء الجامدة رموزا حية لمفهوم كلي لوحدة الكون . وهاهو ذا قيس يخاطب جبل التوباد بالبطحاء فيقول :

وأجهشت للتوباد حين رأيته وهلل للرحمن حين رآني
وأذريت دمع العين لما رأيته ونادى بأعلى صوته ودعاني
فقلت مضوا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبقى مع الحدثان

فأي لقاء حميم بين شاعر عاشق وجبل يراه كل الناس أخرس إلا الشعراء العشاق ، فهم وحدهم يعرفون لغة الجبال والأنهار والأشجار . هذه اللغة الحافلة بالمعاني الغامضة هي لغة الشعر والعشق التي تفك طلاسم الكون والنفس لتقيم هذه العلاقة اللامحدودة بين الإنسان وعالمه وكأن قيساً وهو يواجه الجبل بالبكاء يرى فيه صديقاً عطوفاً ، وها هو ذا الجبل يجاوبه بالتكبير رحمة به وعطفاً عليه ، وهاهي ذي ليلى تحبب إليه الأودية .

ألا لاأرى وادي المياه يثيب ولاالنفس عن وادي المياه تطيب
أحب هبوط الواديين وأنني لمشتهر بالواديين غريب

وهو عاشق لايعرف في الحب ذاته ولايركز على الإحساس بها شأن المصابين بالنرجسية ، بل إنه يتواضع ويرى في تواضعه آية صدقه :

أبوس تراب رجلك ياليلى ولولاذاك لاأدعى مصابا

ثم هو لايرى في الحياة إلا الحب والمحبين :

ومالناس إلاالعاشقون ذوو الهوى ولاخير فيمن لايحب ويعشق

ويبدو أن مسألة جنونه كانت شائعة أطلقت وشهر به بسببها ، ولكنه يعلم جيداً

أن الحب الشامل العظيم الذى يسكنه لايمكن الوصول إليه بالعقل ، إنه الروح الكلى ، إن قدرة العقل لابد أن تبدو عاجزة أمام فردوس الأسرار الإلهية التى لايفتحها إلا الحب .

قالت جننت على رأسى فقلت لها   الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه   وإنما يصرع المجنون فى الحين
لوتعلمين إذا ماغبت ماسقمى   وكيف تسهر عينى لم تلومينى

ثم يواصل رحلة الحب التى بدأت بالإنسان ثم امتدت إلى الحيوان والطير ثم خاطبت الجبال والأودية والكثبان ، وهاهى ذى العاطفة الجياشة تتسع لتحتضن الوطن كله ، فتصبح حباً للوطن يقول :

أحن إذا رأيت جبال قومى   وأبكى إن سمعت لها حنينا
على نجد وساكن أرض نجد   تحيات يرحن ويغتدينا

هذا هو قيس وحبه العظيم يبدأ بليلى وينتهى بالعالم كله ، ومن هنا كان إصراره على مايراه الناس باطلا ويراه هو سر الحق وحده . من هنا كان ازدراؤه لنصائح قومه وأترابه لأنه يرى مالايرون ويسمع مالايسمعون ويشعر بمالايشعرون . كانت حقيقته بعيدة وعالية المقام لاتدركها إلاالأرواح التى تتغلغل فى أنسجة الكون كله ، وكانت حقائقهم تافهة قريبة المنال جداً . كانت فى متناول العقل وحده وإذا كان العقل قد يئس لدى قيس من ممارسة دوره فى وقف هذا الاندفاع العظيم فى اتجاه الفردوس فقد أبرز هذا اليأس قوة اختيار قيس للحب الصحيح منهجاً نهائياً للحياة ، ومهما تكن المقاييس فإنها لن تكون صحيحة إلا إذا حكمت لقيس بأنه لم يكن مجنوناً ، وحاشا أن يكون ، بل كان سيد العقلاء إلا إذا كانت هذه مقاييس ناقصة ولاتصلح أساساً للحكم .

محنة أبي فراس الحمدانى

شاءت المقادير وحظوظ الحياة الخائنة أن توقع الظلم مرتين بهذا الشاعر الفارس أبي فراس الحمدانى . مرة حين حرمت بدره من التألق الشعرى فى زمنه — القرن الرابع الهجرى — فقد كانت شمس أبي الطيب المتنبى تتوسط السماء الأدبية لدولة الحمدانيين فى حلب فخسفت أقماراً ونجوماً كان فى طليعتها شاعرنا الفارس . هذا الذى شغلته الحروب وذهبت بأنضر أيام شبابه بين الكر والفر والأسر ، ثم عادت المقادير فظلمته مرة أخرى بعد موته فلم يحظ من اللغويين والبلاغيين والمؤرخين بمايستحقه من اهتمام وتقدير . ويبدو أن نصف القرن الرابع الهجرى الأول قد شغله كله أبو الطيب المتنبى وشغل أبو العلاء المعرى النصف الآخر ، وكلاهما قطب عظيم المكانة رفيع المقام فى تاريخ الأدب ، فانسحبت ذيول الإهمال والنسيان ثقيلة وطويلة على ذكر أبي فراس ، خاصة أن تاريخ الدولة العربية قد تعرض للدمار

والخراب على يد الهجمات البربرية والتى أسفرت عن سقوط هذه الدولة تحت السيطرة الأجنبية مما أثر على نشاطها السياسى والعسكرى والحضارى.ودخلت الثقافة مرحلة عرفت بالمقاييس المدرسية بمرحلة عصر الانحطاط .

ونظرة إلى سيرة هذا الشاعر وشعره تطلعنا على ؛ مثال متميز للشعراء النبلاء الذين ترفعوا فى زمن الوضاعة عن الخوض فى المكائد وتيه الوشايات والمؤامرات ، حتى أنه لما رأى وظيفة الشاعر فى مجتمعه تقترب من وظيفة المهرج وتدور حول التكسب وطلب المغانم العابرة تأى بجانبه ونفى عن نفسه صفة الشاعر فنراه يقول :

نطقت بفضلى وامتدحت عشيرتى ... وماأنا مداح ولاأنا شاعر

ويرد هذا البيت فى قصيدة من أطول ماكتب الشاعر أبوفراس ومن أجود شعره ، حتى أن المرء ليعجب منه كيف ينفى عن نفسه صفة الشاعر فى قصيدة تكفى وحدها دليلا بليغاً على شاعريته . ولكن التأمل فى عصره وشخصه يعطينا الفهم الصحيح لهذا المعنى ، وهو أنه ينفى أن يكون شاعراً مثل هؤلاء الذين ابتذلوا مهمة الشعر وسقطوا كالذباب على موائد الرؤساء يتعثرون فى ثياب النفاق الرخيص ، وقد بدأت محنة أبى فراس فى وقت مبكر فى طفولته بمقتل والده وهو فى السنة الثالثة من عمره فقد لقى والده الشاعر سعيد بن حمدان الحمدونى مصرعه على يد غلمان بن أخيه حسن الملقب بناصر الدولة . وكان ناصر الدولة والياً على الموصل من قبل الراضى بالله الخليفة العباسى ، ويبدو أنه كان مراوغا فقد ماطل الخليفة فى دفع مال الضمان ، فاتفق الخليفة مع سعيد والد أبى فراس أن يوليه ولاية حمص بعد التخلص من ناصر الدولة وأمره بالتماس الحيلة ودخول الموصل بحجة التفاوض مع ناصر الدولة ثم خوله بعد ذلك التخلص منه ، ولكن ناصر الدولة كان أشد مكراً ودهاء ، فما إن بلغه خبر مقدم عمه سعيد حتى أظهر الترحيب به وزعم الخروج

للقائه ولكنه بيت النية على الغدر به ، فسلك طريقاً آخر حتى إذا وصل عمه سعيد إلى قصره بالموصل وثب غلمان ناصر الدولة عليه وقتلوه ، وكانت هذه الحادثة التاريخية فاتحة الأحزان الفادحة التى أحاطت بحياة أبى فراس ، كما أنها وضعت بذرة المرارة والشكوك بين أجنحة أسرة الحمدانيين ، فقد كان سيف الدولة أخاً لناصر الدولة ، وبرغم أن شخصية سيف الدولة تنطوى على كثير من النبل والتسامح إلا أن هذه الخلفية الدامية قد مكنت الوشاة بعد ذلك من بث الفرقة بين أبناء العم . وقد نشأ أبو فراس فى كفالة أمه التى أرضعته حنانها وسيف الدولة الذى بسط عليه الحماية والنعمة حتى غدا فارساً تعتز به الدولة الحمدانية . وقد حمل أبوفراس لسيف الدولة أنبل الوفاء وأعظم الحب وأوثق الولاء ، وخاض فى سبيل الدولة المعارك المتعاقبة حتى سقط أسيراً فى أيدى الروم . وفى الأسر بلغت محنة أبى فراس ذروتها القاسية ، فهو عند نفسه البطل الذى حارب بشجاعة من أجل تاج ابن عمه وشرفه ، ومن أجل مجد أمته فحق عليهم الفداء العاجل والتكريم والتعظيم ، ولكن ما أكثر مايخيب الظن حيث يكون تقدير الآخرين مناقضاً لتقدير المرء لنفسه ، لقد قوبلت تضحيته بالإهمال والتقاعس عن الفداء ، ولم يظهر سيف الدولة هذه الهمة العالية لفداء شاعره وفارسه ، ويبدو أن تاريخ العلاقة بين أجنحة الأسرة الواحدة قد عاد للظهور على أيدى الوشاة ليلعب دورا هداما فى تقويض المودة بين سيف الدولة وأبى فراس ، ويبدو أن تغذية الشكوك والمخاوف كانت الهم الأكبر لهؤلاء الذين رأوا فى أسر أبى فراس فرصة لسطوع نجمهم . وقد كان أعداء أبى فراس بكثرة مزاياه . فهو موضع حسد الشعراء لفروسيته من ناحية ولانتسابه لبيت الإمارة من ناحية أخرى ، فهو إذن يتفوق على أقرانه من الشعراء بدرجتين ، وحسده أبناء بيت الإمارة لشاعريته وفروسيته أيضاً ، وهكذا أصبح فى أسره مبعث غبطة

لحساده . وأحس الشاعر بالعذاب وهو يتلفت حوله وأمامه وخلفه عله يجد شعاعاً من وفاء ، فهاهم أولاء الروم يحيطون به وهاهم أولاء أهله يخذلونه .

أفى كل دار لى صديق أوده .. إذا ماتفرقنا حفظت وضيعا

وهنا ظهرت هذه القصائد الحزينة الرائعة التى عرفت فى تاريخ الأدب وتاريخ الشاعر بالروميات . وهى تفيض بوجع شديد وخيبة أمل فادحة ومحاولة شجاعة للتماسك والاحتفاظ بثقته بنفسه قد يراها بعض المؤرخين فخراً ولكن الحقيقة أنها نوع من الدفاع المشروع عن النفس يلجأ إليه المرء حين يجد نفسه فى فخ التجاهل والأخطار تحدق به ، وهاهو ذا أبو فراس لا يرى له أنيساً إلا هذه الحمامة التى اشتهرت بمواساة الشاعر فى أسره ، يقول :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة .. أياجارتا هل تشعرين بحالى ؟
معاذ الهوى ما ذقت طارقه النوى .. ولا خطرت منك الهموم ببالى
أتحمل محزون الفؤاد قوادم .. على غصن نائى المسافة عالى
أياجارتا ماأنصف الدهر بيننا .. تعالى أقاسمك الهموم تعالى
تعالى ترى روحا لدى ضعيفة .. تردد فى جسم يعذب بالى
أيضحك مأسور وتبكى طليقة .. ويسكت محزون ويندب سالى ؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة .. ولكن دمعى فى الحوادث غالى !

والقصائد الكثيرة التى كتبها أبوفراس فى أسره برغم أنها تطفح بالحزن والمرارة فهى تخلو من أى مأخذ أخلاقى ، فلم يترك الشاعر لأحزانه أن تقتلع تقاليد الفروسية ولادعائم النبل الراسخة فى نفسه . لقد جاءت هذه القصائد عتاباً حزيناً يرتوى منه موقف أليم وجد الشاعر نفسه فيه وكان يستحق أن يوجد فى نقيضه ، وهاهى ذى أنياب الألم تتوغل فى أعماقه لدى سماعه أن أمه الحبيبة ذهبت من منبج إلى حلب تكلم

سيف الدولة فى المفاداة ، فردها خائبة ، ويرى أبوفراس عيون آسريه تكاد تقتله بنظراتها وكأنه تعيره بإهمال قومه له ، ويفزع إلى الشعر ينفخ فيه وجعه فيستوى قصائد تخلب الألباب .

ياحسرة ماأكاد أحملها آخرها مزعج وأولها
عليلة بالشآم مفردة بات بأيدى العدى معللها
تمسك أحشاءها على حرق تطفئها والهموم تشعلها

ثم يخاطب أمه يحاول حملها على الصبر :

ياأمتا هذه منازلنا نتركها تارة وننزلها
ياأمتا هذه مواردنا نُعلها تارة وننهلها
أسلمنا قومنا إلى نوب أيسرها فى القلوب أقتلها
واستبدلوا بعدنا رجال وغى يود أدنى علاى أمثلها

ولاتميل به المرارة إلى الخروج عن الحب والولاء ، فنراه يخاطب سيف الدولة بلهجة نعجب بصفائها . إنه على يقين من أن تقاعس سيف الدولة إنما يصدر عن أسباب لاصلة لها بما فى أعماقه ، وهاهو ذا يحاول أن يستميله إليه . .

أنت سماء ونحن أنجمها أنت بلاد ونحن أجبلها
أنت سحاب ونحن وابله أنت يمين ونحن أنملها
بأى عذر رددت والهة عليك دون الورى معولها
جاءتك تمتاح رد واحدها ينتظر الناس كيف تقفلها
سمعت منى بمهجة كرمت أنت على يأسها مؤملها
إن كنت لم تبذل الفداء لها فلم أزل فى رضاك أبذلها
تلك الحوادث كيف تهملها تلك المواعيد كيف تغفلها

ثم يستطرد فى عتابه تترقرق دموعه فى أبياته حتى يختم القصيدة بإلزام سيف الدولة بحق الفداء .

لايقبل الله قبل فرضك ذا نافلة عنده تنفلها

ويحاول الشاعر أن ينفذ إلى قلب سيف الدولة ، هذا القلب الذى حجبته الوشايات المغرضة ، فنراه فى قصيدة « أبى الدمع ألاتسرعا » ، يتابع توضيح موقفه وتبصير سيف الدولة بمكائد الوشاة ويفتتح قصيدته بالحديث عن غلبة الحب له وهو فى موقف يعذر لوغلبه فيه الغضب ، ولكن أبا فراس كان فى المحنة صلباً لاتخرجه المحن عن دواعى الواجب أو مايراه لائقاً بعلاقته بسيف الدولة ، ولنا أن نتأمل لنعجب بهذه الأبيات التى يبدأ بها روميته أوبكائيته ، أبى الدمع الا تسرعا .

أبى غرب هذا الدمع إلا تسرعا ومكنون هذا الحب الا تضوعا

وكنت أرى أنى مع الحزم واحد إذا شئت لى ممضى وإن شئت مرجعا

فلما استمر الحب فى غلوائه رعيت مع المضياعة الحب مارعى

فحزنى حزن الهائمين مبرحا وسرى سر العاشقين مضيعا

وقد يقول قائل ، أليس هذا استهلالا تقليديا شأن كل شعراء العرب الذين يُبدءون بالغزل برغم أنه ربما لايكون قريبا من موضوع القصيدة ؟ وأغلب ظنى أن هذا غيرصحيح ، ذلك لأن أبافراس من شعراء القرن الرابع الهجرى وكان الزمن قد بعد بهذا التقليد وإن لم يقض عليه نهائيا . ثم إن مشكلة أبى فراس وتجربته القاسية كانت من الإلحاح عليه بحيث لم يكن فى حاجة إلى التسكع على أبواب القصيدة مناورا بكلمات الغزل لكى يشد آذان الناس إليه ، بل كان صوته المأساوى عذبا إلى الحد الذى يغنيه عن التماس المناورات ، ويبقى سبب آخر يجعل الغزل منطقياً ، ذلك أن أبا فراس كان شديد الحب فعلا لسيف الدولة لرعايته له فى طفولته أولا

ولأنه ، أي سيف الدولة كان موضع إعجاب عام من جانب الشعراء والعلماء ولدى عامة الناس لحبه للعلم والعلماء والأدب والأدباء والشعراء ، ولأنه قد ظهر كبطل قومي حمل على عاتقه مسئولية الدفاع عن الدولة العربية في مواجهة الروم الذين طمعوا في تمزيق الدولة الإسلامية بعد أن فشا فيها الانحلال وتملك فيها الأمر الأتباع بدلا من الخلفاء . ومالنا نلتمس الأدلة لهذه العاطفة العميقة التي كانت تربط أبا فراس بسيف الدولة وهذه أبيات القصيدة تثيرنا بصدقها فلا تدع أمامنا مجالا للشك في هذا الحب ولا في هذا الإخلاص .

تنكر سيف الدين لما عتبته وعرض بي تحت الكلام وقرعا
فقولا له من أصدق الود إنني جعلتك مما رابني الدهر مفزعا
ولو أنني أكننته في جوانحي لأورق ما بين الضلوع وفرعا

ويختم القصيدة بالتماس العذر لسيف الدولة ، بل يذكر له أياديه البيضاء فيقول :

فإن يلك بطء مرة فلطالما تعجل نحوى بالجميل فأسرعا
وإن يجف في بعض الأمور فإنني لأشكره النعمى التي كان أودعا
وإن يستجد الناس بعدى فلا يزل بذاك البديل المستجد ممتعاً

إن هذه الاستقامة النادرة في نفس أبي فراس الحمداني تدفع إلى الإعجاب به وإكباره ، وتأبى المحنة التي ولدت مع مولده ، إلا أن تشمل هذه الحياة كاملة . فما إن عاد من الأسر بعد ست سنوات قضاها في القسطنطينية حتى مات سيف الدولة وتولى ابنه أبو المعالي الملك مكانه ، وكان صبياً صغيراً يحتاج لمن يبسط عليه وصايته وقد جاءت هذه الوصاية من قائد جيشه قرعويه ، وكان أبو المعالي ابن أخت أبي فراس ، ورأى قرعويه أن وجود أبي فراس حيًّا يهدد نفوذه الواسع ، فأوغر

صدر أبي المعالى على خاله ودبر قرعويه باسم السلطات مكيدة غادرة انتهت بمصرع الأمير الشاعر أبي فراس الحمدانى عام ٣٥٧هـ عن سبعة وثلاثين عاماً لم يذق خلالها سوى الحسرة على شبابه الضائع . هذه هى محنة أبي فراس الذى حباه الله بالإمارة والفروسية والشعر ، فحصدها حنظلا من الغدر والأسر بالموت ، فياله من قصاص لا يعرف العدل من زمن لولا أن فيه أمثال أبي فراس لقلنا إنه عصر كان قد فسد فيه كل شيء .

دراسة لنص قديم

ياحسرة ماأكاد أحملها

لأبى فراس الحمدانى

ياحسرة ماأكاد أحملها … آخرها مزعج وأولها

عليلة بالشآم مفردة … بات بأيدى العدى معللها

تمسك أحشاءها على حرق … تطفئها والهموم تشعلها

إذا اطمأنت وأين ؟ أوهدأت … عنت لها ذكرة تقلقها

تسأل عنا الركبان جاهدة … بأدمع ماتكاد تمهلها

يامن رأى لى بحصن خرشنة … أسد شرى فى القيود أرجلها

يامن رأى لى الدروب شامخة … دون لقاء الحبيب أطولها

يامن رأى لى القيود موثقة … على حبيب الفؤاد أثقلها

ياأيها الراكبان هل لكما … فى حمل نجوى يخف محملها

قولا لها إن وعت مقالكما … وإن ذكرى لها ليذهلها

يـاأمـتـا هـذه مـنـازلـنـا … نتركـهـا تـارة .. ونـنـزلها
يـاأمـتـا هـذه مواردنـا … نـعـلـهـا تـارة ونـنهـلـهـا
أسلمنا قومنا إلى نوب … أيسرُها فى القلوب أقتلها
واستبدلوا بعدنا رجال وغى … يود أدنى علاى أمثلها
ليست تنال القيود من قدمى … وفى اتباعى رضاك أحملها
ياسيدا ماتعد مكرمة … إلا وفى راحتيه أكملها
لاتـتـيـمـم والماء تدركه … غيرك يرضى الصغرى ويقبلها
إن بنى العم لست تخلفهم … إن عادت الأسد عاد أشبلها
انت سماء ونحن أنجمها … أنت بلاد ونحن أجبلها
أنت سحاب ونحن وابله … أنت يمين ونحن أنملها
بأى عذر رددت والهة … عليك دون الورى معولها
جاءتك تمتاح رد واحدها … ينتظر الناس كيف تقفلها
سمحت منى بمهجة كرمت … أنت على يأسها مؤملها
إن كنت لم تبذل الفداء لها … فلم أزل فى رضاك أبذلها
تلك المودات كيف تهملها … تلك المواعيد كيف تغفلها
تلك العقود التى عقدت لنا … كيف وقد أحكمت تحللها
أرحامنا منك لم تقطعها … ولم تزل دائبا توصلها
أين المعالى التى عرفت بها … تقولها دائما وتـفـعـلـهـا
ياواسع الدار كيف توسعها … ونحن فى صخرة نزلزلها
ياناعم الثوب كيف تبدله … ثـيـابـنـا الصـوف مـانـبـدلها
ياراكب الخيل لوبصرت بنا … نحمل أقيادنا ونـنـقـلـهـا

رأيت فى الضر أوجهاً كرمت ... فارق فيك الجمال أجملها
قد أثر الدهر فى محاسنها ... تعرفها تارة وتجهلها
فلاتكلنا فيها إلى أحد ... معلها محسنا يعللها
لايفتح الناس باب مكرمة ... صاحبها المستغاث يقفلها
أينبرى دونك الكرام لها ... وأنت قمقامها وأحملها
وأنت إن عن حادث جلل ... قلبها المرتجى وحولها
منك تردى بالفضل أفضلها ... منك أفاد النزال أنولها
فإن سألنا سواك عارفة ... فبعد قطع الرجاء نسألها
إذا رأينا أولى الكرام بها ... يضيعها جاهداً ويهملها
لم يبق فى الناس أمة عرفت ... إلاوفضل الأمير يشملها
نحن أحق الورى برأفته ... فأين عنا ؟ وأين معدلها
يامنفق المال لايريد به ... إلاالمعالى التى يؤثلها
أصبحت تشرى مكارما فضلا ... فداؤنا قد علمت أفضلها
لايقبل الله قبل فرضك ذا ... نافلة عنده تنفلها

* * *

القصيدة التى كنا معها واحدة من الروميات ، وهو الاسم الذى أطلق على القصائد التى كتبها الشاعر الفارسى الأمير أبوفراس الحمدانى إبان فترة أسره بالقسطنطينية ، وهى فترة عصيبة فى حياة الشاعر دامت أربع سنوات ، أبدع خلالها أجمل وأعمق شعره ، وقد ولد أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان عام ٣٢٠ هـ بالموصل فى العراق ترجع أصوله من ناحية العمومية إلى قبيلة تغلب ، ومن جهة الخئولة إلى قبيلة تميم ، تعد حياته القصيرة – فقد مات فى السابعة والثلاثين من

العسر – سلسلة من الفواجع الدامية بدأت بمقتل والده سعيد بن حمدان على يد ابن أخيه ناصر الدولة ، وكان ناصر الدولة هذا واليا للخليفة العباسى الراضى بالله على الموصل وكان يماطل الخليفة فى دفع مال الضمان مما دفع الخليفة إلى تحريض عمه سعيد بن الحارث للتخلص منه وأغراه بتنصيبه مكانه ، ولكن ناصر الدولة كان واسع الحيلة يتقن المكائد والمناورات ، فاستقبل عمه بالحراب والسيوف وقتله غلمانه ، وهكذا عرف شاعرنا أبو فراس اليتم بعد مقتل أبيه سعيد بن حمدان ، وكان الشاعر فى الثالثة عشرة من عمره ، وتشاء المصائر الأليمة أن تلقى بهذا اليتيم الذى كفلته أمه إلى أن يستظل بظل سيف الدولة وهو أخو ناصر الدولة ، ولاشك أن هذا الوضع قد ترك آثاره العميقة فى صفحة روحه الصافية فانعكست حزنا وشكًّا وريبة .

ولكن سيف الدولة كان ملكا عظيما يشعر بمسئوليته تجاه الدولة الإسلامية كلها ، فمن الطبيعى أن يحمل مسئولية أسرته بأطرافها القريبة والبعيدة ، فعمل على تعليم وتهذيب وتثقيف وتدريب أبى فراس ، فجاء فارساً تفخر به الفرسان وشاعراً يلتف حوله المعجبون ، برغم أن حظه قد وضع نجمه تحت شمس أبى الطيب المتنبى الخارقة ، ولكن مركزه كأمير فى الدولة مكنه من حفر اسمه كشاعر من شعراء القرن الرابع الهجرى وكانت صفاته وأخلاقه العالية ترشحه للمنصب الخطير ، فولاه سيف الدولة إمارة منبج ، ولكن الدولة كانت فى عراك مستمر وحروب لاتهدأ مع الدولة البيزانطية على حدود دولة الحمدانيين الشمالية ، وفى واحدة من هذه المعارك وقع أبوفراس فى الأسر وحمل أولا الى خرشنة ثم الى القسطنطينية ومكث الشاعر الأمير أربع سنوات مريرة ذاق فيها قسوة العدو الذى أسره والصديق الذى تقاعس عن نصرته وتراخى فى فدائه .

كان الوشاة والحاقدون لأمثال أبي فراس بالمرصاد . فقد كاد له الشعراء لارتفاع نجمه الشعرى ، ويكفى أن نمد سمعنا وبصرنا الى مجلس من مجالس سيف الدولة الذى كان غاصا بالشعراء والعلماء والخطباء وعلى رأسهم ابو الطيب المتنبى لنمتلىء بالروع من هذا الحشد المتنافس والذى يلجأ للكيد بعضه لبعض حتى يصل الأمر بابن خالويه أن يضرب أباالطيب المتنبى بمفتاح فيشج له رأسه ، ولقد كان أبوفراس شاعرا مرموقاً ، ورأى فيه الشعراء أميراً منافساً ، ولاشك أن مكانته فى الأسرة الحمدانية قد مكنت له من الفوز بدور واضح فى دولة الشعر المزدهرة فى ذلك العصر ، ولكن الشعراء لم يكونوا بقادرين على أن يغفروا له هذه المكانة ، ولاشك أنهم حاولوا أن يثيروا الغبار حول شعره ، وكان الفرسان يحسدونه على شجاعته أيضاً ، وكان أبوفراس واحدا من أشجع فرسان الدولة الحمدانية — وما كان لأمير قبله يتمتع بكل هذه المواهب إلا أن يكون مصدر ريبة من الحكام والطامعين فى الحكم ، فسعى الوشاة بهواجسهم الى سيف الدولة الذى كانت أشباح الماضى لاتزال تعكس صورها الدامية على تراث أسرة الحمدانيين ، وبرغم أن سيف الدولة كان زوجاً لأخت أبى فراس إلا أن موقفه قد اتسم بالتخاذل ، أوعلى الأقل فقدان الحماس لفداء أبى فراس الذى وقع فى الأسر دفاعا عن دولته . وهنا اندلعت النار فى قلب الشاعر الأسير يشكو بثه وهمه حتى للحمائم ولكن لم يفقد توازنه كانسان أبدا فى هذا الأسر ، لم يفرط فى كرامته ولاوطنه ، بل لم يحد الشاعر عن حبه لابن عمه سيف الدولة ، والروميات الدامعة التى قالها الشاعر فى الغربة تطلعنا على هذا الحب المتمكن من نفس الشاعر لسيف الدولة ، وجاءت قصائد أبى فراس آية فى الجمال والجلال بسبب هذا الألم الذى صهره بناره وكواه بحسرته برغم أن كارل بروكلمان يزعم أن هذا الأسر لم يؤثر فى شعر أبى فراس ، يقول بروكلمان : ولم يكن

لحبس أبى فراس عند الروم تأثير فى شعره بطبيعة الحال ، أما قصيدته الجدلية التى يرد بها على الدمستق حين طعن فى العرب وأنكر عليهم خصائص الحرب ومناقبها فإنه لم يزد فيها على أن حشد سلسلة من أسماء الأماكن الرومية التى تركها الثعالبى حين ذكر القصيدة – ولاشك أن بروكلمان يظلم هذه الروميات ظلما شديدا بهذا الزعم . والا لما صار لها هذا التأثير البالغ على الوجدان العربى طوال هذا الزمن الممتد من عصر أبى فراس حتى عصرنا الحديث .

وعاد أبوفراس من الأسر وأصبح والياً على حمص بدلا من منبج ، ولكن راعيه الكبير سيف الدولة لم يلبث أن مات بعد عام واحد من فداء أبى فراس ، وهنا تبرز المكائد من مكامنها وقد نضجت من قبل فوق نار طويلة من الدس والوشاية – يتولى أبو المعالى بن سيف الدولة الحكم ، ولكنه كان صبيًّا صغيرًّا لا ينهض بأمور الحكم مماهيأ الفرصة لقرعويه قائد جيشه ان يكون وصيا عليه ، ولايلبث قرعويه أن يوغر صدر أبى المعالى ضد خاله أبى فراس موحياً إليه أن أبافراس يطمع فى الحكم ، ونجح قرعويه فى الايقاع بأبى فراس فى معركة قرب حمص كانت فيها نهاية الشاعر الفارس الأمير الذى حمل سيفه وقلمه دفاعا عن الدولة التى كانت من أشد الدول اهتماماً بالشعراء .

أما القصيدة التى نحن بصددها فقد قيل فى مناسبة قول أبى فراس لها إنه قد بلغه أن أمه ذهبت من منبج الى حلب عاصمة دولة الحمدانيين تكلم سيف الدولة فى المفاداة ، فردها خائبة ، فبعث اليه أبو فراس هذه القصيدة المفعمة بالحسرة والألم ، والقراءة المتمهلة للقصيدة تدلنا على أنها توشك أن تنقسم إلى ثلاثة أقسام . الجزء الأول يعلن حزنه وحسرته على حال أمه ، ويصف هذه الحال ويحاول أن يتقمص شخصيتها ، ثم الجزء الثانى ويحاول فيه التخفيف عن هذه الأم الملتاعة بسبب

غياب ابنها ، أما الجزء الثالث وهو الجزء الهام فهو عتاب حزين لسيف الدولة .

وأول مايلفتنا فى هذه القصيدة الحارة الأخاذة بسحر بساطتها أن الشاعر قد اختار بحر المنسرح إطاراً موسيقيا وعروضيا لها مستفعلن – مفعولات – مستفعلن ، ولكنه استخدم هذا البحر بتغيير التفعيلة الوسطى مفعولات – فجاءت الأبيات مستفعلن فاعلات – متفعلن وقد ساعد هذا البحر على أن يخرج الشاعر أحزانه من صدره نفثات منتظمة تكاد أن تكون قصيرة . مركزة لأنها ناضجة ، واختار قافية ممدودة مفتوحة على مساحة زمنية غير محدودة ، حتى يعطى نفسه فرصة الراحة من عناء ألمه ، إن الألم هو الذى يصوغ هذه القصيدة ببساطة وكأنها هدهدة الأم لطفلها أوكأن الشاعر يرفه عن نفسه بهذه الموسيقى العذبة المتموجة المتجهة إلى الأفق الواسع الرحيب – يبدأ ببداية تقليدية ذاتية توحى برغبته الشديدة فى التخفف من ألمه أوكأنه يعلن إعلانا واضحاً عن أزمته التى تطحنه بين ضروسها .

يا حسرة ما أكاد احملها آخرها مزعج وأولها

وبرغم أن الفن بقواعده يرشدنا إلى أن نخوض فى تقديم التجربة لتعطى بعناصرها المتفاعلة الانطباع الأعمق بنتائجها ودلالاتها وإيحاءاتها ، إلا أننا لانرفض ولانقدر أن نرفض يد الشاعر التى تحمل قلبه يغلى بالحسرة فى مقدمة قصيدة تغص حتى الحافة بالأوجاع ، لانستطيع الاعتراض لأن الشاعر يصوغ شكواه ببساطة آسرة وجاذبية خاصة ، ولأنه فى نفس الوقت لايسترسل فى هذه الشكوى ، بل يدخل الى الصورة المبتلة بالدموع مباشرة ، صورة أمه العليلة الوحيدة وقد صار طبيبها أسيرا فى أيدى الأعداء ، وكما أوحى لنا بعزمه فى أول القصيدة وهو يشير إلى شدة الحسرة فهو لم يعجز عن حملها . بل أشار الى هذا الثقل المحتمل لأنه فارس مقاوم – فكذلك أمه تقاوم نار الفقد فى أحشائها ، فهى تحاول أن تطفىء هذه

النار ، ولكن الهموم تصر على إشعالها فهى لاتعرف الطمأنينة ولاالهدوء ويستفهم الشاعر هذا الاستفهام التعجبى الإنكارى – إذا اطمأنت واين ؟ عن الطمانينة التى يمكن أن تنعم بها أم وقع وحيدها فى الأسر فهاهى الذكرى تقلقها – وماأبلغ هذا اللفظ الشديد الإيحاء والدلالة على مايفعله ومايدل عليه : فهذه القلقلة بالغة الدلالة على عدم الاطمئنان وعدم الراحة والهدوء ، فحتى الحروف تبدو قلقة متصاذمة تحدث فى الحلق نوعاً من الضجيج النفسى ثم يتقمص الشاعر صوت أمه بعد أن وصف حالها ، وهاهو ذا صوتها يطلع من صوته أشبه بالنداء العالى الصوت :

يامن رأى بحصن خرشنة اسد شرى فى القيود ارجلها
يامن رأى لى الدروب شامخة دون لقاء الحبيب أطولها
يامن رأى لى القيود موثقة على حبيب الفؤاد أثقلها

وكأن الشاعر الذى اخترع هذا الصوت قد عاد ليوهمنا بأنه صوتها حقيقة لامجازاً . ليس صوتاً فنياً داخل القصيدة ، ولكنه صوت دامع مجلجل فوق الأودية . يحاول الشاعر أن يرد على هذا الصوت متجاوباً مع إيقاعه الملهوف المستغيث ، فيوجه حديثه إلى راكبين وهميين شأن كل الشعراء الغرباء الذى كانوا يرسلون إلى قبائلهم وأحبابهم وذويهم برسائل شفهية مع الركبان ، هاهو ذا يخترع راكبين أيضا يوجه إليهما رجاءه بأن يحملا نجواه إلى أمه .

يحاول الشاعر فى هذه المناجاة أن يخفف عنها وقع ما هى فيه من حزن وهم وشقاء ، ولكننا نلاحظ أن الشاعر الذى كان ينبغى أن يفيض فى الحديث إلى أمه ليعزيها وذلك بتصوير ما هو فيه كما لو كان شيئاً طبيعياً وعادياً :

يا أمتا هذه منازلنا نتركها تارة وننزلها

يا أمتا هذه مواردنا نعلها تارة وننهلها

هذا الشاعر الذى يحاول تصوير مأساته كما لو كانت شيئا عارضاً مألوفاً مثل ورود الماء والصدود عنه يصمت فجأة عن هذه المحاولة التى يعرف أنها يائسة ، فهو يعرف أن أمه لن تشفيها الكلمات ومحاولة العزاء الذى يعرف أن المغالطة الشعرية تلعب دورا أساسياً فيها ، أما الذى يشفى أمه حقيقة فهو خروجه من الأسر ، من هنا يبدأ الشاعر وتبدأ القصيدة تسيل فى واد آخر . فبرغم أن هذا الجزء يرد على لسانه ضمن مناجاته لأمه ، إلا أنه فى الواقع موجه فى رسالة عتاب تتضمن احتجاجاً مبطناً بالجزع إلى أميره سيف الدولة .

ومرة أخرى يثبت أبو فراس الحمدانى أن الجزع والحزن لم يغلباه على أمره ، فما إن يبدأ عتابه لسيف الدولة حتى يشعر أن المرارة يمكن أن تقوده إلى القسوة فيميل إلى الملاينة والتلطف فى العتاب ، وليس هذا نفاقاً من أبى فراس ولا مذلة يطلب من ورائها منة من أحد ، ولكن أغلب الظن أن تقدير سيف الدولة كان موضع إجماع فى هذه البقعة من الأرض العربية ، وكان تاريخه الحافل بالدفاع عن الأمة الإسلامية ينهض مدافعاً عنه هو أولا ، بل إن فضل سيف الدولة على أبى فراس كان غامراً منذ تولى تنشئته حتى افتداه ، من هنا لم يكن أبو فراس بعيداً عن الحصافة وهو يكبح مرارته الخاصة حتى لا تقوده إلى القسوة فى العتاب فما إن يبدأ بشىء من المجاهرة بالغلظة والفخر بالنفس .

أسلمنا قومنا إلى نوب أيسرها فى القلوب أقتلها
واستبدلوا بعدنا رجال وغى يود أدنى علاى أمثلها
ليست تنال القيود من قدمى وفى اتباعى رضاك أحملها

حتى يميل إلى مدح سيف الدولة مذكراً إياه بأبناء العم الذين لا يمكن تعويضهم .

يا سيداً ما تعد مكرمة   إلا وفى راحتيك أكملها
لا تتيمم والماء تدركه   غيرك يرضى الصغرى ويقبلها
إن بنى العم لست تخلفهم   إن عادت الأسد عاد أشبلها

ثم يدخل بنا إلى أفق يتسامى إلى آماد عالية من الحب والتقدير مستخدماً هذه المهارة الشعرية الفاتنة فى الوصول إلى عصب الرضا من سيف الدولة ليحركه فى اتجاه المفاداة العزيزة التى طال شوقه إليها . ونأتى إلى صورة شعرية باهرة جسد فيها أبو فراس حبه العميق لسيف الدولة .

أنت سماء ونحن أنجمها   أنت بلاد ونحن أجبلها
أنت سحاب ونحن وابله   أنت يمين ونحن أنملها

وبرغم أن نغمة المديح واضحة فى هذه الأبيات ، إلا أن الشاعر يقتسم المجد مع أميره ، فهو يشير إلى أن الأمير وأبناء عمه إنما هم كل لا ينفصل ولا يتجزأ ، وبعد ذلك يجترئ الشاعر فيعود من جديد إلى أسلوب العتاب وكأنه تذكر أمه العزيزة التى تطوى جوانحها على اللهب ، وها هو يحاول إحراجه من خلال هذا الاستفهام المتكرر :

بأى عذر رددت والهة   عليك دون الورى معولها
جاءتك تمتاح رد واحدها   ينتظر الناس كيف تقفلها
سمحت منى بمهجة كرمت   أنت على يأسها مأملها
إن كنت لم تبذل الفداء لها   فلم أزل فى رضاك أبذلها

ثم يلح بعد ذلك فى الإشارة للمودة والقربى مستخدماً أبسط الصيغ الشعرية ،

تلك الجمل القصيرة البالغة النفاذ إلى القلب إنه يعرف جيداً حرص سيف الدولة على المودة وإخلاصه فى الوفاء بالعهد وإبرامه للعقود التى لا يحلها إذا أحكمها ، وهنا تنهمر القصيدة فى نوع من العتاب أشبه بالبكاء ، ولكن هذا الانهيار الذى يوحى بالصراحة وبالكلمة الشجاعة والتقدير فى نفس الوقت يؤكد عمق الإحساس بالأخوة بين الرجلين ، إنه يخاطبه فى ثقة شديدة وهو يراوح فى خطابه بين المرارة التى تميل إلى نوع من القسوة وبين التلطف الذى يقود إلى المديح ، وهذه المراوحة أشبه بالهدهدة التى تريح الحواس فتغمر القلب بالإقناع والراحة ، ولا شك أن العلاقة الحميمة بين سيف الدولة وأبى فراس هى التى جعلت الشاعر يوجه للأمير العتاب قائلا :

أين المعالى التى عرفت بها تقولها دائماً وتفعلها
يا واسع الدار كيف توسعها ونحن فى صخرة نزلزلها
يا ناعم الثوب كيف تبدله ثيابنا الصوف ما نبدلها

ولكن الشاعر لا يلبث أن يميل إلى التلطف ، وبرغم أن القصيدة تحمل شيئاً من التكرار فى صورة اللفظ والمعنى إلا أن الصدق العميق الذى يغلف القصيدة كلها يجعل لهذا التكرار مذاقاً مختلفاً ، فهو بدلا من أن يصبح تطفلا على القصيدة يزيد من العمق فى المعنى العام الذى يريد أن تصل إليه ويشكل إضافة للبعد النفسى الذى يحاول الشاعر أن يرسمه بإتقان . وكأن الشاعر وهو يتدفق بشكواه قد أنسى أمه فى حضرة أميره . ويواصل أسلوب الاستفهام الإنكارى والتعجبى حتى يصل فى النهاية إلى قرار لأسئلته ، قرار مكين كان ينبغى أن يترك القصيدة تصل إليه دون أن يعلن عنه إعلانا :

يا منفق المال لا يريد به إلا المعالى التى يؤثلها

أصبحت تشرى مكارما فضلا   فداؤنا قد علمت أفضلها

لا يقبل الله قبل فرضك ذا   نافلة عنده تنفلها

وبرغم أن الشاعر قد خلص من المراوحة إلى المواجهة ومن طرح الأسئلة إلى الإفصاح المباشر ، إلا أن هذا الإفصاح لم يفسد القصيدة وإن كان طرحه عنها قد يفيدها .

إن هذه الرومية الساحرة هى واحدة من بنات الألم العظيم الذى اعتصر أبا فراس وطحنه بين رحاه . وحسب الشاعر أنه أبدع مثل هذه الخريدة التى تظل درة فى قلادة الشعر العربى ، ولا شك أن الصدق قد أمد القصيدة بالتأثير البليغ ، وتظل الشاعرية الأصيلة لأبى فراس الحمدانى متلألئة فى أبيات القصيدة كلها لتعطى صورة لقلب هذا الفارس الشاعر الأمير الذى واجه بعزم مأساوية مصيره وتقلب بين مرارة الأيام وقسوة حظوظه حتى مات فى مكانه كفارس بعد أن أعطى الأدب العربى شهادة ناصعة ناطقة بروعة وبهاء وصفاء شاعريته .

دراسة لنص قديم

ألا ليت أيام الصفاء جديد

من شعر جميل بن عبد الله بن معمر

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهرا تولى يابثين يعود

فنغنى كما كنا نكون وأنتم صديق . وإذ ما تبذلين زهيد

وما أنسى م الأشياء لا أنسى قولها وقد قرّبت نضوى : أمصر تريد ؟

ولا قولها . لولا العيون التى ترى أتيتك فاعذرنى فدتك جدود

خليلى ما أخفى من الوجد ظاهر فدمعى بما أخفى الغداة شهيد

ألا قد أرى والله أن رب عبرة إذا الدار شطت بيننا ستزود

إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى من الوجد قالت ثابت ويزيد .

وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به مع الناس قالت ذاك منك بعيد

فما ذكر الخلان إلا ذكرتها ولا البخل إلا قلت سوف تجود

إذا فكرت قالت قد أدركت وده وما ضرنى بخل ففيم أجود

فلا أنا مردود بما جئت طالباً ... ولا حبها فيما يبيد يبيد

جزتك الجوازى يا بثين ملامة ... إذا ما خليل بان وهو حميد

وقلت لها بينى وبينك فاعلمى ... من الله ميثاق لنا وعهود

وقد كان حبيكم طريفاً وتالداً ... وما الحب إلا طارف وتليد

وإن عروض الوصل بينى وبينها ... وإن سهلته بالمنى لصعود

فأفنيت عيشى بانتظار نوالها ... وأبلت بذاك الدهر وهو جديد

فليت وشاة الناس بينى وبينها ... يذوف لهم سما طماطم سود

وليت لهم فى كل ممسى وشارق ... تضاعف أكيال لهم وقيود

ويحسب نسوان من الجهل أننى ... إذا جئت إياهن كنت أريد

فأقسم طرف العين أن يعرف الهوى ... وفى النفس بون بينهن بعيد

فأعرضن إنى عن هواكن معرض ... تماحل غيطان بكن وبيد

لكل لقاء تلتقيه بشاشة ... وكل قتيل عندهن شهيد

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل ... إلى اليوم ينمى حبها ويزيد

فلو تكشف الأحشاء صودف تحتها ... لبثنة حب طارف وتليد

يذكرنيها كل ريح مريضة ... لها بالتلاع القاويات وئيد

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بوادى القرى إنى إذن لسعيد

وهل ألقين سعدى من الدهر مرة ... وما رث من حبل الصفاء جديد

وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسة ... وقد تطلب الحاجات وهى بعيد

وهل أزجرن حرفاً علاة شملة ... بخرق تباريها سواهم قود

على ظهر مرهوب كأن نشوزه ... إذا جار هلاك الطريق وفود

سبتنى بعينى جؤذر وسط ربرب ... وصدر كفاثور الرخام وجيد

تزيف كما زافت إلى سلفاتها مباهية طى الوشاح فيود
إذا جئتها يوماً من الدهر زائراً تعرض منقوص اليدين صدود
يصد ويغضى عن هواى ويجتنى على ذنوباً أنه لعتود
فأصرمها عمداً كأنى مجانب ويغفل عنا تارة فنعود
فمن يعط فى الدنيا قريناً كمثلها فذلك فى عيش الحياة رشيد
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعود
يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأى جهاد غيرهن أريد
ومن كان فى حبى بثينة يمترى فبرقاء ذى ضال على شهيد
لئن كان فى حب الحبيب حبيبه حدود . لقد حلت على حدود
وأحسن أيامى وأبهج عيشتى إذا هيج بى يوماً وهن قعود
ألم تعلمى يا أم ذى الودع أننى أضاحك ذكراكم وأنت صلود
فقلت لها يا بثن . . أوصيت كافياً وكل امرئ لم يرعه الله معمود

القصيدة التى كنا معها هى إحدى عيون الشعر العربى فى كل عصوره ، أما شاعر هذه القصيدة فهو جميل بن عبد الله بن معمر العذرى من تلك القبيلة الشهيرة فى تاريخ الأدب برقة الإحساس وحرارة العاطفة والعفة فى الحب ، حتى لقد نسب الحب العفيف أو الحب الرومانسى إلى هذه القبيلة . وما كان لهذه القبيلة أن يذاع لها اسم أو تسير الركبان بشهرتها لولا شعر جميل بن معمر ، فهو الذى خلق لها بشعره تاريخا ، لقد عد رائدا من رواد الشعر الغزلى فى بداية العصر الأموى ، وإذا كان النقاد يرون فى عمر بن أبى ربيعة شاعر الحضر الذى أشاع تقاليد جديدة فى الشعر بأسلوبه المتميز الجذاب ، فإن نفس هؤلاء النقاد لا يستطيعون وهم بصدد الحديث عن بداية لعصر بنى أمية أن ينكروا أن المدرسة التى تزعمها جميل بن معمر

ويشركون معه كثير عزة قد اقتسمت مع مدرسة عمر بن أبي ربيعة حظها من المجد والتأثير والإبداع ، وبرغم أن مدرسة ابن أبي ربيعة كانت أكثر حداثة في أسلوبها ورؤيتها وتعبيرها عن الطبقة الصاعدة من صفوة المجتمع الإسلامي في ذلك الحين ، إلا أن إضافة جميل بن معمر الحقيقية والتي جعلت دوره أساسياً في هذه الحقبة هي أنه أولاً وقف على نقيض مدرسة الغزل الحسي ، فكان هذا التضاد ظاهرة تؤكد ذاتها من خلال المقارنة المستمرة ، ثانياً لأنه كان خطوة متميزة بين الشعر الجاهلي الذي امتزج فيه الحس بالمعنى والعُذري الرومانسي بالواقعي ، فكانت هذه سمة جديدة أيضاً رفعت من قيمة هذا الشعر أو على الأقل جعلت له منهجاً متميزاً ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه الحقبة كانت لا تزال قريبة العهد بالقيم الإسلامية في نقائها الأول كان للشعر العفيف حظه من القبول لدى مجتمع لم يبتعد عن الطهر وطلب المثل العليا . ولعل من أكثر العوامل تأثيراً في ذيوع شهرة جميل هي البساطة الأخاذة التي أنشد بها شعره ، فقد كان هذا الشعر سهلاً واضحاً قريباً من القلب ومهد لهذا الشعر أن يحاط بالجاذبية والسحر الإطار القصصي الذي قدم من خلاله ، فقد قدم هذا الشعر من خلال قصة حب واحدة ، ولكنها ذات أبعاد شتى . قصة حفلت بالمغامرة والشجاعة والوفاء والمناورة والتهديد والرحيل والغربة والحزن والخصام والصلح ، هي قصة حب جميل لبثينة .

يقول صاحب الأغاني : «وجميل شاعر فصيح مقدم جامع للشعر والرواية ، كان راوية هدبة بن الخشرم وكان هدبة شاعراً راوية للحطيئة وكان الحطيئة شاعراً راوية لزهير وابنه ، وقال أبو محلم : آخر من اجتمع له الشعر والرواية كثير ، وكان راوية جميل وجميل راوية هدبة وهدبة راوية الحطيئة والحطيئة راوية زهير ، والقدماء يقدمون «جميل» على كثير ، وقال بعضهم ما استنشدت كثيراً قط إلا بدأ

بجميل وأنشدنى له ثم أنشدنى بعده لنفسه وكان يفضله ويتخذه إماماً . وإذا كان لكل شاعر تجربته الكبيرة فإن قارئ الكتب التى تحدثت عن جميل وقارئ شعره أيضاً يرى أن قصة حبه لبثينة كانت هى شغله الشاغل وهمه فى هذه الدنيا ، فلا نكاد نعرف له عملاً ولا مقاماً ولا رحيلاً إلا من أجل العشق الذى ملك عليه أمره ، أليس هو القائل :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة ... وأى جهاد غيرهن أريد

فهو لا يرى لنفسه جهاداً فى هذه الدنيا إلا جهاده فى سبيل حبه ، ولقد خلف جهاده هذا تراثاً أصبح فى تاريخ الأدب العربى ملهماً ومثالاً . وما كان جميل بن معمر عاشقاً ضعيفاً غلبه ضعفه فأفرغ حرارة شوقه إلى محبوبته فى تهويمات ومشاعر وأحلام ، ولكنه شاعر فصيح جزل العبارة ، ورجل بالغ القوة والشجاعة تلعب المخاطرة دوراً هاماً جداً فى حياته العاطفية ، كان جسوراً لا يهاب أهل محبوبته ولا حتى زوجها بعد أن تزوجت – وكان حب بثينة ثابتاً فى قلبه تغلغل إلى أطرافه وعروقه وشغاف قلبه ، شمل حياته من الصبا وحتى الموت فهو حب كبير حقاً . كان أول ما علق ببثينة أنه أقبل يوماً بإبله حتى أوردها وادياً يقال له بغيض ، فاضطجع وأرسل إبله مصعدة وأهل بثينة بذنب الوادى فأقبلت بثينة ، وجارة لها واردتين الماء فمرتا على فصال له بروك فعرمتهن « أى فزعتهن » وهى إذ ذاك جويرية صغيرة فسبها جميل فافترت عليه فملح إليه سبابها فقال :

وأول ما قاد المودة بيننا ... بوادِ بغيض يا بثين سباب

وقلنا لها قولاً فجاءت بمثله ... لكل كلام يا بثين جواب

كانت هذه البداية مقدمة ضرورية لحب ظل يتأجج فى قلب جميل وبثينة حتى أشعل القصائد التى ذاعت ورواها الرواة وكانت القصص الصغيرة التى تكتنف هذا

الحب الصحراوى المراوغ تمتلئ بالمبالغات والوشايات ، وعملاً بالتقاليد العربية . فإن شعر جميل فى بثينة والقصص التى تنوقلت عن لقائهما قد منعت أهل بثينة من الموافقة على زواجها . نفس ما حدث لمجنون ليلى . وإذا كان هذا الحرمان مصدر حسرة وأسف لقراء قصص الحب فإن هذا الحرمان نفسه هو الذى صنع لنا هذه الباقة النضيرة من ثمار الحديقة الشعرية التى تفتحت فى قلب جميل بن معمر ونعمت بها قبيلة عذرة واستمتع بها كل عشاق الشعر الجميل . وتمتلئ قصة جميل ابن معمر بالطرائف والمغامرات والمناورات والوساطات التى تقوم بها الجوارى بين العشاق ، ولكن قصة جميل قد تعرضت لمثل ما تعرضت له كل قصص الحب من المبالغات بل اختراع الوقائع التى لم تحدث قط ولكن الملاحظة الأساسية على هذه القصة هى التناقض الجوهرى الذى يحاصر كل من يقرأ أحداثها .

فقد اشتهر جميل بالعفة وبرهن شعره على ذلك أفضل برهان وصار علماً على ما يسمى بالحب العذرى وهو ما يقابل فى زماننا مصطلح الحب الأفلاطونى وفى حياته ما ينبئ عن هذه العفة ، وهذا الترفع عن إشباع الحواس ، ولكن فى وقائع حياته أيضاً ما يقطع بأن هذه العفة لم تكن مطلقة ، وحسب الباحث أن يرى فى إصراره على مواصلة حبه لبثينة بعد زواجها ومجاهرته بهذا الحب ومحاولاته المستمرة التقرب إليها والحصول على مآربه منها ، وقد قام الشفعاء والوسطاء من الأقارب والجوارى بتحقيق رغبة العاشقين ، ونسوق هذه الحادثة كما رواها صاحب الأغانى برهاناً على عفة جميل .

سعت أمةٌ لبثينة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما : إن جميلاً عندها الليلة فأتياها مشتملين على سيفين فرأياه جالساً يحدثها ويشكو إليها بثه ، ثم قال لها يا بثينة أرأيت ودى إياك وشغفى بك ألا تجزينيه ؟ قالت بماذا ، قال بما يكون بين المتحابين ،

فقالت له : يا جميل أهذا تبغي والله لقد كنت عندى بعيداً عنه ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهى أبداً ، فضحك وقال والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه ، ولو علمت أنك تجيبينى إليه لعلمت أنك تجيبين غيرى ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا ، ما استمسك فى يدى ولو أطاعتنى نفسى لهجرتك هجرة الأبد أو ما سمعت قولى :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى ... لو أبصره الواشى لقرّت بلابله

بلا وبألا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

فقال أبوها لأخيها : قم بنا فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها ، فانصرفا وتركاهما . . وقد أفاضت كل كتب التراث التى ذكرت جميلاً وشعره فى دلالة هذا الحدث على عفة حبه ، ولكن هذه الكتب أغفلت وقائع أخرى على النقيض من دلالة هذه الحادثة .

وفى كتاب الأغانى الكثير من هذه المغامرات التى تقطع بأن جميل لم يكن مطلق العفة وإلا لما كان لحبه معنى ، ولكن المشهور عن هذا الحب أنه كان رومانسياً يقترب من الوجد الصوفى .

إذا تأملنا قصيدة جميل ألا ليت أيام الصفاء جديد — وجدناها تعطى انطباعاً بأنها كتبت فى فترة متأخرة من فنه وحياته ، وأغلب الظن أنها كتبت فى مصر بعد رحلته إليها حيث مات بها ، أو أنها كتبت خلال الرحلة ذاتها لأن فيها ذكراً لهذه الرحلة . والقصيدة مرآة كبيرة لنفس جميل بن معمر حيث تهيج الذكريات وتتداخل المواقف يحيطها شجن عميق ويبطنها إحساس شامل بالحسرة واللوعة . وفى هذه القصيدة التى خيل إلى أنها كتبت قبيل أن تتم حياة جميل بقليل تأكيد

لما ذهبنا إليه من أنها صورة لحبه الذى كان أهم حدث فى حياته كلها . ها نحن أولاء نراه وهو غريب عن وطنه وقد جسر حبه وتراكمت عليه شواغل الحياة يصف لنا قصة هذا الحب وصفاً حياً نابضاً بالحركة والحياة من خلال هذه المواقف الوجدانية المشحونة بالفرح والحزن . وفى هذه القصيدة اكتمال لمنهجه الفنى وأسلوبه الذى عرف به فكأنها بهذا خلاصة فنه تتضمن عصارة حياته لتقدم غرامه الكبير فى أنصع ديباجة وصلت إليها موهبته الإبداعية ، ولعلها أشهر قصائد جميل على الإطلاق .
والقصيدة تبدأ بحسرة تترقرق خلف هذا التمنى للمستحيل باستعادة أيام الصفاء ، وهى الأيام التى نعم فيها بالحب والصبا وبراءة النفس من هم الغربة والفقد ، ويلفتنا فى هذا البيت الأول أمنيته بجدة أيام الصفاء أنه لا يتمنى عودة هذا العهد فيكون تكراراً لما كان أو صورة منعكسة من الماضى ، بل يريد لهذا العهد أو يتمنى لو أن هذا الصفاء يكون جديداً كما كان فى أول عهده به ، ليس عودة وتكراراً ، بل إنشاء جديداً وخلقاً جديداً يريد أن يحدث ما حدث ليس للمرة الثانية وإنما أن يحدث من جديد لأول مرة ، وهذا هو المستحيل المركب — فعودة الزمن محال وحدوث ما حدث وكأنه لم يحدث محال جديد ، وهذا منطق الشعراء . الصبوة إلى المطلق وها هو يدخل عالم الصفاء الذى ينشده من باب الأحلام والذكرى . ويبسط أمامنا ملامح هذا العهد الذاهب الغارب . فيتحدث عن الغنى الذى كان فى ذلك الوقت ، والغنى الذى يتحدث عنه جميل هو امتلاء النفس بالحب والمودة والطمأنينة وراحة القلب ، حيث كانت الصداقة تربط بينه وبين بثينة ولم ينس وهو يذكر الغنى أن يشير إلى أن ما أعطته من وصلها كان زهيداً ، وهنا يقيم الشاعر مقابلة بين الغنى والزهيد المبذول فنخرج بمعنى واحد هو القناعة بهذا القليل والقناعة هى الغنى ، لأن فيها استغناء . وهاهو ذا يتوجع للحظة الفراق الأليمة ، فقد سألته

وهى عالمة بجواب السؤال ولكن التصريح فى مثل هذه المواقف لا معنى له :

وما أنسى م الأشياء لا أنسى قولها وقد قربت نضوى أمصر تريد

ولا قولها لولا العيون التى ترى أتيتك فاعذرنى فدتك جدود

هذا هو موقفها . تعبير بالغ الدلالة على خشية الفراق وإعلان خفى بالحب المكين فى نفس بثينة لجميل . ويناشد صاحبيه معلناً أن دموعه تشهد بما يخفيه من الوجد ، والحقيقة أن الشاعر لم يكن يخفى وجده وإنما أراد أن يقول إن هذه الدموع إنما هى فيض الينابيع التى امتلأت وفاضت وكيف لا تمتلئ نفسه وتفيض بعد أن يئس من حبه ، وهاهو الخليفة الأموى يحظر عليه الإلمام بمضارب قبيلة حبيبته فلا يرى أمامه إلا الهجرة وشد الرحال إلى مصر . ويتنبأ الشاعر بأن الرحلة لن تجلب له العزاء الذى يرجو ولا السلوان الذى يطلب وإنما الدموع سوف تظل مترددة حيرى فى عيونه تغدو وتروح .

ألا قد أرى والله أن رب عبرة إذا الدار شطت بيننا سترود

وهنا لا نستطيع أن نقول إن بناء القصيدة متماسك يبدأ بداية تقود إلى تطور شعرى فى اتجاه قمة درامية معينة ، وإنما القصيدة بمثابة عقد من الذكريات ينتثر فى نفسه مشعاً بالفرح والحزن ملتقطاً من الصبا والشباب ، هذه اللوامع من المشاهد المؤثرة بينه وبين حبيبته ، وقد أشارت الشروح والكتب التى أوردت القصيدة إلى اختلاف ترتيب الأبيات . وبالطبع لقد خضع هذا الترتيب لمزاج الرواة والمستشهدين بشعره . فليس لدينا ونحن نتذوق هذه القصيدة إلا أن نستسلم لعالمها وألوانها المتعددة ومزاجها المتقلب . ولا شك أن ذاكرته التى تصب فى قلبه قد احتشدت بهذه الصور العزيزة على نفسه والقاسية فى نفس الوقت . فبعد أن ينقل لنا ما يؤكد حبها له نراه ينقلنا إلى مشهد من مشاهد الهجر أو الدلال بمعنى أصح

حين يقول فى حوارياته العذبة :

إذا قلت : ما بى يا بثينة قاتلى ... من الوجد قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به ... مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فما ذكر الخلان إلا ذكرتها ... ولا البخل إلا قلت سوف تجود
إذا فكرت قالت قد أدركت وده ... وما ضرنى بخل : ففيم أجود
فلا أنا مردود بما جئت طالباً ... ولا حبها فيما يبيد يبيد

إلى أن يعلن فشله وخسارته الفادحة :

فأفنيت عيشى بانتظار نوالها ... وأبلت بذاك الدهر وهو جديد

ولاشك أن الوشاة قد لعبوا دوراً فى مواقف الهجر التى كانت تحدث بين الحبيبين حتى إنه ليتمنى أن يدس العبيد السود لهم سماً فى طعامهم بل يتمنى أن تكبل القيود هؤلاء الوشاة فى صبحهم ومسائهم . وينتقل بنا الشاعر وهو يهيم فى حديقة ذكرياته إلى صورة أخرى تبرز لنا إعزازه لبثينة وحرصه عليها ووفاءه المنقطع النظير ، فهو يصور لنا تهافت النساء عليه وغرورهن وظنهن بأنه وقع فى غرامهن ، وذلك لأنه كان يلجأ إلى حيلة . ما أظن إلا أن النساء هن اللواتى يلجأن إليها وهى تشتيت النظر حتى لا يعرف الوشاة إلى من ينظر ، فلا تتهم محبوبته فها هو ذا يقسم طرف العين بين بثينة وبينهن حتى يخدع وشاته .

فأقسم طرف العين أن يعرف الهوى ... وفى النفس بون بينهن بعيد

ويجاهر جميل بحبه لبثينة ويستطرد فى هذه المجاهرة وكيف لا يستطيب الإعلان عن حبه وقد كان لقاؤهما مصدر سعادة كبيرة له ، بل كيف يخفى حباً تمكن منه منذ كان صبياً ، فهو حب قديم جديد .

علقت الهوى منها وليداً فلم يزل   إلى اليوم ينمي حبها ويزيد

فلم تكشف الأحشاء [illegible] تحتها   لبثنة حب طارف وتليد

وهاهي ذي الحسرة تعود من جديد يؤججها الشوق إلى وادى القرى موطن قبيلة العذريين ، فيعود إلى التمنى ويبسط لنا صورة من حياته فى ذلك العهد الجميل وهو يحاول نفعاً يبلغ بها اليأس مداه ولكنه يرى أن الحاجات قد تطلب وهى بعيدة .

وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسة   وقد تطلب الحاجات وهى بعيد

وبعد أن يصور مشهداً من مشاهد حياته فى وادى القرى يرفع لنا من جديد صورة بثينة وهى تتيه فخراً بجمالها وسط قريباتها ويتخيل الشاعر من يصير قريباً لها .

فمن يعط فى الدنيا قريناً كمثلها   فذلك فى عيش الحياة رشيد

ويختم الشاعر قصيدته بهذه الأبيات التى حظيت بشهرة كبيرة ، والتى يقول فيها :

يموت الهوى منى إذا ما لقيتها   ويحيا إذا فارقتها فيعود

يقولون جاهد يا جميل بغزوة   وأى جهاد غيرهن أريد

ومن كان فى حبى بثينة يمترى   فبرقاء ذى ضال على شهيد

إلى أن يقول :

ألم تعلمى يا أم ذى الودع أننى   أضاحك ذكراكم وأنت صلود

حتى وهو يضاحك ذكراها تبدو له متجهمة معرضة عنه . والحقيقة أن الغربة والحسرة والفقد هى التى تتجهم للشاعر فتصور له وجهها صلوداً .

إن جميل بن معمر يظل علماً على مدرسة باذخة الثراء فى الشعر العربى ، وهو يعد نموذجاً مثاليًّا للشاعر الشجاع الذى كان العفاف قيمة من قيمه الأخلاقية ، ولاشك أن شعره قد جاء صورة نقية لشفافية روحه وأصالة شاعريته ورقة نفسه ،

وليس عبثاً أن يظل جميل بن معمر حيًّا فى ذاكرة الشعر العربى ، فقد شق لهذا الشعر نهراً كبيراً ارتوت منه أرواح العشاق وقلوبهم ، ويظل شعره ملمحاً بارزاً فى قسمات هذا الشعر الذى حمل طوال قرون كل كنوز الوجدان العربى وأشواقه وأحلامه .

إلى أين يتجه الشعر الحديث . . ؟

كثيراً ما تتحول معاركنا النقدية إلى خصام مرير توجهه الدوافع الذاتية وتطفئه النزوات ، وقبل أن تصبح نتائج هذه المعارك أسساً موضوعية لموقف فكرى أو فنى أو أدبى جديد فإن التراشق الأعمى بالاتهامات يضلل كل متتبع مخلص لهذه المعارك ، كل هذا وسط دخان كثيف من سوء الظن . والرغبة فى الانتقام غير العادل لإحباطات قديمة أو راهنة ، وكم من أفكار جديدة وئدت تحت دعاوى غير موضوعية،وكم من أفكار بالية عادت للظهور لتطرح أسئلتها البلهاء حول موضوعات لا تشغل إلا الفارغين ، ولأن المعارك تشتعل وتهدأ بعيداً عن كل اعتبار إيجابى للحقائق فإن معظم هذه المعارك قد انتهت بهزيمة كل الأطراف ، وظلت الحقيقة غائبة عن الجميع . حدث هذا خلال المعارك الكبرى حول قضية الفن للفن والفن للحياة ، وقضية التراث وقضية الشعر الحديث ، ولقد قوبلت قضية

الشعر الحديث فى البداية بلون من الازدراء سرعان ما تحول إلى موقف من مواقف التحدى الذى تطور إلى موقف شبه عدوانى فى النهاية . ولكن الشعر الحديث لم يسقط ، بل على العكس تبنته الأجيال الجديدة . وكان السبب الأساسى فى صعود هذا الشكل أنه كان استجابة متطورة العصر أخذت شكل الصعود والانتشار ، كانت الحياة الأدبية تفتح للجديد فى القصة والرواية والشعر والمسرح والاتجاهات النقدية المعاصرة . وكان الشاعر الحديث يتأهب للتحليق فى الآفاق العالية التى أتاحتها حرية التخفف من الأطر التقليدية ، وكان موقف النقد إيجابياً على المستوى النظرى والتطبيقى معاً . وتمكنت الدائرة الضيقة من المثقفين الذين يلتفون حول حركة الشعر الحديث أن توسع من نطاقها بفضل تضافر جهود الشعراء والنقاد وترحيب وسائل الإعلام ذات الأفق الواسع بهذا اللون الحيوى . وأمكن الحصول على كثير من الثمار الناضجة فى إطار القصيدة وفى إطار محاولة تطويع الشكل للأداء المسرحى . وفجأة ظن الشعراء أن الحركة قد بلغت تمام مسيرتها ووجد النقاد فنوناً وآداباً صاعدة خاصة القصة القصيرة التى حققت تطوراً فنياً ملحوظاً بعد حرب ٦٧ فى اتجاه الصدق الفنى والولع برؤية الواقع بطريقة واقعية خالية من التعنت وفرض الأطر الأيديولوجية عليها . وكان المسرح هو الآخر يشهد نهضة كبرى ، ورأى النقاد أن المسرح يحتاج لجهد أقل فنيًا فى نقده من الشعر . واختفت من الصحف والمجلات الأدبية الدراسات المتخصصة حول الشعر الحديث إلا من بعض المقالات التى كتبت بدافع المجاملة أو تقديم القرابين لأصحاب النفوذ من الشعراء . وفى ذلك الوقت كانت هناك أجيال جديدة من الشعراء تزدحم فى الساحة لأخذ دورها فى حركة التطور التى ظنوها بلا نهاية . وبدأ المسرح فى الإظلام حول كوكبة الشعراء الجدد وتحولت الحركة الشعرية إلى نوع من الاجتهاد الذى

اعتمد فى البداية على الأصالة والصدق واحترام عملية الإبداع بعيداً عن أية اعتبارات أخرى . ولكن الذى حدث أن بعض الشعراء خاضوا تجربة تطوير أشعارهم بعيداً عن عناصر الواقع الثقافى مفترضين أن استقلال العملية الإبداعية سوف ينقذها من السقوط فى الجمود ، وبدأت عملية تطوير شاقة كانت تجد روافدها فى تطور مماثل لحركة الشعر الحديث فى البلاد العربية الأخرى ، ولكن الذى عجل بالأزمة الحقيقية هو أن التطوير للأدوات الفنية قد سقط وبشكل مباشر تحت تأثير اتجاه واحد يمكن أن ندعوه باتجاه خلق الأساطير الذاتية ، وذلك من خلال إدخال العالم إلى الذات بدلاً من دمج الذات بالعالم ، حدث موقف عكسى لما كان ينبغى أن يحدث تماماً فى هذه المرحلة التى تغلى بالمتغيرات ، لقد حاول بعض الشعراء أن يتحصنوا ضد ما هو عابر وسطحى ومتغير فسقطوا فى بئر الذاتية العميقة ، وبالطبع فإن هذه الآبار تأخذ حجم وقدرات وموهبة وصدق كل شاعر . فالشاعر الذى رشح نفسه للحصول على جائزة كبرى من التاريخ قد رأى أن يغوص فى أعماق التراث ويتزود بأحدث الأساليب الفنية المعاصرة .

ولكن هذا الاتجاه قد سقط فى ثلاثة أخطاء ·

الأول :

أن الطموح لخلق أسطورة الذات كان طموحاً أنانياً هدفه عبادة الذات قبل الإخلاص للحقيقة الفنية .

الثانى :

أن هذا الاتجاه قد اعتمد على الصورة الشعرية المنتزعة من الداخل مما جعل رموز هذه الصور شخصية وبالغة الغموض وبعيدة عن إنشاء علاقة حميمة بين المبدع والمتلقى .

الثالث :

إنه قد تم تجاهل عناصر الواقع الحضارى والثقافى ، وبدلاً من أن يتم نفى الواقع فقد تم نفى الشاعر.

ربما لا يكون التخلف العلمى هو مسئولية الشاعر وحده ، وإنما مسئولية الجامعات والمدارس والمراكز العلمية . والشاعر مطالب بأن يستجيب لإلحاح عصر باذخ التقدم ومتطلبات فنه الصعبة ، ولكن ذلك كله لا يعفيه من التغلغل فى وجدان مواطنيه لأنه مسئول عن اللحظة الحاضرة وشاهد عليها . لقد فرض اتجاه واحد فى تطوير العملية الشعرية الحديثة نفسه لسبب واضح ، هو أن هذا الاتجاه قد صور العملية الفنية وكأنها عملية ذاتية بحتة ، وصور حرية الشاعر كما لو كانت عنصراً مقدساً ، ولاشك أن الحرية الفنيه هى ضرورة وجود وحياة ونمو للفنان ، ولكن عبادة الذات ليس مفهوماً متقدماً لقضية الحرية . ورأى الشاعر الطالع أن له أن يجرب ما يشاء له التجريب تحت مظلة الحرية المطلقة . ولكن هذه الحرية قد أوشكت فى الواقع أن تكون وهماً لأنها لم تعد تضم شعراً حقيقياً بل أصبحت تجمع نشازاً من الأصوات الفجة استمرأت الكسل وتقديس الذات وأدمنت اختناق الحرية طبقاً لأكثر التفاسير بلاهة . . لقد حدث ما وقع إبان ظهور حركة الشعر الحديث ذاتها ، فقد توهم الكثيرون أنهم شعراء بسبب قدرتهم على إتقان تقليد الشعراء الآخرين وكتابة خيالاتهم العشوائية بطريقة سهلة – وفى الفن كما فى الحياة لا يصح إلا الصحيح لم يستطع هؤلاء الشعراء أن ينعموا النظر طويلاً بحماية مفهومهم السطحى للحرية ، فسقطت أشعارهم ميتة ووجدوا بعد فترة أن ثمة أشياء أخرى يمكن أن تكون أكثر تسلية أو أكثر جدوى فمارسوها ، ونفس ما حدث فى الماضى يحدث الآن ، وهو أن الإطار الجديد الذى يقوم أساساً على عدة عناصر

لا أدينها إلا من خلال العجز عن استخدامها الاستخدام الصحيح . هذه العناصر تتمثل أساساً فى عملية التداعى الحر للمعانى والصور ، وهذه العملية مرتبطة سيكلوجياً بفقدان الثقة فى الواقع بعد حرب ٦٧ ، وقد شاع هذا الأسلوب فى القصة القصيرة أيضاً ، ولكنه فى الشعر أصبح شائعاً لأنه فى الواقع كان سهلاً بالنسبة إلى أنصاف الموهوبين ومعدومى الموهبة أساساً ، ثم هناك العنصر الآخر وهو تدوير القصيدة . وهذا التدوير قد أسهم هو الآخر فى إعطاء مسافة زمنية للشاعر مكنته من أن يريح نفسه من قبضة البيت المقبل ومن قبضة الوقفة العروضية فى زمن قصير . وقد ساهمت هذه العناصر وبجانبها عناصر أخرى مثل عملية تحرير الخيال الواسعة وانحصار النقد فى خلق هذه المتاهات التعبيرية التى دخلتها القصيدة الحديثة . إن هذه السهولة المتوهمة إنما هى فخ حقيقى لكل شاعر لا يسيطر على أدواته سيطرة كاملة لأن تفسير الحرية كوسيلة فقط لتلبية الرغبات إنما هو تفسير يقود فوراً إلى الفوضى ، ولاشك أن المواهب الحقيقية تعرف طريقها جيداً وتعرف أن المعاناة من خلال عملية التكوين الثقافى وعملية الإبداع ذاتها إنما هى ضرورية للفنان كى يبدع ، أما التلقائية والقفز على الأشكال الأخرى للشعراء الآخرين ومحاولة تقديس أسطورة الذات ، كل هذا سوف يسعى بنا سعياً حثيثاً لتدمير فكرة الشكل الحديث نفسها ، وكذلك تدمير مفهوم الحرية فى الفن ، ولعل أهم الملاحظات على تطوير حركة الشعر الحديث فى مصر ما يلى :

– جمود النمط الذى تكتب به القصيدة بالإضافة إلى أن الرموز قد أصبحت ألغازاً لا يقدر حتى صاحبها أن يدرك الإحساس الذى ينقله إلى قارئه من خلالها .

– التشابه فى بناء الجملة الشعرية وفى طريقة تشكيل الصورة كما ظهرت بوادر فى التعبير يمكن أن تكون سيريالية .

وأول تفسير لهذا التشابه هو وقوع كثير من الشعراء الجدد تحت تأثير شعراء آخرين وعدم قدرتهم على مقاومة إغراء هذه الفوضى الفنية . إن الشاعر بخاصة والفنان بعامة يكتسب أهميته الكبرى من التميز الذى تجلى فى كل عناصره الفنية ، وهذا التميز يأتى أولاً من أصالة الموهبة وطريقتها الخاصة فى الإبداع والتشكيل مما يجعل كل عمل فنى إذا تحققت له هذه الأصالة إضافة حقيقية إلى النوع الأدبى الذى يخلق فى إطاره . وبرغم وجود أصوات شعرية جديدة كثيرة تمتلك موهبة حقيقية إلا أن الملامح الأساسية قد طمست تحت طوفان التشابه والجمود والنمطية . وهنا يبرز بإلحاح دور النقد الأدبى : ليقدم تقييماً جديداً يتسم بالموضوعية لما تحقق فى إطار القصيدة الحديثة خلال السنوات العشرين الماضية وليعيد من جديد من خلال منظور نقدى ملائم للمرحلة التى نعيشها تحليل النتائج التى كانت فى بعض المراحل قد وصلت إلى البديهيات ، ولابد من اعتبار هذا العمل ضرورياً حتى لا يتعلق الشعراء الجدد بأوهام ذاتية تدفعهم إلى رفض كل ما تم إنجازه تحت أى زعم من المزاعم أو يدفعهم إلى تبنى هذه المراحل بسلبية قد تقضى عليهم . إن النقد مطالب وبشدة بأن يعود إلى الساحة لمعرفة الأصيل من الزائف والواعد من الخالى من الموهبة وذلك من خلال دراسة أحدث الاتجاهات المعاصرة فى بناء الصورة وموسيقيتها ودراسة الفشل الواضح الذى لحق علاقة الشاعر بجمهوره . والعناصر التى سبق أن ذكرتها كسبب للمرض الشعرى إنما هى عناصر فنية يمكن أن تكون سبباً لتحقيق إضافة فنية حقيقية إذا استخدمت الاستخدام الأمثل فى ظل مقتضيات الفن وحده ، ولكن الذى يحدث الآن إنما هو نوع من العشوائية الشعرية . ليست هذه دعوة لكبح الجماح وإنما هى دعوة للتأمل ومراجعة موقف الحركة الشعرية الحديثة من أجل إنقاذها وإنقاذ مستقبل الشعر فى مصر . ولاشك

أن الشاعر المصرى ليس هو المسئول الوحيد عن ضياع مركزه الفنى فى الحركة الثقافية ، بل إن عناصر أخرى كثيرة تقف فى وجهه فى مقدمتها الأمية التعليمية والأمية الثقافية ومستوى المعيشة ، ولكن الشاعر الأصيل مطالب بأن ينقذ موهبته من التردى فى الغموض والتشابه . فالشاعر الحقيقى أرفع من أن يكون تابعاً لشاعر آخر . إن بعض النقاد يتقاعسون لأنهم لا يجدون أمامهم الروائع الشعرية التى تجعل عملية النقد ممتعة ، ولكن الشعراء يملكون فى الواقع أن يخرجوا من إسار أزمتهم التعبيرية من خلال الصدق والمعاناة والإخلاص لفنهم دون الاهتمام بما هو زائف من الأغراض .

هذه صيحة لا أريد لها أن تبلغ أسماع النقاد وحدهم وإنما أريد لها أن تبلغ كل من يحرص على مستقبل الشعر . هذا الفن الرفيع الذى كان وما زال وسيظل صوت الوجدان القومى وموسم الجمال فى النفس الإنسانية ودافعاً قوياً لحب الحياة وسلاحاً روحياً يدافع فى بسالة عن قيم الحق والخير والجمال والحرية والعدالة الإنسانية .

تعاقب الأجيال فى الشعر المصرى الحديث

الشعر الحديث هل كان ضرورة ؟

كان ظهور الشعر الحديث شهادة مؤكدة لحيوية وقدرة الشعر العربى على التطور المتفاعل مع واقع مثير وغارق إلى أذنيه فى عراك حضارى ونضال ضد الاستعمار وطموح حقيقى للتقدم الاجتماعى . ولم يكن هذا اللون الذى انتشر بسرعة مذهلة لأسباب كثيرة بعضها زائف ، لم يكن إدانة للشعر العربى بل كان امتيازاً لخصوبة اللغة العربية من ناحية وتعبيراً عن أصالة العبقرية الشعرية فى هذه اللغة . ولم يكن الشعر الحديث بدعة تفضى إلى الضلال كما يصر المحافظون ومازالوا يصرون آملين أن يسقطوا من حساب التطور – الثلاثين عاماً الأخيرة – وهى التى شهدت ميلاد وازدهار هذه الحركة الشعرية العميقة التى بلغت من القوة حداً تجاوز كل تصور محتمل – وببساطة نستطيع أن نقول إن الشعر المصرى بعد أن شهد وثبة محمود سامى البارودى التى أعاد بها عمود الشعر إلى نضارته وفتح فى ذاكرة الشعر العربية

طريقاً واسعاً إلى عصورها الذهبية فتدفقت منها جزالة المتنبى وسهولة البحترى وصور ابن الرومى وصفاء الشريف الرضى ، كل هذا مهد لبناء الصرح العظيم الذى بناه أحمد شوقى وتابعوه ، وجاءت مدرسة أبوللو لتخطو فى اتجاه العصر مركزة على مشاعر الطبقة الوسطى ، ولكننا نتصور أن كل هذه المحاولات لم تتجاوز نطاق الإحياء التقليدى ، وتذكيرنا بأسلوب ناصع بديباجة الشعر العباسى فى مدرسة شوقى وبالمدرسة الأندلسية فى النتاج الأدبى لشعر المهجر ومدرسة أبوللو ، ومعنى هذا أن حركة الإبداع الحقيقية كانت لاتزال فى المخاض تنتظر التطور اللاحق فى بنيان المجتمع العربى لتبدأ شعلة التطور الأساسى للشعر العربى فى هذا القرن . كانت محاولات شوقى ومدرسته لا تخفى علامات الشيخوخة والترهل التى أصابت الشكل التقليدى ، وبدا واضحاً أن ظهور شكل جديد يعد ضرورة لا مفرمنها ، يقول ت. س. إليوت «جميع الأشكال أكثر مناسبة فى عصور منها فى عصور أخرى ، فالشكل الذى يتبع نظاماً معيناً فى الإيقاع والتقفية يناسب مرحلة معينة ويكون فيها تشكيلاً طبيعياً مشروعاً للغة الكلام فى نمط شعرى . ولكن هذا الشكل معرض لخطر الجمود فى الأسلوب الذى كان شائعاً وقت أن بلغ حد كماله . وهذا خطر يزداد كلما زاد الشكل تعقيداً وزادت القواعد التى يلزم أن تتبع فى تأليفه تأليفاً صحيحاً . فيفقد الشكل بسرعة صلته بلغة الحديث الدارجة المستمرة فى التغير لأن الشكل المعين تطغى عليه النظرة الفكرية المعينة لجيل سابق ، فلا يثير إلا الاحتقار حين لا يستعمله إلا أولئك الكتاب الذين لا يجدون من داخل أنفسهم دافعاً يدفعهم إلى التشكيل المناسب لهم . فيلجئون إلى شكل جاهز يصبون فيه عواطفهم السائلة آملين أن تستقر فيه ، وتأخذ قالبه ولكن ذلك منهم أمل خائب» هذه الحقيقة النقدية التى يقدمها إليوت بعد خبرة طويلة فى الممارسة الإبداعية واجهت

الشعر العربي في مرحلة من تطوره ، وقد عرف الشعر العربي التطور فقط في مراحل الازدهار الحضاري والفكري ، ولكن الأسس العامة لهذا الشعر ظلت مشتركة لزمن طويل وبعد مرحلة الركود الحضاري لم يعد مقبولاً أن يصح بعد ألف سنة ما كان صحيحاً قبلها ، وإلا أصبح أملنا في المستقبل عقيماً ، ولكي ننطلق إلى المستقبل لابد من تجاوز الماضي ، ويرى الدكتور محمد النويهي «أن الشكل القديم في عهوده الطويلة التي ظل يستعمل فيها لم يستعمل لحمل العواطف الصادقة والأفكار الأصيلة فحسب ، ولكنه استعمل أيضاً لحمل العواطف الكاذبة المفتعلة والأفكار المكررة المبتذلة ؛ بل كان استعماله لحمل هذه أكثر بكثير من استعماله لحمل الأولى . وهذا طبيعي ، فإن عدد المتشاعرين أكثر في كل عصر ولدى كل أمة من عدد الشعراء ذوي الطبيعة الشعرية الصادقة ، وقد كان حظ أولئك الأدعياء من حفظ إنتاجهم الغث في تراثنا الشعري أحسن من حظ أمثالهم في الآداب الأخرى . فقد اجتمعت أسباب عدة سياسية وفكرية في تاريخنا الطويل – ليس الآن مجال تعديدها – على استبقاء الكاذب والمفتعل ودمغه بدمغة الكلاسيكية والقبول في حين كانت الآداب الناتجة الأخرى تنفي عنها الزبد وتسقط من اعتبارها السقط بلا عناء كبير ، والنتيجة هي أن الشكل القديم لكثرة ما استعمل في التقليد المحض غير الصادر عن عاطفة صادقة ونظرة شعرية مخلصة تحمل إلى الآذان أنغام التصنع والتكلف أكثر مما تحمل أنغام الصدق والصحة والإخلاص . » وإذا كانت هذه هي الأسباب السلبية لاعتبار ظهور الشكل الحديث ضرورة فإن الحاجة الإيجابية والدواعي لظهور هذا الشكل كانت كثيرة أيضاً ، وأهمها تحرير الخيال العربي من سيطرة الخيال الصحراوي وإنشاء خيال المدينة في مواجهة خيال الصحراء ، ونشأت علاقة الحرية بديلا عن علاقة الارتزاق ، ، وأصبحت تجربة الفرد البسيط

كمحور للأعمال الفنية فى العصر الحديث فى مواجهة تجربة الأمراء والإقطاعيين ، وبدأ نمط جديد فى ظل تطور المجتمع العربى من العلاقة بين الرجل والمرأة أصبح هذا النمط يسمح بإلغاء المبالغات العاطفية نتيجة للرؤية والمشاركة ، وهذا النمط لا ينمو ولايتطور فى الفن بمعزل عن المجتمع الذى ساده التعقيد إلى حد كبير.

البداية والمعارك :

بينما كانت البذور الخضراء لما عرف بحركة الشعر الحديث تطلع أوراقها الأولى فى بغداد فى نتاج بدر شاكر السياب ونازك الملائكة ثم عبد الوهاب البياتى انفجرت تجربة عبد الرحمن الشرقاوى فى قصيدته رسالة من أب مصرى إلى الرئيس ترومان وقوبلت القصيدة بالدهشة والإعجاب والتنبه لشىء جديد فى الأدب المصرى . لم يكن هذا الشىء هو جرأة شاعر مصرى على أن يخاطب رئيساً أمريكيًّا فى عام ١٦٥٢ وإنما كان اكتشاف هذا الإطار المثير والمؤثر الذى صنعه الشاعر ، وكانت هى البداية لمسيرة شاقة وعسيرة ، وما إن لمست هذه التجربة الشعرية المبكرة الأوتار العصبية للشعراء المصريين حتى تفاوتت ردود الفعل وتمثلت فى ظاهرتين أساسيتين . الظاهرة الأولى هى مبادرة الشعراء المصريين : صلاح عبد الصبور وأحمد حجازى وفوزى العنتيل وحسن فتح الباب وكمال نشأت وكامل أيوب وكثيرين غيرهم يتبنى هذا الشكل ، واستطاع صلاح عبد الصبور أن يلفت إليه الأنظار بديوانه «الناس فى بلادى» لسببين ، الأول هو أنه قدم فى هذا الديوان المبرر الاجتماعى لظهور هذا الشكل وذلك باهتمامه بالتجربة الاجتماعية البسيطة والتجربة الوطنية الغنية ، وكذلك تجربة الذات الفردية وهى تواجه واقعا صعباً وبالغ القسوة ، والسبب الثانى هو نجاح صلاح عبد الصبور فى تقديم مبرر فنى أيضاً والذى

نجح بسرعة فى إتقان بناء شكل يؤكد اصالة موهبته من ناحية وأصالة الشكل الذى تبناه واختاره من ناحية أخرى ، أما رد الفعل الثانى فهو قيام المعارك من جانب التقليديين الذين هبوا لتوجيه الاتهامات لهذا الشعر ورفعوا فى وجهه سيوفاً مغلولة ، منها أنهم طعنوا فى شرعية هذا الشعر وصلته بالتراث خاصة بعد أن أغلقوا مقاييسهم النقدية على معايير الخليل بن أحمد فى العروض ومعايير البلاغة العربية فى فهم جماليات النصوص ، يقول الدكتور عز الدين إسماعيل : فى زحمة انشغالنا بتجربة الشعر الجديد والتجديد بعامة تحتد بعض عباراتنا أحيانا حتى يخيل للإنسان أن هذه التجربة إنما بزغت إلى الوجود لكى تعبر عن موقف عدائى مباشر أو غير مباشر للتراث العربى وللشعر القديم بخاصة أو هكذا يخيل لفئة من الناس تنسب لنفسها الغيرة على ذلك التراث وهى فى الوقت نفسه لا تدرى من قيمة هذا التراث الحقيقية شيئاً ، ومن هنا تنشأ معارك جوفاء حول هذه التجربة الجديدة لا تمس جوهر القضية فى شىء وإنما هى تعبر فى أقصى صورها عن موقف شخصى صرف لفئات المتحاورين ، وقد لقيت حياتنا الأدبية المعاصرة من ذلك النجاح عنتاً غير يسير لأن الجدل والحوار لم يكونا مخلصين للقضية ذاتها بقدر ما كانا وسيلة لتأكيد موقف شخص أو آخر . ومن ثم كان معوقا للنمو الطبيعى الصميم لتصوارتنا الأدبية التى خرجت منها التجربة الجديدة والتى صاحبت هذه التجربة فى تطورها ونموها ، وإبان اليقظة النقدية التى واكبت طلائع حركة الشعر الحديث خلال الخمسينات سقطت معظم الادعاءات التقليدية ، ذلك لأن الفيصل فى القضية سواء فى الحاضر أو فى المدى البعيد هو قدرة الأعمال الشعرية ذاتها على اكتساب شرعية وجودها من خلال تأثيرها وتطورها واستيعابها للتجربة المعاصرة بفن وإقناع ، وفى الوقت الذى حاول التقليديون فيه أن يوجهوا اتهاماهم بنشاط واسع كانت

أشعارهم غارقة فى التخلف والجمود والكسل العقلى والترهل العاطفى مما كان سنداً نقدياً لدعاة الجديد ، وفى الوقت نفسه كانت الأعمال الشعرية الشابة تؤكد كل يوم أصالة مواهبها وقدرتها على العطاء الحقيقى . ولقد حاول التقليديون فى معاركهم أن يلجئوا إلى حيلتين ، الأولى هى الحكم على حركة الشعر الحديث من خلال النماذج الرديئة التى أنتجها متشاعرون أوهمتهم الحرية فى الشكل الجديد أنهم ربما كانوا شعراء وأن هذه فرصتهم للظهور ، وكان من السهل الرد على ذلك بأن النماذج الرديئة ليست إلا دليلا على انعدام الموهبة لدى كتابها فقط ، ولكن لا علاقة لها بالشكل نفسه ، وفى الوقت نفسه أكدت الدراسات النقدية وملامح هذه الحركة الشعرية من خلال التركيز على الشعراء الحقيقيين الموهوبين ، وقد غمر إنتاجهم الصحف والمجلات وتتابع ظهور الدواوين الجيدة ، والحيلة الثانية : هى أنهم حينما عجزوا عن وضع نماذجهم الرديئة فى مواجهة النماذج الجيدة من المدرسة الحديثة سارعوا برفع قصائد المتنبى وابن الرومى وأبى العلاء المعرى ، وبالطبع فإنهم لا يستطيعون أن يدعوا لأنفسهم أن هذا تراثهم وحدهم دون شعراء المدرسة الحديثة ، ولا يوجد من ينكر عظمة المتنبى وابن الرومى وأبى العلاء المعرى ، ولكن هناك من ينكر هؤلاء الذين يتمسحون فيهم ، إن قيمة هؤلاء العباقرة هى فى عبقرياتهم وليست فى الشكل الذى كتبوا به وإلا فلماذا لم يرفعهم الشكل نفسه إلى مستواهم ، كانت الحجة ضدهم فى الواقع . وكان عليهم أن يبرروا للآخرين لماذا تجىء قصائدهم عاجزة فى إطار الشكل نفسه الذى يستميتون فى الدفاع عنه لو لم يكن العجز ناتجاً من ضعف همتهم وبوار مواهبهم .

تعاقب الأجيال :

تضم الحركة الشعرية المصرية أربعة أجيال مبدعة اصطلح النقاد على تسمية الجيل الأول منها بجيل الرواد ، وقد بدأ هذا الجيل فى الخمسينات بعدد طموح ولكن النار المقدسة للفن تنتخب دائما أشد المخلصين لها ، وكان ينبغى أن تمر عشر سنوات ليتميز صلاح عبد الصبور وأحمد حجازى من بين أبناء جيلهما ، وقد ارتكز عطاء هذين الشاعرين على ثلاثة محاور أساسية البعد الذاتى ، وتمثل عند صلاح فى تجربة الحب والحزن والتصوف وعند حجازى فى الحب ومواجهة القسوة فى المدينة والبعد الوطنى والبعد الاجتماعى وقد استطاع هذان الشاعران أن يمدا الحركة الشعرية بعطاء مارس تأثيراً كبيراً على حركة الشعر المصرى الحديث ، وكانت الأشكال التى ابتداعاها من أنجح الأشكال التى عرفتها المدرسة الحديثة على نطاق الوطن العربى كله ، ثم جاء جيل الستينات وتميز من شعرائه محمد عفيفى مطر وأمل دنقل وكمال عمار وفاروق شوشة ، وتضمن عطاء هذا الجيل امتصاص الإنجازات التى تحققت على مستوى العالم العربى كما تميزت أصوات هذا الجيل بأصالتها الخاصة ، وجاء الجيل الثالث ، ومن المهم أن نشير إلى أن الحركة النقدية التى أسهمت فى ترسيخ وتنمية جيل الرواد قد بدأت فى الركود مع ظهور الجيل التالى للرواد وولد الجيل الثالث وسط صمت كئيب أسهم فى إضعاف تتابع الإيقاع الخاص به ، ومن هؤلاء الشعراء الذين قصرت الحركة النقدية فى إلقاء الضوء عليهم حتى تساعدهم أولا على النمو ومعرفة أنفسهم ، وثانياً لانتخاب المواهب الحقيقية ودفعها لتقود جيلها شأن الأجيال السابقة تلك الأسماء التى تكاد تتساوى فى حظها من العطاء والظهور وهم : أحمد عنتر مصطفى ونصار عبد الله ومحمد فهمى سند

وأحمد الحوتى وأحمد سويلم وحسن النجار وفرج مكسيم وحسن توفيق . وتلاهم الجيل الرابع وهو الذى بدأ إنتاجه فى السبعينات ويمكن أن نذكر منهم : حسن طلب وحلمى سالم وأمجد ريان وفولاذ الأنور وعبد الشافى داود ومفرج كريم وفوزى خضر وتتميز من بينهم الأسماء الثلاثة الأولى .

حول ديوان «التراجيديا الإنسانية»

تأخر صدور هذا الديوان «التراجيديا الإنسانية» للشاعر نجيب سرور عشر سنوات كاملة عن موعده ، ومع أن الشعر لا يقنع أبداً بحركة عقارب السنوات إلا أن الديوان يؤكد لوناً من الإحساس بعدم التوافق الزمنى . إن عمل شاعر ما يكتسب أهميته من درجته الفنية أولا ومن توضيحه للحقيقة الفنية وحقيقة الشاعر والعالم الذى يحيط به بعد ذلك ، كما أن هذه الأهمية تأخذ بعداً ثالثاً من الدور الذى يلعبه هذا الشعر فى إطار حركة الحداثة الشاملة . والديوان يثير هذا المذاق الحاد الذى تميزت به المدرسة الواقعية الاشتراكية والتى نعمت بعصرها الذهبى فى أواسط الخمسينات . وهو حافل بأصدق النماذج تمثيلا لهذا الاتجاه . وإذا كانت هذه الفترة قد حفلت بانتهاكات صارخة لقواعد الفن فقد طرحت عدداً من القضايا وأثارت الكثير حول وحدة الشكل والمضمون وعالجت بسذاجة

أحياناً وعمق أحياناً أخرى ، ولكن بحماس دائم جزئيات حياتنا ومشكلاتنا الاجتماعية والسياسية والفكرية ، ومن أهم القضايا التى وجدت إلحاحاً فنياً ونقدياً من هذه الدعوة قضية الالتزام . وقد كان رفع هذا الشعار كسباً عظيماً للأدب العربى ، ولم يذهب ببهاء هذه القضية غير عدم التوفيق الفنى الذى حالف كثيراً من الأعمال التى زعمت العمل تحت لواء الواقعية الاشتراكية . وقد أساءت الصيحات الفنية غير الناضجة إلى الاتجاه بكامله . وديوان الشاعر نجيب سرور يعمل بإخلاص تحت هذا الشعار ويواجهنا من البداية بدعوته الصارمة إلى الالتزام .

أأسمع حشرجة الأشقياء
يئنون من قسوة العاصفة
وقد لفحتهم رياح السموم
وأجلس كالطفل أحصى النجوم

بل إنه يجهر بالقول بأن العالم فوق الشعر والشعراء

العالم فوق الشعراء
فليعل الشعر إلى العالم
أو فلنصمت

الشاعر إذن شديد الالتزام والإحساس بوطنه ومجتمعه ، وليس ثمة شك فى أن الشاعر يملك إمكانيات شاعر جيد ، ولكن إحساسه بشرف قضيته ووضوح رؤيته جعل اهتمامه بالشعر فقط ، لأنه وسيلة لتأكيد وتوضيح التزامه . وليس لأن هذا الشعر حقيقته هو كشاعر أولا . كل هذا ابتعد به عن الأداء الفنى الناضج ، وإذا كان هناك مضمون إنسانى عظيم أوحى للشاعر بالاستهانة ببناء قصيدته . فإن هذا المضمون وحده لن يقنع أحداً حتى بمجرد وجوده – ولعل أهم خاصية فرضها هذا

الالتزام المزهو بنفسه هى هذه النبرة العالية من التفاؤل والى تبدو فى أغلب الأحيان كمبدأ صارم لابد أن يدخل تكوين التجربة حتى لا تسقط فى وهدة التشاؤم أو الضعف البرجوازى ، وهناك أيضا هذا الأداء المباشر الذى يلجأ إليه الشاعر عادة عندما تكون درجة انفعاله عظيمة جداً ولم تدخل بعد مرحلة التنقية وتلمس وسيلة التعبير الشعرى فى نسيج من الصور الناضجة وها هو ذا الشاعر يصيح :

أنا ابن الشقاء
ربيب الزريبة والمصطبة
وفى قريتى كلهم أشقياء

وفى الديوان ظاهرة واضحة كانت ومازالت تعد ملمحاً من ملامح الشعر الحديث ، ألا وهى رمز السندباد ، والسندباد فى الأسطورة رحالة جرىء يركب البحار بحثاً عن الكنوز فى جزر اللؤلؤ والمرجان . ولكنه فى ديوان التراجيديا الإنسانية رحالة من نوع جديد . فهو سندباد برى يوغل فى تأمل الواقع الذى يعيش فيه بحثاً عن خلاص للإنسان . والسندباد الجديد ترهقه هموم يومه وتعس حياته فيخرج إلى شاطئ البحر العريض ويتعب عقله فى معادلة الوجود الصعبة وتحتويه الحيرة :

وحيرته ساعة رؤى الوجود
ففى البحار والهضاب من كنوز
كفاية البشر
فمالنا جياع

وكالسندباد القديم تراوده أحلام السياحة فى البحار البعيدة هرباً من الجحيم وبحثاً عن عالم يفيض بالكنوز والثمار والحبوب ، وليس به قيود تمسك أيدى البشر ، وليكن خلاصاً ذاتياً خاصًا .

يموت من يموت
ويغرق الذين يغرقون
فنوح لا ياوح مرتين
وإنما الخلاص للذين يركبون

ويوشك أن يعتنق خلاصه الذاتي عقيدة للنجاة، ولكن الطيور العائدة علمته أن يعود للوطن ليبدأ قضية خلاص الوطن كله. وهنا يلجأ الشاعر إلى الرمزية فيستعير من عالم الطيور حكاية تصور حلمه بقيام الثورة والقضاء على الفساد والبغي، وتحرير رقاب البشر من الغربان، وبقيام الثورة وتحقق الخلاص تنتهي حكاية السندباد، وقد ردد كثير من النقاد أن استخدام هذا الرمز يهدد الشعر الحديث بالجمود. والحقيقة أنه يمكن النظر إلى الظاهرة على أنها دلالة المرض والتوقف، وكذلك النظر إليها على أنها تعبير عن شيء أصيل يؤكد وجوده عند كثير من الشعراء، وهذا خاضع لمزاج الناقد وقدرته على التعاطف مع النماذج الطليقة. والسندباد رمز استعاره واستخدمه عدد من كبار شعراء المدرسة الحديثة مثل بدر شاكر السياب وخليل حاوي وغيرهما. ولا تزال حركة الشعر الحديث ماضية في اكتشاف المزيد من الرموز، ولعل السر الحقيقي وراء ظاهرة السندباد أن الحركة الشعرية الحديثة وهي على أبواب الكشف عن عوالم جديدة في مجال الرؤية الشعرية والإنسانية والفكرية كانت بحاجة إلى رمز فياض بإيحاءاته لكي يحمل شوقها العظيم للكشف والمغامرة. وإذا أضفنا إلى هذا أن السندباد إنما يبحث عن حقيقته في الوقت الذي يبحث فيه عن حقيقة العالم أمكننا تصور هذا الإلحاح الشعري الذي يستوحي هذا الرمز. فالشاعر الحديث الذي أطال التغني بأوجاعه وغربته وغرابته أيضاً يقاوم شوقاً متصلا لمعرفة ذاته ووضعها الإنساني وموقعه من خريطة العالم

الحديث . بل إن هذا الشوق هو حركة الذات العربية كلها ، وهي تتفلت من أغلال القبور وأحزان دهر طويل من الضعف والمهانة ، وقد حاولت المدرسة الرومانسية أن تبحث عن حقيقة الذات فى مواجهة تعميم الكلاسيكية ، وكان على شعراء المدرسة الحديثة أن ينموا هذا الكشف ويرتفعوا به إلى فترتهم التاريخية . فالسندباد إذن هو فاتحة وعى جديد وشوق جديد وبحث عن النفس والعالم معاً . ومن هنا تعددت الرموز ، وانتشرت عند جميع الشعراء على اختلاف رموزهم ابتداء من أوديسيوس إلى مهيار الدمشقى . والولع بالمعرفة من أهم العناصر الشعرية فى هذا الديوان – يقول نجيب سرور فى قصيدته «حفنتا دموع» :

صديقى دلفت للحياة كاليتيم
رأيتنى وحيد
أبص فى التراب
وأنبش التراب
ثم يبدأ السؤال .
أسائل البشر
فقال ذو العمامة الكبيرة الرزين :
وألغز الجواب
«حياتنا غرور»
وقال ذو الدواة والقلم :
حياتنا كتاب
مطلسم الحروف

ويواصل الشاعر السؤال ويواصل كذلك تلقى الإجابات التى لا تشفى له ظمأ

حتى يظفر بالجواب الذى يرضيه .

نعيش فى البنين

كرجلة الضياء فى الشموع

نعيش فى الجموع

ومن أنجح المحاولات الشعرية فى هذا الديوان قصيدة « غرسة الزيتون » فهى بناء شعرى متماسك يقدم مضموناً إنسانياً يقطر حباً وتعاطفاً ، وهى تمثل بصدق هذه الرؤية الإنسانية التى اختارها الشاعر لنفسه ، والقصيدة تدعو إلى تجاوز الذات ببذل العطاء وتحقيق النفع للجميع ، وهى تبدأ بداية أخاذة محركة الحواس كلها فى اتجاه شجيرة الزيتون التى تشق طريقها فى الصخرة

انظريها

انظريها تخرق الصخر وترنو كابتسامة

غرسة الزيتون كالطفل نقاء ووسامة

كالندى كالحب كالحلم الذى يصدق مرة

بعد أعوام من العلقم مرة

وعندما تسأله صاحبته :

ما زرعنا – فرحة الموعود – إن لم نجنها

يجيب :

يا فتاتى

ليست المأساة أنا لن نرى زيتونها

فهبينا ما زرعناها أكنا سعداء

ثم يختتم هذه القصيدة الجميلة بهذا الشعور العميق بتجاوز الذات ومعانقة العالم :

نحن لسنا ماجنينا

ما أنا ما أنت الا ما زرعنا وسقينا

ورعينا

وهناك بعض القصائد ترتفع بمضمونها الإنسانى العظيم إلى المستوى الفنى الناضج . إن هذا الديوان حافل بكل ما كان الشعر الحديث فى حاجة إلى التخلص منه . وهو يحمل فى نفس الوقت بذور كل ما هو فى حاجة إليه . وهو إذ يذكرنا بهذه المرحلة من مراحل تطورنا الفنى يؤكد من جديد ضرورة الدعوة لفن ثورى يلتزم بقضية الإنسان وينسج وفق أنضج الأصول الفنية المعاصرة .

رحلة إلى مدينة الدخان والدمى

يتميز صوت الشاعر حسن فتح الباب بهذه الغنائية الصافية التى هى إحدى خصائص الوجدان المولع بالجمال . وصوت الشاعر يجمع بين هذه الغنائية التى يغذيها ويؤججها الانحناء المتأمل على الذات ، وبين الدعوة الصادقة لقضية العدالة الاجتماعية وكرامة الإنسان . وقد وهب قصائد كثيرة فى ديوانيه السابقين لهذه القضية ، كما يضع موهبته الشعرية فى خدمة رؤية اشتراكية إنسانية للواقع . وديوانه «مدينة الدخان والدمى» الذى كتبه الشاعر من وحى زيارة صيف للولايات المتحدة الأمريكية ، يؤكد هذا العناق الشعرى بين الذات والعالم فى القصيدة الحديثة . وكثيرون من الشعراء الذين صمموا على أن يكونوا ملتزمين بقضايا عصرهم قد دخلوا فى عراك ضد ذواتهم معتقدين خطأ أن الرؤية الاشتراكية تعنى التخلص من هموم الذات والغلبة عليها مما يترتب عليه أن تصبح القصيدة مباشرة

تتجه إلى خارج الأذن بمجرد لمسها . والحقيقة أن الصدق وحده هو ما يخدم الرؤية الاشتراكية بصرف النظر عن طبيعة الموضوع ، ذلك أن هدف الفنان الأساسى هو أن يوثق صلتنا بعالمنا وأن يوجهنا إلى أن نضع أنفسنا فى موقف منه . وليس بوسع شاعر مهما يكن عظيماً أن يخلق عملا فنياً جديراً بالاهتمام دون أن يعتمد على مجموعة من القيم الإنسانية والفنية فى مزاج أصيل . وديوان مدينة الدخان والدمى يحاول أن يلتزم حدود الصدق الفنى ، ويكاد أن يكون نشيداً متنوع الإيقاع والمقاطع يصور المشاعر التى طافت بوجدان هذا الشاعر خلال طوافه فى هذه الرحلة ، ويدرك الشاعر فى البداية أن المدينة التى جاء لزيارتها لا تصلح للغناء فهى مدينة لم تسهم الطبيعة فى صنعها بل صنعتها الحرفة ، ولا يجد الصدق طريقاً إلى قلبها حتى الحب فيها مجرد تمثال عار من الشمع . بارد لا مكان للعواطف فى خلاياه لا سر يخفيه ولا سحر فيه . . سجن جدرانه غير مسقوفة ، أى أنه بلا أمان من هبوب العواصف وسقوط الأمطار ، هذه هى الصورة المعتمة التى رسمها الشاعر للحب فى مدينة الدخان والدمى وتحدثت عنها قصيدته «فتى من سلفادور» والشاعر فيها يشفق على هذا المغنى الذى أخطأ ، ويكاشفه بأن رحلته خاوية مما يطمح إليه . .

ياطيرا من سلفادور يغنى الحب
إن الحب امرأة من شمع
تمثال عريان
فى بيت من جدران
لا يعلوها سقف

وإذا كان لهذا الفتى من سلفادور من نصيحة تنفعه فهى أن يعود

لم أقبلت ؟
خذ معزفك الرنان وعد
ضاع غنائى فى الكهف
فأنا كم غنيت
كم غنيت ولكن
غاصت رأسى فى الأمطار السوداء

.ويظل الشاعر قلقاً من الإقامة فى هذا الوطن الغريب الذى لا يشيع فى أعطافه الدفء .

حبيبتى – عالمنا لم يأت بعد
ودربنا طويل
هيا نشد رحلنا إلى الوطن

وعبر هذا الديوان يرافقنا إحساس بأن الشاعر لم يتعرف جيداً على هذا العالم الجديد ، فهو بدلا من أن يقدمه لنا يعرض لنا خواطر عنه ، وهذا هو ما يفتقده الديوان . إن الشاعر يلوح لنا بأوراقه الخضراء مؤكداً وجوده على سفينة هذا العالم دون أن يطلعنا على حقيقته . وقصيدة من أين يا رفيقة المساء وردة يانعة يقدمها الشاعر هدية لنا قد اكتست بالصورة المشرقة التى تمتع العين وتطرب القلب . إن الشاعر الذى يُلتحم بوعيه ومشاعره بصميم التجربة يعيشها قبل أن يقدمها فنًّا ، هذا الشاعر يكتفى عند الخلق بالسطوح والألوان والأوصاف التقليدية الشائعة وبراعة استخدام اللغة . إن أجود الأعمال الفنية كالخمور تماماً تلك التى تنضج طويلا فوق نار هائلة . والشاعر لا ينسى أن يتذكر وهو فى أمريكا هذا البلد الشجاع – فيتنام – الذى يحارب ببسالة وكبرياء أطماع بلد هائل القدرة . أطماع مدينة

الدخان والدمى . ففى قصيدة الموعد وهى رسالة من طيار أمريكى عائد من فيتنام يصور الشاعر جريمة النصف الثانى من القرن العشرين . ولكن هذه القصيدة برغم شرف موضوعها تصرخ بصوت عال ولكنها لا تسمعنا شيئاً وإذا نحينا هذا المقطع الذى يقول :

وعرفت عرفت عرفت
كيف يذوب الواحد فى الكل
تفنى البذرة فى الشجرة
كيف يموت الإنسان شجاعاً
لا يخشى الموت
يلقى من شرفات الأفق
مكتوفاً لا يلقى كلمة
يرمى قاتله بالصمت
ويعود إلى الأرض الأم

بدون هذا المقطع تسقط القصيدة فاقدة الحراك . ثم يصل الشاعر فى طوافه إلى القيمة الأساسية فى مدينة الدخان والدمى وهى الدولار . ذلك الذى أذل تاريخ هذا البروسى القديم الذى يموت فداء ظالمه فجعل من حفيدته عاهرة ، وطنها كل مكان يمنحها هذا الدولار ، وها هى ذى حفيدته تجاهد لا من أجل البروسى القديم الضائع بل من أجل الدولار ، ثم أصبحت واحدة فى مدينة النساء تجيد إغراء العابرين .

يا فارس المساء
عرج على مدينة النساء

كل النجوم فى الثرى

لا نجم فى السماء

إن الصورة الجميلة تشير بلمحة شاعرية ذكية إلى الوضع الخاطئ فى هذه المدينة ، فالسماء بلا نجوم والنجوم فى الثرى ، وفى نفس اللحظة تؤكد سقوط القيم واندحارها فوق التراب ، فالنجوم وهى رمز القيمة الفاضلة والأحلام كلها سقطت فى التراب ، ويبدو أن الشاعر قد أولع بهذه البروسية فنراه يعرض عليها الرحيل كطريق للخلاص ولكنها تتنصل من دعوته وتمضى فى ركاب الشهوات المضطرمة ، وهذه هى مدينة الدخان والدمى . مدينة العواطف الخامدة والحرب الظالمة يشعر فيها الحب والغناء والجمال بالغربة والضياع . . ولعل من أجمل قصائد هذا الديوان قصيدة «أغنية إلى جمال عبد الناصر» فى هذه القصيدة يصبح صوت الشاعر صلباً كالمحارب الذى يغنى ويقاتل فى نفس اللحظة ويؤدى التركيز دوراً هاماً فى نجاحها وتأثيرها :

قامتك الشماء قلعة المدينة

كفك توقد المصابيح

تصد الريح

ثم يتابع فى إعجاب شديد :

أية نارا نضجت عودك

يا أصلب الرماح فوق نيلنا

يا أنضر الأعواد فى حديقة الرجال

يا سلوة الجراح

يا خبزنا وملحنا

إن هذا الديوان « مدينة الدخان والدمى » يؤكد أصالة الشاعر حسن فتح الباب وأصالة القضايا التى يدافع عنها . وأن هذه الأصالة يرافقها صدق حقيقى قد فتح أمام الشاعر آفاقاً شعرية رحبة ، وهو يبرهن بهذا الديوان أيضا على إخلاصه لهذا الفن الذى يدخر كنوزه لهؤلاء الذين يضحون براحتهم من أجل أن تتألق طلعته ويشتد عوده . .

أقنعة القبيلة

إذا كانت الحضارة الأوربية قد فرضت سيادتها على البقاع الأخرى خارج أوربا مرة بالسوط ومرة بالكتاب ومرة ثالثة بالتجارة ، فإن هذه الحضارة بسبب نزعتها الاستعمارية تبدو وكأنها قد التهمت روحها . وبدت فى بعض المراحل المتأخرة فى حالة من التهالك وفى حاجة ملحة إلى إنقاذ من ضحاياها . ولقد قطعت الفنون والآداب الأوربية أشواطاً هائلة عبر لابرنت عن نوازعها وتقدمها العلمى واكتشافاتها المذهلة . ولقد بهرت هذه الفنون وهذه الآداب الطليعة المثقفة فى البلاد الناشئة وحديثة الاستقلال وشاعت التقاليد الاجتماعية والأساليب المدنية والتكنكات السياسية لدى الطبقات المتطلعة إلى السيطرة فى البلاد التى اصطلح على تسميتها بالعالم الثالث أو العالم النامى ، ولم تكن الثقافة القومية فى هذه البلاد بمنأى عن الانهيار والسقوط المباشر تحت تأثير الحضارة الأوربية ، وانقسمت التيارات

الثقافية فى البلاد حديثة الاستقلال إلى اتجاهين أساسيين : الاتجاه الأولْ : هو الذى تبنى بصورة كاملة الأسس الخارجية لشكل الثقافة الأوربية المعتمدة أساساً على الأشكال والقضايا وهذا الاتجاه لا يعيشَ إلا فى ظل سيطرة اجتماعية بعيدة عن التمثيل القومى الحقيق ، وسرعان ما يعلن إفلاسه لأن الثقافة والفن والأدب تعد فى المقام الأول أنماطاً حضارية ذات صلة بالجوهر الإنسانى والقيم الأخلاقية والتاريخ والموروث ، وكلها عناصر تنبع وتصب فى الوجدان القومى العام ، وفى حالة تجريد الثقافة والفن ومحاولة تقديمها كشكل فإنهما يسقطان فى حالة من عدم الفاعلية والتأثير ، أما الاتجاه الثانى فهو الذى تبنى منجزات الثقافة الأوربية باعتبارها تراثاً إنسانياً فى الإطار التاريخى العام وحاول هذا الاتجاه الاستفادة المشروعة من تنوع وازدهار الأشكال الفنية ، ولكن من خلال حشوها بحيوية التجربة القومية والذاتية الخاصة للأمة ، وهذا الاتجاه قد وضع قدمه وجذوره فى تراثه العريق ووضع عينيه ورأسه فى معترك العصر وشواغله . وفى هذا الإطار تأتى هذه المجموعة من المختارات والدراسات الشعرية التى صدرت عن وزارة الثقافة السودانية تحت عنوان أقنعة القبيلة ، ترجمة وتقديم ودراسة للشاعر الدكتور محمد عبد الحى . وتضم هذه المختارات قصائد للشعراء الأفريقيين حان – جوزيف رابياريفيلو – وليوبولد سيدارسنجور – وكريستوفر أوكيغبو ولى سوينكا وتشيكاياتامس – ومايكل اكيريو – ويحدد الدكتور عبد الحى بداية الحركة الشعرية الأفريقية بدخول الثقافة الأوربية إلى القارة فيقول «الإرهاصات الأولى للشعر الأفريقى المعاصر لا تنفصل عن المرحلة الأولى لدخول الثقافة الأوربية أفريقيا مع جماعات المبشرين الذين سندتهم القوة العسكرية والتجارية ، وهى المرحلة التى بدأ فيها تعليم الصغار وبعض الكبار ديانة جديدة ولغة تخاطب جديدة مع محاولة جادة لمسخ أشكال ثقافتهم

الأصلية وتأكيد تفوق الثقافة الأوربية عليها. تلك كانت بذور الانفصام والانشقاق والانقسام فى الثقافة وفى العقول، ولم يكن ذلك هيناً على الشعراء الذين نشئوا فى تلك البيئة الفكرية. مثلما نجد عند الشاعر النيجرى أوساد ياى فى ديوانه «أفريقيا تغنى» ويعبر أوساد ياى عن حالى الانكسار والتمرد فى وجه الغزو الثقافى فى قصيدته «أفريقيا الفتاة تشكر» وأفريقيا الفتاة تنوح، فى القصيدة الأولى يقول:

أشكر لكم
يا أبناء وبنات بريطانيا
أعطيتمونى مستشفيات
أعطيتمونى مدارس
ومواصلات سهلة أيضا
حضارتكم الغربية

وفى القصيدة الثانية تتغير لهجة الشاعر حين يقول:

إنى جوعان
سألتكم خبزا فأعطيتمونى حجارة
إنى عطشان
سألتكم ماء فأعطيتمونى أسنا
إنهم يسألون الحصان أن ينتظر قليلا
لأن العشب الأخضر سينمو بعد قليل
والصحراء المقفرة سوف تتفجر أنهاراً عظيمة.

وإذا كان الانبهار والإعجاب قد خلق نوعاً من الرغبة فى تقليد أشكال هذه

الحضارة فإن هذا الإعجاب نفسه قد طعن الروح فى صميم قدرتها على الخلق ، وأوحى لها بالعجز والانكسار ، ولكن هذا العجز سرعان ما انحسر مع المد الذى تفجر من الوعى والتقدم الفكرى فى القارة الأفريقية ، وبدأ الشاعر الأفريقى «ناقوس القبيلة وحامل لواء تراثها وأغنيتها التاريخية ، بدأ هذا الشاعر يدرك تعالى الحضارة الأوربية عليه ومحاولتها سحقه بطريقتها الخاصة ، من هنا بدأ وعى جديد فى النمو ، وبدأ الشاعر ينظر إلى تراب وطنه كمصدر للنار المقدسة التى يستوحى منها قدرته على الخلق ويبدأ ما يسميه الشاعر محمد عبد الحى بالعودة إلى الجذور حيث يقول :

«الرجوع إلى الجذور كان هو الخطوة الضرورية لتأكيد نبرة التمرد والاستقلال عن التثقيف الأوربى الذى تحلت به الثقافة الأفريقية . والرجوع إلى الجذور رجوع التراث بلا انفصام ولا عقد نفسية ، ولكنه أيضاً إعادة تشكيل الذات أمر ضرورى حتى يستطيع أن يحمل روح الحاضر والتطلع إلى المستقبل وهموم أفريقيا الحديثة وآمالها فى بحثها عن ذاتها وصنعها لمصيرها ، وبتعبير آخر إن إعادة تشكيل الذات هى اتمام الزواج الخلاق بين التراث والمعاصرة فى فكر واع بجذوره وبمكانه فى التاريخ الحديث ، ولقد كان ذلك هو صلصال البداءة الذى نفخ فيه الوعى الأفريقى من روحه فنما الشعر الأفريقى الجديد» ويرى الدكتور عبد الحى أن العودة إلى الجذور الثقافية إلى الإبداع والتمرد على النموذج الأوربى هو جوهر حركة الزنوجة التى تعد المنبع الأول للشعر الأفريقى المعاصر – ويقدم الكتاب نماذج راقية حقاً لهذا الشعر الذى يهدر الآن فى ساحة الشعر العالمى بموجات متتابعة من الخصب والسحر ، وفى مقدمة هؤلاء الشعراء جان جوزيف رابيار بفيلو الذى يقول فى قصيدته ميلاد النهار :

هل – أبدا – رأيت بكرة الصباح مغبرة نهابة
فى بساتين الليل
انظر ! إنها تعود مرة أخرى
عبر الممرات الشرقية
التى تغطيها نصال العشب
لقد خضبها اللبن تماماً
مثلما فعل بأطفالها التى ربتها العجول من قدم
يداها اللتان تحملان شعلة
فى لونها سواد وزرقة كشفاه حبيبة
تمص توتاً برياً ناضجاً
الطيور التى أمسكتها فى شباكها
تهرب وتطير أمامها
لا أحد يعرف
من أين جاء النداء الأول
أمن الشرق أم من الغرب ؟
ولكن الديكة الآن فى أقفاصها التى تخترقها النجوم
وحراب الدجى الأخرى
تنادى بعضها بعضاً
تتنفس فى محارات البحر وتتجاوب من كل الجهات
إن من مضى لينام فى البحر الكبير يعود
وتصعد القبرة وتروح

تستقبله بأغان
مشبعة بالندى
كل النجوم التى انصهرت معاً
فى بوتقة الزمن
ثم أبردت فى البحر
صارت حجراً مبلوراً
صخرة فى النزع الأخير تكتنز العتمة فيها قلبها
وتشوقها للرحى التى تغنى ، تغنى
كالرماد مسته الريح
بشغف يقطع التثيت الملون للضوء المنعكس
ولكنه حجر متوهج
ذلك الذى يمكن أن ينصبه الفنان
شاهدة على قبره الخفى
ويتوجه ليوبولد سنجور بصلاته إلى الأقنعة
أيتها الأقنعة أيتها الأقنعة
يا قناعاً أسود يا قناعاً أحمر وأنت يا قناعا أبيض أسود
يا أقنعة الأركان الأربعة التى تهب منها الروح
فى صمت أجيبك

فهل يناشد أفريقيا أم يناشد الإنسانية أم يناشد أسلافه القدماء ، وهو يرى أفريقيا دما جديداً يدخل عروق الإنسانية كما تدخل الخميرة فى العجين كما يقول هو نفسه :

ارع بنظراتك الثابتة أبناءك الذين يتلقون الأوامر
وتساقط عنهم أرواحهم كآخر خرق الفقراء عن أبدانهم
حضوراً فى الولادة الثانية للعالم . علينا أن نكون خميرة
فى العجين الأبيض

فهل هذا هو قدر أفريقيا السوداء أن تكون الخميرة للحضارة البيضاء هكذا تتلفت الحضارة الأوربية الآن فى اتجاه الدم الجديد القادم من ميلاد النهار فى أرض الأقنعة ؛ إن هذه المختارات والدراسات تضىء الطريق أمام المحاولات التى تطمح إلى رؤية مزيج من التراث والمعاصرة فى إطار من الأصالة الفنية ، وتخدم الحركة الشعرية العربية وهى تبحث عن مفهوم أصيل للحداثة ، وقد استطاعت اللغة الشعرية التى استخدمها الدكتور عبد الحى أن تجسد الرؤية الشعرية للمختارات الأفريقية ، برغم أنه صدر كتابه بهذه الكلمة لدانتى الييجيرى : «لا يمكن لشىء أحكمت نسقه آلهة الشعر أن يخرج به من لغة لأخرى دون تدمير عذوبته كلها» فقد بقى لنا برغم ذلك كثير من عذوبة هذا الشعر الأفريقى الأصيل» .

حول ديوان العودة إلى سنار

للشاعر السودانى محمد عبد الحى

يطالعنا من السودان ديوان صغير مطبوع فى شكل كراسة سماوية اللون بعنوان « العودة إلى سنار » للشاعر السودانى محمد عبد الحى ، وبرغم أن الشاعر يكتب قصائده منذ فترة طويلة وينشرها على فترات متباعدة إلا أن هذه القصائد كانت تشير بوضوح إلى أصالة صوت هذا الشاعر وتفرده وامتيازه . وإذا كان محمد عبد الحى لا يعد معروفاً على نطاق واسع فوق البساط الشعرى العربى ، إلا أن قلة من المتتبعين لعناصر التطور فى الحركة الشعرية المعاصرة يقفون عند صوته وقد ظهرت الحاجة ملحة بعد تتابع قصائده لقراءة مجموعة كاملة من شعره . وأخيراً يجىء « العودة إلى سنار » لا ليشفى الغليل والعطش لقراءة مختارات متنوعة للشاعر وإنما لتؤكد ثلاث حقائق .

الحقيقة الأولى هى أن هذه الكراسة تثبت انتساب الشاعر محمد عبد الحى إلى

أشد تيارات الحداثة فى الشعر العربى المعاصر حيوية وهى كذلك تنبئ بميلاد تيار شعرى فى الحركة الأدبية السودانية يتجاوز من خلال الإضافة الإبداعية الواعية نتاج شعراء الخمسينات والستينات فى السودان ، ومنهم محمد الفيتورى وتاج السر الحسن وجيلى عبد الرحمن ومحيى الدين فارس ، هذا الجيل الذى شارك مع زملائه من شعراء مصر والعراق والشام فى تكملة لوحة غنية بالقصائد الحية الجميلة . وبهذه الكراسة يكون السودان قد قرر التواجد مرة أخرى بواحد من أجمل وآصل أصواته على صعيد الحركة الشعرية العربية . والحقيقة الثانية هى أن الكراسة لا تثير إلا الشوق لمزيد من القصائد الشعرية لهذا الشاعر . والحقيقة الثالثة هى أن الشعر السودانى قد جدد إهابه من خلال هذه الديباجة الحديثة فى ديوان العودة إلى سنار .

والحقيقة أن هذا الديوان لا يضم مجموعة متنوعة من القصائد وإنما يضم قصيدة طويلة من خمسة أناشيد ، النشيد الأول بعنوان البحر – والنشيد الثانى بعنوان – المدينة – والنشيد الثالث بعنوان – الليل ، والنشيد الرابع بعنوان الحلم – والنشيد الخامس بعنوان الصبح – وواضح من تقسيم القصيدة أنها تطمح إلى أن تكون تجسيداً لرؤية شاملة للكون من خلال الزمان : الليل والصبح والمكان المدينة والبحر والعالم الذى يتعالى على الزمان والمكان « الحلم » وبهذه القصيدة يوحى لنا الشاعر أنه سوف يقدم لنا فلسفة فى الوجود فى نفس الوقت سوف يقدم لنا شاعريته متكاملة ذات رؤية شاملة . وهو لا يبنى عالمه الشعرى بعد هذا التقسيم الذى يوحى بالتكوين الفلسفى والرياضى للشاعر على مجردات ميتافيزيقية قد تصنع فكرة جديدة ولكنها تقتل فى نفس الوقت الإحساس بما يريد أن ينقله إلينا الشاعر ، إنه يبدأ من المكان من سنار وهو بدء يوحى بارتباط الشاعر الوثيق بالأرض من ناحية وبمدينته

من ناحية أخرى ، فهو شاعر لا يهوم فى فراغ شاسع من الأحلام والرؤى ولكنه مرتكز على أساس حسى شديد الصلة بتكوينه النفسى وتاريخ بلاده . يقول : « سنّار هى عاصمة السلطنة الزرقاء » لثلاثة قرون حتّى أوائل القرن التاسع عشر لغة على اللسان . وتاريخ ووطن وحضور ذو حدين « ذلك يخطر فى جلد الفهد — وهذا يسطع فى قمصان الماء » هذه نبذة تاريخية عن سنار ، فماذا عنها بعد أن تحولت إلى رؤية شعرية ، يقول الشاعر محمد عبد الحى « فى القصيدة ربما كانت سنار دفعة من كيان الفنان فى شبابه حينما رغب — كما رغب جيمس جويس قبله — فى أن يشكل فى مصهر روحه ضمير أمته الذى لم يخلق بعد ، وربما كانت نقشاً على صخر آخر « بداءة » اسما يتجوهر فى مملكة البراءة فهى عين تبصر بها وخلالها . والأشياء هنا هى كما فى السماء والعودة إليها فقر ، عند كتابة القصيدة استفدت من بعض ما رأيت وسمعت من رسم ونحت وموسيقى » ثم يصدر الشاعر كراسته الشعرية بهذا القول لمحى الدين بن عربى من كتابه الفتوحات المكية « يا أبا يزيد ما أخرجك عن وطنك ؟ قال : طلب الحق ، قال : الذى تطلبه قد تركته ببسطام ، فتنبه أبو يزيد ورجع إلى بسطام ولزم الخدمة حتّى فتح له » والشاعر محمد عبد الحى فى الاهتمام بهذه الإشارات الثقافية من التّراث العربى أو من التّراث الغربى يعطى انطباعاً عميقاً بتأثره بالشعر العربى وخاصة نظرية ت . س . إليوت الشعرية ولاسيما أن ثقافة الشاعر ذات صلة قوية بالأدب الإنجليزى بحكم دراسته الأكاديمية فى جامعات إنجلترا ، وهو هنا فى هذه الإشارات ينتمى بوضوح إلى هذه المدرسة التى يعد أودنيس رائداً لها ، وهى المدرسة التى تجد أن أبعادها الفنية لابد أن تغوص إلى أعمق جذور التّراث العربى ، وفروعها لابد أن تمتد إلى أكثر عناصر الثقافة العالمية حيوية وتأثيراً وتطوراً ، وكأنهم بهذا يجمعون بين ماضيهم القومى وحاضر العالم

الثقافى من خلال تجربة تتذبذب بين الواقع القومى والتاريخى والفلسفى والوجدانى . وقد استطاعت هذه المدرسة أن تؤثر تأثيراً شديداً على توسيع الرؤية الشعرية وتعميق جذورها وتحرير الخيال واللغة ، وشحن الصورة الشعرية بنوع من التوتر يخلقه التخلى عن لغة الشعر المألوفة ، وإذا كان هذا المنهج قد استطاع بالفعل إغناء التجربة الشعرية الحديثة إلا أن ملاحظة هامة ربما كانت مثار جدل بين النقاد هى : ما ضرورة التقاء كل شعراء هذا الاتجاه حول إشارات ثقافية واحدة من التراث ؟ هى بالتحديد محى الدين بن عربى - ومحمد بن عبد الجبار بن الحسن النفّرى الذى يأخذ الشاعر منه هذه الكلمة من كتاب المواقف وكتاب المخاطبات . .

أوقفنى فى البحر فرأيت المراكب تغرق والألواح تسلم ، ثم غرقت الألواح ، وقال لى لا يسلم من ركب . وقال : فى المخاطرة جزء من النجاة ، وجاء الموج فرفع ما تحته وساح على الساحل ، وقال لى إن هلكت فى سواى كنت لما هلكت فيه ، ويظل التساؤل بلا إجابة ؟ فإذا تأملنا النشيد الأول من القصيدة الطويلة العودة إلى سنار - وجدنا هذا التطبيق الشعرى الأصيل لنظرية الشعر الأوربى - خاصة نظرية المعادل الموضوع عند ت . س إليوت . إن الشاعر هنا لا يعبر عن التجربة بل يطمح إلى تجسيدها فى صور بالغة العمق والجمال . وهى صور تذهب فى إثارة الحواس إلى مدى بعيد ، وبرغم أن الصور جديدة إلا أن ما يجعلها مؤثرة هو النسيج الذى وضعت فيه ، فهذا النسيج الحار القوى يتراوح بين الاتساع والضيق ، بين التوتر والانفراج ، بين الحسى والمعنوى ، حتى يصل بك فى النهاية إلى هذا الإشباع العميق الذى يخلقه الفن الأصيل ، وإذا كانت الصور توحى بتداعيها من اللاشعور بطريقة غير منطقية فإن هذه الصور فى الواقع شديدة الصلة بالبناء الذى يحاول الشاعر إحكامه حول تجربته ، أو يصوغ تجربته من خلالها . يقول الشاعر محمد

عبد الحى فى نشيد البحر :

– بالأمس مر أول الطيور فوقنا ، ودار دورتين قبل أ
يغيب ، كانت كل مرآة على المياه فردوسا
من الفسفور– يا حدائق الفسفور المرايا
أيتها الشمس التى توجهت واهترأت
فى جسد الغياب ، ذوبى مرة أخيرة
وانطفئْ . أمس رأينا أول الهدايا
ضفائر الأشنة . والليف . على الاجاج
من بقايا .
الشجر الميت . والحياة فى ابتدائها الصامت
بين علق البحارة
فى العالم الأجوف
حيث حشرات البحر فى مرحها الأعمى .
تدب فى كهوف الليف والطحلب لا تعى انزلاق الليل والنهار

ثم يدخل الشاعر من خلال هذه الصور المجسدة للعالم الذى يقبل عليه يدخل أرض أجداده من خلال غابة من رموز الأرض والتاريخ ، وكأنه بهذا الدخول تبدأ الحياة كلها من جديد . إنه لا يصور إيقاع نفسه بل إيقاع العالم . العالم حين يبدأ وحين يتوغل فى البعث . .

على التلال والأشجار
تطفو وتدنو مرة
ومرة تنأى وتغوص

فى الضباب والبخار
تسقط مثل الثمر الناضج
فى الصمت الكثيف

ثم ينهض العالم القديم للقاء هذا القادم الذى يصور روح هذا العالم وجسده . .

امرأة تفتح باب النهر وتدعو
من عتمات الجبل الصامت والأحراج
حراس اللغة – المملكة الزرقاء
ذلك يخطر فى جلد الفهد
وهذا يسطع فى قمصان الماء
الليلة يستقبلنى أهلى
أرواح جدودى تخرج من فضة أحلام النهر ومن
ليل الأسماء
تتقمص أجساد الأطفال

ثم ينتقل مرة أخرى إلى المشهد الخارجى الذى هو فى الواقع جوهر البناء كله :

وكانت الغابة والصحراء
امرأة عارية تنام
على سرير البرق فى انتظار
نورها الإلهى الذى يزور فى الظلام
وكان أفق الوجه والقناع شكلا واحدا
يزهو فى سلطنة البراءة
وظمأ البداءة

والشاعر يلجأ إلى نفس المنهج الفنى فى باقى الأناشيد ، هذا المنهج الذى يبعث الأسطورة الشعبية فى جسد الأرض المتحرك المتموج بالأحداث والتحولات ويذهب فى ولعه بالأساطير إلى حد التجاوز للفلكلور إلى تراث الأساطير اليونانية ، كما نلحظ فى الصورة الأخيرة والتى تشير إلى استفادته من كتاب التحولات لأوفيد . وهذا المنهج عكس المنهج الرومانتيكى فهو يركز بصره وبصيرته وحواسه القوية وقواه الذهنية الوجدانية النشيطة فى رسم العالم الخارجى بأبعاده المادية والتاريخية والنفسية والوجدانية من خلال ثقافة شاملة وعميقة . واستخدام الشاعر للغة يؤكد حرصه على البعد عن افتعال لغة متعالية ، فهو يستخدم اللفظ الذى ينقل الإحساس الحاد بالأشياء ، بالإطار ، بالروح العام ، مثل كلمات – الليف – الأشنة – الطحلب – جلد الجاموس . والنفس الموسيقى متدفق بصورة مطردة تعكس حالة وجدانية ونفسية متماسكة .

إن الشاعر محمد عبد الحى صوت مؤثر بقدرته على إضافة عناصر أصيلة من عالمه الشعرى إلى الحركة الشعرية العربية الحديثة ، وهو يعطى بهذه القصيدة الطويلة العودة إلى سنّار ، صورة شديدة الأصالة عن جوهر موهبته الشعرية وعن تنوع وعمق ثقافته ، وعن فهم نابع من ممارسة ذكية للأدوات الجمالية للتجربة الشعرية . وهذه القصيدة فى الواقع برغم أنها كافية لإرواء ظمئنا لمزيد من القصائد لهذا الشاعر إلا أنها فى الواقع بجودتها الفنية تكفى للبرهنة على شاعرية صاحبها . وأن الشعر العربى الحديث ليفتح آفاقه لتقبل المزيد من الجهد والتطوير لدفع حركة الحداثة إلى الأمام . وهذه الإضافة العميقة من الشاعر السودانى محمد عبد الحى لتؤكد أن الشعر الحديث قد تخطى حواجز الجمود والعجز من أجل حرية دائمة وإبداع رفيع .

شاعر أغفله التقويم الأدبي

كثيرون هم الشعراء الذين يفلتون من ذاكرة التاريخ الأدبي ليغرقهم ظلام النسيان ، وإذا كان هذا المصير القاسي عادلا فى بعض الأحيان حين لا تعطى الموهبة الأدبية برهاناً ساطعاً على جدارة البقاء ، فإن هذا المصير يُعد ظالماً حين تكون الموهبة أصيلة ومبدعة ، وجادت بعطاء يتيح لها مزاحمة هؤلاء الذين استأثروا وحدهم بالمجد الأدبي .

إن بعض الشعراء يكونون مجرد ضحايا لزمن شوهت قيمه الأهواء والمطامع والمجاملات ، فقد يسطع الضوء علي وجه لم تجمله الموهبه الأدبية بقدر ما جمله الجاه الاجتماعي أو النسب العريق أو النفوذ الواسع . وينحسر هذا الضوء نفسه عن وجوه لا تقل جدارة بقيمتها عن الآخرين ، ولكنها حظوظ الحياة المراوغة .

والشاعر السوداني « الناصر قريب الله » صاحب ديوان « الناصريات » الذي صدر

مؤخراً عن وزارة الإرشاد القومي السودانية واحد من هؤلاء الذين غمطهم التقويم الأدبي حقهم .

فقد يكون معروفا في الأوساط السودانية ، ولكن صحائف النقد الأدبي العربي تكاد تخلو من ذكره ، في حين تؤكد هذه الصحائف القيمة الشعرية للشاعر المعاصر لشاعرنا التيجاني يوسف بشير . وأغلب الظن أن الفطرة التي فطر عليها الشاعر والتي تتجلى في حيائه الشديد وموقفه المتعفف من الحياة ، وهي الفطرة التي ورثها عن البيئة الدينية التي نشأ فيها ، كان لها أعظم المسئولية فيما لحق بالشاعر من ظلم . وقد ولد الناصر قريب الله عام ١٩١٨ في أسرة عريقة في التصوف وتلقى تعليمه بالمعهد العلمي بأم درمان ، وعمل بالتدريس عقب تخرجه حتى لقي ربه عام ١٩٥٣ ، ويقول الأستاذ محمد مهدي المجذوب في مقدمة « النصريات » ، أما شعره فهو فصيح بليغ تشهد فيه صحة الملكة . ووضوح الشخصية ، وتسمع فيه موسيقى الأناشيد الصوفية التواقة المبتهلة ، والناصر رحمه الله صاحب شأن في تاريخ الأدب السوداني ، فهو من الذين انتقلوا بالشعر من المحافظة والعمومية والقبول إلى الرفض والمعاناة الذاتية من خلال الآمال الشعبية محافظاً على نصوع الأسلوب وسلامته من جمود القوالب وسطوة اللغة ، ولعل ما أخر الالتفاف إلى هذا الشاعر هو تأخر صدور ديوانه نفسه ، وقد مات هذا الشاعر عن خمس وثلاثين قصيدة يرى الذين أشرفوا على تحقيقه ونشره أنها ربما لا تكون كل شعره . ويبدأ تاريخ القصائد بعام ١٩٣٥ ويتدرج هذا التاريخ حتى عام ١٩٥٢ ويختتم الديوان بأربع قصائد غير مؤرخة ، ولكنها توحي أنها كتبت في المراحل المتأخرة من حياة الشاعر . وإذا كانت حياة هذا الشاعر تبدو قصيرة فإنها تبدو كاملة أيضاً . فقد تفتحت شاعريته في أوج ازدهار المدرسة الرومانسية « مدرسة أبوللو » وواكب نجاحها وصهرته مرحلة الغليان

الشعبى الذى بدأ بدوره يشق التربة العربية منذراً بكفاح طويل ضد الاستعمار من أجل الاستقلال . والشاعر الناصر قريب الله يلفتنا إليه وإلى شاعريته لأسباب قوية : فهو أولا يعطى صورة بالغة الوضوح والعمق لأصالة شاعريته ، وهى الشاعرية التى تجلت فى الديباجة الناصعة الأسلوب يميل إلى الوضوح والعمق والسهولة ويوحى بالاستيعاب لتراث الشعر العربى ويطمح إلى المشاركة الواعية فى تحطيم جدار الرؤية التقليدية فى هذا الشعر .

وليس امتلاكه لأدواته المباشرة كشاعر يمنحه صفة الشاعر الحقيقى بقدر ما هو الطابع الخاص لهذه الشاعرية . إنك قد تحس بأنفاس ابن الرومى أو المتنبى أو ابن زريق البغدادى تسرى فى أوصال قصائده ، ولكنك لا تمنع نفسك من الاقتناع والإعجاب بالشاعرية الخاصة للناصر قريب الله .

وإذا كان هذا الشاعر قد أعطى برهاناً قوياً داعياً إلى الإعجاب على شاعريته الصادقة فهو ثانية قد أعطى الدليل على أنه كان شاعراً مشاركاً لعصره . وهذه المشاركة . . يؤججها الصدق الفنى والموضوعى معاً . لقد التفت هذا الشاعر إلى ذاته شأن كل الرومانسيين الذين أحسوا بذواتهم مع تطور المجتمع العربى فرفعوا رءوسهم بالاحتجاج والرفض فى مواجهة الجمود التقليدى . ولكن التفات الشاعر إلى ذاته لم يطمس معالم الحياة حوله ، بل أصبحت ذاته مرآة صادقة بالغة الوضوح والنقاء لحركة الواقع نفسه . والقارئ المتمهل لهذا الديوان « الناصريات » يلحظ تدرجاً طبيعياً فى تطور الشاعر الذى تفجرت نفسه وقصائده بحب السودان ومصر وفلسطين والأمة العربية ، كان فى السابعة عشرة حين زلزلت نظرات الحسان فؤاده ، وطمحت نفسه الصافية البريئة لعبادة الجمال .

وكان فى الثامنة عشرة حين كان يموج قلبه وعقله بالوعى الوطنى وبإدراك الرابطة العميقة بين السودان ومصر ، فيصور هذا كله قائلا :

ولمصر السودان صنو شقيق   وبذا النيل شاهد حيث يجرى

وشأن الرومانسيين لم يشغله الجمال البشرى وحده ولا جذبته فتنة الحسان والغوانى فقط ، بل لقد مد بصره وحسه إلى الطبيعة ومظاهر تحولها فرسم صوراً وجدانية للربيع والعراء والأشجار والأنهار ، ولكنه لم يقف أمامها إلا متأملا يأخذ منها المعنى ليطرحه سؤالا على الحياة . لقد فطن هذا الشاعر الرومانتيكى الثائر إلى أن الطبيعة بجمالها وسحرها وحركتها الأبدية ماهى إلا إطار ومسرح لحركة الإنسان وسحره وحركته .

ومن هنا لم يكن غريبا وهو يرى كيف يهجر الطير الدوحة التى يبست أوراقها فأسقطتها الريح ، أن ينتقل بهذا المعنى إلى الحياة الإنسانية ، ليرى كيف يهجر الأصدقاء والأخلاء بعضهم بعضاً فيخاطبها والحسرة تخيم على نفسه وتعتصرها . فهو يسقط عليها مشاعره وآلامه التى تعذبه فيقول :

كذا يا دوحة الوادى   صداقات بنى الدنيا
كذا أحبابنا فيها   غناء ماله غنيا
فان يخز الفتى الدهر   أجادو معه الخزيا
وما يرعون من عهدك (م)   إلا ساعة اللقيا

وإذا الطبيعة تلقيه فى أعماق التجربة الإنسانية وتدفعه إلى تأمل ذاته ، ولكنه لاتساع إنسانيته لا يطيل هذا التأمل بل يرتد إلى وطنه السودان الذى يحمل له ا. كله . فحين يقف بمكان يسحره بفتنته وخصبه ، لا يلبث أن يتذكر عناء شعبه ومقاساة وطنه ، وهو يشير على الفور إلى الاستعمار الإنجليزى الذى يقف وراء تعس

بلده السودان . وما إن تبهره الخصوبة والازدهار حتى ينقلب ناقماً على الاستعمار الذى حرم أهله من خير بلادهم .

ومع تقدم عمر الشاعر برغم أنه لم يوغل فى التقدم فإن إحساسه الوطنى كان يزداد تأججاً ووعيه شمولاً وتطلعه إلى يوم الخلاص يفتح أمامه الآفاق . وبدأ يعى علاقة بلاده ، بل علاقة الأمة العربية كلها بالغرب والدول الاستعمارية التى طالما وعدت العرب بالاستقلال ، وكانت هذه الوعود تزداد غزارة كلما قامت الحرب ودخل الإنجليز رحاها . فيلجئون إلى إسكات العرب وكسبهم بأن يمنوهم الأمانى بمنحهم الاستقلال عقب انتهاء الحرب ، وها هو ذا الشاعر الناصر قريب الله يخاطب شعبه :

ويا أيها الشعب الكسير جناحه أما زلت ترجو عند دهرك ما يأبى

أرى الدهر عزما جارفاً واستهانة بأرزائه تغنم مباهجه غصبا

وناضل بعزم لا يفل سلاحه .ولا يخطئ المرمى إذا قصد الضربا

وبرغم امتداد الزمن فكان هذا الصوت يخاطبنا من الماضى ، وهو يرانا ماثلين الآن فى عراكنا من أجل الحرية واستقلال الأوطان ، ولا تهدأ ثورة الشاعر التى بدأت بالتنفس بين الأودية الجميلة ثم دخلت معترك الحياة السياسية ومدت بصرها وبصيرتها إلى مواجع الأمة العربية فى مصر وسوريا وفلسطين . وكان الشاعر قريباً من كل حدث يهم شعبه . وكان هذا القرب يملأ نفسه بالغضب والوعى ، فكتب عن فلسطين الجريحة وكتب عن الثورة المصرية عام ١٩٥٢ وكان يرقب هموم الكادحين من أبناء وطنه ، هؤلاء الذين رآهم يبشرون بصبح الوطن ، وقد خاطبهم الشاعر مقدراً فيهم الجهد الخلاق الذين يصنعون به الحياة .

فالكادحون هم الشرايين التى تجرى بها ملء الحياة دواؤها

وسواعد لولا توال خفقها لا ندكت الدنيا وزال رواؤها
وإذا البسيطة أنكرت مافوقها علمت يقيناً أنهم أبناؤها

هذا هو الشاعر الذى ينبغى أن يعاد تقييمه فى إطار الحركة الشعرية الرومانسية ، لا لأن أغراضه الشعرية كانت شديدة التنوع والأصالة وتمت بأوثق الصلات إلى صراعنا وكفاح أمتنا وهذا حقيق بل لأن أصالته الشعرية التى تفوقت فى زمانها تقنعنا بحيويتها وأن إنصاف هذه الشاعرية لهو نوع من الوفاء لتراثنا ونوع من الوعد المشرق بمستقبل زاهر ، وأن هذا الشاعر الناصر قريب الله جدير بمكانة تعترف له بما هو أهله لتثبيت صحة المقاييس التى تقول بأنه لا يصح إلا الصحيح . ولا شك أن انتعاش ذاكرتنا الأدبية من شأنه أن يصل بين أسلافنا المبدعين وأجيالنا التى تحاول خلق أدب عربى جدير بالخلود .

ملاحظات حول حاضر النقد الأدبى

لا يكاد يخفى على أى متابع يقظ لتطور الحركة الأدبية فى بلادنا أن الاتجاهات النقدية تعانى من ركود ملحوظ ، وربما كانت الدوافع لنشاط النقد الأدبى غير قوية كما هى عادة عقب ظهور تيارات إبداعية جديدة . أو نشوء ثورات فنية أو اكتمال أعمال كاتب كبير أو الدخول فى منعطف تاريخى فى مجال من المجالات الأدبية . كما حدث مع ظهور حركة الشعر الحديث وانتشار ظاهرة المسرح وتطور الرواية المعاصرة على يد نجيب محفوظ ويحيى حقى والقصة القصيرة على يد يوسف إدريس وشيوع تيارات قوية بدافع التأثير الثقافى المتبادل مع الأدباء فى جميع البلاد العربية . ولقد أسفرت النشاطات النقدية الجادة عن إرساء مفاهيم أصيلة فى كل هذه المجالات ولم تساعد فقط على تطور الرواد المبدعين فى الأنواع الأدبية التى يمارسونها ، ولكن النقد الأدبى بفضل جهود الدكتور محمد مندور والدكتور لويس عوض والدكتور

عبد القادر القط والدكتور محمد غنيمي هلال ورجاء النقاش والدكتور شكري عياد قد أسهم في تمهيد الطريق أمام الأجيال الجديدة التى تسعى على درب الإبداع الفنى . وبرغم ظهور أجيال جديدة من النقاد مثل صبرى حافظ وغالى شكرى وفاروق عبد القادر وعبد الرحمن أبو عوف وجلال العشرى إلا أن الظاهرة النقدية قد اتسمت بالشحوب . وبدأت تعانى إما من فوضى المناهج المتبعة في النقد أو من غلبة الجوانب الاجتماعية والسياسية على الجوانب الفنية بصورة أفقدت النظرة النقدية توازنها ، وإما من سيادة الانطباعية النقدية القائمة على المراجعات السريعة فى بعض الصحف والمجلات الأدبية ، وحظيت الفنون المرئية مثل السينما والمسرح والتليفزيون بالاهتمام الواسع . وقد كان لذلك كله نتائج مرضية تجلت فى بطء التطور الفنى فى بعض الأنواع الأدبية . وضعف الذاكرة الأدبية حتى توشك الأجيال الجديدة أن تفقد الصلة بينها وبين تاريخها الأدبي مما يهدد وحدة الثقافة القومية ، ولعل ضعف الذاكرة الأدبية من أعظم الأسباب الكامنة وراء الظلم الأدبي الذى يلحق بالكثيرين من الأدباء ، ويحول دون تقييمهم ووضعهم فى إطارهم التاريخى من سياق الحركة الأدبية . ولقد كان من نتائج ضعف الحركة النقدية أن ملامح الجيل الجديد فى الشعر والقصة والرواية قد أصبحت غائمة بصورة واضحة ، وقد يبدو الأمر عاديا إذا تصورنا أن النشاط النقدى شأن النشاط الفنى قد يلحقه الفتور فى بعض المراحل لأسباب كثيرة ، خاصة وأن المواهب الفنية الأصيلة ، تكون بحكم تكوينها واستعدادها واعية بأصولها الفنية مرتبطة ارتباطاً عضوياً بتراثها الثقافى والفنى والتاريخى مما يتيح لها النمو الطبيعي فى مجال ممارستها الإبداعية ، ولكن تظل الحاجة ضرورية لاستمرار النشاط النقدي للأسباب الآتية :

أولا : إن تطور الفنون كلها مرتبطة بوعى واستقبال الجمهور الذى قد يتعثر فى إقامة علاقة حميمة مع بعض الأعمال الفنية فى بداية ظهورها . وهذا التعثر قد يرجع إلى أن عناصر العمل الجديد قد تكون متقدمة وسابقة فرؤيتها الفنية للرؤية السائدة فى الواقع ، مثل البحث عن الزمن الضائع لمارسيل بروست وبوليسس لجيمس جويس وقصيدة الأرض الخراب ل ت . س . إليوت ، ولا شك أن النقد يحاول أن يقوم بوظيفة المبشر بهذه الأعمال والمساعدة فى فهم صحيح لأفكارها وقيمها الفنية .

وثانيا : تحتاج الأجيال الجديدة من الأدباء لرؤية واضحة بدلا من البلبلة الفنية التى قد يخلقها النجاح الإعلامى لفن ما ، إن الحقيقة الأدبية ينبغى أن تصنع وتكتشف وتقدم فى حرص شديد وبأمانة تامة وبجهد شديد . إن كثيراً من الفنانين والشعراء والقصاصين قد يلحظون بإعجاب تطور فنان كبير ، ولكنهم ربما لا يفهمون الأسس التى يقوم عليها فنه ، كما أنهم قد يقعون فى خطأ التصور أن الزمن مجرد صيرورة تكرارية ، بمعنى أنهم قد يفهمون التطور فى إطار دائرى وأن الحاضر وهو تكرار نشيط للماضى وأى تصور للمستقبل على نمط الماضى يصبح فى الواقع إهداراً للمستقبل لأنه يضعه فى إطار أضيق بكثير من احتمالاته وإمكانياته . ونفياً للماضى لأنه ينقله إلى غير مناخه فيبدو شائها ومرتبكاً وفاقداً لوظيفته الطبيعية ، من هنا يجىء النقد ليقيم الميزان الصحيح عن طريق عملية التوفيق الزمنى بين ما يلائم الماضى وما يلائم الحاضر ، كما أن النقد مطالب أيضاً بعملية انتفاء ضرورية ، وذلك لتطعيم الأعمال المعاصرة بالمادة التاريخية والإنسانية ، التى تتكون من الجوهر الباقى فى الآداب والفنون ، والنفس الإنسانية ، وهذه عملية فى الواقع أبعد ما تكون عن مهمة الدارس لتاريخ الأدب ، فمهمة المؤرخ الأدبى هى رصد الظواهر الأساسية

فى التاريخ ، ولكن مهمة الناقد هى فحص هذه الظواهر وتقديمها إلى الحاضر وتجهيزها للمستقبل .

ثالثا : إن فتح الطريق إلى المستقبل الأدبى لا يتم إلا عن طريق التآزر بين شجاعة الفنان الذى يستوعب معطيات الواقع ويواجهه كما أنه يستوعب كل ثمار الثقافة القومية والعالمية وبين حكمة الناقد الذى يعتمد على بصيرة ثاقبة واسعة ومنهج صحيح وأمانة علمية وحساسية فنية سليمة ، وهذا التآزر يعمل وبصورة فعالة على خلق أفضل الفرص أمام استقبال العمل الفنى من ناحية من خلال شرح أبعاده ، وكذلك العمل على تطور الفنان نفسه من خلال تبصيره بإمكانياته من ناحية أخرى وتمهيد الطريق لغد أدبى أفضل ، ولا شك أن النشاط النقدى مرتبط عضوياً بتطور الفنون ، ولا شك أن ثمة وظائف أساسية للنقد ترتبط بتطور الفنون فى عصر ما وبلد ما وثقافة ما . ويرى جورج سنينير أن مهمة النقد ذات جوانب ثلاثة :

إنه يدلنا على ما نعيد قراءته وكيف نفعل ذلك.. إن حجم الأدب هائل كما هو واضح ، وتوالى الجديد منه متصل ، ولابد للإنسان من أن يجتاز ، وهنا تأتى فائدة النقد – وليس معنى هذا أن يلعب النقد دوراً مصيرياً بالنسبة للأدب فيختار بضعة مؤلفين أو أعمال بصفتها النخبة الوحيدة المشروعة ، ويستثنى غيرها وعلامة النقد الجيد أنه يفتح من الكتب أكثر مما يغلق والجانب الثانى. الذى يوضحه جورج ستينير . أن الناقد يمكن أن يوضح الصلة بين الأشياء . أى أنه فى الوقت الذى تخفى فيه سرعة التوصيل التكنولوجية حواجز أيديولوجية سياسية عنيدة فى واقع الأمر يمكن للناقد أن يعمل وسيطاً وحارساً . إنه لجزء من وظيفته أن يتأكد من أن عهداً سياسياً ما لا ينال من عمل كاتب بالنسيان أو التشويه ، ومن بقايا الكتب المحروقة تجمع وتنظم بحيث يمكن قراءتها . ويرى ستنير أن الوظيفة الثالثة للنقد هى أهم

هذه الوظائف الثلاث . وهى كما يقول تتصل بالحكم على الأدب المعاصر ، وفرق بين الأدب المعاصر والأدب الذى صدر حديثاً ، فالأدب الذى صدر حديثاً يستحوذ على اهتمام الذى يقوم بعرض الكتب ، ومن الواضح أن على الناقد مسئوليات خاصة تجاه الفن فى عصره ، وينبغى أن يتطلب من هذا الفن لا مجرد الصفاء الفنى أو النهوض بالأسلوب سواء كان ذلك عن طريق تطوير الأسلوب أو استغلال الحاضر استغلالا ماهراً ، وإنما ينبغى أن يسأل أيضاً عما إذا كان قد أضاف الرصيد المتناقض من الإدراك الخلقى أو حط منه . ما معيار الإنسان الذى يتطلبه هذا العمل ؟ ! إن صياغة هذا السؤال ليست سهلة ، ولا يمكن أن يتم هذا السؤال بحصافة معصومة من الخطأ ، ذلك لأن زماننا ليس زماناً عاديًا ، إنه يرزح تحت عبء الإنسانية ، ويمضى فى ذعر فى مجال واسع على نحو فريد وإمكانية الخراب فيه ليست بعيدة الاحتمال . وهناك أنواع من ترف الانفصال عن هذا الزمن يود الإنسان لو يمارسها ولكنه لا يستطيع ، وإذا كانت هذه هى وظيفة النقد فى مستوى الرؤية الأوربية للأدب والفن فإن هذه الرؤية تتضمن عنصرين . الأول العنصر التكنيكى وهو مرتبط أولا بتطور الأنواع الأدبية ونوعية المشاكل الفنية التى يطرحها ، وكذلك مرتبط بمستوى الأداء الفنى الذى تجاوز فى الواقع مشاكل كثيرة ، كما أن هذه الرؤية فى الواقع تطرح تصوراً استراتيجياً عاماً على مستوى الوظيفة الأدبية فى العالم فى مواجهة العصر وتحدياته واحتمالات تطوره نحو الخراب أو السلام . وكل هذه العناصر لا تعد بعيدة جداً عن تطورنا الفنى ، ولكنها بكل تأكيد تختلف عن تصورنا له ونحن فى حاجة مستمرة إلى تأمل النقد الأدبى فى الغرب تماماً كما نتأمل تطور الفنون فيه ، ولكن ثمة ملاحظة متعلقة بالنقد الأدبى العربى والنقد الأدبى الغربى بشكل عام . هذه الملاحظة تتجسد فى أننا لم نحسم بعد

الكثير من مشاكلنا المتعلقة أساساً بعلاقتنا بالماضى ، وذلك لغياب هذا الوسيط النقدى الذى يجمع بين حس الثقافة القومية من خلال خبرة عميقة بالتراث وحس ناضج بالثقافة المعاصرة ، وقد كانت الجهود الطيبة التى بذلها الدكتور غنيمى هلال خطوة واسعة على هذا الطريق . ثم إن النقد الأدبى ينبغى أن يعنى أساساً بحسم مشاكل كثيرة مثل حرية الفنان فى أن يجد الأشكال الفنية التى تروق له ، وهناك مشكلة اللغة التى تقف عائقاً خطيراً فى فهم أصولنا الفنية أمام الأجيال الجديدة وكذلك عدم التوازن فى الأحكام الفنية بسبب فوضى المناهج : إننا فى حاجة للوصول إلى مرحلة الحرية الفنية ، فى نفس الوقت الاهتمام بتأصيل المصطلح والاتفاق على مستوى الأداء الفنى من خلال تجاوز العوائق الناتجة عن سوء الفهم أو العداء ، ونظرية الانتقام المتبادل بين الأجيال ، إن التطور فى الفنون يرتبط بالحماس والحب ليس للفن والأدب فقط ولكن أيضاً للأجيال المختلفة . وما من شك فى أن سوء الفهم القائم فى كثير من المجالات ينبع من فتور الحماس لبذل الجهد الصادق من أجل المشاكل الفنية التى تعترض حياتنا وإلغاء الاعتبارات الخاصة مرهون بتوضيح الحقائق بطريقة أكاديمية تسمح بتكوين رؤية موضوعية للآداب والفنون . وبالإخلاص للفن والاحترام للجهد والدفاع عن القيم الرفيعة والشجاعة فى مواجهة مايطرحه الواقع من متطلبات ، وبإنكار الذات للاعتراف بالحقيقة نستطيع أن نسمو لا بمشاعرنا فقط ، بل بحركتنا الأدبية فى بلادنا ، وسوف يكون للنقد الأدبى دور بارز فى أية نهضة مقبلة أو محتملة إذا عرف النقاد الجدد أن عليهم أن يقتربوا بحب من الأعمال الأدبية ، وليس لهم الحق فى أن يتصوروا أن أحكامهم وحدها هى التى ستصنع أو لا تصنع التاريخ ، برغم أنهم إذا كانت هذه الأحكام عادلة وحكيمة قد يفعلون ذلك بالفعل .

الاتجاه الفلسفى فى شعر صلاح عبد الصبور

كان صدور ديوان صلاح عبد الصبور الأول «الناس فى بلادى» تعبيراً بليغاً عن شاعرية حقيقية ، تطمح إلى تجديد بنية القصيدة العربيةِ التقليدية من خلال رؤية اشتراكية للواقع الاجتماعى الذى كان يغلى بالمتغيرات فى الخمسينات من هذا القرن فى مصر . ولم تكن تجربة الشاعر فى هذا الديوان ترشح لهذا الانتقال المفاجئ من الانفعال بالواقع الاجتماعى ، إلى التأمل المجرد ، وهو التأمل الذى ظهر واضحاً فى الديوان الثانى «أقول لكم» .

لقد ارتدى الشاعر ثياب الحكيم الذى يتلهف على طرح موعظته على الناس ، ولكن هذه الموعظة فى الواقع ليست ثوباً شفافاً من التفكير الفلسفى ، فى حين كانت فى جوهرها تغطية لمعاناة الذات الحبيسة فى ثياب الكائن الذى صعد إلى المسرح دون تمهيد . ونعثر فى هذا الديوان على واحدة من أهم قصائد صلاح

عبد الصبور فى المرحلة الثانية من تطوره ، وهى قصيدة « الظل والصليب » وصياغة هذه القصيدة تقف على حدود اللغة المباشرة ، وهى تجاهد لكى تعبر عن ذات يكاد يقضى عليها ضجر غامض أغلب الظن ، إنه ضجر الآلية التى سيطرت على العصر الذى يحاول الشاعر أن يصوره ظالماً ضائعاً على حافة الإفلاس .

هذا زمن الحق الضائع .
لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله
ورءوس الناس على جثث الحيوانات .
ورءوس الحيوانات على جثث الناس .
فتحسس رأسك . .
فتحسس رأيك . . !

وبرغم أن الشاعر قد حاول فى هذه القصيدة أن يتوسل بالصور الشائعة ، والتراث الثقافى الأوربى ، كما يظهر تأثره فى المقطع الأخير من القصيدة بمسرحية الخرتيب ليوجين يونسكو . وبرغم التعميم الذى يقود إلى المباشرة طموحاً إلى الشمول والموضوعية ، إلا أن القصيدة تظل إسقاطاً واضحاً لذات تواجه أزمة عميقة ، وليست تعبيراً مقنعاً عن عصر بكامله .

أما قصيدته الطويلة « أقول لكم » والتى يختار لمقاطعها عناوين فرعية هى : من أنا – والحب والحرية ، والموت والكلمات ، والقديس والسوق والسوقة ، وموت الإنسان ، وأجافيكم لأعرفكم – فهى محاولة لتجسيد الصيغة الرومانسية فى إطار تأملى . إن الشاعر يطرح فى هذه القصيدة تصوره لعالم من الأفكار والقضايا والمشاعر الإنسانية ، ولما كان الشاعر يختلف عن الفيلسوف ، فإن صلاح عبد الصبور لا يبنى تصوراً محكماً من الأفكار ، برغم أنه حاول ذلك ، وإنما هو

يثير فينا ريحاً من المشاعر العاتية تتخلل نفوسنا ووجداننا ، ولكن هذه المشاعر تتناقض وتتوافق طبقاً لمزاج الشاعر النفسى ورؤيته الفنية ، فبينما يحاول تفسير الموت من خلال علاقته بالحرية فى قصيدة «الحرية والموت» نراه يفتح نافذة واسعة على حدائق الحياة النضيرة ، فى هذه القصيدة يصور الحكمة الحقيقية والحياة الحقيقية ، وهما يصدران عن التجربة الإنسانية الحية . كما تتوهج فى خطى الساعين للأرزاق ، ولهفة المحبين ، وأشواق العشاق .

كان الشاعر ينزل ضيفاً على الموتى ، يعكف على بقاياهم ، يأخذ الحكمة من الكتب ، ولكنه أدرك فجأة أنه مخطئ .

وذات صباح
رأيت حقيقة الدنيا
سمعت النجم والأمواه والأزهار موسيقى
رأيت الله فى قلبى . .
لأنى حينما استيقظت ذات صباح
رميت الكتب للنيران ثم فتحت شباكى
وفى نفس الضحى الفواح . .
خرجت لأنظر الماشين فى الطرقات والساعين للأرزاق
وفى ظل الحدائق أبصرت عيناى أسراباً من العشاق
وفى لحظة . . شعرت بجسمى المحموم ينبض مثل قلب الشمس
شعرت بأننى امتلأت شعاب القلب بالحكمة
شعرت بأننى أصبحت قديساً . .

وهكذا نجد الشاعر صلاح عبد الصبور يمزق عن جسم قصيدته ثياب

الفيلسوف ليخرج لنا الشاعر . ولكن البذور الفلسفية فى هذا الديوان كانت إرهاصاً لنمو هذا الاتجاه بعد ذلك ، كما تمثل فى قصائده التالية فى دواوينه : أحلام الفارس القديم وتأملات فى زمن جريح وشجر الليل .

والشاعر الذى خرج من تجربة الالتزام بهموم واقعه يجرفه حزن غامض إلى التماس راحة النفس والقلب بين إعطاف رؤية صوفية تجنح إلى التسليم تسليماً مطلقاً بإرادة القدر ، وسلطته الباطشة النهائية ، بل إن تمردنا على هذا التسليم هو آفة وجودنا ، وسبب شقائنا ، وأساس بلائنا ، ويقدم الشاعر لقصيدة مذكرات الصوفى بشر الحافى قائلاً :

«أبو نصر . بشر بن الحارث كان قد طلب الحديث ، وسمع سماعاً كثيراً ، ثم مال إلى التصوف ومشى يوماً فى السوق فأفزعه الناس ، فخلع نعليه ووضعهما تحت إبطيه ، وانطلق يجرى فى الرمضاء فلم يدركه أحد ، وكان ذلك سنة سبع وعشرين ومائتين .

وهنا يثور سؤال: هل الصوفية هى الفرار من قبح المخلوقين إلى جمال الخالق ، أو هى سبغ المحبة على مخلوقات الله ، لأن الحب هو أساس التجرد وليس البغض .

فى قصيدة صلاح عبد الصبور مذكرات بشر الحافى موقف إدانة عامة ، موقف ينبع من التأثيم لا من التجاوز ، والشاعر يبدى تأثره بالفلسفة البوذية فى حرصه على عدم السماع والنظر والكلام ، والشاعر فى مطلع القصيدة يرتب عذابنا الذى يكوى أعطافنا على فقدان اليقين والتمرد على إرادة القضاء ، إن عدم الرضا هو الذى فَجّر فينا الألم ولكن بطل القصيدة بدلاً من أن يفجر هو رؤية مشرقة صافية للكون والوجود لكي يكشف للعيان نور الحقيقة الكامنة وراء الظاهر ، نجد هذا البطل يعلن تمرده بصورة يائسة تماماً . يقول الشاعر :

تطل حقيقة فى القلب توجعه وتضنيه . .
ولو جفت بحار القول لم يبحر بها خاطر
ولم ينشر شراع الظن فوق مياهها ملاح
وذلك أن ما نلقاه لا نبغيه
وما نبغيه لا نلقاه
وهل يرضيك أن أدعوك يا ضيفى لمائدتى
فلا تلقى سوى جيفة . .
تعالى الله . . أنت وهبتنا هذا العذاب وهذه الآلام
لأنك حينما أبصرتنا لم نحل فى عينيك
تعالى الله هذا الكون موبوء ولا برء
ولو ينصفنا الرحمن عجل نحونا بالموت
تعالى الله هذا الكون لا يصلحه شىء
فأين الموت اين الموت أين الموت . .

وهكذا يسقط قناع الفيلسوف المتصوف ، لتظهر حقيقة الشاعر الذى يتحرق لهفة على الحياة ومتاعها ، بعد أن فقد الشاعر رؤيته الأولى فى ديوان «الناس فى بلادى» اهتزت هذه الرؤية وتناثرت فى اتجاهات كان الاتجاه الرومانسى أبرزها وأقواها ، وكان الاتجاه الفلسفى أضعفها وأبعدها عن توتر الفن وإيقاعه . ولقد حاول الشاعر أن يصطنع إهاب الفيلسوف الذى جرب الدنيا ، ولكنه سقط فى التناقض مما اضطره إلى الكشف عن هوية الشاعر من تحت قناع الفيلسوف ، ولاشك أن رؤيته فى دواوينه المتأخرة تعكس حزناً أعمق من حزنه الذى قاده إلى التجريد والتعميم والمباشرة . إن حزنه فى ديوان «شجر الليل» يغوص من جديد فى

لحم الواقع ، بعد أن اكتسى هذا الواقع ألواناً مركبة تفصح عن تعقيد الموقف الإنسانى من الوجود . ويتجلى هذا الحزن الشديد فى ديوانه شجر الليل كحزن شاعر أقعده العجز عن السيطرة على قدره ، لا كحزن فيلسوف يخسر فلسفته فى اختيار غامض ، اختيار نشأ فى الذهن ومات فى القلب .

إن الاتجاه الفلسفى الذى يبدو للوهلة الأولى واضحاً فى شعر صلاح عبد الصبور إنما هو مجرد قناع حاول به الشاعر الهرب من رؤية الشاعر ولكنه وجد الأبواب أمامه كلها مغلقة . .

أدونيس رائد التجريبية فى الشعر الحديث

انفجرت أحشاء القصيدة التقليدية ليظهر هذا الشكل المتطور ، الذى أطلق عليه بعض النقاد اسم الشعر الحديث ، أو الشعر الحر ، أو الشعر الجديد . وربما لم يستقر المصطلح النقدى لهذه المدرسة حتى الآن ، وكان هذا الانفجار الشعرى تعبيراً عن الأزمات المزمنة لجمود الشكل التقليدى ، واصطدام هذا الشكل بتحول جذرى فى الواقع العربى بعد الحرب العالمية الثانية .

ولقد حاول رواد المدرسة الحديثة فى الشعر أن يؤسسوا منهجاً عصرياً للقصيدة يقوم على الاقتراب المباشر من الحدث اليومى ، والتجربة العادية ، ولغة الحياة ، واستخدام الرموز التاريخية والأسطورية ، والتركيز على الوحدة العضوية فى القصيدة . وقد أسفر نتاج الشعراء الرواد : بدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتى وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى ونزار

قبانى – أسفر نتاجهم عن رؤية حديثة حقاً ، كانت كافية لإسكات الجبهة التقليدية التى رفضت أن ترى فى تغيير الواقع العربى مبرراً لتحطيم شكل دام استخدامه قرابة ألف وخمسمائة عام .

ولم تكن الرؤية الفنية مجرد شكل خارجى للقصائد ، وإنما نفذت إلى جوهر التعبير عن اللحظة التاريخية التى يمر بها الوعى القومى العربى ، فقد حققت الموجة الأولى لحركة تطوير القصيدة العربية نجاحاً مذهلاً تمثل فى استجابة المواهب الطالعة على امتداد الوطن العربى لهذا النمط الحديث ، وكذلك مساندة النقاد له وإقبال القراء عليه ، وكان على حركة الشعر أن تقدم إيقاعاً أسرع لعناصر الجدة والتطور فى منهجها ، الذى كاد النجاح الساحق الأول أن ينتكس بها ، إلى جمود مفاجئ مبكر . وجاءت جهود الشاعر السورى «على أحمد سعيد» – أدونيس – ليحقق الخطوة الكبرى إلى الأمام فى نتاج هذه المدرسة الشعرية .

بدأ أدونيس مع الرواد تقريباً . ولكن تجربته الشعرية قد تميزت بديوانه «أغانى مهيار الدمشقى» . هذا الديوان الذى صدرت طبعته الأولى عن دار مجلة شعر عام ١٩٦١ ، وكان المؤلف قد أصدر من قبل ديوانين : الأول هو قصائد أولى عام ١٩٥٧ – وأوراق فى الريح عام ١٩٥٨ .

كان ديوان أغانى مهيار الدمشقى تحولاً عميقاً فى منهج الكتابة الشعرية ، وقد اتخذ هذا التحول مظهره الواضح فى القناع التاريخى الذى ارتداه الشاعر ، وهو قناع «مهيار» إشارة إلى «مهيار الديلمى» الشاعر الفارسى الذى كان يفاخر العرب فى العصر العباسى بنسبه الفارسى . كان هذا الديوان تحولاً لأنه انشق على الرؤية الواقعية التى سادت الإنتاج الشعرى خلال فترة الخمسينيات . وبدلاً من التوسل بالصورة الرمزية ، أصبح الإطار كله رمزياً ، وقد حاول أدونيس أن يؤسس رؤية

جديدة تنبثق أساساً من إرادة الذات المحاصرة على مستوى الواقع والتاريخ لتجاوز هذا الواقع وهذا التاريخ. ولقد اتجه الشاعر إلى الطبيعة كمظهر متجسد للوجود الخالد، ولكنه حاول أن يعطى كائنات هذه الطبيعة دلالات رؤيته الخاصة.

لم يكن مهيار فى هذا الديوان سيرة ذاتية ولا قناعاً لمرثية تاريخية بقدر ما كانت بعثاً أسطورياً من خلال رموز الواقع والطبيعة والتاريخ، من هنا تحولت الألفاظ من مجرد أدوات فى بناء الجملة الشعرية، إلى تجسيد للصورة الشعرية، حاول الشاعر أن يشحن ألفاظه بكهرباء جديدة. فقد لحق نوع من التغير الكيميائى دلالات الألفاظ فى هذا الديوان ودواوينه اللاحقة، وهاهو ذا الشاعر يصف بطله مهياراً ويصف نفسه:

- ملك مهيار
ملك والحلم له قصر وحدائق نار
واليوم شكاه للكلمات
صوت مات
ملك مهيار
يحيا فى ملكوت الريح
ويملك فى أرض الأسرار

كانت الدواوين المتتابعة لأدونيس تؤكد أنه قد قرر أن يقود حركة التجريب فى الشعر الحديث بجرأة ومهارة وإبداع، جاءت دواوينه: «التحولات والهجرة فى أقاليم الليل والنهار» عام ١٩٦٥ و «المسرح والمرايا» عام ١٩٦٨ ثم ديوانه الأخير «وقت بين الرماد والورد» لتعطى الانطباع بأن - إدونيس - يمثل العنصر الرئيسى فى التفجير الثانى فى القصيدة الحديثة.

إن تجريدية أدونيس تقوم على التحول ، هذا التحول الذى ينبثق من المفارقة ، وإذا كانت المفارقة فى الطبيعة والمنطق الشكلى تعنى النفى ، فإنها عند أدونيس تعنى الوحدة ، يقول الشاعر فى قصيدته «مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف» :

يأتى وقت بين الرماد والورد
ينطفئ فيه كل شىء
يبدأ فيه كل شىء

الجدلية هى السمة الأولى فى الحركة الشعرية الثانية التى يقودها أدونيس ، تبدأ جدلية أدونيس بمواجهة الذات للعالم ، والحلم للواقع ، والحاضر للماضى والعابر للخالد . من هنا نهضت القصيدة الدرامية فى دواوينه ، متخذة شكلاً جديداً يبدأ من الموقف وينتهى باللغة ، ولقد حاول أدونيس أن يقدم مفهوماً لعملية الإبداع الشعرى ، ليس فقط من خلال نماذجه المثيرة ، وإنما من خلال آرائه النقدية . يقول فى كتابه مقدمة للشعر العربى :

«أن يكتب الشاعر قصيدة لا يعنى أنه يمارس نوعاً من الكتابة ، وإنما يعنى أنه يحيل العالم إلى شعر يخلق له فيما يتمثل صورته القديمة صورة جديدة ، فالقصيدة حدث أو مجىء ، والشعر تأسيس باللغة ، والرؤيا تأسيس عالم واتجاه لاعهد لنا بهما من قبل . لهذا كان الشعر تخطياً يدفع إلى التخطى ، وهو ذاته طاقة لا تغير الحياة وحسب ، وإنما تزيد إلى ذلك فى نموها وعنادها وفى دفعها إلى الأمام وإلى فوق ، من هنا كان الشعر أعمق انهماكات الإنسان وأكثرها أصالة ، لأنه أكثرها براءة وفطرية والتصاقاً بدخائل النفس» .

إن تجريبية أدونيس تقوم أساساً على خلق رؤية تكون الحركة هى جذرها ، من هنا كانت للشاعر لغته الخاصة وموقفه الخاص . وإذا كانت الجدلية هى الظاهرة

الأولى لهذه التجريبية ، فقد انعكست هذه الجدلية فى اللغة والموقف ، واحتشد عالم أدونيس بالمفارقات والأقنعة والرموز والأساطير ، واختلط الشعر بالنثر ، والغنائى بالدرامى ، والذاتى بالملحمى ،

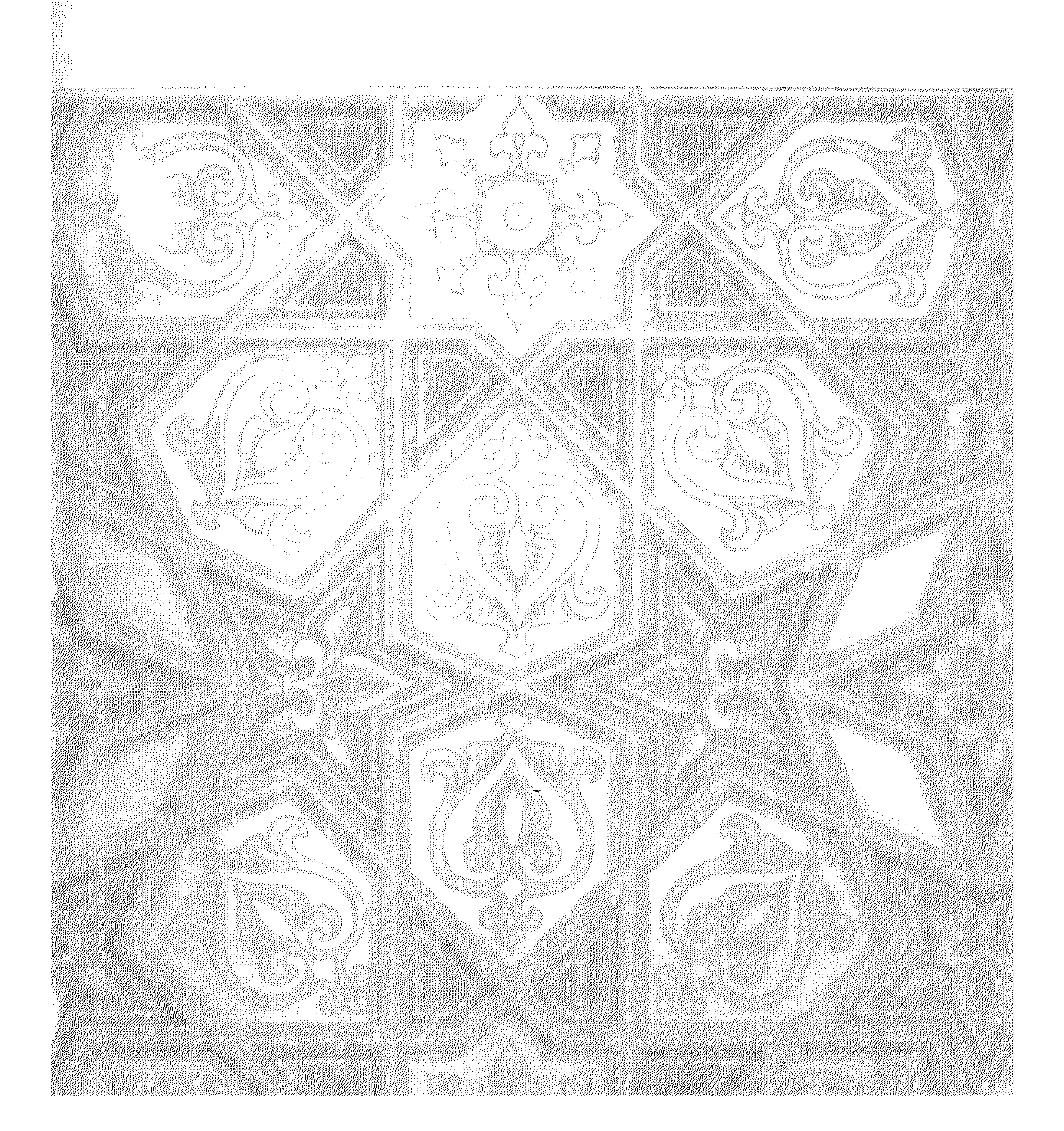
لقد مارس أدونيس – بفضل مقدرته الهائلة على الكشف عن مساحات جديدة فى الخيال الشعرى وعن إمكانيات جديدة فى اللغة العربية – مارس بفضل هذه المقدرة تأثيراً واسعاً وعميقاً على عدد كبير من شعراء الستينيات ، بل لقد وقع معظم شعراء جيل السبعينات تحت تأثيره ، ولكن أدونيس يظل متحيزاً بهذه الثقافة التى تجمع التراث إلى المعاصرة ، وبهذه الجرأة على الصياغة الحديثة ، مستنداً إلى موهبة حقيقية كبيرة .

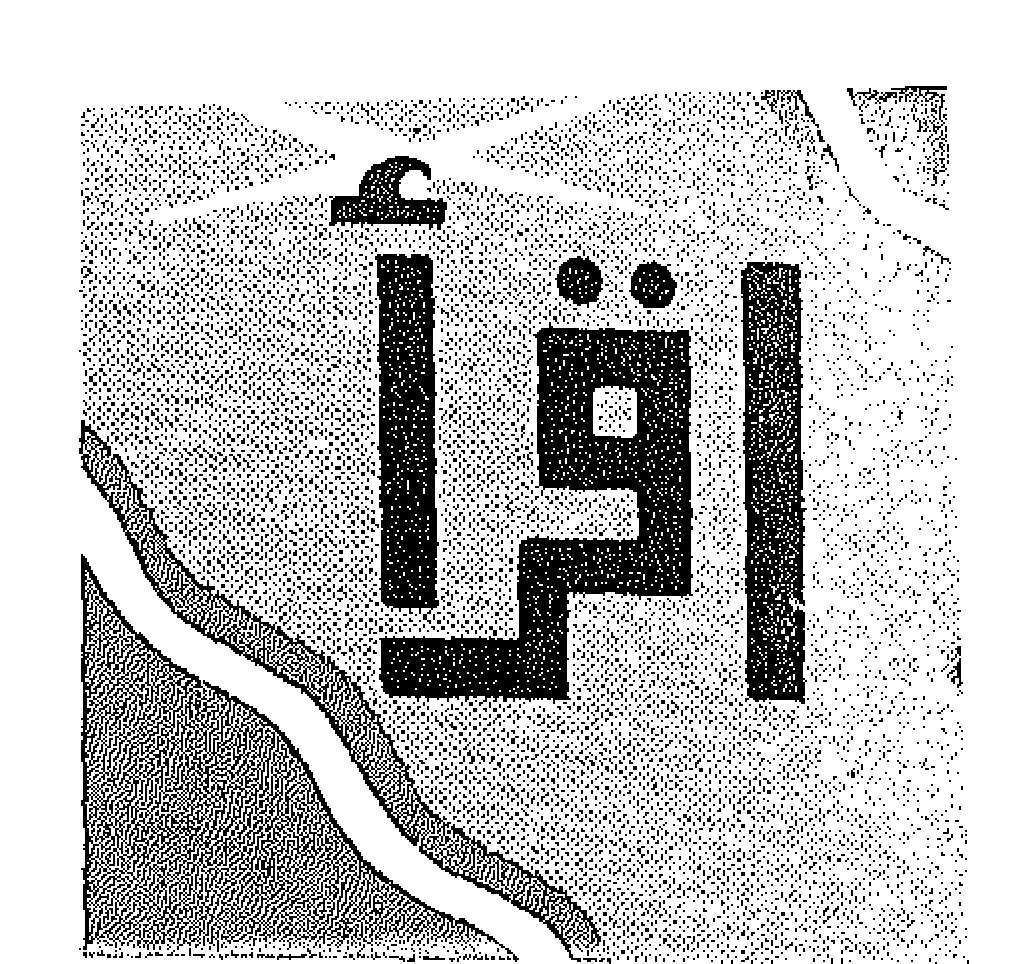
إن جاذبية التجريبية التى تغرى بالحرية الفنية المطلقة ، تظل اختباراً صعباً لهذه المرحلة من مراحل الشعر العربى لأنها إما أن تسفر عن توسيع رقعة الإبداع الشعرى بصورة مقنعة ، أو تكون وسيلة لتدمير المواهب الناشئة ، التى سقطت فى وهم الحرية دون امتلاك القدرة على تحمل المسئولية ، ولكن يظل شعر أدونيس علامة من أهم علامات التطور فى حركة الشعر الحديث .

رقم الإيداع		١٩٨٢/٣٥٥٠
الترقيم الدولى	٢-٠١١٦-٠٢-٩٧٧	ISBN

١/٨٢/٤٠

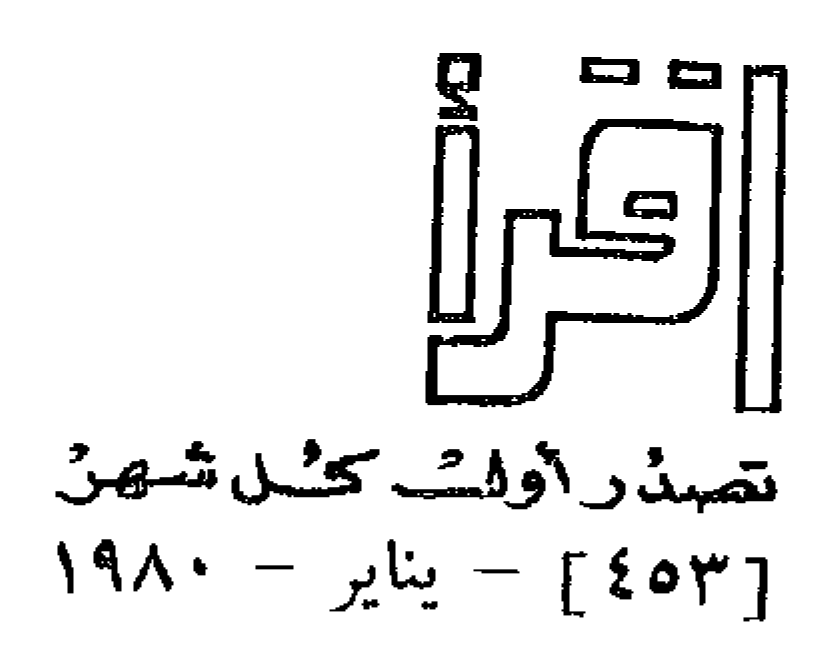
طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)





محمود سامى عطا الله

الفيلم التسجيلى وبناء الإنسان المصرى



رئيس التحرير أنيس منصور

محمود سامى عطا الله

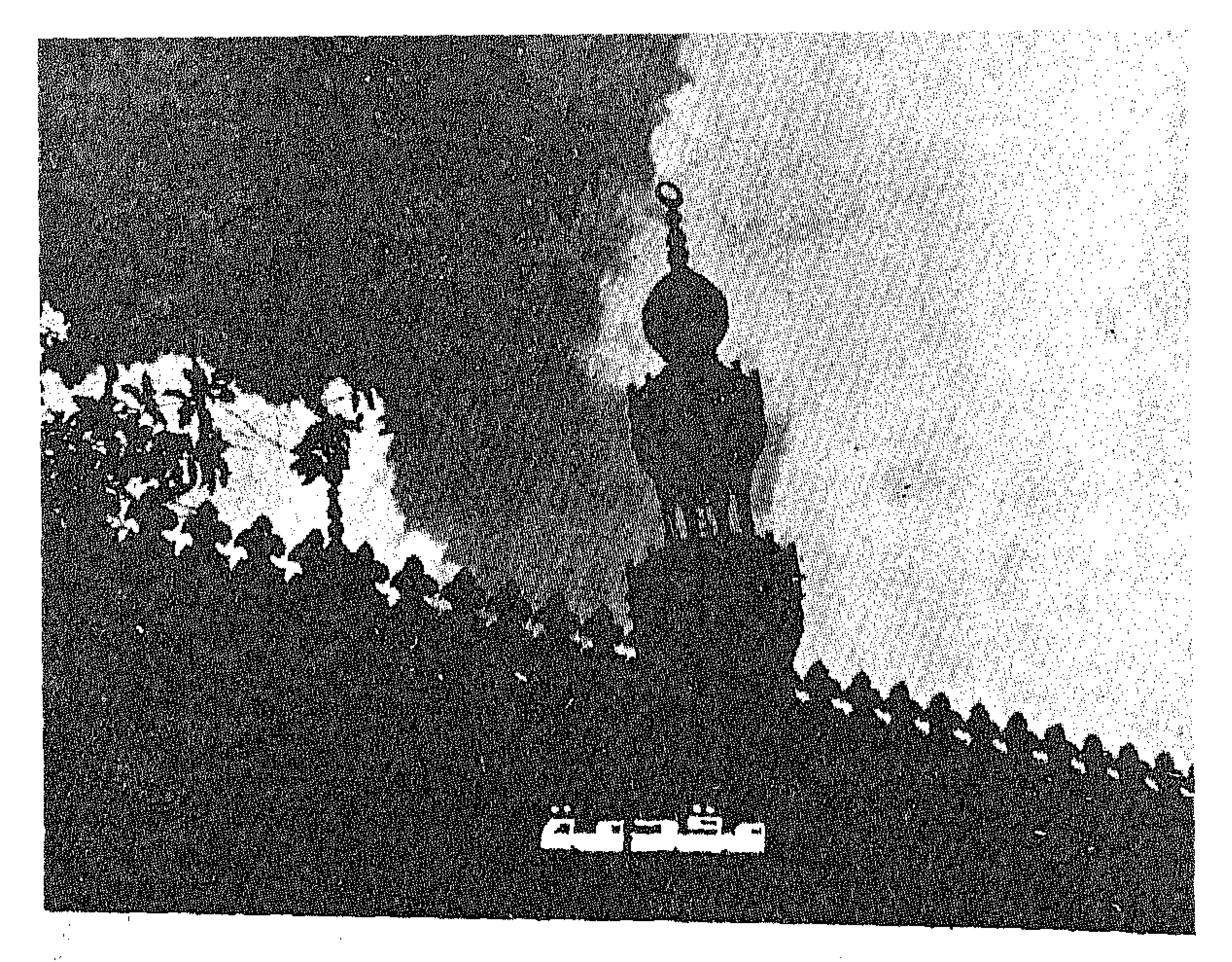
الفيلم التسجيلى وبناء الإنسان المصرى



دار المعارف

تصميم الغلاف : **محمد عبله**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع



إن اختراع وسائل الاتصال الجماهيرية يعد من أهم الإنجازات التكنولوجية التى تميز عصرنا الذى نعيشه : فبفضل ما تملكه هذه الوسائل من قدرات عظيمة على إلغاء المسافات وتخطى كل حدود الزمان والمكان والوصول برسائلها وتأثيراتها الاجتماعية إلى مختلف بقاع الدنيا تغير شكل العالم وحجمه ، وتحول إلى ما أسماه عالم الاجتماع الكندى « مارشال ماكلوهان » بالقرية العالمية . .

وقد انتشرت هذه الوسائل فى الدول النامية بعد الحرب العالمية الثانية ، وسرعان ما تغلغل بين الجماهير الواسعة فى هذه الدول وتزايد مع الوقت أثرها فى حياة الناس والأفراد واستحوذت على أكبر قدر من أوقات فراغهم ، ولم يعد يشك أحد فى العالم فيما لوسائل الاتصال الجماهيرى من الأهمية القصوى بالنسبة للتعجيل بعمليات التنمية من الدول التى تتحول من المجتمع التقليدى . . إلى المجتمع

العصرى . وليس أدل على هذا من أن الجمعية العامة للأمم المتحدة قد طالبت فى عام ١٩٥٨ ببرنامج عمل مادى لتقوية إمكانات وسائل الاتصال الجماهيرى سواء المكتوبة أو المسموعة أو المرئية فى البلدان التى تمر فى دور التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ثم عادت فى عام ١٩٦٢ لتؤكد فى قرار لها الدور الهام لأجهزة الاتصال الجماهيرى فى التعليم والتقدم الاقتصادى والاجتماعى بوجه عام . .

وعلى الطريق نفسه عقدت منظمة اليونسكو عدداً من المؤتمرات العالمية والحلقات الدراسية ؛ كما أجرى العديد من علماء الاجتماع فى العالم الكثير من الدراسات والأبحاث حول تأثير وسائل الاتصال الجماهيرى فى الدول النامية ، ولم يحدث هذا من باب المصادفة ، وإنما حدث لإيمان كل هؤلاء سواء المنظمات الدولية أو العلماء بأهمية وسائل الاتصال الجماهيرى كدافعة ومعاونة لعمليات التنمية . .

ومن الأمور التى يجب أن نعترف بها فى البداية ونواجهها بلا خجل أن مصر برغم كل إنجازاتها الحديثة مازالت تعتبر فى عداد البلدان النامية ، وأن من أكبر التحديات التى تواجهها فى هذا العصر تطوير حياتها ورفع مستوى معيشة شعبها وقطع مسافة التخلف الذى فرضته عليها عهود السيطرة الاستعمارية التى استنزفت ثرواتها .

والمعروف أن هذا التطور حدث فى البلاد الأوربية تدريجا وخلال عدة قرون ، ولهذا استطاعت شعوب هذه البلاد التأقلم مع التغيير والتكيف اجتماعيًّا ونفسيا معه ، ولكن ما حدث فى مصر هو أنها تحاول أن تحقق فى فترة زمنية قصيرة ما أنجزته أوربا فى مئات السنين ! وهذا التحول السريع ينتج عنه بالضرورة مشكلات كثيرة ، وإن أخطر هذه المشاكل ما يتعلق بالجانب البشرى : أى ما يتعلق بعملية بناء البشر لخلق الإنسان العصرى الذى يساير ، ويدفع بعمليات التحول فى طريق

تحقيق الغرض منها .

وهذه الحقيقة قد سبقنا إليها الكثير سواء على النطاق الخارجى أو على النطاق المحلى . ففى دراسة أجراها عالم الاجتماع الأمريكى فريدريك هاربيسون فى ٧٥ بلداً نامياً بهدف التعرف على أهم مشكلاتها وصل إلى نتائج معينة أجملها فيما يلى :

« . . إن تقدم أى أمة من الأمم يعتمد أولاً وقبل كل شىء على تقدم شعبها ؛ فما لم تُنم الأمة روح الشعب والطاقات البشرية فهى غير قادرة على أن تنمى أى شىء آخر ماديًّا أو اقتصادياً أو سياسيًّا أو ثقافيًّا .

المشكلة الأساسية لمعظم الدول النامية ليس الفقر فى الموارد الطبيعية فقط وإنما التخلف فى الموارد الإنسانية ، ومن هنا كان واجبها الأول هو بناء الأفراد أو بناء رأس المال البشرى . ومعنى هذا رفع مستوى التعليم والمهارات وبث الأمل فى نفوس الناس ، ومن ثم تحسين الصحة العقلية والجسمانية لرجالها ونسائها وأطفالها . .

ويلتقى الدكتور إبراهيم إمام وهذا المعنى فيقول :

« التحول الاجتماعى ليس معناه أموالاً تنفق ؛ وإنما يعنى تحرير الإنسان من ربقة الشخصية التقليدية الجامدة : فهى عملية تحول إنسانى أو تحرير للشخصية الإنسانية ، فلا يمكن أن يتغير المجتمع إلا إذا تغيرت شخصيات الأفراد ، وأصبحت متقبلة للتغيير ، مقدمة عليه بتطلع وتفاؤل .

ونخلص من هذا إلى أن جانب الاهتمام بالبشر– من أهم جوانب عملية التنمية ؛ فإن تحقيق أهداف التنمية ليس بالمال وحده ؛ فقد يوجد المال الذى يكفى الوفاء بكل متطلبات التنمية فى مجال الزراعة والصناعة والخدمات وبرغم هذا فإن أهداف التنمية لا تتحقق بالصورة المرجوة ، بل إن الكثير من الأموال التى تنفق قد تضيع بدون أية نتائج إيجابية ، وذلك لعدة أسباب نتعرض لأهمها :

أولاً : حتى تنجح التنمية يجب أن يكون عند الناس الدافع لها . ونقصد هنا جماهير الناس ، وليس الحكام فقط ، لابد أن يكون عندهم رغبة فى الإبداع والتطور وأن تكون هناك قوة دافعة يمكن تطبيقها فى نواحى الحياة المختلفة .

ثانياً : إن من أهم أهداف التنمية زيادة الدخل القومى بنسب عالية وفى الوقت نفسه ، فإن من مهام التنمية النهوض بالخدمات الطبية والعلاج . وقد يحدث فى أغلب الأوقات تعارضٌ بين هذين الهدفين ؛ فإن النهوض بالرعاية الصحية يقلل من عدد الوفيات على حين أن عدد المواليد كما هو ، بل قد يزيد نظراً لتكاثر عدد (الزيجات) كنتيجة لزيادة عدد الأفراد الذين يكتسبون من عملهم بفضل المشروعات الجديدة التى يتم إنجازها . وبذلك يتزايد عدد السكان بما قد يمتص أية زيادة تتحقق فى الدخل القومى ، بل قد تزيد نسبة تزايد السكان عن نسبة الزيادة فى الدخل القومى ، فيتجه البلد إلى مزيد من الفقر .

ثالثاً : إن إنجاز خطط التنمية بما تحققه من التحول من مجتمع راكد إلى مجتمع متحرك سريع التغير لابد أن ينتزع الناس من نمط حياتهم الثابتة التى كانت لهم فيها مكانة ما مهما تكن متواضعة والتى تعتمد أساساً على النسب ؛ لتلقى بهم فى نمط حياة جديدة تمتاز بسرعة الإيقاع ولا مكانة فيها إلا للعمل والإنتاج . فيجد الناس أنفسهم قد فقدوا الحماية التى كانوا يجدونها فى صلات القربى ، وفقدوا العناية التى كانوا يستمدونها من قانون ثابت للسلوك كان يسلم به المجتمع .

رابعاً : أغلب مشروعات التنمية من النوع الطويل الأمد الذى لا يحقق عائداً سريعاً ؛ فلا يغطى التطلعات السريعة للناس . وهذا ما تعرض له دانيل ليرنر فى مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه « زوال المجتمع التقليدى . . التحضر فى الشرق الأوسط – طبعة عام ١٩٦٦ » وذلك بحديثه عن ثورة التطلعات التى حدثت فى الخمسينيات ثم ثورة الإحباطات التى حدثت فى الستينيّات وذلك بالنسبة للدول

النامية التى قام بدراسة ظروف التحول فيها .

وينتج عن كل هذه الأسباب أن الأفراد قد يصلون إلى حالة لا يحسون فيها بأى طائل من وراء التنمية . وقد تخلق حالة من السخط عند فئات كثيرة من الناس وخاصة الذين لم يستفيدوا سريعاً من عمليات التنمية وقد يتحول هؤلاء إلى عناصر معوقة لعمليات التنمية بدلاً من أن يكونوا عناصر دفع وتدعيم .

لهذا فإن الاهتمام بتغيير البشر يصبح ضرورة من الضروريات الأساسية لعمليات التنمية ؛ حتى يقبل الناس على الإسهام فيها بكل ما يمتلكونه من حماس وإخلاص وفناء .

ومن ثم يكون على الدول التى تمارس التنمية ومنها مصر أن تعمل باهتمام شديد على تغيير عقول الناس لخلق الإنسان العصرى الذى يمكنه الدفع بعمليات التنمية وتحقيق أهدافها والتأقلم مع التغيير الذى تحققه . .

ولا جدال فى أن هذا واجب جميع أجهزة الدول ومؤسساتها وخاصة أجهزة ومؤسسات الثقافة والإعلام والتعليم ، فعليها جميعاً الاهتمام بهذا . وإن الاهتمام الأساسى فى هذا البحث هو التعرف على الطريق السليم لتحقيق هذا الهدف من خلال التعرف على دور الفيلم التسجيلى فى هذا الشأن . . وإنه إذا كان هذا الهدف منوطاً بجميع أجهزة الثقافة والإعلام والتعليم فى مصر كما سبق وألمحنا . . فنى اعتقادنا أن الفيلم التسجيلى هو من أهم وسائل الإعلام بالنسبة لتحقيق هذا الهدف : فالفيلم التسجيلى يكتسب إزاء هذا الهدف إمكانات هائلة قد لا تحظى بها أية وسيلة أخرى فى ظروفنا الحالية . وهذا ما سندلل عنه فيما بعد . . وإنه حتى يتسنى لنا الإحاطة بجميع جوانب الموضوع يتعين علينا أن نتعرض لعدة عناصر . .

سنحاول فى البداية التعريف بالفيلم التسجيلى ووظائفه . . ثم نتعرض للدراسات الخاصة بتأثير الفيلم التسجيلى . . ثم نتحدث عن إمكانات الفيلم

التسجيلي فى ظل الظروف التى يمر بها بلدنا . . ثم علينا بعد ذلك محاولة اكتشاف دور الفيلم التسجيلي والمجالات التى يجب عليه طرقها ، ثم نحاول بعد ذلك التعرض إلى المشاكل التى قد تعترض تحقيق هذا ، وسنخصص لكل عنصر من هذه العناصر فصلاً ، ثم نقدم فى آخر الكتاب دراسة خاصة عن الفيلم التسجيلي فى مصر . .

الفصل الأول

الفيلم التسجيلى ووظائفه

إنه حتى يمكن التعرف على الفيلم التسجيلى لابد لنا أن نتكلم عن السينما بوجه عام ونستعرض تاريخها بإيجاز . .

يعرف قاموس ويستر الدولى الثالث (١٩٦١) السينما بأنها :

(عرض لقصة أو أى موضوع بالصور المتحركة بمصاحبة صوت مسجل ومتزامن مع الصور)

ثم ينتقل القاموس لتعريف الصور المتحركة بأنها :

(مجموعة من الصور تعرض على العين فى تتابع سريع خاصة لأجسام فى لحظات متتابعة من حركتها . . وكل صورة بها تغيير ضئيل عن سابقتها بحيث تؤدى سرعة تتابع الصور مع نظرية استمرار الرؤية إلى التأثير البصرى بالحركة) . .

فالسينما إذن تقوم على نوع من الخداع البصرى . . والأفلام فى حقيقة الأمر

لا تعرض صوراً متحركة ، وإنما تعرض صورا تبدو للعين كما لو كانت تتحرك وهى فى الحقيقة صور ثابتة تسجل كل منها مرحلة من مراحل الحركة فى حالة ثبات . . وإنه بعرض هذه الصور الثابتة فى تتابع سريع تعمل نظرية استمرار الرؤية على خلق الخداع بالحركة . .

هذه هى الفكرة التى تعتمد عليها السينما بجميع أنواعها سواء الروائية أو التسجيلية ، وقد تم تحقيق هذا بعد عشرات السنين من الأبحاث والمحاولات والاختراعات : فمنذ أن أهدى نيسيفور نيبسى للعالم صورة (المائدة الجاهزة) عام ١٨٢٨ – وهى أول صورة فوتوغرافية فى العالم – هناك مجهودات وأبحاث وتجارب تجرى فى مختلف أنحاء العالم من أجل تحريك الصور الثابتة التى تلتقطها آلة التصوير الفوتوغرافى . .

ولا يعنينا فى هذه الدراسة التعرض بالتفصيل لهذه المحاولات ، وكل ما يعنينا هو أن هذه المحاولات استمرت حتى عام ١٨٩٥ . ففى ٢٨ من ديسمبر من ذلك العام قدم الفرنسى لويس لوميير أول فيلم سينمائى فى العالم ليسجل تاريخ ميلاد السينما . . وكان الفيلم اسمه (الخروج من المصانع) وهو مجرد فيلم إخبارى يسجل لحظة خروج العمال من المصانع وقد تلا ذلك تنفيذ سلسلة من الأفلام المشابهة نذكر منها (حارقات العشب وغذاء الطفل . . ووصول القطار) وكلها أفلام إخبارية تسجل أحداثاً واقعية عادية . . ثم بدأت السينما بعد ذلك تهتم بتسجيل الأحداث الهامة . . وكان أول فيلم من هذا النوع تتويج القيصر نيقولا الثانى فى ربيع عام ١٨٩٦ . .

وفى عام ١٨٩٧ قام أحد معاونى لويس لوميير بتصوير ثلاثين فيلماً عن حفلات مدرسة الفرسان الشهيرة فى باريس . . ولقد ظلت الأفلام لفترة لا تتعدى مجرد التسجيل الإخبارى للأحداث الواقعية إلى أن أخرجها شخص اسمه (جورج ميليه)

عن هذا الإطار إلى إطار آخر هو محاولة سرد قصة مستعملا مصادر فن آخر هو المسرح . . فدفع السينما إلى طريقها المسرحى المشهدى على حد تعبيره هو شخصياً . . وبذلك دخلت السينما فى أول طريق الأفلام الروائية . .

من هذا السرد الموجز لأحداث الشهور الأولى من تاريخ السينما يتضح لنا أن السينما بدأت تسجيلية ، وأن الأفلام الأولى فى تاريخ السينما كانت أفلاماً تسجيلية من النوع الإخبارى ، وقد كان هذا شيئاً طبيعيًّا . فإن كل هدف مخترعى السينما فى ذلك الوقت كان مجرد التوصل إلى وسيلة لتحريك الصور الثابتة التى تلتقطها آلة التصوير الفوتوغرافى . والذى نحب أن نؤكده هنا أن اتجاه السينما إلى هذا النوع من التسجيل الإخبارى لم يتوقف حتى بعد ظهور الاتجاه الروائى الذى بدأه جورج ميليه . . إلا أن كل الأفلام التى صورت فى تلك الفترة التى امتدت حتى عام ١٩١٣ سواء ما كان منها مجرد تسجيل للأحداث أو محاولة لعرض قصة معينة كانت كلها تجارب لفنانى السينما الأول ، وكانت هى المرحلة التى أرست قواعد السينما كفن قائم بذاته له لغته الخاصة وله سماته المميزة . . وبرغم أنه قد أخذ من كل الفنون التى سبقته فإن رواده الأول استطاعوا أن يستقلوا به ، ليصبح بعد ذلك أكثر هذه الفنون شعبية واتصالاً بالجماهير . ولا يفوتنا أن نسجل أنه فى نهاية هذه الفترة أى فى عام ١٩١٢ ظهر أول فيلم تسجيلى متكامل هو اكتشاف سكوت للقطب الجنوبى الذى سجل الأحداث الهامة التى وقعت عام ١٩١٠ فى أثناء عمليات اكتشاف القطب الجنوبى وأخرجه المخرج الإنجليزى هوبرت بونتج .

ويعتبر عام ١٩١٣ بدء مرحلة جديدة بالنسبة للسينما : ففى ذلك العام بدأت السينما تتخلص من فيلم البكرة الواحدة وتتجه إلى الأفلام الطويلة التى يتم تصويرها على أكثر من بكرة . ويقول المؤرخ السينمائى ليام أوليرى فى كتابه (السينما الصامتة) : إن هذا إلى جوار أنه أطال فى زمن الفيلم فإنه أيضاً أتاح التوسع فى

حجم الموضوعات التى يتم علاجها . وإن كان هذا قد تم فى الأصل لمصلحة الفيلم الروائى فإنه أفاد أيضاً فى الفيلم التسجيلى ، فأصبح فى الإمكان مع طول زمن الفيلم ألا يكتفى بالتسجيل الإخبارى للأحداث ، إنما يمكن أيضاً معالجة هذه الأحداث من زوايا مختلفة . . وبذلك بدأ الفيلم التسجيلى يتحرر من الناحية الخبرية المحضة إلى ناحية الخلق والإبداع الفنى إلا أن حركة الفيلم التسجيلى فى تلك الفترة سادها البطء الشديد نظراً لاتجاه رأس المال الكبير إلى الإنتاج السينمائى طمعاً فى الربح ، فكان من الطبيعى أن يزدهر الفيلم الروائى الذ يحقق الأرباح السريعة على حساب الفيلم التسجيلى . . وأصبح لا يتجه إلى الفيلم التسجيلى سوى الهواة من محبى الرحلات والأسفار والمولعين بالتجريب من مبتدئى الإخراج والتصوير . .

وقد استمر هذا الوضع حتى بداية العشرينيات : فى عام ١٩٢٢ فاجأ شخص اسمه روبرت فلاهرتى جماهير السينما فى نيويورك بفيلم تسجيلى طويل اسمه (نانوك ابن الشمال) عن حياة الإسكيمو . . وقد حقق هذا الفيلم نجاحاً كبيراً فى أمريكا وفى أوربا ورحب به نقاد السينما وكتبوا الكثير عنه .

والحقيقة أن هذاالفيلم كان بداية مرحلة جديدة بالنسبة للفيلم التسجيلى : فعلى إثر النجاح الذى حققه ظهرت حركة نشيطة للفيلم التسجيلى فى أوربا وأمريكا ، وكان من أهم أقطابها جون جريرسون فى إنجلترا وهو من أعظم مخرجى الفيلم التسجيلى وواضع قواعده ونظرياته .

واتسعت حركة الأفلام التسجيلية بعد ذلك وامتد أثرها إلى المدارس والمعاهد والجامعات والكنائس ومراكز البحث العلمى ؛ كما بدأت تتسع مجالات تأثيره من النطاق المحلى إلى النطاق الدولى ؛ ليصبح أحد الوسائل الحيوية للتعارف الدولى بين شعوب العالم . .

وبدأت الأفلام التسجيلية تفرض نفسها على برامج العرض فى دور السينما فى مختلف أنحاء العالم ثم بعد ظهور التليفزيون أصبحت تحتل أهمية أكبر فى برامجه المختلفة . .

خصائص الفيلم التسجيلى

يعرف جريرسون الفيلم التسجيلى بأنه العلاج الإبداعى للحقائق أو موضوعات الساعة . . وقد تحدث جريرسون عن خصائص الفيلم التسجيلى فى بيان أصدره عام ١٩٣٦ ، ونشر فى مجلة السينما الفصلية كما نشر فى كتاب السينما التسجيلية عند جريرسون تأليف فورسايت هاردى الذى ترجم إلى العربية . . وقد حدد جريرسون هذه الخصائص فى الآتى :

١ – اعتماد الفيلم التسجيلى على التنقل والملاحظة والانتقاء من الحياة نفسها . فهو لا يعتمد على موضوعات ممثلة فى بيئة مصنعة ؛ كما يفعل الفيلم الروائى ، وإنما يصور المشاهد الحية والوقائع الحقيقية . .

٢ – أشخاص الفيلم التسجيلى ومناظره يختارون من الواقع الحى ، فلا يعتمد على ممثلين محترفين ، ولا على مناظر صناعية مفتعلة داخل الإستديو .

٣ – مادة الفيلم التسجيلى تختار من الطبيعة رأساً دون ما تأليف أو محاكاة ، وبذلك تكون موضوعاته أكثر دقة وواقعية من المادة الممثلة . .

بذلك نكون قد تعرفنا على الفيلم التسجيلى وخصائصه وبقى أن نتعرف على أهم وظائفه . .

وظائف الفيلم التسجيلى

الحقيقة أن للفيلم التسجيلى وظائف كثيرة ومتنوعة . . وسنكتفى هنا بعرض أهمها وأقربها إلى دراستنا هذه . . أى التى تتصل بدور الفيلم التسجيلى فى بناء الإنسان فى الدول النامية وهذه الوظائف هى :

١ – وظيفة التسجيل التاريخى :

. . فمن خلال الفيلم التسجيلى يمكن تسجيل جميع الأحداث والوقائع التى يراد الاحتفاظ بها كمستند تاريخى . . وهذه الوظيفة طبيعية يقوم بها الفيلم التسجيلى سواء كان هذا يدخل فى تخطيط من يعدون هذه الأفلام أو لا يدخل . . فالأفلام الأولى التى صورها لوميير مثلاً والتى حققت ميلاد السينما تعتبر الآن فى جوار أهميتها كتراث سينمائى يدرس فى معاهد السينما فإنها أيضاً تعد من أهم السجلات التاريخية التى تعرض لنا صوراً من الحياة الرسمية والاجتماعية لفرنسا فى نهاية القرن الماضى . . وهذا بالطبع لم يكن يدخل فى اعتبار لويس لوميير أو معاونيه . . وهذه الوظيفة تؤدى غرضين فى غاية الأهمية : فمن خلال هذا التسجيل التاريخى الذى يحفظ لنا أحداث وواقع أية فترة زمنية بالصور المتحركة يمكننا تقويم هذه الفترة للاستفادة من خبراتها بما يخدم الحاضر ، كما أن التسجيل يفيد كثيراً فى الربط بين الأجيال ونقل التراث والوصل بين الماضى والحاضر بما يساعد على عملية التطبع والتنشئة الاجتماعية . .

٢ – الإعلام :

. . وهو يعد من الوظائف الهامة التى يؤديها الفيلم التسجيلى . . وهى إعطاء المعلومات الموضوعية للناس . . وتزويدهم بالأخبار . . ويدخل فى ذلك التعريف بالبيئة المحيطة مع تقديم التفسيرات المناسبة والتوجيهات اللازمة . .

وهذه الوظيفة تؤدى عدة أغراض أهمها : أنها تزود الناس بمعلومات تفيدهم إما فى الحاضر أو فى المستقبل ، كما أنها تساعدهم على تكوين رأى عام يؤيد المشروعات التى تقوم بها الدولة سواء كانت مشروعات اجتماعية أو اقتصادية . . وفوق هذا فإنها تحذر الناس من الأخطار التى تواجههم فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؛ كما تساعدهم على مواجهة التحديات التى تعترضهم . . وكذلك تساعد على رفع روحهم المعنوية بالإعلام عن المنجزات التى تمت فى مختلف المجالات ومدى نجاحها . .

ويفيد الفيلم التسجيلى أيضاً فى الإعلام الخارجى للدعاية عن البلد فى الخارج ، ويدخل فى هذا مثلاً الدعاية السياحية لتشجيع مجىء السياح والدعاية عن السلع لتشجيع التصدير ، والدعاية السياسية لخلق رأى عام عالمى حول القضايا التى تهم البلد . .

٣ – التعليم :

. . ولعل هذا أهم مجال يمكن أن يوظف الفيلم التسجيلى لخدمته وخاصة فى مصر والدول النامية ، والذى نحب أن نؤكده هنا أن الإمكانات المذهلة للتصوير السينمائى من حيث الوسائل الحرفية التى تستخدم فى تعديل الزمن الخاص بالفيلم أى التصوير بسرعة عالية والذى ينتج حركة بطيئة على الشاشة . . والتصوير

بسرعة بطيئة والذى ينتج حركة سريعة على الشاشة – هــــذه الإمكانات تعطى الفيلم التسجيلى قدرات تعليمية هائلة قد تعجز عنها أية وسيلة أخرى . . ومن ثم فإن إدخال الأفلام التسجيلية فى التعليم قد أدى إلى تغييرات فى الأسلوب التربوى أكثر فعالية من تلك التى أنجزها أى اختراع من اختراعات القرن التاسع عشر الأخرى القائمة على إنتاج الصور ، وهى التصوير الفوتوغرافى الثابت وعمل الكليشيهات بالطرق الميكانيكية . . فإذا كان اختراع الطباعة على يد جوتنبرج قد أتاح قيام التعليم المدرسى المنظم القائم على المناهج الواحدة فى جميع أنحاء الوطن الواحد فإن إدخال الأفلام التسجيلية فى المدارس يعد مرحلة جديدة تقفز بالتعليم قفزة كبيرة .

وقد أدركت الدول المتقدمة أهمية دور الفيلم التسجيلى فى التعليم منذ فترة طويلة ، وأصبحت الأفلام جزءاً أساسياً من برامجها فى المدارس لدرجة أن دولة مثل بريطانيا استأجرت فى عام ١٩٥٤ خمسين ألف فيلم لاستخدامها فى البرامج التعليمية فى المدارس . .

هذه هى أهم الوظائف التى يمكن أن يؤديها الفيلم التسجيلى بوجه عام . . ونحب أن نشير فى النهاية إلى أن هذه الوظائف الثلاثة تلتقى هى والوظائف التى حددها هارولد لازويل للاتصال الجماهيرى . . وهذه الوظائف هى :

١ – مراقبة البيئة ومعاينتها أو تغطيتها . .

٢ – الترابط بين أجزاء المجتمع فى الاستجابة للبيئة . .

٣ – نقل التراث الاجتماعى من جيل إلى آخر . .

الفصل الثانى

تأثير الفيلم التسجيلى

تتناول دراسة تأثير الفيلم التسجيلى مجالين مختلفين :

المجال الأول : يهتم بتأثير وسائل الاتصال الجماهيرى بوجه عام ويدخل ضمنها الفيلم التسجيلى . .

والمجال الآخر : يهتم بتأثير الفيلم التسجيلى بوجه خاص ، وهناك دراسات مختلفة فى كل من هذين المجالين سنتعرض لها بإيجاز . .

* يتعلق المجال الأول بما يعرف بالنظرية الوظيفية فى دراسة الاتصال الجماهيرى ، وهناك نظريتان تحكمان هذا الموضوع :

نظرية قديمة تعرف بالنظرية الكلاسيكية ظهرت فى الربع الأول من هذا القرن .

ونظرية حديثة تعرف بالنظرية السوسيولوجية ظهرت فى أوائل الأربعينيات وسادت فى أواخرها . .

* والمعروف أن القرن الذى نعيشه يمتاز بما تواتر المحللون على تسميته بثورة الاتصال . فقد انتشرت فيه وسائل الاتصال الجماهيرى على نطاق واسع ، وظهرت فيه وسائل جديدة تعتمد على الرؤية والسمع معاً وذات إمكانات هائلة فى تخطى حدود الزمان والمسافة . . وهذا دفع الباحثين إلى محاولة معرفة الدور الذى تؤديه هذه الوسائل فى المجتمعات المختلفة ومدى تأثيرها على الأفراد واتجاهاتهم وسلوكهم . وفى البداية سادت النظرية الأولى ، وهى ترى أن لوسائل الاتصال الجماهيرى تأثيراً مباشراً وقويًّا على الأفراد . وكان مبرر هذا الرأى هو الصورة التى استُخدمت بها وسائل الاتصال الجماهيرى فى الحرب العالمية الأولى لدرجة أن الباحثين فى مجال الاتصال أحسوا بضخامة الإمكانات التى تكمن فى أجهزة الاتصال الجماهيرى ، ومن ثم فإن هذه النظرية لم تكن تنظر إلى الاتصال الجماهيرى على أنه عملية تخضع لمؤثرات اجتماعية عديدة ، وتتحكم فى نتائجها عوامل مختلفة قد تكون خارجة عنها تماماً . بل كانت ترى أنها تؤثر فى الأفراد بشكل مباشر مثل الحقنة التى تعطى تحت الجلد .

* وقد سادت هذه النظرية حتى بداية الأربعينيات ، ثم أثبتت بعض الدراسات التى أجريت فى ذلك الوقت عدم صحتها من حيث التأثير المباشر . وقد أثبتت أن هناك ثلاثة عناصر تتحكم فى الأفراد عند استقبالهم للرسائل التى تبعثها وسائل الاتصال الجماهيرى ، وأن هذه العناصر تتدخل فى تحديد الاستجابات المختلفة بالنسبة لكل فرد منهم ، وهذه العناصر هى :

١ – الحالة الشخصية للفرد .

٢ – الجماعات التى ينتمى إليها ومدى ارتباطه بمعايير هذه الجماعات .

٣ – الموقف الذى يتلقى فيه الرسائل .

* ومن أهم الدراسات المتقدمة فى هذا الشأن تلك الدراسات التى أجراها

المؤرخ الأمريكي فرانك لوثر موت سنة ١٩٤٠ وأجرى فيها تحليلاً دقيقاً لموقف الصحف الأمريكية من انتخابات الرياسة الأمريكية فى الفترة ما بين سنة ١٨٧٢ وسنة ١٩٤٠ . . وتوصل من هذه الدراسة إلى أنه ليس هناك ارتباط بين تأييد الصحف والفوز فى الانتخابات . .

* وقد تلت ذلك دراسات أخرى قام بها لازرسيفيليد وبريلسون وجوديت عام ١٩٤٨ ، وقد أدت هذه الدراسات إلى تغيير وجهة النظر القديمة وظهور النظرية الحديثة التى تقول : إن وسائل الاتصال لا تؤثر بشكل مباشر ، وإنما تعمل من خلال عوامل وسيطة قد تكون خارجة عن عوامل الاتصال ذاتها ، فهى تؤدى دورها كعامل مكمل لأحداث التأثير . وإن كان هذا لا يقلل من أهميتها فقد تكون هى العامل الرئيسى لإحداث التأثير ، بل قد تكون هى السبب الوحيد الذى ينتج عنه التأثير . .

* وفى عام ١٩٥٨ نشر جوزيف كلاير مقالاً عن آثار وسائل الاتصال الجماهيرى فى مجلة الرأى العام الفصلية عرض فيه خلاصة البحوث والدراسات التى أجريت حول هذا الموضوع خلال السنوات السابقة لتاريخ نشر المقال منذ بَحْث لازرسيفالد وزميليه . . وقد استعرض كلاير أهم ما وصل إليه من نتائج خلال دراسته ، ونوجز النتائج التى توصل إليها كلاير فيما يلى :

١ – وسائل الاتصال الجماهيرى عادة لا تؤثر بشكل مباشر فى جماهيرنا ؛ وإنما تعمل من خلال مجموعة من العوامل الوسيطة .

٢ – قد تعمل وسائل الاتصال فى خدمة التغير ، وهذا يحدث فى حالتين :

الأولى : إذا ماكانت العوامل الوسيطة غير ذات فاعلية ، وبذلك يكون لوسائل الاتصال الجماهيرى تأثيرٌ مباشر.

والأخرى حينما تكون العوامل الوسيطة نفسها دافعة ومؤيدة للتغيير . .

٣ – هناك بعض وظائف نفسية وفيزيائية تقوم بها وسائل الاتصال الجماهيرى بنفسها وتنتج آثاراً مباشرة .

٤ – إن فاعلية وسائل الاتصال الجماهيرى سواء كانت عاملاً مكملاً أو كعامل للتأثير المباشر تتأثر بعضها ببعض ، كما تتأثر بموقف الاتصال نفسه بما فى ذلك طريقة عرض الموضوع وطبيعة المصدر والمناخ السائد فى الرأى العام وما إلى ذلك . .

* ونخلص من هذا إلى أن النظرية الحديثة قد نفت كون الجماهير كائنات سلبية فى صلتها بوسائل الاتصال الجماهيرى ، فهى لا تتعرض لها بسهولة أو بشكل تلقائى ؛ وإنما تتعرض لها بشكل إرادى ، وتتحكم فى هذا عوامل كثيرة بعضها خارج عن الأفراد أنفسهم مثل العوامل . . التكنولوجية كما هى الحال فى الدولة المتخلفة أو عوامل سياسية كما هى الحال فى الدول التسلطية أو عوامل اقتصادية كما هى الحال فى عدم تيسر الإمكانات اللازمة لشراء أجهزة راديو أو تليفزيون أو إنشاء دار سينما ، ويكون على الأفراد لكى يتعرضوا لوسائل الاتصال الجماهيرى أن يبذلوا جهداً خاصاً كالانتقال إلى المدينة لمشاهدة السينما أو لشراء جريدة مثلاً ، وهنا تعمل القاعدة التى تقول : إن الاختيار متوقف على العلاقة بين الفائدة التى ينتظرها المستقبل من جهة والجهد الذى يبذله من جهة أخرى .

$$\text{الاختيار} = \frac{\text{الفائدة المرجوة من الرسالة}}{\text{الجهد المبذول فى الحصول عليها}}$$

* وهناك عوامل أخرى تتحكم فى تعرض الأفراد لوسائل الاتصال الجماهيرية ، وتتصل بالأفراد أنفسهم ، ومنها عوامل اختيارية مثل عدم الاهتمام بموضوعات معينة ، ومنها أيضاً عوامل ثقافية كما لو كانت المادة المقدمة فوق مستوى الجماهير . كل هذه العوامل تتضافر فى تحديد مستوى ونوع استجابة الأفراد لما يقدم فى وسائل الاتصال الجماهيرى ويحدد مدى تأثيرها .

* هذا بالنسبة لدراسة أثر الفيلم التسجيلى من خلال الدراسة لأثر وسائل الاتصال بشكل عام . .

أما بالنسبة لأثر الفيلم التسجيلى بوجه خاص أى كعملية قائمة بذاتها فهناك عدة دراسات ميدانية أجريت فى هذا الموضوع وتوصلت إلى نتائج محددة . وأهم هذه الدراسات تلك التى قام بها كارل هوفلاند ولمسدين وشيفلد فى أثناء عملهم فى القوات المسلحة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية : فقد قاموا بإجراء عدة تجارب عن تأثير الأفلام التسجيلية التى أعدت لتثقيف الأمريكيين للمشاركة فى الحرب . وكانت تعرض عليهم تحت عنوان « لماذا نحارب ؟ » وقد أثبتت هذه الدراسات أن الأفلام كانت مؤثرة وفعالة تماماً فى مجال تغير الرأى فى بعض جوانبه ، ومن ذلك تغيير بعض تفسيرات الأفراد للأحداث . . أو إمدادهم بوقائع ومعلومات جديدة . وكانت هذه التغييرات فى الرأى مرتبطة أساسا بالمادة الإعلامية التى تتضمنها الأفلام والتى عرضت ضمن هذه السلسلة .

* ومن الأعمال الرائدة فى هذا المجال الدراسة التى أجراها ترستون : فقد قام بإعداد اختبارات طبقها على طلبة المدرسة الثانوية فى ولاية أنيوى بأمريكا كما طبقها أيضاً على أطفال دار من دور الحضانة ، وذلك قبل عرض مجموعة من الأفلام المختارة وبعدها . . وكان الهدف من ذلك هو قياس أثر الأفلام ، وكانت الاختبارات المستخدمة تتمثل فى مقاييس اتجاهات ، وقد أسفرت الدراسة عن أن الأفلام لها تأثير فى تغيير الرأى .

* وهناك اختبارات مشابهة أجريت لدراسة أثر مشاهدة الأفلام بوجه عام سواء التسجيلية أو الدرامية . . ومن هذه الاختبارات ما أجراه هلت لدراسة تأثير بعض الأفلام المختارة على الرأى العام المحلى ، وذلك عن طريق المقابلة مع عينة من مجتمع جامعى وسط الغرب الأمريكى ، وذلك قبل وبعد مشاهدة الأفلام . وقد

وجد الباحث أن هناك بعض تغييرات حدثت فى الآراء . .

* وهناك دراستان أجريتا فى مصر ، وتجب الإشارة إليهما لاتصالها فى بعض جوانبهما بهذا الموضوع :

الأولى هى رسالة الدكتوراه التى تقدم بها الدكتور يوسف الحارونى بعنوان دور وسائل الإعلام فى خلق النظرة العلمية فى مصر.

والأخرى هى الدراسة التى قام بها الدكتور محمود عودة عن أساليب الاتصال فى التغير الاجتماعى .

* وبرغم أن هاتين الدراستين فى مجال اهتمامهما بالسينما اهتمتا أساساً بدراسة نمط انتشارها ودراسة أثر مشاهدة السينما عامة دون أن تهتم بأثر مشاهدة أفلام معينة بذاتها كما فعل هوفلاند والآخرون فإن النتائج التى توصلت إليها الدراستان بالنسبة للتأثير جديرتان بالإشارة وسنتعرض لها فى إيجاز . .

أولا : دراسة الدكتور الحارونى قد اختار لها عدداً مناسباً من العينات المختلفة التى تمثل البيئات الأساسية فى مصر وهى البيئة الزراعية والبيئة الصناعية والبيئة الثقافية . . وكانت أبرز النتائج التى لمسها إزاء مشاهدة الأميين للسينما إضفاء نوع من النضج والتفكير العلمى واستثارة حب الاستطلاع وتنمية الروح الاجتماعية وتقدير الجوانب الحضارية .

آخراً : دراسة الدكتور محمود عودة قد اختار لها عينة من إحدى القرى مركز كفر الزيات محافظة الغربية . . وكانت أبرز النتائج التى توصل إليها أن هناك علاقة بين الذهاب إلى السينما والتردد على القاهرة ، كما أن هناك ارتباطا بين مشاهدة السينما وتعديل بعض الاتجاهات كتنظيم الأسرة ، وتبنى بعض التجديدات كمشروع التأمين على الماشية . .

وأيًّا كان الأمر بالنسبة لكل هذه الدراسات فى رأيى أنها نجحت فى إعطائنا

المؤشرات التى تساعدنا فى تفهم أثر الفيلم ، وخاصة الأفلام التسجيلية على الأفراد وسلوكهم واتجاهاتهم وتبقى بعد ذلك كل حالة مستقلة بظروفها ومميزاتها : فالفيلم الذى قد لا يؤثر فى مجتمع معين قد يحقق تأثيراً كبيراً فى مجتمع آخر ، وهذا الأمر يتعلق بعوامل كثيرة منها : الموقف الاتصالى نفسه ، وموقف المتعرض للاتصال ، وارتباطاته المرجعية وظروفه الاجتماعية كما سبق أن أشرنا . . كما أنه يتعلق بعاملين آخرين مهمين هما :

١ – حرفية العمل فى الفيلم التسجيلى نفسه ومدى التزامه بالاشتراطات الفنية والإجرائية الواجب اتباعها كعملية فنية وكعملية اتصالية فى الوقت نفسه .

٢ – مدى ملاءمة الفيلم التسجيلى كوسيلة اتصال لمجتمعات معينة كالمجتمعات النامية التى هى موضوع اهتمامنا فى هذه الدراسة .

الفصل الثالث

إمكانات الفيلم التسجيلى

بالنسبة لهذا الموضوع هناك عدة حقائق ينبغى علينا التعرض لها فى البداية ، وبعضها يتصل بطبيعة الفيلم التسجيلى نفسه ، وبعضها يتصل بطبيعة الظروف .

- **الحقيقة الأولى** : هى أن الفيلم التسجيلى وسيط سينمائى ، فهو بذلك يكتسب كل إمكانات السينما كوسيلة اتصال جماهيرية .

الحقيقة الثانية : هى أن الفيلم التسجيلى وسيط واقعى ، فهو يعتمد على الواقع الحقيقى بلا تزييف ، وبذلك يكتسب إمكانات إقناع كبيرة .

الحقيقة الثالثة : هى أن الفيلم التسجيلى يعتمد على تصوير دراما الحياة اليومية للناس الحقيقيين ، فلا يعتمد على الممثلين المحترفين ، وهو بذلك يكتسب إمكانات تشويق وإثارة اهتمام الناس بشكل كبير لو أجيد إخراجه فنيًا .

الحقيقة الرابعة : هى أننا فى بلد تشكل فيه الأمية نسبة كبيرة . ومن ثم تصبح

أدوات الثقافة المطبوعة مثل الكتاب والجريدة والنشرة غير ذات أهمية كبيرة بالنسبة لأغلب فئات الشعب .

الحقيقة الخامسة : هى أن التليفزيون الذى يعد من أخطر أجهزة نشر الثقافة فى العصر الحديث لم يصل بعد إلى ريف بلدنا الذى يضم الغالبية العظمى من الشعب بكفاءة مؤثرة ، وتصبح الإذاعة الصوتية هى الجهاز الوحيد الذى يصل بتأثيره الكبير إلى الريف ، فإذا علمنا أن الإنسان يستمد ثمانية أعشار معلوماته عن طريق حاسة البصر ، ويستمد النسبة الضئيلة الباقية عن طريق باقى حواسه ومنها السمع علمنا أهمية وخطورة الوسائل المرئية فى نشر الثقافة والتعليم والإرشاد فى ريف بلدنا .

وانطلاقاً من هذه الحقائق الخمس تبرز لنا الإمكانات الجبارة التى يتميز بها الفيلم التسجيلى ، ونتعرض لها كالآتى فى إيجاز .

أولاً : الفيلم التسجيلى وسيط مرئى مسموع يعتمد أساساً على الصورة ، وهى لغة عامة يفهمها المتعلم والأمى على السواء ، وهى بالنسبة للأمى أكثر تأثيراً من أية وسيلة أخرى ، وإن صورة واحدة خير من ألف كلمة كما قال كونفوشيوس فيلسوف الصين . .

ثانياً : الفيلم التسجيلى قصير المدة عادة ، وهو يوصل رسالته سريعاً ومن أقصر الطرق .

ثالثاً : الفيلم التسجيلى يسهل توصيله إلى أى مكان عن طريق آلات العرض المتنقلة ، كما يمكن عرضه فى التليفزيون ، فنعطيه إمكان انتشار فى المناطق الريفية التى وصل إليها الإرسال التليفزيونى .

وإنه لتحديد مدى الدور الذى يؤديه التليفزيون فى نشر الفيلم التسجيلى نستشهد بالدراسة التى أجراها « مارتن إسلن » رئيس قسم الدراما بهيئة الإذاعة البريطانية

ونشرت بالعدد رقم ١١٧ من مجلة رسالة اليونسكو التى تصدر بالقاهرة تحت عنوان : « التأثير الرهيب للتليفزيون فى السبعينيات كماً وكيفاً » . . وبرغم أن هذه الدراسة عن الدراما فى التليفزيون البريطانى فإنها تفيد كثيراً فى المقارنة بين عدد المشاهدين للفيلم التسجيلى فى دور السينما أو فى أى عرض سينمائى وعدد المشاهدين له فى التليفزيون . .

وقد يحدث أن يشاهد برنامجاً من البرامج الشعبية أكثر من ثلث عدد السكان (سكان بريطانيا) أى ما بين ١٦ مليون شخص و ١٧ مليون شخص يشاهدون مسرحية واحدة أو عرضاً ترفيهياً خفيفاً أو مسلسلة .

وينبغى أن ننظر إلى هذه الأرقام فى علاقتها بأحجام المشاهدين لحادث واحد أو لعرض فنى فى العصور السابقة على ظهور وسائل الاتصال الجماهيرية . . مائة ألف متفرج على مباراة لكرة القدم . . أو على افتراض وجود مسرح يتسع لألف متفرج ويقدم ثمانى حفلات فى الأسبوع ، فى هذه الحالة يصل عدد المتفرجين إلى حوالى مليون بالنسبة لمسرحية يتصل عرضها لمدة تزيد على عامين مع اكتمال العدد .

وبهذا القياس يصل عدد المشاهدين لمسرحية تليفزيونية واحدة ناجحة إلى ما يعادل عدد المترددين على المسرح لمدة تزيد على ٣٠ سنة ، ولا يحدث هذا بصفة استثنائية ، بل يكاد يحدث كل يوم . . وأحياناً يحدث عدة مرات فى الأمسية الواحدة .

وإنه بتطبيق هذه المقارنة على الفيلم التسجيلى يبدو كيف أن التليفزيون يمكنه أن يسهم كثيراً فى نشر الفيلم التسجيلى .

رابعاً : الفيلم التسجيلى وسيط عرض جماعى : بمعنى أن العرض الواحد للفيلم يمكن أن يشاهده عدد كبير من الناس بحسب ما يستوعبه مكان العرض . وأنه يمكن الاستفادة بهذه الميزة ، وذلك بترتيب حضور أحد الإخصائيين فى أثناء

العرض ، ويقوم بإجراء مناقشة مع الحاضرين بعد انتهاء العرض ويرد على استفساراتهم . وهذا يحقق عدة نتائج نعرضها كالآتى :

١ - الإدماج بين الاتصال الجماهيرى والاتصال الشخصى ، وهذه إحدى ميزات الاتصال فى الدول العصرية المتقدمة .

٢ - دعم الرسائل التى توجهها الأفلام التسجيلية عن طريق المناقشة مع جموع المتفرجين بعد انتهاء العرض والرد على استفساراتهم . وهذا يساعد على تأكيد الرسائل التى توجهها الأفلام ، كما يساعد على تصحيح الأثر إذا كان سلبيًّا .

فهذه المناقشات التى تحدث بعد عرض الأفلام تؤكد المضامين التى تحملها هذه الأفلام ، وتزيد اقتناع المتفرجين عليها بالإرشادات والنواحى التعليمية التى تعرضها .

٣ - الحصول على شواهد رجع الصدى عند المشاهدين ومعرفة مدى تفهمهم لما قدم لهم ومدى اقتناعهم به ، ومن المسلم به أن دراسة تأثير الأفلام السينمائية أسهل من دراسة تأثير أية وسيلة أخرى مثل الصحافة والراديو والتليفزيون ، وذلك لأن مشاهدة الأفلام تتم عادة بشكل جماعى ، فجمهور الأفلام عادة يكون موجوداً بشكل مادى فى أوقات محددة هى أزمنة العرض وفى مكان عام محدد هو مكان العرض . وذلك يتيح الاجتماع بهم بعد انتهاء العرض ومناقشتهم ودراسة تأثير الأفلام عليهم . وهذا بعكس الحال بالنسبة لجمهور الصحف والراديو والتليفزيون فإنه يكون مبعثراً وفى مناطق شاسعة .

٤ - تدريب الأفراد على المناقشة والاهتمام بالموضوعات التى تتصل بهم واتخاذ قرارات فيها .

خامساً : الفيلم التسجيلى كوسيط سينمائى يكتسب - كما سبق أن ألمحنا - جميع الإمكانات الحرفية لفن السينما وجميعها إمكانات ذات فاعلية كبيرة فى عمليات التعليم ، ونعرضها هنا فى إيجاز :

١ – تركيز الانتباه : فالأفلام عادة تعمل على تركيز انتباه المشاهدين ، وذلك بحكم أنهم يشاهدونها فى مكان مظلم يبعد عن أنظارهم المؤثرات الخارجية التى قد تشرد بأذهانهم ، فيكون انتباههم مركزاً على تلك الصور الواضحة التى تعرض أمامهم على شاشة السينما .

٢ – توفير الوقت : فالأفلام تستطيع أن تعطى موضوعاتٍ متشعبة الأطراف فى أوقات قصيرة شروحاً وافية ، فإن ما قد يستدعى شرحه تخصيص عدة صفحات من كتاب يمكن عرضه فى صورة واحدة أو عدة صور تنقل كل المعلومات المطلوبة فى وقت أقصر . ولا جدال فى أن المعلومات التى يمكن استيعابها من فيلم قصير مدته ربع ساعة قد تعادل المعلومات التى يمكن الفر د استيعابها من محاضرة تستغرق ساعةً أو أكثر .

٣ – تجاوز حدود الزمن والمسافات : فتستطيع السينما أن تحطم حدود الزمان والمكان ، فهى تتعرض لأحداث التاريخ ، وترهص بالمستقبل ، وتنتقل بين جميع أنحاء العالم بلا أى قيود ، وتستطيع بالصور الحية أن تعرض للمشاهد أى أحداث أو نماذج أو أمثلة تقع فى أى مكان فى العالم ، فهى تعرض فى كل زمان ومكان كل ما يراد عرضه ، فتستطيع مثلاً أن تقدم له تجارب (الغير) من مختلف المناطق بالصورة المتحركة الحية التى تخلق عنده الإحساس بالمشاركة .

٤ – تجاوز حدود الطاقة البشرية وهذا إمكان ذو فاعلية كبيرة بالنسبة للنواحى التعليمية تتميز بها السينما عن سائر الوسائل الأخرى باستثناء التليفزيون الذى استمدها أيضاً من السينما . ويمكن بهذا الإمكان توضيح كثير من الموضوعات الغامضة التى قد يعجز الفرد عن تصورها وإدراكها بوسائل الشرح العادية .

ويرجع هذا الإمكان إلى عدة وسائل تستخدمها السينما فى عملها منها : تغيير أحجام اللقطات وزوايا التصوير ، ومنها : التصوير المكبر والتصوير عن بعد ؛

ومنها أيضاً : الرسوم المتحركة وهى من أهم الوسائل السينمائية التى يمكن توظيفها بشكل فعال فى العمليات التعليمية ، وخاصة فى تصوير الرسوم البيانية والتوضيحية مما يساعد على سهولة إدراك واستيعاب الأرقام والمعلومات الجافة التى تتضمنها .

هذا هو إمكان الفيلم التسجيلى وهو يؤكد مدى فعاليته فى مجال بناء البشر وخلق الإنسان العصرى ، بعد ذلك علينا أن نحاول التعرف على المجالات التى ينبغى طرقها ونحن فى سبيل استخدام الفيلم التسجيلى فى هذا المجال .

الفصل الرابع

دور الفيلم التسجيلى

إن مصر وهى فى سبيل بناء مجتمع الكفاية والعدل تمر بفترة تحول عظيمة فى شتى مجالات حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وفترة التحول لا يمكن لأى شعب يعيش ظروف شعبنا المادية أن يعبرها بسهولة ويسر ، وإنما لابد أن يواجهه العديد من المشكلات والتحديات الصعبة التى يجب عليه أن يكافح من أجل الانتصار عليها سواء من حيث خططه الاقتصادية لبناء صرح الصناعة الثقيلة إلى جوار الزراعة المتقدمة المسلحة بالتكنولوجيا ، أو من حيث كفاحه لخلق التوازن بين الدخل القومى والنمو السكانى ، أو من حيث محاولاته الدائبة لإنجاز عمليات التحول مع التقليل بقدر الإمكان من الآلام التى تنجم عنها . ومن هنا يبرز الدور الإيجابى الذى يمكن أن يؤديه الفيلم التسجيلى . ويكون أهم أهداف هذا الدور هو تعليم وإرشاد وتوعية الأفراد ، لكى يكونوا دائماً على مستوى الأحداث الهامة التى

تجرى على أرض بلدهم : فيجب أن يسير الفيلم التسجيلى فى خط متواز دائماً مع هذه الأحداث : يشرح ويفسر ويقنع ويعلم ويدفع ويشجع . يؤكد الإيجابيات ، ويحارب السلبيات ، وإنه من خلال هذه المعانى العامة نستطيع أن نحدد بالتفصيل الوظائف العديدة المنوطة بالفيلم التسجيلى والعاملين فى صناعته وهى تتحدد بثمانى وظائف كالآتى :

١ – نقل المعلومات إلى فئات الشعب كافة .
٢ – المعاونة فى التعليم المدرسى .
٣ – المعاونة فى تعليم الكبار .
٤ – تدعيم القيم التى تخدم التطور ومحاربة القيم التى تعوقه .
٥ – المساهمة فى دعم المشروعات القومية .
٦ – الربط بين أفراد الشعب .
٧ – نقل التراث .
٨ – الإعلام الخارجى والدعاية السياسية .

وسنتناول كل وظيفة من هذه الوظائف بشىء من التفصيل :

أولاً : نقل المعلومات إلى فئات الشعب كافة :

وتعد وظيفة نقل المعلومات من أولى وظائف أجهزة الاتصال الجماهيرى بشكل عام ، بل هى إحدى وظائف الاتصال الشخصى منذ بدأ مع نشأة البشرية ، وهى توفر حاجة أساسية عند الأفراد ، وهى حاجتهم إلى أن يعرفوا . ومهام هذه الوظيفة هى إحاطة الجمهور علماً بما يحدث فى البيئة المحيطة بهم وفى العالم . والحقيقة أن الأفلام لها القدرة على توسيع أفق جماهير البلاد النامية ومد أعينهم وآذانهم إلى

مسافات بعيدة بلا نهاية أو حدود سواء داخل الوطن الواحد أو على اتساع العالم كله (صورة رقم ١ ، ٢) .

والمعروف أن الفرد يحتاج فى حياته إلى ثلاثة أنواع من المعلومات هى :

أولاً : معلومات تساعده مباشرة كفرد فى حل مشاكله باتخاذ قرارات تستند إلى المزيد من المعرفة . أى معلومات تساعده فى حل المشاكل التى يجب أن يعتنى بها بنفسه مثل مشاكله الفردية أو مشاكله كعضو فى عائلة أو المسئول عنها .

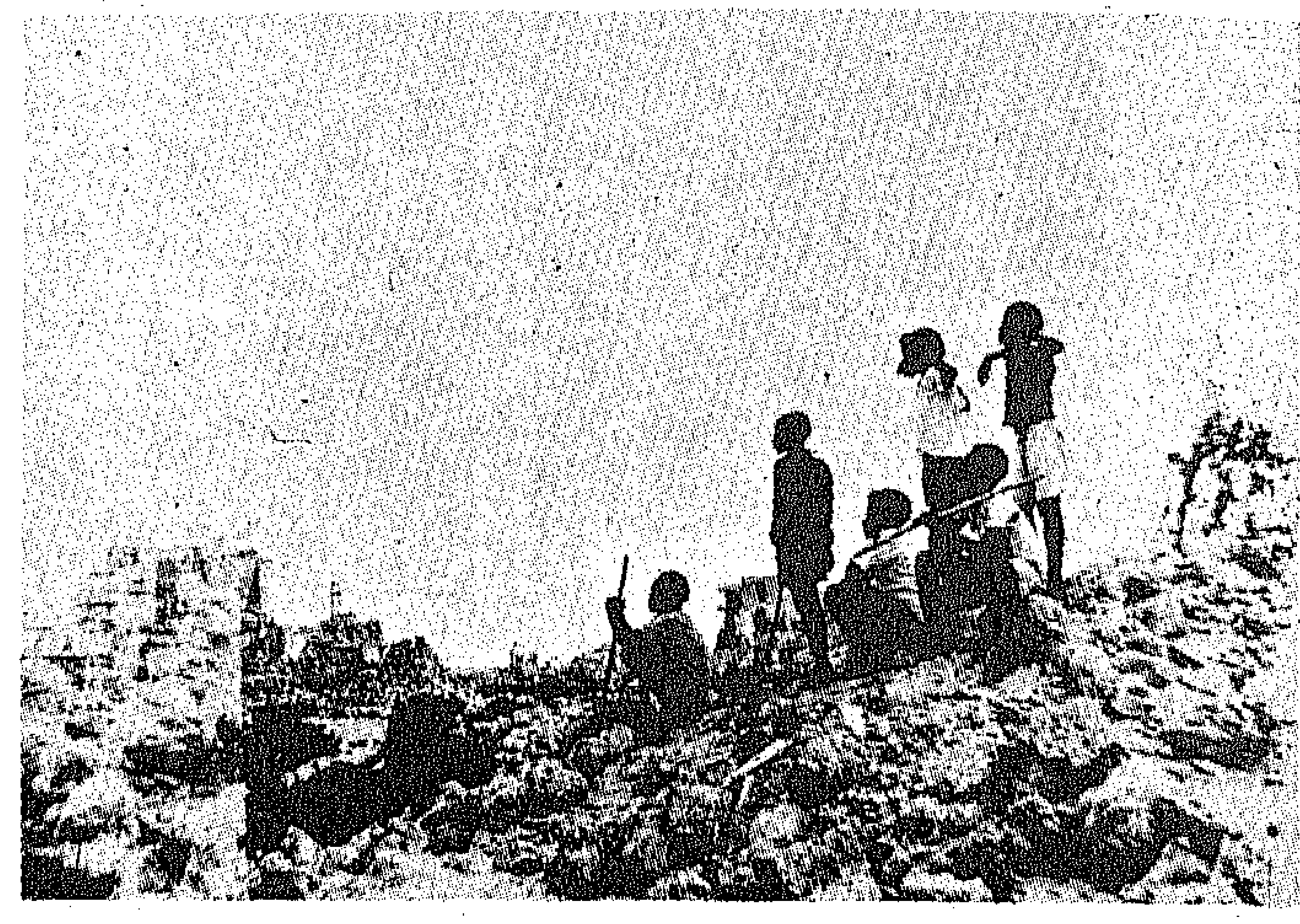
ثانياً : معلومات تتعلق بالمشاكل التى أكثر شمولاً والتى لا تتصل به كفرد ، وإنما تتصل به وبجيرانه وبمجتمعه المحلى ومجتمع الوطن كله . ويجب أن يشتركوا جميعاً فى حلها أو المساهمة فى اتخاذ القرارات الخاصة بها .

ثالثاً : معلومات عامة تبصره بما يجرى حوله سواء فى مختلف أنحاء الوطن أو فى العالم أجمع .

والفيلم التسجيلى يستطيع بغير شك أن يسهم فى نقل هذه النوعيات الثلاثة من المعلومات إلى جماهير البلدان النامية مع مراعاة أولويات احتياجات كل من المجتمعات المحلية إلى هذه المعلومات (ملحق ا) .

وهذه الوظيفة تفيد فى توسيع مدارك شعوب البلدان النامية وتحويل نظرتهم الفردية إلى نظرة أكثر شمولا بحيث يتسع نطاق اهتمامهم من الأمور الخاصة الفردية إلى مشاكل المجتمع المحلى ، ثم مشاكل المجتمع كله ، ثم مشاكل العالم بعد ذلك ؛ كما أن هذا أيضاً سيساعدهم فى اتخاذ قرارات أكثر صواباً ؛ كما يخلق عندهم الشخصية المتحركة المتطلعة إلى الأحسن ، أو بتعبير آخر يكسبهم ما يطلق عليه عالم الاجتماع الأمريكى دانييل ليرنر عنصر التقمص الوجدانى والذى يعتبره أهم عنصر من عناصر التحول إلى المجتمع العصرى . وهو قدرة الإنسان على تخيل نفسه فى ظروف الآخرين .

أطلال ميناء سواكن المهجور
استراحة وسط غابات شرق السودان
لقطتان من فيلم عن السودان





ثانياً : المعاونة فى التعليم المدرسى :

إن النهوض بالتعليم المدرسى إنما هو من أهم أهداف التنمية وهو أحد السبل الرئيسية لها . ولهذا فإن الدول النامية تسعى دائماً إلى نشر التعليم ، وهى لذلك تعتمد ما قد يرهق ميزانياتها . وبرغم أن الاستثمار فى التعليم يعتبر استثماراً طويل الأمد فإن الدول النامية تجد نفسها مضطرة إلى توجيه مبالغ كبيرة إليه لإيمانها بأن جهل الشعب هو أكبر تحدٍّ يهدم كل ما تبنيه وما تحققه من إنجازات ، ولكن نشر التعليم على نطاق واسع يغطى دولة بأكملها ليس بالأمر السهلُ ، لأنه يتطلب أبنية ومدرسين ومقاعد وكتباً وأدوات . وفوق هذا فهو يتطلب أجهزة معاونة للتعليم ، وهى ما تعرف بالوسائل التعليمية . وإنه إن تيسرت الأبنية فلن يتيسر المدرسون ولن تتوفر الأجهزة . ومن هنا يبرز دور الفيلم التسجيلى الموظف لخدمة التعليم أو ما اصطلح على تسميته بالفيلم التعليمى .

ولقد أحست الدول المتقدمة منذ فترة بأهمية هذا النوع من الأفلام فى خدمة التعليم وزيادة كفاءته ، فأدخلته فى جميع مراحل التعليم حتى مرحلة التعليم العالى والجامعى . وفى اعتقادنا أن الفيلم التعليمى إذا كان قد حقق فوائد فى التعليم فى الدول المتقدمة ففوائده ستكون أكثر فعالية بالنسبة لدولنا النامية ، فاستخدامه هنا لن يكون بهدف النهوض بكفاءة التعليم فقط ، وإنما لحل بعض مشاكل التعليم أيضاً ولتيسيره أساساً .

وهناك نوعان أساسيان من الأفلام التعليمية هما :

١ – الفيلم التعليمى المدرسى :

وهو الفيلم الذى يعالج بعض مواد الدروس المقررة بالمنهج الدراسى ، ويعرض على التلاميذ فى المدارس ، وهو يقوم بدور المعاون للمدرس فى توضيح المواد

الدراسية بطريقة جذابة ومشوقة تساعد الطالب على فهم الدروس ومن ثم يسهل عليه استذكارها .

٢ - أفلام تعليمية لتدريب المدرسين :

فإنه لمواجهة النقص فى عدد المدرسين المتخصصين يمكن إعداد مجموعة من الأفلام تعرض على المدرسين بهدف رفع كفاءتهم التربوية وتعميق معلوماتهم التخصصية فى مختلف المواد المقررة .

والذى نحب أن نؤكده أن هذه الأفلام التعليمية بنوعيها سيكون لها أكبر الأثر فى النهوض بالعملية التعليمية وفى رفع مستوى كفاءتها إلى معدلات عالية .

ثالثاً : المعاونة فى تعليم الكبار .

إن مشكلة تعليم الكبار فى الدول النامية لا تقل فى أهميتها وخطورتها عن مشكلة تعليم الصغار ، وهى تدخل ضمن الأهداف الهامة لعمليات التنمية : فالتنمية ليست اهتماماً بالمستقبل فقط وإنما هى اهتمام بالحاضر أيضاً . فإذا كانت المدرسة تهتم ببناء جيل الغد فإن تعليم الكبار هو مشكلة اليوم . ويجب الاهتمام بها لذاتها ومن أجل المستقبل أيضاً : فكبار اليوم هم قوات التنمية ومنفذوها ، وحيث إن الغالبية العظمى من الشعب يتفشى فيهم الجهل والأمية فإن استمرارهم هكذا يعتبر من أخطر المعوقات للتنمية فى الحاضر . وحيث إن الكبار هم أيضا آباء وأمهات أطفال اليوم الذين هم رجال المستقبل . . ومنهم يتشربون قيمهم وعاداتهم وأنماط سلوكهم فإن بقاء الكبار على جهلهم وأميتهم يعنى أنهم سينقلون إلى أطفالهم القيم وأنماط السلوك المعوقة للمجتمع ، ومن ثم فإن الاهتمام بتعليم الكبار يصبح ضرورة لذاته من ناحية وللمستقبل من ناحية أخرى .

وتتعدد مجالات تعليم الكبار بحيث تشكل كل نواحى الحياة وأنشطتها ونكتفى هنا بذكر أهم هذه المجالات وهى .

١ – محو الأمية العام : بمعنى التدريب على مهارة القراءة والكتابة .

٢ – محو الأمية الوظيفى التى تعمل على تطبيق منهج الفئات المختارة فى قطاعات الإنتاج .

٣ – التدريب المهنى ، وذلك لتوفير الفنيين اللازمين للمشروعات الجديده ولزيادة كفاءتهم .

٤ – التثقيف العمالى ، وذلك لإكساب العمال القدر اللازم من المعرفة بعلاقات العمل الجديدة بما يصاحبها من علاقات اجتماعية حتى يمكن أن يتأقلموا والبيئة الإنتاجية الجديدة .

٥ – التثقيف النسائى . . لإكساب المرأة خبرات جديدة فى تربية أولادها بالصورة التى يتطلبها المجتمع الجديد ، وكذلك لإكسابها مهارات جديدة فى الشئون المنزلية .

ويستطيع الفيلم التسجيلى أن يساهم بدور فعال ومؤكد الأثر فى شتى هذه المجالات . وإنه بالإشارة إلى خاصية المشاهدة بالنسبة للأفلام من حيث إنها جماعية بالضرورة وتحدث فى مكان محدد ويمكن ربطها بالاتصال الشخصى المباشر عن طريق حضور أحد المتخصصين فى أثناء العرض وقيامه بالشرح والمناقشة بعد العرض فإن الفيلم التسجيلى فى هذه الحالة يكتسب خصائص هامة تميزه فى هذا الشأن عن غيره من وسائل الاتصال الجماهيرى .

رابعاً : تدعيم القيم التى تخدم التطور ومحاربة القيم التى تعوقه :

التنمية ليست مجرد بناء المصانع أو إنشاء المشروعات أو إحلال الجرارات

والأدوات الميكانيكية محل الأساليب الزراعية التقليدية أو توفير الخدمات للجماهير فحسب ، وإنما هى عملية بناء مجتمع جديد من جميع النواحى ، وإن أهم جانب يجب أن يناله التغيير هو الجانب البشرى . وإنه بقدر الإمكان يجب أن يتم هذا التغيير بسرعة تلائم سرعة التغيرات الأخرى : حتى يمكن التقليل من الآلام التى يحدثها التحول .

فالتنمية تنتج عنها أوضاع جديدة لا تلائم القيم والأنماط السلوكية للبشر فى ظل النظام التقليدى الذى كانوا يعيشون فيه ، ومن ثم فإنه يكون من المحتم تغيير هذه القيم والأنماط السلوكية التى تعوق التطور ونشر القيم والأنماط السلوكية الجديدة التى تخدمه ، ولنضرب أمثلة تفصيلية .

١ – التنمية بما تدخله من صناعات جديدة وبما تدخله من تحول فى الأساليب الزراعية تدخل تعديلاً جوهرياً فى أشكال الإنتاج وفى العلاقات الاجتماعية . ولهذا يجب أن يكتسب الناس القيم وأنماط السلوك التى تساعدهم على سرعة التأقلم مع هذه الأوضاع الجديدة .

٢ – التنمية ينتج عنها التوسع فى إنشاء المدن التى تتيح النهوض بالصناعة ، وينتج عن هذا من ثم هجرة أعداد كبيرة من الريف إلى هذه المدن الجديدة . ويجد هؤلاء المهاجرون أنفسهم قد انتقلوا فجأة من البيئة الريفية التى يحكمها الركود النسبى وبطء الإيقاع إلى البيئة الحضرية التى تحكمها مقتضيات الحياة الحضرية من تغيير مستمر وحركة دائبة وإيقاع سريع ، وهذا يتطلب إكسابهم قيماً جديدة توائم نمط الحياة فى البيئة الجديدة التى انتقلوا إليها .

٣ – التنمية تقتضى النهوض بالرعاية الصحية والعلاج لأفراد الشعب ، وإنه إلى جوار مجهودات الدولة فى إنشاء المستشفيات وتوفير الأطباء والإخصائيين والأدوية – هناك واجب أساسى على الأفراد هو واجب الوقاية ، وهذا يقتضى رفع

وعيهم الصحى وإكسابهم العادات التى تحض على النظافة ومقاومة الحشرات الناقلة للأمراض مثل الذباب والناموس .

٤ – التنمية بما تحققه من نهوض بالخدمة الطبية ينتج عنها – كما أشرنا من قبل – التقليل فى عدد الوفيات مما ينتج عنه زيادة فى عدد السكان قد يصل إلى حد ابتلاع أى ناتج للتنمية . وهذا يخلق ضرورة هامة لتنظيم الأسرة الأمر الذى يقتضى توعية الناس بهذه المشكلة وإقناعهم بها .

٥ – التنمية تقتضى إنشاء أنواع جديدة من المرافق والخدمات العامة لم تعرفها الغالبية العظمى من الشعب من قبل ، وهذا يقتضى توعية هؤلاء الناس بكيفية التعامل مع هذه المرافق والاستفادة من هذه الخدمات بما يحقق الغرض الأمثل ، كما يجب توعيتهم بأن هذه المرافق ملك لهم وتجب المحافظة عليها .

٦ – التنمية بما تحققه من انتشار العمل المأجور الأمر الذى يؤدى حتماً إلى زيادة العمالة واتساع قاعدة الذين يكتسبون من عملهم قد ينتج عنها اضطراب فى أنماط الاستهلاك ، وهذا يقتضى التوعية وإكساب الأفراد عادات جديدة تحضهم على عدم الإسراف .

٧ – التنمية تحتاج إلى أموال لتغطى الاستثمارات المختلفة التى تفرضها ظروف التحول ، وهذا يقتضى زيادة مدخرات أفراد الشعب . ويجب توعيتهم بهذا وخلق الوعى والسلوك الإدخارى عندهم .

٨ – إن الغالبية العظمى من شعوب الدول النامية وخاصة الفئات التى تعيش فى الريف تؤمن بالقدرية الأمر الذى لا يناسب مقتضيات الحياة العصرية التى تؤمن بالعلم ، وهذا يقتضى تنمية النظرة العلمية عند هؤلاء الناس .

كل هذه أمثلة لأنواع من القيم المعوقة التى تجب محاربتها والقيم التى يجب تدعيمها وإكسابها للناس حتى يستطيعوا التأقلم السريع مع مقتضيات التحول من

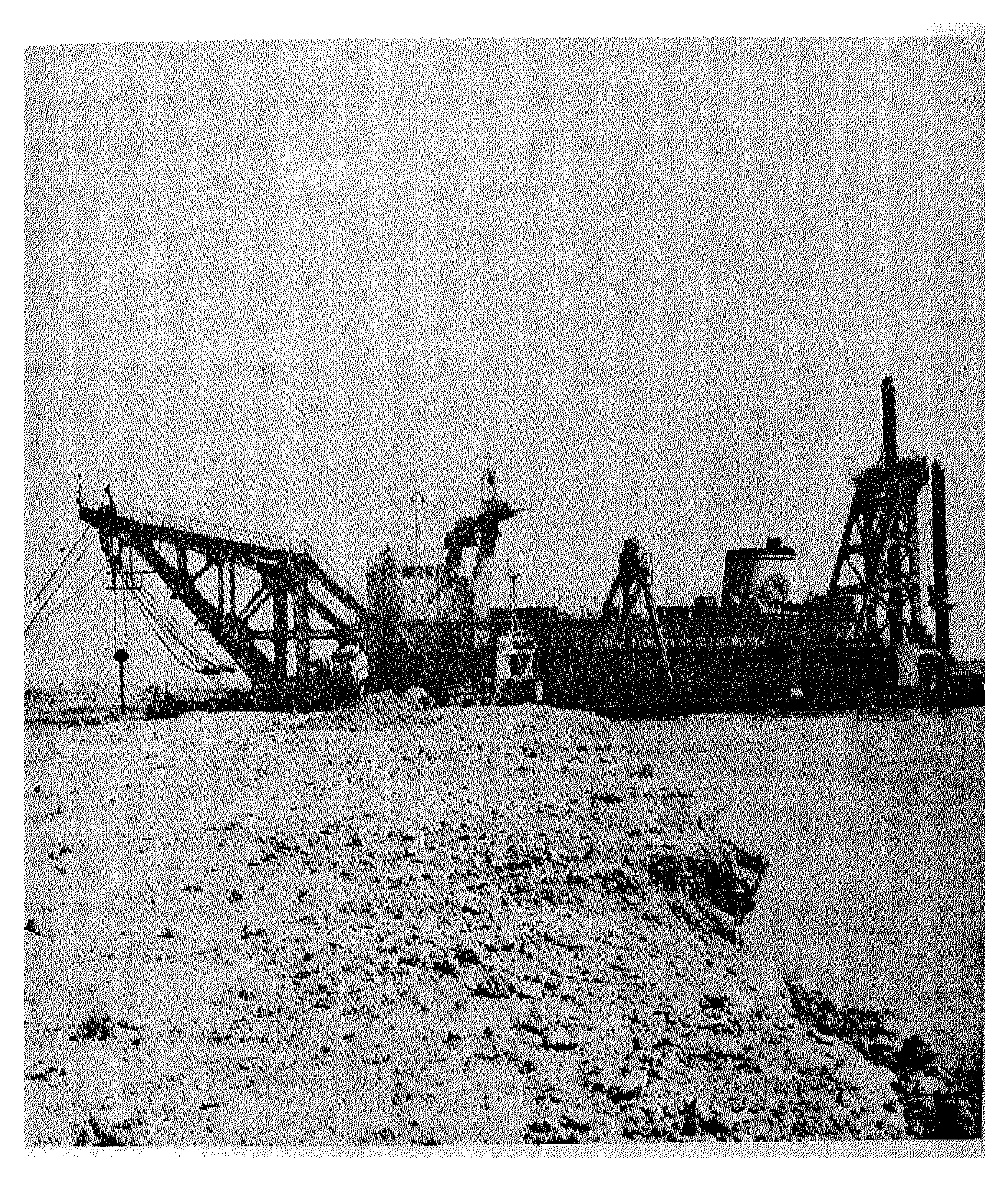
المجتمع التقليدى إلى المجتمع العصرى .

والفيلم التسجيلى يستطيع أن يقدم معاونات إيجابية فعالة فى جميع هذه المجالات ، ولكن يجب أن نشير هنا إلى ضرورة أن تبتعد مثل هذه الأفلام عن التوجيهات المباشرة ، وإنما تسعى إلى حفز الأفراد والجماعات إلى التغيير ، ذلك لأن التغيير لن يتم إلا إذا كان نابعاً من الفرد أو الجماعة . وبغير شك إن الإمكانات الهائلة لمفردات اللغة السينمائية مع المعرفة التامة لعناصر عملية الاتصال تتيح عمل أفلام ذات تأثير مؤكد فى هذا الشأن . وإنه مما يزيد أثر الفيلم التسجيلى فى هذا ما يتميز به العرض السينمائى من إمكان ربطه بالاتصال الشخصى المباشر .

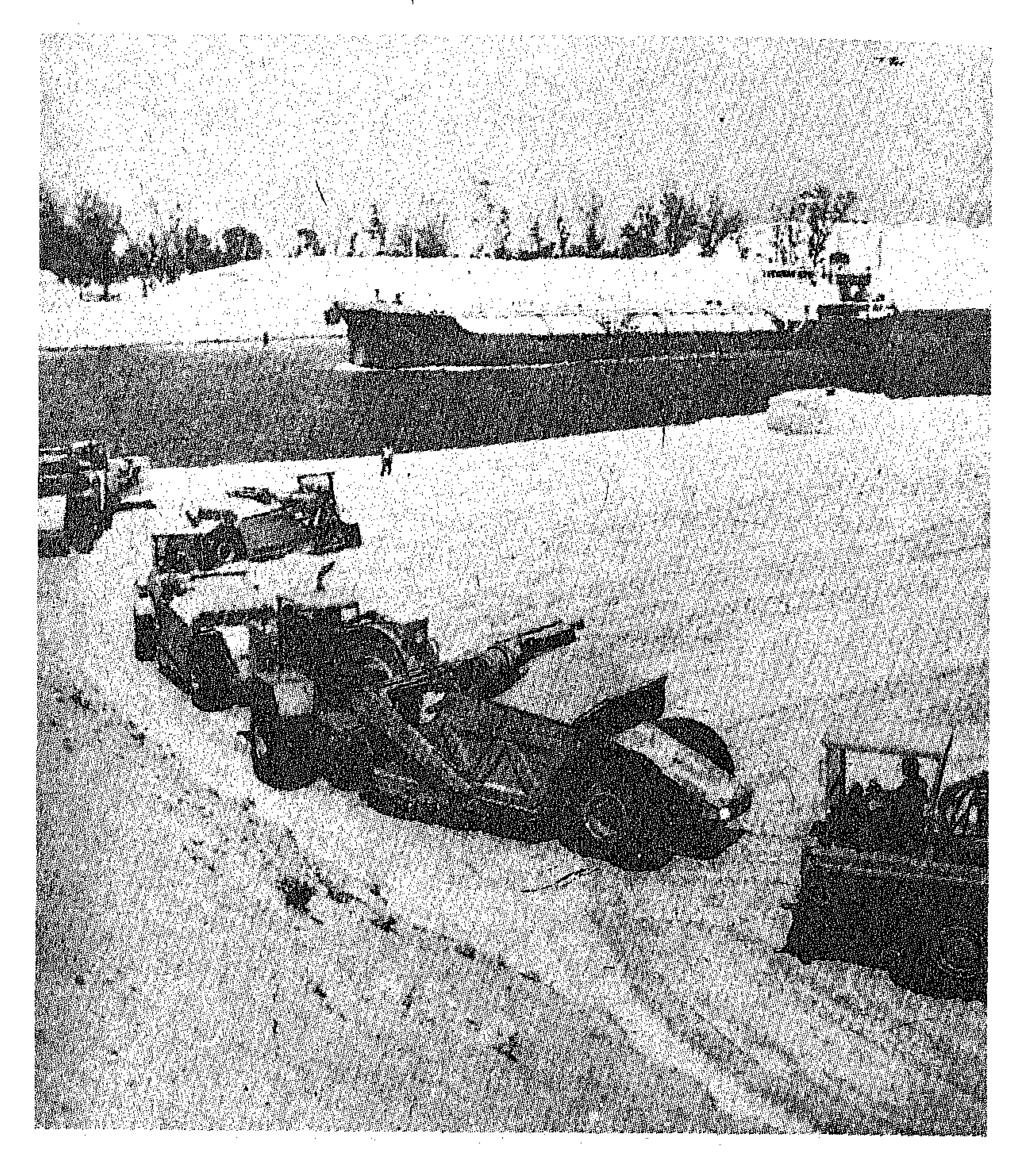
خامساً : المساهمة فى دعم المشروعات :

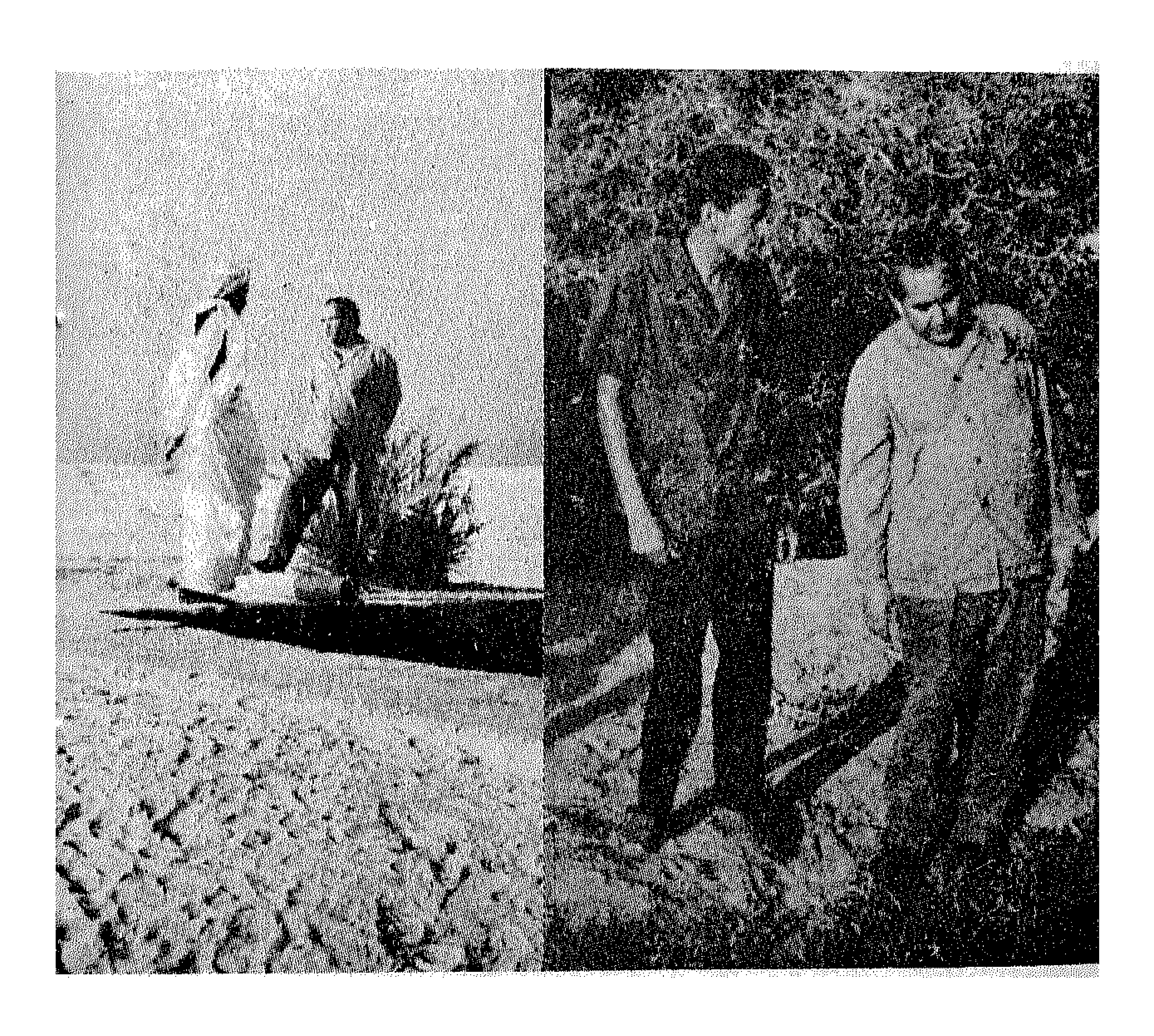
من المواقف الهامة التى تواجه القيادات السياسية فى الدول النامية أنها قد تجد أن بعض الإجراءات الديمقراطية قد تعوق تنفيذ بعض مشروعاتها الثورية الهامة التى تتطلبها التنمية الشاملة . وذلك على الأقل فى السنوات الأولى للتحرر وبدء مشروعات التنمية . فتضطر إلى إصدار قرارات سلطة بإنشاء هذه المشروعات الهامة . ولكنها فى الوقت نفسه تكون فى أمس الحاجة لكسب تأييد الجماهير وخلق رأى عام مؤيد لهذه المشروعات وذلك لأن الجماهير هى فى النهاية التى ستقوم بتنفيذ هذه المشروعات وتسيير أمورها . وخاصة أن أغلب المشروعات التى تتطلبها التنمية باهظة التكاليف فإذا لم يتوافر الدافع والاقتناع عند الناس بهذه المشروعات فإنهم لن يرحبوا بها ولن يقبلوا بسهولة التضحيات اللازمة من أجل إنجازها . وتكون النتيجة مضاعفة التكاليف دون جدوى . وربما أيضاً لا تنجح هذه المشروعات أو لا تحقق الغرض منها ، ولهذا فإنه يصبح من الضرورى كسب تأييد الجماهير لهذه المشروعات . وهذا بالطبع لن يتأتى إلا بمساهمة وسائل الاتصال الجماهيرى ومنها

كراكة تعمل فى توسيع القناة (لقطة من فيلم تسجيلى)



توسيع قناة السويس على الناشف
(لقطة من فيلم عن مشروع تطوير القناة)





لقطتان من فيلم عن توطين البدو ضمن تعمير صحراء الساحل الشمالى الغربى

الفيلم التسجيلى . وإن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى يؤمن كل الإيمان بهذه المهمة وينادى بها كأمر يستحق الاهتمام البالغ فى كل برامج وخطط التنمية (صور ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) .

ودور الفيلم التسجيلى فى هذا الموضوع بالغ الأثر وذو فاعلية كبيرة ؛ لأنه يستطيع أن يتابع هذه المشروعات منذ بدء إعلانها كفكرة حتى يتم إنجازها وتظهر نتائجها . فهو فى البداية يستطيع أن ينقل للجماهير فى أى مكان من الوطن رأى الإخصائيين وأهل الثقة حول هذه المشروعات ومدى الفائدة التى تعود منها على الوطن وعلى الناس مستخدماً فى ذلك جميع الإمكانات الفنية المتاحة له من الشرح التوضيحى المصور عن طريق الرسوم المتحركة أو الرسوم البيانية التى يمكن تحريكها بالحيل التصويرية بطريقة يبسطها ويجعلها سهلة الفهم لمختلف المستويات الثقافية ؛ كما أنه يمكن الفيلم التسجيلى أن يتابع مراحل تنفيذ المشروع ، ويسجل صور العمل ، ويعرضها على الناس خطوة بخطوة . ويستطيع أن ينقل للناس آراء العاملين فى المشروعات نفسها بمختلف مراحلها حتى ينتهى العمل فيها وتظهر نتائجها ، كل هذا يساعد فى خلق الرأى العام الذى يؤيد هذه المشروعات (ملحق ٢) .

والجمهورية مصر العربية تجربة خصبة فى هذا الموضوع أحاطت بمشروع السد العالى ، وأدى الفيلم التسجيلى فيها دوراً هامًّا للغاية : فقد قامت هيئة السد العالى وهيئة الاستعلامات والتليفزيون المصرى بإنتاج سلسلة من الأفلام التسجيلية التى سجلت مراحل تنفيذ السد منذ البدء فيه حتى الانتهاء منه . وقد ساهمت هذه الأفلام فى خلق الرأى العام المؤيد للمشروع وفى دفع الأفراد إلى التكالب على طلب العمل فى هذا المشروع برغم قسوته ، وذلك بعد أن اقتنعوا بأن هذا المشروع يعد عملاً قوميًّا فى المقام الأول .

سادساً : الربط بين أفراد الشعب :

إن أغلب المجتمعات المحلية فى الدول النامية بطبيعة ظروفها التاريخية مجتمعات مغلقة على نفسها ، وعادة ما تكون منفصلة انفصالاً تامًّا عن غيرها من المجتمعات الأخرى داخل وطنها الواحد . وإن استمرارهذا الوضع يعد من العناصر المعوقة للتنمية : فالمفروض أن التنمية شاملة تهتم بالوطن كله ، وليس بإقليم واحد فيها . ومن الضرورى إزالة كل الحواجز الثقافية والجغرافية التى تفصل بين هذه الأقاليم المختلفة فى الوطن الواحد ، وإنه إذا كانت الطرق ووسائل المواصلات الحديثة تقوم بدورها الأساسى فى كسر الحواجز الجغرافية فإن وسائل الإعلام لها دورها الهام فى كسر الحواجز الثقافية والتعريف بين مختلف أفراد الشعب الواحد مهما تباعدت بينهم المسافات . ولعل الفيلم التسجيلى يعد من أهم هذه الوسائل .

وإننا إذا حاولنا أن نطبق كلامنا على الواقع المصرى نجد أن مصر بها ثلاثة أنماط مختلفة من الثقافة ليس بينها أى رابط ، وهذه الأنماط هى :

١ — الثقافة البدوية ، وهى ثقافة البدو من مكان الصحراء الغربية والصحراء الشرقية فى جمهورية مصر العربية (صورة ٦) .

٢ — الثقافة الريفية ، وهى ثقافة الفلاحين ، وهم يمثلون ما يقرب من ثلثى سكان الجمهورية .

٣ — الثقافة الحضرية ، وهى ثقافة سكان المدن ، وخاصة سكان القاهرة والإسكندرية .

وإنه بالنظر إلى هذه الأنماط الثقافية الثلاثة نجد أنه بالرغم من وجودها فى وطن واحد هو مصر فإنها مختلفة تماماً بعضها عن بعض وليس بينها أية صلة وإن خلق التزاوج بين هذه الثقافات الثلاثة هو الضرورة القصوى فى بلد يتجه إلى

التحول العصرى . وهنا يستطيع بل يجب أن يؤدى الفيلم التسجيلى دوره مستفيداً بكل ما له من ميزات . ونذكر بعض الأمثلة لما يمكن أن يقدمه الفيلم التسجيلى فى هذا المجال .

١ – تعريف سكان الأقاليم المختلفة بأحوال جيرانهم فى الأقاليم الأخرى . (ملحق ٣) .

٢ – نقل صور الفنون والإنجازات الثقافية المحلية للأقاليم المختلفة إلى الأقاليم الأخرى .

٣ – تعريف سكان الريف والبدو بأنماط الحياة فى الأقاليم الحضرية كنوع من خلق التقارب الفكرى بينهم .

٤ – تعريف سكان الحضر وسكان الريف بأهمية كل منهما للآخر ، وذلك لخلق الحب والتعاون والوحدة المصلحية بينهما .

سابعاً : نقل التراث :

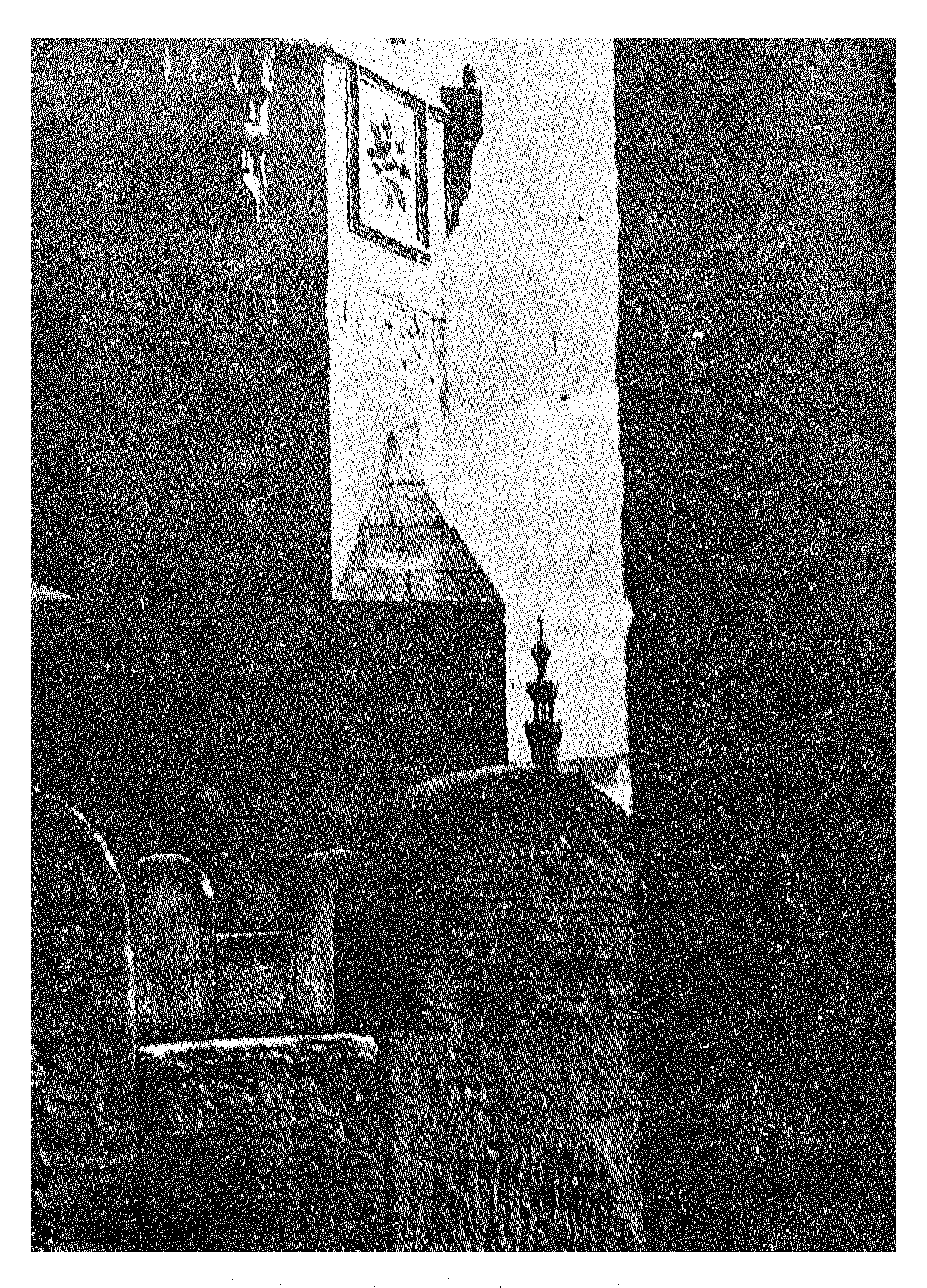
إن الفيلم التسجيلى يقوم بتسجيل الواقع الحى فى أثناء تنفيذه ، وإن هذا الواقع بعد مرور الأيام يصبح تاريخاً ، ومن ثم فإن الفيلم يصبح من ثم بمثابة وثيقة تاريخية تسجل أحداثاً وقعت فى الماضى ويعد نوعاً من نقل التراث يفيد فى عمليات التنشئة والتطبع الاجتماعى .

وتكتسب هذه الوظيفة أهمية خاصة فى مصر حيث إن التنمية فى حقيقتها إعادة بناء للوطن وللمجتمع بكل سبل حياته ، مما ينتج عنها تغيير كبير يشمل النواحى الاجتماعية والثقافية والجغرافية أحياناً . ويكون التسجيل هنا شيئاً هاماً ، لأنه سيكون تسجيلاً لتاريخ الإنسان على الأرض الجديدة يسجل انتصاراته ومكاسبه الجديدة سواء على المستوى الإنسانى والعاطفى أو على مستوى الانتصار العلمى

والمادى والحضارى : فالفيلم التسجيلى هنا يصبح وثيقة للتاريخ حية دائماً . وإنه فى ظل مشروعات التنمية وبسببها هنالك أشياء كثيرة قد تنتهى ولن تعود مرة أخرى ، فإذا لم تسجل فإن الأجيال القادمة لن تتاح لها فرصة رؤيتها أبدًا : ولأضرب بذلك مثلاً . مشروع السد العالى الذى نتج عنه تغيير كبير فى جغرافية المنطقة التى أنشئ فيها فضلاً عن آثاره الأخرى . وإنه لولا سلسلة الأفلام التسجيلية التى قامت بتسجيل هذا المشروع منذ بداية العمل فيه حتى الانتهاء منه ما أتيح للأجيال القادمة معرفة مدى التغيير الذى حدث ، وما أحسوا بضخامة العمل الذى تم إنجازه ؛ كما أن الأنفاق التى تختفى الآن فى أعماق المجرى الجديد للنهر لولا تسجيلها فى هذه السلسلة من الأفلام فى أثناء إنشائها وقبل مرور مياه النيل فيها ما أحست الأجيال القادمة بمدى ضخامة هذا العمل .

وفوق كل هذا فإن مجهودات الإنسان المصرى وكفاحه البطل من أجل إنجاز هذا المشروع الكبير لم يكن سيتاح للأجيال القادمة أن تعرفها إلا عن طريق القراءة التى قد تعجز عن نقل الصورة الحقيقية التى تنجح صور الفيلم التسجيلى المتحركة فى نقلها . وإنه حينما تعرض هذه الأفلام على الأجيال القادمة التى لم يتح لها معايشة إنشاء هذا المشروع فإنها ستعلم وتحس تماماً بالعمل الجبار الذى أنجزه أجدادهم من أجل مستقبلهم ومستقبل الوطن .

وفى هذا المجال أضيف مثالاً آخر يحمل تجربة شخصية : فقد أتيح لكاتب هذا البحث من خلال عمله كمخرج أفلام تسجيلية فى التليفزيون أن ينجز سلسلة أفلام عن الصحراء المصرية ، وقد عرضت فى برنامج أسبوعى تحت اسم « عالم الصحراء » وكان من بين أفلام هذه السلسلة فيلم يصور حياة العبابدة ، وهم عشيرة من البدو الرحل يعيشون فى صحرائنا الشرقية ، وقد استضاف البرنامج العالم الجيولوجى الدكتور رشدى سعيد لإجراء مناقشة معه بعد عرض الفيلم ، وكان أول

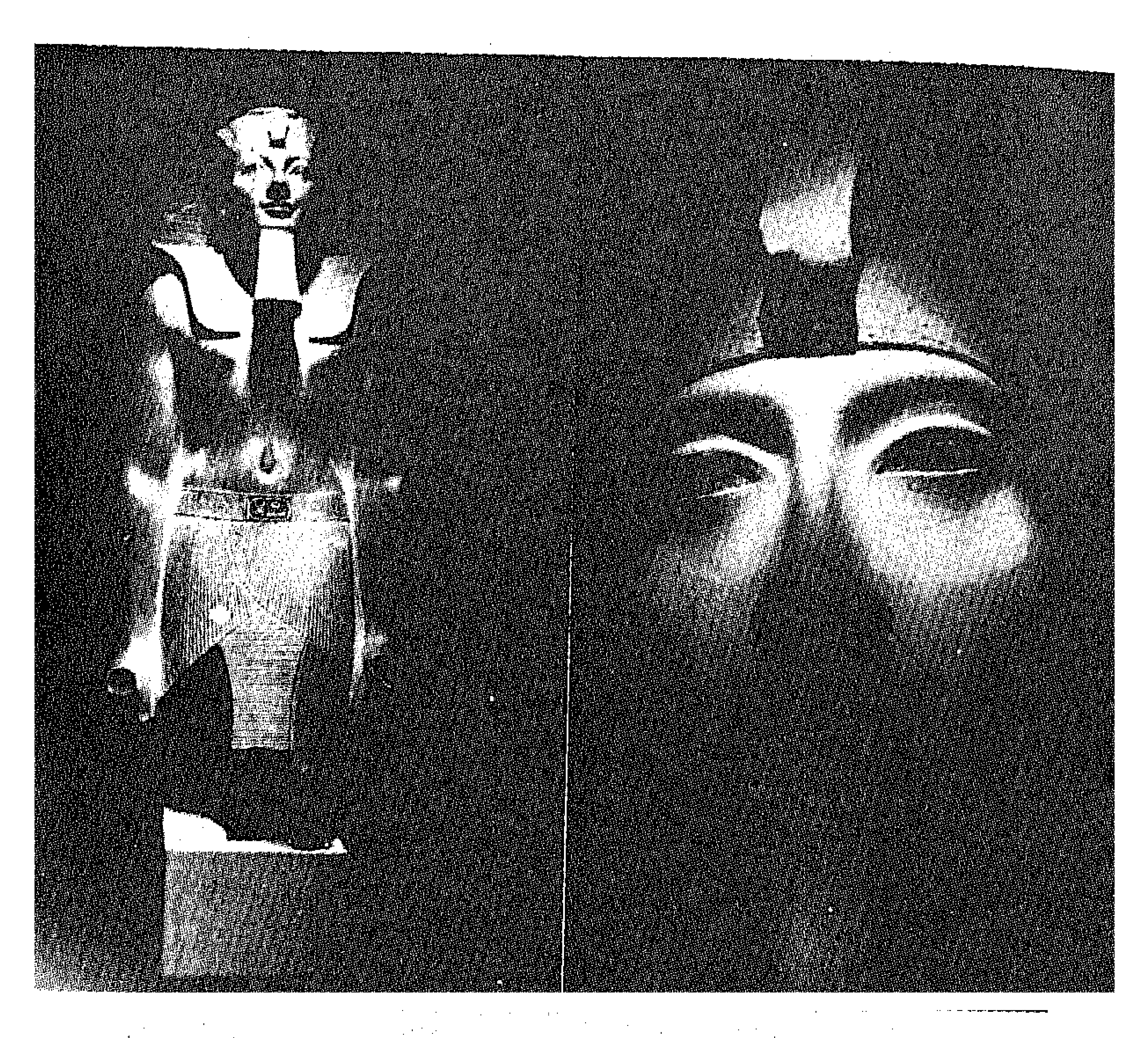


المعمار الإسلامى يسجله ويشرحه ويقدمه الفيلم التسجيلى



سائحة أمام متحف الأقصر
(لقطة من فيلم تسجيلى)

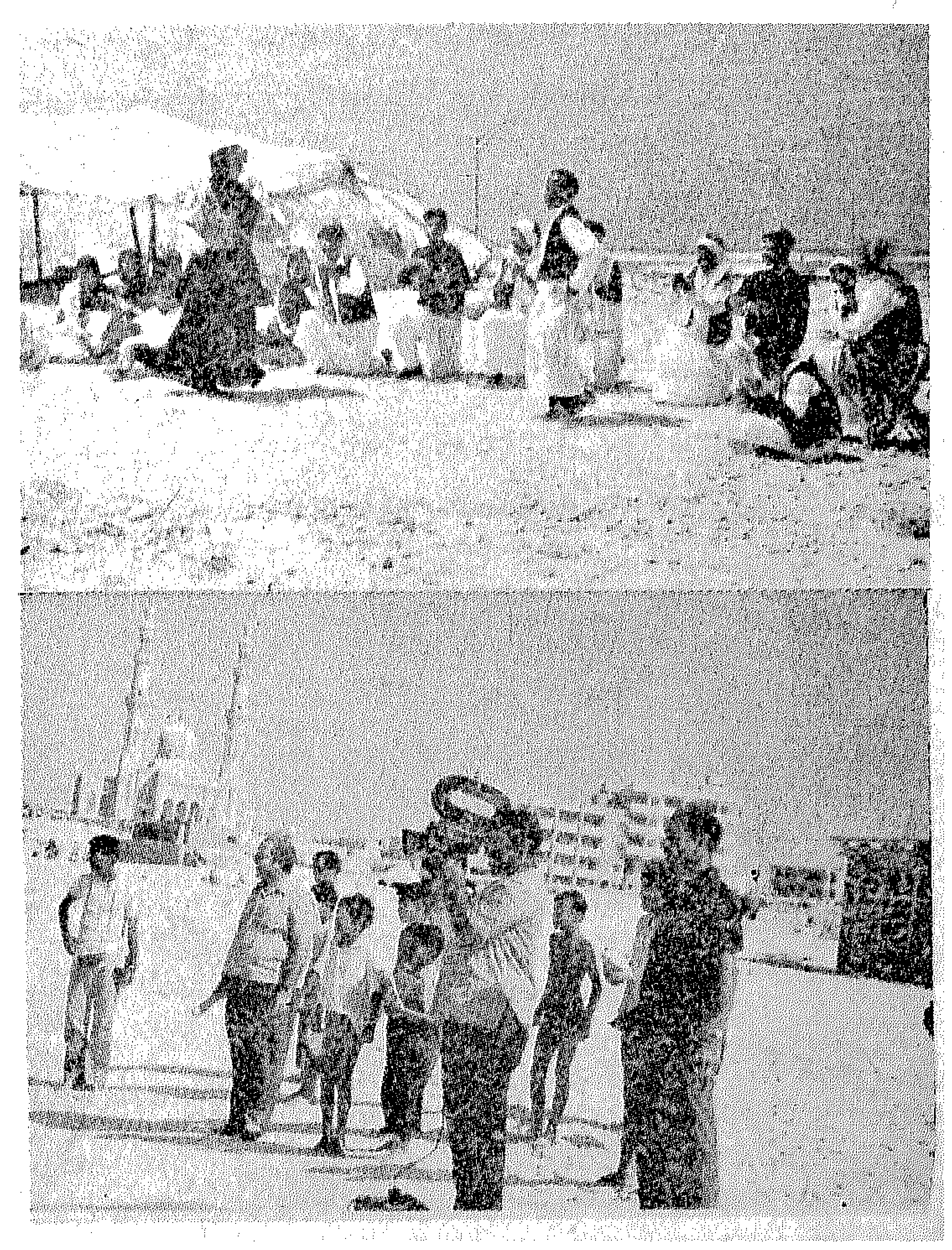
داخل معبد الأقصر
(لقطة من فيلم تسجيلى)



الفيلم التسجيلي يخدم أهداف نقل التراث في الداخل والدعاية السياحية في الخارج

رقصة بدوية من مرسى مطروح (لقطة من فيلم تسجيلى)

كاميرا السينما التسجيلية تمارس عملها فى تسجيل وقائع الحياة اليومية



تعقيب قاله الدكتور رشدى : إن هذا الفيلم سيصبح بعد عشر سنوات وثيقة تاريخية هامة ؛ لأن ما يعرضه الآن فى سبيله إلى الاندثار نتيجة للمشروعات التى تتم فى الصحراء ،. وإن تسجيل مثل هذه الأفلام يُعد من الوظائف الأساسية للسينمائيين التسجيليين فى بلد مثل بلدنا (حلقة من برنامج عالم الصحراء) (ملحق ٤) .

ثامناً : الإعلام الخارجى والدعاية السياسية :

إن مشروعات التنمية بكل جوانبها باهظة التكاليف ، وتتطلب كميات هائلة من العملات الصعبة التى تيسر شراء الآلات ومقتضيات التكنولوجيا الحديثة التى بدونها لا تحدث التنمية . وإن الدول النامية ومصر بينها لا تمتلك من العملات الصعبة إلا القدر المحدود نسبيًّا ولهذا فيكون من المهام الأساسية تلمس مختلف الطرق المشروعة التى لا تمس سيادتنا للحصول على حاجتنا من العملات الصعبة . ومن أهم هذه السبل تصدير منتجاتنا وتشجيع السياحة : وليتم هذا يكون من الواجب عمل خطة للإعلام الخارجى والدعاية عن هذه المنتجات وعن المظاهر السياحية التى تغرى السائح الأجنبى بالمجىء والفيلم التسجيلى يعتبر من أهم الوسائل فى هذا المجال : فالفيلم التسجيلى إلى جوار قيمته التثقيفية والإعلامية والتعليمية قد أصبح سلاحاً خطيراً للدعاية ، وتأتى خطورته فى أنه يتيح الإعلان عن أى شىء : (سلعة كانت أو فكرة أو مكاناً بطريقة غير مباشرة) ١٠) .

ويؤكد جان مارى دوميناك أهمية الفيلم التسجيلى فى الدعاية فيقول :

« إن السينما وسيلة من وسائل الدعاية ذات أهمية خاصة سيان : استخدمناها من أجل قيمتها الإخبارية ، فإنها تفيد الواقع متيحة له بفضل حركتها صدقاً يعلو على الشك ، أو استخدمناها كالمسرح لنشر بعض الأفكار من خلال أسطورة عتيقة أو موضوع تاريخى أو سيناريو حديث . وتنتسب الأفلام الإخبارية الموجهة على

نحو ما والأفلام الريبورتاجية إلى الفئة الأولى» . .

وإنه إلى جوار استخدامنا للفيلم التسجيلي والدعاية عن المنتجات وفى مجال الدعاية السياحية فإننا نستطيع أن نستخدمه أيضاً وبكفاءة عالية فى الدعاية السياسية لمصر فى الخارج ، ويستطيع الفيلم التسجيلي أن يؤدى أكثر من دور هام ومؤثر فى هذا المجال . وأول هذه الأدوار هو محاولة تغيير الصورة المنطبعة عند شعوب العالم عنا وخاصة شعوب أوربا الغربية وأمريكا وكندا ، وذلك لكى تصبح صورة إيجابية تدفع إلى التعاطف معنا واتخاذ المواقف المؤيدة لقضايانا .

ولا جدال فى أن الصورة المنطبعة التى يحملها شعب عن شعب آخر أصبحت تؤدى دوراً أساسيًّا فى سلوك هذا الشعب إزاء الشعب الآخر : فهى تدخل فى تحديد تفسيرات المواطنين لتصرفات الشعوب الأخرى ، وتحدد ردود أفعالهم إزاء هذه التصرفات . ومن ثم فقد أصبحت الصورة المنطبعة تؤدى دوراً هاماً فى عصرنا الراهن .

ولقد كثر الحديث فى السنوات الأخيرة عن الإعلام الخارجى ، وترددت التساؤلات الكثيرة عن كيفية الوصول إلى الرأى العام الدولى وإقناعه بقضايانا . والواقع أن إثارة الموضوع بهذه الطريقة ليس سليماً ، فإننا قبل أن نهتم بإقناع العالم بقضايانا لابد أولا أن نقنعهم بأنفسنا ، وهذا لن يتأتى إلا بمحاولة خلق صورة منطبعة إيجابية عنا لدى الشعوب الأخرى . وليس سرًّا أن الصهيونية قد دأبت منذ سنوات طويلة على تشويه صورتنا عند شعوب العالم المختلفة ، وحققت بعض النجاح فى هذا الشأن عند بعض الشعوب ، وأصبح من الواجب العمل على تغيير هذه الصورة وإن هذا يحتم علينا التحرك فى اتجاهين هما :

١ – نعرض على العالم مساهمتنا فى الحضارة الإنسانية . . ماضيها وحاضرها ومستقبلها . . لكى يشعر العالم أن لنا دوراً فى حياته الحضارية ، وهناك الكثير

الذى يمكن تقديمه فى هذا الموضوع : فإن إسهاماتنا فى الحضارة الإنسانية خصبة وغزيرة . . ومن أهم الأمثلة فى هذا الشأن الكلمات العربية التى تسربت إلى اللغات الأوربية والتى لا تزال تعيش فيها ؛ فإن هذه الكلمات تعطى أبلغ الدليل على عمق تأثير الأمة العربية فى الحضارة الإنسانية عامة وفى الحضارة الغربية على وجه الخصوص : فإن مفردات القواميس واشتقاقاتها اللغوية هى أدق مقياس لدى إسهام الشعوب المختلفة فى التراث الحضارى الحديث .

ومن الكلمات العربية التى تتردد فى لغات أخرى كثيرة مايلى :

الجبر – الكحول – المناخ – التعريفة – القنديل – القلويات – القميص – القطن – الأرز – السكر .

ومن الواضح أن بعض هذه الكلمات ليست مجرد ألفاظ عربية ، وإنما هى تعبيرات علمية مثل الجبر والمناخ والقلويات والكحول ، وهذا يدل على أن العرب هم الأساتذة الأول لهذه العلوم ، وهم مكتشفوها ، وأن الغرب تعلمها منهم ونقل تعبيراتها العربية عنهم .

وقد قرأت فى هذا الشأن اقتراحاً عملياً جاء فى كتاب « تخطيط الإعلام العربى » بقلم عقيل هاشم الصادر عن مركز الأبحاث فى سلسلة دراسات فلسطينية رقم ٤٥ . ويكون من المناسب أن نورد هذا الاقتراح كمثال لما يمكن أن تقوم به السينما التسجيلية . يقول السيد/عقيل فى اقتراحه :

« كثيراً ما راودتنى فكرة وضع فيلم عن العرب وأنا واقف فى ميدان « ترافلجار » فى لندن . لو قدر لى هذا فإننى سأهز أوصال كل المتفرجين بريطانيين وغربيين على السواء ! سأخبر الحاضرين بأن ميدان « ترافلجار » عربى الأصل (الطرف الأغر) ، وأن الشيكات التى تتعامل بها البنوك الكبيرة التى فى ذلك الميدان استخدمت تسميتها من كلمة عربية ، وأن الأرقام التى تحملها من اكتشافات

العرب ، وأن المجارى تحت ذلك الميدان اقتبست من مجارى بغداد وقرطبة عندما كانت لندن وأية مدينة غربية أخرى مجرد أكداس من الطين والأوساخ ! وأن النجوم التى تحلق فى سماء صافية فوق ميدان (ترافلجار) عربية الأسماء اكتشفها علماء فلك عرب ، وأن تكنيك الملاحة الذى استعمله القائد البحرى نلسون اكتشف وطور على يد ملاحين عرب ، وأن لقب أدميرال الذى عرف به نلسون كلمة عربية الأصل ! وسأدهش الحاضرين أكثر عندما أبلغهم أن الماء الصاعد من نوافير الميدان ماء صاف بفضل انتصارات العلماء العرب القدامى فى علم الكيمياء ! وأن أى عالم غربى يحاضر الآن فى متحف مجاور أو معهد علمى مجاور ويشير إلى « ثقافتنا الإغريقية » العظيمة إنما يعنى ثقافتنا التى حافظ عليها وترجمها وصقلها وطورها وأهداها لنا العرب . وأن علوم الجبر والهندسة التى ساعدتنا على بناء الميادين الكبيرة الشبيهة بهذا الميدان إنما ورثناها عن العرب . وأن صحة عابرى هذا الميدان اليوم إنما أمكن المحافظة عليها بهذا المستوى الجيد بفضل ما خلفه لنا الأطباء العرب القدامى من دراسات وتحقيقات طبية كالرازى وابن سينا » .

ولا جدال فى أن مثل هذا الفيلم الذى يجمع صوراً عديدة من إسهامات العرب فى الحضارة الإنسانية سيكون له أثر كبير فى تغيير الصورة المنطبعة عن العرب والتى شوهتها الدعاية الصهيونية .

٢ – نعرض على العالم صور كفاح الإنسان المصرى المعاصر من أجل التقدم والنهوض ببلده سواء فى مجال الزراعة أو فى مجال الصناعة أو فى مجال الخدمات .

وقد استطاعت إسرائيل مثلاً أن تخلق أسطورة انتشر صداها فى مختلف أنحاء العالم تتحدث عن تحويل الأرض القاحلة فى الصحراء الفلسطينية إلى مزارع وارفة وجنان ، على حين أن هناك مشروعات مشابهة تجرى فى كثير من البلاد العربية ، وقد يفوق بعضها ما يجرى فى إسرائيل ولا تعرف شعوب العالم شيئاً عنها . ولنضرب

مثلاً بمشروع مديرية التحرير فى مصر الذى دفع الكاتب اليهودى «المربرجر» إلى الإشادة به عندما قام بزيارته عام ١٩٥٥ ، وكان وقتها يشغل منصب المدير الإدارى للجمعية الأمريكية اليهودية العالمية ، وقد سجل (المربرجر) انطباعاته فى مجموعة رسائل بعث بها إلى رئيس مجلس إدارة الجمعية المذكورة وإلى أحد أعضائها . يقول (برجر) يصف مشروع مديرية التحرير :

« تحت الشمس اللافحة المتوهجة شاهدت هؤلاء العرب يعملون ويستخدمون أكبر ما رأيته من الآلات الحديثة ! ورأيت أيضاً مفارخ الدجاج النظيفة التى يشرف عليها أشخاص ماهرون ، وكذلك حقول الاختبار الزراعى وفيها يحاولون أن ينتقوا المزروعات التى تثمر أكثر من سواها » .

وتجب الإشارة إلى أن هذا الكلام صدر فى عام ١٩٥٥ ، وأنه منذ ذلك التاريخ حتى الآن قام المصريون بتحقيق إنجازات أخرى كثيرة تفوق فى طموحها ما شاهده (المربرجر) وبهره . ومن هذه الإنجازات الوادى الجديد والسد العالى واستصلاح الأراضى . وقد أتيح للباحث أن يزور ليبيا ويشاهد على الطبيعة مشروعات استصلاح وتعمير الأراضى التى تباشرها الخبرات المصرية هناك ، وشاهد بنفسه المعجزات التى يحققها الإنسان المصرى البطل فى أرض الصحراء الليبية ، وشاهد كيف أن الخبرات المصرية أصبحت تنافس بكل ثرائها أعرق بيوت الخبرة العالمية فى تعمير واستصلاح الأراضى ؟ كل هذه الإنجازات وغيرها يجب عرضها على العالم فى أفلام تسجيلية تثبت أن المصريين ليسوا أناساً سلبيين ارتضوا واقعهم كما هو ؛ وإنما هم يكافحون لتغيير هذا الواقع من أجل حياة أفضل ، وأنهم استوعبوا العصر بكل إنجازاته الحضارية .

وعلى رأس القائمة لهذا النوع من الأفلام أفلام عن حرب (٦ أكتوبر) وحولها . . وينبغى هنا أن نركز على أن الجو العالمى أصبح الآن ممهداً لنجاح إعلامنا

الخارجي فى هذا الشأن بفضل الإنجاز الكبير الذى تحقق فى (٦ أكتوبر) العظيم . وكان من أهم نتائجه أنه فتح الباب لنظرة جديدة على الحقيقة العربية المعاصرة وإمكانات تطورها . وبذلك أصبحت شعوب العالم على استعداد لقبول حقيقة أن إسرائيل ليست هى القوة (الوحيدة) المتقدمة فى المنطقة .

وهذه بلا شك فرصة مواتية يجب علينا استغلالها بالإعلام العلمى المدروس ، ويجب أن يوضع الفيلم التسجيلى فى مكانه الصحيح بين وسائل الإعلام المتاحة فى هذا المجال .



خط بارليف الأسطورة التى تحطمت
(لقطة من فيلم تسجيلى عن انتصار أكتوبر)

الفصل الخامس

مشاكل الفيلم التسجيلى

خلصنا مما سبق إلى أن الفيلم التسجيلى يعتبر من أنسب وسائل الاتصال الجماهيرية التى يمكن توظيفها لخدمة أغراض التنمية ، ثم انتهينا إلى تحديد الوظائف التى يمكن أن يؤديها الفيلم التسجيلى فى خدمة أهداف التنمية فى مصر. وننتقل الآن للحديث عن المشاكل التى تعترض الفيلم التسجيلى عادة والتى تعوق انتشاره أو تعوق أداءه لدوره.

والحقيقة أن هناك مشاكل كثيرة تحيط بالفيلم التسجيلى فى الدول النامية ، وبعض هذه المشاكل يتعلق بالاعتبارات الفنية ، وهى ما يتصل بمشاكل الإنتاج والعرض ؛ وبعضها يتعلق بالاعتبارات الثقافية ، وهى ما تتصل بالفروق الثقافية بين مختلف أفراد الشعب الواحد فى الدول النامية . وسنتعرض لكل نوع من هذه المشاكل على حدة ، وسنبدأ بالتعرض لهذه المشاكل بالنسبة للدول النامية عامة ، ثم نحاول تطبيق هذا على الواقع المصرى .

أولاً : المشاكل الفنية :

تتصل المشاكل الفنية بالنسبة للفيلم التسجيلي فى الدول النامية بعمليتى الإنتاج والعرض معاً. ويجب الاهتمام بهما فى الوقت نفسه وبالاهتمام نفسه ، وخاصة أن الفيلم التسجيلي فى الدول النامية عمل ذو هدف اجتماعى فى المقام الأول ، وليس مجرد إنتاج فنى مثل (اللوحة) التى يرسمها الفنان التشكيلى ولا يطمع إلا فى عرضها فى معرض يؤمه هواة الفن التشكيلى ، ويسعده فى النهاية أن تباع ؛ لتحتل مكاناً فى منزل أحد هواة الفن أو أحد هواة الزينة . فالفيلم التسجيلى فى الدول النامية شىء آخر له وظيفة اجتماعية خطيرة كما سبق أن أوضحنا . ولهذا يكون من الأهمية بمكان عند دراسة المشاكل الفنية للفيلم التسجيلى أن تعطى كُلا من مشاكل الإنتاج ومشاكل العرض اهتماماً كبيراً .

١ - مشاكل الإنتاج :

وتنقسم الدول النامية فى هذا إلى نوعين :

النوع الأول : هو الذى لم يعرف صناعة السينما أصلاً فتكون أولى هذه المشاكل هى مشاكل وجود الصناعة نفسها : أى الآلات اللازمة والقوات البشرية الخبيرة بإدارة وتشغيل هذه الآلات من مخرجين ومصورين وخبراء فى المعامل الخ وإن إنتاج الأفلام التسجيلية لا يحتاج فى بدايته إلى تقدم تكنولوجى كبير ولا إلى مؤسسات ضخمة ، بل يكتفى فى البداية بآلة تصوير ١٦ مللى ومعمل متواضع مع الاكتفاء فى البداية بالفيلم الصامت على أن يقوم أحد الإخصائيين بالشرح فى أثناء العرض تحقيقاً لمزايا الاتصال الشخصى المباشر ، أما بالنسبة للخبرات البشرية فإنه إذا لم يتيسر هذا بين السكان الوطنيين فى الدول النامية فإنه يمكن

استيراد هذه الخبرات لحين تدريب الوطنيين على مثل هذه الأعمال. وإنه علاجاً للحساسيات التى قد تحس بها بعض الدول النامية إزاء الدول المتقدمة – يمكن استيراد هذه الخبرات من المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة مثل اليونسكو أو من دول نامية أخرى سبقتها فى هذا النوع من النشاط . وإن بداية صناعة السينما فى مثل هذه الدول بالفيلم التسجيلى تكون بداية سليمة حيث إن الفيلم التسجيلى يمثل احتياجاتها العاجلة بالنسبة لهذه الصناعة ؛ كما أنه يتفق مع ظروفها حيث إن الفيلم الروائى يحتاج إلى تكاليف أكثر وإلى خبرات أطول وإلى آلات أكثر تعقيداً وإلى مؤسسات ضخمة .

ونحب أن نؤكد أن أى مبالغ تنفقها الدولة النامية فى خلق صناعة أفلام تسجيلية واعية بدورها الاجتماعى فى خدمة خطة التنمية لا تكون مبالغ ضائعة ، وإنما هى مبالغ تنفق فى صميم التنمية لأن هذه الأفلام تعاون فى تنشيط الخطة وفى ضمان مشاركة الجماهير فى تنفيذها بالإضافة إلى ما تستطيع أن تفعله فى قضايا التعليم ومحو الأمية ، وهو ما سبق بيانه بالتفصيل ، ومن ثم فإن توجيه هذه المبالغ إلى هذه الناحية يعد استثماراً قومياً كبيراً .

النوع الآخر من الدول النامية تقف على رأسها مصر وهى الدول التى عرفت صناعة السينما منذ فترة ، وتمتلك الآلات والخبرات الكافية وكان يمكن أن تزدهر فيها حركة إنتاج الأفلام التسجيلية ، ولكن هذا لم يحدث مع الأسف ، وذلك لاتجاه الصناعة بكل اهتمامها نحو الفيلم الروائى ، وذلك لأن الفيلم الروائى من وجهة نظر المنتجين هو العمل المضمون الربح . ومن وجهة نظر العاملين هو العمل الذى يحقق أجوراً أكبر وهو العمل الأكثر بريقاً وشهرة .

وإنه من الخطأ النظر إلى الفيلم التسجيلى فى الدول النامية من زاوية الربح ، وإن كان هذا البحث ضد الدعوى بأنه الفيلم التسجيلى لا يحقق ربحاً فهناك دول

مختلفة مثل كندا وأستراليا لا تنتج سوى أفلام تسجيلية وتحقق منها أرباحاً كبيرة . . إن هذا ليس موضوع دراستنا . وإن النظرة من هذه الزاوية نظرة خاطئة ؛ لأن الفيلم التسجيلى فى الدول النامية يجب أن ينظر إليه أساساً كخدمة قومية وكاستثمار طويل الأمد مثل التعليم . وهنا يبرز دور الدولة فى هذا الشأن : فيجب أن تقوم الحكومات فى الدول النامية بعبء تمويل الأفلام التسجيلية والإنفاق على إنتاجها وتشجيع العمل فيها ، فترصد لذلك الأموال اللازمة كما تقرر حوافز للعاملين فى هذه الأفلام كرصد جوائز أو خلع ألقاب شرف مع عدم التفرقة فى المعاملة بين العاملين فيها والعاملين فى الأفلام الروائية . وفى الوقت نفسه يجب على هؤلاء الفنيين أن يشعروا بواجبهم القومى إزاء وطنهم ويبادروا بالعمل فى هذا النوع من الأفلام .

٢ – مشاكل العرض :

بالنسبة لمشاكل العرض السينمائى فى الدول النامية هناك نوعان من هذه المشاكل :

النوع الأول يتصل بالعرض السينمائى عامة بما فيه الأفلام التسجيلية والأفلام الروائية .

والنوع الآخر يتصل بالأفلام التسجيلية خاصة ، وسنتعرض لكل نوع على حدة .

أولاً : مشاكل العرض السينمائى عامة :

وتتركز هذه المشاكل فى عدم وجود دور العرض اللازمة لعرض الأفلام على الجماهير العريضة فى مختلف أنحاء الوطن النامى ، وإن وجدت هذه الدور فى بعض الدول النامية فإنها مركزة فى العاصمة وفى المدن الكبرى حيث تتركز أيضاً باقى

وسائل الاتصال الجماهيرية الأخرى ، وحيث يكون دور الفيلم ليس أساسيًا بل مكملاً لدور وسائل الاتصال الأخرى . وهناك حلان لهذه المشكلة :

الحل الأول هو قيام حكومات الدول النامية بإنشاء دور العرض فى القرى والمناطق النائية . وإنه من الطبيعى أن تتجه رءوس الأموال الخاصة التى تسعى للاستثمار عن طريق العرض السينمائى إلى المدن لضمان الكسب حيث إن دور العرض الريفية غير مضمونة الكسب ، ولهذا فإن نشر دور العرض فى المناطق الريفية والنائية يجب أن ينظر إليه كخدمة تتحملها حكومات الدول النامية . . ويجب أن ينص على المبالغ اللازمة لهذا فى ميزانيات هذه الحكومات بحيث تشترك فيه جميع المصالح الحكومية حتى تتوزع التكاليف ، وهناك تجارب بدأ تنفيذها فى بعض الدول النامية نذكر منها التجربة التى بدأت فى مصر تحت اسم مشروع ناصر :

فإنه برغم أن عدد دور العرض قد ارتفع بشكل ملحوظ وسريع بعد قيام الثورة فى عام ١٩٥٢ من ٢٩٠ دار عرض فى عام ١٩٥١ إلى ٣٧٥ دار عرض فى عام ١٩٦١ ، وارتفع عدد الكراسى إلى ٤٠٠٠٠٠ كرسى أى بمعدل كرسى لكل ٦٥ مواطناً – فإن الحكومة فى مصر قد وجدت عام ١٩٦٣ أن عدداً كبيراً من مواطنى الريف لم يشاهدوا السينما طوال حياتهم . . وأن المسح الثقافى لقرية (الشرفا) التى تبعد عن القاهرة بكيلو مترين فقط . قد أثبت أن ٢ ٪ من مجموع هذه القرية فقط هم الذين سبق لهم مشاهدة السينما . وقد أدى هذا الاكتشاف بالحكومة إلى إعلان مشروع ناصر الذى كان يهدف إلى إنشاء أربعة آلاف دار عرض سينمائى فى جميع قرى الريف المصرى . وقد أعلن أن هذا المشروع سيساعد على عبور المسافة الشاسعة بين الريف والحضر ، كما يحقق لجماهير الريف الترفيه والتسلية . وكذلك سيساعد فى رفع المستوى الثقافى للفلاحين إيماناً بأن السينما التى تفوز بشعبية كبيرة ستكون أكبر وسيلة مؤثرة لتوصيل الاتجاهات والقيم الجديدة للفلاحين وقاطنى المناطق النائية ،

وذلك إذا أحسن توظيفها .

وقد أثبتت الدراسات التى أجريت فى ذلك الوقت أن بناء دار للعرض فى الريف يكلف ألفى جنيه . وأن كل دار عرض ستحقق خسارة مقدارها ثمانون جنيها كل شهر (تشغيل السينما سيكلف ١٢٠ جنيها على الأقل،على حين أن دخل التذاكر لن يزيد عن ٥٠ جنيها حيث إن التذاكر ستكون رخيصة لا تزيد على قرش صاغ وتكون معفاة من ضريبة الملاهى) . ولما كانت المبالغ المطلوبة لهذا تعجز عن الوفاء بها ميزانية الشركة العامة للتوزيع التى وُكِلَتْ إليها مهمة تنفيذ المشروع فلهذا اقترحت الصحافة أن تساهم أكثر من جهة فى تمويل المشروع مثل الإدارة العامة للإرشاد الزراعى ووزارة الصحة ووزارة الثقافة وإدارة الأندية الريفية، ووزارة التعليم ، وذلك بالتعاون مع الشركة العامة للتوزيع السينمائى . على أن يكون لكل من هذه الجهات حق استخدام هذه الدور فى توصيل الرسائل التى ترغب فى توصيلها إلى الفلاحين . وكان لابد لكى يتم تنفيذ هذا المشروع أن تشترك كل هذه الجهات وغيرها فى تمويله ، ولكن حتى الآن لم يتم اتخاذ أى إجراء . هذا بالنسبة للحل الأول .

أما الحل الآخر فهو استخدام سيارات العرض المتنقلة بحيث تخدم السيارة الواحدة رقعة كبيرة نسبيًّا من الأرض تضم مجموعة من القرى فى وقت واحد . وبذلك يتم ضغط المصروفات من حيث الإنشاء ، فلا يلزم إقامة دار للعرض فى كل قرية ومن حيث التشغيل حيث إن السيارة الواحدة تحتاج إلى طاقم فنى واحد على حين أن كل دار عرض تحتاج إلى طاقم خاص بها . ويمكن فى هذه الحالة أن يتم العرض فى الهواء الطلق فى ليالى الصيف . أما فى ليالى الشتاء فيتم العرض فى أى مكان مغلق بالقرية ، ولا شك أن دخول سيارة السينما إلى قرية ما من آن لآخر سيكون حدثاً هامًّا بالنسبة لأهل القرية يدفعهم إلى التجمع لمشاهدة السينما .

وإذا كان توفير هذه السيّارات يحتاج إلى أموال قد تعجز ميزانيات بعض الدول النامية عن الوفاء بها فيمكن الاكتفاء فى البداية بآلات العرض المتنقلة بحيث يتم نقلها من قرية إلى أخرى بأية وسيلة . ويلحق بها جهاز توليد كهربا سهل الحمل حتى يمكن تشغيلها فى القرى البعيدة عن مصادر الكهربا . ويحكى روجر مانفيل فى كتابه (فيلم) كيف أنهم فى الاتحاد السوفيتى بعد الثورة كانوا يستعملون مثل هذه الآلات المتنقلة لتنظيم العروض السينمائية فى جميع المناطق النائية ومنها سيبيريا . وكانوا يضطرون فى بعض الأحيان إلى نقل هذه الآلات بالكلاب . وإنه فى عام ١٩٣٩ كان هناك ما يقرب من ١٨ ألف جهاز عرض متنقل يستخدم فى القرى .

هذا وقد فطنت بعض الدول النامية إلى أهمية استخدام آلات العرض المتنقلة والسيارات ففى مصر المئات من هذه السيارات التى تتبع وزارتى الصحة والزراعة وهيئة الاستعلامات والثقافة الجماهيرية . وفى غانا أسطول مكون من ٤٠ إلى ٦٠ عربة مجهزة بأدوات سينمائية يستخدم فى إعداد البرامج التعليمية والتطويرية .

آخراً : مشاكل عرض الفيلم التسجيلى خاصة :

لا يلقى الفيلم التسجيلى فى البلاد النامية العناية والاهتمام الجديرين به ، وقد سبق أن أشرنا فى معرض الحديث عن مشاكل الإنتاج إلى عدم اهتمام المنتجين والعاملين بالأفلام بالفيلم التسجيلى واتجاههم إلى العمل فى الفيلم الروائى . وهناك مشاكل من هذا النوع بالنسبة لعرض الأفلام التسجيلية . فدور العرض عادة لا تهتم بهذا النوع من الأفلام . وإنه برغم وجود المشاكل التى تعترض إنتاج الأفلام التسجيلية فإن حركة إنتاجها تكون عادة أسرع من حركة العرض ، لأن أغلب دور العرض لا تعطى اهتماما كبيراً بعرض الأفلام التسجيلية . والسبب الرئيسى فى هذا هو انعدام الوعى بأهمية هذه الأفلام .

وأرى أن حكومات الدول النامية لابد أن تتدخل لحل هذه المشكلة بإلزام دور

العرض بوضع الأفلام التسجيلية ضمن عروضها . كما يجب أن تكون هذه الأفلام مادة رئيسية فى برامج دور العرض التى تنشئها الحكومات سواء فى المدن أو فى برامج العروض التى تنظمها عن طريق السيارات أو آلات العرض المتنقلة . لا بأس من أن تتضمن هذه العروض بعض الأفلام الروائية ولكن يجب أن تكون الأفلام التسجيلية مادة أساسية فى هذه البرامج .

التليفزيون والمشاكل الفنية للفيلم التسجيلى

لعل دخول التليفزيون إلى الدول النامية يقدم حلاً هاماً بالنسبة لمشاكل إنتاج وعرض الأفلام التسجيلية : فالتليفزيون يمتلك إمكانين هائلين قد لا يتيسران معاً لأية جهة أخرى من الجهات التى تقوم بإنتاج هذا النوع من الأفلام .

أولاً : إمكان الإنتاج على نطاق كبير . .

وآخراً إمكان العرض الواسع . وهذا الإمكان الأخير يتميز به التليفزيون عن الجميع : فالتليفزيون يستطيع أن يعرض أكثر من فيلم تسجيلى فى اليوم . ويستطيع أن يعرض إنتاجه وإنتاج غيره منها . وهو حين يعرض فيلماً منها فإنه فى هذه المرة نفسها وفى الوقت نفسه سيتم استقباله ومشاهدته فى سائر المدن والقرى التى يصل إليها الإرسال . أما بالنسبة للعروض السينمائية فإنه إذا تيسر العرض أولاً فإنه لا يتيسر مشاهدته فى المرة الواحدة إلا بالنسبة للذين فى مكان العرض الذى مهما اتسع فإنه لا يستوعب أكثر من ألف أو ألفى شخص . على حين أن مشاهدى التليفزيون فى المرة الواحدة قد يبلغون الملايين .

هذا بالإضافة إلى أن التليفزيون هو المنتج وهو فى الوقت نفسه العارض . على حين أنه بالنسبة للجهات الأخرى التى تنتج أفلاماً تسجيلية فإن أغلبها عادة لا تملك إمكان العرض دائماً ، وخاصة أننا قد عرفنا أن أغلب دور العرض فى الدول النامية لا تعطى الفيلم التسجيلى اهتماماً كبيراً .

ثانياً : المشاكل الثقافية :

ستتعرض فى هذا البحث إلى نوعين من المشاكل الثقافية تعترض الفيلم التسجيلى فى الدول النامية .

النوع الأول خاص بالعاملين فى الأفلام التسجيلية ، وهى تتصل بخطوات العمل التى يجب أن يكونوا على دراية بها ويتبعوها فى أثناء الإنتاج حتى تحقق أفلامهم الأغراض المطلوبة منها .

والنوع الآخر خاص بالمتفرجين على الأفلام التسجيلية ، وهى تتصل بالمستوى الثقافى والمشاكل الدلالية .

وحيث إن الهدف من الفيلم التسجيلى أولاً وآخراً هم هؤلاء المتفرجون فإن العاملين فى الأفلام التسجيلية لا ينتجونها لذاتها ، وإنما ينتجونها من أجل هؤلاء المتفرجين . لهذا كان من المناسب أن نتعرض للمشاكل التى تتصل بهؤلاء المتفرجين أولاً .

المشاكل الثقافية الخاصة بالمتفرجين :

أهم هذه المشاكل ما يتصل باختلاف المستوى الثقافى بين العاملين فى إنتاج الأفلام التسجيلية والجماهير المعينة التى توجه إليها هذه الأفلام : فالعملية التى تتم من خلال الأفلام التسجيلية عملية اتصالية ، ومن الأمور الهامة فى نجاح أية عملية

اتصالية وجود خبرة مشتركة بين المرسل والمستقبل . ولتفسير هذا نضطر إلى التعرض بإيجاز لشرح عملية الاتصال ذاتها باختصار شديد ودون أن نتعرض لتناول النماذج المختلفة لعملية الاتصال بالشرح . نستطيع أن نقول بسرعة : إن أية عملية اتصالية تحتاج إلى ثلاثة عناصر رئيسية هي :

المصدر أو المرسل – الرسالة – الهدف أو المستقبل :

فهناك مصدر أو مرسل يقوم بتحويل الرسالة التي يريد توصيلها إلى رموز في شكل كود ، ثم يرسلها إلى المستقبل أو الهدف . وإنه لكي تكمل عملية الاتصال لابد من أن يقوم المستقبل بفك رموز الرسالة وتفهمها والرد عليها في شكل رد الفعل الذي يعرف برجْع الصدى . وإنه حتى يستطيع المستقبل أن يفك رموز الرسالة لابد أن يكون بينه وبين المرسل خبرة مشتركة . وإنه متى صعب على المستقبل فك رموز الرسالة الموجهة إليه فالعملية الاتصالية وإن تكن قد تمت شكلاً لم تتم موضوعاً ، وهو الغرض الأساسي من العملية الاتصالية .

هذا شرح مبسط للعملية الاتصالية ، وهي تنطبق على كل عمليات الاتصال بما فيها العملية التي تتم من خلال الأفلام التسجيلية . وإنه برغم اعتماد الفيلم التسجيلي على الصورة التي تعد لغة عالمية يفهمها الجميع بصرف النظر عن مستواهم الثقافي فإن بعض هذه الصور قد تحمل رموزاً ومضامين لا تتفق مع خبرات وثقافة الجماهير الموجهة إليها ، فيصعب فهمها ، بل قد تأتي بنتائج عكسية . وهذا ما يعبر عنه علماء النفس الاجتماعي وعلماء الاتصال باختلاف الإطار المرجعي أو الإطار الدلالي .

ومن الأمثلة التي يمكن الإشهاد بها في هذا المجال أن بعض أهالي جنوبي أفريقيا فسروا الرسوم المتحركة التي تعرضها أفلام الكارتون على أنهم أفراد مشوهون أو فاقدو البصر ، وأن الصورة المكبرة (للقملة) في أفلام هيئة الصحة العالمية

تصورها الفلاحون فى (بيرو) على أنها حيوان جديد غريب ! وحدث فى الهند فى أثناء حملة لمكافحة الذباب أن عرضت بعض الأفلام التى تبين أخطار الذباب وما ينقله من أمراض ، وكان أحد الأفلام التى عرضت يتضمن لقطة كبيرة للذبابة تبين تفاصيل جسمها ، وتوضح كيف أن الذبابة تنقل الجراثيم والميكروبات من الأماكن الملوثة إلى الأغذية وإلى عيون الأطفال بين تجاويف جسمها التى تعرضها الصورة ؟ وعند إجراء اختبار لمعرفة أثر الفيلم على المشاهدين قال أحدهم : إنه لم ير ذباباً بهذا الحجم ، وإنه لا بأس من وجود الذباب الصغير الذى لا يستطيع حمل هذه الأمراض ! وهكذا فشلت الرسالة الإعلامية .

ويحكى الدكتور إبراهيم إمام إحدى الوقائع التى – وإن كانت لا تتصل بالأفلام التسجيلية – تُلقى ضوءاً كبيراً على ما قد يحدثه اختلاف الإطار الدلالى من نتائج عكسية .

هذه الواقعة حدثت فى أثناء إحدى عمليات التوعية بتنظيم الأسرة فى محافظة بنى سويف : فقد اختبرت قرية تعلو بها نسبة الأمية ، وأعدت لافتة كبيرة من القماش رسم عليها من جهة اليمين فلاح نظيف سليم البدن ومعه زوجته التى ترتدى ملابس جميلة ، ويشع من وجهها إحساس بالسعادة وقد ظهر إلى جوارها طفلاها – ولد وبنت – يحملان كتباً وكراسات توحى بأنهما يتعلمان فى مدرسة القرية . هذه إذن أسرة سعيدة على الجانب الأيمن من اللافتة . أما على الجانب الأيسر فقد صورت أسرة أخرى على النقيض من ذلك : فلاح مريض وزوجته متعبة مرهقة ترتدى ملابس رثة ممزقة ، وتجر وراءها تسعة أطفال يعانون من أمراض مختلفة . والعجيب أنه عند إجراء الاختبار المبدئى على هذه اللافتة لمعرفة أثرها قبل تعليقها قالت إحدى السيدات التى وجه إليها السؤال عما تفهمه من اللافتة :

إنها ترثى لحال السيدة المسكينة على يمين اللافتة ، وترجو لها المزيد من الخلف

الصالح ! لقد فهمت هذه السيدة مضمون اللافتة من خلال إطارها الدلالى الذى يشير مثلاً إلى أهمية الذرية كرابطة بين الزوج والزوجة أوكدليل على المكانة الاجتماعية فى القرية أو غير ذلك من الأسباب التى ترتبط هى وعوامل مختلفة أهم من مجرد النظافة السطحية أو المظهر الشكلى .

أما كيف يتغلب العاملون فى الأفلام التسجيلية على هذه المشكلة فهذا ما سنتعرض له الآن .

المشاكل الثقافية بالنسبة للعاملين فى الأفلام التسجيلية .

إن أهم مشكلة قد يقع فيها العاملون فى الأفلام التسجيلية هو عدم وضع المستوى الثقافى للجمهور فى حسابهم والاعتماد بأن الجمهور سيفهم ما يقدمونه له من معلومات بالطريقة التى يفهمون هم بها نفسها : فهنا كما اتضح عقبات كثيرة تحول دون هذا الفهم ، ومن هذه العقبات التحيز والتعصب والخرافات والأوهام ؛ كما أن هناك عقبات تنشأ من اختلاف السن والدين والاتجاهات السياسية والاقتصادية واختلاف اللغة . والمقصود باللغة هنا ليست لغة التخاطب فقط ، وإنما لغة الفهم والتفكير أيضاً : فقد يكون هناك اثنان يتخاطبان بلغة التخاطب العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية نفسها ولكنهما لا يفهم بعضهما بعضا ؛ لأن لغة التخاطب تخالف لغة الفهم . فأية كلمة فى أية لغة لها بالنسبة للناطقين بها معنيان : الأول هو المعنى اللغوى الذى فى المعاجم ، والمعنى الآخر هو المعنى الضمنى أو المعنى الدلالى الخاص بكل فرد الذى يفهمه انعكاساً لخبراته الذاتية .

فالإنسان يخالف سائر الكائنات الأخرى فى أنه يعيش فى عالمين عالم خارجى موضوعى وعالم باطنى ذاتى هو محصلة خبراته وتصوراته ومعتقداته عن العالم الخارجى . وإن أية عملية اتصالية لن يتحقق لها النجاح إلا إذا عرف المرسل هذه

العوالم الباطنية للمستقبل ووضعها فى حسابه وهو يحول رسالته إلى رموز أو بالنسبة للعاملين فى الأفلام التسجيلية وهم يحولون رسالاتهم إلى صور فيلسية .

لهذا فإنه حتى يتسنى للعاملين فى الأفلام التسجيلية فى الدول النامية إنتاج أفلام ناجحة تحقق الغرض منها – لابد أن يتوافر لهم ثلاثة أنواع من المعلومات هى :

١ – معرفة تامة بعناصر العملية الاتصالية وبكل ما يحيط بها ، وهذا يتم بالدراسة والاطلاع وتحققه لهم المعاهد والقراءات الخاصة .

٢ – معرفة تامة بالجمهور الذى توجه هذه الأفلام إليه ، وهذا يتم على المستوى العام عن طريق الأبحاث الميدانية التى يجب أن تجريها حكومات الدول النامية من آن لآخر ، وكذلك مراكز البحوث إن وجدت كالمركز القومى للبحوث الاجتماعية الذى فى مصر .

وتتم هذه المعرفة على المستوى الخاص عن طريق الملاحظة والمعايشة الشخصية ، وهذا يعد من أهم مقومات نجاح العاملين فى الأفلام التسجيلية : فإنه لما كان الاهتمام الرئيسى للأفلام التسجيلية فى الدول النامية هو عمليات بناء المجتمع الجديد وما يحيط بها ويستتبعها من مشاكل اجتماعية واقتصادية . ولما كان الشعب هو العماد الرئيسى لكل هذه العمليات وهو فى الوقت نفسه الهدف من هذه الأفلام – فلهذا يصبح من أهم واجبات العاملين فى الأفلام التسجيلية فى البلاد النامية معايشة هؤلاء الناس . عليهم أن ينتشروا فى جميع الأرجاء ليلاحظوا ويتأملوا ويدرسوا ثم يحاولوا ترجمة ملاحظاتهم واكتشافاتهم فى أفلام تسجيلية تخاطب الاحتياجات الحقيقية لهؤلاء الناس ؛ كما يتفق أسلوبها مع مستواهم الثقافى وطرق تفكيرهم .

٣ – المعرفة الحرفية : فيجب على العاملين فى الفيلم التسجيلى الإلمام بقواعد

العمل فى السينما عامة وفى الأفلام التسجيلية خاصة . حيث إن العمل فى الأفلام التسجيلية له طبيعة خاصة .

وتتصل المعرفة الحرفية بجانبين : جانب تخطيطى وآخر تنفيذى وسنتعرض للجانبين بشىء من التفصيل :

أولاً : التخطيط للأفلام التسجيلية :

فى مجال التخطيط للأفلام التسجيلية هناك ثلاثة مستويات للتخطيط لابد من الإشارة إليها وهى :

١ – مستوى عام ، وهو يشمل الخطة العامة لجميع وسائل الإعلام فى البلد النامى ، ومن بينها الفيلم التسجيلى ، وهى تتصل أساساً بالخطة العامة للدولة ، وهذا هو واجب الحكومة أو القيادة السياسية فى الدول النامية كأساس ، وليس للمسئولين عن الأفلام التسجيلية سوى دور استشارى ذلك فيما يتصل بحدود عملهم وموقعهم من الخطة العامة . والحقيقة أنه فى مجال توظيف الفيلم التسجيلى فى خدمة قضايا التنمية يجب ألا ينظر إليه مستقلاً ؛ وإنما من خلال ارتباطه بخطة وسائل الإعلام كلها .

٢ – مستوى ثان خاص بالأفلام التسجيلية عامة ، ويجب أن يضعه الجهاز المركزى الذى يشرف على إنتاج الأفلام التسجيلية على مستوى الدولة النامية إن وجد هذا الجهاز ، أما إذا كانت هناك أكثر من جهة تقوم بإنتاج الأفلام التسجيلية فى الدولة النامية فيجب أن تكوّن لجنة تمثل فيها جميع هذه الجهات ، وتكون مهمة هذه اللجنة وضع المستوى الثانى من الخطة على ضوء الخطة العامة التى وضعتها القيادة السياسية .

وهذا المستوى الثانى من الخطة يتعرض لتحديد الموضوعات التى ستعالجها

الأفلام التسجيلية خلال فترة محدودة . على أن تحدد أولويات هذه الموضوعات على حسب أهميتها وعلى حسب تناسبها مع الظروف .

٣ – مستوى ثالث ، وتقوم به وحدات الإنتاج كل بحسب الموضوعات التى توكل إليها ؛ فإنه بعد تحديد السياسة العامة للأفلام التسجيلية وصلتها بسائر وسائل الإعلام الأخرى ، وبعد تحديد الموضوعات الهامة التى ستعالجها هذه الأفلام وأولوياتها – فإنه لابد بعد ذلك من أن يكون هناك تخطيط تفصيلى لكل موضوع من هذه الموضوعات على حدة : ولنأخذ مثلاً موضوع تحديد النسل ، وهو من الموضوعات الهامة التى يجب أن تعالجها الأفلام التسجيلية فى كثير من الدول النامية .

إننا إذا أردنا أن نعالج موضوعاً مثل موضوع تحديد النسل فى سلسلة من الأفلام التسجيلية لابد لنا أن نسأل أنفسنا أولاً .. إلى من نوجه هذه الأفلام ؟ إلى سكان المدينة ، أم إلى سكان الريف ؟وهل نوجهها إلى المرأة أو إلى الرجل ، أو الاثنين معاً ؟ ثم ماذا نريد أن نقوله فى هذا الموضوع بالنسبة لهذا الوقت ؟ وهل الناس مقتنعون أصلاً بهذه المسألة أو لا ؟ وقد تكون الإجابة بالنفى فيكون من الضرورى أولاً البدء بقيام فيلم أو بمجموعة أفلام هدفها إقناع الناس بأهمية وضرورة تحديد النسل . وهنا ينشأ سؤال آخر : كيف نعالج هذه الحملة ؟ وللإجابة على هذا السؤال نجد أنفسنا أمام أسئلة أخرى لابد من الإجابة عليها . . ما وسائل الإقناع ؟ وما العقبات التى قد تقف ضد اقتناع الناس ؟ وقد يرى بعض أنه يكفى فى هذه الحالة عمل فيلم دعائى مباشر يقول للناس : إن تحديد النسل مهم ؛ لكن الأمر ليس بهذه البساطة : فالاقتناع لا يمكن أن يتأتى للناس بالتلقين ، وإنما لابد أن ينبع من ذاتهم .

وعلى هذا النمط لابد أن يسير التخطيط التفصيلى بالنسبة لكل موضوع سواء

كان سيعالج فى سلسلة من الأفلام أو فى فيلم واحد لابد من الإجابة أولاً على هذه الأسئلة الأساسية . . لمن ؟ وماذا ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ .

لمن سنوجه هذا الفيلم ؟

وماذا سنقول له ؟

وكيف سنقوله ؟

ولماذا نقوله ؟

ولابد أيضاً أن نجيب على كل الأسئلة الفرعية التى قد تثيرها الأسئلة الأربعة السابقة .

ثانياً : أسلوب العمل فى الأفلام التسجيلية :

بعد أن تتحدد كل المعلومات الأساسية بالإضافة إلى مجموعة الأسئلة الهامة السابق بيانها وما قد تثيره من أسئلة فرعية – تبدأ مراحل العمل فى الفيلم التسجيلى ، ولن نتعرض بالتفصيل لهذه المراحل . . فهذا ليس موضوع دراستنا . . غير أن هنالك عدة اعتبارات هامة لابد من الإشارة إليها كمؤشرات أساسية تجب مراعاتها عند العمل فى الأفلام التسجيلية منذ لحظة بداية إعداد النص حتى عمل النسخة النهائية من الفيلم .

أول هذه الاعتبارات أن الموضوع فى الفيلم التسجيلى هو نقطة البداية ويجب الاهتمام به والعناية بتوضيحه بمنتهى الدقة . ويعتمد نجاح الفيلم على وضوح موضوعه أولاً . وعلى طريقة معالجة هذا الموضوع وعرضه آخراً . حتى إذا كان الموضوع يهم المتفرج أصلاً فإنه لن يثير اهتمامه إلا عن طريق المعالجة الجيدة والعرض المناسب . . فليس بالضرورة أن الفيلم التسجيلى مادام يتكلم عن حياة الناس وعن مشاكلهم الحقيقية فإنهم سيتشوقون إلى مشاهدته وتتبعه والاقتناع به ،

فإن موضوع أى فيلم مهما بلغت درجة اهتمام الناس به لن يكون فى ذاته كافياً لعمل فيلم ناجح يشدّ اهتمام الناس ؛ فإنه يلزم أيضاً إلى جوار الموضوع الجيد الذى يهم الناس أن تكون المعالجة جيدة أيضاً والعرض مناسباً مع المهارة فى اختيار المرئيات وتجميعها وتركيبها بشكل مدروس يبرز المغزى أو الهدف الذى يراد توصيله للناس ، ومن ثم فإن أحداث الحياة اليومية مهما كانت تهم الناس فإنها لا تكفى تكوين فيلم شائق يرقى إلى مستوى القمة وإلى مستوى الإقناع ؛ فإن مجرد التسجيل لا يمكن أن يصنع فنًّا ؛ وإنما لابد أن يتدخل الفيلم نفسه فى تشكيل الحوادث وتكوينها ليبدى المتفرج رأيه فيها بحيث يلتقطه عن طريق الملاحظة ، وليس عن طريق التلقين ، وذلك مع مراعاة جميع الاعتبارات السابق بيانها وأهمها الإطار الدلالى للمتفرج الذى يوجه إليه الفيلم .

الاعتبار الثانى الذى أود الإشارة إليه هو أن الحركة المناسبة فى الفيلم هى إحدى دعائم نجاحه وللحركة فى الفيلم ثلاثة مصادر هى :

أولا : الحرّكة الذاتية داخل الصورة أو الكادر . . وهذه الحركة قد يقوم بها إنسان أو حيوان أو آلة . والقاعدة فيها أن تكون لها ضرورة ودافع ، وأن تكون متسقة أو مترابطة مع الحركة فى الصور التى تسبقها أو تليها ما لم يكن هناك مبرر لعكس هذا .

ثانياً : الحركة الناتجة عن حركة الكاميرا . . فللكاميرا دور هام فى خلق الحركة واستكمالها سواء بالاقتراب أو الابتعاد أو الارتفاع أو الانخفاض .

ثالثاً : الحركة الناتجة عن القطع وسرعة تتابع اللقطات . والشىء الذى يجب مراعاته فى هذا هو وجوب الموضوعية بالنسبة لسرعة إيقاع الفيلم : أى وجوب التوفيق بين سرعة تتابع اللقطات وبين المضمون العاطفى والنفسى للمشهد . والمعروف أن أية حركة لها سرعة : فقد تكون الحركة سريعة أو معتدلة أو بطيئة . .

• وكل من هذه السرعات له مدلول معين كالآتى :

الحركة البطيئة : معناها الهدوء والتأنى . . وقد تصل إلى الكسل . . وهى ترمز إلى الثبات والثقة والحزم أو التحقق من شىء والإمعان فيه أو الرسوخ والتؤدة .

الحركة المعتدلة أو المتوسطة : معناها الاعتدال الذى يبعث على الاطمئنان ، وهى تأخذ المظهر العادى المألوف لطبيعة الأشياء ، وذلك فى عدم تطرفها أو خروجها على المألوف .

الحركة السريعة : مظهرها النشاط الذى يبلغ حدّ الحماسة ، وهى تدل على الحدة والعنف أو ما هو خارج عن المألوف ، وتدل أيضاً على الإقدام والمرح أو الانقضاض ، أما مدلولها العام فهو النشاط الحاد لأى نوع من المعانى .

والاعتبار الثالث خاص بالصوت والموسيقى التصويرية ، فيجب الاهتمام بها كعناصر أساسية فى الفيلم تكمل الصورة وتدعم الموضوع وتضفى على الفيلم عناصر الواقعية وتساعد فى التأثير ، ولكن على أن يكون الاهتمام منصباً على الصورة فى المقام الأول . وإنه متى كان هناك تفضيل بين الحركة والكلام فيجب أن تفوز الحركة دائماً . إن أهم وظائف الكلام أو التعليق فى الفيلم التسجيلى هو تزويد الصور بتأييد قوى . والقاعدة هى أن يقوم التعليق بتوضيح الصورة وإتمام معانيها دون أن يستقل عنها بإعطاء معلومات غير ضرورية لا يحتاج إليها المتفرج مكتفياً بالصورة ؛ فإن الصورة الغنية بالحركة واضحة المضمون لا تحتاج لأى كلام يوازيها . . وتكون فى ذاتها كافية لإيصال مغزاها إلى المتفرج والتأثير فيه ، ولهذا فإن أى كلام يوضع موازٍ لها يكون أكثر من ضجيج وثرثرة يضر ولن يفيد . هذا بالنسبة للتعليق ، أما بالنسبة للموسيقى التصويرية فيجب التزام الموضوعية بالنسبة لها فيجب ألا تكون

مجرد موسيقى جميلة تصاحب الصور والكلام ، وإنما يجب أن تكون عنصراً مكملاً لتحقيق التأثير المطلوب ولإبراز المغزى : إما بالتوازى أو بالتضاد مع مضمون الصورة على حسب ما يراه المخرج أو ما بفرضه الموقف بالنسبة للمشهد .

الفيلم التسجيلى فى مصر

* وقد يكون من الضرورى قبل التعرض لمشاكل الفيلم التسجيلى فى مصر أن نحاول التعرف على تاريخه وعلى الظروف التى مر بها منذ نشأته فى مصر حتى الآن . . وسنحاول أن يكون هذا الجزء من البحث سجلاً موجزاً لأهم مراحل الفيلم التسجيلى فى مصر يأخذ شكل التقرير دون التعرض لتقييم ما قدم من أعمال .

* مر الفيلم التسجيلى فى مصر بمراحل عديدة منذ نشأت صناعة السينما عندنا حتى الآن ، وقد نشأت هذه الصناعة فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى ، وكانت تعتمد خلال سنوات عمرها الأولى على الجهد الشخصى . .

* وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ نشأة السينما فى مصر : فبعضٌ يرى أنها بدأت سنة ١٩٢٧ بظهور فيلم ليلى ، وبعض يرجع هذا التاريخ إلى ما قبل ذلك ، ولكن الذى لا خلاف عليه هو أن أول فيلم تسجيلى ظهر فى مصر هو فيلم (حديقة الحيوانات) الذى أخرجه محمد كريم ، وصوره حسن مراد فى شهر يونيو من عام ١٩٢٧ . وكان هذا الفيلم من إنتاج شركة مصر للتمثيل والسينما التى أسسها طلعت حرب ، وبعد ذلك أخرج محمد كريم فيلماً تسجيلياً آخر بعنوان (التعاون بين الفلاحين) ، وهو فيلم تعليمى عن التعاون الزراعى .

* من هذا يتضح أن الفيلم التسجيلى ظهر فى مصر مع اللحظات الأولى لبدء

هذه الصناعة فيها . . وقد تلا ذلك عدة أفلام تسجيلية منها سبعة أفلام عن مختلف شركات بنك مصر أخرجها نيازى مصطفى عام ١٩٣٦ . وفيلم الحج الى مكة أخرجه مصطفى حسن عام ١٩٣٨ ، وفيلم وسائل النقل فى الإسكندرية أخرجه صلاح أبو سيف عام ١٩٤٠ ، وفيلم البحرية المصرية أخرجه كمال أبو العلا عام ١٩٤٦ ، وفيلم الجياد العربية (١٩٤٦) ، وفيلم مصر الحديثة (١٩٤٧) ، وفيلم صناعة السكر ، وفيلم مصانع كفر الزيات (١٩٤٨) ، وفيلم يوم فى الريف (١٩٤٩) ، وفيلم الإسكندرية (١٩٥٠) . وهذه الأفلام الأخيرة من إخراج سعد نديم الرائد الأول للفيلم التسجيلى فى مصر . .

* وبالإضافة إلى هذا ظهرت بعض الأفلام الإرشادية أنتجتها وزارتا الزراعة والصحة وبعض الأفلام الإعلانية أنتجتها بعض الشركات للإعلان عن منتجاتها ، وكانت تقوم بعرضها عن طريق وحدات عرض متنقلة مثل أفلام الشيخ شريب الشاى وأفلام سجاير الفيل . . إلخ . .

* وخلال هذه الحقبة أيضاً عرفت مصر الجريدة السينمائية ، فصدرت جريدة مصر الناطقة عام ١٩٣٥ مع بداية إنتاج استديو مصر ، وأشرف عليها حسن مراد ، وكان قد سبق صدور هذه الجريدة عدة محاولات لإصدار جرائد سينمائية يرجع تاريخها إلى عام ١٩١٢ فقد أصدر مواطن فرنسى اسمه دى‌لاجارنى كان يعيش فى الإسكندرية جريدة سينمائية تحمل اسم (فى شوارع الإسكندرية) ، ثم تلاه ضابط مصرى اسمه محمد بيومى وأصدر جريدة سينمائية اسمها « جريدة أمون » ولكنّ هاتين المحاولتين لم يكتب لهما الاستمرار. وتعد جريدة مصر الناطقة أول جريدة سينمائية مصرية تستمر وينتظم صدورها ، وهى تصدر حتّى الآن وإن تغير اسمها أكثر من مرة ، وتغيرت تبعيتها . .

وبرغم كل هذا الإنتاج نستطيع أن نقول : إن مصر لم تعرف الفيلم التسجيلى

على نطاق واسع إلا بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . . فقد كان للثورة تأثير كبير على نهضة الفيلم التسجيلى إيماناً منها بالدور الاجتماعى الخطير الذى يمكن أن يؤديه . . ونجد تفسير هذه النهضة فى مجالات المصالح الجديدة وضرورة تجديد المعتقدات والإعلام عن الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والفنية والثقافية . وقد كان الفيلم التسجيلى خير وسيلة تناسب احتياجات الثورة لتحقيق مثل هذه الأمور ولذلك فإنه مع قيام الثورة بدأت تنشأ حركة واسعة لإنتاج الأفلام التسجيلية سواء عن طريق الأجهزة المتخصصة أوعن طريق الوزارات والمؤسسات المختلفة للإعلام عن نشاطها ، وبدأ الفيلم التسجيلى يجد مكاناً له فى برامج العرض بالنسبة لبعض دور السينما ، وخاصة دور العرض الأولى . .

وقد مر الفيلم التسجيلى بعد الثورة بمراحل مختلفة بدأت مع بداية الثورة وتنقسم إلى خمس مراحل هى :

١ – من تاريخ قيام الثورة حتى عام ١٩٥٧ .

٢ – من عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٦٠ .

٣ – من عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٧ .

٤ – من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٣ .

٥ – من عام ١٩٧٣ م .

المرحلة الأولى :

* تبدأ هذه المرحلة مع قيام الثورة عام ١٩٥٢ ، وتمتد حتى عام ١٩٥٧ ، وهو تاريخ صدور القرار الجمهورى رقم ١٤٩ لسنة ١٩٥٧ بتركيز إنتاج الأفلام التسجيلية فى مكان واحد هو مصلحة الفنون .

* وقد ظهرت فى هذه الفترة عدة أفلام تسجيلية نذكر منها أفلاماً أخرجها

سعد نديم خلال الفترة من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٥٦ وهى الشرطة العسكرية – الاكتشافات الأثرية – الطعام للجميع (١٩٥٤) ، القاهرة – الجلاء (١٩٥٥) وسلسلة أفلام تسجيلية عن العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وتعتبر أول سلسلة من نوعها فى تاريخ الفيلم التسجيلى المصرى ؛ كما ظهر فيلم النفط فى مصر إخراج صلاح أبو سيف . .

وقد شهدت هذه المرحلة اتجاهاً أكثر من جهة لإنتاج الأفلام التسجيلية ، ونذكر منها مصلحة الاستعلامات ومصلحة السياحة . . كما ظهرت جهات جديدة أسهمت فى نهضة الفيلم التسجيلى وقدمت إضافات جادة فى إنتاجه . . ومن أهم هذه الجهات جهتان جديرتان بالتوقف وهما :

١ – الوحدة السينمائية فى شركة شل . .

٢ – الوحدة السينمائية فى المؤتمر الإسلامى . .

وسنتكلم عن كل منهما على حدة . .

أولاً : وحدة شركة شل :

تأسست هذه الوحدة عام ١٩٥٢ وقامت على أكتاف ثلاثة هم (ر . و . هاريس) الخبير فى فن التصوير و (ح . إيفانس) المخرج وأبو النجا الجزار المكلف بالإنتاج . .

وكانت هذه الوحدة على غرار مختلف شعب الأفلام التسجيلية بفروع شركة شل فى مختلف دول العالم ، وكانت مهمتها إنتاج الأفلام التربوية والتسجيلية . . ولم تتعاون هذه الوحدة فى بداية إنشائها كما هو متبع والحرفيون أصحاب الخبرة السابقة فى العمل السينمائى إنما اعتمدت على مجموعة من الشباب المبتدئين قامت بتدريبهم على هذا العمل ، وكان من أهم هؤلاء صلاح التهامى أحد رواد الفيلم التسجيلى فى

مصر وأحمد الشناوى وحسن التلمسانى ، وهو يعد من أشهر مصورى الأفلام التسجيلية فى مصر . وقد انضم إليهم بعد ذلك إبراهيم الصحن ومعه محمد نبيه . .

وكان أول إنتاج الوحدة عام ١٩٥٣ بفيلم عن الضمان فى الصناعة ، ثم تابعت الوحدة عملها حتى عام ١٩٥٩ وأنتجت خلال هذه الفترة ١٨ فيلماً نذكر أهمها :

١ – طريق السويس – رأس غارب (١٩٥٣) إخراج أبو النجا الجزار وتصوير حسن التلمسانى . .

٢ – النيل (١٩٥٤) إخراج أحمد الشناوى . .

٣ – مصنع القصدير فى الإسكندرية (١٩٥٤)إخراج صلاح التهامى وتصوير حسن التلمسانى . .

٤ – السفينة تسير (١٩٥٥) إخراج أبو النجا الجزار وتصوير حسن التلمسانى . .

٥ – واحات عصرية (١٩٥٥) إخراج صلاح التهامى وتصوير حسن التلمسانى .

٦ – بعث التاريخ (١٩٥٥) إخراج صلاح التهامى وتصوير حسن التلمسانى . .

٧ – الصابون (١٩٥٥) إخراج أحمد الشناوى وتصوير حسن التلمسانى .

٨ – ذهب أبيض (١٩٥٦) إخراج كمال عطية وتصوير حسن التلمسانى . .

٩ – قصة البوتاجاز (١٩٥٦) إخراج صلاح التهامى وتصوير حسن التلمسانى .

١٠ – مصر أم الدنيا (١٩٥٧) إخراج صلاح التهامى وتصوير حسن التلمسانى .

ثانياً : وحدة المؤتمر الإسلامى :

تألفت هذه الوحدة عام ١٩٥٤ برئاسة المخرج الراحل حسن توفيق وكان هدف هذه الوحدة إنتاج أفلام تسجيلية تخدم أهداف المجتمع الإسلامى . . وقد زودت هذه الوحدة بمعدات حديثة ، وبدأت إنتاجها عام ١٩٥٥ وكان لها برنامج طموح واسع تناول معالم الآثار الإسلامية إلى جانب تسجيل حياة مختلف الشعوب الإسلامية وتقاليدهم . . إلا أن هذه الوحدة لم تحقق سوى خمسة أفلام فقط من هذه الخطة أخرج حسن توفيق أربعة منها وأخرج كمال أبو العلا الفيلم الخامس . . وهذه الأفلام تدور حول تاريخ هندسة البناء الإسلامى فى مصر خلال ٣٠٠ سنة وهى :

١ – مصر تحت حكم الولاة . .

إخراج حسن توفيق . .

٢ – سور القاهرة . .

إخراج حسن توفيق . .

٣ – بدر الجمالى . .

إخراج حسن توفيق . .

٤ – من الحاكم إلى الصالح . .

إخراج كمال أبو العلا . .

٥ – المراجل . .

إخراج حسن توفيق . .

وإنه مما يؤسف له أن هذه الوحدة توقفت بعد هذه الأفلام الخمسة التى أنتجت جميعها خلال عام ١٩٥٥ م . .

المرحلة الثانية :

- تبدأ المرحلة الثانية من تاريخ الفيلم التسجيلي فى مصر من عام ١٩٥٧ وذلك بصدور القرار الجمهورى رقم ١٤٩ لسنة ١٩٥٧ السابق الإشارة إليه وهو بداية الاهتمام الحقيقى للدولة بالفيلم التسجيلي . . نجد أن هذا القرار لم ينفذ بشكله الكامل وبقيت الأفلام التسجيلية أسير العقلية التجارية سواء فى يد الأفراد أو الهيئات المختلفة ، وضعف مستواها الفنى وانصرف عن العمل فيها معظم السينمائيين الموهوبين . . حتى الأفلام الممتازة القليلة التى ظهرت خلال هذه الفترة لم تجد طريقها إلى العرض المنتظم على الجماهير وكان يكتفى بعرضها فى عدد ضئيل من دور السينما فى القاهرة دون أن يراها الناس . .

* ويبرز من إنتاج هذه الفترة الأفلام التالية وبعضها من إنتاج وحدة شل وبعضها الآخر من إنتاج مصلحة الفنون بوزارة الثقافة . .

١ – النحات مختار (١٩٥٧) إخراج ولى الدين سامح – تصوير وحيد فريد – إنتاج وزارة الثقافة . .

٢ – الفنان (ناجى) (١٩٥٧) إخراج أحمد عطية إنتاج وزارة الثقافة . .

٣ – نور للجميع (١٩٥٨) إخراج ولى الدين سامح إنتاج وزارة الثقافة . .

٤ – الحياة اليومية عند قدماء المصريين (١٩٥٨) إخراج ولى الدين سامح إنتاج وزارة الثقافة . .

٥ – كورنيش النيل (١٩٥٨) إخراج توفيق صالح – تصوير حسن التلمسانى إنتاج وحدة شل . .

٦ – أسوان (١٩٥٩) إخراج سعد نديم – تصوير حسن التلمسانى إنتاج وحدة شل . .

٧ – قصة كتاب (١٩٥٩) إخراج سعد نديم – تصوير حسن التلمسانى إنتاج وحدة شل . .

المرحلة الثالثة :

* تبدأ هذه المرحلة فى عام ١٩٦٠ مع نشأة التليفزيون فقد كان التليفزيون بداية انطلاقة جديدة للفيلم التسجيلى فى مصر فتحت أمامه طرقاً جديدة للانتشار وحيث إن أثر التليفزيون على الفيلم التسجيلى يتميز بأهمية خاصة فإنه يجب التعرض لهذا بشيء من التفصيل . . ولكن قبل هذا ينبغى الإشارة إلى أنه خارج نطاق إنتاج التليفزيون من الأفلام التسجيلية فإن هذه المرحلة تعتبر امتداداً للمرحلة السابقة ، فلم يحدث فيها أى جديد سوى أنه فى عام ١٩٦٠ انتقل إنتاج الأفلام التسجيلية من مصلحة الفنون إلى مؤسسة دعم السينما ، ثم انتقل ثانية فى عام ١٩٦٣ إلى شركة القاهرة للإنتاج السينمائى ، ثم انتقل مرة ثالثة فى عام ١٩٦٥ إلى استديو مصر . .

ومن أهم أفلام هذه الفترة خارج نطاق إنتاج التليفزيون الأفلام التسجيلية الآتية !

١ – الفنون اليدوية فى سوريا (١٩٦٠) إخراج صلاح التهامى إنتاج وزارة الثقافة .

٢ – الهرب إلى مصر (١٩٦٠) إخراج ولى الدين سامح إنتاج وزارة الثقافة . .

٣ – متحف دمشق الوطنى (١٩٦٠) إخراج صلاح التهامى إنتاج وزارة الثقافة .

٤ – صناعة النسيج فى سوريا (١٩٦٠) إخراج صلاح التهامى إنتاج وزارة الثقافة .

٥ – حمص (١٩٦٠) إخراج صلاح التهامى إنتاج وزارة الثقافة . .

٦ – حلب (١٩٦٠) إخراج صلاح التهامى إنتاج وزارة الثقافة . .

٧ – اللاذقية (١٩٦٠) إخراج صلاح التهامى إنتاج وزارة الثقافة .

٨ – حماة (١٩٦٠) إخراج صلاح التهامى إنتاج وزارة الثقافة . .

٩ – دمشق (١٩٦٠) إخراج صلاح التهامى إنتاج وزارة الثقافة . .

١٠ – جبال سيناء (١٩٦١) إخراج عبد القادر التلمسانى إنتاج وزارة الثقافة . .

١١ – رحلة فى بلاد النوبة (سبعة أفلام – ١٩٦١) إخراج سعد نديم إنتاج وزارة الثقافة .

١٢ – حكاية من بلاد النوبة (١٩٦٢) إخراج سعد نديم إنتاج وزارة الثقافة . .

١٣ – مذكرات مهندس (مسلسلة – ١٩٦٢) إخراج صلاح التهامى . .

١٤ – سباق مع الزمن (مسلسلة – ١٩٦٣) إخراج صلاح التهامى . .

١٥ – أربعة أيام مجيدة (١٩٦٤) إخراج صلاح التهامى . .

١٦ – مصر من (١٩٥٢ إلى ١٩٦٢) إخراج عبد القادر التلمسانى . .

١٧ – السينما آلة وفن (١٩٦٦) إخراج أحمد كامل مرسى . .

١٨ – فن الفلاحين (١٩٦٧) إخراج عبد القادر التلمسانى . .

وهذا هو أهم الإنتاج من الأفلام التسجيلية خلال هذه المرحلة من خارج نطاق التليفزيون ، وننتقل بعد ذلك للحديث عن الفيلم التسجيلى فى التليفزيون . .

التليفزيون والفيلم التسجيلى فى مصر :

* فى عام ١٩٦٠ بدأ الإرسال التليفزيونى فى مصر . وكان لابد أن يكون ذلك إيذاناً بعهد جديد للفيلم التسجيلى المصرى . ذلك لأن التليفزيون يمتلك إمكانين هائلين قد لا يتيسران معاً لأية جهة أخرى من الجهات التى تقوم بإنتاج هذا النوع من الأفلام . .

أولا : إمكان الإنتاج على نطاق كبير . .

آخراً : إمكان العرض الواسع . .

* لهذا فإن بدء الإرسال التليفزيونى فى بلدنا كان بمثابة فتح صفحة جديدة فى حياة الفيلم التسجيلى . ويبرز هذا فى الاستخدامات العديدة للفيلم التسجيلى . فالتليفزيون يعرض أفلاماً من إنتاجه كما أنه يعرض أفلاماً من إنتاج غيره سواء من الإنتاج المحلى أو من الإنتاج الخارجى . .

* ويقوم التليفزيون بإنتاج الأفلام التسجيلية فى ثلاث صور هى :

١ – الفيلم التوضيحى الذى يدخل كفقرة أو كوسيلة إيضاح فى برنامج . .

٢ – البرامج التى تعتمد على أفلام تسجيلية متكاملة . .

٣ – الفيلم التسجيلى المستقل . .

والنوع الأول لا يدخل فى نطاق بحثنا فهو لا يتعدى مجرد لقطات فيلمية لا ترقى إلى مستوى الفيلم التسجيلى بمعناه الحرفى ، ولهذا فلن نتعرض بالتفصيل ، وسنقتصر على النوعين الثانى والثالث . .

أولا : البرامج التى تعتمد على أفلام تسجيلية متكاملة :

* عرف التليفزيون منذ نشأته حتى الآن العديد من البرامج التى تعتمد على

الفيلم التسجيلى المتكامل . . ومن هذه البرامج ما توقف ومنها ما هو مستمر حتى الآن . . وأهم هذه البرامج : أنت هناك – أبناؤنا – بلدى – تحت الشمس – حدث فى مصر – عالم الصحراء – شخصية مصر . والبرامج الأربعة الأخيرة تستحق منا وقفة قصيرة لأهميتها . .

١ – تحت الشمس :

* برنامج أسبوعى استمر عدة شهور من إخراج المرحوم عواد مصطفى وكان يعتمد اعتمادا . . أساسيًّا على الفيلم التسجيلى الذى يصور فى شكل الريبورتاج السينمائى . . وكانت موضوعات هذه البرامج كلها تدور حول الأمور التى تشغل الرأى العام وقت إذاعته . .

٢ – حدث فى مصر :

* من إخراج حسن بشير . وقد حاول هذا البرنامج أن يسجل أهم الأحداث فى تاريخنا منذ أيام الهكسوس حتى تاريخنا المعاصر . .

٣ – عالم الصحراء :

* من إخراج كاتب هذا البحث . . وقد قدم البرنامج مسحاً فيلميًّا للصحراء المصرية خلال الأفلام التى قدمها . وقد غزا البرنامج الصحارى المصرية من أقصى الشمال الغربى عند السلوم على حدودنا مع ليبيا إلى أقصى الجنوب الشرقى عند جبل علبة على حدودنا المشتركة مع السودان . .

* ومن خلال هذه الجولة تعرضت هذه الأفلام لكل ما فى هذه الصحارى من بشر ونبات . . كما تعرضت للمجهودات التى تبذل لتعمير المناطق الصحراوية وللبحث عن الكنوز الدفين فيها من ثروات معدنية وبترول .

٤ – **شخصية مصر :**

* من إخراج حسن بشير . وهو التجربة الثانية لهذا المخرج مع الفيلم التسجيلي ويدور أيضاً حول تاريخ مصر متخذاً من الآثار وثائقه التي يبني عليها عمله التسجيلي . .

ثانياً : الفيلم التسجيلي المستقل :

يقوم التليفزيون بإنتاج هذه الأفلام بصورتين :

١ – الأفلام التسجيلية التي تنتجها المراقبات المختلفة وأهمها مراقبة الإنتاج الخاص . وهناك عشرات من الأفلام التسجيلية التي تقوم المراقبات المختلفة في التليفزيون بإنتاجها ، والكثير من هذه الأفلام بلغ حد الجودة ويعد إسهاماً في حركة تنشيط الفيلم التسجيلي ، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

قلعة الجبل	إخراج	نبيل عبد العظيم
الخيول العربية	«	سميحة الغنيمي
السيد البدوي	«	كمال زعزع
الشباب	«	مصطفى الشافعي
الأطفال والموسيقى	«	يحيى العلمي
مولد القناوي	«	شوقي جمعة
الزيتون	«	محمود سامي عطا الله
الأرض والنيل	«	محمود سامي عطا الله
السكر	«	محمود سامي عطا الله
طفل في الزحام	«	محمد الأمين
دمار	«	محمد نبيه

٢ - الأفلام التى تنتجها مراقبة البرامج السينمائية وهى المراقبة المتخصصة فى إنتاج الأفلام التسجيلية فى التليفزيون . وقد أنشئت هذه المراقبة مع اللحظات الأولى لإنشاء التليفزيون . وكان اسمها فى ذلك الوقت مراقبة البرامج المسجلة وكانت تنتج الحلقات الروائية والأفلام التسجيلية ، ومنذ أول لحظة والمراقبة تسهم فى حقل الفيلم التسجيلى بإنتاج وافر ، وقد بدأت خصبة . ففى عام ١٩٦٠ وحده أنتجت المراقبة خمسة عشر فيلماً تسجيلياً أخرجها سعد نديم : منها متحف الخطوط الحديدية - أسوان مدينة سياحية - هيكل أدفو - كوم أمبو - النحاس - النجارة - العربية - الزجاج - الخزف - السجاد والكليم - ألوية وبيارق - البامبو - الترصيع فى الخشب - الجلود الذهب . .

وواصلت المراقبة بعد ذلك إنتاجها من الأفلام التسجيلية خلال السنوات اللاحقة لعام ١٩٦٠ وإن كان معدل الإنتاج مال إلى النقصان نظراً لضعف الميزانية ولاتجاه المخرجين إلى الحلقات الروائية وأفلام المنوعات . وفى عام ١٩٦٦ صدر القرار الوزارى رقم ١٦٠ بتاريخ ٥ /٧/١٩٦٦ الخاص بتنظيم العمل فى التليفزيون فقضى بتغيير اسم المراقبة إلى مراقبة البرامج السينمائية ، وحدد إنتاجها بالأفلام التسجيلية فقط . .

وقد جاء فى ملحق القرار المذكور أن اختصاص المراقبة هو (إعداد وتقديم الأفلام التسجيلية التى تنقل صورة واضحة وصادقة عن الأحداث والشخصيات التاريخية الهامة والمناسبات والأعمال المختلفة التى يكون لها أثر فى تطوير وتقدم المجتمع المصرى كعملية نقل معابد أبو سمبل ومراحل تطور ثورة ٢٣ يوليو) وبرغم هذا فإن إنتاج المراقبة استمر فى التناقص لأسباب كثيرة : أهمها النظرة التى توجه للفيلم التسجيلى فى التليفزيون سواء بالنسبة للناحية الأدبية أو بالنسبة للناحية المالية .

* فبالنسبة للناحية الأدبية كانت هناك نظرة مستهترة بالفيلم التسجيلى ، وهى

نظرة عامة سواء داخل التليفزيون أو خارجه فالعمل الأقيم دائماً والأجدر بالاحترام والذى يعطى العاملين فيه حظوة هو العمل الدرامى ، ومن ثم فإن العاملين فى الفيلم التسجيلى يُنظر إليهم كمخرجين درجة ثانية أو ثالثة شأنهم شأن العاملين فى تنفيذ البرامج اليومية الحية . .

* وبالنسبة للناحية المالية لم يكن للفيلم التسجيلى لائحة مالية تنظم إنتاجه أسوة بالحلقات الدرامية ، وكان الفيلم التسجيلى يعامل معاملة البرنامج التليفزيونى الذى يذاع على الهواء . كل هذا كان سبباً فى تعثر إنتاج مراقبة البرامج السينمائية فى السنوات الأخيرة . وبرغم هذا فإن العاملين فيها — وهم من خيرة التسجيليين فى مصر — قاموا بإنتاج مجموعة من الأفلام التسجيلية الجيدة . . وفاز الكثير من إنتاجهم بجوائز فى المهرجانات الدولية والمحلية نذكر منها :

١ — **اللحظة الخالدة** . إخراج حسن توفيق فاز بجائزة مهرجان التليفزيون الدولى عام ١٩٦٦ .

٢ — **أعداء الحرية** : إخراج سعيد مرزوق فاز بجائزة مهرجان ليبزج عام ١٩٦٨ .

٣ — **أيها السادة لا تنزعجوا** : إخراج إبراهيم الشقنقيرى فاز بجائزة مهرجان ليبزج عام ١٩٦٩ . .

٤ — **دموع السلام** : إخراج سعيد مرزوق فاز بجائزة السيناريو فى مهرجان الأفلام التسجيلية والقصيرة بالقاهرة عام ١٩٧١ . .

٥ — **قصيدة بنناءور** : إخراج سمير عوف فاز بجائزة الإخراج والتصوير فى مهرجان الأفلام التسجيلية والقصيرة . . بالقاهرة عام ١٩٧١ .

٦ – **إنه حدث فى ١/١/٧١** : إخراج فؤاد فيظ الله فاز بجائزة السيناريو والإخراج والمونتاج فى مهرجان الأفلام التسجيلية بالقاهرة عام ١٩٧٢ .

٧ – **عصر الكهرباء** : إخراج عبد الحميد الشاذلى فاز بجائزة فى مهرجان الأفلام التسجيلية بالقاهرة عام ١٩٧٢ .

٨ – **الناس والبحيرة** : إخراج محمود سامى عطا الله فاز بالجائزة الأولى فى مهرجان اتحاد الإذاعات الأفريقية بالسنغال عام ١٩٧٣ .

٩ – **الجميلة قادمة** : إخراج سعدية غنيم فاز بجائزة الأفلام السياحية فى يوغوسلافيا عام ١٩٧٤ .

* وفى عام ١٩٧٥ أنشئت المراقبة العامة للأفلام التسجيلية لتحل محل مراقبة البرامج السينمائية . . وقد واصلت إنتاج الأفلام التسجيلية ، وفاز فيلمان من إنتاجها بجوائز وهما :

١ – **نغم عربى** : إخراج سميحة الغنيمى فاز بجوائز السيناريو والتصوير والإخراج والمونتاج فى مهرجان الأفلام التسجيلية عام ١٩٧٧ .

٢ – **فيلم تنوير** : إخراج خيرى بشارة فاز بجائزة التصوير والإخراج فى مهرجان الأفلام التسجيلية عام ١٩٧٨ .

* هذا بالنسبة لإنتاج التليفزيون من الأفلام التسجيلية . وإلى جانب ذلك فإن التليفزيون يقوم بعرض الأفلام التسجيلية من إنتاج غيره سواء من الإنتاج المحلى أو الإنتاج الخارجى وهناك عدة برامج تعتمد على مثل هذه الأفلام نذكر منها :

١ – **برنامج اكتشاف** : كان يعتمد على إذاعة الأفلام التسجيلية الأجنبية بعد ترجمة التعليق إلى اللغة العربية وهو برنامج أسبوعى . .

٢ – **برنامج نادى الفيلم التسجيلى** : كان يقوم بإذاعة الأفلام التسجيلية المحلية من إنتاج مراقبة البرامج السينمائية فى التليفزيون أو من إنتاج الجهات الأخرى فى

مصر وخاصة الأفلام التى ينتجها المركز القومى للأفلام التسجيلية والمركز التجريبى . . وهو برنامج أسبوعى . . استمر يذاع ثلاث سنوات بصفة منتظمة ثم توقف . وفى عام ١٩٧٥ صدرت تنظيمات جديدة للتليفزيون تعاملت بإيجابية والفيلم التسجيلى ، ووضعته لأول مرة فى مكانه الصحيح على خريطة الإنتاج السينمائى بالتليفزيون وأصبحت له لائحة مالية تنظم إنتاجه أسوة بالإنتاج الدرامى ، ولكن برغم هذا فإن الأفلام الدرامية مازالت هى التى أكثر بريقاً وأكثر شهرة .

٣ - **برنامج سينما فى علب** : برنامج أسبوعى يهتم بعرض وتقييم الأفلام التسجيلية المصرية والأجنبية وهو النافذة (الوحيدة) الحالية للفيلم التسجيلى . .

المرحلة الرابعة :

تبدأ هذه المرحلة عام ١٩٦٧ بصدور القرار الجمهورى بإنشاء المركز القومى للأفلام التسجيلية والقصيرة التابع لوزارة الثقافة ، وتمتد حتى ١٥/٢/١٩٧٣ تاريخ صدور القرار الوزارى رقم ١٢٨ لسنة ١٩٧٣ الذى سيأتى الحديث عنه فى موضعه .

وقد كان إنشاء المركز القومى للأفلام التسجيلية بارقة أمل كبيرة لتحقيق نهضة للفيلم التسجيلى المصرى ووضعه فى مكانه الصحيح الذى يستحقه : فقد تم لأول مرة تخصيص استديو كامل هو استديو نحاس لإنتاج الأفلام التسجيلية التى ينتجها المركز . وقد بدأ المركز بداية نشيطة ، وأنتج العديد من الأفلام التسجيلية الجيدة إلى جوار مجلتين سينمائيتين هما (الفن والحياة) ومجلة (النيل) ؛ كما قام المركز بتشجيع الشباب من خريجى معهد السينما ، وأتاح لهم فرصة إخراج الأفلام التسجيلية . ونذكر من أفلامهم التى ظهرت خلال هذه الفترة (حياة جديدة) لأشرف فهمى ، (ثورة المكن) لمدكور ثابت ، (القاهرة ١٨٣٠) لسمير عوف ، وبرغم

البداية النشيطة للمركز فإنه لم يواصل وتعثر إنتاجه بعد شهور .

وفى أبريل ١٩٦٩ أنشئت الوكالة العربية للسينما لترث إنتاج المركز من الأفلام التسجيلية ، وتحمل العبء عنه مع استمرار المركز اسماً فقط .

ومن أهم أفلام هذه الفترة (١٤ قرناً على القرآن) إخراج عبد القادر التلمسانى عام ١٩٦٩ ، ومسلسلة أفلام عن المعركة اشترك فى إخراجها كل من أحمد بدرخان ، وسعد نديم وأحمد راشد وعبد العزيز فهمى ومنى مجاهد .

* وقد أنشئ أيضاً خلال هذه الفترة المركز التجريبى الذى أسهم ببعض الإنتاج الجيد فى السينما التسجيلية نذكر منه فيلم (لؤلؤة النيل) إخراج سمير عوف وفيلم (صلاة من وحى مصر القديمة) إخراج نبيهة لطفى . .

* وفى عام ١٩٧١ عاد المركز القومى للأفلام التسجيلية إلى نشاطه ، ولكنه لم يبدأ فى الإنتاج إلا فى النصف الأخير من عام ١٩٧٢ ، وقام بإنتاج سبع حلقات من مجلة (مصر اليوم) وذلك بالإضافة إلى تسعة أفلام تسجيلية هى :

١ – مياه الفيوم : إخراج سعد نديم

٢ – يد تبنى : إخراج صلاح التهامى

٣ – حوار : إخراج كمال الشيخ

٤ – صحراء المستقبل : إخراج محمود سامى عطا الله

٥ – كهربة الريف : إخراج أحمد راشد

٦ – الرجال والخنادق : إخراج فؤاد التهامى

٧ – شدوان : إخراج فؤاد التهامى

٨ – رجال وراء كل مقاتل : إخراج محمد قناوى

٩ – النيل أزرق : إخراج هاشم النحاس وقد فاز هذا الفيلم بجوائز دولية فى مهرجان كراكوف وليبزج . .

وخلال هذه الفترة أيضاً كان هناك إنتاج كثير للأفلام التسجيلية قامت به إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة ، ومصلحة الاستعلامات ، وكذلك التليفزيون ، وقد حدث تكرار لكثير من الموضوعات نتيجة لانعدام التنسيق بين هذه الجهات جميعها . .

ومما يثير الملاحظة فى هذه الفترة أنها حفلت بصدور العديد من القرارات الجمهورية والوزارية التى تقرر قواعد لتنظيم إنتاج الفيلم التسجيلى فى مصر نذكرها هنا مرتبة بحسب تواريخ صدورها .

١ – قرار جمهورى رقم ٥ سنة ١٩٦٧ بإنشاء المركز القومى للأفلام التسجيلية .

٢ – قرار جمهورى رقم ٥٠٠ سنة ١٩٦٨ بتنظيم إنتاج الأفلام التسجيلية . .

٣ – قرار جمهورى رقم ١١٢٠ سنة ١٩٦٨ بتنظيم إنتاج الأفلام التسجيلية والقصيرة بالجهات الحكومية وبإلغاء قرار رقم ٥٠٠ سنة ١٩٦٨ . .

٤ – قرار وزير الثقافة رقم ٢٢٧ لسنة ١٩٧١ بنقل تبعية المركز القومى للأفلام التسجيلية من مؤسسة السينما إلى الوزارة قطاع الأجهزة الملحقة بمكتب الوزير . .

٥ – قرار نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة والإعلام رقم ١١ سنة ١٩٧١ بنقل تبعية المركز القومى للأفلام التسجيلية وظائفه واعتماداته المالية والعلمية من الوزارة إلى هيئة السينما . .

٦ – قرار نائب رئيس الوزراء رقم ١٠٤٠ سنة ١٩٧٢ بنقل تبعية المركز من الهيئة إلى الوزارة . .

ويتضح من القرارات الثلاثة الأخيرة كيف أن المركز ظل حائراً فى تبعيته الإدارية بين الوزارة والمؤسسة ثم الهيئة مما تسبب فى تعطيل الإنتاج . . ولم ينته الأمر عند هذا الحد ؛ فقد نقلت تبعية المركز بعد ذلك إلى هيئة السينما مرة أخرى . .

المرحلة الخامسة :

تبدأ هذه المرحلة على وجه التحديد فى ١٥/٢/١٩٧٣ تاريخ صدور قرار نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة والإعلام رقم ١٢٨ سنة ١٩٧٣ بتشكيل لجنة أفلام المعركة . ونظراً لأهمية هذا القرار فإننا نورد هنا تفصيلاً للمواد الأربعة التى تضمنها .

مادة ١ :

تشكل لجنة بديوان عام وزارة الثقافة والإعلام من السادة :

١ – وكيل الوزارة للشئون المالية والإدارية . .

٢ – وكيل الوزارة لشئون الثقافة الجماهيرية . .

٣ – رئيس قطاع السينما بهيئة السينما والمسرح والموسيقى . .

٤ – وكيل التليفزيون . .

٥ – مدير عام هيئة الاستعلامات . .

٦ – مدير عام الشئون المالية والإدارية بالديوان العام . .

٧ – المدير الفنى لقطاع الأفلام التسجيلية بالوزارة (مقرراً) . .

مادة ٢ :

تختص هذه اللجنة بوضع خطة للمبادرة إلى تمويل وإنتاج أفلام تسجيلية وإعلامية بالجهود المشتركة بين الديوان العام وهيئة الاستعلامات وهيئة السينما والمسرح والموسيقى وقطاع التليفزيون بحيث يكون لهذه الأفلام دورها الإيجابى لتعبئة

الجماهير معنويًّا فى المرحلة الراهنة وفى إبراز دورنا فى هذه المرحلة فى الخارج مع وضع خطة لتوزيعها فى الداخل والخارج تحقيقاً لهذا الهدف . .

مادة ٣ :

يجوز للجنة أن تشكل من بين أعضائها لجنة أو أكثر تعهد إليها ببعض اختصاصاتها أو أن تفوض أحد أعضائها بمهمة محددة ، ولها أن تستعين بمن ترى الاستعانة به لتحقيق أغراضها . .

مادة ٤ :

على اللجنة إصدار القرارات التنفيذية اللازمة . .

* وكان المفروض أن تشكيل هذه اللجنة يكون بداية مرحلة خصبة وغنية فى تاريخ الفيلم التسجيلى ؛ فهى أول لجنة مركزية تضم رياسات جميع الجهات الحكومية التى تقوم بإنتاج الفيلم التسجيلى فى وزارتى الثقافة والإعلام . . ويتضح من دراسة الاختصاصات التى حددها القرار لهذه اللجنة بعمل خطة مركزية تدفع حركة إنتاج الفيلم التسجيلى فى هذه الجهات إلى الأمام وتنسق بينها كما تكفل وسائل تقرير ميزانيات أكبر لإنتاج الأفلام التسجيلية المطلوبة مع وضع خطة تنفيذية بتوزيعها فى الداخل والخارج .

* إن القرار قد أورد ثلاث مبادرات هامة لعلها تُسمع لأول مرة فى المجال الرسمى فى حقل السينما التسجيلية وهذه المبادرات هى :

١ – وضع خطة مركزية تدفع حركة إنتاج الفيلم التسجيلى فى مختلف جهات وزارتى الثقافة والإعلام إلى الأمام ، وتنسق بينها ، وهذه أول مرة يقرر فيها عمل خطة مركزية لإنتاج الفيلم التسجيلى على المستوى الرسمى فى مصر ، وكانت هذه

قضية ضرورية وواردة . .

٢ – إقرار تمويل خطة إنتاج الأفلام التسجيلية فى وزارتى الثقافة والإعلام بالجهود المشتركة بين مختلف إدارات هاتين الوزارتين وكان هذا طريقاً سليماً إيجابياً لحل بعض مشاكل التمويل بالنسبة لإنتاج الفيلم التسجيلى وهى قضية ضرورية وواردة أيضاً . .

٣ – وضع خطة تنفيذية لتوزيع الفيلم التسجيلى المصرى فى الداخل والخارج ، وهذا أول مرة يتم التفكير فيها فى تنظيم وتوزيع الفيلم التسجيلى على المستوى الرسمى والمركزى ، وهذه قضية ضرورية وواردة أيضاً . .

* وقد تكونت اللجنة فعلاً وبدأت أول اجتماعاتها يوم ١٦/٢/١٩٧٣ ، وكان من قراراتها الأولى تكوّن لجنة فرعية تحددت أعمالها فى الآتى :

١ – مشاهدة الأفلام السابق إنتاجها لحساب الجهات المختلفة . .

٢ – إعداد مذكرة لكل فيلم يتضمن مواصفاته وموضوعه ولغاته ومكان وجود النيجاتيف الخاص به مع توصية اللجنة بصلاحية الفيلم للعرض أو بتسليمه للمركز القومى للأفلام التسجيلية : إما للاحتفاظ به كوثيقة أو لعرضه فى مناسبات مستقبلة أو للاستفادة به أوبأجزاء منه فى إنتاج أفلام جديدة . .

٣ – تحديد عدد ومواصفات ولغات النسخ اللازمة للعروض العامة والمحددة بكل موقع داخل أو خارج الجمهورية . .

* ويتضح من دراسة اختصاصات اللجنة الفرعية أن الوظيفة التى كانت منوطة بها كانت من الأهمية مما يرتفع بها إلى مصاف العمل القومى فإنها لو نجحت فى إنجاز ما وكل إليها لتوصلت إلى تحقيق دليل تصنيفى عما تم إنتاجه من أفلام تسجيلية فى الماضى ، وإن هذا فى ذاته يعد إضافة هامة تثرى الحركة التسجيلية فى مصر ، ولكن هذا العمل لم يتحقق فقد اصطدمت أعمال اللجنة وثلاث سلبيات

عوقت عملها ، وأوصلتها فى النهاية إلى درجة الشلل الكامل وهذه السلبيات هى :

١ - عدم تفرغ أعضاء اللجنة . .

٢ - انعدام التمويل لأعمال اللجنة . .

٣ - عدم اهتمام بعض الجهات المنتجة بتسليم نسخ الأفلام السابق إنتاجها للجنة . .

هذا بالنسبة لأعمال اللجنة الفرعية . . أما فيما يتعلق باللجنة الرئيسية فقد واصلت اجتماعاتها التى بلغت عشرة اجتماعات كان آخرها يوم ١٩٧٣/٥/٢٨ ، وقررت إنتاج مجموعة كبيرة من الأفلام لحساب كل من وزارتى الثقافة والتليفزيون والاستعلامات والثقافة الجماهيرية ، ولكن لم يتحقق من هذا سوى إنتاج فيلم واحد أو اثنين منها نتيجة أن بعض الجهات المكلفة بالتمويل لم يكن لديها الميزانيات المرنة التى تمكنها من التمويل . .

* وإذا كان نجاح أى لجنة إنما يقاس بمدى الإنجاز التى حققته فإننا نستطيع أن نقرر أن هذه اللجنة قد تعسرت فى تحقيق أهدافها ، وإن كنا لا نملك المعلومات التى تمكننا من تحديد المسئولية أو معرفة الأسباب . .

* وقد واصل المركز إنتاجه فى ظروف متصاعدة الصعوبة ، وأنتج مجموعة من الأفلام فاز بعضها بجوائز نذكر منها :

١ - **طائر النورس** : إخراج خيرى بشارة فاز بجائزة مهرجان الأفلام التسجيلية عام ١٩٧٧ . .

٢ - **طبيب فى الأرياف** : إخراج خيرى بشارة فاز بجائزة فى مهرجان ليبزج عام ١٩٧٧ وفاز عنه مخرجه بجائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٧٨ .

* هذا ولم تنته مراحل تاريخ الفيلم التسجيلى فى مصر . . لا ندرى ما حظ الفيلم التسجيلى فى الأيام القادمة . . ؟

مشاكل الفيلم التسجيلى فى مصر :

* بعد استعراض أهم المراحل التاريخية التى مر بها الفيلم التسجيلى المصرى منذ نشأته حتى الآن يجدر بنا أن نتعرض لأهم المشاكل التى تعترض الفيلم التسجيلى فى مصر . .

* ومن الحقائق المسلم بها أن مصر تخالف الكثير من الدول النامية فى أنها عرفت صناعة السينما منذ وقت مبكر ؛ كما أنها عرفت الفيلم التسجيلى فى الوقت نفسه أيضاً ، وأصبح لها فيه خبرات طويلة وأنها تملك التكنولوجيا التى أكثر تطوراً بالنسبة لصناعة السينما ، وهى تسبق فى هذا الغالبية العظمى من الدول النامية . . وكان هذا بالطبع يحتم أيضاً أن يكون عندنا فن سينمائى متطور ، ولكن الأمر بكل أسف غير هذا ، والسبب فى هذا وجود عدة مشاكل تعترض هذه الصناعة . . ولن يهمنا فى هذه الدراسة استعراض جميع المشاكل التى تعترض السينما فى مصر ؛ وإنما يقتصر اهتمامنا فقط على المشاكل التى تعترض الفيلم التسجيلى فقط . وبعض هذه المشاكل يتصل بالإنتاج والعرض ، وبعضها يتصل بالتخطيط ، وبعض يتصل بالبحوث . .

أولاً : مشاكل الإنتاج والعرض :

* سبق أن تعرضنا بشكل عام لهذه المشاكل فى معرض حديثنا عن المشاكل التى تعترض الفيلم التسجيلى فى الدول النامية عامة ، وليس هناك ما نضيفه بالنسبة لمشاكل العرض ، أما بالنسبة للإنتاج فنرى أن نضيف بعض التفاصيل الخاصة . .

* إن أهم المشاكل التى تعترض إنتاج الأفلام التسجيلية فى مصر هى مشكلة التمويل والميزانية ؛ فإنه برغم تعدد الجهات التى تنتج الأفلام التسجيلية بعد

الثورة ، وبرغم صدور العديد من القرارات التي تنظم إنتاجه – فإن هذا النوع من الإنتاج ما فتئ يعاني من انخفاض الميزانيات المخصصة له سواء بالنسبة لمصروفات الإنتاج أو بالنسبة لأجور العاملين . ولعله من الغريب مثلاً أن نعرف أن المركز القومي للأفلام التسجيلية منذ إنشائه لم ترصد له الميزانية الكافية لتنفيذ برنامج عمله ، وأن التليفزيون كان يعامل إنتاج الفيلم التسجيلي معاملة إنتاج البرامج التليفزيونية الحية من حيث الأجور . . وفوق هذا فإن الجزء الأكبر من ميزانيات الدعاية في المصالح الحكومية والمؤسسات والهيئات العامة كان يوجه إلى الإعلانات السريعة في الصحف وأجهزة الإعلام الأخرى مع عدم الاهتمام بالأفلام التسجيلية التي تكلف أكثر نسبياً . .

* وهذه المشكلة لابد من إيجاد الحل السريع لها باعتماد المبالغ الكافية للإنتاج بالنسبة لجهات إنتاج الأفلام التسجيلية في وزارتي الثقافة والإعلام وأن تخصص مبالغ كافية من ميزانيات الدعاية في مختلف الأجهزة الحكومية والمؤسسات والهيئات العامة لإنتاج أفلام تسجيلية على أن يتم الإنتاج من خلال الأجهزة المتخصصة في وزارتي الثقافة والإعلام تنفيذاً للقرار الجمهوري رقم ١١٢٠ سنة ١٩٦٨ الذي يقضي بقصر إنتاج الأفلام التسجيلية والقصيرة سواء كانت ثقافية أو إخبارية أو إرشادية على وزارتي الإعلام والثقافة والجهات التابعة لكل منهما ، وذلك لحسابها أو لحساب الغير.

* وإنه مادامت الدولة تهتم بالفيلم التسجيلي وتصدر القرارات العديدة لتنظيم إنتاجه ، وتؤمن أيضاً بالدور الاجتماعي الخطير للفيلم التسجيلي – فيجب أن يترجم هذا الاهتمام ضمن بنود ميزانية الدولة . .

* ويجب في الوقت نفسه أن ينظر إلى الفيلم التسجيلي على أنه استثمار طويل الأمد شأنه شأن التعليم تماماً ، ومن ثم يكون على الدولة أن تتحمل أعباءه دون

النظر إلى عائد سريع منها . وإلى جوار هذا يجب رفع أجور العاملين فى الأفلام التسجيلية تشجيعاً لهم على عدم ترك هذا النوع من الإنتاج الضرورى والجرى وراء الفيلم الروائى ، وذلك لخلق جيل متفرغ من العاملين فى الفيلم التسجيلى . .

ثانياً : مشاكل التخطيط :

* من المسلمات التى خلصنا إليها فى دراستنا هذه أن الفيلم التسجيلى فى الدول النامية ليس مجرد عمل فنى هدفه تحقيق المتعة الفنية للمشاهدين فقط ، وإنما له دور اجتماعى هام وخطير بالنسبة لقضايا التنمية ، ولهذا فإنه لا يجوز أن يترك هذا النوع من الإنتاج للارتجال والتخبط . . وحيث إن التنمية تؤمن بالتخطيط العلمى كطريق لنجاحها فإنه لا يمكن أن تكون هناك تنمية سليمة بدون تخطيط مدروس يحدد جميع جوانبها المختلفة ويرسم خطواتها وتطورها فى شتى النواحى ، لهذا فإنه من الضرورى أن يشمل التخطيط جميع الأنشطة التى تتعاون فى إنجاح خطة التنمية والدفع بها إلى الأمام . وحيث إن الأفلام التسجيلية تعد من أهم الأنشطة الإعلامية المعاونة للتنمية فمن الواجب أن يشملها التخطيط العلمى الشامل ، لكى تسير فى خط متواز مع خطة التنمية تواكب خطواتها وتلتزم بأولويتها ، وتعد هذه واحدة من أهم المشاكل التى تعترض الفيلم التسجيلى فى مصر : فليس هناك أى تخطيط شامل مدروس يحدد ماذا فى خطة التنمية فى فترة زمنية ما ؟ وماذا يراد أو ينبغى أن يقال للناس خلال هذه الفترة الزمنية ؟ وإنه حينما نتكلم عن التخطيط إنما نقصد التخطيط الشامل الذى تلتزم به جميع الأجهزة والجهات التى تنتج أفلاماً تسجيلية وتتعاون معاً فى إنتاجه بأى صورة من صور التعاون البناء والدافع لحركة الإنتاج . .

* وإنه لما يزيد هذه المشكلة تفاقماً وجود أكثر من جهة تنتج الأفلام

التسجيلية ، وكثيراً ما يحدث أن تقوم بعض هذه الجهات أو كلها بإنتاج فيلم يدور حول موضوع واحد في الوقت نفسه ، بل قد وصلت الأمور إلى أكثر من هذا بأن تقوم الجهة نفسها بإنتاج فيلمين حول الموضوع نفسه مما ينتج عنه مضيعة للأموال وللجهد !

• ونحب قبل ترك هذا الموضوع ألا يفهم من هذا أننا ننادى بتخصيص موضوعات لكل جهة من جهات إنتاج الفيلم التسجيلى بحيث لا يجوز لأى من هذه الجهات أن تتعرض لموضوعات الجهات الأخرى . . فإن هذا لا نقصده بالمرة فالموضوع الواحد يمكن أن يعالج من زوايا مختلفة ، وبما يلمس ويخاطب احتياجات الجمهور الذى تستهدفه كل جهة بإنتاجها ، ولكن لابد أن يكون هناك خطة عملية مركزية وتنسيق كامل بين إنتاج مختلف الجهات التى تنتج الفيلم التسجيلى . وإن هذا يستلزم تكوين لجنة عالية للفيلم التسجيلى يشترك فيها ممثلون عن جهات إنتاج الفيلم التسجيلى ، وأهمها التليفزيون والمركز القومى للأفلام التسجيلية وهيئة الاستعلامات ؛ وتقوم هذه اللجنة بوضع خطة واحدة خلال فترة زمنية محددة ، وتقرر سبل التعاون بين هذه الجهات لإنتاج الأفلام التى تتضمنها الخطة ، وتحدد طرق عرض هذه الأفلام بالشكل الأمثل الذى يحقق أكبر فائدة منها . . وقد حاول قرار نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة والإعلام رقم ١٢٨ سنة ١٩٧٣ حل هذه المشكلة وتشكيل اللجنة المشار إليها . وإنه ينبغى أن يتم تدعيم القرار بقرار آخر يعطى هذه اللجنة دفعة جديدة ويؤكد استمرار أعمالها لخدمة أهداف التنمية . .

ثالثاً : مشاكل البحوث :

من خلال النظرة إلى دور الفيلم التسجيلى فى الدول النامية فإن الأمر لا يقتصر على مجرد إنتاج هذه الأفلام وعرضها ؛ إنما يكون من الضرورى أيضاً دراسة أثر

هذه الأفلام على الجماهير التى تشاهدها لمعرفة مدى استجابة الناس لها ، وذلك للتوصل إلى معرفة مدى فاعلية هذه الأفلام فى توصيل الرسالة وهل هى مناسبة أو غير مناسبة . . مفهومة أو غير مفهومة ، . . تحقق الغرض منها أو لا تحققه ؟ هل يكفى ما عرض منها فى هذا الموضوع أو أن هناك حاجة للمزيد من الأفلام الجديدة كنوع من التكرار المتنوع الذى يساعد على نجاح العملية الاتصالية ؟ . . لكل هذا فإنه يكون من الضرورى أن تنظم الدراسات الميدانية لقياس أثر الأفلام التى تعرض على المجتمعات المختلفة . .

وإن المتتبع لهذا النوع من الدراسات فى مصر يجد أن هناك نقصاً شديداً بالنسبة لها فيما يتعلق بالسينما . . يجد أن جميع الدراسات التى شملت السينما وهى قليلة جدًّا : إما تدور حول السينما الروائية أو أنها تشمل السينما ضمن مختلف أجهزة الإعلام الأخرى بهدف معرفة مدى انتشارها وأثرها بشكل عام . . ولم تهتم واحدة من هذه الدراسات بالأفلام التسجيلية وخاصة ما كان اهتمامها بالعروض السينمائية عامة . . وبرغم أن السينما تمتاز كما سبق أن أشرنا بخاصية المشاهدة الجماعية الطبيعية على مشاهديها فإن أحداً من الباحثين لم يهتم بدراسة أثر الأفلام التسجيلية .

الملاحق

١ - سيناريو فيلم (**الغد المشرق**) نموذج لمساهمة الفيلم التسجيلى فى نقل المعلومات .

٢ - سيناريو فيلم (**تعمير الصحراء**) نموذج لمساهمة الفيلم التسجيلى فى دعم المشروعات القومية .

٣ - سيناريو فيلم (**توطين البدو**) نموذج لمساهمة الفيلم التسجيلى فى الربط بين أفراد الشعب .

٤ - سيناريو فيلم (**العبابدة**) نموذج لمساهمة الفيلم التسجيلى فى نقل التراث .

ملحق (١)

الفلك المشرق

فيلم تسجيلى

المشهد الأول : نهار/ خارجى

ظهور

* لقطات سريعة فى (فوتومونتاج)
* لقطات لأجهزة وآلات تعمل
* لقطات لطائرات
* لقطات لسيارات — موسيقى
* لقطات لقُطر الديزل
* لقطات لجرارات
* لقطات لساعات حائط وساعات يد
* لقطات لأُسفلت الطرقات

قطع

المشهد الثانى :

ظهور

عناوين الفيلم

(تركب سوبر على اللقطات الوسطى من المشهد السابق)	موسيقى

اختفاء

المشهد الثالث :	نهار/ خارجى
* لقطات مختلفة لصحراء جرداء	**معلق** : الصحراء .. رمال .. وحرارة ولهيب .. ولكن .. هذا المظهر يخفى فى جوفه .. نعمة من نعم الله .. الخير .. الذهب الأسود الذى نعتمد عليه فى الكثير من أمور الحياة ..
* مناظر لبعثة أبحاث جيولوجية تعمل فى الصحراء	ويخرج الشباب العالم إلى هذا القفر يكتشفون فيه مواقع النعم .. حتى يحددوها ..
* لقطات لعربة إقامة البريمة الاكتشافية	وهنا .. تبدأ السواعد الفتية فى تركيب البريمة .. وهى آلة تقوم بعملية الحفر الدائرى خلال طبقات الصخور المختلفة .
* لقطات لإقامة البريمة	
	موسيقى
* لقطات للعمل فى البريمة	وتأخذ البريمة فى العمق يوماً بعد يوم
* لقطات لعمليات الحفر	ويزيد عدد المواسير الهابطة بفعلها إلى
* لقطات تفصيلية لعملية إضافة بعض المواسير	باطن الأرض أكثر وأكثر يعاونها على اختراق طبقات الأرض ما يسقطونه

* لقطات لعملية تصوير الأعماق من خلال الأنابيب

فيها من كميات من الطفل المبلل بالماء حتى تسهل حركتها هابطة إلى أن تصل إلى الصخور الحامية .. التى قد توجد عادة على بعد ما بين الـ ٢٠ و ٢٠٠ ألف قدم تحت سطح الأرض .. وفى النهاية .. تصل الأنابيب إلى الصخور مصيدة الزيت المسامية ..

* لقطات لخروج الزيت من الأنابيب المتصلة بالبريمة

.. وهنا يبدأ الزيت .. زيت البترول الخام فى الصعود إلى سطح الأرض ..

موسيقى

* لقطات لمظاهر الفرح على الوجوه كلها والزيت يتدفق من الأنابيب
* لقطات لجرار يمهد الأرض
* ز لقطات لبناء القاعدة الخرسانية للبريمة
* لقطات لتجميع المواسير

ويقوم الرجال بإنشاء الرأس الإنتاجى لهذه البئر الجديدة .. وهو عبارة عن صمام معقد التركيب يثبت فى أعلى البئر للتحكم فى معدل تصرف الزيت وفى قياس كميته ..

موسيقى

مزج

المشهد الرابع :

نهار/ خارجى

* لقطات عامة لعدد قليل من الرءوس الإنتاجية

موسيقى

مزج

المشهد الخامس : نهار/ خارجى

* لقطات عامة لعدد قليل من الرءوس الإنتاجية

موسيقى

مزج

المشهد السادس : نهار/ خارجى

* لقطة عامة (فى بان) لحقل كامل من حقول البترول المستثمرة .

موسيقى

قطع

المشهد السابع : نهار/ خارجى

* لقطات للعاملين لحظة وصولهم فى الصحراء لبداية العمل فى الكشف
* لقطات لحياتهم فى الخيام

وتقوم الحياة الاجتماعية للعاملين .. متوازية مع طبيعة العمل .. فنراهم فى بداية البحث يعيشون فى الخيام ..

موسيقى

* لقطات بعد اكتشافهم البئر الأولى وحياتهم فى المقطورات
* لقطات مختلفة للمقطورات والجياة فيها

ومع ظهور الزيت يطورون حياتهم بصورة أكثر استقراراً

موسيقى

* لقطات وقد تم استكمال حقل البترول

ومع اكتمال الحقل .. تكتمل الحياة الاجتماعية بصورتها العادية

* لقطات لحياتهم المستقرة
* لقطات للمساكن والمبانى
* لقطات للحياة الاجتماعية العامة
* لقطات للحياة الاجتماعية للفرد العادى

موسيقى

مزج

المشهد الثامن :

نهار / خارجى

* لقطات لعملية استخراج البترول من الآبار على اتساع الحقل
* لقطات مختلفة لبئر بترول يتم استغلالها

وتدور عجلة الإنتاج . . ويبدأ استغلال الحقل على أوسع نطاق . . فى إطار خطة احتياجات الاستثمار والتوزيع .

موسيقى

* لقطات لأنابيب نقل البترول
* لقطات لتخليص البترول من الماء والغازات

ويدفع الزيت خلال أنابيب تمر عبر الصحراء إلى مواقع قريبة من أماكن الشحن الأرضية أو البحرية . . . وهنا يمر الزيت خلال فاصلات الغاز . . وكذلك فاصلات الماء لتخليصه مما قد يكون به من الغازات والمياه . . .

* لقطات لمواسير موصلة عبر الصحراء
* لقطات لخزانات تجميع الزيت للشحن

ثم يوجه الزيت إلى خزانات الحقل الكبيرة المغلقة تماماً . . . استعداداً

* لقطات لمهندس يقيس سعة الخزان
* لقطات لتشوين بترول بحرى

لشحنه كوسيلة معاونة . . لا فى المحركات فقط . . وإنما فى الأصباغ . . فى العقاقير . . فى ملابسنا . . وقد يكون ضمن مادة غذائية نتناولها . . . !

* لقطات لأنابيب تنقل بترول عبر الأرض
* لقطات لشحن البترول بالسفن

ثم ينقل الزيت بعد ذلك إلى معامل التكرير .. أو إلى الدول المستوردة خلال أنابيب عبر الصحارى .. أو بناقلات البترول البحرية .. وذلك على حسب بعد أماكن الإنتاج أو قربها من مناطق الاستهلاك .. وقد يكون على حسب الكمية المنقولة .. ولكن .. تعتبر الناقلات البحرية أفضل الوسائل جميعها ..

موسيقى

* لقطات لحقل بترول بحرى
* لقطات لبريمة بحرية من طائرة
* لقطات للعمل فى الحقل البحرى
* لقطات للعمل فى البريمة البحرية
* لقطات عامة لحقل بحرى من طائرة

نعم .. فى باطن الأرض .. أو تحت الصحراء الجرداء .. أو تحت مياه البحار .. تنتظرنا نعم الله .. ينتظرنا الذهب الأسود .. ينتظرنا الخير وبعض أسباب الحياة ..

مزج

المشهد التاسع :	نهار / خارجى

* لقطات فى فوتومونتاج لبعض الأجهزة والآلات التى تعمل بالبترول	موسيقى

* لقطات لبعض المنتجات المعتمدة على البترول

اختفاء

المشهد العاشر :

ظهور

عناوين نهاية الفيلم	موسيقى

(وتظهر سوبر على أجزاء من المشهد التاسع)

اختفاء

ملحق (٢)

سيناريو فيلم (تعمير الصحراء

نهار / خارجى

المشهد الأول : (الصحراء) ظهور

موسيقى

* لقطة لوجه عربى متطلعاً للشمس مغمض العينين رافعاً يده إلى جبهته يحجب عنها الشمس ثم ينزل رأسه ويبدأ فى فتح عينيه بصعوبة وهو يمسح العرق عن جبهته وعنقه .

* لقطة للعربى يتناول زمزمية من على كتفه ، ويرفعها إلى فمه ، ليشرب ، ولكن لاماء بها ، فينظر لها بيأس ثم يلقيها بعيداً

* لقطة عامة للصحراء والعربى يسير مجهداً ، يجر رجليه إلى الأمام

* لقطة لأرجل العربى تسير بجهد على الرمال

مزج

لقطة خلفية للعربى يجاهد ؛ ليسير ؛

ولكنه يقع على الأرض ووجهه للسماء .

* لقطة لوجه العربى وقد تشققت شفتاه وهو يخرج لسانه ليلعقهما مناديا دون ظهور الصوت كما لو كان يطلب ماء .

وأخيراً يغمض عينيه ويميل برأسه إلى أحد الجانبين ، ثم تتحرك الكاميرا مرتفعة من وجهه إلى السماء مع اتساع اللقطة لتظهر الصحراء جرداء فى أثناء الارتفاع ، ثم تتركز اللقطة على الشمس المحرقة ظهراً

قطع

المشهد الثانى : (الصحراء)

صباحاً / خارجى

استمرار الموسيقى

* من داخل عربة خلف السائق ومن يجلس جواره فى لقطة لنتبين منها سير السيارة فى الصحراء .

* المهندس المجاور للسائق ينظر الى جانبه تجاه الشرق

* لقطة من خلف السائق إلى الأمام والسيارة تسير مقتربة من تل رملى ، ثم

تنحرف حوله لنرى على البعد جسم
العربي ملقى على الأرض ، فيخفف
السائق من سرعة السيارة ، ويتجه إليه
حتى يجاوره ، ثم يوقف السيارة .
* لقطة عامة والسائق والمهندس ينزلان
من السيارة وفى يد أحدهما زمزمية ماء
* العربي فى لقطة متوسطة والسائق
والمهندس يصلان وينظران إليه
* لقطة من أعلى لوجه العربي وشفتيه
المتشققتين .
* المهندس يأخذ زمزمية الماء ، ويسند
العربي ليضعه فى موضع يسمح له
بالشرب ويسقيه .

مزج

* وجه العربي وهو يحاول فى جهد فتح
عينيه
* لقطة من وجهة نظر العربي للسيارة
(فلو)
* لقطة مقربة لوجه العربي يجاهد فى
النظر
* لقطة للسيارة (فلو) ثم تبدأ الصورة
فى الوضوح قليلاً ثم (فلو) ثم وضوح

أكثر ثم (فلو) ثم وضوح تام على باب السيارة وعليه عنوان «هيئة تعمير الصحارى»

«وحدة جيولوجية»

ثم تتحول الصورة إلى (فلو) مرة أخرى

مزج

تتوالى لقطات عناوين الفيلم على التوالى بطريقة الظهور ثم الفلو ثم مزج العنوان التالى وظهوره .. إلخ حتى تنتهى جميع العناوين، فيثبت العنوان الأخير.

اختفاء

المشهد الثالث : (واحة) نهار/ خارجى

ظهور

* لقطة لمساحة من الماء على الأرض ناتجة عن عين أو بئر ماء قديمة .. ثم تتسع اللقطة لنرى مجموعات من النخيل والمساكن البدائية أو الخيام — استمرار الموسيقى
* لقطة لعربة تعمير الصحارى السابق تصويرها فى المشهد الثانى تصل وبها المهندس والسائق والعربى.

* تقف العربة وينزلون منها وبعض الأهالى تتجمع ، أحدهم يحتضن العربى ويعينه على السير، آخرون يسيرون مع المهندس والسائق .	**معلق** : وهكذا عاد الرجل إلى موطنه فى إحدى واحات صحرائنا الغربية بعد أن أعادته نقطة الماء إلى الحياة .. حياة قبيلته فى تلك البقعة الخضراء وسط الصحراء ..
* لقطات لحياة العمل فى الواحة (قديماً)	قامت حول بئر ومجموعة من النخيل ..
* لقطات للآثار القديمة	تجاورهم مجموعات من الآثار القديمة .. إنهم يعيشون هنا بجوارها .. ولا يدرون شيئاً عن الحضارة التى كانت فى هذه البقعة يوماً من الأيام
* لقطات لعربات تعمير الصحارى تتوالى على الواحة	وفجأة ..
* عمال ينزلون من العربات	تصل إليهم قافلة الحضارة الجديدة ..
* مهندسون يشرفون على عمال تحفر	قافلة التعمير..
* مهندسون ومعهم أجهزة يعملون بها فى بقع مختلفة من أنحاء الواحة	عمال .. مهندسون ..
* مهندس يملأ إناء بالتربة ويسير خارجاً من الكادر	آلات .. موسيقى

المشهد الرابع : (معمل أبحاث التربة) نهار/ داخلى

* لقطة للمهندس يدخل المعمل ومعه عينة التربة	ويبدأ مهندسون إخصائيون فى دراسات وأبحاث الأرض وتصنيف التربة عملهم

* مهندسون يجتمعون ويبدءون العمل على هذه التربة
* مهندس يقوم بالفحص الميكروسكوبي
* مهندس يبدأ فى أبحاث تحليل التربة
* معمل ترشيح محاليل عينات التربة

فى دراسات واختبارات علمية دقيقة على جميع منخفضات مساحة الوادى الجديد لتحديد الأرض الصالحة للزراعة وأنسب المحصولات وأنسب الأراضى وأسهلها فى الاستصلاح وذلك فى حصر نصف تفصيلى لتحديد الأراضى التى تصلح زمامات لآبار المياه وتحديدها فى خرائط ..

ولكن .. هل يفيد كل هذا بدون الماء ؟

المشهد الخامس : (الصحراء)

نهار/ خارجى

* مهندس ومعه أجهزة البحث الجيوفيزيقى يقوم بالعمل فى الصحراء

لهذا .. كان هناك جيش آخر من المهندسين يجوبون الصحراء بحثاً عن مصادر المياه تحت سطح الصحراء إلى أعماق تصل إلى أبعد من ١٠٠٠ متر تحت السطح لتحديد الطبقات الحاملة للمياه الجوفية .. وتحديد حجم هذه الطبقات .. وسرعة المياه واتجاهها ،

* عمال يقومون بحفر بئر اختبارية

ونراهم يحفرون آبار الاختبار فى مجموعات داخل الوادى وخارجه ..

المشهد السادس : (حجرة المهندسين) نهار/ داخلى

* لقطة لخريطة تبين القطاع الجيولوجى للصحراء الغربية .
* لقطة عامة للمهندسين يناقشون الخريطة ، ويشيرون إلى بعض هذه المواقع
* موقع محدد لمنطقة استصلاح تتركز عليه أصابع الجميع

وأخيراً .. يقدمون الخرائط كاملة متكاملة وقد حدد عليها ..

١ – أنواع طبقات الأرض

٢ – اتجاه المياه الجوفية

٣ – أقصى بعد للمياه عن السطح ومواقعه

٤ – أقرب بعد للمياه عن السطح ومواقعه

وعلى أساس الدراسات للمياه الجوفية .. ودراسات التربة ..

يتم تحديد خطة ومواقع العمل ..

المشهد السابع : (الصحراء) نهار/ خارجى

(فى لقطات سريعة)

* عربة تعمير الصحراء تسير فى الصحراء
* مهندسون يعملون
* عمال يعملون
* عمال يحفرون بئراً فى لقطات متتالية تعبر عن مراحل العملية

وتتناثر قوافل الخير فى جنبات الوادى تنفذ المشروع .

ويبدأ حفر الآبار . . .

ويتفجر الماء من باطن الأرض من عمق يتردد بين ٤٠٠ ، ٦٠٠ متر تحت

* لقطات لوجه العربى متعجباً تتخلل اللقطات السابقة
* الماء ينفجر من البئر
* وجوه العمال فرحة
* وجه العربى تتنازعه الفرحة والحيرة والتفكير
* لقطات للآثار
* لقطات لبئر يخرج منها الماء مندفعاً ذاتياً خلال ماسورة

* لقطات لبئر مركب عليها طلمبة
* لقطات لبئر قديمة مركب عليها ساقية تدور بها دابة
* لقطة لبئر مركب عليها طلمبة وتنزل اللقطة إلى ماسورة خروج الماء إلى القنوات والماء يسير فى الأرض
* لقطة عامة للأرض والآبار

السطح ليتلون معه وجه الطبيعة فتسود الخضرة .. ويعم الجمال .. والبئر الواحدة تكفى رى ٢٠٠ فدان وتتكلف ٢٠ ألف جنيه ..

لا تعجب يا أخى .. فهذه هى حضارتنا الجديدة تؤكد لك حضارتك القديمة ..

لاتعجب والماء يخرج من باطن الأرض بجهد الأربعين يوماً .. بعد أن كان أجدادك يحفرون البئر فى خمسة عشر عاما ..

لاتعجب يا أخى .. أن نستعمل اليوم طلمبات لرفع الماء بعد أن يضعف منسوب الضغط .. فهذا أحدث .. وأوفر .. وأقل إجهاداً من طريقتك القديمة .. ويمكن عن طريقه إعطاء كل محصول ما يحتاج إليه من رى يناسب نوع المحصول وأرض المنطقة ..

وهناك تجارب تجرى للتغلب على صدأ المواسير بفعل ارتفاع حرارة المياه الجوفية واحتوائها على بعض الغازات والأملاح التى تؤثر فى سرعة صدأ المعادن

المشهد الثامن : (أراضى الاستصلاح) نهار/ خارجى

* لقطات لأجهزة تسوية الأرض تعمل	وما إن يثبت وجود الماء حتى تسارع الأيدى إلى الأرض فتسويها ..
* لقطات لأرض تغسل والماء ينساب فيها	وتطلق فيها المياه لغسلها حتى تتخلص من الأملاح الزائدة فيها عن حاجة الزراعة ..
* لقطات لعمال يشقون الترع والقنوات	وتشق الترع الرئيسية والقنوات ، وتبطن بالأسمنت المسلح حرصاً على نقطة الماء
* (لقطات سريعة) – قمح – برسيم – شعير – أشجار زيتون – نبات قصير – فواكه	أن تتسرب مرة أخرى خلال الرمال إلى جوف الأرض دون أن تؤدى واجبها الطبيعى الذى خلقها الله له (وجعلنا من الماء كل شىء حى) صدق الله العظيم
	موسيقى

المشهد التاسع : (محطة تجارب سلالات المواشى والدواجن) نهار/ خارجى

* لقطة عامة للمحطة	موسيقى
* لقطة لعنبر سلالات الأبقار	وكان لزاماً قبل أن تجعل الأرض لملاكها الجدد أن تهيأ لهم كل وسائل
* لقطات تبين نوع الماشية وأحجامها	حاجتهم لاستغلال الأرض الجديدة ..
* لقطات للعناية الطبية بها	فأقامت محطات بحوث وتحسين

* لقطات لهذه الأنواع فى الحقول ترعى
* لقطات متداخلة مع السابقة لأنواع أخرى من الأغنام أو الدواجن

سلالات المواشى ذات الصفات الإنتاجية الممتازة من اللحم واللبن والتى تعاون فى الوقت نفسه فى إعطاء الأرض سماداً طبيعياً يعاون فى تحسين التربة وخصبها .. ذلك فوق أنواع أخرى من الدواجن التى تحتاج إليها الأسرة المقيمة .

المشهد العاشر : (المشاتل)
* لقطات فى أحد المشاتل
* لقطات فى صوبة تجريب الأشجار

نهار/ خارجى
كما أنشأت المشاتل وصوبات إنتاج وتربية أشجار الفاكهة المختلفة وأشجار الأخشاب فى مساحات تصل إلى ٥٠ فداناً للمشتل الواحد وبذلك تتم تنمية الثروة الخشبية .. ولكن فائدتها المباشرة للوادى ..

المشهد الحادى عشر : (مدينة جناح)
* لقطات لمدينة جناح المغطاة بالكثبان الرملية المتحركة

نهار/ خارجى
إنها تزرع فى مواجهة الصحراء وحول الحقول ، فتقوم بمهمتها كمصدات للرياح .. فتمتنع حركة الرمال المتحركة من أن تغطى الترع ..

المشهد الثانى عشر : (طريق مغطاة بالرمال) نهار/ خارجى

* لقطات لطريق مقطوع بكثبان رملية متحركة | أو أن تسد الطرقات ..

المشهد الثالث عشر : (محطة الأرصاد) نهار/ داخلى

* لقطات من صورة العمل بالمحطة | وفى محطة الأرصاد الجوية التى أنشئت .. تتم كل الخدمات لمصلحة الأغراض الزراعية المرتبطة بالأراضى المستصلحة ..

موسيقى

المشهد الرابع عشر : (الخارجة) نهار/ خارجى

* لقطة عامة للمركز الرئيسى | واتجه فريق آخر إلى أعمال الإنشاء والتعمير استعداداً لاستقبال الملاك
* لقطات للمساكن الخاصة بالموظفين والعمال | الجدد .. فبنى المركز الرئيسى بمدينة الخارجة
* لقطات للورش | مساكن واستراحات للموظفين
* لقطات لشبكة الكهربا | والعمال ..
* لقطات لشبكة المياه
* لقطات لمبانى الخدمات العامة والأفران | ومخازن وورشاً ميكانيكية للمعدات والسيارات ومدت شبكات للكهربا ..

* جمعيات تعاونية – مطاعم – وشبكات للمياه ..
نادى الموظفين

وسبل الحياة العامة التى يحتاج إليها الإنسان ..

موسيقى

المشهد الخامس عشر: (قرية من قرى الوادى) نهار / خارجى

* لقطات عامة للقرية
* لقطات للطرقات
* لقطات للافتات على الطرق الرئيسية تبين اتصالها بباقى الجمهورية
* لقطات للخدمات العامة
* جمعيات تعاونية بأنواعها

وبدأ رواد المركز الرئيسى فى إعداد القرى التى تقرر أن تكون موطناً للمهاجرين إلى وادى الخير .. على أساس أن يكون زمام كل قرية ١٥٠٠ فدانٍ يشرف عليها مهندس زراعى ...

* أفران
* تجار
* أندية .. ومن فيها
* وحدات صحية
* مدارس .. إلخ

ولها جمعيتها التعاونية لتوفير الخدمات الزراعية والاستهلاكية اللازمة .

موسيقى

المشهد السادس عشر: (قرية أخرى) نهار/ خارجى

* لقطة عامة للقرية
* لقطات لمجموعات من الأهالى تسكن

وكانت مجموعة من الإخصائيين يقومون بالبحوث الاجتماعية على سكان الوادى

المنازل

* لقطات لمهجرين جدد يدخلون المنزل

وبعض الأهالى بوادى النيل تمهيداً لعمليات التهجير وتهيئة الحياة الاجتماعية اللائقة ..

المشهد السابع عشر : (داخل منزل) — نهار/ داخلى

* لقطة استعراضية للبيت ثم يظهر صاحب البيت (العربى) والأبناء

وجاء الملاك الجدد .. فوجدوا البيت المناسب ..

* لقطة متوسطة للمجموعة فى سعادة ثم ترتفع الكاميرا إلى برواز على الحائط

* لقطة للبرواز وبه شهادة تمليك الأرض

ووزعت عليهم الأراضى بمعدل بين ٥ ، ١٠ أفدنة للأسرة .. كما أُعْطِيَت البقرة والأغنام والكتاكيت من الأنواع الممتازة المنتقاة

* لقطة فى حوش المنزل وبه بقرة ، أغنام دواجن

المشهد الثامن عشر : (حقل برسيم) — نهار/ خارجى

* العربى يعمل فى الحقل المزروع برسيماً

وبدأ المالك دورة الزراعة الثلاثية فى فترة الاستزراع .. حيث يزرع ثلث زمام القرية بمحصولات العلف البقولية .. لتربية الحيوانات ولزيادة خصب التربة

* لقطات للزرع

موسيقى

المشهد التاسع عشر : (حقل شعير أو قمح)   نهار/ خارجى

الصورة	الصوت
* العربى يعمل فى الحقل وقد نما به قمح أو شعير	وثلث الزمام بالمحصولات التى تحتاج إليها للحياة مثل القمح أو الشعير..
	موسيقى

المشهد العشرون : (حقل فاكهة)   نهار/ خارجى

الصورة	الصوت
* لقطة عامة لبستان فواكه مختلفة	والثلث الأخير ترك للبساتين تزرع بها ..
* لقطات لمساحات نخيل ثم أشجار خشب	الموالح .. وأشجار الخشب .. والزيتون حتى يتكامل المشروع لخدمة الوادى .
* مساحات بستان زيتون	ولرفع مستوى الحياة الاجتماعية
* مساحات لبساتين فواكه	للسكان .. لم يقتصر الأمر على استصلاح الأراضى .. بل أقيمت بعض المشروعات التى تحقق رفع المستوى الاجتماعى والاقتصادى لهم ..

المشهد الواحد والعشرون : (مصنع الفخار)   نهار/ داخلى

الصورة	الصوت
* لقطات لمصنع الفخار ومراحل العمل	فأقامت الصناعات الجديدة التى تعتمد على المادة الخام المتوفرة بالمنطقة ..
* لقطات للطفل	زراعياً وصناعياً .. نعم .. لقد كان
* لقطات لصناعة الفخار يدوياً	الطفل هنا .. وكانت صناعة الفخار تتم
* لقطات للصناعة الحديثة	بطريقة بدائية .. فطورت هذه الصناعة وأصبح لها هذا المصنع

المشهد الثانى والعشرون : (مصنع السجاد والكليم) نهار/ داخلى

* لقطات للألياف الخام
* لقطات لمراحل العمل بمصنع السجاد
* لقطات للمنتجات

وكانت هنا هذه الألياف .. وعليها قام مصنع السجاد والكليم ..

المشهد الثالث والعشرون : (مصنع منتجات البلح) نهار/ داخلى

* لقطات للنخيل ويستحسن أن يكون به سباطات بلح
* لقطات لمراحل العمل داخل المصنع
* لقطات للمنتجات

أما هذه النخيلات فقد كانت هنا منذ الأزل .. كانت كثيراً ماترمى خيرها إلى الرمال ، لكنها اليوم تعطيه الأيدى الخبيرة فتحمله إلى مصنع منتجات البلح . فتخرجه لنا طعاما مُشتهى ..

المشهد الرابع والعشرون : (مصنع منتجات اللبن) نهار/ داخلى

* لقطات لعمليات حليب اللبن
* لقطات لبعض الأعمال داخل مصنع الألبان
* لقطة لطفل يأكل أيس كريم

وللزيادة المطردة فى الثروة الحيوانية .. قامت صناعة الألبان ومشتقاتها لتغطى احتياجات أهل الوادى .. وتصدر الفائض إلى باقى البلاد ..

المشهد الخامس والعشرون : (مزارع) نهار/ خارجى

لقطة استعراضية لأراض واسعة خضراء

موسيقى

ومضت الأيام .. وعادت الأرض الطيبة إلى ما كانت عليه فى ماضيها البعيد ..

المشهد السادس والعشرون : (مواقع الآثار) نهار/ خارجى

* لقطة عامة جمالية لآثار وحولها زرع

عادت تتلفت مبهورة .. تتلفت بين مجدها القديم أيام الجدود ..

المشهد السابع والعشرون : (مزارع) نهار/ خارجى

* لقطة عامة جمالية لأراضٍ مزروعة
* لقطة ليد تنقى الأرض من بعض الطفليات

ثم ترتفع اليد لتلقى به بعيداً إلى أن تكشف اتساع الأرض ، فتثبت اللقطة والشمس تظهر فى الأفق البعيد بعد الشروق بقليل .

وبمجدها الحالى الجديد .. وأخيراً عرفت أنه مجد متصل .. صنعته يد الرجل .. ابن الأرض الطيبة .. ابن النيل ..

موسيقى

اختفاء

المشهد الثامن والعشرون

* كلمة (النهاية) مركبة على جزء من اللقطة الختامية للمشهد السابق

موسيقى

اختفاء

ملحق (٣)

سيناريو فيلم

توطين البدو

سيناريو وإخراج : محمود سامى عطا الله

المشهد الأول : (ظهور لافتة)

التليفزيون العربى يقدم

مزج

المشهد الثانى : (منطقة صحراوية) — نهار / خارجى

– منظر عام لمنطقة صحراوية جرداء وتبدو بعض التلال فى مؤخرة الكادر ..

الكاميرا تتحرك فى باب لليمين لتثبت على بعض شجيرات زيتون بجوار مخيم للبدو ..

– لقطة لخيمة من الخارج ويبدو أحد البدو يصب الشاى فى أكواب ثم يحمل الصينية عليها الأكواب ويدخل الخيمة ..

قطع

المشهد الثالث : (مخيم بدوى)

نهار / داخلى

– داخل الخيمة .. البدوى يقدم الشاى لبعض الجالسين . وهم مجموعة من البدو من الجنسين بينهم إخصائى أو إخصائية اجتماعية توجه إليهم بعض الأسئلة ويجيبون عليها . وتقوم بالكتابة فى دفتر معها

قطع

المشهد الرابع : (المركز بالإسكندرية)

نهار / داخلى

– مجموعة لقطات سريعة

– لشخص يكتب على الآلة الكاتبة

– شخص يضع بعض الأوراق فى دوسيه ويغلقه

– شخص يفتح دوسيهاً ويقرأ فيه

– شخص يرسم خريطة بيانية

– شخصان واقفان أمام خريطة بيانية معلقة لمنطقة

– الساحل الشمالى الغربى والكاميرا فى زوم حتى تملأ الخريطة الكادر ..

مزج

المشهد الخامس : (لافتات)
توطين البدو سوبر على الخريطة ثم تتوالى
باقى عناوين الفيلم سوبر على الخريطة ثم
تظل الخريطة لثوان بعد انتهاء
العناوين

مزج

المشهد السادس : (منطقة ساحلية) نهار / خارجى

لقطات للساحل

تعليق : هذا هو ساحلنا الشمالى الغربى
يبدأ عند الإسكندرية ويمتد غرباً لمسافة
٥٢٠ كيلو متر..

قطع

المشهد السابع : (محطة السلوم) نهار / خارجى

– لقطة للافتة محطة السلوم

ينتهى عند السلوم.. حدودنا مع ليبيا
الشقيقة

قطع

المشهد الثامن : (شاطئ مرسى مطروح) نهار / خارجى

لقطات لبلاج مرسى مطروح

والساحل.. طول الساحل.. شواطئ
ومصايف تضاهى أعظم ما فى أوربا
شاطئ الأحلام فى مرسى مطروح..

بلاج كليو باترا	شاطئ كليوباترا الشهير شهرة التاريخ . . شاطئ عجيبة الساحر
شاطئ عجيبة	

قطع

المشهد التاسع : (بلاج السلوم)	نهار / خارجى
لقطة عامة للبلاج ثم باب لليمين إلى الصحراء الجرداء	وعلى قدر ما أعطت الطبيعة هذا الساحل من سحر وجمال على قدر ما حرمت الصحراء المجاورة له أقل القليل .. حرمتها الماء والظل والجمال ..

قطع

المشهد العاشر : (منطقة صحراوية « ٢ »)	نهار / خارجى

قطع

- لقطة لسلاسل هضاب
- لقطة لأخاديد

قطع

المشهد الحادى عشر : (منطقة صحراوية « ١ »)	نهار / خارجى
– لقطة لكثبان رملية والكاميرا تتحرك فى باب لليمين لنرى بعيداً فى مؤخرة الكادر بعض خيام البدو ويظهر بدوى	

قادم من بعيد راكباً حماراً ..

قطع

المشهد الثانى عشر : (منطقة بدوية) نهار / خارجى

لقطة مختلفة لأفراد من البدو من الجنسين فى أنشط حياتهم المختلفة	وهنا فى هذا الجفاف يعيش حوالى ٤٠ ألفا من البدو الرحل ينتمى أغلبهم إلى أربع قبائل هى أولاد على الأحمر، وأولاد على الأبيض والسفنة والجمعيات ..

قطع

المشهد الثالث عشر : (منطقة صحراوية) نهار / خارجى

لقطة لبدوى ينظر إلى سحابة فوق الصحراء	سحابة فوق الصحراء هى أمل هذا البدوى الذى ينتظر المطر، ويشتاق لقطرة ماء

قطع

المشهد الرابع عشر : (العقد) نهار / خارجى

بدوى يرفع كوزاً من بئر فيجده فارغاً	والصحراء المصرية بطبيعتها من أشد مناطق العالم جفافاً لأن الموارد المائية قليلة بشكل عام وذلك بالإضافة إلى العوامل الطبيعية التى تساعد على فقد الماء ..

قطع

المشهد الخامس عشر : (منطقة صحراوية) نهار / خارجى

لقطة عامة لامتداد صحراوى وتبدو بعيداً قافلة بمتاعها	وفرضت هذه الطبيعة نفسها على البدوى ، فجعلته كثير الترحال .. متاعه خيمة يحملها على كتفه أو على جمله ، ويرحل وراء الكلأ والأعشاب ..

قطع

المشهد السادس عشر : (منطقة صحراوية « ١ ») نهار / داخلى

لقطة لإخصائية اجتماعية جالسة مع البدو تسألهم وتكتب	ولكن شيئاً جديداً دخل حياة الصحراء ... باحثة اجتماعية تسجل معلومات .. أرقام تعطى مؤشرات لأوجه النقص ونوع الخدمات المطلوبة لهؤلاء الناس .. الهدف هو خلق الاستقرار لهذا الإنسان عن طريق ربطه بمصدر رزق دائم منتظم يرتبط هو وحرفته الأساسية ..

قطع

المشهد السابع عشر : (مخيم بدوى) نهار / داخلى

أسرة بدوية تجلس لتشرب الشاى	وتقول الأرقام : إن الأسرة البدوية

تستهلك أكبر قسط من دخلها على
السكر والشاى ..

قطع

المشهد الثامن عشر: (منطقة صحراوية «المخيم من الخارج») نهار / خارجى

فتاة بدوية تقوم بالخبيز	يأتى بعد ذلك استهلاك الحبوب والأرز
بدوية ثانية تقوم بتنقية الأرز	
بدوية تقسم قطعة صغيرة من اللحم على أولادها ..	وكانت اللحوم تأتى بعد ذلك
بدوى جالس يدخن سيجارة	ثم التبغ
وبدوية تنشر الغسيل	والملابس

قطع

المشهد التاسع عشر: (العقد) نهار / خارجى

لقطة عامة لمزرعة تبدو وسط التلال والهضاب	ولكن من أين يأتى دخل البدوى؟ تقول البيانات: إن للبدوى ثلاث حرف:
بدوى يقوم بحرث الأرض بمحراث تجره الإبل	الزراعة أولاً. يعيش عليها عدد كبير من البدو يعتمدون فى الرى على مياه الأمطار .. يزرعون الشعير والتين والزيتون وبعض الخضراوات .. وبالأدوات القديمة نفسها كانوا يخدمون

الأرض . . المحراث الذى تجره الإبل والخيول والحمير . .

بدوية تقوم باستخدام المذراة للتذرية محصول الشعير

وإلى جانب الرجل .. تعمل المرأة فى عالم الصحراء تساعده فى أعمال الزراعة والحصاد

قطع

المشهد العشرون : (منطقة صحراوية) — نهار / خارجى

بدوى يسوق حماراً مربوطاً بحبل يجر دلواً من بئر ويقوم بدوى آخر بتفريغ الدلو فى قناة

وكان البدوى منذ القدم يعرف الآبار الرومانية التى تختزن له مياه الأمطار ؛ ليستخدمها فى أغراضه المختلفة ، وخاصة الرى ، وكان يستخدم الحمير والدواب فى رفع الماء من الآبار

قطع

المشهد الواحد والعشرون : (العقد) — نهار / خارجى

بدوى يرفع المياه من البئر بشادوف بان من الشادوف لتبدو منطقة وادى المراوح

وفى بعض المناطق كان يستخدم الشادوف ولكن هذه الصورة بدأت تختفى من حياة البدوى لم يعد فى حاجة إلى الشادوف ليرفع به المياه

بدوى يقوم بتشغيل مروحة وتظهر المياه وهى تتدفق

بدأت تظهر صورة حديثة لاختزان المياه ورفعها

الآبار السطحية التى تعرف باسم السواقى
أقيمت فوقها المراوح التى تدور بقوة
الرياح ، فتقوم برفع الماء عند
الحاجة ..

قطع

المشهد الثانى والعشرون : (خندق العقد) نهار / خارجى

لقطات لخندق العقد وتدفق المياه منه فى القنوات وانتشارها فى الحقول	الخنادق التى تمتلئ بالمياه الجوفية وتستطيع تغذية المناطق القريبة منها بالماء طوال العام .. قد لوحظ بالبحث والدراسة أن هناك مساحات واسعة بها كميات كبيرة من الآبار القريبة فتم توصيلها بعضها ببعض من أسفل فأصبحت بمثابة قناة جوفية تجرى فيها المياه وتسمى بالخندق .. وهناك عشرات من الخنادق أنشئت على طول الساحل أشهرها خندق القصر الذى يغذى مرسى مطروح والمناطق المحيطة بها بمياه الرى والشرب ..

قطع

المشهد الثالث والعشرون : (سدّ أم الشطنان) نهار / خارجى

لقطة لمنحدر جبلى ثم بان يوضح طريقة اتجاه المياه للبحر وتثبت اللقطة على مياه البحر.

ولوحظ بالبحث أيضاً أن كثيراً من مياه الأمطار يسقط فوق المرتفعات فتتجه فى شكل سيول إلى البحر ، وتضيع هناك دون الاستفادة منها برغم ندرة المياه هناك .

كان من الضرورى إيجاد وسيلة لمنع ضياع هذه المياه فى البحر وتحويل سريانها وتوجيهها إلى المزارع ..

سد (أم الشطنان)

وكانت الوسيلة هى السدود .. ومن أشهر السدود التى أنشئت فى المنطقة سد (أم الشطنان) الذى يغذى عشرات الوديان بالمياه ويحول مئات الأفدنة من مناطق جرداء إلى خضرة وحياة واستقرار

قطع

المشهد الرابع والعشرون : (العقد «المزرعة النموذجية») نهار / خارجى

الملكية الزراعية

ومع الأمل الجديد الذى بزغ فى المنطقة بدأ البدوى يعرف نوعاً جديداً من الآلات التى تخدم الزراعة . . عرف

الجرار والمحراث الآلى وآلات الحصاد ..

قطع

المشهد الخامس والعشرون : (مزرعة مرسى مطروح) نهار / خارجى

مزارع اللوز مزارع الخروب مزارع الفستق	ومع الاستقرار بدأ البدوى يزرع أنواعاً جديدة من الحاضلات التى أثبتت الأبحاث أنها أنسب الحاصلات لطبيعة التربة التى يعيش عليها .. اللوز والخروب والفستق .. ولم يعد البدوى يجد ضرورة للترحال بحثاً عن الماء ..

قطع

المشهد السادس والعشرون : (سيدى برانى) نهار / خارجى

بدوى يرعى قطيع أغنام بجوار بئر	عدد آخر غير قليل من البدو يعيشون على الرعى .. كميات كبيرة من الأغنام كانت تعيش فى المنطقة ولم يكن أحد يعرف أعدادها .. وكان الإحصاء هو أول الطريق وجاءت النتيجة ثلاثة أرباع مليون بينها ٦٥٠ ألف رأس من الأغنام و ١٠ آلاف رأس من الإبل
قطيع إبل قطيع أغنام وقت الظهيرة ويبدو عليه الكسل	وثبت أن أعدادًا كبيرة منها كانت تتعرض للموت نتيجة للأمراض أو للجفاف وكان العلاج ..

المشهد السابع والعشرون : (وحدة بيطرية) نهار / خارجى

لقطات لخدمات الوحدة البيطرية وحدات بيطرية متنقلة تقدم الخدمات المجانية للرعاة . .

قطع

المشهد الثامن والعشرون : (جمعية فى سيدى برانى) نهار / داخلى

لقطات لعملية توزيع الكسب جمعيات تعاونية تقدم الكسب مجاناً فى أوقات الجفاف

قطع

المشهد التاسع والعشرون : (محطة أبحاث المراعى برأس الحكمة) نهار/خارجى

لقطات مختلفة للأغنام ولنباتات المراعى هذا فضلاً عن إنشاء محطة لأبحاث المراعى برأس الحكمة تقوم بعمل دراسات وتجارب على نباتات المراعى لإنتاج سلالات ممتازة منها تقاوم الجفاف تصميم استمرار الرعى طوال العام .. ولم يعد البدوى يجد ضرورة للترحال بأغنامه بحثاً وراء الكلأ ..

قطع

المشهد الثلاثون : (سوق سيد برانى) نهار / خارجى

محل من الخارج والبدو يدخلون ويخرجون

تأتى الفئة الثالثة من البدو التجار

قطع

المشهد الواحد والثلاثون : (المحل من الداخل) نهار / داخلى

بدو يشترون ولقطات تفصيلية لمحتويات المحل

وتجارة الصحراء لها لونها الخاص .. فالتاجر لايعرف التخصص فى نوع يبيعه .. إنما يبيع كل شىء يلزم المعيشة . . البقالة والأقمشة . . والخضراوات والفاكهة والشاى والسكر والخبز

قطع

المشهد الثانى والثلاثون : (سوق سيدى برانى) نهار / خارجى

لقطة عامة للسوق

ومع بداية استقرار البدو بدأت تظهر بعض صور التخصص بين التجار ..

محل جزار

بدأت تظهر محال الجزارة

المشهد الثالث والثلاثون : (المخبز) نهار / خارجى

المخبز من الداخل جمعية استهلاكية

وبدأ يظهر المخبز لأول مرة فى حياة

البدوى ، كما ظهرت الجمعيات التعاونية الاستهلاكية

قطع

المشهد الرابع والثلاثون : (طريق سيدى برانى) نهار / خارجى

لقطات لبعض المحال المبنية على الطريق — ولم تكن هناك فى الصحراء أى أماكن ثابتة إلا محال التجار فقط .. على حين كان البدو يتحركون مع خيامهم خلف الماء والمرعى ..

قطع

المشهد الخامس والثلاثون : (منطقة صحراوية) نهار / خارجى

لقطة لبيت مبنى بالطوب — ومع تغير الحال بدأت الصورة تتغير وبدأت تظهر المساكن المبنية بالطوب

زوم للخلف وتبدو خيمة بجوار البيت — ولكن البدوى فى البداية لم يتخل تماماً عن خيمته أينما كان يقيمها إلى جوار البيت ..

قطع

المشهد السادس والثلاثون : (قرية حديثة) نهار / خارجى

لقطات لمبانى القرية — ومع زيادة التعمير .. ومع تغلغل مفهوم الحياة المستقرة الجديدة فى وقت بدأت

الخيمة تختفى تماماً – بدأ البدوى يستقر فى مبانى القرية التى أقيمت له ..

قطع

المشهد السابع والثلاثون : (العقد) — نهار / خارجى

المدارس

العمل فى وحدة صحية

وهنا ظهرت الحاجة إلى المزيد من الخدمات .. فأنشئت المدارس والمستشفيات والوحدات الصحية التى تقدم الدواء والعلاج بالمجان ..

قطع

المشهد الثامن والثلاثون : (قرية حديثة) — نهار / خارجى

لقطات لبعض البدو يسيرون فى شوارع قرية حديثة

ولكن .. هل سيظل البدوى على استقراره فى هذه القرى أو أنه سيعود إلى الترحال من جديد ؟

لقطات مقارنة بين القديم والحديث

١ – محراث خشبى .. محراث آلى

٢ – بدوى يركب جملاً .. بدوى يركب سيارة

٣ – بدوى يكوى نفسه .. بدوى يعرض نفسه على الطبيب

٤ – بدوى يرفع الماء بكوز من البئر ..

الإجابة نجدها فى الصورة المشرقة التى تبدو عليها حياته الجديدة .. التى بدأت تنعكس على مفاهيمه ، وعلى طريقة حياته وعلى أساليب إنتاجه وعلى سرعة إيقاعه فى حياته اليومية ..

إننا اليوم نرى حياة جديدةً تدب فى

بدوى يملأ كوبا من حنفية	هذه المنطقة .. مجتمع مستقر اختفت
٥ – مروحة كلوز للمروحة دائرة وتبدو	منه صورة الفراغ العريضة التى كانت
خلفها الشمس	الوجهة الدائمة لصحارينا ..
سوبر ..	« بداية الأستقرار » .
عنوان	

ملحق (٤)

سيناريو فيلم العبابدة

المشهد الأول

ظهور

بداية العناوين — موسيقى مناسبة

مزج

المشهد الثانى

فيلم ١٦ مم

سيارة فى الطريق الصحراوى

هناك فى صحرائنا الشرقية ، حيث الغموض والطبيعة الخشنة .. كانت رحلتنا .. وسارت بنا السيارة على طريق مرصوف .. يربط ما بين الوادى الأخضر وساحل البحر الأحمر عبر الصحراء .. وبرغم الطريق المعبد فإن من يريد أن يتعرف على الصحراء ومن فيها لن يجد دائماً الطريق المرصوف وإنما سيضطر إلى سلوك طرق الصحراء الوعرة بين الجبال والمرتفعات وفوق الرمال الناعمة قد يلاقى مثل هذا

السيارة تغرز
السيارة تعاود السير
آثار فرعونية

السيارة ولقطات للصحراء
أشجار ونبات بالصحراء
أشجار تخرج من بطن الجبل
لقطات لآبار
لقطات لمرسى علم
لقطات لمحطة الحدود
وتصاريح المرور
خريطة المنطقة والحدود
لقطات لنبات الشورى
لقطة لشجرة فى وسط البحر وعلى
الساحل .

لقطات لطائر النورس

لقطات لنخيل على الساحل

وحيث تسير فى صحرائنا الشرقية ..
تلاقى مثل هذا المعبد الفرعونى
القديم .. يربط مابين ماضينا
وأمجاده .. وحاضرنا وآماله ..
ويستمر الطريق خلال الصحراء
الجرداء . . مبتعداً عن الوادى
الأخضر .. ولكن برغم قلة المياه .. بل
برغم ندرتها ترى على جانبى الطريق
أشجاراً ونباتات أنبتتها الأمطار ؛
ليكتمل جمال الصورة الحية التى تمر
بها ..

تتجلى قدرة الله (وجعلنا من الماء كل
شىء حى) صدق الله العظيم .. حتى
الماء المالح فى وسط البحر .. تستقى منه
هذه الأشجار لتنمو وتكبر وتظل رمزاً
على قدرته عز وجل .. مئات من
الأشجار من نبات الشورى تنبت وتنمو
على الماء المالح .. ونجد هناك سرباً أسود
من طائر النورس وآخر أبيض فى
رحلتها الشتوية إلى أماكن الدفء
والأمان يحطان رحالها ضيوفا ليشاركانا

فى متعة الطبيعة وليسبحا معنا بقدرة الله . . .

وفى رحلتنا على الساحل أيضا نصل إلى وادى الجِمال . . ولكنه فى الوقت نفسه وادى الجَمال . . جمال الطبيعة البكر . . جمال تلك الغابة من النخيل تنبت فى رمال شاطئ الخيال . .

وعند جبل حميثرا نلاقى مزاراً يقصده الكثير من المسلمين . . مقام سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه . .

لقطات لمقام أبو الحسن الشاذلى

وفى المنطقة . . نتعرف على سكانها . . فإذا بهم بدو من العبابدة يقال : إنهم من نسل الزبير بن العوام . . هم جزء من نحو ١٥,٠٠٠ نسمة ينتمون إلى فروع مختلفة من العبابدة وينتشرون فى طول الصحراء الشرقية . .

لقطات مختلفة للناس

نراهم يعيشون فى جماعات صغيرة يسكنون الخيام ، وتعاون المرأة زوجها فى العمل ولكنها تعتبر من صميم أعمالها أن تبنى خيمتها .. وأن تفكها لترحل مع زوجها سعياً وراء المرعى كعادة البدو ..

لقطات للخيام

لقطات لنساء يعملن

لقطات للمرأة والخيمة

على مدى المنطقة الواسعة تتناثر

لقطات للآبار

واستخراج الماء منها لقطات للجمال	الآبار .. ومن أشهرها بئر الشاذلى بجوار المقام وبئر البرامية والأبرق وأبو هشيم والشلاتين ... وهم يستعملون مياه هذه الآبار لحياتهم اليومية وحاجة دوابهم فقط .. أما المرعى فيكلون أمره للأمطار التى تهطل فى هذه المنطقة بين أكتوبر وأبريل فقط ثم يعم الجفاف باقى العام ..
لقطات للمرعى لقطات للجمال وسقيها «للأغنام»	ويظل البدو يتنقلون خلف المرعى كمصدر من مصادر رزقهم حتى تصل الأغنام والإبل إلى أسواق تجارتها .. ويلاحظ هنا أن حياتهم الاقتصادية تعتمد اعتماداً كلياً على تجارة الجمال والأغنام ..
شاب يركب الجمل	إن حياتهم الاجتماعية كحياة البدو فى أى مكان أو أى زمان تعتمد اعتماداً كلياً على الإبل .. كل الحياة هنا تدور حول الجمل . .
معركة بين العبابدة	لذلك .. لايتأخر العبادى فى سبيل جمله عن أى شىء .. حتى القتال (موسيقى معبرة عن القتال)
مجلس الصلح	ولكنهم فى الوقت نفسه يستجيبون

	لكبيرهم إذا ماتدخل فيجلسون حوله لينصف المظلوم منهم ويعيد له حقه كاملاً ..
لعبة السيجة	وتمضي الحياة بعدها فى الصحراء هادئة وادعة تتخللها البهجة .. وبعض التسلية .. فيقيمون بين الحين والآخر مسابقات فى لعبة السيجة .. لعبتهم (الوحيدة) وإذا ما مر بهم أحد من
لقطات لصيد الغزال	هواة الصيد عاونوه فى صيد الغزال المنتشر فى منطقتهم .. أو خرجوا معه
لقطات لصيد النعام	سعياً وراء قطيع من النعام يشاركونه فى متعة المشاهدة والصيد ..
	(موسيقى باليه)
لقطات لوصول ضيوف	ويعودون بالضيوف إلى خيامهم ينزلونهم على الرحب والسعة يتناوبون
لقطات للضيوف فى الخيمة	استضافتهم والترحيب بهم . .
لقطات للنار . .	وينقسمون إلى أقسام عمل مختلفة
لقطات للمحمصة	محددة فيبقى مع الضيوف من يوقد النار ويصنعون الجبنة .. وهى مانسميه نحن
لقطات للهون	بالقهوة مع بعض الخلافات فهم
لقطات للجبنة	يقومون بجميع مراحلها لحظة تناولها ..
تقديم القهوة	يحمصون البن فى طاسة من حديد ..

يصحنونه فى هون من الخشب أو الحجر مع خلطه بالزنجبيل ، ثم يوضع مع الماء فى الجبنة المصنوعة من الفخار على النار ليغلى .. ثم يقدم .. ومن عاداتهم تقديم (الجبنة) ثلاث مرات على الأقل للشرب

ولابد أن يظل عدد ماتشربه من الجبنة فردياً .. فإذا قبلت الفنجالة الرابعة فلابد من الخامسة وهكذا .

الرجل ينتقى خروفاً

وخلال ذلك يخرج فرد منهم لينتقى حق الضيف .. خروفاً مناسباً

رجال تجمع الحطب

وتكون مجموعة ثانية قد خرجت لجمع الحطب ..

عملية العجين والخبيز

مراحل عمل الرجاج

مراحل عمل الرضاب

وتقوم مجموعة ثالثة بالخبيز .. ولهم نوعان من الخبز ..

الرجاجى .. ويشبه إلى حد كبير .. البتاو المعروف فى الريف .. والنوع الآخر ويسمى الرضاب .. ويخبزونه بدفن العجين فى الرمل الساخن وعند تناوله لاتجد فيه أثراً للرمال ..

تسوية الخروف على النار

وخلال ذلك يكون الخروف قد أعد للشواء فأخلى من العظام تماماً ،

ويشكل اللحم على شكل شريحة
مسطحة توضع على الصخر الساخن
ويقلب حتى ينضج اللحم .. ويسمون
هذه الطريقة السلات ..

لقطات لرقصة السيف

وما إن ينتهى الطعام حتى تقام
للضيوف الاحتفالات فيرقصوا
أمامهم .. ومن أشهر رقصاتهم ..
رقصة السيف تمتزج فيها النغمات
الصادرة عن إيقاع التصفيق مع نغمات
الطنبورة .. الآلة الموسيقية الوحيدة
عندهم

لقطات للرقصة الثانية

(صوت الرقصة)

مزج

(صوت الرقصة الثانية)

مزج

لقطات للرقصة الثالثة

(يستمر التعليق مع الرقصة الثالثة) حقاً
إن أسعد أيام البدو فى الصحراء . .
أيام أن يحل بهم ضيفان إنها تضارع
أيام الأفراح السبع .. فهم يتبادلون

استمرار لقطات الرقصة الثالثة

تكريم الضيف طوال فترة إقامته
بينهم . . يعيشون معه أياماً كلها ذبائح
كلها . . رقص . . وطرب . .

وغناء . .

(كلمة النهاية : سوبر على الرقصة الثالثة
تظهر من بعيد وتقترب حتى تملأ
الشاشة .

اختفاء

المراجع

أولا : مراجع باللغة العربية :

١ - د . إبراهيم إمام - الإعلام والاتصال بالجماهير - الأنجلو - ١٩٦٩ .

٢ - د . جيهان أحمد رشتى - الإعلام ونظرياته فى العصر الحديث دار الفكر العربى ١٩٧١ .

٣ - محمود سامى عطا الله - الفيلم التسجيلى والدول النامية - بحث قدم لقسم الدراسات العليا بكلية الإعلام - ١٩٧٢ .

٤ - محمود سامى عطا الله - الفيلم التسجيلى ومواجهة الدعاية الصهيونية فى الخارج - بحث اشترك به التليفزيون المصرى فى المهرجان الدولى الأول لأفلام وبرامج فلسطين فى بغداد - ١٩٧٣ .

٥ - ويلبور شرام - أجهزة الإعلام والتنمية القومية ترجمة محمد فتحى - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - ١٩٧٠ .

٦ - فورسايت هاردى - السينما التسجيلية عند جريهسون - ترجمة صلاح التهامى

٧ - د . ا - سبنسر وآخرون - السينما اليوم - ترجمة سعد عبد الرحمن قلج . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - ١٩٧١ .

٨ - جان مارى دوميناك - الدعاية السياسية - ترجمة د . صلاح مخيمر وعبده رزق - الأنجلو ١٩٦٠ .

٩ - الدوريات :

* مجلة السينما .
* الإذاعات العربية .
* رسالة اليونسكو .
* الفن الإذاعى .

ثانياً : مراجع باللغة الإنجليزية :

1— Lerner, Daniel. The passing of traditional society, modernizing the middle east. Free press, 1958.

2— Pye, Lucian. Communication and Political Development. 1969.

3— Graves, Peter, Film in Higher Education and research. 1966.

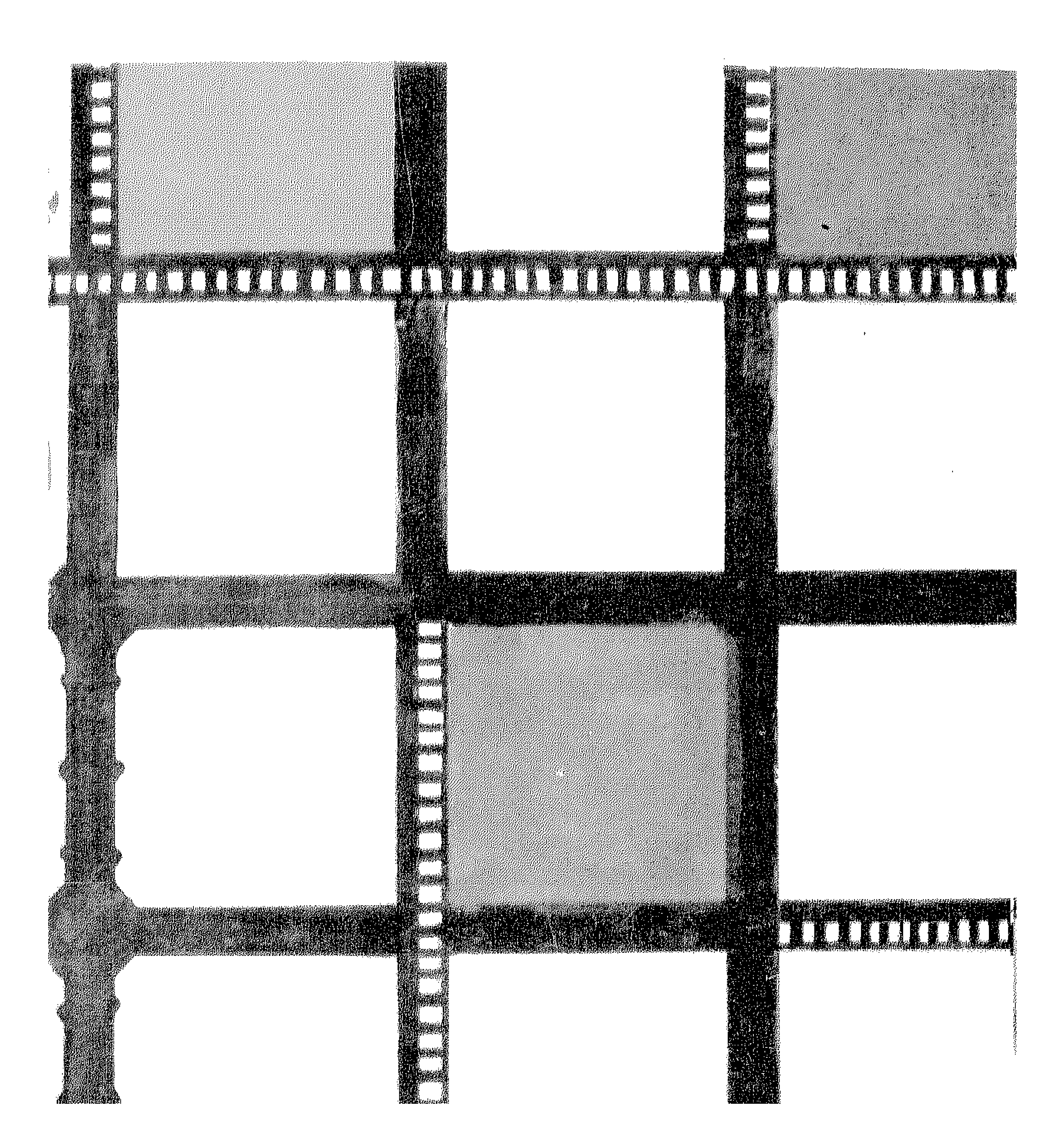
4— Manvel, Roger. Film.

5— Rachty. Gehan, Mass Media and the Process of Modernization in Egypt after the 1952. Revolution Syracuse University, 1968.

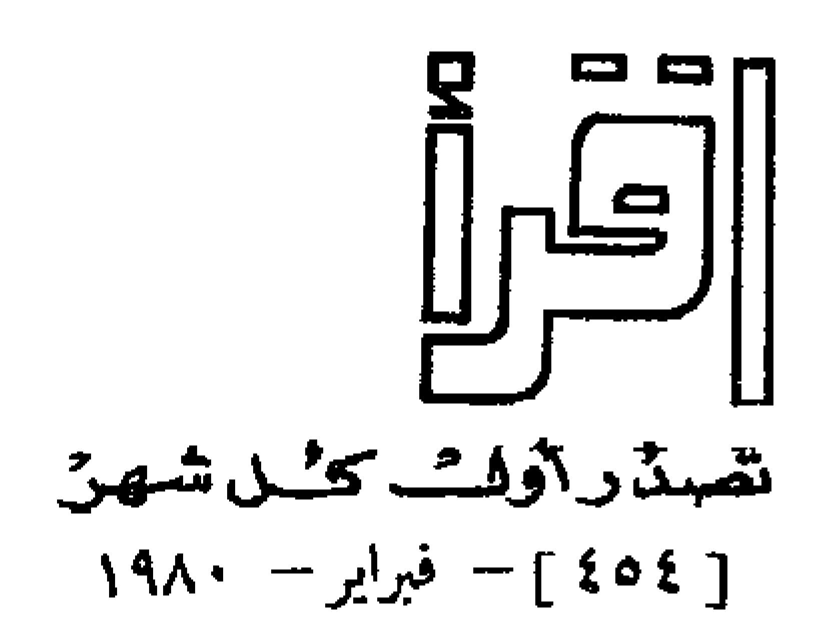
رقم الإيداع	١٩٧٩/٥٠٦٩
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٨٦١ - ٧

١/٧٩/٥٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)




اقرأ
فى بلاد
العبابدة



تصدر أول كل شهر
[٤٥٤] - فبراير - ١٩٨٠

رئيس التحرير أنيس منصور

د . سمير محمد خواسك

في بلاد العبابدة



دار المعارف

تصميم **الغلاف** : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهداء

إلى الذين يقضون أجمل سنى عمرهم فى مجاهل الصحراء ، بعيداً عن المدينة والأضواء ، متنقلين بين السهول والجبال ، يعملون بإيمان وصمت . . فى اكتشاف الأرض المجهولة ، باحثين فى أسرارها ومنقبين عن كنوزها ، من أجل مزيد من القوة والمجد لوطنهم . . مصر العظيمة . .

بداية الرحلات

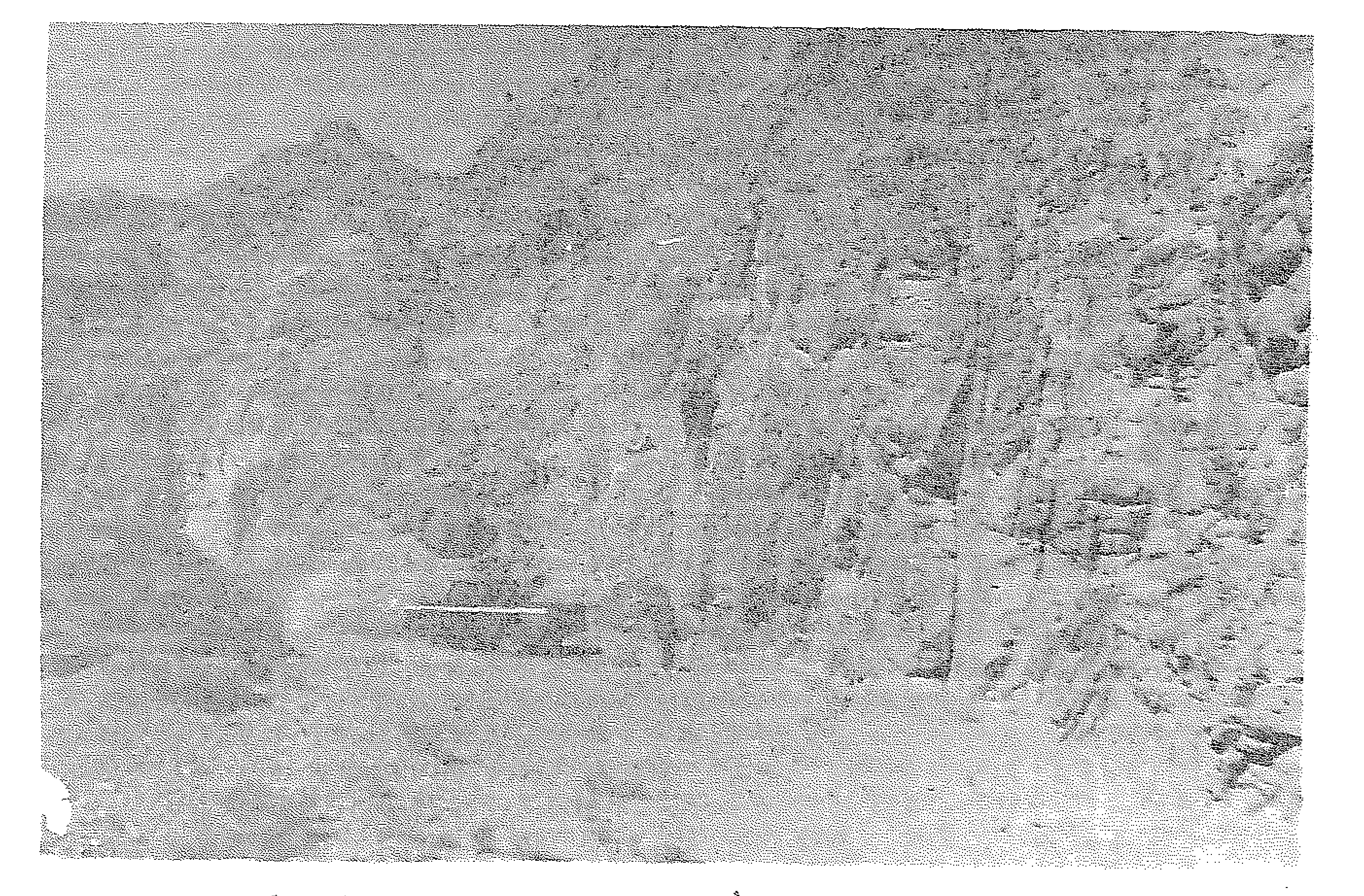
بدأت هذه الرحلات فى إحدى أمسيات الخريف عام ١٩٦٢ . تحرك القطار من « محطة مصر » متجهاً إلى الجنوب . كنت أجلس وحدى فى غرفة صغيرة بعربة النوم . أخذت أتأمل اللافتة الكبيرة التى كتب عليها « الجيزة » وهى تتباعد ببطء . هل هذا القرار الذى اتخذته ذات يوم من الأيام كان حقًّا قراراً صائباً أن تكون مهنتى هكذا ؟ . إن مهنة « الجيولوجى » مهنة شاقة ، ونصيب صاحبها من المكاسب المعتادة فى الحياة قليل . يقضى الجيولوجى حياته فى اكتشاف الأرض المجهولة . ويظل هو نفسه مجهولا ، حتى مهنته . . لايعرفها الكثيرون .

تبدأ رحلة الجيولوجى عادة من نهاية العمران ، عليه أن يصبر ويثابر ولايثبط من عزيمته تعاقب السنوات بدون نتائج تذكر ، وأن يشجع نفسه بنفسه ويمشى فى الأرض ، إلى أن يأتى يوم يكتشف فيه إحدى المناطق التى تحتوى على ثروة معدنية

هامة أو تحتوى على البترول ، فتنشأ مدينة صناعية فى مكان الاكتشاف .

وقد يكتشف المياه فى مكان بالصحراء ، فيتحول هذا المكان المجهول إلى مكان معلوم . . يكرمه الإنسان . . ويشرفه العمران . وتتحول الكثبان الصفراء إلى أرض زراعية خضراء ، وتُخْلَق القرى والنجوع . . يأتى إليها الناس من كل صوب ، وتُبنى المدارس والمحاكم ، والمستشفيات والجوامع والكنائس ، وربما يظهر فى المكان الجديد شخصيات كبيرة ، ومناصب هامة ، ورجال مشهورون ، ويمسى من اكتشفه هو المجهول ، فهو فى العادة يغادره ويذهب لاكتشاف مكان جديد . ويظل هكذا هائماً فى القفار . . هذا هدفه وهذه رسالته .

* * *



يقضى الجيولوجى حياته فى اكتشاف الأرض المجهولة ويظل هو نفسه مجهولا ، حتى مهنته . .
لا يعرفها الكثيرون

إلى بلاد العبابدة

طرق باب غرفتى بالقطار زميلان يسافران معى لأول مرة إلى تلك البقاع التى لاندرى عنها شيئاً . . وقالا إن ميعاد العشاء قد أزف ، فذهبنا جميعاً إلى عربة الأكل . وعلى المائدة كان حديثنا عن بلاد العبابدة التى نحن إليها ذاهبون ، ترى من هم العبابدة هؤلاء ؟ . . وهل هم من الأخيار أو ممن يميلون إلى الشر ؟ وماهى عاداتهم وتقاليدهم ؟ ، وماذا يأكلون وماذا يشربون . . وأى زى يلبسون ؟ وهل يسكنون البيوت أو الخيام ؟ ، وهل هناك محلات وأسواق ؟

تقع بلاد العبابدة فى بقاع صحراوية مافى ذلك ريب ، ولكن أى صحراء هذه ؟ . . أهى رملية أم صخرية ؟ وهل فيها حيوانات وزواحف ؟ وهل الحيوانات مفترسة والزواحف سامة ؟ . وماهى أنواع الطيور هناك ؟ .

عدت من عربة الأكل فوجدت عامل القطار قد حول الأريكة الكبيرة إلى

سرير صغير. هانحن أولاء نقترب من « المنيا » سيصل القطار إلى قنا فى مطلع الفجر. . لاداعى للقلق فإن المفتش سيطرق الباب عند مشارف محطة الوصول . ولكن مهلا . . هل « قنا » هى غاية الرحلة ؟ . لا . . بل هى بدايتها . وربما لاتكون البداية هى قنا . . قد تكون مدينة القصير ، فكما قلنا إن رحلة الجيولوجى تبدأ من حيث ينتهى العمران . . أى عمران . . ولو كان طريقاً من الأسفلت أو خط سكة حديد ، أو طريقاً صحراويًّا أو ريفيًّا أو خطًّا من أعمدة التليفونات .

وقفنا مع أول خيوط النهار فى ميدان محطة قنا ، وتقدم منا رجل عرفنا وعرفناه حتى قبل السلام . عرفنا الرجل لكوننا ثلاثة من الغرباء ، وعرفناه بعربته « الحكومة » وهى الوحيدة الموجودة بميدان المحطة فى ذلك الوقت من السحر . قال إن اسمه « محمد صقر » ، وأنه جاء ليوصلنا إلى معسكر البعثة الجيولوجية الموجود بعيداً فى الصحراء ، وذهب بنا إلى مقهى الجبلاوى وتركنا هناك قائلا إنه سيعود إلينا بعد وقت قليل .

وقد تبين لنا أن الوقت القليل فى مفهومه عبارة عن تسع ساعات ، ذهب خلالها يمشى فى أسواق قنا يملأ سيارته بالخضروات والخبز والفاكهة واللحوم والعلب المحفوظة والدخان والسجاير والسكر والشاى ، وطلبات متناثرة أخرى مكتوبة فى عدة « كشوفات » ، ليوصلها إلى رجال البعثة الجيولوجية . . فى المعسكر البعيد ، وبالطبع لم يستغرق شراء هذه الطلبات وترتيبها فى السيارة كل هذا الوقت ، فقد أنفق باقى النهار يمرح مع أصدقائه . فهذه فرصته للنزهة فى المدينة بعد طول غياب فى الصحراء .

غادرنا « قنا » فى الأصيل متجهين إلى سفاجة على طريق يصل بين وادى النيل وساحل البحر الأحمر . الرمال تغطى الوادى الفسيح وتكسو الأرض المحيطة حتى نهاية الأفق ، لايقطع رتوب اللون الأصفر إلا خط « الأسفلت » الأسود اللانهائى

الامتداد . ولايغير من هذا المنظر الرتيب إلا وجود تلال صغيرة تظهر بين حين وآخر .

قال محمد صقر . . إنه كان باستطاعته أن يذهب بنا من طريق قريب يصل بين قنا والقصير مباشرة ولكنه طريق غير مرصوف ، وسوف تشعرون فيما بعد أيها الأساتذة بقيمة الأسفلت عندما تجرّبون الصحراء .

وقال صقر : إن المعسكر الرئيسى للبعثة الجيولوجية موجود فى وادى عسل ، وإن الدكتور رئيس البعثة متغيب فى إجازة بالقاهرة ، وإن المسئول عمّن فيها هو نائبه الجيولوجى حسن عساف . وهل هذه أول مرة تذهبون فيها إلى الصحراء ؟ ، وإننى ماجئت إلى هنا إلا لتحقيق رسالة سامية فى الحياة ، فأنا ياسادة عندى ست بنات ، وغايتى من هذه الدنيا أن أعلمهن خير تعليم ، وفى موسم النتائج من كل عام حينما يصلنى نبأ نجاح إحداهن وأنا فى تلك الصحراء ، أحس أن متاعبى فى الجبال قد زالت ، وأشعر بأن الله قد عوضنى عن حرمانى من المعيشة معهن بأن كتب لهن التوفيق ، فالعلم خير سلاح للفتاة . . يحميها من كل منزلق ويقوى من شخصيتها ، ويكرم من شأنها ، وهل تصدقون أن أكبر بناتى قد وصلت إلى الثانوية العامة وأننى أتمنى أن تدخل كلية العلوم وأن تتخرج جيولوجية . . وأن تكون أول من تعمل فى هذا المجال من بنات جنسها ؟ .

وقد لاحظت أن الشىء الذى يشد الرجل إلى الصحراء ليس تلك الرسالة فقط ، بل إن حب المغامرة يجذبه إليها بالمثل ، فهو سعيد لأنه رأى من الجبال مالم يره أحد قبله ، وأنه مشى فى أودية ربما لم تطأها قدم إنسان من قبل . ربما كان السبب الرئيسى فى مجيئه إلى الصحراء بادىء الأمر هو تحقيق تلك الرسالة السامية ، ولكن حب خوض المجهول قد تمكن من نفسه ، وأصبحت المغامرات اليومية التى شهدها مع المستكشفين . . جزءًا من شخصيته . وقد شاء الله أن يلازمنى هذا

الرجل منذ ذلك اليوم خمسة عشر عاماً جاب معى خلالها أماكن مجهولة ومتباينة فى الصحراء المصرية ، وكنت أرى نتائج كفاحه وأمنياته تتحقق مع مرور الأعوام . . بنجاح البنات وتخرجهن الواحدة بعد الأخرى ثم زواجهن الواحدة بعد الأخرى ، ومع كل أمنية تتحقق يزداد الرجل شباباً ونشاطاً . . وحبًّا للصحراء وتعلُّقاً بالجبال . وفى سن الشيخوخة . . رزقه الله بالولد على غير انتظار ، وكأن نعمة الله عليه بهذا الولد هى مكافأة له على حسن تربيته للبنات .

أخذنا طريقنا على ساحل البحر الأحمر فى اتجاه الجنوب من سفاجة إلى القصير ثم غادرناها واستمر سفرنا فى نفس الاتجاه إلى أن وصلت السيارة إلى « رجم » من الأحجار المرصوصة على جانب الطريق لايزيد ارتفاعه على نصف متر ، فتوقف صقر قائلا : هذه العلامة وضعناها لكى تدلنا على مدخل وادى عسل . ونزل من سيارته وأطفأ نورها وأخذ ينظر بعيداً فى ظلام الصحراء حتى يستدل على اتجاهه ، ثم تركنا الطريق المرصوف وبدأت السيارة « اللاندروفر » تسير فى سهل منبسط عظيم على طريق صحراوى غير واضح المعالم متجهة إلى الغرب ، تجرى فى الظلام وتمرق بين « المطبات » بسرعة وكفاءة وعبث ، فقد صممت « اللاندروفر » خصيصاً للصحراء ، ويوم أن جاء « مونتجومرى » إلى مصر عام ١٩٦٧ لزيارة مواقع الحرب العالمية الثانية . . لم يطلب إلا سيارتين فقط من هذا الطراز .

لاحت بقعة من النور فى الأفق البعيد من الصحراء المظلمة قال صقر إنها معسكر البعثة الرئيسى .

* * *

استقبلنا حسن عساف ، شاب . . باسم الوجه . . طويل اللحية والشعر . . يلبس ملابس العمل . دخلنا خيمة بها أربع مناضد كبيرة متلاصقة وحولها مقاعد مختلفة الألوان وقد ثبت « الكلوب » فى مسمار دق فى عمود الخيمة ، قال حسن إن

هذا المكان يطلقون عليه « الميس » وهو مخصص لكى يتناول الطعام فيه رئيس البعثة والجيولوجيون ومن يحضر إليهم من ضيوف ، أما « الأفندية » فلهم « ميس » آخر ومطبخ مستقل . ويفضل السائقون والعمال تجهيز طعامهم بأنفسهم فى خيام نومهم كلٌّ على انفراد ، وقد يشترك الأقارب منهم أو البلديات فى إعداده وتناوله .
وقال إنه جيولوجى . . تخرج من جامعة عين شمس منذ عامين قضاهما فى هذه المنطقة من الصحراء الشرقية . وإن الدكتور رئيس البعثة سوف يعود قريباً من القاهرة ، وإن موسم العمل لم يحن بعد ، فالعمل فى الصحراء يبدأ من نوفمبر وينتهى فى مايو لتعذر الرحلات بين الجبال فى أشهر الصيف . وإن مناخ المنطقة قارى وقد يسقط المطر على هيئة رخة أو أكثر ، مرة واحدة كل بضع سنوات .

وأجاب عساف على سؤال لى قائلا : إن هذا المعسكر الذى نحن فيه هو معسكر رئاسة البعثة وله فرع فى وادى العطشان يقيم فيه الجزء الأكبر من العمال لأنه منطقة عمل رئيسية ، كما يوجد فرع آخر فى وادى الكريم .

وقال إن الرجال هنا ينقسمون إلى أربعة أقسام رئيسية : رجال من الوجه البحرى ، ورجال من الصعيد وبالذات من محافظة قنا ، والجزء الثالث من سكان البحر الأحمر وخاصة مدينة القصير ، وأما الجزء الرابع فإنهم من العبابدة . . أهل تلك المنطقة وهم يرجعون فى أصلهم إلى شبه الجزيرة العربية وينتسبون إلى جدهم الأكبر الزبير بن العوام رضى الله عنه ، يعيشون على الرعى ويجوبون المنطقة من أقصاها إلى اقصاها بحثاً عن العشب والماء . وقد استخدمنا عمالا مؤقتين منهم . . ولنا صلات دائمة بكل العبابدة سواء منهم من يعملون عندنا كعمال أو من يمرون علينا أثناء الرعى والترحال .

وقال عساف إننا نرسل سيارة « لورى » مساء كل أربعاء لكى تحضر الخضروات واللحوم والبقول والخبز من قنا وتعود مساء الخميس ، فيكون صباح

الجمعة راحة للرجال يطهون فيه طعامهم ويغسلون ثيابهم .

وسألته : والماء ؟

قال :

- حسب التساهيل ، ترسل « اللورى » مرة كل أسبوع ليشترى الماء من القصير ومعه تعليمات بأنه إذا لم يوفق فعليه بالذهاب إلى قنا لتعبئة الخزانات التى على ظهره من مياه نهر النيل مجاناً .

ثم سألناه :

- ولماذا يفشل فى الحصول على الماء من القصير ؟

- لأن سكانها لا يصل إليهم الماء العذب من النيل ، بل يعتمدون على محطة صغيرة لتنقية ماء البحر من الأملاح عن طريق التبخير ثم التكثيف ، ويوم أن تتعطل إحدى الماكينات ، يصبح البلد فى أزمة . . فلا يتحملون الغرباء .

- والترفيه ؟

- كما قلت لكم . . يوم الجمعة يطهو العمال طعامهم ويغسلون ثيابهم ، وهذا نوع من أنواع الترفيه ، ثم يلبسون ملابس نظيفة ويصلون الجمعة فى جامع القصير ، والصلاة فى الجامع تريح نفوسهم وتطمئن قلوبهم .

* * *

فى وادى عسل

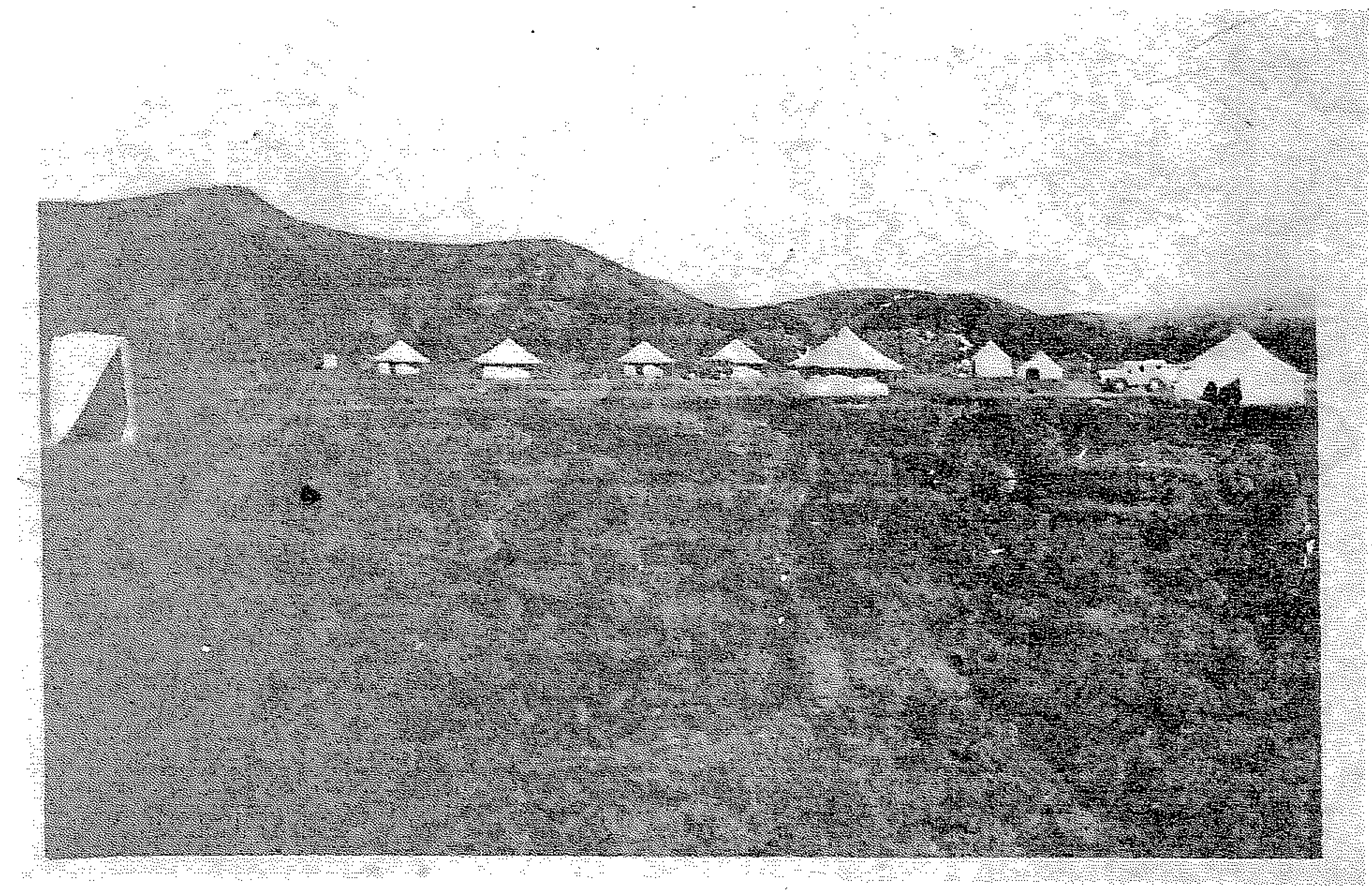
وقبل شروق الشمس كنت أمام خيمتى أتأمل المكان فى ضوء النهار الذى لم يزل خافتاً . الوادى فسيح وممتد . . أرضيته مكونة من صخور مفتتة مختلفة الألوان ، تتراوح أحجامها من الحصى الصغيرة إلى الجلاميد . يقولون إن الوادى عبارة عن متحف من متاحف الطبيعة ، توجد على أرضه عينات من جبال المنطقة كلها . وهذه حقيقة ، لأن فتات الصخور التى تتكسر على قمم الجبال المحيطة . . تجرفها السيول من كل فج لتستقر فى الأودية .

تلال صغيرة من الحجر الرملى الأصفر والحجر الطينى . . ومن الإرداوز ، توجد متناثرة فى وادى عسل تتخللها صخور بركانية . . كريمية اللون ناصعة . النباتات قليلة وجافة فى الوادى ، هذه النباتات عبارة عن شجيرات صغيرة من الأشواك ، بينها بعض الأعشاب . وتوجد شجرة واحدة فى فم الوادى .

لاتوجد جبال عالية فى وادى عسل . . ومع هذا فإن أشباح الجبال الكبرى تلوح فى الأفق كأنها قريبة . . وهى فى واقع الأمر بعيدة . . غير أن حجمها الضخم وارتفاعها الشاهق يظهرها وكأنها قريبة منك . هذا جبل أبو الطيور ، وهذا جبل أم نقاط . . وأما ذلك الجبل العظيم فإنه « جبل السباعى » الذى سميت المنطقة كلها باسمه تقديراً لضخامته ، وكلها مكونة من الصخور الجرانيتية الوردية ، وهى علامات شامخة ذات أهمية كبرى لمن يسافر فى هذه المنطقة . . حينما يريد أن يحدد موقعه أو اتجاهه أو يضل الطريق .

معسكر رئاسة البعثة القابع فى وادى عسل لايؤمن بالاشتراكية ، وربما لم يسمع عنها قط حتى الآن . فالطبقية هى المذهب الذى يعتنقه بلا أى تردد أو حياء .

هذا قطاع فى شرق المعسكر مكون من عدة خيام من النوع الممتاز ، ناصعة البياض نظيفة عالية اسمها خيام « ضبطان » . . لايسكنها إلا الجيولوجيون ! . . تتوسطها خيمة مثبت على قمتها علم أحمر يسكنها رئيس البعثة ، متى شاء وحضر إلى وادى عسل . وفى كل خيمة من تلك الخيام تجد منضدة جديدة حمراء وكرسياً واحداً وسريراً عليه بطاطين نظيفة وصواناً من الصاج ذا ضلفة واحدة ، وتتميز خيمة رئيس البعثة بأن الصوان أكبر والمنضدة أكثر اتساعاً ، والكرسى له ذراعان . ومن بين تلك الخيام . . خيمة يطلقون عليها –كما قلنا– خيمة « الميس » بها ثلاجة تعمل بالبوتاجاز وأخرى تعمل بالجاز ، وأربع مناضد مربعة كبيرة متلاصقة حمراء اللون . . حولها كراسى مختلفة الألوان ، ويوجد لرئيس البعثة مقعد خاص به . وفى المساء يلعبون فى تلك الخيمة الورق والنرد أو الشطرنج . وفى مواجهة خيمة « الميس » على بعد ثلاثين متراً منها يوجد كشك من الصاج اسمه المطبخ ، به بوتاجاز ونملية وأدوات الأكل . كما توجد خيمة أخرى اسمها « المكتب » بها منضدة رسم كبيرة وأدوات هندسية .



أحد معسكرات البعثة الجيولوجية فى الصحراء الشرقية

هذا هو قطاع الجيولوجيين ، أو هو قطاع البكوات كما يطلقون عليه لصعوبة نطق كلمة الجيولوجيين .

وأما القطاع الثانى فاسمه قطاع « الأفندية » ويتكون من مجموعة من الخيام المتوسطة اسمها خيام « طبيب » .

ويتكونَ القطاع الثالث من خيام صغيرة منتصبة فى أطراف المعسكر تختفى وراء التلال حياءً منها وأدباً فهى أسوأ أنواع الخيام ، إذا دخلتها فلابد أن تنحنى لصغر بابها ، وهى غير نظيفة من الداخل والخارج ، عليها آثار الهباب بسبب الطبخ بداخلها . . هذه الخيام اسمها « العسكرى » . . يعيش فيها العمال . وتستطيع أن تميز من بينها بسهولة الخيام التى يسكنها سائقون بأن تجدها شديدة البعدَ عن باقى الخيام . . ومتناثرة فى الوادى وأمام كل منها سيارة . . خاصة بكل سائق منهم .

وأما خيمة الجامع فهى فى مركز المعسكر فى مكان فسيح . . مزينة برايات خضراء .

وكأى مجتمع من المجتمعات الصغيرة . . لايخلو الأمر من خلافات يومية ، وفى هذا المكان المنعزل عن المدنية حيث لايوجد قضاء ، فإن تلك المنازعات تعرض كل يوم على مانطلق عليه هنا .. « مجلس الحكم » . .

* * *

مجلس الحكم فى الصحراء

ينعقد مجلس الحكم فى الصحراء . . وقت الأصيل من كل يوم بطريقة تلقائية . القاضى فى هذا المجلس هو رئيس البعثة أو من ينوب عنه إن كان غائباً ، وأما المحلفون فهم زملاؤه من الجيولوجيين والمهندسين وبعض الرجال الأفاضل من كبار السن . وهو ليس مجلساً رسميًّا بطبيعة الحال . . بل جلسة يومية وعادية ، يجلس فيها الرئيس كعادته فى ظلال خيمة « الميس » ومعه أصدقاؤه يتناولون شاى الأصيل ، ويحضر إليهم كل من له طلب أو شكوى . .

وأما القضايا التى تعرض على هذا المجلس الودى فهى بالنوادر والملح أشبه .

فهذا راع من العبابدة يمر على وادى عشل . . فيعرج للتحية والسلام . . طالباً قربة من الماء . . كهدية له من الغرباء .

وهذا عبادى آخر يعرض للبيع خروفاً مكسور الساق بأبخس الأثمان .

وذاك رجل يطلب إجازة فورية بدون سبب واضح ، فيلحظ الرئيس بخبرته أنه الشعور المضنى الذى يسود بين المغتربين ويطلقون عليه « الاكتئاب » .

وآخر يطلب بطانية لأن الهزيع الأخير من الليل يصبح بارداً كالثلج فى تلك الأيام .

وهذا رجل من رجال البعثة قادم فى مأمورية من أحد المعسكرات التابعة لها فى وادى الكريم ، يشكو من عدم وجود مصل للعقرب أو الثعبان .

* * *

وتجد شكاوى عديدة سببها المزاح .

فهذا رجل يشكو أحد زملائه لأنه داعبه مساء الأمس واختبأ فى ركن مظلم من الخيمة وقلد فحيح الأفعى ، وما هكذا يكون المزاح .

وشخص آخر له شكوى مماثلة . . فقد ألقى صديق له . . عقرباً مقطوعة الذيل فى قفاه . . فذعر وظن أن العقرب سليمة الذيل ، وأنها ستلدغه لامحالة فضحك منه إخوانه حتى استلقوا على الأرض من منظره . . وهو يفتش عن العقرب بين ثيابه .

وشكوى ثالثة من شكاوى المزاح ، يقول صاحبها إنه حديث العهد بالصحراء وإن هذه أول مرة يحضر فيها إلى تلك الأماكن المقطوعة ، يشكو بعض الشبان الأشقياء ، فقد ألفوا حديثاً بينهم . . قصدوا به إيهامه أنه يوجد فى فم الوادى – وراء التل الأصفر – كشك يبيع المرطبات وبجواره مقهى صغير يقدم الشاى والبورى ، وقد صدق هذا ولم يعرف أنه المقصود بالحوار . . فمشى وحده مسيرة ساعة ولم يجد كشكاً ولامقهى ولابورى ، وعاد فوجد حشداً من الرجال يرقبونه من فوق ربوة عالية يلوحون له ويضحكون من سذاجته .

* * *

ويدخل الشيخ عبد الله حانقاً ومعه ورقة كبيرة مطوية . . ويوجه سؤاله إلى رئيس البعثة قائلا :

– هل تعرف عنى أيها الرئيس أننى ممن يحبون النساء ؟

ويتعجب الرئيس من غرابة السؤال ويؤكد له أن مايعرفه عنه غير ذلك .

ويقول الشيخ عبد الله :

– إن المرأة ياسادة فتنة . . جمالها يخرج الرجل عن عقله ويضله عن صوابه . . ويضعه فى قائمة المجانين .

ويسأله الرئيس أن يوجز ويخبرهم بالقصة . فيبسط الشيخ عبد الله الورقة الكبيرة بين يديه فإذا بها صورة لامرأة فاتنة . . شبه عارية ، ويستعيذ البعض من الشيطان الرجيم ، فى حين يتمتم آخرون بعبارات الإعجاب والاستحسان .

ويقول الشيخ :

– اتهمنى الناس بسرقة هذه الورقة . . فقد أعلن بعضهم أن صورة امرأة فاتنة قد ضاعت ، وأخذوا يفتشون عنها فى كل مكان ، إلى أن عثروا عليها فى جيب خيمتى . وماذا يقول أهلى فى الصعيد إن علموا بهذا الاتهام المشين ؟ . . وكيف تكون سمعتى بعد ذلك فى قريتى وأنا رجل مستقيم ؟ ! .

ويطيب الرئيس خاطره . . ويطمئنه من هواجسه بأن أحداً من بلده لن يعلم بهذا الأمر . ويؤكد له أنه لن يسكت إلا إذا عرف الفاعل الخبيث . ويغمز أحد المحلفين الجالسين . . من شباب البكوات الأشقياء بعينه إلى الرئيس ، فتدور همهمة وضحكات خافتة ، إذ إن الفاعل هو البك الصغير الذى غمز بعينه ، فقد خبأ الصورة فى جيب خيمة الشيخ وأعلن عن سرقتها ، وأخذ الرجال يبحثون عنها فعثروا عليها بين ملابس الرجل المستقيم . وحفظ الرئيس تلك القضية بالطبع ، وضحك هو نفسه من تلك الدعابة .

وهذه شكوى أكثر جدية . . يدخل بها أحد الرعاة من العبابدة . يسلم ويكبر ، ويظل يرفع ثيابه قطعة بعد أخرى ، ويخرج منها فى النهاية رُقْعة رثّة من الورق . . يطالعها الرئيس فيجد صعوبة فى قراءتها . . لاتساخها من عرق الطريق . ويتطوع أحد المحلفين ويفك خطها .

وبعد فترة من الصمت تطول . . يقرأ مافى الورقة بصوت مسموع : من شيخ العبابدة إلى كبير الغرباء . . يحييه فيها ومن معه ويخصه بالتبجيل والإكرام ، ويشكو له أن أحد رجاله كان يقود سيارة ضخمة حمراء متجهاً إلى جبل « أم خرص » ، ووجد جوالا فيه فحم وضعه أحد العبابدة هكذا فى الخلاء ، فالعبابدة كلهم أمناء . . ولايخشى على أى شيء يترك فى الأودية . . وسرق السائق هذا الجوال ونسى أن الله سبحانه وتعالى يراه . وفى أى شهر يفعل هذا ؟ ، إنه فى شهر شعبان الحرام .

ويستغفر المحلفون ربهم على مافعل الرجل ، ويقول الرئيس : هذا فلان . . أرسلوا إليه وأبلغوه بأننى قد حكمت عليه بدفع ثمن الجوال مرتين ولو عاد إليها فى مستقبل الأيام فسوف يكون لى معه شأن ذو بال .

* * *

والتفت الرئيس فوجد شابًّا أسمر نحيفاً . . تحت العشرين ، من إحدى قرى مركز « قفط » بالصعيد ، يجلس القرفصاء على الأرض مستنداً إلى « كنار الخيمة » . كان الشاب ينظر إليه بين حين وآخر ويتردد فى عرض أمرّا عليه . فعرف الرئيس بفطنته أنه يريد أن يطلب منه أمراً شخصيًّا يمنعه حياؤه من أن يطلع عليه المحلفين . فيغادر الرئيس مقعده وينتحى بالشاب جانباً . . خلف الخيمة . . وكأنه قرر أن تكون قضيته فى جلسة سرية . وبعد فترة يعود إلى مكانه وينصرف الشاب راضياً . . سعيداً كل السعادة ، فقد تحقق حلمه بعد كفاح فى الصحراء لمدة

عامين ، فجمع المهر ، وهاهو ذا الرئيس قد قبل أن يتوسط عند خال هذا الشاب ليزوجه من ابنته . . وقد كان الخال رافضاً كل الرفض لشقاوة الولد وعدم اطمئنانه على استقرار ابنته الوحيدة معه . وكان الجميع يعرفون أنه لارجوع للخال عن موقفه المتحجر إلا لو تدخل رئيس البعثة بنفسه وخطب الفتاة للشاب من أبيها .

* * *

وجاء رجل من أقصى الوادى ، ودخل فى الموضوع مباشرة بعد السلام ، وبادر الجالسين بسؤال :

— أفمن يذهب إلى الريف كمن يسافر إلى « أم نار » ؟

فيتعجب الرئيس من غموض السؤال ، ويطلب منه أن يفصح عن مراده . فيقول العبادى :

— أعطانى « مراد أفندى » إجازة مقدارها ستة أيام ، صحيح أن العمال لاتزيد إجازتهم عن هذا المقدار ، ولكن يوجد ظلم غير مقصود واقع علينا نحن العبابدة من هذا القرار . فزملاؤنا من أهل الريف (يقصد أهل الصعيد) ، يسافرون إلى بلدهم على ظهر سيارة سرعتها سبحان الخلاق ، فيصلون فى يوم واحد وبلا أى عناء . وأما أنا فسوف أسافر إلى أهلى فى جبل «أم نار » ماشياً على قدمى ، لأقطع المسافة فى ثلاث ليال . فهل يرضيك أيها الرجل الكريم أننى عندما أصل إليهم ألقى بهديتى من الزاد ومايتبقى من الماء ، وأعود فوراً إلى مكان عملى قبل أن أستريح ، حتى أصل إليه خلال الليالى الباقيات ؟ ! ويبتسم الرئيس ابتسامة ذات مغزى عندما يسمع كلمة أستريح ويقول : أنت على حق ياعبدان . . ولك أن تبيت ليلة كاملة فى « أم نار » . فيهلل الرجل ويكبر ويدعو له بطول البقاء . ويسأله الرئيس : أما من طلب آخر لك أيها الهمام ؟ . فيقول : نعم . . أن تسمح لى بركوب السيارة التى ستسافر غداً للبحث فى الجبال ، فأنزل عند جبل العطوى فيوفرون على مسيرة

ليلة على الأقدام ، وأن تأمر لى بأخذ حصتى من الماء عن الإجازة التى سأتغيب خلالها ، وسأحملها معى فى قربة تكون هدية ثمينة لأهلى فى « أم نار » ، فندعو لك بطول العمر والسلام .

* * *

ويأتى دور قضايا تقسيم الماء ، يعرضها الساقى المكلف بأن يوزعها بين الناس بالعدل . يقول إن فلاناً ينتهز فرصة أن الرئيس أمر بأن يكون الوضوء مجاناً خلال الأشهر الحرم . . أى خارجاً عن الحصة اليومية ، فأخذ يتوضأ عدة مرات فى اليوم وكأنه يستحم ، بل يسكب الماء فوق ثيابه رفاهية وترطيباً ، وأن الله لن يقبل وضوءه لأنه ماء حرام . ويقول إنه يعرف رجالا لم يولوا وجوههم نحو القبلة منذ أن جاءوا إلى الصحراء . . انتظموا فى الصلاة بعد هذا القرار وأصبحوا وكأنهم من الأتقياء .

كما يشكو موزع المياه من « عبد الرحمن الذهبى » ، ويتهمه بأنه ينتهك العرف المتفق عليه بأن الكلاب لاتشرب إلا من الماء الذى استعمل أكثر من مرة ، وقد أعطاها اليوم ماءً نقيًّا . ويثور عبد الرحمن قائلا إنه حر فى حصته . . ولادخل لأحد إن هو أعطى كلابه نصيبه من الماء أو شرب هو من ماء الكلاب ، ثم يحاول أن يستميل الرجال فى مجلس الحكم إلى جانبه ، فيشرح لهم أنه لم يقدم الماء لكلاب كبيرة بل للجراء فهى ضعيفة ، وأن حالتها النفسية سيئة منذ أن رأت الثعلب يعبث فى قمامة المطبخ منذ ثلاثة أيام .

* * *

وأما هذا فهو من العبابدة ، ماجاء ليعرض قضية أو ليطلب حاجة إنما جاء لكى يقدم اعترافاً .

قال : سافرتم فى إجازة عيد الفطر المبارك أعاده الله عليكم جميعاً بالظلال

والخيرات ، وبقيت فى المعسكر وحدى لأحرسه . والمعسكر لايحتاج إلى حراسة فبلاد العبابدة كلها أمان . ولكن وجودى له فائدة أخرى فإن قامت دوامة هوائية أو جاء سيل . . أجمع الأشياء المتناثرة أو أشد الخيام .

وزارتنى أمى أيها الرئيس صباح يوم العيد . . جاءت على جمل . . قطعت به المسافة من وادى القش إلى هنا فى ثلاث ليال ، وأحضرت لى معها هدية العيد . . لحوماً وبعض الزاد . وأمى امرأة عجوز . . فهل أستطيع أن أرجعها بدون أن أكرمها وأرد إليها بعض إحسانها ؟ ، ولم أجد إلا أن أهديها ثلاث قرب من الماء . وإننى أعترف إليك بهذا لكى أريح ضميرى ، ولكى تستفيد أمى من الماء ، ويبارك لها الله فيه ويشفيها به ويطفئ ظمأها بالقليل منه آمين . . فهل تسامحنى أيها الأستاذ ؟

ويقول له الرئيس : بل إننى أحييك ، وأسامحك فيما أعطيت لأمك من قِرَب الماء ، فقد أوصى رسول الله بالأم ثلاث مرات ، ولو كنت قد أرجعتها إلى وادى القش بدون الماء لنالك منى غضب شديد .

* * *

ويدخل شاب أبيض الوجه ، بهى الطلعة ، أنيق الملبس ، منسق الشعر ، يسلم على الرئيس ويقول :

– أشكو إليك الملاحظ حامد راشد فقد ضربنى بالقلم .

ويكتم الرئيس وأصدقاؤه الضحك مراعاة لمشاعر الشاب ، ويرسل فى استدعاء الملاحظ راشد .

وفى أثناء انتظار وصوله يسأله الرئيس :

– ومن أنت أيها الشاب ؟ ، أنت لاتعمل عندنا ، وإن مظهرك المتأنق لايدل على أنك ممن يعيشون فى الجبال .

فيتلعثم ويحمر وجهه خجلا ، ويتطوع أحد الجالسين . . ويشرح للرئيس قائلا :

– هذا ياأستاذ شاب طموح من أهل القاهرة مهنته حلاق ، جاء إلى بلده القصير باحثاً عن الرزق ، فاستأجر فيها « دكاناً » بإيجار شهرى مقداره عشرون قرشاً . وبالاتفاق الشخصى مع سائقى البعثة . . كان يذهب مرة كل شهر إلى وادى العطشان فى السيارة التى توصل الماء والطعام ، ويعود بعد ذلك حسبما يجد سيارة راجعة إلى القصير . وفى وادى العطشان يحلق للناس ، ويزين أشكال من هم على أهبة السفر فى إجازة ، ويكتب للباقين الخطابات التى يودون إرسالها إلى أحبائهم فى البلاد ، وعنده من أسلوب الكتابة ما بهر به سكان وادى العطشان من الصعايدة والعبابدة على حد سواء ، فهو ينمق الكلام وحق الله . . كأنه يصفف الشعر ، وله سجع يخلب الألباب . . وعبارات عن الحب جعلت أجرته ترتفع إلى علبة « سجاير » من النوع الصغير .

ويصل الملاحظ . . فيسأله الرئيس :

– هل ضربت هذا الشاب بالقلم ياراشد ؟

ويجيب الرجل :

– نعم ، ومن حسن حظه أننى لم أجهز عليه ، فقد كاد أن يهلك نفسه ويهلك معه قوماً آخرين .

ويسأله الرئيس : وكيف كان ذلك ؟

فيقول :

– جاءت من القاهرة إلى قنا ثم إلى القصير سيارة محملة بالمفرقعات تقصد الوصول إلينا فى وادى العطشان . وبعد أن وصلت إلى بلدة القصير سأل سائقها الناس أن يدلوه على وادى العطشان هذا فلم يعرف مكانه أحد ، بل لم يسمع به أى

منهم على الإطلاق . وذهبوا إلى المأمور فأخرج خريطة من الصوان بسطها أمامه فلم يجد لهذا الوادى أى ذكر ، فأرسل إلى خبراء الصحراء . . ولم يعثر أيضاً بينهم على من يرشد الغرباء إلى مكان الوادى المجهول . وتطوع هذا المتحذلق وقال إنه يذهب إليه كل شهر مرة وإنه حفظ الطريق إليه . وركب إلى جوار السائق مختالاً فخوراً كأنه بمسالك الصحراء خبير ، فخرج بهم عن الطريق المعتاد إلى طريق آخر يجهله .

علمت بهذا الموضوع مصادفة عندما كنت أجلس بالأمس فى المقهى بمدينة القصير ، فقد أخبرونى بقيام السيارة يرشدها هذا الأحمق ، وتأكد لى أنهم ضلوا الطريق لأنهم لم يصلوا إلينا فى وادى العطشان ، فجهزت سيارة وعدة كاملة وخزاناً من الماء وكثيراً من الطعام ، واقتفيت أثرهم على الطريق المؤدى إلى وادى العطشان ورأيت المكان الذى انحرفوا فيه ، فآثار تلك السيارة هى أحدث مامر فى هذا المكان ، وتعقبت آثارها فى أرض الوادى حتى وصلت بعد سفر طويل إلى جبل « أبو الطيور » ، (وهمهم الحاضرون بكلام غير مسموع حينما سمعوا كلمة « أبو الطيور ») . وعثرت عليهم عند سفح الجبل العظيم بجوار واحدة من الشجيرات الثلاث الموجودة هناك .

وقال راشد : ولورأيت منظر الناس أيها الرئيس نائمين فى استسلام إلى جوار السيارة لرثيت لحالهم . فما كان منى إلا أن أعطيت الشاب على وجهه قلماً واحداً ، وأنا مثل والده أخاف عليه ومن معه . . خطر الصحراء .

وسأل الرئيس الحلاق : هل يرضيك هذا الكلام الأخير؟ . . لاتكررها مرة ثانية يابنى ، ولا تمشِ فى الصحراء بدون معرفة وثيقة بالطريق ، فتعرض نفسك ومن معك للهلاك .

* * *

وكنت ترى الرئيس خلال فترة انعقاد الجلسة وحتى الآن هادئاً باسماً . . مهما

كان انفعال أصحاب القضايا . . يتقبل أراءهم ويستمع إلى مشكلاتهم بنفس راضية مطمئنة ، ويجد الحل المناسب لها ببساطة اعتادها من طول عيشه فى الصحراء .

وما انزعج قطّ . . إلا حينما عرضت عليه تلك القضية الأخيرة ، فقد دخل عليه أحد الرعاة يخبره أن شيخاً من شيوخ العبابدة يبعث إليه بالسلام ويبلغه أن فلاناً قطع الشجرة الموجودة عند التقاء وادى زيدون بوادى أبو جرادى ، ولم يخش الله فى أنها الشجرة الوحيدة بهذا المكان الفسيح وأنها كانت ملجأ للمسافرين يحتمون بظلها من هجير الصحراء .

وهب الرئيس واقفاً وقال بحزن . . وشدة لم يعهدها فيه أصدقاؤه :

–كافر من يقطع شجرة .

وأخذ يتمتم بتلك الجملة كأنه لايجد طريقة يرثى بها الشجرة إلا التكرار . وجلس مهموماً كأنه تلقى خبراً فى عزيز أو قريب ، وخيم الصمت على الحاضرين احتراماً لذكريات الرئيس مع الشجرة المقطوعة ، فهم يعرفون أنها أنقذت حياته ذات يوم من الأيام ، حينما كان حديث العهد بالصحراء . فقد ضل طريقه وهو يبحث بين الجبال فى أثناء إحدى رحلات الاستكشاف . . وفقد اتجاهه وأخذ يتخبط بين السهول والأودية ، وأنهكه التعب واستبد به العطش . . وشعر بحلقه جافًّا كالخشب . وبأحشائه وكأنها بدأت فى الاحتراق ، فأخذ يصيح بأعلى صوته عسى أن يكون قريباً من أى إنسان ، ولم يسمع إلا صدى ندائه تردده الجبال . وبعد لحظات من الصمت سمع صوتاً عميقاً من البعد السحيق يأتى من سلاسل أخرى من الجبال أكثر بعداً ، سمعها ترجع نفس النداء . . وكأنها أصوات مئات من المردة والشياطين . . أوكأنها أصوات جوقة الفناء . وأبرزت الصحراء سحنتها المخيفة التى تكشر فيها عن أنيابها لكل من ينفد منه الماء . لكن حبه للبقاء شحذ فيه

عزيمة الإنسان ، فأخرج من جعبته صورة كانت قد التقطت لتلك المنطقة من الجو ، وأخذ يرجع النظر فيها إلى أن عثر على نقطة صغيرة سوداء . . موجودة وسط مساحة شاسعة بيضاء . فقام بقوة خارقة كأنه يتحدى بها الجبال ، وأخذ يمشي لايأبه لنداء العطش من داخل جوفه المحترق . . فقد كان الإصرار على البقاء يطغى على كل نداء . ونسى العطش وكأنه استغنى مدى الحياة عن الماء . وأخيراً وصل إلى شجرة مباركة هى تلك البقعة السوداء . . التى عثر عليها فى الصورة التى التقطت للمنطقة من السماء . وألقى بنفسه تحت الشجرة فاقد الوعى كالميت يتمتم بعبارات الشكر لله الذى بعثه من جديد وأنقذه من الموت بين الجبال .

وكل من له دراية بفن الملاحة فى الصحراء ، يعرف أن التائه فيها . . إذا وجد علامة واضحة على خريطة أو فى صورة جوية ، واستطاع أن يصل فى سفره إلى تلك « العلامة الأرضية » يمكنه أن يحدد اتجاهه ويصل إلى غايته بسلام .

* * *

فى وادى العطشان

وقبل شروق الشمس ، كانت السيارة تقف أمام خيمة « الميس » لكى أذهب بها إلى وادى العطشان على أن أعود فى المساء .

اسمه بالكامل . . « وادى الطرفاوى العطشان » . ويوجد تَوْءَمٌ لهذا الوادى يطلقون عليه « وادى الطرفاوى الريان » . وظاهرة الأودية التوائم معروفة فى هذا الجزء من الصحراء الشرقية ، أى أنك تجد للوادى فرعين ، أحدهما يطلق عليه العطشان والآخر الريّان . ويرجع أصل هذين الإسمين إلى أن السيول الناتجة من مياه الأمطار التى تسقط مرة كل بضع سنوات . . تتخذ مجراها فى فرع دون الآخر ، فتزدهر الأعشاب والنباتات الصحراوية فى هذا الفرع . . وتزوره قطعان من الغِزْلان وتتكاثر فيه الأرانب الجبلية والثعالب ، وتحط فيه أسراب الطيور المهاجرة للرّاحة والاستجمام ، ويهاجر إليه عائلات من العبابدة ومعهم أغنامهم وإبلهم لترعى فيه .

وأما الوادى العطشان ، فلا تمشى فيه مياه السيول لارتفاع منسوبه عن شقيقه ، ويظل جافًا قاحلا خالياً من السكان ، ومن الأثر البسيط للحياة الذى يتمتع به الوادى الريّان .

الطريق من وادى عسل إلى وادى العطشان ، طريق مرتجل خطته عجلات سيارات البعثة الجيولوجية لأول مرة ، وعلى الرغم من أنه غير ممهد فإنه أيضاً غير وعر ، تمشى فيه السيارة « اللاندروفر » بسهولة مارة بين تلال منخفضة من الاردواز .

ولا يقطع رتوب لون الاردواز الرمادى إلا تلال برتقالية اللون ذات أصل بركانى تشبه الأقماع . هذه التلال فى حقيقتها براكين صغيرة قديمة متجمدة ، انبثقت خلال عصور جيولوجية لاحقة بين تلال الاردواز .

وتمر بك السيارة فى عدة منعطفات قبل أن تصل إلى المعسكر التابع للبعثة والذى يشتهر بين العاملين . . والرعاة من العبابدة . . باسم « معسكر الريس عبد الشكور » .

* * *

تظهر خيام المعسكر فى فم الوادى من بعيد على هيئة بقع متقاربة بيضاء فى أرضية رمادية ، وتختبئ وراء التلال بعض البيوت الصغيرة . . يعيش فيها عائلات العبابدة من العمال الذين يعملون فى معسكر الريس عبد الشكور ، شيدها أصحابها من كتل من الصخر اقتطعوها من الجبل المتاخم . وتوجد بقعة بيضاء بعيدة عن هذا التجمع السكانى . . هى خيمة الريس عبد الشكور ، فا لرجل على الرغم من أميته يعرف فن القيادة . . وسيكولوجية السيطرة على الرجال ، ووجود خيمته بعيدة عنهم هو اختيار مقصود ، فشئونه الشخصية وأكله وشربه ونومه من الخصوصيات التى لا يجوز أن يطلع عليها رجاله ، ولا يجب أن يظهر عليهم إلا فى هيبة الحزم كل

صباح . . يطلق صفارته وهو منتصب القامة فوق تل صغير ، وكأنها صفارة الإنذار وقت الحروب ، فيهب الرجال جميعاً فى لحظة واحدة ويقفون بين يديه ، فيقودهم بعد تحية مقتضبة إلى الجبل الذى يبعد مسيرة نصف ساعة من مكان الخيام .

يقولون : إنه كان قاطع طريق فى سالف الأيام ، وأعوانه من العمال . . رجالُ الليل السابقون ، يبجلونه ويقبلون يديه ، فهو كبير فى قومه ، عاقل ورصين . كل رجاله من أقاربه . . فهم إما أولاد إخوته أو أخواته ، أو أولاد أحد أبناء عمومته ، أو هم أزواج بناته . أو أزواج بنات إخوته أو أخواته . فهو بالنسبة لهم فى مقام الوالد والزعيم . والريس على كبر سنه متين البنيان ، قوى الشخصية ، هادئ الطبع ، يعرف آداب الكلام والإيجاز فيه . وللريس عبد الشكور دراية كاملة بفن القتال ، وله رشاقة النمر فى لعب العصا وتسلق الجبال .

ولا تقتصر شعبية الريس على رجال معسكره وعائلاتهم فحسب . . بل تمتد إلى الرعاة القريبين من المنطقة ، وإنّ له عليهم أفضالا يذكرونها له . فقد يسمح لهم بأن يبعثوا مع رجاله فى شراء الدقيق والسكر والزيت وربما القماش من القصير ومن قنا . وقد يسمح لواحد منهم أن يسافر بنفسه فى السيارة التى تذهب إلى وادى النيل كل شهر فيبيع جوال الفحم الموجود عنده ليشترى بثمنه هدايا من الريف لأهله وعشيرته . وما رفض طلباً قطّ لراعٍ يمر عليه ومعه نساؤه وأولاده . . سواء أكان هذا الطلب ماءً أو دواءً . وإن لدغ العقرب أو الثعبان أحد الرعاة أو ذويه أمر بتجهيز رجل من رجاله ممن يستطيعون إعطاء الحقنة إن كان المصاب من الرجال ، فإن كان من النساء فعليها أن تبتلع سائل الترياق الموجود فى الحقنة عسى أن يساعد فى تخفيف الداء .

وأما نزهته اليومية فهى قبل صلاة المغرب ، يمشى منفرداً أو يرافقه بعض من

بطانته في وادى « أم جير » أو وادى « أم راجية » القريبين من وادى العطشان ، يمتعون أنفسهم بأول نسيم سارٍ بعد هجير يوم حار ، فإن رأى أحد رجاله يحتطب أو يرعى أغنامه فى وقت الفراغ . . زغده بعصاه المرشقة بالمسامير . . مُداعبةً منه ودليلا على الرضاء . وبعد صلاة المغرب يتناول عشاءه وحيداً ثم يصلى العشاء . وتبدأ سهرته أمام خيمته مفترشاً الأرض ومعه بطانته وبينهم « زردة » الشاى . . يتسامرون .

لا يقترب من هذه البطانة ولا يجرؤ على مجالستها أحد . . اللهم إلا إذا جاء شاكياً أحد زملائه . . أو طالباً إجازة ، أو راغباً فى الذهاب إلى طبيب القصير مريضاً أو متمارضاً ، وقد يحضر أحدهم لمجرد التملّق أو الإعراب عن الاحترام والولاء ، معبراً عن هذا بتعمير الجوزة أو تقديم الشاى .

ولم يكن اختيار أفراد البطانة مصادفة أو بناء على المزاج الشخصى للريس أو حسب مركز كلٍّ منهم الاجتماعى أو الوظيفى فقط ، بل إن هذا الاختيار يعبر عن نظرة سياسية حكيمة يحافظ بها عبد الشكور على « الوحدة الوطنية » للمعسكر ومَن حوله من سكان تابعين ، ويبعد به عن مظهر التحيز أو التعصب ، فالطوائف جميعها سواء ، يمثل كُلاً منها فى البطانة شخصٌ أو اثنان .

ويشترك أفراد البطانة فى صفة واحدة . . وهى أنهم جميعاً من كبار السن باستثناء شاب واحد من مركز « أبو طشت » بالصعيد . . اسمه عبد الشافى ، فهو يمثل رجل الدين فى وادى العطشان . يؤذن للصلاة ويؤم الناس ويخطب الجمعة . وفى شهر رمضان المعظم يصطف الناس خلفه لصلاة التراويح فى مكان فسيح . . بين الخيام ، وينبعث فى المكان أنساً دينيًّا وبهجة روحية ليس لها مثيل . وتجد الشيخ عبد الشافى يردد الأدعية بأنغامها المباركة بعد الصلاة ، ومن ورائه جميع الرجال بلا أى استثناء ومعهم الريس عبد الشكور ورجاله قطاع الطرق السابقون . وترجع

الجبال صدى دعائهم وكأنها تردد خاشعة نفس الدعاء ، بل ربما تردد دعاءها بخشوع أكثر من بنى الإنسان ، فقد أبين أن يحملن الأمانة ، وأشفقن منها وحملها الإنسان ، يوم أن عرضها رب العرش ذو الجلال والإكرام . ويسرى هذا الصوت إلى أبعد من وادى العطشان . . فترجعه الجبال البعيدة أيضاً ، فتسمعه بعد لحظات من الصمت بعيداً . . خافتاً . . وأكثر شمولا ، وكأن الصحراء . . تسلم وجهها إلى الله فى المساء . . تستغفره على جبروتها أثناء النهار .

والشيخ عبد الشافى يعرف القراءة والكتابة ، وهو بالتالى يمثل أيضاً فئة المثقفين فى منطقة وادى العطشان . عنده كتاب كامل قديم ، ورقه أصفر اللون بهيج . . كله أدعية وابتهالات ، وكتاب آخر به حكم وعظات . . وقصص خفيفة مليئة بالعبر والإشادات .. يجتمع الناس حوله بعد الانتهاء من السحور . . فى انتظار صلاة الفجر ، وعلى ضوء الفانوس يلقنهم العلم ويرشدهم سواء السبيل ، ويجيب على أسئلتهم فى الدين والدنيا ، ويضرب لهم الأمثال ويحكى لهم من العبر ما يصبرهم على ما هم فيه من عذاب الحرمان والفراق ، ويبين لهم أن وجودهم فى هذا المكان ، وتحملهم سعير الجبال ، هو من أجل تقدم وطنهم وقوة المسلمين ، وأن الله سيعوض المتقين منهم بأن يدخلهم جنات رطيبة تجرى من تحتها الأنهار . . فيها من الفاكهة ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ، فتطمئن نفوسهم من القلق ومن الاكتئاب الذى يجثم عليهم من طول البقاء فى الصحراء .

والشيخ الطيب يجيد الحساب فيوزع على الناس أنصبتهم من الأكل الأسبوعى ويحسب لكل منهم ما يجب أن يتحمله من ثمن التموين وماله من باق . كذلك يقوم عبد الشافى بذبح الذبيحة وسلخها وتقسيمها بميزان من صنعه ووحدات من الأحجار ، وقد تكون هذه الذبيحة مشتراة من الرعاة ، أو تكون غزالة اصطادها الرجال .

ومن اختصاصات الشيخ أيضاً « الإفتاء » . فهذا الصيد حلال وذاك حرام ، لأن الأول آكل عشب وأما الثانى فهو من الحيوانات آكلة اللحوم ، أو أن الأول مشقوق الظلف والآخر غير مشقوق . وهذا الطائر من الجوارح فهو حرام .

والشيخ مؤمن بالعمل اليدوى ويرى أن المسلم الحق يجب أن يكون له مهارات عملية وإيجابية ، فقد كان نبى الله داود يأكل من عمل يده ، وهو يجيد أعمال البناء وقد أسهم فى تشييد البيوت الصغيرة فى هذا المكان ، ونحت بنفسه كهفاً فى الجبل ليجعله مخزناً للديناميت والكبسول ، وصمم له ترتيبات الأمان والتهوية حتى أصبح مخزناً قانونيًّا للمفرقعات .

* * *

ويمثل « الصعايدة » فى بطانة الريس عبد الشكور . . رجل مسالم هادئ الطبع نحيف الجسم أشيب الشعر . . اسمه « أبو قورة » . .

وقد اختير الرجل لهذا الشرف لسببين : أولها ، أنه ينتسب إلى نجع فى الصعيد اشتهر بالعداء للنجع الذى ينتمى إليه الريس ، وبين النجعين ثأر قديم ، ووجود أبو قورة فى ندوة السهر كل ليلة يزيل عن بلدياته الشعور بالاضطهاد أو الإحساس بأنهم سكان من الدرجة الثانية تأتى فى المرتبة بعد الفئة التى تتشرف بالانتماء إلى نجع الريس . وفى نفس الوقت فإن عبد الشكور يشعر أن وجود مثل هذا الرجل المسالم فى بطانته وكونه يمشى خلفه . . يرمز للسيطرة على أهل النجع المعادى أجمعين .

وأما السبب الثانى فى اختيار الرجل لشرف عضوية البطانة فهو ابنه . . شقى خطير ، قاطع طريق يعملون له ألف حساب فى الصعيد ، تاب عن منهجه والتحق بالبعثة وأصبح من عمالها الرسميين . وقد أنجب أبو قورة ابنه هذا وهو فى الثالثة من عمره ! . . هكذا يقول الطبيب الذى قدر عمر الإثنين على مرتين منفصلتين ولم

يفطن إلى أن هذا ابن ذاك .

وأما ممثل العبابدة فى بطانة الريس عبد الشكور فهو « جاب الله » . تجده صامتاً على الدوام ، فالعبابدة جميعاً كلامهم قليل . ربما علمهم ذلك صمت الصحراء وربما تدربوا على هذه الخصلة كضرورة لعيشهم فى تلك البقاع . . لأن الصمت يقلل من الظمأ فيوفر بعض الماء . تجده جالساً فى الندوة مستمعاً فقط . . يدخن غليونه الذى صنعه بنفسه من مادة « الطلق » التى جبلها من تل قريب . ويضع فيه « دخاناً » من النوع العادى الذى يستعمل فى السجاير اللف بدلا من الدخان المخصص للغليون .

جاب الله لا يعرف سنّه . وهو على كل حال قد جاوز السبعين ، وسوف يظل فى وظيفته بالحكومة حتى التسعين بفضل تقدير الطبيب . . الرجل الطيب الذى لم يشأ أن يقطع عيشه عندما أرسله رئيس البعثة إليه ليقدر عمره . وعلى الرغم من شيخوخته فهو صحيح الجسم . . خفيف الحركة . . ، نحيف مثل كل العبابدة ساقاه كالعصا رُفعاً وجفافاً . صحيح أن جاب الله من العبابدة لكنه آثر العيش فى رفاهية نسبية بعد أن تقدمت به السن ، فبنى لنفسه بيتاً من الحجر فى الصحراء بالقرب من مشارف قنا ، يذهب إليه كلما أخذ إجازة . وقد تزوج عروساً صغيرة فى الخامسة عشر من عمرها حتى تعيد إليه شبابه ! ، ولكى تؤنسه وتخدمه عندما يخرج إلى المعاش لأنه بلا ولد ، وهو سعيد بها كل السعادة ، وهى أيضاً سعيدة به وفخور بمهنته .

ومهنة الرجل فى الحقيقة مهنة بسيطة ولكنها مهمّة . . هو « ولاع ديناميت » واجبه أثناء النهار يأتى بعد أن ينتهى دور الرجال من عمل خروم فى الصخر عميقة الأغوار فى الموضع الذى يوجد فيه خام اليورانيوم ، فيحشوها جاب الله بالديناميت

ويضع الكبسول . . ويصيح بأعلى صوته : « بارووووود » . . حتى يأخذ الحذر كل من كان قريباً من مكان الخندق ، ثم يشعل الفتيل ويولى هارباً ليختبئ من الانفجار فى أول كهف قريب .

* * *

ومن بين أعضاء بطانة الريس عبد الشكور . . ممثلا للبحاروة ، السائق صبحى . . من أبناء دمنهور ، « نصف عاقل أو نصف مجنون » . . يعشق سيارته « اللورى » ويتغزل فيها ويعاملها بحب واحترام كأنها زوجه . لا يقبل أن يركبها سائق آخر عندما يكون فى إجازة فإذا لم يوافق رئيس البعثة على تعطيل السيارة انتظاراً لعودته ، ضحى الرجل بإجازته خشية أن يستعملها أحد فى غيابه . ويعتبر صبحى أن مجرد الإشارة إلى مثل هذا الاقتراح إهانة لشرفه .

وقد تخلقت شخصيته من كثرة عيشه فى الصحراء بنوع من الحرية لا يوجد فى مفهوم الحكومة تصل فى بعض الأحيان إلى درجة التمرد والفوضى ، فهو يستيقظ متى شاء وينام متى شاء ، ويسافر إلى قنا متى شاء ليجلب الطعام والماء لرجال المعسكر . هذه مسئوليته لا يجب أن يشاركه فيها أحد . بل إنه يستطيع بسيارته أن يعزّ منهم من يشاء بأن يأخذه لزيارة أهله فى الصعيد ، وأن يذل منهم من يشاء بأن يتركه هكذا بين الجبال حتى لوْحان ميعاد إجازته .

يهاب الريس عبد الشكور لسطوته ورجاله . . ولكنه يؤكد دائماً للناس أن صداقته مع الريس هى سر قبوله لأوامره ، لأنه حرٌّ فى سيارته ، وهو يطيع رئيس البعثة نفسه لا لشىء سوى أنه رجل طيب ، ولولا هذا لما نفذ له أى أمر . والريس عبد الشكور يعرف غيرته على سيارته ، فهو لا يرهقه بالأوامر والطلبات بل يحافظ على مشاعره تماماً فيما يختص بسيرتها ، ويكلمه عنها بتحفظ وكأنها حرمه ، لأن شخصية عبد الشكور هى شخصية الدكتاتور الداهية ، الذى يسوس الأمور

بهدوء وحكمة ، وهو من الكياسة بأن يظل مرهوب الجانب لا يعصى أحد له أمراً . فإن توقع أن أحد مراكز القوى مثل السائق صبحى سيرفض ركوب أحد الرجال معه ، لرفضه هو قبل أن يرفضه صبحى ، لأن صبحى لو عصى أمره بطريقة واضحة فإنه من المستحيل أن يتركه فى المعسكر ولو أدى ذلك إلى أوخم العواقب .والريس يعرف أنه على الرغم من أن صبحى على بينة بقدرته على البطش به فإنه لا يستبعد أن يعصيه فى لحظة جنون ، لو ظن أنّ أحداً تدخل فى الشئون الشخصية لسيارته . . وأهان شرفه ، وقد استبد به الجنون ذات يوم وعصى أمر رئيس البعثة ذاته ، وهدد بأن كل من يقترب من سيارته المحبوبة سوف يهشمه بها . وقد دفع الثمن بعد ذلك غالياً ، بأن نفى إلى وادى أبو جرادى شبه وحيد لمدة عام ، وفرقوا بينه وبين سيارته ، بل أمروا سائقاً غيره أن يركبها أمام بصره إمعاناً منهم فى امتهان كرامته .

وإن أراد أحد أن يتملق (صبحى) ، فعليه أن يداعب القط « مشمش » فإن كانت السيارة بديلا لزوجه فالقط يعوضه عن ابنه ، يحضر له الهدايا من قنا كل شهر ويسلق له البيض فى الفطور ، ويطبخ له اللحوم ، فى الغداء والعشاء . وعندما يأتى أحد الجيولوجيين لزيارة وادى العطشان فلا بد أن يَسْتَحِمَّ القطُّ ، ويمشط له شعره ويعمل له الفرق ويذهب به ليقابل الجيولوجى الضيف أو رئيس البعثة نفسه . وقد يُصادفُ أن يكون مزاج رئيس البعثة معتدلا فيداعب القطَّ ، فتكون سعادة صبحى لا نهاية لها ، فهى علامة على رضا الرئيس عن صبحى وعن القط ، ويقابل هذا بدعاء من الأعماق لرئيس البعثة الرجل الطيب ، وأن يبقى الله له أولاده .

* * *

مجتمع العبابدة

على الرغم من قلة عدد العبابدة فإنهم منتشرون أساساً فيما يعرف « بالصحراء الشرقية الوسطى » وهي تلك المساحة من الصحراء المصرية المحصورة بين خطى العرض ٢٤ْ ، ٢٧ْ شمالاً ، والواقعة بين وادى النيل غرباً والبحر الأحمر شرقاً .

والعبابدة يعيشون أساساً على الرعى ، يجوبون أودية تلك المنطقة بحثاً عن العشب الناتج من مياه الأمطار النادرة . ولهم مورد آخر للماء عبارة عن آبار ارتوازية قليلة مثل بئر العطشان وبئر الحربية وبئر الحمامات ، وبين كل منها والأخرى مسافة طويلة .

ويتميز جسم الرجل العبادى والمرأة العبادية بالنحافة . ويرجع هذا إلى سببين : أولهما ، أن بيئتهم تفرض عليهم نشاطاً جسمانيًّا طول اليوم للرعى والبحث عن الجمال الضالة والأغنام الشاردة والاحتطاب . وأما السبب الثانى ، فهو ندرة شرب الماء ،



وعائلات العبابدة . . على الرغم من قسوة الطبيعة عليهم . .
سعداء بالحرية والانطلاق

وقلة الطعام . . فهم يعرفون أن الزائد منه يؤدى إلى احتياج أكثر للماء .

وقد لاحظت أن نسبة المعمرين منهم كبيرة ، وأن تعاقب السنوات لا تظهر بصماته بسهولة على ملامحهم ، فهم دائماً فى شباب وحيوية ، حتى من جاوز منهم مائة سنة . . عنده سرعة فائقة فى المشى ، وخفة يحسده عليها الظبى فى تسلق الجبال . وكثيراً ما كنت ألاحظ أيام معيشتى فى تلك البقاع حِدَّةَ نظرِ العبادى حينما يمشى معى فى الصحراء ، فقد يحدث أن يرى غزالة جالسة تحت شجرة بعيدة لا يستطيع تمييزها أى واحد منا نحن سكان المدن أو سكان الريف . . لا الغزالة ولا الشجرة نفسها ، وبمنظار الحقل المعظم كنت أتحقق من صدق رؤيته ، بل يظل يشرح تفاصيل حركتها وكأنه هو الذى ينظر خلال المنظار . وقد يكون للصحراء نفسها فضل كبير فى حدَّةِ النظر التى يتمتع بها العبابدة لأنه لا يوجد ما يعوق العين عن امتداد الرؤية .

والبريد فى بلاد العبابدة وسيلته الرعاة ، فكل راع مسئول عن توصيل الرسائل من أسرة إلى أسرة . وهذا واحد منهم يمر ببعيره على خباء . . يعرف سلفاً أن به عيال فلان ، فهم يسكنون بجوار هذه البئر فى تلك الأيام . والعيال هنا عبارة عن الزوجة منفردة أو الزوجات . . أو الزوجات والأولاد ، فيحط بجوار الخباء . وتستقبله النسوة مرحبات ، لا يمهلنه حتى يرتاح أو ينيخ الجمل . . أو يزيح عن ظهره « السراقين » أو يقدم له الماء ، فهن على أخبار الحبيب الغائب متلهفّات ، يسألنه عن مكانه وعن ميعاد عودته ، فيطمئنهن أنه بخير ، فقد قابل فلاناً فأخبره أنه التقى بفلان الذى عرف منه أنه قابل رب الأسرة وأنه سيعود إلى بيته هنا بعد سبع ليال ، وأنه يبعث إليهن بالسلام . وبعد الراحة وتناول العشاء . . يجلسن حوله فى نور القمر أو النجوم وبينهم « راكية » الشاى . . يحكى لهن الطرائف وأخبار العبابدة فى كل مكان .

فهذه فلانه بنت فلان قد جاوزت الاثنى عشر عاما ، لذلك فقد خطبت إلى ابن خالها ، أمهرها بعيراً . . حمله بالدقيق والقماش والسكر والشاى ، وكذلك ثلاث نعاج ، وسوف يتم الزفاف فى وادى « أراك » بعد ثلاثة أشهر ، وأن زوجكن الغائب سيسافر فى الميعاد لحضور الاحتفال الذى سيستمر بضع ليال ، وسترافقه من بينكن زوجتان ، وأما الباقيتان فسوف تمكثان هنا لرعاية شئون الأطفال وشئون الأغنام ، وكتعويض لهما فإنه سيأخذهما معه فى الموسم . . لزيارة ضريح سيدى أبى الحسن الشاذلى . . إذ إنه يعتزم الذهاب إلى هناك هذا العام . . لتبادل الفحم بالأغنام .

وأخذت النسوة يمزحن مع بعضهن ، وكل واحدة تؤكد أنها سيقع عليها الاختيار لحضور الزفاف فى وادى أراك .

وقالت إحداهن

– والله يا عمى الشيخ إذا وقع اختياره على . . لأحضرن لك معى هدية من هناك .

– وماذا يوجد يابنيّى فى وادى أراك . . . سوى أعواد الأراك ؟ (السواك) . لعلك تحضرين لى معك كمية منه . . فأدعو لك بالخير .

ويقول لهن :

– ألم تعرفن بالخبر السعيد ؟ لقد رزقت حفيدتى بمولودة ، أطلقنا عليها اسم « فاطمة » . . لتحل البركة للعائلة كلها . . حينما يكون فيها سمية بنت رسول الله .

ثم يلبى طلبهن بأن يتذكر ما عنده أيضاً من أخبار فيقول :

– هل تتذكرن جَمل فلان الذى ضلَّ طريقه منذ عام ، ودخل الجبال الصخرية التى يتعذر فيها تعقب الآثار ؟ . لقد عثر عليه فلان فى خور ضيق عند مدخل وادى « أم جروف » . . هيكلا عظميًّا . . تبقى من الثعالب والحشرات . .



والرجل العبادى يشارك نساءه أعمالهن . . فهو يحسن تشييد موقد يشبه «الكانون» ، وخبز الرقاق ، وطهى اللحوم . . إن حل ضيف أو مرضت عنز أو أصيبت نعجة

والطيور الجوارح .

وأما عن أخبار الوفيات . . فقد توفى الشيخ فلان رحمه الله ، ووهبنا مثل عمره . . آمين ، فقد عاصر فى طفولته غزوات قبائل المعازة . . وعمل فى مناجم الذهب فى الفواخير التى كان يديرها الخواجات ؛ وله من الحَفَدةِ ما عمر به الاودية من « مقتل محمد » شرقاً إلى ما يقرب أرض الريف الخضراء من جهة الغرب .

وتترحم عليه النسوة ، وبعد البكاء تسأله إحداهن :

– ترى فى أى مكان وافته المنيّة ؟

– فيقول الرجل :

– سبحان من له الدوام . . لا تدرى نفس بأى أرض تموت . . لقد جعلوا قبره عند جبل « أم صافى » تحت الشجرة البحرية حيث أقام فى آخر أيام حياته ، وأن القبر وضعوا عليه رايات زاهية اللون من قماش عثروا عليه بين أشياء المرحوم . فقد اشتراها لنفسه مع الكفن حينما كان فى مدينة « الأقصر » منذ عامين واستبقاها معه إلى أن حان أجله .

وتسأله النسوة :

– ترى من قام بدفنه ؟ ويقول الرجل :

– مرَّ به عبد الرحمن بن جبريل فوجده فى النزع الأخير ، فلم يشأ أن يستمر فى سفره والشيخ على تلك الحال ؛ فبقى بجواره يخدمه لمدة ثلاث ليال . . ينتظر خروج السر الإلهى ليصلى عليه ويدفنه بنفسه ويدعو له بالرحمة ويبلغ الأقربين بمكان قبره . . ويبلغ العبابدة كلهم متى سمحت بهذا ظروف الرحلات .

* * *

وعائلات العبابدة – على الرغم من قسوة الطبيعة عليهم – سعداء بالحرية

والانطلاق والسفر بين الأودية بحثاً عن العشب والرزق والماء ، بل إنهم يشفقون علينا من صعوبة معيشتنا فى المدن حينما يسمعون عن وجود مساكننا بعضها فوق بعضٍ بالعشرات ، وأكثر ما يستعصى على خيالهم تصوره هو كيفية توزيع الماء على كل هذه الحشود الهائلة من البشر فى المدينة .

ويحمدون ربهم على أن بلادهم واسعة فيها متسع لكل ساكن وأنه سبحانه وهب لكل زوجين منهم بيتاً مستقلاً يستطيع أن ينقله فوق بعيره حيثما شاء .

والرجل العبادى يشارك نساءه أعمالهن فهو يحسن مثلهن تشييد موقد يشبه « الكانون » وخبز الرقاق ، وطهى اللحوم إن حل ضيف أو مرضت عنز أو أصيبت نعجة . وهى أيضاً تحل محله إن كان مسافراً . . ترعى الإبل والأغنام ، وتجيد الاحتطاب متسلقة الأشجار برشاقة لاعبات الباليه ، وتعرف أسماء الأودية والجبال ، وتهتدى فى طريقها بالجبال الشامخة وبمواقع النجوم ، وتصنع الثياب لزوجها وتغزل صوف النعاج والجمال . . وتحلى ملابسها بجلد الثعلب أو الأرنب أو الغزال ، وترتق القديم من الملابس أو « تقيفها » ملابس للأولاد .

وهى مخلصة لزوجها . . تتزوج عادة وهى فى الثانية عشرة من عمرها ، وقد يكون زوجها صبيًّا فى مثل سنها ، أو شيخاً فى عمر أجدادها ، وفى الحالين تجد ولاءها له وإعجابها به يفوق الخيال . وهو إن مات لا تفكر فى الزواج من غيره قبل مرور أعوام طويلة . . وباضطرار تفرضه عليها البيئة الصحراوية وضغط اجتماعى شديد وتظل حافظة لعهده وذكراه مع الزوج الجديد . . الذى يشجعها على هذا ويشاركها احترام الراحل الكريم ، ويذهب بها لزيارة قبره فى الوادى الذى وافته المنية فيه مهما طال السفر .

ومعيشة الزوجات واحدة . . يتعاونَّ فى الشئون اليومية وينتقلن فى جماعة واحدة . وعندما يعود ربّ الأسرة من سفره يحل العيد بينهن . . فتلبس كلٌ منهن

أحسن ما عندها من ثياب ، وتتحلى بما قد يكون لديها من أقراط أو خواتم أو أساور من ذهب أو من الأحجار الكريمة كالفيروز والياقوت والزمرد . . التى جلبها الزوج من وادى الجمال وغيره . . وشكلها بنفسه لتصبح زينة للنساء .

وهى شديدة التحفظ . . ليس فى الجوهر فقط وإنما أيضاً فى المظهر . . الذى تعتبره لا يتجزأ أبداً عن الجوهر ، فإن مرَّ بها أحد الغرباء أو سمعت صوت سيارة أدارت ظهرها وجلست القرفصاء ووضعت رأسها بين ساقيها ورمت غطاءً على جسمها كله فظهرت وكأنها كومة صغيرة سوداء . ولا تظن أن نساء العبابدة لهذا متزمتات أو رجعيات . . هذا فقط مع الغرباء ، فحياة العبابدة الاجتماعية لا تقل فى تحررها عن أكثر المجتمعات حضارة ، فكما قلنا . . هى تقابل الرجال من العبابدة وتناقشهم فى كل شأن من شئون الحياة . وتلتقى الفتاة أو المرأة المخطوبة بخطيبها أمام الأهل أو على انفراد ، لا يوجد أى قيد عليهما . . يرعيان الغنم معاً طول النهار ، ويجريان ويلعبان ويتسامران . . فى أى فج أو مسلك من مسالك الصحراء ، وقد يسافران معاً من بئر إلى أخرى .

والثقة بين العبابدة كبيرة . لا يوجد عندهم شىء اسمه الخيانة إلا فى النادر من الأجيال ، ويستبعد الخائن من مجتمع العبابدة ، لأن طبيعة البيئة تحتم عليهم التعامل بثقة كاملة ، فكل أسرة كما بينا تعيش فى عزلة ، وغياب رب الدار معتاد ، وبقاء النساء وحدهم فى منطقة شاسعة جبلية وحاجتهن إلى سؤال الرعاة فى أثناء غياب الزوج أو الأب يحتم التعامل بينهم بالأمانة والشرف ، فمن يخرج على هذه الأخلاق ينبذه المجتمع العبادى ، ويمسى شريداً حتى يموت وحيداً تحت سفح أى جبل من الجبال .

* * *

وللعبابدة نوادرهم التى تحكى فى مجالس السمر الخاصة بهم ، وتعبر عن البيئة

المحيطة . وعن اختلاط بعضهم بالغرباء الذين يجيئون إلى بلادهم للبحث والتنقيب ، فتجد الظرفاء منهم يقلدون كلام القاهريين ولهجة أهل الصعيد ، ويتندرون على بعض تعبيراتهم وكلماتهم ، ويسخرون من تسميتهم بعض الألوان بغير مسمياتها ، فاللون الذى يسميه العبابدة لبنى . . يقول عنه القاهريون أزرق ! فأما اللون الأزرق يقولون عنه أسود !

ويقصون على النساء حكايات عن طمع بعض الغرباء ، فهذا رجل منهم جاء إلى حمدان العبادى وأخذ يشكو له قلة المال وكثرة العيال ، ويرجو حمدان أن يعينه على هذا البلاء ، فيتعجب حمدان كيف يتسنى له ذلك وهو رجل فقير؟ ويتضح أن أحد أشقياء العبابدة أوهم الرجل الغريب أن حمدان يعرف أماكن الذهب فى الجبال التى تخلفت فى الموقع الذى كان يستغله الخواجات منذ زمن بعيد ، وأنه لا يرضى أن يأخذه لنفسه أو يبوح بسره لأحد .

ويتندرون على تلك المرأة التى عاد زوجها من سفر طويل ذهب فيه إلى الصعيد ، ودخلت خباءه فوجدت على الأرض ما يشبه الرأس المشقوق المخضّب بالدماء . . فصرخت وفزع إليها الزوج ، وضحك من جهلها وأفهمها أنها « بطيخة » تؤكل فتروى الظمأ ولها طعم لذيذ .

وهذا الشخص الذى عين كدليل فى إحدى البعثات التى تأتى إلى بلادهم وبها غرباء ، وعاد يحكى للأهل والأصدقاء كيف أنه وجد عندهم صندوقاً يتكلم أحياناً بصوت الرجال وأحياناً يغنى كالنساء ! .

وقصة هؤلاء الرجال الذين ولدوا فى الجبال ، وعاشوا فيها حتى بلغوا سن الشباب ، ولم يتصلوا بأهل الريف قط ، فهم لا يفقهون أى شىء خارج المجتمع الصحراوى العبادى ، صدر أمر من شيخ العبابدة بأن يمثلوا بين يديه فى القصير

ليقدمهم إلى الحكومة فهم خارجون على القانون ، لأنهم لم يؤدوا الخدمة العسكرية . فقبضت عليهم الشرطة وقدموا إلى محكمة الغردقة ، ووجه إليهم القاضي سؤاله :

– ألا تعرفون أيها الناس أننا فى حالة حرب مع إسرائيل ؟

فلم يفقهوا مقصده . . واكتشف أنهم لم يسمعوا قطّ عن إسرائيل هذه .

فسألهم القاضى : فى أى مكانٍ نحن الآن ؟

قالوا : فى بيت القاضى .

فتعجب القاضى وأشار إلى صورة الرئيس جمال عبد الناصر المعلقة خلفه قائلا :

– ومن هذا ؟

فارتبكوا ثم أجابوه :

– أليس هذا هو والد القاضى ؟

واستطاع المحامى الأريب أن يكسب عطف المحكمة عليهم حينما قال :

– ليس هذا مجرد مثال يا حضرة القاضى للجهل بالقانون ، ولكنه دليل على أن الدولة قد جنت على هؤلاء المواطنين ، فهى لم تقدم لهم أى نوع من الرعاية الاجتماعية ولم تتذكرهم يوماً واحداً طول حياتهم . .

والمحامى على حق ، فهؤلاء الناس مواطنون مصريون من الناحية النظرية فقط ، والشيء الوحيد الذى يربطهم بمصر هو أنهم يعيشون ضمن حدودها السياسية .

وقد نشر « الأهرام » فى ذلك الوقت كلمة لى . . كتبتها لتعبر عن حاجة هؤلاء المواطنين المجهولين . . للرعاية الاجتماعية هم وأمثالهم ممن يعيشون فى صحارى مصر . . ولاندرى عنهم شيئاً .

تقول الكلمة :

المسح الاجتماعى للمناطق النائية

«كانت حدود بلادنا من قبل حدوداً سياسية فقط . لأن العزلة التى عاش فيها سكان المناطق النائية قد فصلتهم تماماً عن سكان المدن الكبرى والريف . وسكان الصحارى ما زالت لهم تقاليد قديمة لا يستطيعون بسببها أن يصلوا إلى المستوى الذى وصل إليه إخوانهم فى المدينة والقرية . ومن واجب معاهد البحث الاجتماعى أن تبسط اهتمامها على الصحارى المصرية فتدرس تقاليد هؤلاء المواطنين ، وتعلمهم وتأخذ بيدهم نحو تطور ورقى سريع . ومن واجب الباحثين الاجتماعيين بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية ومعهد الخدمة الاجتماعية والجامعات أن ينتشروا بين البدو فى الصحراء الغربية ، وبين العبابدة وسط الصحراء الشرقية وقبائل « البشاريين » جنوبها ، وألا يجعلوا كل مجهودهم للمدينة والريف .

وقد يسأل سائل : وما هى الطريقة التى ينتقل بها الباحث الاجتماعى عبر جبال الصحراء الشرقية بضع مئات من الأميال ؟ ! وكيف يعبر بحر الرمال الأعظم بالصحراء الغربية للوصول إلى هدفه ؟

وأين الإمكانات التى تكفل له السلامة ؟ !

وأجيب بأن البعثات الجيولوجية تغطى الصحارى المصرية كلها . وهى قادرة على استضافة الباحثين الاجتماعيين ومعاونتهم فى أداء واجبهم الإنسانى نحو بنى وطنهم الذين حرمتهم الظروف الجغرافية من التمتع بحقهم فى الحياة قروناً طويلة ».

* * *

وبسبب قسوة البيئة الصحراوية . نجد أن بعض الأسر العبادية نزحت إلى قرى

الصعيد غرباً أو إلى مدن البحر الأحمر المتاخمة شرقاً مثل سفاجة والقصير أو إلى بلاد صغيرة نشأت على أكتاف الاكتشافات والمناجم ، مثل « حماضات » « والحمراوين » ، وهى قرى صغيرة ظهرت فى الصحراء الشرقية قريبة من مناجم الفوسفات ، بدأت بمساكن للجيولوجيين والمهندسين والعمال الذين جاءوا لإدارتها وعائلاتهم ، ثم ازدادت مقوماتها بأن فتح أحدهم فيها دكاناً غير مرخص ، واستقر غيره فى الجامع كواعظ وإمام ، ثم ظهر فيها ما يشبه المدرسة والوحدة العلاجية وهكذا يستمر نمو المرافق حتى تصبح القرية كاملة أو على وشك الاكتمال .

ويشجع العبادى على النزوح ومعه عائلته إلى تلك القرى المنجسية أو البلاد الواقعة على ساحل البحر الأحمر أو مشارف الصعيد . . اكتسابه مهارة تعينه على المعيشة فى البيئة الجديدة ، إذا تعلم مهنة عصرية فى أثناء عمله فى إحدى البعثات الجيولوجية أو المناجم ، مثل مهنة مساعد ميكانيكى أو مساعد سائق أو ولاّع ديناميت أو « عطشجى » لأحد قطارات المناجم . وتجد هؤلاء العبابدة النازحين يكونون لهم تجمعات صغيرة على مشارف تلك البلاد ، فالقصير يوجد عند حدها الجنوبى تجمع للعبابدة وكأنه حى خاص بهم أو ضاحية صغيرة ، وكذلك قنا . . وحماضات بلد الفوسفات التى لم تزل فى دور التكوين .

وينظر سكان الجبال من العبابدة الرحل . . إلى هؤلاء الذين استقروا بالقرب من مشارف البلاد على أنهم مرفهين وتأنف الفتاة العبادية التى تعيش الحياة الصحراوية بقسوتها الكاملة أن تقترن بشاب من بين أولئك المترفين .

* * *

صالون فى الصحراء

لا أظن أن هناك ندوة تجمع بين أفرادها من أنواع التناقض مثل ندوة الصحراء . تلك الندوة التى تعقد كل مساء بدون ترتيب سابق فى إحدى الخيام شتاء ، وأما فى الصيف فإنها تعقد على الأرض . . فى الهواء الطلق بأى جزء من أجزاء المعسكر يكون ملتقى لتيارات لطيفة من الهواء .

ويرجع اهتمامى بما يدور من حديث فى هذا الصالون – إن جازت التسمية – إلى أن الموجودين فيه يمثلون عينات عشوائية من مجتمعات شتى ، ويرسم حديثهم صورة فريدة لالتقاء هذه المجتمعات . . لقاء لا يمكن حدوثه إلا فى تلك المنطقة من الصحراء . فنى الندوة تلتقى تقاليد أهل الوجه البحرى بأهل الصعيد . . لتتفاعل مع عادات أهل تلك البلاد . . بلاد العبابدة . وتختلف درجات العلم والثقافة عند الموجودين ، فمنهم من لا يعرف القراءة ، ومنهم من يعرف القراءة دون الكتابة ،

ومنهم من حصل على الماجستير أو الدكتوراه فى العلوم الذرية . وقد يدور حوار شائق بين رجل لم يبرح بلاد العبابدة قط ، ورجل جاب قارات العالم وقضى معظم حياته فى أكبر عواصمه .

وتجد سيرة المرأة تشغل الجانب الأكبر فى حديث الصالون .

ومعظم ما يقال عنها . . يحكى من الأساطير كنماذج مجردة لغدر النساء . . ونماذج مقابلة لإخلاصهن . وتضرب الأمثال على الخبث الذى يتسم به بعضهن . . والالتواء والمكر فى تصرفاتهن مع الرجال . وأن من تخون زوجها وهو غائب يبحث عن رزقه . . يعذبها الله عذاباً شديداً حتى ولو كانت الخيانة عبارة عن كلمة أو إشارة أو نظرة أو ابتسامة أو فى الخيال . . أو حتى فى المنام .

ويقول أحدهم :

– إن الإخلاص يا رجال . . موجود أيضاً بين النساء . .

ويبرهن على ذلك بأمثلة حقيقية عن امرأة كان يعرفها ، أحبت زوجها الذى مات فى شبابه فظلت حافظة لعهده . . وفية له فى مماته كما كانت فى حياته . . وحرمت نفسها نعيم الدنيا . . وزهدت الحياة نفسها فزهدتها الحياة . . ولحقت به راضية .

ويؤيد أحد المثقفين هذا الاتجاه فى الكلام ، فيطمئن الموجودين على أن الدنيا بخير ، وأنه يعتقد فى وجود بنت الأصول ، وأن على الرجل أن يبحث عنها إلى أن يجدها ، ويروى فى بساطة قصة « أوديس » الذى تاه فى عرض البحر ، وانتظرته زوجه « بينيلوب » . ورفضت الزواج من غيره ، واستطاعت وهى الفتاه الصغيرة أن تقاوم إمكانات دولة بأكملها ارادت أن تجبرها على الزواج من غيره ، إلى أن عاد بعد عشرين عاماً ليجدها مازالت فى انتظاره . . صامدة بقوة الحب ضد مؤامرات رجال الدولة وضغوطهم . واعتبرها الأقدمون نموذجاً للإخلاص فأطلق الانجليز

اسمها على كل امرأة مخلصة وأصبحت كلمة Penelope فى الإنجليزية تعنى المرأة الطاهرة .

ويعرج الحديث على المرأة فى القاهرة . .

ويتعجب البعض مما يسمعونه عن الحرية الموجودة لديها . وأنها تشغل مناصب فى الحكومة ، ولها مرءوسين من الرجال ! ، توجه أعمالهم وتعاقبهم حينما يخطئون ، لذلك فلا سلطان لزوجها عليها إلا فى حدود . وقد يصل تعليم الفتاة هناك إلى أعلى الدرجات ، ومنهن من فاقت رتبتها فى الحكومة رتبة زوجها ، ومنهن من لها فى الدولة كلمة مثل كلمة رئيس البعثة ذاته . ويصفون الأزياء الحريمى الجريئة التى تلبسها النساء فى القاهرة ومنها « المينى جيب » ويضرب الرجال كفًّا بكف متعجبين. ويقول رجل منهم عاد منذ يوم واحد من مأمورية له بالإسكندرية :

– وماذا يكون قولكم لو رأيتم النساء على ساحل البحر المالح ؟ إنهن عاريات تماماًإلا من لباس يقال عنه المايوه ، يجلسن هكذا بجوار رجال عراة مثلهن يتسامرون . . لا يشعر أحد منهم بالخجل . ولقد رأيت بنفسى رجلا وامرأة يسبحان مع بعضهما ، وقد أمسك الرجل بيدها وغطسا معاً ، ثم وقفت المرأة بعد هذا على كتفه وقفزت بدماغها إلى الماء وهى تضحك ضحكة تفتت من سحرها هذه الصخور .

ويستنكر البعض أن يقبل رجل ظهور امرأته عارية أمام الناس . .

ويقسم آخر أنه رأى بنفسه امرأة . . عارية إلا من هذا المايوه . . خرجت من الماء كعروس البحر وفتحت سيارة ملاكى زرقاء ودخل زوجها إلى جوارها ، وأظنكم لن تصدقوا من كان يقود السيارة ، إنها المرأة والله العظيم . ويستغفر الناس ربهم قائلين إن هذا من علامات الساعة . . فقد وصلنا إلى الزمن الذى تنقلب فيه القيم وتقود المرأة زوجها . إن الرجل أيها الناس لابد أن يكون هو القائد ، سواء فى

دروب الحياة أم فى شوارع المدينة .

* * *

وبذكر « علامات الساعة » يتحول الحديث إلى الدين . وحتى فى هذا الحديث يواصلون كلامهم عن المرأة من خلال الدين . فالآيات التى تعالج الشئون الشخصية للنساء . . تشغل جزءاً كبيراً من كلامهم ، كذلك الآيات التى تنظم العلاقات معهن مثل أحكام الزواج والطلاق . وسورة النور يحفظها الكثيرون فهى تعالج مشكلة الزانية والزانى ، وتجدهم يتركون التعليق على خطيئة الزانى ، ويناقشون عقاب الزانية . وإذا زنت امرأة متزوجة وجب إقامة الحد عليها . . « حد الرّجم » ، وإن الآية التى نصت على ذلك قد نُسخت قراءةً فقط ، لحكمة يعلمها الله ورسوله والراسخون فى العلم .

وكلما ذكرت خطيئة المرأة تجد السخط والتوتر يخيمان على الحديث بشكل ملحوظ ، وربما يصل التأثر ببعضهم إلى درجة يتهدج فيها صوته من أثر الانفعال ، وكأن الحوار يدور حول امرأة بذاتها . ولو وجدوا حين ذاك أشدّ من الرجم عقاباً لأنزلوه بها . ويطلقون لخيالهم العنان . . ويحكون أنواعاً غريبة من العذاب سوف تلحق بها حتماً فى الدنيا والآخرة وإن الله لو غفر للناس ذنوبهم وخطاياهم ما غفر لامرأةٍ تخطئ . . وزوجها غائب يبحث عن رزقه ، ويتعذب فى سعير الجبال .

وينتهى الحديث الدينى بهم إلى قصص مختلفة من القرآن الكريم ، ومن القصص التى تمثل الصدارة فى تلك الندوة قصة موسى والخضر عليهما السلام . ويجتهدون فى استنباط الحكمة والموعظة وعبر الحياة . وأولها أن الإنسان لا يعرف من أمر نفسه شيئاً ، فربما نجلس هكذا آمنين . . وتأتى سيارة من العمران تحمل إلى أى رجل منا برقية تنبئه بموت أقرب الأقربين . وكلٌ له برقية آتية فى يوم لا ريب فيه .

* * *

ويتطرق الحديث إلى الهوايات . .

وأكبر هواية عندهم . . « الغيبة والنميمة » . .

تجدهم يغوصون فى الشئون الشخصية لزملائهم من الذين لم يحضروا الندوة بدرجة معيبة .

وقد لاحظ بعض الأدباء والمفكرين هذه الخصلة فى المجتمعات الصغيرة المنعزلة ، ومن بينهم . . الأديب الإنجليزى « سومرست موم » ، ووصفها فى كثير من أعماله .

وتفسيرى لهذا أن أخبار المجتمع الصغير الذى يعيشون فيه . . تحل محل أخبار المجتمع الكبير الذى يعيش فيه الشخص العادى ، وبمعنى آخر فإن أخبار الزملاء تعوض عن أخبار السياسة وأخبار الفن والأدب فى المجتمع الكبير. فالزملاء القليلون يشكون « عمليًّا المجتمع الذى يعيشون فيه بأكمله .

والواقع أن عادة الكلام عن « الغير » . . موجودة فى أخلاق الإنسان ، سواء الطيب أو اللئيم ، لكنها مسألة نسبية . أليس بعض الكلام عن أخبار نجوم المجتمع الكبير . . غيبة ونميمة ولكنها توصف عادة بأنها ثقافة . . ومعرفة ببواطن الأمور ؟ ! . لماذا نظلم إذن هؤلاء المنتدين فى صالون الصحراء ؟ . إنّ هذا الصالون يمثل ندوة فى مجتمع صغير ، وأخبار أفراده ثقافة ومعرفة بالنسبة لمجتمعهم المحدود والدليل على هذا أنهم حينما تصلهم الصحف بعد طول انقطاع ، تجدهم ينصرفون عن الكلام فى شئون زملائهم . . إلى الحديث عن شئون المجتمع الكبير وسيرة نجومه البارزين .

وهم إذا تكلموا عن نجوم المجتمع الكبير تجدهم متطرفين فى أحكامهم إما متحيزين لأحد منهم بالشكر وإما مهاجمين له بقسوة . وعادة ما يكون وراء حكمهم المتطرف شعور بأن هذا المسئول يقدر كفاح العاملين فى المناطق النائية أو أنه

يجهل أحوالهم .

وصاحب « نحو النور » له منزله كبيرة فى نفوس سكان تلك المنطقة من الصحراء المصرية ، فقد وصفهم ذات يوم بأنهم « القلب النابض للوطن » . .

حدث هذا حينما طالب المسئولين فى عموده اليومى الأغر بتقوية محطات الإرسال التليفزيونى فى محافظات الوجه القبلى وقال : إن سكان الصعيد فى حاجة أكثر من غيرهم إلى برامج التليفزيون . فكتبت إليه خطاباً شرحت له فيه أن محافظة البحر الأحمر – تلك المحافظة الفتية التى تمثل كفاح بلدنا الصامت – فى حاجة إلى الإرسال التليفزيونى أكثر من سكان الوجهين القبلى والبحرى معاً ، لأن المغتربين فى صحرائها – سواء كانوا من العاملين فى المناجم أو البعثات الجيولوجية – فى حاجة ماسة إلى الترفيه ، وأما العبابدة سكان هذه المنطقة الأصلية فإنهم لم يروا التليفزيون قطّ ، وربما لم يسمعوا به حتى الآن ، ويعيشون فى عزلة تامة عن المجتمع المصرى . ونشر كلمتى كاملة وعلق عليها تعليقاً يحفظونه له حتى الآن .

وبالفعل تساءل الكثير منهم يوم أن نشرت هذه الكلمة . . وما هو التليفزيون ؟ ولما عرفوا ماهيته . . أكدوا أنها، القيامة آتية لا ريب فيها .

ويلى تلك الهواية ، هوايات الصيد والتحنيط وتربية القطط والكلاب . . وقد يكون الغرض من الصيد هو الأكل ، أو يكون وسيلة إلى هواية أخرى هى التحنيط .

والصيد نوعان : صيد البر ، وصيد البحر .

وفى المعسكر تجد أمام كل خيمة قفصاً به فتات من الخبز . . وعلى القفص غطاء مرفوع مثبت بحبل يمسك به الصياد ويجلس بعيداً فى ظلال الخيمة . . إلى أن يدخلها حمام « القطا » وهو جيد اللحم كغذاء فيشد الحبل ليغلق القفص ويحبس القطا .

كما يوجد « فخ » خلف الخيمة لصيد الأرانب الجبلية . وربما يصبح النهار على ثعلب نحيف فى الفخ بدلا من الأرنب . فالثعالب فى تلك المنطقة مهما كبرت لا يزيد حجمها كثيراً على حجم الآرانب ربما بسبب قلة الماء والغذاء .

وأما صيد الغزال فلا يكون بالبندقية ، فهم جميعاً ليس لديهم سلاح . وما فائدة السلاح فى هذه الصحراء ؟ . لا يوجد هناك لصوص . . ويندر وجود الوحوش ، لعدم توفر الماء . ووسيلة صيد الغزال هى السيارة ، يجرى وراءها السائق إلى أن يدركها النصب فتقف مستسلمة ، فيمسك بها من قرونها ، ويدير رقبتها لزميله ليذبحها . ومنها ما يكتب لها الإفلات فتدخل فى أى خور فيتعذر عليه مطاردتها . وقد تمكن بعضهم من اصطياد غزالة بالليل بمجرد أن التقت بنور السيارة المبهر فأصاب العشى عينيها ووقفت ساهمة لا ترى ما حولها ، فأمسكوا بها ، ورباها أحدهم فى بيته فأنست للماعز والجديان . . وصادقها الأولاد والأطفال .

وأما صيد البحر فهو السمك والكابوريا ، وكذلك « الاستكوزا » التى يعتقدون أنها تكسب من يأكلها من الرجال قوة جنسية خارقة . ولهم فى صيد القرش دراية كبيرة . كذلك منهم من يجمع قواقع بديعة الألوان من ساحل البحر الأحمر ويجهزها لتكون عقداً أو أسورة أو خواتم لزوجه ، أو « أباجورة » أو « ميدالية » ، يقدمها لها . . عندما يعود .

ويتكلم أحدهم عن « القرش » الذى قام بتحنيطه ويفوق طوله . . إرتفاع الإنسان ، وقصد فى تحنيطه أن تكون أسنانه بارزة كالخناجر . ومنهم من برع فى تحنيط الثعالب . . يعطيها حقنة فتخر مغشياً عليها بدلا من ذبحها أو خنقها ، ويضع بدلاً من العينين بلْيتان مطليتان « باللاكيه » الأسود البراق ، ويكون الثعلب فى شكله النهائى مكشراً عن أنيابه فى وضع الهجوم . ومنهم من تخصص فى تحنيط رأس الغزال ، فإن اصطاد غزالة ، يفصل رأسها ويفرغه من كل ما به من لحم

ويتركه جلداً على عظم ، ويعلقه على حبل الخيمة عدة أيام فى الشمس فيجف تماماً ويصبح نقيًّا من كل رائحة . وأما جلد الغزال فإنه يدبغ ويقدم هدية لأى ضيف قادم من القاهرة لكى يصنع منه حقيبة لزوجه أو حزاماً أو حذاء لها . وقد تمكن أحدهم من اصطياد « الطريشة » أى الحية ذات القرنين بأن ألقى إليها خيطاً من الكتان بآخره قطعة صغيرة من الصوف فأطبقت على الصوف بأنيابها وجذبها بشدة فسقطت الأنياب وأصبحت « الطريشة » بعد ذلك لاضرر منها ، وحنطها بطريقة بدائية بأن أفرغ جوفها وحشاه ، بالملح والقطن . وهى صالحة على كل حال لإثارة الذعر بين زملائه حينما يضعها لأحدهم فى الفراش . وعثر فى جوفها على اثنتى عشرة بيضة كانت على وشك الفقس ، وشكل البيضة مستطيل وطولها مثل عقلة الأصبع أو يزيد . وبذلك فقد نفعت هوايته فى القضاء على ثلاث عشرة أفعى مرة واحدة .

وأما هواية « عبد الرحمن الذهبى » فهى تربية الكلاب . .

وقد عرفنا من قبل مقدار اعتزاز « الذهبى » بكلابه حتى إنه يقدم لها الماء النقى ويفضلها أحياناً على نفسه . وعلى مدى الأعوام أصبح له شعب من الكلاب تنتشر فى السهول والأودية تحفظ له الود وتدين له بالولاء .

كل الكلاب تعرفه.. وهو لا يعرفها إن كبرت.. ورحلت عنه أورحل عنها .

وقد يمر أحد الرعاة على المعسكر ومعه قافلته الصغيرة فيهرع كلب من القافلة متجهاً إلى المعسكر ، فيعرف الناس أنه قد تخرج ذات يوم من عند عبد الرحمن الذهبى ، وأنه يترك صاحبه الحالى ليعبر عن ولائه لصاحبه القديم . . فيحس الذهبى بالزهو والسرور . . وبشعور طيب أنه يوجد ما يحفظ له الود فى تلك الصحراء . . التى يعيش فيها محروماً من كل ود . . ومن كل حنان .

وتصل السعادة بالذهبى إلى ذروتها ، حينما يكون فى إحدى رحلات

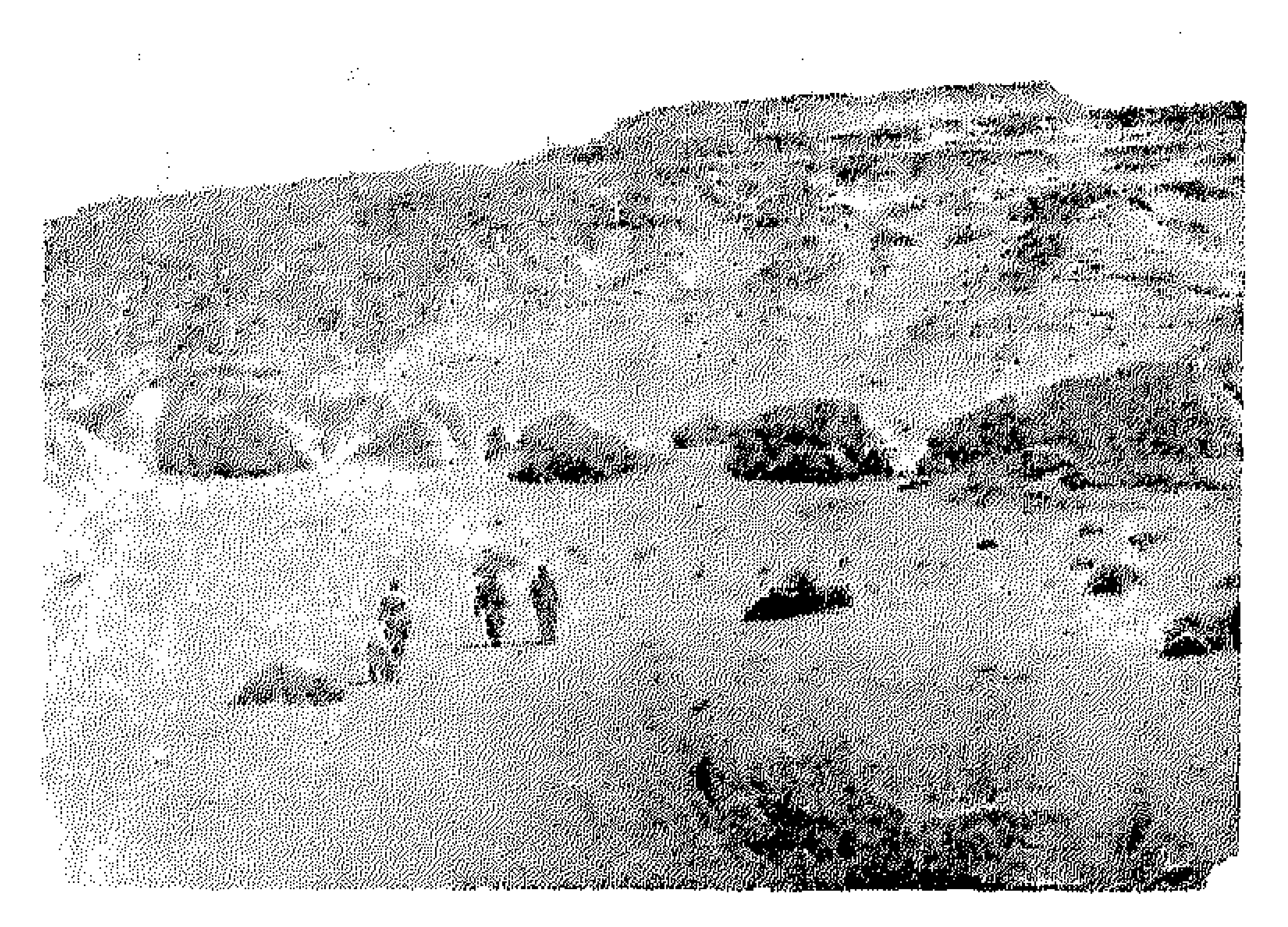
الاستكشاف ويمر بالقرب من تجمع سكانى للعبابدة أو خباء . . فتخرج إليه إناث من الكلاب تبحث عنه بلهفة . . لترحب به . . وخلفها جراؤها تهز ذيولها مقلدة لأمهاتها ، وقد يكون ترحيب الجراء . . ليس مجرد تقليد ، فربما شعرت – بغريزتها الصائبة – أن الرجل صاحب فضل وتاريخ على الأمهات . وينظر الذهبى إلى الجراء وأمهاتها بعين دامعة وشعور فياض بحب « الأسرة » . . ولو كانت أسرة من الكلاب .

* * *

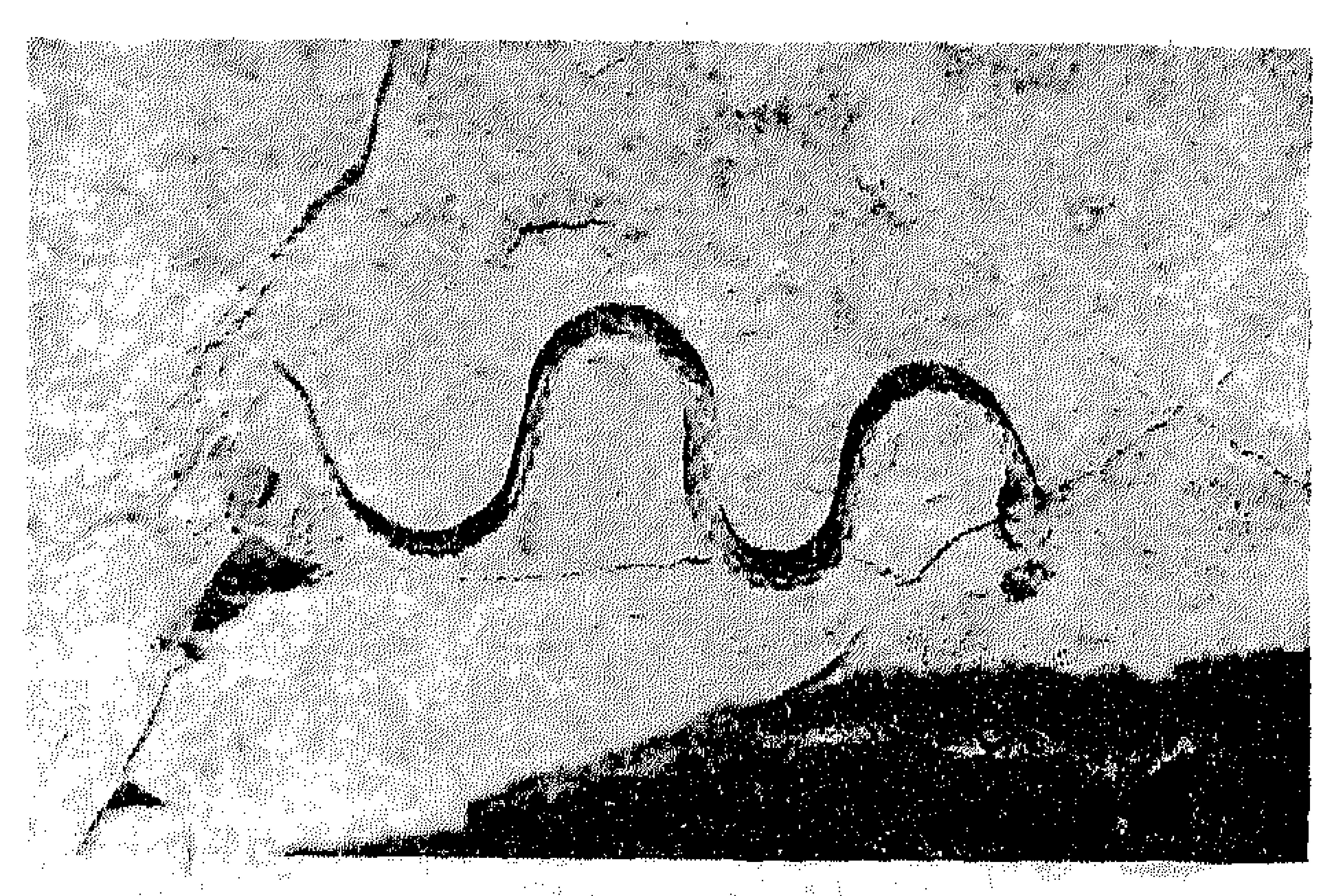
وعندما يأتى دور الكلام عن الفنون ، نجد « فن اقتفاء الأثر » أكثرها أهمية فى تلك المنطقة من الصحراء . فهو لا يندرج تحت تلك الفنون التى تهدف إلى خدمة ذاتها ، بل إنه فن يخدم المجتمع الصحراوى أجل الخدمات فكم من إنسان ضلَّ طريقه فى الجبال ، كان الفضل فى إنقاذه لله . . وكانت الوسيلة هى فن اقتفاء الأثر . كذلك له فى الحياة العادية استعمال يومىّ ، وعلى وجه الخصوص فى تعقب العير الشاردة . . والنعاج الضالة .

كما يساعد هذا الفن على معرفة الأخبار فى مجتمع العبابدة ، وعلى سبيل المثال ، إذا مر أحد الرعاة على مكان أسرة من أسر العبابدة ولم يجدها فى مكانها الذى كان يتوقعه . . يستطيع بجهد بسيط أن يعرف أى اتجاه سلكوا ، وبذلك يمكنه أن يستنتج مكان إقامتهم الجديد . . ويفيد هذا الفن أيضاً فى اكتشاف الجرائم وتعقب المهربين وغيرهم من المجرمين الهاربين فى الصحراء .

ولكل فن قواعد يقوم عليها . والقاعدة الأساسية لفن اقتفاء الأثر هى أن « القاطع أحدث من المقطوع » أى أنك إذا وجدت أثراً لسيارة ، أو لقدم آدمية مثلاً تقطع أثراً آخر ، فمعنى هذا أن صاحب الأثر القاطع قد وطئ المكان بعد صاحب الأثر المقطوع ، وأنه مرّ من هذا المكان فى زمن لاحق . ويمكنك على



ويوم أن ضللتم الطريق . . لو صعدتم هذا الجبل . . ونظرتم نحو
الشمال الشرقى . لوجدتم خباءً لأحد العبابدة على مرمى البصر



والطريشة أى الحية ذات القرنين . . هى عدوهم اللدود

أساس هذه القاعدة أن تقرأ قصصاً كاملة على أرض الصحراء .

ومثال ذلك . . يوم أن ضل بعض الرجال . . حدثني العهد بالصحراء طريقهم واقتفى زملاؤهم أثرهم ، وعثروا عليهم ، وتعجب التائهون يومها حينما لاحظوا أن زملاءهم يعرفون كل التفصيلات التي حدثت لهم منذ أن انحرفوا عن الطريق ، وقالوا لهم إنكم انحرفتم فى مكان كذا ، وجلستم للراحة عند جبل كذا ، ولو صعدتم الجبل الغربي ونظرتم نحو الشمال الشرقى لوجدتم خباء أحد العبابدة على مرمى البصر ، ولكنكم واصلتم سيركم وكان يقودكم إلى هذا الاتجاه فلان وأنتم تمشون خلفه ، وجلستم للتيمم ثم أقمتم صلاة المغرب عند تل أسود صغير ، وجلس فلان بعد الصلاة إلى جوار التل وأقسم أنه لن يبرح مكانه إلا إذا وصلته نجدة ، لكنه خشى الوحدة والخلاء فغير رأيه وجرى ليلحق بكم . وقد اشعلتم النيران فى مكان كذا ، وبعد مسيرة ساعتين من هذا المكان حدث خلاف بينكم على الاتجاه الذى يجب عليكم أن تسلكوا ، وكاد كل منكم أن يمشى فى طريق ، وتصالحتم بعد ذلك بفترة وجيزة ، ولكن فلاناً انشق عليكم وترككم وصعد الجبل عله يرى قبساً من النور يهديه إلى مكان أى إنسان .

وباب الاجتهاد مفتوح فى هذا الفن . فمن الممكن تمييز أثر المرأة عن الرجل وأن هذه مشية حامل ، ومعرفة أثر البكر والثيب ، وكذلك من الممكن تقدير الوزن والطول وما إذا كان الرجل أعمى أو مُبصراً ، أو أعور الشمال أو اليمين ، وهل هذه مشية عبادى أو مشية غريب ، وهل هو كهل أو شاب ، مستريح أو منهك ، متردد أو واثق من طريقه ، خائف أو مطمئن ، وغير ذلك من الاجتهادات التى قد تخيب مرة وتصيب أخرى .

* * *

وحينما يصل الكلام إلى الطب ، يعرض كل منهم تجاربه . . ونتائج أبحاثه ! ،

أو يقدم الوصفات التي ورثها عن الأجداد بعد ان جربوها على مدى العصور .
يتكلمون عن أنواع النباتات الصحراوية مثل الشيح ، والحرجل ، وحلف البر ، والحنظل ، وأهمية كل منها فى علاج الأمراض . .

ويقول أحد المثقفين :

– لا تستهينوا بهذه الوصفات فهى خلاصة تجارب وخبرات . أليس العلم عبارة عن مشاهدات . . تتأسس عليها النظريات ؟ .

ومن قال اسأل المجرب قبل أن تسأل الحكيم . . لاشك أنه حكيم . وما هو أصل الأدوية فى الصيدليات ؟ . . أليست تلك الأعشاب البرية والنباتات ؟

كذلك يصفون للقادمين الجدد طريقة علاج مَنْ تلدغه العقرب أو الثعبان . وخير إسعاف للمصاب أن يحقن بالمصل ، وغالباً ما يعيش . . إلا إذا كان سيئ الحظ وجاءت اللدغة فى أحد شرايينه . ويحتفظ كل من يعيش فى الصحراء بشفرة فى جيبه فإن لدغته العقرب فعليه أن يشرط موضع الإصابة ، ويمتص الدماء المسمومة على قدر ما يستطيع ، شرط ألا يكون فى فمه أى جروح ، أو يمتصها له زميله إن كان فى مكان لا يصل إليه فمه ، ويربط العضو المصاب بإحكام لإعاقة السم عن الوصول إلى القلب . وإن لُدغ أحدهم وهو فى مأمورية إلى المعسكر الرئيسى للبعثة فإنه يكون أكثر حظًّا مما لو لُدغ فى أحدالمعسكرات التابعة ، ففى المعسكر الرئيسى يضمن أن المصل غير تالف لأنه محفوظ فى الثلاجة ، وسوف يضعون له بعض الثلج على الموضع المصاب فيساعد على تسكين السم فى مكانـه .

وأما « الطريشه » أى الحية ذات القرنين . . فهى عدوهم اللدود . . تدفن نفسها فى الرمل لا يظهر منها غير قرونها ، وإن شعرت بعدو فإنها تقفز لتلدغه وتغرز فى لحمه أنيابها ، ولو حدث هذا فإنهم يطلبون من الرجل أن يقول وصيته وما له

عند الناس . . وما عليه من ديون حتى يبلغوا أهله بما قد يجهلون عن أحواله . ولكن إرادة الله فوق كل القوانين . .

وإن لم يكن عمره قد انتهى فإنه يعيش حتى لو لدغته الطريشة .

وإليكم مثلا عبد العاطى عباس . . ألم تلدغه الطريشة ذات يوم ؟ وها هو ذا يجلس الآن بينكم ؟ .

ويترك عبد العاطى وابور الجاز الذى يجهز عليه الشاى ويلتفت إليهم قائلا :

- حدث هذا حينما دخلت خيمتى فى إحدى الأمسيات وكنت جائعاً ، فجذبت « قفة » الخبز من تحت السرير ومددت يدى بداخلها لأخرج منها رغيفاً فأحسست بلدغة بسيطة ونظرت فإذا طريشة ملعونة لا يزيد طولها على شبرين عالقة بها ، فصرخت وألقيت بها على الأرض ، ووجدت مكان الجرح ينزف بشدة وأردت أن أوقفه فنصحنى بعض الكبار أن أتركه ينزف حتى ولو صفى دمى كله . وقالوا لا تكتم الدماء يا بنى فإنها تطرد السم خارج جسمك ، واحمد ربك يا عبد العاطى لأن أنيابها لم تنخلع فى لحمك ، ونقلت إلى المستشفى وبقى جسمى متضخماً كالفيل لمدة شهر وتم الشفاء بحمد الله .

ويعلق أحد الحاضرين : إنه رجل محظوظ ، إذا قورنت قصته بذلك الرجل الذى جاء مع إحدى البعثات منذ عدة سنوات ، وحط رجال البعثة رحالهم فى أحد الأودية . . وأرادوا أن ينصبوا خيامهم هناك ، وبينما هم يطهرون المكان الجديد من شجيرات الشوك لدغت الحية اللعينة ذلك الرجل ووجد أن أنيابها فى لحم أصبعه ، وكان إيمان الرجل عميقاً وعزيمته من الحديد ، فأخرج من جيبه مطواة صدئة وصاح قائلاً : الله أكبر . . وقطع بها أصبعه ووضعه فى جيبه ، وأدركه زملاؤه ، ومن كرم الله كانت معهم سيارة فسافروا به إلى مستشفى القصير لإسعافه . . وكتب له الشفاء .

ويقول أحدهم :

– اسمعوا يا رجال . .لاعلاج لمن تلدغه الحية ذات القرنين إلا الحمام الزغلول ، فإذا لدغت أحداً منكم فعليكم بعدد موفور منه وافتحوا بطن كل واحدة بدون أن تذبحوها ، وألصقوا بطنها المفتوح على الموضع المصاب ، وسوف تجدون أن لون دم الحمام الفاتح تحول إلى لون أسود ، فألقوا بالحمامة . . وجيئوا بواحدة غيرها وهكذا حتى تصلوا إلى الحمامة التى لا يتغير لون دمها .

ويقول أحد المتعلمين :

– والله إن منهج العلم الحديث لا يرفض التجربة وعليه أن يتقصى ما وراء كل مشاهدة من علل ، وهذه ظاهرة تستحق البحث والدراسة ، ولو كان صحيحاً أن لون دم الحمام يتحول إلى أسود فمعنى هذا أنه حدث تفاعل بيوكيمائى بينه وبين السم ، ولذلك فإن تفتت التركيب الكيمائى المعقد للسم ، أمر ليس ببعيد .

فيرد عليه أحد العبابدة ساخراً :

– ومن أين لنا هنا بالحمام الزغلول يا أستاذ ؟ . . هذا مطلب عسير المنال ، إنّ الكيَّ بالنار أنجح علاج بشرط أن يأتى الكيّ بعد بتر العضو المصاب أو قطع جزء من لحمه ، وهذا العلاج ناجح سواء أكان المصاب رجلا أم عنزاً أم جملا أم حماراً وقال : أرنى يدك يا عبيد ، لقد قطع جزءاً من لحم يده بشفرة كانت فى جيبه حينما لدغته الحية اللعينة ، وشوى مكان الجزء بشظية من النار ، وحمدا لله فقد كتبت له النجاة .

وعلى كل حال فإن الوقاية خير من العلاج ، وأحرى بكم أن تعرفوا طباع تلك الزواحف والحشرات وأخلاقها . . فتجنبكم المعرفة كثيراً من شرّها . لا تحركوا الجلاميد الموجودة فى الوادى أو على جوانب التلال إلا بحذر ، ولا تجلسوا على الأرض بجوار أوانٍ أو « باستيلات » بها ماء ، وإياكم والجلوس بجوار براميل الوقود

أو على المسكوب منه فالطريشة تحب رائحته ، وإذا تبول جمل أو حمار بجوار الخيمة عليكم بإزالة آثاره فوراً فإن رائحته جذّابة للثعابين . ولا تقربوا خزان المياه الثابت فى مكانه إلا بكل انتباه ، وإن ذهب أحدكم إلى الغائط فلا يكون فى الظلام . . وعليه أن يفتش « المستراح » جيداً بعصا طويلة وهو على بعد قبل أن يجلس فوقه ، ولا تستعملوا الناموسيات فى الصيف مهما تكاثف عليكم الذباب . . . .فهو أرحم على كل حال من العقارب ، إن العقرب تتسلق الناموسية وتلقى بنفسها من علٍ فوق النائم ، ألم تسمعوا بالرجل الذى كان ينام فى سريره تحت الناموسية شبه عار فى الصيف فلدغته العقرب فى مكان حساس من جسمه فمات على الفور ؟ . وعليكم بتفتيش الفراش جيداً قبل النوم ، وإياكم أن تلبسوا أى ملابس قبل « تنفيضها » . ولا تطردوا الخنافس من خيامكم فهى عدو العقارب . ومن أراد منكم غاية الحذر فليضع فى خيمته نبات الشيح فإن تلك الحشرات لا تطيق رائحته . . . أو يفرش على أرض الخيمة جلد ماعز فهى تنفر منه . وإذا لُدغ أحدكم فى الظلام ولم يعرف أى نوع من الحشرات لدغه . فليطمئن إذا شعر بالألم . . إنه « العقرب الشمسى » . . شديد الإيلام ولكنه غير سام .

ولا داعى للاعتداء على الثعبان بدون سبب . . إذا تمكن أحدكم منه ، فإن أليفه لن يترك الثأر .

وإن كنتم فى الأودية . . فاحذروا الثعابين الراقدة محتمية بالظلال ، فلا أمان لكم من شرها إلا وأنتم فوق قمم الجبال . ومع ذلك فلا تطمئنوا لتلك القمم إن كانت مكونة من صخور الجرانيت ، فكثيراً ما يتسلقها الثعبان . . عن طريق « الخيران » . . بحثاً عن الماء البارد الذى يتجمع عادة فى الجيوب والحفر النقر بعد هطول الأمطار .

ولا تجلسوا تحت الأشجار فى الأودية إلا بعد أن تتأكدوا من عدم وجود

الثعبان فوق الأغصان . وهنا ينظر البعض إلى عبد الكريم فيبتسم قائلا :

– يغفر الله لى ، فقد أجبرنى ثعبان لئيم على الخروج من الصلاة . حدث ذلك عندما تيممت وذهبت لأصلى العصر فى ظلال الشجرة البحرية . وما إن ركعت الركعة الأولى حتى فوجئت بثعبان يسقط على رأسى من فوق الشجرة وشعرت بجسمه البارد يلتف حول عنقى . . ولا أعرف حتى الآن كيف تصرفت فى لحظة الذعر هذه للتخلص منه . . فقد وجدت نفسى بعيداً عن الشجرة بعد أن قفزت قفزة هائلة . . وعجباً أننى وجدت الثعبان راقداً لا يتحرك ، ولم يكن ميتاً بل مغشياً عليه . . وتبين لى أنه ابتلع عصفوراً . . كان قد وقف على رأسه المنتصب المتأهّب للصيد . . ظن أنه أحد الأغصان . . فبلعه الثعبان ، واندفعت دماؤه كلها لهضم العصفور فارتخت عضلاته وخر مغشياً عليه كمن ينام فاقد الوعى بعد أكلة دسمة .

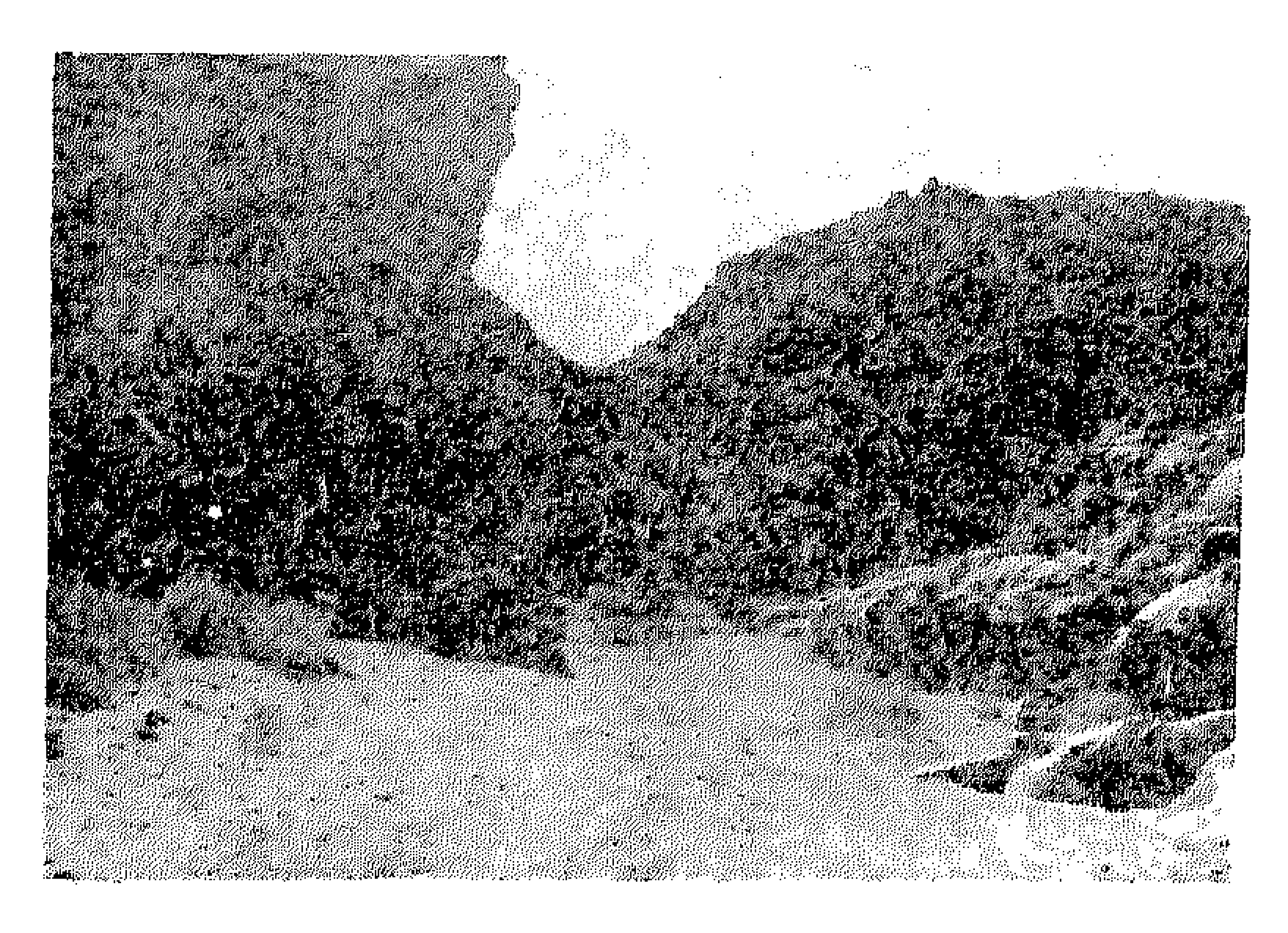
وإذا كانت الوقاية خيراً من العلاج ، فإن « العهد » خير من الوقاية . . وخير من العلاج . .

والعهد يأخذه الإنسان على العقرب أو الثعبان ، بألا يقتله الإنسان إن تمكن منه مقابل ألاّ يغدر به الثعبان . وعجباً للإنسان ، وحبه للخير والسلام ، إلى الدرجة التى يقيم فيها مع الثعبان عهداً ، بدون موافقة الثعبان . وكثير من رجال الصالون فَضَّلوا اللجوء إلى العهد على الاحتماء بالعلم حتى بعض المتعلمين منهم . ربما لقلة ثقتهم فيما وصل إليه الإنسان من علم ، أو لضياع ثقتهم هذه أمام خشية الحية وهيبة الثعبان .

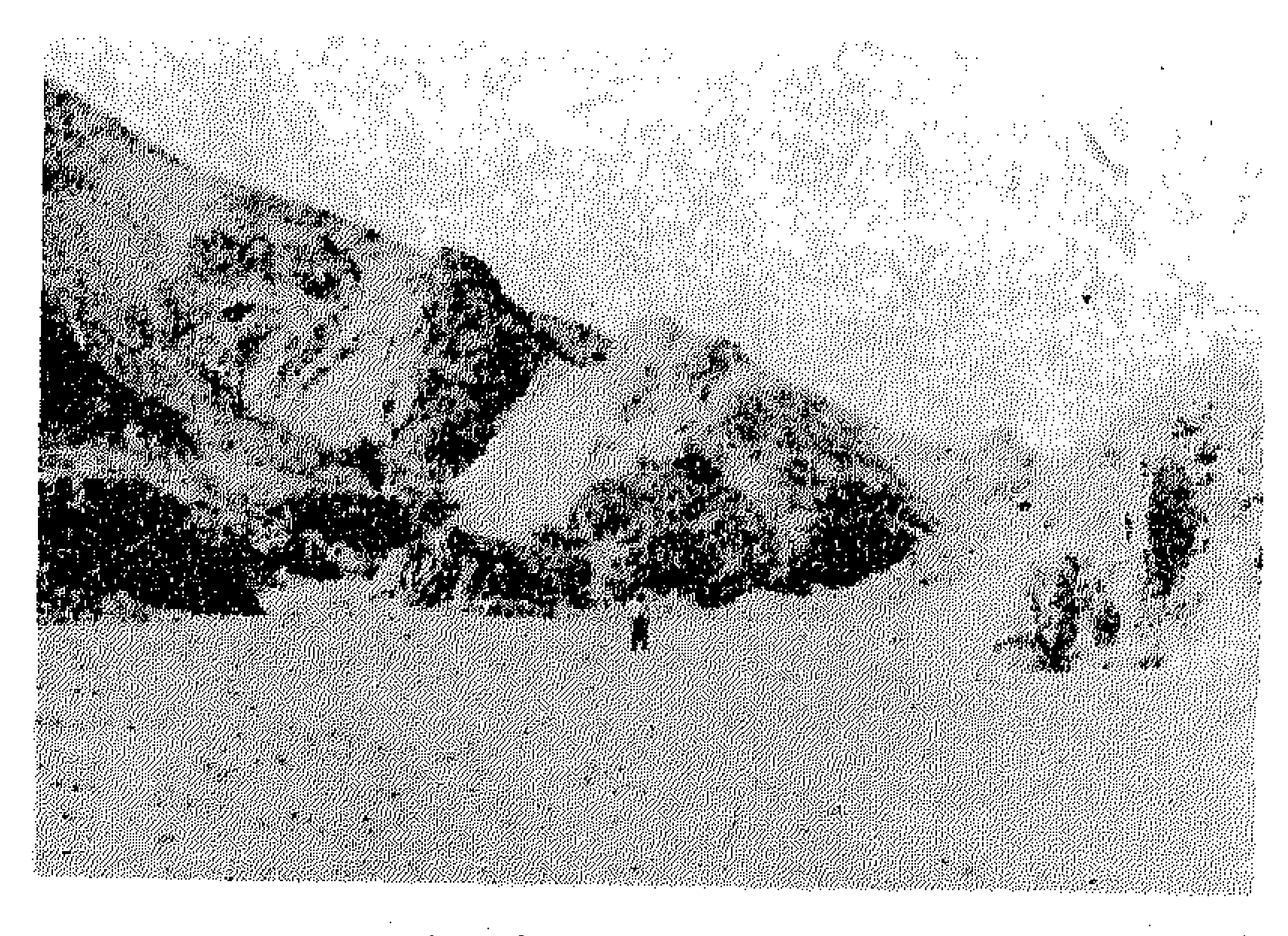
* * *

وحينما يصل بهم الكلام إلى « العلم » يسأل أحدهم :

– هل عجز الإنسان مع ما وصل إليه من علم أن يجد مَصْلاً أو تِرْياقاً لسم « الطريشة » ؟ ، وماذا يفعل الباحثون والعلماء المصريون إذن ؟



وهو يعرف درباً بين الجبال . . ، وسوف يغنيه هذا الدرب عن
استعمال الطريق الملتوى الذى تمر به السيارات خلال المنعطفات



عند التقاء وادى زيدون بوادى أبو جرادى . . توجد
جبال من الشيست العتيق ، وهو أقدم صخور المنطقة عمراً

فيرد أحدهم قائلا :

– هدفهم الحصول على الماجستير والدكتوراه .

– بدون أن تخدم أبحاثهم هذه . . المجتمع الذى يعيشون فيه ؟

– قرأت اليوم فى مجلة روزاليوسف أن أحدهم يعد بحثاً عن الغدة الدرقية عند القرموط ! .

– لقد وصل الأمر بهؤلاء الباحثين أن أصبحت أبحاثهم مضيعة للجهد والوقت . وقد سخر الرئيس جمال عبد الناصر بنفسه فى إحدى خطبه من باحث قضى حياته يدرس معدة الصرصور ! .

– الرأى عندى أن دراسة غدد القرموط أو التوصل إلى معرفة شئ جديد عن معدة الصرصور أمر له فائدته العلمية . وربما يترتب عليه بعد ذلك فوائد اقتصادية أو صحية ، ولكن لا شك أن الباحثين بصفة عامة يسلكون الطريق السهلة ، لأن من أراد منهم أن يدرس التركيب الكيمائى المعقد لسم « الطريشة » هذه ، فإنه يتأخر فى الحصول على درجته وتتأخر ترقيته ، ويضيع وقته فى اصطياد « الطرايش » . . بما فى ذلك من مشقة وخطورة ، وهو بحث على كل حال غير مضمون النتيجة .

فيرد أحدهم قائلا :

– لا تظنوا أن دراسة غدة القرموط أو معدة الصرصور . . لا تهدف إلى خدمة المجتمع . صحيح أنها لا تخدم المجتمع الصحراوى فليس عندنا صراصير أو قراميط ، إن أمثال تلك الأبحاث يا رجال . . تخدم مجتمعهم هم . . أما نحن فهل يدرى بنا منهم أحد ؟ !

ومن أحاديث العلم فى الندوة ، أخبار الاكتشافات . . والثروات المعدنية وأماكن تواجدها فى تلك المنطقة من الصحراء . ومنها مثلا أن الجيولوجيين بمصلحة الأبحاث الجيولوجية قد عثروا على خام الحديد الأسود فى وادى الكريم ،

وأما حماضات فإنهم يستخرجون منها الفوسفات . « والطلق » والحرير الصخرى موجودان فى أماكن شتى من تلك البقاع ، وأم سميوكى بها النحاس ، وأم غيج يستخرجون منها الزنك والرصاص ، وفى « أبو غلقة » يوجد معدن الألمنيت الذى يستخرجون منه عنصر التيتانيوم ، والفواخير يوجد بها الذهب ، وأما وادى الجمال فإن فيه الزمرد . ولكن أجدادنا قدماء المصريين – غفر الله لهم – قد أجهزوا على المعادن الثمينة كلها ولم يتركوا لنا إلا « الغث » .

وأكثر المعادن التى يجهلونها هو هذا المعدن الذى تبحث عنه البعثة التى يعملون فيها ويطلقون عليه « اليورانيوم » ، وترجع صعوبة البحث عنه أنه ليس له لون ثابت بل له مئات الأصناف والألوان ، ويوجد فى أنواع مختلفة وكثيرة من الصخور .

ويقول رجل منهم :

– مرت الأعوام ونحن نتنقل بين الجبال . ولم نصل إلى نتيجة ولا نرى أى إنتاج ، ماذا تستفيد الدولة من وجودنا هنا متحملين هذه المشاق ؟

ويرد عليه رجل آخر قائلا :

– إن الدولة لا تتقدم بيسر أو بسهولة ، إن هذه المهنة يا رجال . . تحتاج إلى عزيمة صادقة . لقد انقضت عدة أعوام على بعض الدول تبحث عن اليورانيوم ، وما زالت تواصل التنقيب . . بدون ملل أو قنوط ما دامت تسلك الطريق العلمى السليم .

– وأين الإنتاج ؟ !

– هناك نوعان من الإنتاج : الإنتاج المنظور والإنتاج غير المنظور . ويتساءل البعض عن الفرق بينهما فيُجيب المتحدث المتنّور : الإنتاج المنظور تجده عادة قصير الأجل ومن أمثلته : طحن الغلال ، ودبغ الجلود وصناعة الملابس والعلب المحفوظة ، وأمثال تلك المشروعات يكون الربح والخسارة والإنتاج والمصروفات فيها

واضحة . أما إنتاجنا نحن فهو عبارة عن ورقة . . « خريطة » .

— وكيف نستطيع تقييم هذا النوع من الإنتاج ؟

— بحساب التكلفة ، والمقارنة بالسعر العالمى لإنتاج مثل هذه الخريطة .

— وعدم العثور على شئ . . فى حد ذاته . يعتبر نتيجة . فهو يفيد على الأقل فى تضييق نطاق البحث فى المراحل القادمة .

وينتهى حديثهم عن العلم عادة بالكلام عن الجنس . شأنهم فى ذلك شأن معظم الموضوعات التى يطرقونها فى الندوة ، نجدهم يتكلمون هنا عن الجنس بطريقة خارجة بحجة أنه كلام علمى ، ويتكلمون عن تفصيلات كانوا يستحون من ذكرها عندما تناولوا نفس الموضوع من قبل من خلال الدين . يسرد بعضهم تجاربه الشخصية بلا حياء ، حتى من هو معروف بينهم بتقاليده المتحفظة . ويشرحون تجاربهم فى الليلة الأولى للزفاف . ثم ينصحون من هو على أهبة الاستعداد له . . ماذا يفعل بالتفصيل . وتجد بعض المثقفين يترجم لهم ما قرأه فى الكتب الأجنبية عن « العلاقة الجنسية » ويستمعون بشغف إلى كلامه عن الأماكن الحساسة المختلفة فى جسم المرأة . ويزعمون أن هذه التفصيلات مباركة من الدين ومن العلم على حد سواء . . طالما أن المقصد هو التعريف بفن الجماع فى الحلال .

* * *

وتحتل أخبار الحيوانات وتصرفاتها جزءاً هاماً من أحاديث الصالون . يتكلمون عنها سواء بالمدح أو القدح ، وكأن لها شخصية محددة تقارب شخصية الإنسان .

ومن أهم أخبار الحيوانات . أخبار الجمل . . وقصص الخلافات بين الجمال وأصحابها من العبابدة وكيف أن جمل محمد العبادى صبر على صاحبه أياما طويلة فى الصحراء منذ أن خرجا من أقصى الجنوب عند ضريح الشيخ الشاذلى إلى أن وصلا إلى بئر العطشان . واخذ الجمل اتجاهه نحو البئر فهو يعرفها ، لكن صاحبه

أراد بالضرب أن يجبره على تغيير اتجاهه، فاعتبر الجمل هذا الفعل إهانة لكرامته وعدم تقدير لجهوده ، فنظر حوله فلم يجد أحداً فى الصحراء الصامتة فقتله وأخذ يجرى هائماً فى الأودية ، وكأنه يعرف أن التعامل بينه وبين بنى الإنسان قد انقطع إلى الأبد ، وربما كان يعرف أيضاً من كثرة عيشه فى الصحراء وبحكم خبرته فى تلك البقاع أن العبابدة جميعهم أقرباء ، وأنهم لن يسكتوا على قتل قريبهم ، فاختار العزلة ومات حزيناً بين الجبال ، يشعر بوطأة الجرم الذى ارتكبه فى حق صاحبه بعد عشرة طويلة فى الصحراء ، وأنه نسى كل الذكريات فى ساعة غضب .

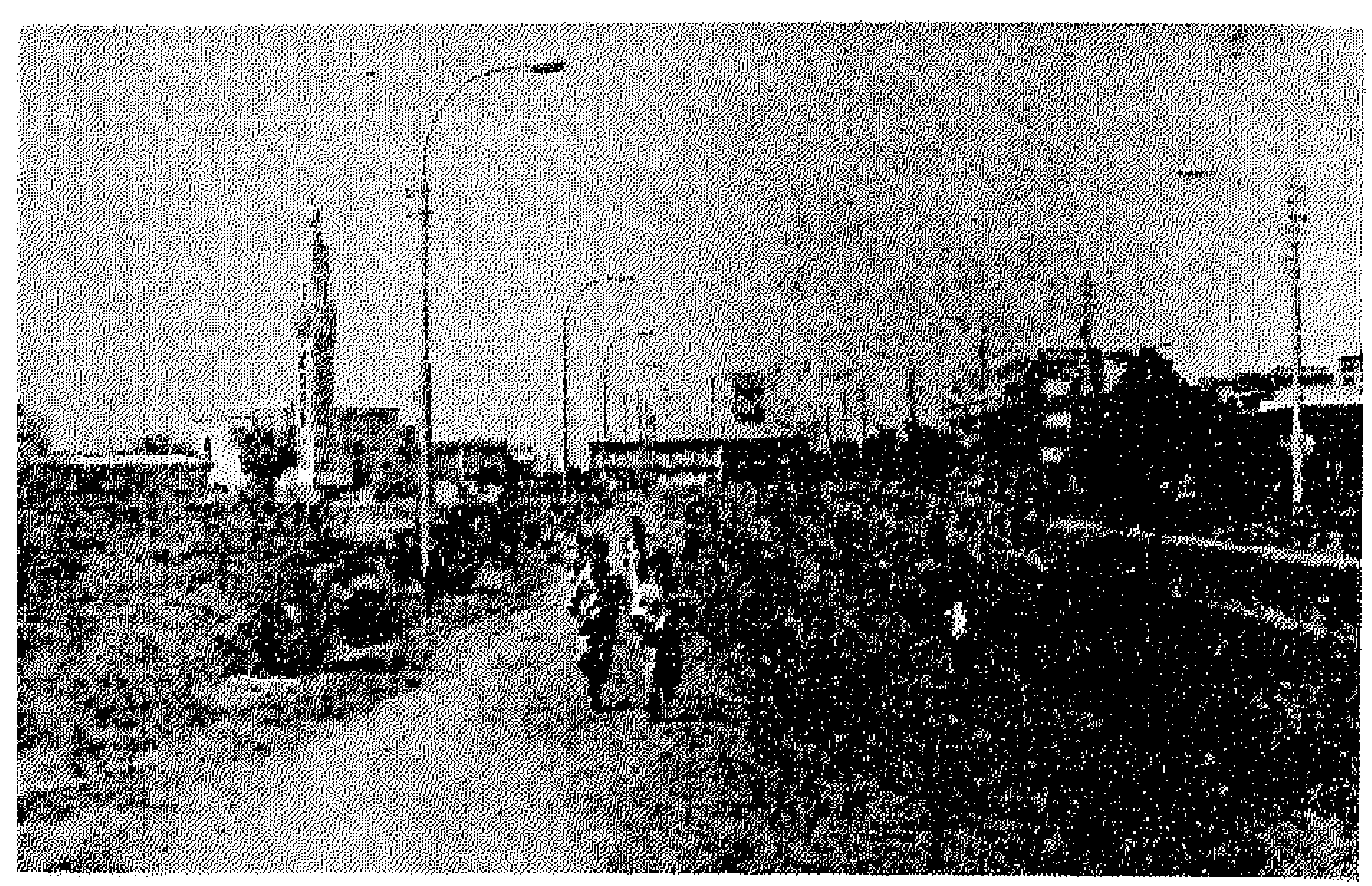
ويترحم البعض على العبادى القتيل ، على حين لا يعفيه البعض الآخر من المسئولية ، فقد أخطأ فى طريقة تعامله مع الجمل . أليس الجمل حيواناً راقياً يفهم تماماً كما يفهم الإنسان ؟ ولو عرفتم أيها السادة طباعه وأخلاقه ، ورقته فى معاملته لأنثاه لحكمتم بأنه ماكان ينبغى للمرحوم أن يعامله تلك المعاملة القاسية . وينصت الجميع فى اشتياق . . فقد عاد الموضوع إلى الجنس مرة أخرى ، وهو أكثر الأحاديث سحراً لديهم فى تلك البقاع حتى لوكان الحديث عن ناقة وجمل

ويحكى سليمان قصة أبى الحصين الذى عشق القطة . .

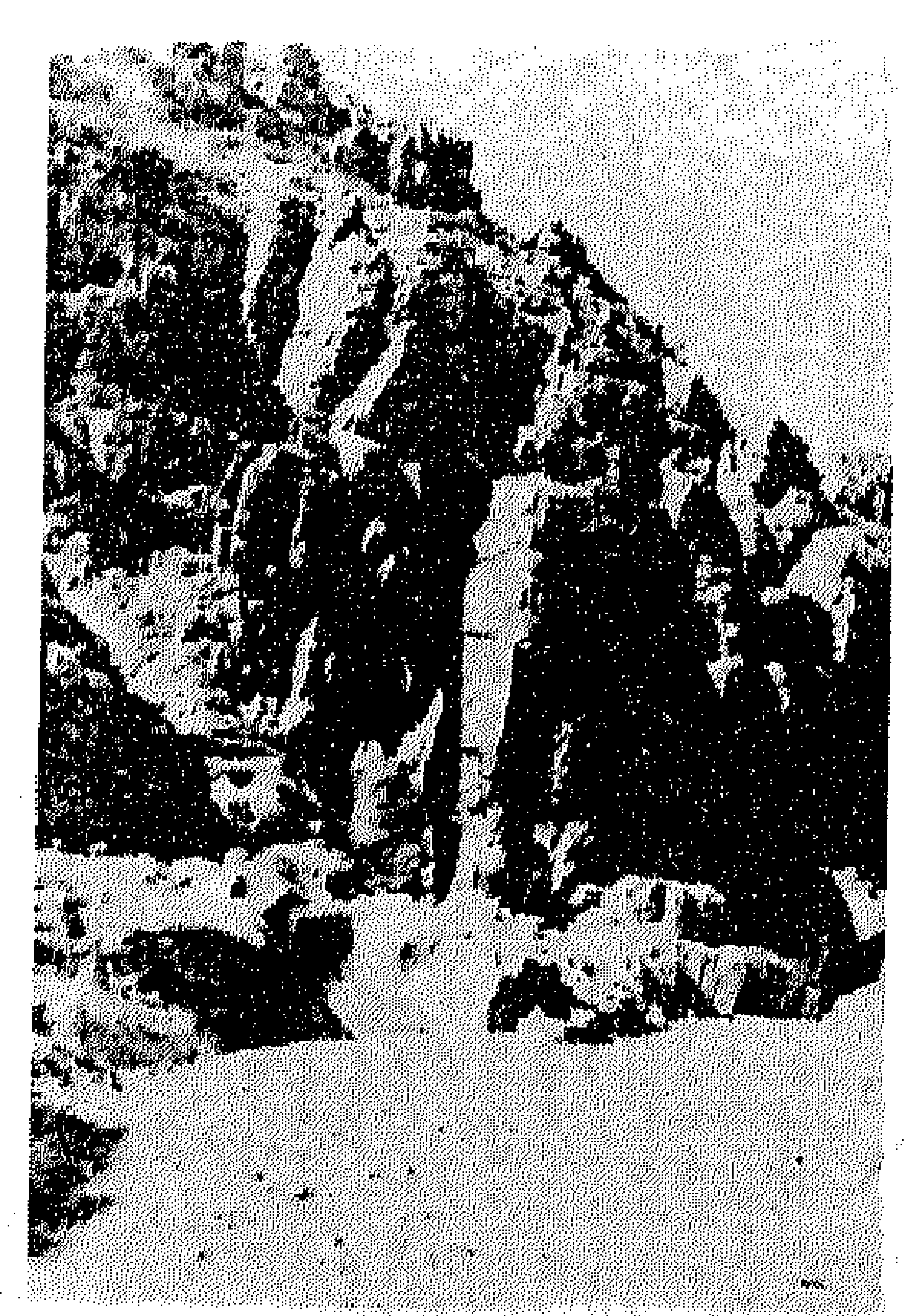
ويستنكر بعض الحاضرين هذا العنوان . . أمن المعقول أن يعشق الثعلب قطة ؟ ! فيرد البعض أن الصحراء لاتقسو فقط على بنى الإنسان . . بل أيضاً يشعر فيها الحيوان بالحرمان ، فتحل الصداقة والحب محل العدواة والبغضاء . .

يقول سليمان :

– كان ذلك فى يوم من الأيام ونحن نحرس معدات الحفر والمناجم فى أحد الأودية . . بعد أن غادرها الناس الذين كانوا يعيشون فى ذلك المكان ، وانتقلوا منه إلى مكان آخر جديد ، وكانت عندنا قطة صغيرة ، وصلت إلى سن البلوغ والنضج ولم تجد أى قط يعيش معها وتقضى حياتها معه سعيدة وطبيعية ، وكنت



قرية منجمية . . تقع فى قلب الصحراء المصرية ، هى
ثمرة بحث طويل أسفر عن اكتشاف المنجم



منظر عام فى وادى أبو جرادى ، حيث اكتشف أول مظهر لمعادن اليورانيوم . .
فى صخر الجرانيت لأول مرة فى صحارى مصر

لاحظ أنها من كثرة شوقها إلى الذكر تأتى بأفعال فاضحة وكأنها امرأة لعوب ، وذات مرة التقت بأبى الحصين (يقصد الثعلب كما يطلقون عليه فى بلاد العبابدة) وأظن أنه كان يعانى نفس الحرمان ، وبدلا من أن يتبادلا العراك . نمت بينهما الصداقة . . ووصلت إلى درجة الحب ، وأنجبت القطة صغاراً . . من القطط ولكن (بوزها) مدبب وذيلها كث الشعر مثل أبيها أبى الحصين .

وتجدهم يصفون الطيور المهاجرة التى تمر على تلك البقاع وألوانها الزاهية البديعة ، يستبد بها العطش فتهبط فى المعسكر ، ويتغلب التعب عندها على الخوف فتجدها ساكنة مستسلمة . . لا تحاول الحركة مهما اقترب منها أى شخص ، ويشفق عليها الناس ولا يحاولون اصطيادها أو ذبحها ، فهم يتطيرون من الاعتداء على أى طائر يلوذ بهم وهو منهك وعطشان ، ويخشون على أنفسهم من مصير مماثل فى مجاهل الصحراء .

كذلك يعقدون مقارنة بين شجاعة العصفور وجبن الغراب . وهذه ظاهرة متكررة تجدها فى كل ساعة من ساعات النهار أمام أى « باستيلة » من الماء تكون موجودة بجوار الخيمة أو المطبخ ، يتقدم العصفور عند شعوره بالعطش نحو حوض « الباستلة » الساقط من الغسيل حتى ولو كان يوجد أمامه رجل يغتسل . أما الغراب فإنه يقف بعيداً عن الماء يكاد أن يفتك به الظمأ ، فاتحاً فمه على مصراعيه . . يخرج منه لساناً أحمر كأنه يستغيث . ولكنه يظل واقفاً لا يجرؤ على الاقتراب . ويعطف الناس على العصفور الشجاع ويفسحون له الطريق للشرب ، ويزدرون الغراب لجبنه ويطردونه .

* * *

وبدون مناسبة يقول أحدهم :

— هل تعرفون أن أكثر أجزاء الجسم تعبيراً فى أى مخلوق هى العين ؟

وينظر إليه الناس بلا تعليق فيقول :

لى المعذرة أننى قطعت عليكم الكلام فإن هذا المنظر ما زال يؤرقنى وأشعر بالرعب بسببه كلما أويت إلى فراشى . كنت أتمشى وقت الأصيل بالقرب من المعسكر فرأيت إحدى الزواحف لها عينان واسعتان . تحدق بهما إلىّ ، وظننت أنها « الطريشة » . أى الحية ذا القرنين ، ولم أكن رأيت واحدة منها من قبل فهممت إلى حجر كبير وضربتها به فقسمتها شطرين ونزفت منها الدماء وتحرك رأسها مبتعداً عنى ، ولكننى التقطت حجراً آخر وانقضضت به على الرأس فنظر إلىّ نظرة أفظع من أن تصفها الكلمات وأصابنى الهلع فألقيت بالحجر وأخذت أجرى مذعوراً إلى أن بلغت خيمتى .

ويعلق أحدهم قائلا :

– إن الزواحف تغضب وتطلب الثأر تماماً مثل بنى الإنسان . حدث ذلك عندما كنت فى أحد الأودية ، ووجدت ثعباناً فضربته بحجر ثقيل سقط على رأسه فقتل لتوه ، وفوجئت بوليفه ينقض على فوليت الأدبار ، وعجبا أننى وجدت الثعبان يجرى فى الوادى بسرعة كبيرة رافعاً رأسه بغضب . . مصمماً على الفتك بى ، وجرت ساقى بسرعة لم أعهدها وكأنها تدفع بمحرك قوى من الفزع ، وكانت المسافة ثابتة بينى وبين الثعبان ، وهو من الإصرار والتوعد بشكل يؤكد أننى هالك لا محالة . ووصلت إلى السيارة وأدرت المحرك . . وتحركت والثعبان ينقض على بابها ، ونظرت إليه فرأيته يسقط فجأة فعدت بالسيارة ومشيت إلى جواره حذراً لكى أعرف ماذا حدث له ، فوجدت أنه « فرقع » من الغيظ .

ويضحك الناس فرحين بنهاية القصة ، ولكن رجلا من أهل الصعيد يقول وهو جامد الوجه كأنه حزين على مصير الثعبان .

قال الرجل :

– لا تشمتوا فى الثعبان ، فهو شهيد الكرامة . لقد اعتدى عليه عدو جائر وقتل وليفته أمام بصره بلا أى ذنب جناه ، فاستنفر عزته للثأر وكاد أن يحقق مراده ، وفى لحظة واحدة شعر بالضياع وبالفراغ ورأى عدوه ينطلق على مركبة جبارة من حديد مقهقهاً . . ساخراً من مأساته ، فمات كمداً وغيظاً .

وتعجب الرجال من منطق زميلهم ابن الصعيد . . أن يدافع عن ثعبان بهذه الطريقة وسخروا منه . فقال :

– لا تسخروا ولا تتعجبوا فقد يموت بعضكم كمداً لو اعتدى عليه جبار ولم يظفر به ، تماماً مثلما حدث للثعبان .

وبدأ الناس ينظرون إلى الرجل بنوع من الجدية . فاستطرد قائلا :

– صور الكاتب الكبير نجيب محفوظ هذا النوع من « الفراغ » فى إحدى قصصه القصيرة . . لو قرأها أحد منكم لشعر بالرثاء للمقهور الذى لم يظفر بعدوه حتى لو كان هذا المقهور ثعباناً .

* * *

وقال الرجال : قل لنا ما هى الصورة التى رسمها نجيب محفوظ .

قال : كان شاباً يافعاً ، عاش فى زمن الفتوات ، وأحب فتاة كانت كل أمله وحياته وكانت الفتاة تحبه وتعتبره مثلا أعلى وزينة الرجال . وفى ليلة الزفاف رآها فتوة الحى تختال فى ثوبها الأبيض فأعجبته ، وقرر أن تكون له . فأمر العريس أن يطلق عروسه ، وذعر العريس للخطب ، فاعتدى عليه الفتوة وطرحه أرضاً وداس بحذائه رقبته طالباً منه أن يطلق عروسه ، أو يعصر عنقه تحت الحذاء .

وفى تلك الليلة ترك الشاب المسكين القاهرة وهاجر إلى الإسكندرية وكل أمله أن يصبح قوياً وله رجال أقوياء مثل الفتوة . ونذر حياته للثأر وظل عشرين عاماً يكافح لتحقيق حلم واحد أصبح كل هدفه فى الحياة . . أن يعود إلى القاهرة على

رأس رجاله للانتقام ، ويطرح الفتوة على الأرض ويضع قدمه فوق رأسه على مشهد من أهل الحى كله كما فعل به من قبل ، ويأمره بأن يطلق زينب لتعود إلى حبيبها الأول . وأخيراً تحقق له أمله وسافر ومعه رجاله إلى الحى القديم الذى هاجر منه ذليلاً مهاناً . وذهب إلى بيت الفتوة فوجد الظالم قد مات ، فمشى إلى حبيبته فوجدها امرأة تختلف تماماً عن زينب الأولى . . أرملة سمينة لا تعرف الحب . . ولا تفقه للبطولة معنى ، وفترت أحداث الذكريات الأليمة عندها وأمست باهتة ، وأصبحت المرأة لا تبالى قليلاً أو كثيراً إلا بتربية الأولاد وتجارة البيض . فشعر بغيظٍ وفراغٍ أليم ربما فتك به بعد ذلك فى « الخلاء » مثلما فعل الغيظ بالثعبان .

وبعد أن سمع الناس قصة نجيب محفوظ ، أخذوا يقولون :

– إذن فإنّ حب الانتقام صفة مشتركة بين الإنسان والثعبان . . ترى هل هى فى أصلها صفة إنسانية موجودة عند الثعبان ؟ . . أو هى خصلة ثعبانية موجودة عند بنى الإنسان ؟ !

* * *

وكأى ندوة من الندوات لابد أن يعرج فيها الحديث علىّ السياسة ، ويبدأ بالسؤال التقليدى المعروف :

– ما هى قوة إسرائيل بالمقارنة إلى قوتنا نحن المسلمين ؟

– إن مصر عندها أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط ، يكفى أن جمال عبد الناصر لديه « القاهر » و « الظافر » ، وهى صواريخ « أرض – أرض » أيها الإخوان ، نستطيع أن نضرب بها « تل أبيب » ونحن هنا قاعدون .

ولا يأبه العبابدة كثيراً لأمثال تلك الموضوعات ، أولا لأنه ليس لديهم أدنى شك فى أن مصر تستطيع أن تمحو إسرائيل من الوجود بلا أى عناء إن أرادت

ذلك ، ثانياً لأنهم لم يجربوا التعرض للغزو الأجنبى منذ أن هاجمهم رجال المعازة وتصدى لهم أبطال من العبابدة مثل الشيخ أبو جرادى رحمه الله . كما أنهم لم يذوقوا ويلات الحروب الحديثة فهم فى بلادهم منذ أجيال طويلة آمنين . ومع هذا فإنهم متحيزون بلا شك للبطل العظيم جمال عبد الناصر ، يبسطون مواقفه ضد الإنجليز واليهود ، وصموده إزاء طغيان الدول الكبرى ويحكونها فى ملاحم للبطولة تشبه ملاحم الأقدمين أمثال « سيف بن ذى يزن » وأبو زيد الهلالى وعنترة ابن شداد . ويقول أحد الرجال :

– مهما كانت إسرائيل ضعيفة فعلينا أن نحذر منها فهى على الأقل ذكية وخبيثة ، وقد ينتصر الخبيث الضعيف على القوى الصريح . .

هل لديكم تفسير لما سمعناه اليوم من إذاعة « تل أبيب » ؟ . لقد أذاعت أن مكثف القصير قد تعطل ، وأصيب البلد بأزمة فى الماء ، فلجأ المسئولون إلى الاحتياطى الموجود بالخزان ، ووقف أهل البلد صفًّا . . كلٌ معه صفيحة ليتسلم حصته ، وامتد الطابور من المكثف حتى وصل إلى دكان « محمود لواس » ! ! ، بالله عليكم كيف علمت إسرائيل بهذا الخبر البسيط وباسم صاحب الدكان ؟ !

وكان يجلس بين المنتدين رجل اشتهر بالصمت ، لم يشترك فى أى حديث أو حوار منذ بداية الندوة ، ولقد عرف عن الرجل بأنه لا يشد إلى أى موضوع إلا إذا كان عن « السياسة » . وعندما وصل رفاقه إلى تلك النقطة خرج عن صمته ليسألهم جميعاً سؤالاً عجيباً :

– هل منكم أيها الأخوان من يعرف أننا قد أبرمنا عقداً . . مع إسرائيل نشترط فيه عليها أنها إن أرادت الهجوم على مصر ، فليس من حقها أن تقوم بهذا الإ مَن جهة واحدة محدودة هى قناة السويس ؟ !

واستنكر بعضهم طريقة السؤال وما فيه من تهكم ، ومنهم من قال إن الرجل

سكت دهراً ونطق كفراً . ولكنه استطرد بهدوء وثقة دون أن ينظر إلى وجوه الحانقين . قال . . كأنه يحادث نفسه :

– أجوب بلاد العبابدة من الشمال إلى الجنوب ومن ساحل البحر الأحمر شرقاً حتى الصعيد غرباً ، فلا أجد موقعاً عسكريًّا واحداً ، أو أى نقطة للمراقبة . هل رأى أحد منكم « البدل الصفراء » من قبل فى تلك البلاد . . اللهم إلا أفراداً نادرين يراقبون المهربين ؟ ! .

ورد عليه واحد من المثقفين :

– اعلم يارجل أن الصحراء الشرقية مانع استراتيجى طبيعى ، تحمى بجبالها وادى النيل بدلا من الجيش . وبلاد العبابدة بصفة خاصة ليست فى حاجة إلى حماية فهى بعيدة .

وأعجب الرجال جميعاً برد الرجل المثقف ، وأخذوا يتهكمون على الرجل الصامت ولكنه تساءل بصوت هادئ قوى ، سؤالا كأنه يتضمن بين نبراته إجابة فيها نذير .

– بلاد العبابدة هذه . . بعيدة عن ماذا يارجل ؟ ! اتق الله . . أليست متاخمة للصعيد ؟ ، وهل الصعيد قطر آخر غير تابع لمصر ؟ . وكيف تتصور إن إسرائيل لا تستطيع أن تضرب بلاد الصعيد عبر هذا الجزء من الصحراء بالوسائل الحديثة ؟ ، هل الأسلحة والمعدات الحربية العصرية أقل كفاءة من مركبات الأقدمين ؟

قالوا :

– بل إنها أكثر كفاءة ، يوجد لدى الجيوش الحديثة طائرات فى الجو ، ومدرعات ومصفحات على الأرض .

فقال الرجل :

— إن سيارات بعثتنا الجيولوجية تنتقل بين الجبال وتمسح السهول والأودية ، هذه صحراء صخرية وليست رملية ، وهى أسهل ما تكون على المركبات الحربية ، ولاتقف أرضها أبداً مانعاً استراتيجيًا فى وجه الغُزاة .

— أفصح يارجل .

— اعلموا أننى واثق من أن الدفاع عن هذا البلد غير حكيم .

— جئنا بالدليل .

— ألم تسافروا من البحر الأحمر إلى وادى النيل فى تلك الطرق الجبلية الرئيسية التى تصل ساحل البحر بالصعيد ؟ من ينظر منكم إلى قمم الجبال العالية يجد على طول الطريق حجرات لا حصر لها فوق هذه الجبال . هل تعرفون الغرض من تشييد تلك الأبنية ؟

قال قائل منهم :

— أظنها شيدت فى الماضى كعلامات لهداية الحجاج ، حينما كان السفر إلى الحجاز عن طريق ميناء القصير بدلا من السويس .

فقال الرجل :

— كلا . . أيها الأصدقاء . إن أجدادكم الأقدمين كانوا بحق قادة عسكريين . لم يكن لديهم اتصال سلكى أو لاسلكى ، فأقاموا هذه الإنشاءات فوق الجبال لحماية وادى النيل من خطر الغزو الأجنبى . فهى نقط مراقبة موجودة فى مواقع مختارة بحيث تُتيح لمن يقف فى واحدة منها أن يرى « النقطة » الموجودة شرقها وتلك الموجودة غربها . وكان يتناوب على كل منها حرّاس ساهرون بالليل والنهار . فإن رأى أول المراقبين مراكب العدو فى أفق البحر الأحمر . . أشعل النيران أمام موقعه فيراها من يليه غرباً فيشعل شعلته وهكذا ، فيعرف قادة الجيوش الموجودة بين الجبال بقدوم الغزاة فيهبون لاستقبالهم قبل وصولهم إلى أرض مصر ، ويباغتون

العدو بدلا من أن يباغتهم . ويصل خبر الغزو الأجنبي إلى القيادة المركزية فى مدينة « قفط » فى دقائق قليلة ، فتصدر الأوامر بلقاء العدو والتصدى له قبل أن يصل إلى الشواطئ المصرية فضلا عن وادى النيل . إن واجب الدولة أن تحمى كل أطرافها . وإننى أتعجب يارفاق . هل متانة الدفاع عن البلد تزداد مع تقدم الزمن أو تتخلف ؟ ! . لنا الله إن فسخت إسرائيل العقد الذى أبرمته معنا ، وقررت الهجوم من جهة أخرى غير قناة السويس .

* * *

حكاية . . من الصحراء

كانت وظيفة طلعت قبل حضوره إلى بلاد العبابدة سائق أتوبيس بمقر الهيئة التى تتبع لها البعثة الجيولوجية . ويبعد مقر الهيئة عن القاهرة خمسين كيلومتراً ، وأما العمل اليومى الذى كان يقوم به طلعت فهو نقل الموظفين من القاهرة إلى الهيئة ، ويظل طول اليوم نائماً فى « الجراج » لأنه يسهر الليل على « تاكسى » يعمل لصالح إحدى الحانات بشارع الهرم . ولقد اشتهر طلعت بين العاملين وزملائه السائقين بأنه رجل فَظٌّ متغطرس . . غليظ القلب . . سليط اللسان . وهو قوى متين البنيان . . لا يتورع عن الاعتداء بالضرب على أى زميل له من السائقين . . إذا أبدى له النصح بخصوص احترام العاملين .

ذات يوم وهو يقود الأتوبيس من مقر الهيئة إلى القاهرة سمع أحد الموظفين يقول لزميل له إنه عاد بالأمس من « القصير » ، فقد كان فى مأمورية لتوصيل بعض

المهمات إلى البعثة الجيولوجية التى تقوم بالبحث عن اليورانيوم . . فى بلاد العبابدة .
واستمر الحديث بين الموظفين عن بلاد العبابدة هذه ، وطلعت يتثاءب وهو يقود السيارة لا يعير الكلام أى أهتمام . وفجأة وصل الموظف فى حديثه إلى نقطة جعلت طلعت يفيق من سباته ، ويكاد أن يفقد معها صوابه ، كما جعلته يستغرق فى التفكير إلى الدرجة التى نسى معها أنه يقود الأتوبيس . . على طريق مزدحم خطير . قال الموظف إن هذه المنطقة بها منجم مهجور للذهب . . استخرج منه الأقدمون كميّات كبيرة على مدى العصور . وكان إلى وقت قريب ملكاً لإحدى الشركات الأجنبية . فلما قامت الثورة وطردت الأجانب وأمَّمَتِ المنجم . . حدث فى إدارته خلل وإهمال ، وتعطلت ماكيناته ، ونضبت موارد الذهب فيه بسبب توقف عملية الاستكشاف الجيولوجى حوله فتوقف عن الإنتاج . ويوجد بعض العبابدة هناك ممن كانوا يعملون فى المنجم يعرفون عروقاً فى الجبال المتاخمة له . . تحتوى على ذهب خالص ، لكنهم لا يريدون البوح بسرها .

وانتقل الحديث إلى مواضيع شتى ، لكن طلعت ظلّ ساهماً مُستغرقاً فى التفكير وفجأة نظر خلفه ، ولأول مرة شهد العاملون منظراً غريباً عليهم . . لقد شهدوا ابتسامة واضحة على شفتى طلعت . . وهو يوجه سؤاله بأدب إلى الموظف قائلا : من ذا الذى بيده الأمر إن أردت أن أنقل نفسى لأعمل فى البعثة الجيولوجية ؟ .
وأجابه الموظف قائلاً : إنه رئيس قسم الجيولوجيا والخامات الذرية .

انتظر طلعت أمام مبنى قسم الجيولوجيا ، إلى أن رأى رئيس القسم ينزل السلم وحده ، فهرع إليه وحياه باحترام . . وأخذ عنه حقيبته . . وقال :
— سعادة الأستاذ الدكتور . . إن ضميرى يؤنبنى . . وأشعر بغيرة وطنية تحطم معنوياتى ونفسى .

وتعجب رئيس القسم وسأله : دلنى يابنى كيف أستطيع أن أساعدك .

قال طلعت :

– إننى أسمع كل يوم بأخبار زملائى السائقين الذين يناضلون فى الصحراء ، سواء فى بلاد العبابدة . . أو الجنود منهم على خط النار . وكل يوم أتساءل كيف يتعرض هؤلاء الرجال إلى مثل تلك الأخطار . . وأنا فى بيتى . . هانئ النفس . . مستريح البال . إن « الثورة » يا سعادة الدكتور لها علينا فضل كبير . . وأريد أن أخدم وطنى ، فهل توافق على أن تنقلنى إلى البعثة الجيولوجية الموجودة فى الصحراء ؟

ونظر إليه رئيس القسم ، فوجد عملاقاً قوى الجسم ، فقال فى نفسه : ما خُلِقَ هذا الرجل إلا للصحراء ، وهل يوجد من يتحمل أكثر منه مصاعب الجبال ؟ وقال :

– سعيد أنا بشعورك الوطنى ، وإننى أبشرك بموافقتى ، وبأنك ستحصل على إضافة شهرية مقدارها عشرة جنيهات اسمها « بدل الصحراء » .

وسخر طلعت فى نفسه . . كيف يظن أن طموحه يقف عند هذا القدر من المال . ألا يعرف الأستاذ الدكتور أن عشرة الجنيهات هذه . . يحصل عليها « كبقشيش » . . كل ليلة من رواد « البار » ؟ !

ومنذ اليوم الأول لوصول طلعت إلى معسكر البعثة ، وهو يحوم حول العبابدة الذين يشتغلون فى المعسكر كعمال ، يبذل كل ما فى استطاعته ليوطد علاقته بهم ، يزورهم كل ليلة فى خيامهم ومعه السكر والشاى . . للسمر وتجاذب أطراف الحديث . واستطاع أن يقدم لهم خدمات كثيرة بلا أى مقابل ، وساعده على ذلك طبيعة عمله كسائق ، فكان يشترى لهم من قنا والقصير كل ما يريدون ، ويحاسبهم بأمانة . وعندما يركب أحد منهم معه فى السيارة يعامله برفق وأدب لم يسبق له أن عامل به أحداً من العاملين بالهيئة عندما كان فى القاهرة ، ويصر على أن يركب

العبادى معه فى «كابينة» السيارة بدلا من الصندوق الخلفى . وبعد فترة طويلة من مجاهدة نفسه على المعاملة الحسنة . . وهى منهج من الكفاح لم يألفه . . ولايتمشى مع طباعه الغليظة ، استطاع أن يكسب ثقتهم فعرف منهم مكان المنجم المهجور ، وعرف أيضاً أنه لا يوجد من بين الأحياء ممن كانوا يعملون فى هذا المنجم إلا الشيخ سعيد ، وهو شيخ طيب من العبابدة جاوز المائة من عمره يعيش على سفح جبل يبعد مسافة خمسين كيلومتراً عن المعسكر ومعه رهط من أولاده وحفدته وعائلاتهم .

وانتقل طلعت إلى المرحلة الثانية من خطته . وتهدف تلك المرحلة إلى توطيد علاقته بالشيخ سعيد ، وبدأ يعرض عليه الخدمات المعتادة التى يحتاج إلى أمثالها من يسكن منعزلا فى الصحراء . وقد لاحظ طلعت أن الشيخ – على الرغم من رقة حاله – كريم عفيف النفس ، يقضى معظم وقته فى الصلاة . وشعر طلعت بالضيق لما عرفه من قناعته وعدم احتياجه لأى طلبات من الريف ، لكنه لم ييأس ، وعرف أن أحسن هدية يمكن أن يقدمها للرجل هى ماء من وادى النيل ، فاشترى بضعة «جراكن» من البلاستيك كان كلما سافر إلى الصعيد يعبئها بالماء من إحدى الحنفيات العامة فى مدينة «قفط» ويحضرها خصيصاً للشيخ سعيد . وحتى هذه الهدية – على الرغم من احتياج الرجل لها – كان يتعفف عن قبولها قائلا إنه ربما يحتاج إليها رجال البعثة اكثر منه . . وهم بها أحق لأنها تنقل كل هذه المسافة بواسطة سيارتهم .

وذات يوم مرّ عليه طلعت بالسيارة وانتظره حتى انتهى من الصلاة فسلم عليه وقبل يده ودعاه الشيخ إلى تناول الغداء معه ، فقبل دعوته شاكراً ، وبعد الانتهاء من الطعام قال له طلعت إنه سيذهب إلى أحد الأودية القريبة من المنجم المهجور لكى يجمع بعض أوراق نبات «الحرجل» من هناك ، لأن امرأته مريضة ولاشفاء

لهـا إلا باستعمـال منقوع هـذا النبات بصفـة مستمرة . وهـو يرجوه أن يحضر معه ليجمعا كمية منه . وركب معه الشيخ مرحباً .

وبعد فترة من السفر انحرف طلعت عن الطريق المعتاد وأخذ يجرى بالسيارة إلى أن دخل بها فى سرب طويل بين جرفين متجاورين ، وأوقف السيارة وطلب من الشيخ أن ينزل منها ثم قال له :

– هل تظن ياشيخ سعيد أننى جئت إلى بلادكم هذه من أجل عشرة جنيهات شهرية فوق مرتبى ؟

فلم يفهم الشيخ مقصده وقال :

– إن الحياة يابنى كفاح . . والاغتراب من أجل لقمة العيش شرف .

فقال طلعت :

– سوف أوجز لك القول وأعرفك بما أريد : إننى ما جئت إلى هنا إلا لكى تدلنى على عروق الذهب الخالص فى هذا المنجم المهجور ، ولك مما آخذه نصيب يعينك على حاجتك فأنت رجل فقير .

ودهش الشيخ سعيد عندما سمع شخصاً يصفه لأول مرة بأنه رجل فقير ، وقال : إننى غنى يابنى والحمد الله .

وتعجب طلعت فهو يعرف أن الشيخ جدّ فقير ، ولكن الرّجل أفحمه حينما قال له :

– ما هو الغِنَى يابنى ؟ . إنه عدم الحاجة ، وأنا لست محتاجاً إلّا لله سبحانه وتعالى . وماذا ينفعنى الذهب أوكثرة المال فى هذه الصحراء ؟ ! خير لى أن أقابل ربى عمّا قريب فقيراً من أن أقابله سارقاً وخائناً للأمانة .

فانقض عليه طلعت وأمسك برقبته قائلا بصوت بطئ وغليظ :

– والله لأقتلنك فى هذا السرب المهجور . . أيها اللئيم العجوز ، وأدفنك هنا

بين الجبال . . فلا يَعْرِفُ قبرك من هذا المكان إنسٌ ولاجانٌّ .

وأخذ الشيخ يرجوه العفو والرحمة ، وتخلص برفق من يديه . . وتركه طلعت على أمل أن يكون قد غير رأيه : . . وقال له الشيخ :

– إننى يابنى رجل مسالم ، وأنت فى عمر حفَدَتِى وسوف يغفر لك الله إن رحمت شيخوختى وضعفى و . . . .

وانقطع كلام الرجل فجأة وحدثت مفاجآت متتالية فى لحظة خاطفة . . كأنها البرق . فقد انقض الشيخ على الأرض بسرعة جنونية ، والتقط بين يديه كمية كبيرة من التراب وقفز قفزة هائلة وحَشَا بها عينى العملاق وأخذ يكيل له الضربات بصخرة من الجرانيت . . كانت ملقاة على الأرض . . فخر طلعت مغشياً عليه .

والشيخ سعيد لا يستطيع بالطبع قيادة السيارة ليعود بها إلى دياره ، ولكنه يعرف أنه إذا تسلق الجبل واستمر يمشى نحو الجنوب فسوف يصل إلى خيام إحدى عائلات العبابدة بعد مسيرة نصف يوم فقط . وعندما وصل إلى خيامهم استقل بعيراً من هناك واتجه مباشرة إلى رئيس الغرباء ، فوصل إلى المعسكر الذى يقيم فيه بعد ليلة كاملة ، وقص عليه القصة . فأرسل معه سيارة لكى يسعفوا طلعت ويرجعوا به . ولما وصلوا إلى المكان الذى ضربه الشيخ سعيد فيه ، لم يجدوا السيارة فاقتفوا آثارها وتبينوا أنها اتجهت إلى مكان المنجم المهجور ، ووصلوا إليه فوجدوا السيارة تقف عند فوهة المنجم . وأخذوا يصيحون . . لكنهم لم يسمعوا إلا صدى صوتهم .

ودخول أى منجم مهجور له طريقة خاصة يجب أن تتبع ، وكذلك هناك قواعد للأمان يجب أن تراعى وإلا تعرض الداخل فيه لخطر الموت .

ولم تكن معهم المعدات اللازمة لدخول المنجم لأنهم لم يتوقعوا أن يجازف طلعت بدخوله وحده . لكن الشيخ سعيد اعتمد على معرفته السابقة بحارات

المنجم ، فدخلها فى الظلام الحالك وأخذ يتحسس طريقه بعصاً طويلة تسبقه حتى لا يسقط فى وَجْرَةٍ (أى حفرة عمودية) قديمة مما كانوا يحفرونها لتتبع الخام . . إلى أن وصل إلى أول تلك الوجرات . . فأيقن أن طلعت سقط فيها وهو فى الظلام ، فربط الشيخ سعيد وسطه بحبل متين ، وربط الحبل فى صخرة عاتية ونزل الوجرة العمودية فى الظلام الدامس ، وفى نهايتها وجد جسماً آدميًّا فأمسك به ، واستطاع بمعونه الرجال أن يخرجوه .

وقد كان طلعت مغشيًّا عليه فى حال بين الحياة والموت ، وكانت عظامه مهشمة من أثر السقوط ، ضعيف النبض يحتضر ، مختنقاً بغاز ثانى أوكسيد الكربون الذى يتواجد عادة فى المناجم المهجورة . . ويتراكم بصفة خاصة فى المستويات السفلى منها .

ورجع طلعت إلى القاهرة خائباً . . محمولا على « نقالة » . وهو الآن يعانى العجز وذل الفقر لأنه خسر فى هذا الحادث أعز ما يملك السائق . . فقد تهشمت قدماه .

* * *

قصر البنات

يظهر أن شهر العسل ليس بدعة ابتدعتها المدنية الحديثة ، بل هو ضرورة ، وإلا ما استطاع الإنسان الصحراوى البسيط ، البعيد عن هذه الفكرة أن يصل إليها ويتبناها .

يوجد مكان فى الصحراء المصرية ، يقع بالجزء الجنوبى منها . . اسمه قصر البنات . . يحج إليه الزوجان من البدو لقضاء فترة سعيدة بعد زواجهما بعيداً عن قيظ الصحراء ولهيب الجبال .

وقصر البنات ليس قصراً ، ولايوجد به أى نوع من أنواع المدنية بمفهوم الرجل المتحضر ؛ لكنه بالنسبه للبدوى وبالنسبة للعروس الصغيرة التى لم تر خلال حياتها غير الجمل والماعز والجبال ، كل أنواع الترفيه المطلوبة فى شهر العسل .

فهو حائط طبيعى كبير من الحجر الرملىّ الصلب ، دائماً يوجد بجواره ظلال إما

من جهة الغرب أو الشرق ، وبجواره ينبوع ماء . . يتفجر من باطن الأرض .

وأعجب ما فى المكان موقعه ، فهو لا يبعد كثيراً عن أحد الطرق القليلة التى تشق الصحراء ، تمر عليه سيارة كل بضعة أيام . فترى العروس لأول مرة فى حياتها التى لا تزيد فى العادة على ثلاثة عشر عاماً جسماً معدنيًّا كبيراً . . زاهىَ اللون – له بريق – مثبتاً على عجلات ومحملا بأكياس كثيرة من الدقيق وقدور من العسل والزيت وكل ما تشتهى الأنفس ، وربما يكون محمّلا أيضاً بآدميين ويجرى بسرعة رهيبة أضعاف سرعة الجمل .

مخلوق عجيب اسمه السيّارة طالما سمعت عنه العروس من بعض الرجال العظام الذين يسافرون إلى الريف (صعيد مصر) مرة فى كل عام .

وبانتهاء أيام العسل تكون العروس قد حققت كل ما هو مطلوب فى رحلة زوجية سعيدة بمفهوم أهل المدينة . فقد قضت أياماً جميلة فى جوٍّ رطْب ظليلٍ ، وشاهدت من مناظر المدنية مالم تشاهده زميلاتها وصديقاتها اللائى لم يتزوجن بعد . ويحمل العريس بيت الزوجية على الجمل . . فهو مجرد خباء بسيط من الخيش ويعود ومعه عروسه الصغيرة السعيدة . . لتحكى بعد ذلك مشاهداتها فى « قصر البنات » كعروس من بنات القاهرة قضت شهر العسل فى ربوع أوربا .

* * *

من قصص التمرُّد والعصيان

من أشهر القصص التى تحكى فى ندوات السمر الليليّة فى الصحراء . . تلك التى تتكلم عن التمرد والعصيان .

وحينما تذكر الكلمتان تتجه الأنظار إلى مراد أفندى . . وكنيته « أبو مقشة » . ويشيح الرجل بوجهه حياءً محاولا تغيير موضوع الحديث ، ولكنه يجد أن أحدهم سوف يحكى القصة ويشرح للناس لماذا أطلقوا عليه« أبو مقشة » فيفضل أن يعرض قصته بنفسه لأنه أولى من غيره بالسخرية من ذاته .

* * *

القصة الأولى :

يقول مراد أفندى :

كان ذلك منذ عامين حينما جئت لأول مرة إلى الصحراء . وقد كان عملى السابق فى القاهرة موظفاً متأنقاً بإدارة شئون العاملين . وأُسند إلىّ وظيفة صرّاف

البعثة ، فكنت أسافر إلى قنا كل شهر تقريباً ، عندما أتسلَّم « شيك » المرتبات ، وميعاد وصول « الشيك » غير ثابت ، ننتظر وصوله إلى أول الشهر حتى منتصفه . وأعود إلى وادى عسل فأجد الرجال ينتظرون وصولى باشتياق وتلهُّف لأصرف لهم مرتباتهم لقضاء شئونهم وسداد ديونهم .

ذات يوم نادانى أحد العمّال من العبابدة باسمى « مراد » ! . . هكذا بدون الألقاب ! ! . . ولم أكن أعرف وقتها أن هذه طبيعتهم وأنه ليس لديهم فيما بينهم ألقاب ، وظننت أنه لا يدرى بمنزلتى وذاتى . . أو درجتى بين الموظفين . وعزمت على أن أؤدبه وأجعله عبرة لأمثاله ليعرفوا منذ البداية من أنا . وعلى البدوى الساذج أن يعرف أن مراد أفندى قادر بقلمه ان يعز من يشاء ويذل من يشاء . وقررت أن استخدم ماتدربت عليه من فنون « البيروقراطية » التى تمرست عليها فى إدارة شئون العاملين ! . إن « البيروقراطية » قد أذلت فى مصر العباد . . أليست قادرة على أن تذل العبابدة ؟ ! .

ويتساءل رجل من الجالسين :

– وما هى « البيروقراطية » هذه ؟

فيستأذن أحدهم مراد أفندى فى قطع روايته ليجيب :

– إنها تحكُّم الإنسان فى أخيه ، حينما تسند إليه وظيفة مكتبية فيحولها عن الغرض منها وهو خدمة إخوانه إلى وسيلة لإذلالهم .

ويكمل مراد أفندى قصته وهو بين الموافقة والامتعاض . يقول :

وحينما جاء ميعاد القبض استبقيت للرجل العبادى ثمانين قرشاً من مرتبه بدعوى عدم وجود « فكة » . وجاء الرجل بعد يومين للسؤال عن نقوده فأهملته وتجاهلته ثم أمهلته إلى أن أنتهى من عملٍ وهمىٍّ أمامى ثم أمرته أن ينتظر خارج الخيمة إلى أن أناديه . وطال انتظار الرجل فدخل يذكرنى بحاجته فنهرته وطردته . كل هذا وهو

– على الرغم من شعوره بالإهانة – لا يفطن إلى أننى أقصدها . وكلما جاء بعد ذلك يطلب نقوده كررت إهانته وطردته أمام الناس . . ليكون لهم عبرة ولكى يعرف أمثاله قدر الوظائف الحساسة ، وانصرفت إلى عملى المفتعل وكأننى أسيِّر أمور الدولة .

وذات يوم تقرر أن يسافر هذا الرجل فى عملية استكشاف بقيادة أحد الجيولوجيين ، وتحدد ميعاد القيام من معسكرنا الرئيسى فى منتصف الليل . . على أن تكون العودة بعد شهر من البحث فى الجبال .

وقبل قيام « القول » طلب الرجل من الجيولوجى قائد الرحلة أن يتوسط له عندى فى إعطائه ما تبقى له من المال ، فحضر إلىَّ الجيولوجى فادعيت أن ليس معى « فكة » ، فطلب أن أعطيه أى ورقة مالية كبيرة ويحاول هو صرفها ولكننى تهربت . وذهب الجيولوجى إلى رئيس البعثة شاكياً فجاء إلىَّ الرئيس نفسه ، وتعجبت ساعَة أنْ رأيته على باب خيمتى كيف يترك عمله الذى لا ينقطع ويحضر إلىَّ لأمر بسيط مثل هذا ؟ .

قال لى رئيس البعثة :

– جئت إليك يامراد أفندى لكى أرجوك أن تعطى الرَّجل حقّه وتطيب خاطره بعد ما وجهت إليه من إساءات .

فقلت له : إننى لن أفعل ، وإن هذا ليس ميعاداً للعمل الرسمى ياأستاذ .

ونهرت الرجل أمامه واتهمته بإثارة الفتنة بين المثقفين . فأخرج رئيس البعثة من جيبه ثمانين قرشاً وأعطاها الرجل ، وداعبه وضرب على كتفه . . ثم تأبَّط ذراعه ومشى معه كأنه ولىّ حميم ، إلى أن وصلا إلى سيارة الاستكشاف فأخذ يساعده على التدثر بحرامه . وركب الرجل على ظهر السيارة وأخذ يلوح له الرئيس والسيارة تغادر المعسكر فى آخر « القول » حتى اختفت تماماً فى ظلام الصحراء .

ويستطرد مراد أفندى قائلا :

– ولم يعجبنى تصرف الرئيس . . واتهمته فى نفسى بالضَّعف وأنه ليس لديه حنكة إدارية ، وأنه على الرغم مما وصل إليه من علم ودراسة ، يلزمه التدريب على فن الإدارة . . فى إدارة شئون العاملين ، فهو لا يعرف كيف يستفيد بما لديه من سلطة فى هذا المكان المنعزل . إن كلمة منه حَرِيّة بأن تفتح بيوتاً أو تغلقها ، والقرار منه يهز وادى عسل وسكانه ، ويسرى صداه إلى كل بلاد العبابدة وإلى الصعيد ، بل إلى القاهرة ، ولايحاسبه فى تلك الصحراء رقيب . لماذا لا يستعين هذا الرجلُ بإدارىٍّ أرِيب مثلى ؟ ! .

والله لو فعل لوضعت كلّ رجل فى منزلته ، وعزلت بينه وبين الناس ، وجعلت الوصول إليه خيالا ، ورفعت مكانته فوق القمر ، ولأصبحت هيبته تهز الجبل ، وعبده الناس إلٰهاً فى وادى عسل ، واستعاذ بالرحمٰن من شرِّهِ . . أهلُ الوجهين هنا . . والعبابدة أجمعُون .

لكن العلماء قوم لا يفقهون . .

قسماً بهذا القلم لأستمر فى إذلالهم حتى أكون سيداً عليهم كافة . وقسماً باللوائح وخباياها . . التى تعلمتها من رئيسى وأستاذى مدير شئون العاملين ، لأكشفنّ عن جهل العلماء بالقوانين ، وأحول العبابدة إلى عبيد .

وكان من عادتى أن أذهب كل أسبوع مرة إلى البحر الأحمر مع عربة البريد لأستحم وأغسل قيظ الأسبوع كله فى الماء ، ثم أتوجّه فى المساء إلى المقهى الصغير الذى يطل على البحر . . وأجلس فى استرخاء وراحة فاحتسى كوباً من الشاى . . وأقرأ صحف الأسبوع وأتمتع بالنسيم العليل بعد الغروب . . متأملا الأفق اللانهائى ، فترتاح نفسى وتتحسن معنوياتى . وجاء اليوم الذى تعودت أن أذهب فيه إلى البحر وكان يوماً شديداً من أيام شهر أغسطس ، تهب علينا فيه « رياح

السموم » فننام على الأرض ونقوم ثم ننام وهكذا ، ولا يوجد مكان فى المعسكر إلا والسخونة فيه كأنها صَهْدٌ من جهنم ، حتى السرير والكراسى كانت سخونتها لا تُطاق .

وقال لى السائق أن اسمى غير مدرج فى أمر الشغل . قلت هذا سهو غير مقصود ، وذهبت إلى رئيس البعثة ومعى دفتر السيارة فقال بهدوء :

– وهل فى اللوائح ما ينص على أن تستحمَّ فى البحر الأحمر يامراد ؟ ، وهل جاء ذلك فى خطاب مأموريتك ؟ !

قلت : وهجير الصحراء ؟

قال :

– دلنى يامراد أفندى على مادة واحدة فى اللائحة تتكلم عن هجير الصحراء . . إننى أطبق القانون كما تطبقه أنت ، وإنك رجل إدارىّ أريب .

ولما سمعْتُ صوت السيّارة تتحرك بدونى شعرت كأن رئيس البعثة قد وضعنى فى المعتقل . . بل فيما هو أقسى ، لأننى لا أتصور معتقلا تصل فيه درجة الحرارة إلى هذه الدرجة ، فرجعت إليه لأسأله :

– ومتى تسمح لى سيادتك بالذهاب إلى البحر ؟ .

فقال بفتور :

– بعد ستة أشهر حينما تنتهى مأموريتك ، وأرجو أن تنصرف لكى لا تعطلنى يامراد أفندى .

وبقيت فى لهيب الجبال بدون أى نوع من الترفيه . كان نومى قليلا لارتفاع الحرارة بالليل كما هى فى النهار . وقاطعنى هذا المجتمع الصغير وصارت بينى وبينهم جفوة ، وساءت حالى واعتلت صحتى وكدت « أنفق » بين الجبال ، وشعرت بوطأة مرض نفسى يطلقون عليه الاكتئاب . وكان أكثر ما يضايقنى الذباب . .

فهو لا يُذَبُّ ولايخاف وكأنما أوصاه الرئيس بى ليتلف أعصابى . وأخذت ألاطف رئيس البعثة وأجامله عسى أن يرحمنى ، غير أن الرجل كان له قلب قُدَّ من صوان ، فأخذت أتمارض حتى مرضت ، وعافت نفسى الطعام وضعف جسمى وخارت قوتى . . إلى درجة أننى لم أكن أتمكن من القيام إلى « المنخر » لقضاء حاجتى ، فكنت أتوكأ على مقشة من النوع الطويل أمسكها فى وضع مقلوب ، عكازتها على الأرض ومكنستها تحت إبطى ، وأصبحت المقشة ملازمة لى . . فأطلق علىَّ النَّاسُ «أبومقشة» ولاحقنى هذا الاسم بعد ذلك فى كل مكان .

وفوجئت برئيس البعثة ذات ليلة . . يدخل علىَّ ، ليزورنى ويحادثنى فى شئون شتى من الحياة وكأنه لا يوجد بيننا جفوة . وأصبح من عادته كل مساء أن يحضر للسمر معى . . ويدير أعمال البعثة من داخل خيمتى .

وشعرت بصداقة نحوه . .

وذات يوم فاتحته لأعتذر عما حدث بيننا بخصوص الرجل العبادى . . ولكنه بادرنى بالاعتذار :

– لا تظن ياأستاذ مراد أننى أكون سعيداً عندما أضطر إلى تطبيق القانون بهذا المفهوم . .

ولم يتكلم بعد ذلك نهائيًّا فى هذا الموضوع .

وتعلمت بعد ذلك من تقاليد الصحراء ، أن الكبير عليه أن يعتذر للصغير . . إلا فى حالات نادرة . .

وقال لى رئيس البعثة :

– عندما يضلّ رجل طريقه فى الصحراء ، أو تخرج سيارة عن طريقها المألوف . . وتضيع فى مجاهل الجبال . . يومها سوف ترى بنفسك يا أستاذ مراد ، مروءة العبابدة التى علمتها لهم تلك الصحراء .

ويوم أن عادت الحملة سالمة شعرت بفرحة عودتهم وسعادة اللقاء . . ورحبت بالعبادى واعتذرت له كما اعتذر لى رئيس البعثة من قبل . ولما انتهت مدة مأموريتى . . شعرت برغبة أكيدة للبقاء . هنا فى البعثة . . وحتى الآن . .

* * *

وبعد أن ينتهى مراد أفندى من قصته ، يصمت قليلا ثم يبتسم بخبث قائلا :

– وإن قصتى هذه قصة بسيطة لو قورنت بقصة جعفر الأقرع يوم أن تمرد على الريس عبد الشكور .

ويثور جعفر قائلا :

– إذا كنت تعترف من خلال قصتك بخطئك فإننى مقتنع أننى كنت على حقّ فى تمردى على الريس . إن الصمت الذى يتسم به هذا الرجل يخفى تحته اللؤم والطغيان . وإنّ اللهّ سوف يعاقبه على إذْلالِهِ للنّاسَ بحجة حمايته لهم .

ويسأله بعضُ مَنْ لم يعاصر تلك القصة أن يرويها . فيحاول تغيير موضوع الحديث لكنّ واحداً من الأشقياء يسردها باختصار :

القصة الثانية :

كان جعفر ، وهو شابٌ مستنير من إحدى قرى الصعيد ، يعمل فى وادى العطشان ضمن رجال الريس عبد الشكور . وهو ليس أقْرَعَ ولكنه أصلع . . تنطق عيناه بالذكاء والطموح . وعلى الرغم من أنه لا يستطيع الكتابة فإنّهُ قادر على القراءة ويمكنه أن يكتب اسمه بالكامل بدلا من استعمال « الخاتم » عند قبض الرّاتبِ وطلب الإجازات . وهو إلى جوار اطلاعه فى الصحف والمجلات القديمة فإنه يمتلك مذياعاً صغيراً يستمع إلى برامجه الثقافية المتنوعة أثناء اللّيل . وكان أكثر ما يطربه أحاديث الاشتراكية .



ومرت الأعوام . . ونحن نتنقل بين السهول والجبال

ذات يوم تجرَّأ على بطانة الريس عبد الشكور وجالسهم بدون دعوة . وتدخل في كل حديث يدور . . مُعارضاً ومُجادِلاً . وكانت لجاجته هذه تسبب كثيراً من الحرج للريِّس لأنه كان يناقشه بعباراتٍ لا يستطيع الرَّد عليها . فالرجل لم يتعود إلا أن يكون آمراً أو مأموراً ، ووجد أنه لو تمشى مع الأقرع فى هذا الجدل فإن سطوته سوف تتعرض للاهتزاز .

وفى يوم أمره الريس أمراً فاعترض فنهره وأهانه . وأقسم الأقرع إنّه سيغادر معسكر الريس عبد الشكور . وإنه سوف يكون مجرماً إنْ رضى بالهوان والبقاء فى وادى العطشان . . ضمن المستضعفين .

والأقرع يعرف درباً بين الجبالِ يصل وادى العطشان بمعسكر الرئاسة فى وادى عسل ، وسوف يغنيه هذا الدرب عن استعمال الطريق الملتوى الذى تمر به السيارات خلال المنعطفات .

وبعد أن هدَّد بهذا وأقسم ، دخل خيمته وحمل « بقبحته » ونظرَإلى الناس قائلا بصوت ثائر مرتفع : إلى متى تبقون هنا . . وترضون بالذُّلِ والهوانِ ؟

فوجدَ نفسه مُلْقًى على الأرض مضرجاً بالدماء ، مكسور الفك منتفخ العيْنين وراح فى غيبوبة .

وأفاق الأقرع وفتح عينيه فوجد أنّه ممدَّدٌ على الأرض فى ظلام دامس ، ولم يعرف أهو محبوس فى مكان مظلم أم أن اللكمة التى تلقاها من عبد الشكور قد حولته إلى أعشى . وتبين بعد ذلك أنه مقيد بحبال غليظة ومُلقًى على الأرض فى خيمة قديمة وراء أحد التلال . ومرت عليه أيام عسيرة كان يُلْقَى إليه فيها بِكسَرٍ قليلة من الخبز اليابس وقليل من الماء تكفى فقط لبقائه ضمن الأحياء . وقضى على هذه الحال خمسةأيام ، عرف ذلك من تعاقب الليل والنهار . . الذى كان يرقبه من ثقب صغير فى أعلى الخيمة .

وذات ليلة سمع صوت سيارة قادمة ، وأرهف السمع فتبين أنها سيارة « جيب » . وبما أنها من هذا النوع فلا بد أن يكون فيها أحد الجيولوجيين . . ولكن لماذا يأتى أحدهم ليلا فى غير ميعاد العمل ، وبكى حينما توقع أن يكون رئيس البعثة قد علم بالخبر فأرسل من يحقق فى الموضوع ويقتص له من الريس عبد الشكور . ووصلت السيارة وإذا بداخلها رئيس البعثة نفسه . ولايعرف أحد كيف وصل إليه الخبر ، فقد قصد خيام العمال مباشرة . . وبعد تحية مقتضية دخل فى الموضوع وسأل الريس :

– أخبرنى ياريس عبد الشكور . أصحيح أنك ضربت جعفر الأقرع ، ضربة هشمت فكه وأنك تعتقله فى إحدى الخيام بعيداً وراء التلال ؟

وأجاب الرجل بالإيجاب ، فهو ماكر وداهية . قال :

– نعم ولوكان ابنى ما فعلت به أقل من ذلك ، لقد تحملت منه ياسعادة البك انصرافه عن العمل . . وحبه للجدل . ولكنى لا أتحمل أبداً وزره أمام الله ، إن خرج من وادى العطشان تحت جنح الليل حيث لا يوجد إلا ضوء النجوم ، يريد أن يمشى بين الجبال فى طريق غير معلوم ؟ ! فقيدته وحفظته فى الأمان لوجه الله العزيز الحكيم ، وعملت ليوم لا ينفع فيه مال ولابنون .

وكان هذا المنطق مثاراً لإعجاب الرئيس ، فأمر بالأقرع . . وأنّبه على تمرُّده وطلب منه الاعتذار للشيخ الطيب ! . . الريس عبد الشكور .

القصةُ الثالثةُ :

كانَ عمر العبادى يعمل فى أحد المعسكرات التابعة للمعسكر الرئيسى ! وقد بدأ الشعور بالظلم فى نفس الرجل . . حينما رأى بعض زملائه من العمال يعملون فى المعسكر ولايخرجون للعمل فى الجبال فى رحلات البحث والاستطلاع ، وشعر بأن

ما يقومون به من أعمال الطبخ فى « الميس » أو الخدمات شيئاً لا يذكر بالنسبة لطبيعة عمله الشاق .

وبدأت ثورته بأن قال للجيولوجى الجديد قائد المعسكر الصغير : أمِنَ العدل أن تعاملوا من يعيش فى المعسكر مترفاً فى ظل الخيام أو الكشك الصاج ، وأمامه الماء البارد طول اليوم ، معاملة من يبحثون فى الجبال ؟

وازداد سخطه حينما علم من أحد المثقفين أن العمل الذى يقوم به خطير . وأنه سوف يموت ناقص العمر بدون أن يدرى به أحد ، ولما سأل المثقف عن السبب قال له :

– ألست عامل تخريم ؟

قال : بلى .

فقال له المثقف :

– إن الوابور الذى تخرم به فى الجبل طول النهار ، يثير غباراً كثيفاً تستنشقه ويدخل فى جوفك . ألا تعلم أن هذا الغبار عبارة عن مادة اسمها اليورانيوم ، تسبب مرضاً خبيثاً اسمه السرطان ؟ ، إنه ينهش جسمك ويقتل خلايا الدم فيه ، وعليك أن تشرب كثيراً من اللبن كل يوم ياعمر ، وأن تتناول غذاءً قويًّا فقد يساعد على مقاومة السرطان .

فذهب إلى الجيولوجى ثائراً ، واحتد عليه . وحاول الجيولوجى الشاب أن يقنعه قائلا : ألست أنزل الخندق معك كل يوم ياعمر واستنشق معك الغبار وأننى معرّض مثلك لنفس الداء ؟ ، كما قال له إنه مقيد بلوائح الحكومة ولا يستطيع له شيئاً .

واحتدم النقاش عدة مرات إلى أن أصبح عراكاً يوميًّا .

وفى فجر أحد الأيام ، قفز عمر من السيارة الواقفة على أهبة الاستعداد

للخروج للبحث فى الجبال ، وأقسم أنه سيمشى على قدميه حاملا « زمزمية » من الماء إلى أن يصل إلى المعسكر الرئيسى فيشكو الجيولوجى الجديد إلى رئيس البعثة.

ولم يصدق أحد أنه سيركب رأسه وقدميه ، ويمشى وحده فى ذلك الطريق الوعر ، وأنه سيقطع المسافة سيراً على الأقدام . فتركوه فى المعسكر وخرجوا إلى عملهم اليومى المعتاد . ولكن عمر كان صادقاً فى قسمه . فخرج بعد تحرك السيارة بدقائق .

وكان يوماً من الأيام الطويلة فى حياته .

فقد كان ذلك فى شهر أغسطس الذى يكون لهيب الجبال خلاله ، ليس له نظير فى أى شهر من شهور العام ، ونفد منه الماء فى الربع الأول من الطريق وتورمت قدماه .

وصل عمر فى منتصف الليل والجميع ينام . فنبح كلب فى طرف المعسكر الفسيح وقام صاحب الخيمة ، فلربما هو جمل ضالّ اقتحم المعسكر ليمرح فى ساحته ويلقى « بالباستيلات » الصغيرة أمام الخيام . . أو ثعلب يبحث عن بطة أو دجاجة . فوجد عمر وقد أنهكه التعب . . .

وكان أول سؤال وجهه عمر إلى الرجل :

– من هو الرئيس فى هذه الأيام ؟

فعلم أنه محمد الغوابى .

وكان وقع هذا الخبر عليه أسوأ مما عانى طول يومه فى الفيفاء . وأسقط فى يده ، فهو يعرف أن الغوابى لا تأخذه رحمة بأى رجل يتمرد على من يقودون المعسكرات التابعه . .مهمها كانت الأسباب . وقد كان بوده أن تنشق الأرض فتبتلعه إشفاقاً من أن يقابل الغوابى وهو على تلك الحال . ولو أطاعه بدنه لرجع ليعتذر إلى الجيولوجى الشاب مهما كان اقتناعه بحقه فى التمرد . وأخذ يخبط كفًّا

بكفّ قائلا وهو غير مصدق للخبر :

– هل الغوابى من أهل الخطوة ، أوهو عفريت من الجن ؟ !

ثم سأل صاحبه :

– أمن المعقول أن يعود هذا الرجل من « بلاد بره » بهذه السرعة ؟ ! . يقولون إن البلد الذى سافر إليه أبعد مما يتصور الإنسان ، إنه فى آخر الدنيا ويفصلنا عنه جبال جرداء وبحر وريف ، ثم جبال أخرى سمعت أنها جبال خضراء فيها الزرع والأشجار ! فرد عليه الرجل قائلا :

– هل تعرف طائر الحديد الذى تراه صغيراً فى السماء ، وتسمع أزيزه فوق السحاب ؟ ، إنه أسرع من السيارة أضعافاً مُضاعفة ، وإن هبط على الأرض كان أكبر حجماً من عشرات الجمال ، يركبه أى رئيس ويمشى به فى الدنيا الواسعة التى لا نعرف نحن أبعادها . .

فاقتنع الرجل وأسلم أمره لله . ولم يغمض له جفن على الرغم من إرهاقه الشديد . وعندما علم الغوابى بالأمر فى الصباح ، نكل بالرجل وجعله عبرة لمن تسول له نفسه التمرد أو العصيان .

ومن العجيب أن هذا الرجل بالرغم من قسوة الغوابى عليه ، يكنّ له أعمق الحب والاحترام . فقد حدث بعد هذا الموضوع بأعوام أن كان عمر يعيش معى فى أحد الجبال ، وطلب منى أن يسافر إلى قرية على بعد سبع ساعات بالسيارة ، والطريق إليها شاق وعسير . وسألته عن سبب رغبته فى السفر ، فقال إنه يريد أن يذهب إلى كاتب القرية فيدفع له « شيئاً » (أظن مقداره عشرة قروش) ليكتب خطاباً إلى محمد الغوابى ، فقد استبد به الشوق إليه ، وعرضت يومها أن يقوم أحد من المعسكر بهذه الخدمة نيابة عن كاتب القرية فرد علىّ بأن الكبير (يقصد حكماء العبابدة) قال حكمة معناها أن عليك أن تعطى الشئ لصانعه ولو أتعبك فى الثمن ،

وكاتب القرية عنده من الأسلوب المنمق ما يليق برجل طيب مثل محمد الغوابى .

والواقع أن حب عمر للغوابى يرجع إلى حقيقة أساسية . لأن الشدة المعروفة عنه فى قيادة البعثات . . تحمل بين طياتها أمناً لهؤلاء الرجال العاملين فى الجبال ، فهم ينظرون إلى الرجل القوى نظرة كلها إعجاب واحترام ، ولأنهم فى وسط هذه الصحراء بما فيها من أخطار ، وبسبب خلوها من أى سلطة وضعية ، يقدسون قوة الرئيس حتى لو وصلت إلى درجة الاستبداد .

القصة الرابعة :

هذه قصة رجل حاق به الهم من طول عيشه فى الصحراء . .

كان صبحى – كما قلنا من قبل – سائقاً يعشق سيارته ولا يرضى أن يركبها سائق سواه . وهو إن طلب إجازة لنفسه فإنه يطلب إجازة فى نفس الوقت للسيارة ، فهو ليس بالساذج أو الدَّيُّوثِ الذى يسافر إلى بلده ويترك سيارته للآخرين يعبثون بها ويركبونها الواحد بعد الآخر . وفى كل مرة تقبل إجازته وتُرفض إجازة السيارة لحاجة العمل إليها ، فيتنازل عن إجازته مفضلا البقاء إلى جوارها والاستغناء عن رؤية أولاده وذويه .

وذات يوم تصرف تصرفاً عجيباً لا أفهم ماوراءه من ألم نفسى . .كان يعانيه .

كان صبحى يهوى صيد السمك من البحر الأحمر ، وله خبرة فى اصطياد « القرش » بسنارات ضخمة وأربطة متينة .

ذهب مرة إلى « القصير » لإحضار الماء بسيارته « اللورى » وتَّسلُّمِ البريد . ولكنه بدلا من أن يتوجه إلى المكثف ومكتب البريد ، ذهب إلى ساحل البحر الأحمر فى مكان قُتل فيه زميل من قبل بواسطة سمك القرش . وترك صبحى حذاءه على صخرة ناتئة فى داخل الماء ، كما ترك بعض أشيائه الخاصة ومنها أدوات الصيد

مقطعة الحبال بحيث يعتقد من يبحث عنه أن « القرش » جذبه بدلا من أن يجذبه هو ، ويتغذى على جسمه مثلما فعل بزميله من قبل ، ولما تغيب عن ميعاد وصوله . إلى البعثة أرسلوا للبحث عنه فى كل مكان بالقصير ، ثم ذهبوا خائفين إلى الموضع المشئوم من ساحل البحر . . فوجدوا حاجاته ، ورأوا سيارته واقفة بالقرب من الصخرة الملعونة وكأنها تنتظره حتى نهاية العمر .

وبالبرق أبلغ رئيس البعثة عن وفاة المرحوم صبحى ، وسافر وفد من الهيئة بالقاهرة إلى دمنهور . . لكى يبلغوا الأسرة الخبر الأليم ، ويقوموا بالنيابة عن زملائهم بتأدية واجب العزاء .

وطرقوا الباب ووقفوا منكسى الرءوس تترقرق من عيونهم الدموع . . يرتبون الكلمات ويختارونها بصعوبة ، ليكونوا منها عبارة يبلغونها للأسرة المنكوبة . وفتح الباب . . وبدءوا الكلام بدون أن يجرءوا على النظر فى وجه الشخص الذى فتح الباب . . ، وبعد أن انتهوا من قول الخبر الحزين . . نظروا فأخذتهم الدهشة . فقد وجدوا أنفسهم أمام المرحوم فعانقوه جميعاً فرحين . . وبعد أن زاولهم العجب وهدءوا . . سألوه : لماذا فعل ذلك ، فصمت طويلا ثم قال :

– زهقت والسلام

وربما كان صبحى يحتاج إلى كثير من العطف والرثاء ولو لبضعة أيام – فرحب بنزول العقاب الصارم عليه مقابل أن يحظى بهذا الرثاء .

* * *

الرحيل

فى إحدى أمسيات الخميس ، وصلت سيارة التموين الأسبوعية وبها برقية لها شأن كبير .

وما جاء فى تلك البرقية كان مهمًّا ، إلى الدرجة التى طار خبرها إلى كل مكان فى بلاد العبابدة ، وعلم بها السكان سواء من يعمل منهم فى البعثة الجيولوجية ، أو الرعاة فى الجبال . كما امتد خبرها إلى العبابدة ذوى الاستقرار النسبى على مشارف البلاد ، وعلم بها أهل « القرى المنجمية » التى لم يكتمل نموها بعد . . مثل قرية حماضات والفواخير وكذلك التجار الذين يتعاملون مع رجال البعثة منذ سنوات .

البرقية مرسلة من الدكتور رئيس البعثة الموجود بالقاهرة موجهة إلى « البعثة » . . يطلب نقل المعسكر الرئيسى بوادى عسل . . وكذلك المعسكرات التابعة له سواء فى وادى العطشان أو وادى الكريم ، إلى جبل أم نقاط ، كما يقول

إنه سيصل إلى « قنا » فى قطار الوحدة (أى المجرى) بعد خمسة أيام ، ومعه خبراء يوغسلاف سوف يعملون معنا لمدة شهر واحد ، ويطلب أن تنتظرهم سيارتان لاندروفر ولورى لنقلهم إلى مكانهم فى المعسكر الجديد .

وما إن تسربت أخبار البرقية إلى خيام المعسكر المتناثرة فى وادى عسل ، حتى سارع البعض بطبخ ما وصل إليهم من طعام ، وأكلوه دفعة واحدة حتى لا يفسد فى أثناء النقل وبالذات اللحوم . وسد ديونه للرعاة كل من عليه دين ، وأرسل بعضهم حساب محمود لواس التاجر بالقصير ، أو أرسل له خطاباً يصبره فيه ويطمئنه أنه لن ينساه عندما يقبض المتأخر له من بدل الصحراء . وذهبت السيارة التى تنقل معها تموين الرجال الموجودين فى المعسكرات التابعة بوادى العطشان والكريم . . برسالة من رئيس البعثة بالنيابة . . الجيولوجى حسن عساف بأن يستعدوا للرحيل ، ولكى يبلغهم أن الغد الجمعة ليس راحة . . ولن يذهب أحد منهم إلى القصير ، وعليهم أن يستغلوا يوم الراحة فى خلع الخيام « وترتيب » المعدات ، على أن يكون الرحيل فجر السبت .

وتوسط أهل الخير طالبين من الرجل الطيب أن يمهلهم يوماً ليطبخوا فيه طعامهم ، وأن يسمح لهم بالذهاب إلى القصير فى ترفيهم الأسبوعى المعتاد لكى يصلُّوا الجمعة فى الجامع . . ويسددوا بعض ديونهم ، فأذن لهم ، وحدد للرحيل موعداً آخر هو فجر الأحد بدلا من فجر السبت ، وإنّ له فى هذا نظرة حكيمة ، وهى أن يجعل مساء السبت يوم التجمع فى المعسكر الرئيسى بوادى عسل ، حتى يخرج الجميع فى قُول كبير إلى المنطقة الجديدة بجبل أم نقاط .

قال عساف :

– أريد النظام والسرعة أيها الرجال فى خلع المعسكر ، وأهم شىء الخرائط

عليكم بحفظها فى صناديق مغلقة توضع فى سيارة لا يشاركها فيها « خزانات » الماء أو الوقود ، وأما أصول الخرائط فإنها سوف تبقى فى سيارتى فهى إنتاج البعثة كلها خلال السنوات الماضية . وإذا ما انتهيتم من خلع الخيام وفك الأكشاك وتحميل السيارات بالمعدات ، عليكم أيها السائقون باتباع النظام . سيارتى ستكون الأولى . . تتلوها سيارة الجيولوجيين ثم باقى العربات الجيب ثم سيارات النقل الثقيلة . وعلى كل سائق أن يعرف من معه من رجال وما معه من معدات . وممنوع عليه تجاوز السيارة التى أمامه أو ينحرف عنها ليسلك مدقاً أو طريقاً آخر على أمل أن يلتقى بالقول بعد فترة معينة فقد يضل الطريق ، كذلك عليه أن يراقب السيارة التى خلفه طول الرحلة . فإن مشت سيارتى مشيتم جميعاً وإن توقفت توقفتم جميعاً .

* * *

ولم يكن خبر الرحيل شديداً على الرجال وحدهم ، فقد كانت وطأته أكثر على الحيوان . وكان أكثر الأجناس ذُعراً . . جماعة الكلاب . .

كان سلوكها يدل على أن القلق على المصير والمستقبل اشتدت وطأته . .

فقد ولدت وترعرعت فى معسكر البعثة ولا تعرف لها مكاناً آخر ، وبين يوم وليلة وجدت الخيام ، تقلع من أوتادها وتحمل فوق السيارات الضخمة . وأما الأكشاك فكان لإزالتها وقع أشد على هذه الكلاب ، فقد عهدتها ثابتة فى أماكنها منذ أن رأت النور لأنها كانت تصمد أمام الدوامات الهوائية أكثر من الخيام .

وبعد أن زالت ملامح المعسكر وبدأ الناس فى التحميل ذعرت معظم الكلاب عندما رأت المحسوبية واضحة ، فالكلاب أيضاً منازل ودرجات ، وتتوقف منزلة كل كلب على منزلة صاحبه ومركزه الاجتماعى بالبعثة ، ويستمد الكلب وضعه بين الكلاب من شخصية صاحبه بين الرجال ، فهذا كلب الريس عبد الشكور له مكان فى السيارة ، وكلاب السائقين لكل منها مكان محفوظ ، وكذا كل كلب

يكون من محاسيب أحد أعيان وادى العطشان . ولا شك أيضاً أن كلب الرئيس هو بالتالى رئيس الكلاب .

وقبل غروب شمس يوم السبت تحركت السيارات من المعسكرات التابعة للبعثة . . الموجودة فى وادى العطشان ووادى الكريم لتتجمع كلها فى معسكر رئاسة البعثة بوادى عسل . وذعرت الكلاب التى ليس لها واسطة تؤهلها لركوب السيارات . لكنها لم تفقد الأمل فقطعت الطريق جرياً وراءها ووصلت إلى المعسكر الرئيسى فى الهزيع الأخير من الليل قبل رحيل القول الكبير . وقد ظنت تلك الكلاب المسكينة أنها حققت أمنيتها عندما وصلت سالمة ، وأن المعسكر الرئيسى هو غاية الرحلة ، ولم تعرف أن الرحلة الكبيرة لم تبدأ بعد . ولكن لم يلبث القلق أن ساورها من جديد عندما لاحظت الاستعدادات للرحيل الكبير .

التفّت الكلاب . . وكلها أقارب . . حول زعيمها وولى نعمتها وسبب وجودها فى تلك الأماكن عبد الرحمٰن الذهبى ، الذى جاء بجدها وجدتها منذ سنوات إلى تلك البقاع . . ، كأنما تسأله عن مصيرها هنا بعد الرحيل . وعبد الرحمٰن يشفق عليها كل الإشفاق ولكن ما باليد حيلة ، فهو لا يستطيع أن ينقلها كلها إلى المكان الجديد ، وقد اختار منها ذكراً وأنثى سينشئ بهما قبيلة جديدة من الكلاب ، كما فعل نوح عليه السلام .

وما كاد الركب يتحرك فى الفجر حتى نبحت الكلاب التى جاءت من المعسكرات التابعة والتى سافرت طول الليل . . نباح الاحتجاج ، لأنها مجهدة ولا تستطيع مواصلة الجرى وراء العربات ، وقد أدرك بعضها اليأس حينما شعرت بأن هناك رحيلا أكبر فلم تستطع القيام من أماكنها للحاق بالركب ، فتركت نفسها لمصيرها المجهول .

ومع تحرك القول ، جرت جماعة كبيرة من الكلاب خلف السيارات فى منظر

مهيب ، شباب الكلاب . . ذوات الصحة والفحولة فى المقدمة ، والحوامل وكبار السن والجراء كانت فى المؤخرة . وقد واصلت الجرى منذ الفجر حتى اشتدت حرارة الشمس فى التامنة صباحاً ، وأدرك اليأس بعضها فى أثناء الطريق . فرقدت يائسة لا حول لها ولا قوة ، وتسلح البعض الآخر بالأمل لأن الركب لم يكن يمشى بسرعة كبيرة بسبب الغرز والمطبات بالإضافة إلى الأثقال .

وربما كان كل كلب يحادث نفسه وهو فى ذروة الإجهاد ، عن غدر الإنسان ووفاء الكلاب ، فهو منذ نشأته فى وادى عسل كان يحرس خيمة صاحبه فى أثناء غيابه ، وكثيراً ما هجم الثعبان على صاحبه هذا وهو راقد على الأرض لا يدرى من أمر نفسه شيئاً ، فتصدى له وعرض نفسه للهلاك وقتل الثعبان دفاعاً عنه وهو يغط فى نومه من الإرهاق . . ولم يستيقظ على الرغم من شراسة المعركة التى كانت تدور على بعد قفزة واحدة منه . وكلما ارتفعت الشمس فى أفق الصحراء تناقص عدد الكلاب ، إلى أن أصبح قرصها متوهجاً فى كبد السماء ، وبقى كلب واحد فى ريعان شبابه . . قوى العزيمة . . شديد البأس ، له من اللياقة والصحة ما مكنه من مواصلة الجرى . ولكن العزيمة لها حدود لا يستطيع الإنسان أو الحيوان تجاوزها على كل حال ، فقد أدركه اليأس أخيراً وأنهكه الإجهاد ، فرقد فى بطن الوادى مستسلماً ينظر إلى الرّكب وهو يختفى فى أفق الصحراء . . لا يطيعه بدنه لتحقيق حلمه فى النجاة وأمله فى الحياة . ومن حسن حظ الكلب أن أصيبت إحدى السيارات بعطب طارئ ، فقام من رقدة اليأس واستأنف الجرى إلى أن وصل إليهم ، فقفز فوق ظهر السيارة ورفض بعشم أن ينزل منها وأخذ يستعطف الرجال بكل ما أوتى من مواهب التملق التى ميزبها الخالق جنس الكلاب . . بذيله وفمه ويديه ودموعه ، حتى رق له رجل من أولى الأمر فوافق على بقائه معهم . وهكذا فإن البقاء للأصلح حتى فى عالم الكلاب .

فى جبل أم نقاط

وصلنا إلى جبل أم نقاط فى الهزيع الثانى من الليل ، وبدأ الرجال فى « تعتيق » الخيام من فوق سيارات النقل ، والأدوات الضرورية الخفيفة اللازمة لقضاء الليل مثل البطاطين وبعض الأطعمة المحفوظة من سيارات الجيب . وتركنا المعدات الأخرى فى سيارات النقل حتى الصباح.

ونشط الطبّاخون لإعداد طعام سريع به نسبة كبيرة من الرمال . ولم يكن فى الليلة الأولى استقرار ، فمن وجد له مكاناً فى « كابينة » إحدى السيارات فهو حسن الحظ ، ومن عثر على غطاء فقد فضل النوم على ظهر سيارة . ومنهم من نصب خيمة مؤقتة بالاشتراك مع أقاربه أو بلدياته وناموا فيها على الأرض حتى الصباح . ومع الخيوط الأولى من النهار هبَّ الناس إلى إنشاء المعسكر . وكما هو المعتاد فإن الخطوة الأولى هى تطهير الوادى من شجيرات الشوك ، سواء بخلعها أو إشعال النار

فيها ، فهبت الحشرات المحتمية بها من رقدتها ولحق الرجال ببعض العقارب والثعابين فقتلوها ، وهرب أكثرها بعيداً . وكان الممرض فى أثناء عملية التطهير يقظاً ومعه الحقن مجهزة ، استعداداً لغوْثِ أى مصاب . ولم تقع غير حوادث طفيفة ، عبارة عن لدغ العقارب ، وهى بسيطة إذا قورِنَت بحوادث « الطريشة » التى لم تصب أى أحد بسوء .

ولما جاء الأصيل كان المعسكر قد اتخذ نظامه المعتاد ، واستقر الجميع فى خيامهم آمنين .

وفى صباح اليوم التالى كان أمامنا مشكلة اختيار ، فقد كان نفس اليوم الذى سيصل فى مسائه رئيس البعثة ومعه الخبراء اليوغسلاف إلى قنا ، وعلى السيارات أن تذهب لإحضارهم . وفى نفس الوقت لم يكن هناك ماء فى المعسكر ، ولم يكن من الممكن أن تؤدى السيارات المهمتين فى يوم واحد .

وأعلن واحد منا أن له معرفة وثيقة بمدير منجم أم غيج . . فقد كان زميلا له فى كلية العلوم جامعة الإسكندرية ، وهذا المنجم هو أحد المناجم الموجودة على ساحل البحر الأحمر ، ينتج الزنك والرصاص ، ولايبعد عنا إلاساعات قليلة بالسيارة ، واقترح أن يذهب إليه ويقترض منه كمية من الماء ، وبذلك تستطيع السيارات أن تكون فى قنا وقت وصول الضيوف

وفى منتصف الليل رأينا أضواء السيارات تضىء قمم الجبال البعيدة ثم سمعنا أصواتها قادمة نحو المعسكر .

وعرفنا منزلة كلٍّ من القادمين قبل التعارف ، من نوع السيارة التى يستقلها وموضعه فيها . نزل من السيارة الأولى الدكتور حسين عبد المحسن رئيس البعثة المصرى ، ومعه رجل أوربىّ أحمر الوجه نحيف الجسم كث الشارب ، عرفنا بالطبع أنه كبير اليوغسلاف . ومن السيارة الثانية نزل أوربيّان آخران عرفنا أنهما

جيولوجيان . ومن « اللورى » نزل شابان لاشك أنهما مساعدان للجيولوجيين .

وبدأ الدكتور حسين يعّرفنا بأسماء ضيوفنا اليوغسلاف ، ودخلنا خيمة الميس ، ودار الحديث باللغة الإنجليزية . وكان رئيس البعثة المصرى ورئيس اليوغسلاف هما نجمى الجلسة ، فقدكان مراسهما فى اللغة يسهل لهما تناول كل الأمور ببساطة وبدون جهد .

وقال الدكتور ديمترى ديمترفتش كبير الأجانب أنه كان سعيداً طوال رحلته عبر الصحراء الشرقية من قنا إلى ساحل البحر الأحمر . . لما وجده من تراكيب جيولوجية رائعة . وقال إن الصحراء المصرية مدرسة نموذجية لعلم الجيولوجيا لا تتوفر فى شبه جزيرة البلقان أو فى أى مكان آخر من أوربا ، ويرجع ذلك إلى أن جبالها مكشوفة وليست مغطاة بالغابات كما هى الحال فى بلادهم . وقال إنهم سوف يشتركون معنا فى العمل لمدة شهر واحد فقط لكى يستفيدوا من الوسائل التى نتبعها فى التنقيب عن المعادن فى الصحراء . . والتى نشرت فى المؤتمرات العلمية ، وأنهم قد وجهوا إلينا الدعوة لزيارة بلادهم لكى نرى نحن أيضاً على الطبيعة طريقة التنقيب فى الغابات . وبذلك يكون كل فرد من الجماعتين مُلماًّ بطرق التنقيب فى الصحراء والغابة .

كنا نفهم كل ما يدور بالإنجليزية ولساننا لا يساعدنا على النطق . ولكن عقدة لساننا حلت ، عندما وجدنا أن زملاءنا اليوغسلاف يتهيبون الكلام بالإنجليزية مثلنا ، وأن جهلهم بها أكثر منا ويسألوننا فى معانى كلمات بسيطة ، فازدادت ثقتنا بأنفسنا وأصبحنا بعد فترة وجيزة نتكلم الإنجليزية ونتعامل بها بلا خشية أو خجل من الأخطاء .

وكانت الليلة التالية هى ليلة رأس عام ١٩٦٣ . وأقيمت بتلك المناسبة وليمة كبيرة تحمَّل الجانب المصرى فيها ثمن الطعام وأما الجانب اليوغسلافى فكان

عليه الشراب ، لأن معظم الاعضاء المصريين أفادوا بأنهم لا يشربون الخمور .

وقد أشرف إبراهيم القصاص على الحفل ، فأمر بخيمتين كبيرتين فنصبتا بطريقة متصلة وصفت بداخلها الموائد ونظمت المقاعد بحيث يختلط اليوغسلاف تماماً بالمصريين حتى تنمو الصداقة وتزول الكلفة ، وعجيب أن كُلاً منا دخل خيمة الحفل – وبدون أى اتفاق فيما بيننا – أنيقاً حليق الذقن ، يلبس زى السهرة كاملا ورباطاً للعنق ! ، كأنما نحن مدعوون إلى حفل فى مكان رسمى عظيم ، وليس فى خيمة على سفح جبل أم نقاط وقال كلٌ منا لزميله لقد فعلت هذا لأن الليلة فرصة لكى أشعر بالمدنية وأنسى شظف العيش فى الصحراء .

وقام رجل من اليوغوسلاف فأعلن أنه لن يكون لتلك الليلة جمال حقيق إلا بوجود المرأة ، ونزع ورقة بيضاء كانت ملصقة على المنضدة فى الجانب الأيمن منه فإذا صورة لامرأة بارعة الجمال ، قال إنها زوجه ، فهو لا يستطيع أن يقضى ليلة رأس السنة إلا معها . وطلب من كل منا أن ينزع الورقة التى بجواره ليلتقى بصديقة أعدها له .

وبدأ البرنامج فكان به من الألعاب والدعابات ما أسعد الجميع . وامتد اللهو والسمر حتى ساعة متأخرة من الليل . وفى نهاية الحفل كانت آخر فقرة فى البرنامج عبارة عن سؤال موجه إلى كل فرد من المحتفلين :

– ماهو الأمل الذى تتمنى أن يحققه لك العام الجديد ؟

والتقى الجميع على أمل واحد ، أن تزداد صداقة البلدين ، وأن ينمو التعاون العلمى والتكنولوجى بين دول عدم الانحياز ، وأن ينجح الجيولوجيون المصريون خلال العام الجديد فى اكتشاف مواقع مهمة لليورانيوم فى صحراء مصر الشرقية .

سائق الوزير

ذات يوم . . جاء سائق جديد إلى معسكرنا فى وادى الدباح . . وهو أحد أودية الصحراء الشرقية الذى حططنا فيه ، واستقر بنا المقام فيه لمدة عام أو يزيد .

كان هذا السائق مؤدباً خفيض الصوت . . طيب الطباع ، لديه أسلوب مهذب ارتاح إليه الرجال الذين قست عليهم الصحراء . . فأكسبت طباعهم الخشونة والجفاف .

وقد احتل الرجل منزلة طيبة بين القوم ، بما كان يقصه عليهم من حكايات جميلة تخلب لب سكان الجبال . كان بمثابة رسول « الأبهة » إليهم . يكفى أنه شاهد الوزير بنفسه ، وأن الوزير يعرفه معرفة شخصية ويناديه باسمه ، وأن أهل بيت الوزير يعرفونه أيضاً وهو يعرفهم . . معرفة وثيقة .

وتساءل البعض أسئلة بسيطة ، لكنها رفعت من شأن الرجل ومكانته ، منها

على سبيل المثال :

– وهل الوزير يعرف رئيس البعثة ؟ ،

واستبعدوا جميعاً هذا الخاطر.

كانوا ينظرون إلى سائق الوزير باحترام كأنه رحّالة جاء من مملكة أسطورية فى عالم بعيد . . كل ما فيها فخم وعظيم .

إن سائق الأكابر له دلال عليهم وحظوة بينهم أكثر من كبار الموظفين . إليكم مثالا مع الفارق لكنه يوضح منزلة هذا الرجل فى الحكومة :

– هل يقدر أحد منكم أن يمزح مع رئيس البعثة حتى لو كان من المعيدين أو المهندسين ؟ . إن سائقه يستطيع . . فقد ضاعت الكلفة بينهما على الطرق الطويلة . . فى السفر البعيد .

وجاء يوم فقد سائق الوزير هيبته فى وادى الدباح ، عندما تعرضت خبرته لأول مواجهة حقيقية مع الصحراء .

فقد كانت كفاءة الرجل كسائق للوزير تتمثل فى طباعه المهذبة بالإضافة إلى أنه سائق جيد على كل حال فى الطرق المرصوفة .

لكن قيادة السيارات فى الصحراء تحتاج إلى تدريب من نوع خاص ، وبالذات خلال رحلات الاستكشاف ، حيث تضطر السيارة إلى أن تمشى فى مناطق متباينة مجهولة لم تسبقها إليها من قبل سيارة أخرى . ومطلوب من السائق فى تلك الرحلات أن يلبى أوامر الجيولوجى بصعود التلال والجبال ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وألا يتملكه الخوف إن طلب منه أن يهبط بسيارته من على جُرْفٍ عظيم ، أو أن يصعد فى طريق ضيق يكاد أن يضيق بإطارات السيارة . . على كل من جانبيه هوة سحيقة قاتلة .

كذلك مطلوب من سائق الاستكشاف أن يكون « ميكانيكى » من الطراز

الأول ، يستطيع أن يعود بسيارته بأى وسيلة يبتدعها إلى المعسكر الأصلى إذا انتابها أى عطل فى الجبال .

ولقد بقى سائق الوزير فى معسكر وادى الدباح مدة شهر كامل لم يمر خلاله بامتحان صعب يبين مهارته أو جرأته كسائق بمفهوم الصحراء ، فقد كان خلال ذلك الشهر مُكلفاً بتوصيل « وردية » ثابتة المواعيد إلى موقع بعثة « الحفر » فى وادى العطشان ، والطريق إليه شبه ممهد . . كما أنه أصبح مأهولا ومعلوماً لدى الجميع .

* * *

كان علىّ أن أخرج ذات يوم فى إحدى رحلات الاستكشاف إلى منطقة اسمها « وادى أبو جرادى » فى الجنوب ، ترتفع أرضيتها عن مستوى وادى الدباح بحوالى ثمانين ومائة متراً ولذلك فإن الطريق إليها عبارة عن « مطلع » طويل خلال صدْع قديم ممتلئ بحطام الصخور .

وطلبت من ملاحظ السيّارات أن يجهز سيارة على أن يكون معى رجلان من العمال غير السائق .

ووقع اختيار الملاحظ على سائق الوزير .

* * *

وبعد السحور . . أدار السائق سيارته وجلست بجواره ، وقفز فى الصندوق الخلفى « جمعة » العبادى ، ورجل من القليوبية اسمه محمد وشهرته « الفلاّح » ، وقد اشتهر بين رجال البعثة بهذا اللقب . . ليس لأنه الوحيد الذى كان يشتغل بالزراعة قبل التحاقه بالبعثة ، ولكن هكذا كان يلقبه زملاؤه الصعايدة ، لأنه فلاّح من الوجه البحرى .

ولما انتهت السيارة من وادى الدباح كانت قد بذلت جهداً كبيراً فساءت حالها وسخن المحرك .

تركنا الوادى الرئيسى ودخلنا فى معبر صعب يحيط به جبلان ، وتوجد به كتل ضخمة من الصخور يصل حجمها إلى حجم الكوخ أو يزيد ، بعضها بارز على الأرض والبعض الآخر مدفون فى الرمال بدرجات متفاوتة ، كنا نجرى بينها وأحياناً فوقها أو تحتها . . أو نمرق من بينها ، وكانت جذوع من الأشجار المخلوعة . . رمت بها السيول ، تعترض السيارة بين الحين والآخر . كذلك فقد كان هذا المعبر ملتوياً كالثعبان وفيه من الانخفاضات والارتفاعات المفاجئة ما أفقد السائق أعصابه . . والسيارة اتزانها . . فسقطت فجأة من فوق جلمود ضخم وغرست مقدمتها فى تراب أحمر سميك . وأصبحت عجلاتها الخلفية معلقة . . تدور فى الفراغ .

نزلنا من السيارة وبذلنا كل جهد حتى عادت إلى وضعها الطبيعى . وأبديت رغبتى فى الصعود إلى قمة الجبل المتاخم ومعى الرجلان فأبدى السائق رغبته فى الكشف على المحرك إلى أن نعود . ولما عدنا إليه وجدناه جالساً على الأرض فى ظل سيارته واجماً . . يضع يده تحت خده ، والسبب أنه أراد أن يصلح السيارة فأفسدها تماماً وأخلف تقسيمة الكهرباء .

* * *

أصبح لا يوجد أمامنا أى حل إلا « المشى »

قررت أن يبقى السائق بجوار السيارة ، ونمشى نحن إلى المعسكر الرئيسى بوادى الدباح فنحضر نجدة لسيارته المعطلة .

كانت الساعة قد جاوزت التاسعة صباحاً بقليل ، واشتدت حرارة الشمس حتى أخذ العرق يتصبب من وجوهنا قبل أن نبدأ مسيرتنا . قلنا إننا لا نريد ماءً كثيراً لأننا صائمون ، وإننى سوف أقودهم بين الجبال مهتدياً بالبوصلة والخريطة فى طريق مباشر لا تستطيع أن تمشى فيه السيارات . صحيح أننا سوف نتسلق خلال مسيرتنا بعض الجبال ولكنه على كل حال طريق أقصر بكثير من طريق السيارات .

ودخلنا فى خور ضيق طويل به غرز شديد. كانت أقدامنا تغوص فيه حتى الركبة ونخلعها بصعوبة وجهد فى كل خطوة. وجاء وقت الظهر فاستبد بنا العطش ولكننا حافظنا على صيامنا وتيممنا ثم صلينا. كان معنا زمزمية صغيرة واحدة مصنوعة من المشمع أخذناها على سبيل الاحتياط وكان الماء يتبخر منها فيفقدها الجزء الكبير، وقدرنا أنه إذا جاء علينا المغرب ونحن فى الطريق فلن نجد فيها ما نشرب، لذلك فقد أخفاها واحد من الرجلين تحت جلبابه ليقيها أشعة الشمس المحرقة.

وفى الساعة الثانية بعد الظهر كنا أمام جبل عظيم علينا أن نتسلقه ونهبط منه إلى الاتجاه الآخر. وكلما ظننا أننا اقتربنا من القمة وجدنا بعدها ثابتاً كأننا نمشى بلا حركة.

ووصلنا إلى جزء من الجبل هو أصعب مرحلة فى الرحلة. فقد كان هذا الجزء مكوناً من « الركام » . . وهو عبارة عن حطام وفتات من الصخور المفككة، ولكننا تسلقنا بعزيمة ومثابرة وما إن وصلنا إلى منتصف الجبل حتى مادت بنا الأرض وهوى الركام من تحتنا. أخذنا نقاومه بإصرار. . أقدامنا تتسلق بسرعة فى حين يجذبنا الركام نحو السفح. كررنا المحاولة مراراً. . نسوق أقدامنا بإصرار نحو القمة فنجد أنفسنا مسلوبى الإرادة تماماً متجهين بظهورنا إلى أسفل.

بلغ منا التعب مداه، وأصبحت أقدامنا ترفض المحاولة. ولكن لم يكن أمامنا أى حيلة إلا تجاوز منطقة الركام.

قررنا أن نستريح ثم نحاول من جديد. فخلع الرجلان جلبابهما وعملنا منها مظلة واستلقينا تحتها على ظهورنا.

قال لى محمد الفلاح :

— أريد أن أفضى إليك بسرٍّ يا أستاذ، وإنك أول من أبوح له به.

قلت :

– قل ما بدا لك يا محمد

– هل تعرف الدكتور (. . . . .) ؟

– نعم . . وإن مركزه كبير .

– هو من أهل قريتى وقريبى من بعيد ، وسوف يتوسط لى عند المسئولين أن أنقل من هذه الصحراء وأعود للعمل بالهيئة . ولم أتكلم . فسألنى قائلا :

– لماذا لا تبحث لك عن عمل آخر ؟ .

ولم أجد جواباً أستطيع أن أقنعه به فى ذلك الوقت الذى وصلنا فيه إلى غاية التعب والعطش ، ربما لأننى من حيث لا أدرى كنت أسأل نفسى السؤال ذاته . ولكن الفلاح عاود الكلام :

– إننى رجل أُمِّىٌّ ، وأتكلم على قدر ما أفهم . ماذا تصنعون فى هذه البقاع ؟ ولماذا تقضى شبابك بين الجبال ؟ . ألا تعرف رجلا كبيراً يتوسط لك لتنقل إلى القاهرة ؟ . إننى يا أستاذ شخص ضعيف ولكننى مستعد أن أكلم لك قريبى الدكتور ليساعدك .

وقلت إن هذه مهنتى التى لا أعرف سواها ، وإننى هنا باختيارى وماتعلمت فى الجامعة إلا لكى أعمل فى تلك البقاع .

لكن الفلاح لم يقتنع وقال :

– أليست مهنة التاجر خيراً من مهنتكم هذه ؟ . لماذا لا تفتح « دكان مانيفاتورة » فى بلدك وتجلس فيه ؟ . لا تؤاخذنى ياأستاذ فأنا أعرف راتبك الشهرى . إن تاجر القماش فى قريتنا يكسب أضعاف راتبك ، كما أن مركزه فى البلد كبير ، لا يقل أبداً عن مركزك فى تلك البعثة ، إن لم يكن يزيد .

ولم أستطع وقتها أن أقنع الفلاح .

قمنا لنواصل تسلق الجبل ، وبعد كفاح طويل وتكرار المحاولة متعاونين وصلنا إلى القمة وبدأنا فى الهبوط إلى الجانب الآخر.

وهبوط الجبال الوعرة أصعب بكثير وأخطر من تسلقها . وأعترف أن منطق الفلاح قوى فى نفسى عدة مرات خلال الهبوط ، وأن سؤاله أخذ يتردد فى أذنى مع كل سقطة أو جرح أصاب به على أثر تشبثى بصخرة واهية . . أو وقوفى على أرضية معلقة . .

— أليست تجارة القماش خيراً من مهنة الجيولوجيا ؟ !

ولا أدرى . . كيف حدث ذلك بهذه السرعة الخاطفة . .

بمجرد أن اختفى قرص الشمس الأحمر وراء الأفق هجم واحد منا على الزمزمية واختطفها منه الاثنان الباقيان بسرعة وهمجية نسينا فيها الحواجز المكتسبة والتحفظ ، ونسينا لحظتها آداب الصيام . ومع هذا وجدناها فارغة تقريباً فقد تبخر الماء كله ، ولم تزدنا الآثار المتبقية التى بللنا بها شفاهنا إلا عطشاً .

وصلنا إلى معسكر البعثة بعد العشاء ونبحت الكلاب ونحن نهبط جبل الدباح وهو آخر جبل تسلقناه ، فهرع إلينا الناس لأنهم عرفوا ما حدث بمجرد سماعهم نباحها .

ووجدت نفسى أتوجه بلا وعى إلى خيمتى . لم أشعر بجوع أو تعب ، كل ما كنت أشعر به . . عطش مميت طغى على أى شعور آخر . وكان بداخل الخيمة « باستيلة » من الماء الممتلئ بالديدان الصغيرة ، جئنا به من بئر عطنة فى الصحراء بغرض الاغتسال لكى نوفر الماء النقى الذى نحضره من مكثف القصير أو من نهر النيل . لم أصبر حتى أصل إلى مكان الماء النظيف بل وجدت نفسى بدون تحكم أعب من الماء العَطِن . . وكلما شربت ازددت عطشاً . ونمت فى غيبوبة أسلمتنى إلى المرض .

وتعلمت من هذه التجربة أنه إذا ازداد العطش بالرجل فى الصحراء فإنه قد يصل إلى درجة يطلقون عليها « درجة الاحتراق » إذا تجاوزها يكون شرب الماء أخطر عليه من العطش ، فقد يمرض مرضاً شديداً إذا شرب بطريقة مفاجئة وبكمية كبيرة ، وربما يموت من الشرب بدلا من أن يموت من العطش . ومن الحكمة أن يُعْطَى قليلا جدًّا من الماء . . وتزداد الكمية على فترات ، ويمنع عن تناوله بنفسه حتى ولو بالقوة . وقال لى بعد ذلك رجال من أصحاب الخبرة إنه فى هذه المرحلة تكون أحشاؤه محترقة ، وسألنى أحدهم ليقرب لى المعنى .

– ماذا يحدث لو أن سيارة ما . . سخنت إلى درجة الاحتراق ثم صب عليها الماء البارد فجأة . . ألا يتصدع محركها ؟

وعلمت بعد ذلك أن الرجال تركونا نائمين واقتفوا أثر سيارتنا إلى أن وصلوا إلى سائق الوزير وسحبوا سيارته إلى المعسكر .

وقد تعرض السائق للنقد اللاذع والسخرية وازدادت مع الأيام . وأصبحت قصته تسلية لهم جميعاً . . فى فراغ الصحراء . وحاولت أن أوضح لهم الظروف الصعبة التى مررنا بها فى الطريق ، وأن الرجل قد أخلف تقسيمة الكهرباء بحسن نية ، ولكن هذا لم يزدهم إلا هجوماً عليه وازدراءً له . ولم يشفع له حسن خُلُقه أو حسن نيته ، لأن الصحراء القاسية لها منطق لا يحترم إلا القوة . . ومن أهم مقومات القوة « الكفاءة » . وكما أن القانون فى المجتمع المتحضر لا يرحم من يجهله ، فإن قانون الصحراء . . لا يحترم إلا الأكْفاء .

وظلّ الناس يهاجمون الرجل الطيب . . إلى أن ترك لهم وادى الدباح . . وعاد إلى القاهرة ، ليقود من جديد . . سيارة الوزير .

الحكيم والذئب

الذئب شخصية محترمة . . فيه من الشجاعة ومن صفات الرجولة ما يجعلك تحترمه مهما كان عناده ساعة المعركة . والإنسان فى عراكه مع الذئب ليس من الضرورى أن يكون فى جانب الحق دائماً . قد يكون الإنسان ذئباً أكثر من الذئب ذاته .

حدثت المعركة بين رجال فى جانب الباطل . . وذئب عظيم فى جانب الشرف والدفاع عن نفسه وعن زوجه وبيته . بدون سبب هاجمه الإنسان . فوجىء به ركاب العربة « اللاندروفر » أمامهم ومعه زوجه الذئبة . . يتنزهان فى هدوء وسلام . .

المنطقة فسيحة جدًّا . . من سوء حظ الزوجين . والسيارة « اللاندروفر » أكثر العربات كفاءة فى الصحراء ، ويقال إنها صممت خصيصاً للصحراء المصرية ،

و « الحكيم » سائقها . . معتز بمهارته ، وهو من أكفأ السائقين فى عمليات الاستكشاف والاستطلاع ، إذا طلبت منه أن يصعد فوق الجبل بالعربة لصعد . . وإن طلبت أن يهبط بها كالطائرة من فوق حافة قاتلة لهبط بها ، فماذا تظن أنه فاعل بذئب وذئبة وجدهما أمامه ؟

استأذن الحكيم . . « مصطفى السيد » . . الجيولوجى الذى يجلس بجواره فى أن يهاجم الذئبين . . فسمح له . وما إن سمع الإذن حتى اندفعت السيارة بسرعة رهيبة فى اتجاههما ، وفرق الحبيبان من هول المفاجأة وتفرقت بهما السبل . اتخذ الذكر حافة التل الغربى واتخذت الأنثى حافة التل الشرقى . شعر الحكيم بنشوة النصر . . لقد استطاع أن يفرق بين الذئب وزوجه . انحرف الحكيم نحو الغرب وصعد حافة التل بالعربة وجرى فوقه فى أعقاب الذئب ليرده إلى الأرض الفسيحة . . احتكت العربة بجوار التل فأحدثت دويًّا استشاط له كلٌّ من الحكيم والذئب غضباً . . أخذت العربة تقفز من فوق الصخور . الذئب ذكىّ . . يعرف أن الحكيم يريد أن يبعده عن التل ويخرجه إلى الخلاء . . أخذ يدور حول التل على حافته والعربة من خلفه تقفز بجنون وتتأرجح .

مصطفى . . يأمر الحكيم بالتراجع . . لم يكن يعرف أن المعركة ستكون بتلك الشراسة ، . الحكيم يظن أنه يستهين به وأنه يقول له ما معناه أنك سائق خائب والذئب أمهر منك. يستشيط الحكيم عزماً ونزقاً يضغط على البنزين إلى أقصاه . . العربة تهتز وتمرق بهمجية بالسرعة القصوى فوق الصخور الوعرة .

الذئب يعرف أنها معركة الموت أو الحياة . . ينظر إلى أنثاه التى ترقب المعركة من فوق التل الآخر بإشفاق وهلع . . الذئب يقفز بكل ثقله وضخامته من قمة التل إلى ظهر العربة . « حسين » موجود فى الخلف وليس فى الكابينة . . يشعر بثقل الجسم الذى هبط فوق سقف العربة القماش . . أمن المعقول أنه الذئب ؟ غير معقول . .

ولكن من يكون سواه . الحمد لله . . الذئب لا يريد « حسين » . . بل يعرف غريمه . . يتشبث الذئب بكل مخالبه فى سقف السيارة القماش ويضع وجهه فى وجه الحكيم ويهم بالتهامه . . يصطدم وجهه بالزجاج .

سقط الذئب أو ربما قفز من فوق السيارة ونظر إلى الوادى الفسيح فوجد زوجه قد تركت التل الشرقى التى كانت تحتمى به واقتربت من ميدان المعركة لشدة قلقها على زوجها البطل . شعر الذئب أن وجودها فى هذا السهل المنبسط خطر عليها . فاندفع نحوها بسرعة فائقة واندفع الحكيم بسيارته الرعناء ليقطع عليه الطريق إلى أنثاه . إنها فرصة الحكيم أن يصرعه فى الوادى الفسيح . الذئب فى منتهى الذكاء . . لم يجر أمامه فى خطٍّ مستقيم . . إنه يجرى فى دائرة كبيرة ، والحكيم يدور خلفه على نفس محيط الدائرة . . الذئب ماكر فهو يضيق محيط الدائرة . . ويضيق . . إلى الحد الذى كادت أن تنقلب السيارة على جنبها . . ولو انقلبت فى تلك اللحظة لتغير وجه المعركة . . وتغير مصير أسرة آمنة من الذئاب .

العربة تجرى بالفعل على جانب واحد . « مصطفى » يفيق من نشوة المطاردة فيأمر الحكيم بحزم أن يترك ذلك الذئب اللعين . الحكيم يؤثر عليه فشله مع الذئب بالإضافة إلى حزم مصطفى معه هذه المرة ، فيستدير إلى الأنثى . حسن جدًّا ، إن كفاءتها أقل بكثير من ذلك الشيطان . يحول المطاردة إليها . . نعم إنها تبشر بالخير . الذئبة مضطربة . . لا تجيد التصرف . . لياقتها منخفضة . . يظهر أنها ليست ندًّا مكافئاً للاندروفر . حركاتها ثقيلة . الحكيم يضحك مقهقهاً كالشيطان ، يمزح ساخراً منها : إنها تذكرنى بامرأة حامل . . إنها تنهج . . بل إنها تبكى . الذئب الذكر يأبى أن يترك ميدان المعركة ويهرب كالجبناء . . بالرغم من أن الفرصة الآن مواتية له للهروب . فاجأ السيارة بقفزة هائلة صفع فيها مقدمة السيارة بجراءة ليس لها مثيل . . مدافعاً عن أنثاه . . لكى تتحول المعركة عنها إليه . الحكيم يتحول عن

الذئبة ليطارده . . وهذا ما يريده الذئب بالضبط . ولكن الحكيم . . أخبث من الذئب . . لم يستمر فى مطاردته بل استدار فجأة إلى الذئبة فصرعها .

وتأوهت الأنثى . .

وبكى الذئب فوق التل وهو يرى المنظر الأليم . . بكاء الرجل المقهور . . الذى فقد كل شىء . . كل شىء . . وانصرف يجرى فى القفار الفسيحة . . يعوى . . كالضال أو الشريد .

* * *

عاد الرجال الأشرار إلى معسكر رئاسة البعثة الجيولوجية ، وأخبرونى بالقصة . . وأخذت أتأمل الذئبة المسكينة التى أحضروها معهم . . قبل أن أعاتبهم على جنونهم وسوء استعمالهم للسيارة . الذئبة ضخمة الجسم بشكل كبير . . ووجهها قوى ، وهى عموماً أكبر جسماً وأشد متانة من تلك الذئاب التى نراها فى حدائق الحيوان أو المزارع ، وتبين لى أن الذئبة حامل بالفعل . . وعلى وشك أن تضع صغاراً من الذئاب .

* * *

ذات يوم وأنا فى طريقى إلى وادى التمساح عرجت على مكان المعركة . ووجدت آثار الصراع بين الحكيم والذئب مرسومة فى الوادى الفسيح ، ومعنى هذا أنه لم تحدث عاصفة خلال الأسبوع الماضى فى هذا المكان تطمس الآثار . وتعجبت من الضيق والتغير السريع لمحيط الدائرة التى جر الذئب الحكيم وراءه خلالها . . هادفاً إلى انقلاب السيارة . . وتبينت أن عدم انقلابها كان فى حد ذاته معجزة . وكانت آثار عجلات السيارة خلال المطاردة واضحة . . تتقاطع فى منحنيات شديدة . وعلى أساس القاعدة المعروفة فى فن اقتفاء الأثر التى تقول بأن القاطع أحدث من المقطوع . . أخذت أقرأ قصة المعركة على أرض الوادى الفسيح .

ورأيت الموضع الذى صرعت فيه الذئبة . . ولم يزل موضع جسمها واضحاً كالقالب فى بطن الوادى . واستنتجت من اقتفاء الأثر أن الحكيم مرَّ عليها عدة مرات حتى يتأكد من موتها تماماً ، قبل أن ينزل ليرفعها إلى سيارته .

ووجدت عن قرب ، بيت الذئاب الذى خربة الحكيم . وهو عبارة عن كهف مظلم طويل . ودخلت فى الكهف إلى نهايته . . فوجدت مجموعة من العظام أخرجناها كلها إلى خارج الكهف . . وأخذ الرجال يسلون أنفسهم بتركيب بعضها على بعض لكى يعرفوا نوع الضحايا التى افترستها الذئاب . . إلى أن يفرغ عبد العال من عمل الشاى . وقد ألفوا هياكل عظمية كاملة أغلبها كانت للغزال . ومن بينها هيكل لجمل كبير افترسه الذئب .

وأخذنا نشرب الشاى ونحن نتحادث تحت شمس الخريف الدافئة . . على حين ينظر بعض الرجال إلى هياكل الضحايا التى افترستها الذئاب . . ويترحمون على تلك الضحايا . وغيرهم يتكلمون عن شجاعة الذئب المقهور واستبساله . . ويترحمون على الذئبة . . ضحية الحكيم .

* * *

سيول . . فى وادى الدباح

كان ذلك فى يوم من أيام فصل الشتاء . .

معسكر صغير يقبع فى سكون . . على سفح أحد الجبال ، وخيام بيضاء تنتشر على أرضية من صخور الاردواز ، وكأنها طيور صغيرة تحط على تربة زراعية سوداء . وتلال بنفسجية اللون تحيط بالمعسكر . . كأنها سياج من الورد حول زهرة بيضاء . وقوس قزح بألوانه الزاهية يرتفع فى الأفق . . كأنه مارد يحرس هذا المعسكر . . أو وصى على تلك الجبال ، وبدا المعسكر فى ذلك الوقت كأنه خال من السكان ، أو كأنه مهجور أو مسحور ، فقد هبت مع الأصيل نسمات باردة . . جعلت الرجال يأوون إلى خيامهم . . ويجلسون حول وابور الشاى فى حلقة للسمر . . والراحة من عناء يوم ساخن فى الجبال .

وقافلة صغيرة . . تسير فى وادى الدباح مكونة من أربعة جمال وثلاثة حمير . .

وبعض الماعز والكلاب ، وبها ثلاث نساء وعدد من الأولاد ، يقودها رجل واحد جاوز التسعين من عمره جاف العود . . ولكنه ممتلئ بالحيوية والنشاط . . هى أسرة عادية من أسر العبابدة ألف « الغرباء » أن يشاهدوا مثيلاتها تمر بهم فى أثناء الرعى والترحال .

ويظهر أن هذا الشيخ كان على عجلة من أمره فقد كان ينخس الحمير . . ويحث العير على سرعة المسير ويتمتم بين الفينة والأخرى بدعاء غير مسموع . ويبدو أيضاً أن القافلة كانت تقصد معسكرنا الصغير .

وأوى الرجل وأسرته إلى تل وردى اللون . . قريباً من المعسكر ، وأناخ الجمال . . وترك للنساء بقية العمل المعتاد مثل إطعام الخراف وتقديم بعض الماء لها ، وأمرهن أن ينصبن « خيشة » . . لكى يجلسن فيها ريثما يعود ، واتجه من فوره على ظهر أحد الحمير إلى معسكر البعثة .

* * *

وعندما سمع الرجال وقع حوافر الحمار . . نظر أحدهم من فرجة ضيقة ، ورأى الشيخ فخرج ليستقبله ويسأله عن حاجته التى تكون فى العادة قربة من الماء أو بعض الدواء .

وحياه الشيخ بتحية الإسلام ، وقال إنه لا يريد شيئاً من ذلك ، فدعاه الرجل لشرب قدح من الشاى . فاعتذر شاكراً ، فعرض عليه أن يدله على خيام العبابدة من العمال ، فلربما جاء يبلغهم رسائل الأهل والأحباب ، فرد الشيخ قائلا :

— ما جئت اليوم . . لرؤية أولادنا من العبابدة ، ولكن لمقابلة شيخكم . . كبير الغرباء .

فتعجب الرجل وقال للشيخ :

— هل هى شكوى ؟ . . وإن كانت كذلك ، فلماذا لا تشرب الشاى أولا ،

وتسلم على أهل المعسكر ثم تذهب إلى الرئيس بشكواك كما هى العادة ؟

فأجاب الشيخ :

– إنها ليست شكوى يا بنى ، وأرجو ألا تضيع وقتى هباءً .

فقاده إلى خيمة المكتب وكانت مغلقة . . وبداخلها الجيولوجى الشاب ينحنى واقفاً أمام منضدة كبيرة للرسم . . وقد بسط عليها خريطة يوقع عليها البيانات التى حصل عليها فى يومه ، ولا يوجد فى الخيمة شىء آخر غير « كلوب » دق فى عمود الخيمة . . للتدفئة وتعويض المفقود من ضوء النهار . . بسبب انغلاق الخيمة .

وفك الشاب حبال الباب ، ودعاهم للدخول ، وإذا الشيخ يقول مباشرة بعد السلام :

– أيها الرئيس . . لقد رأيت الفأر يحمل صغاره ، وينقلها إلى أعلى الجبل ، واحداً بعد الآخر .

فلم يفهم الجيولوجى الشاب مقصده . . وظن أنه أخطأ فهم المقال ، وأن عدم اعتياده لهجة العبابدة . . هو الذى صور له ذلك ، فأهمل ما سمع . . وسأل الشيخ أن يجلس ليشرب بعض الشاى ، ولكن الشيخ لم يفعل وأعاد عليه القول :

– لا وقت لدينا اليوم للشاى أو الراحة ، وليشملنا الله بعنايته ، أقول لك إننى رأيت الفأر ينقل صغاره إلى أعلى الجبل .

وكان بعض العمال من العبابدة قد وصلوا من خيامهم . . إلى خيمة المكتب ، ووقفوا – تأدباً – على بعد خطوات من باب الخيمة ، فقد أدركوا أنّ هناك أمراً هامًّا . . دعا الشيخ إلى أن يتوجه مباشرة إلى رئيس البعثة بدون أن يمر على خيامهم . ويشرب قهوته . وما إن سمعوا كلام الشيخ حتّى دخلوا الخيمة بدون دعوة ، فنظر إليهم الجيولوجى الشاب ليفهم منهم ماذا يقصد الشيخ .

فقال له أحدهم :

– والله إننى توقعت أن يكون المطر قد هطل على منطقة المرتفعات . . جنوب وادى الدباح ، ولم يذهب بى الظن إلى اكثر من ذلك .

وعقب عبادى آخر قائلا :

– ولقد رأيت « القزع » فى السماء . . وهو سحاب صغيرة يتطاير فى الجو كأنه خيوط العنكبوت ، فعلمت أنه المطر . . يهطل فى الجنوب ، ولكنّ أحداً منا أيها الرئيس لا يستطيع أن يخبرنا بهذا الأمر الجلل الذى من أجله جاء الشيخ . . إلا الفأر ، وحمداً لله أن رآه يصعد بصغاره إلى قمة الجبل ، قبل فوات الأوان .

وقال الرئيس :

– أريد كلاماً واضحاً أيها الناس .

فرد رجل من العبابدة :

– إن الشيخ يقصد أن السَّيْلَ آتٍ لا ريب فيه ، وقد يدمر المعسكر ومافيه .

وقال الشيخ :

– أرى أيها الرئيس – والرأى لك – أن تأمر رجالك بأن يحملوا ما يستطيعون حمله من متاع ، ويخلعوا المعسكر ، ثم يأوون إلى جبل يعصمهم من الماء .

فابتسم الرئيس ، وشكر الشيخ ، ودعاه مرة ثانية إلى شرب الشاى . وكان ذلك علامة على أنه لم يعر الأمر الاهتمام المطلوب .

وانصرف الجيولوجى الشاب إلى خريطته يوقع عليها البيانات ، التى حصل عليها خلال رحلاته بين الجبال ، وكأنما لا يرى فى الحياة ما يستحق الاهتمام . إلاّ خريطته هذه التى انقطع لها عن العالم المعمور أكثر من عام .

* * *

ومن صفات العبابدة أنهم إذا حذَّروا من شىء . . فإنهم لا يكررون التحذير ، ولا يلحّون فى طلب الاحتراس منه . لذلك فقد انصرفوا إلى خيامهم ، وعاد الشيخ

إلى أسرته وراء التلال بدون أن يشرب الشاى .

ولقد لا حظت هذه الخصلة فيهم خلال مناسبات شتى أيام معيشتى فى تلك البقاع ، لأنهم على الرغم من ثقتهم فى تأويل ما يشاهدون من ظواهر الطبيعة ، فإن أخلاقهم الطيبة تصونهم من أن يغرهم بخبرتهم الغرور . وربما يرجع ذلك أيضاً إلى ثقتهم فى العلم الحديث ، يقولون إنّ فَوْقَ كُلِّ ذى عِلْمٍ عَلِيم ، وقد يقيهم الرئيس بعلمه شرَ السيول ، خاصة أنه ثبت لديهم فى مناسبات شتّى أنّ الغرباء يدركون أشياءً كثيرة عن بلاد العبابدة . . تثير الدهشة والعجب ، فهم مثلا بمسالك البلاد خبراء لدرجة تصل إلى حدّ الإعجاز ، على الرغم من أن كثيرا منهم لم يسبق لهم المجىء إليها .

ينظر الغريب إلى ورقة فى يده اسمها الخريطة ويحرك جهازاً صغيراً اسمه البوصلة ثم يوجه السيارة بثقة إلى أى مكان يشاء ويعود فى نهاية اليوم أو بعد أيام من السفر إلى المعسكر من درب آخر غير الذى ذهب به ، بل إنهم لاحظوا أنَّ الغرباء يعرفون جبالا . . لم يذهب إليها شباب العبابدة من قبل . . إنما يسمعون عنها فقط من آبائهم الأولين . ولقد رأى العبابدة حتى النساء منهم والأطفال كيف أن سيارة الغرباء وهى من عجائب العلم الحديث تقطع فى ساعات ما لا يقطع الجمل فى أيام . .

وقد بلغت ثقتهم بالغرباء غايتها يوم أن هبط عليهم من السماء « طائر الحديد » . نزل فى ساعةِ هوْل لم يسبق لهم أن مرُّوا بمثلها من قبل ، كان أزيزه يهز الأرض وما عليها ، وتُردِّدُ الجبالُ صداَهُ ، فكأنّ عشرات منه هبطت فى نوبة واحدة فوق الجبال . وبعد أن استقر على الأرض كان له هيْبة أكثر من طائر الرُّخِّ الذى يسمعون عنه فى الأساطير ، تضاءلت أمامه سيارة النقل الكبيرة حتى إنها لم تصل فى علوّها إلى ارتفاع بوزه الأحمر المخيف . وهبط منه رجل يخفى عينيه خلف

قطعتين من الزّجاجِ الأسود ، ويرفقته شاب اسمه قدرى فؤاد . . زميلَ الغرباء ، يقولون إنه أيضاً يبحث عن نفس المعدن الذى عنه يبحثون ولكن من السماء . . وبجهاز مثبت فى بطن ذلك الطائر الجبار ، ولولا أن العبابدة شاهدوا « قدرى » مراراً مع الغرباء لظنوا أنّ الرجلين قد جاءا من كوكب آخر فى مجاهل الفضاء . وبعد أن تناول الرجلان « اللذان هبطا من السماء » طعاماً مع زميلهما رئيس الغرباء . . ضحكوا ولعبوا النّرد وشربوا القهوة . . ثم ركبا طائرهم الجبار . . وطار بهما مزمجراً فوق قمم الجبال ، وأثار وراءه نقعاً صعد إلى عنان السماء .

* * *

وإذا كنت أجد تفسيرا لعدم إلحاح العبابدة على رئيس الغرباء ، واحترامهم لقراره سواء أكان بالسلب أم الإيجاب ، فإننى لا أجد حتى الآن تفسيراً معقولا لتقاعس ذلك الشاب ، ولا أعرف لماذا لم ينقل معسكره فوراً بعد ما سمع من نذير . هل هو ما يسميه بعض الجيولوجيين بالاستغراق . . الذى ينجم عن ارتباط الإبداع بالمكان ؟ . وهل وصل ذلك الاستغراق بالشاب إلى أن يفقده الإحساس بالخطر ، وينسى كل شيء عندما يتأمل فى خريطته ما اكتشف بنفسه من تراكيب جيولوجية نادرة . . ربما يكون لها شأن فى تغيير المفهوم العلمى لتلك المنطقة ! ، وإن اسمه — على صغر سنه — سوف يسجل فى الجمعية الجيولوجية المصرية ، وربما فى المؤتمرات الدولية ، وقد يتردد أيضاً فى مدرجات الجامعة فى مادة (جيولوجية مصر) ؟ ، . لا أظن أن تلك الآمال تبعده عن واقع ما سمع . . بل ربما تزيده حرصاً على حياته . . وعلى خريطته .. فأى تفسير إذن لتصرف الشاب ؟ .

لعله لا يعرف حقيقة السيل ؟ ، حقًّا هو يسمع عنه فى الكتب ومن الناس ، ولكنه لم يجرّبه . . ولا يعرف أنه يمكن أن يباغته فلا يستطيع لنفسه شيئاً . أو أنه كبر عليه بعدما بلغ من علم أن يقوده فأر صغير ؟ ، وعظم أمامه أن توضع قرارات

الإنسان بناء على تصرفات الجرذان ؟ .

وبعد صلاة العشاء ربط حبال الخيمة من الداخل ليغلق بابها . . ثم قرأ جزءاً من المصحف الشريف كعادته كل ليلة وأوى إلى سريره لينام . . على أمل أن يصحو مبكراً ليستأنف عمله فى الجبال ، وقد نسى ما حدث بخصوص الشيخ العبادى وحكاية الفأر .

ولكن كلبه الذى اعتاد أن ينام تحت السرير . . خرج من مضجعه وأخذ يرهف السمع ثم جذب صاحبه بفمه . . واندفع إلى باب الخيمة يعالج الحبال يريد أن يفتحها . . ففشل فى ذلك ، فرجع إليه ينبح نباحاً غريباً . . ولكنه لم يعره اهتماماً ، وارتفع نباح الكلب وفشل الشاب فى إسكاته ، فقام وفتح له باب الخيمة فاندفع إلى خارجها . . ثم ما لبث أن عاد . . يحملق فى صاحبه ويكرر النباح الغريب . . وضاق به صاحبه فنهره . . ولكنه لم يرتدع ، وظن الشاب أن الكلب قد أَلَمَّ به الجنون ، فنادى على الخفير وطلب منه أن يأخذه بعيداً ولكن الكلب قاوم الخفير وواصل النباح كأنه يحذر من شىء مجهول .

فقال الشاب للخفير :

– لا أريد أن أسمع صوتاً لهذا الكلب المجنون ، أقبض عليه ، وكممه حتى الصباح فنرى بعد ذلك ما أصابه ، وإن كان قد أصيب بالسُّعارِ . . فلابد من قَتْله .

ودافع الكلب عن حريته بإصرار ولكن الخفير استطاع فى النهاية أن يقبض عليه وأخذه بعيداً فى أقصى المعسكر ، والكلب لا يكفّ عن النباح الغريب .

وأوى الشاب إلى مضجعه ثم أطفأ « الكلوب » ولكنه لم يتمكن من النوم ، فقد بدأت الهواجس تحوم بخياله . .

إن الكلب ليس بمجنون أو مسعور بدليل أنه لم يعض الخفير عندما ضربه .

يقولون إن الله ألهم الحيوانات إدراكاً للكوارث قبل وقوعها ، فهل سمع الكلب صوتاً بعيداً فى الوادى . . تعجز أذن الإنسان عن التقاطه . . فى حين تلتقط موجاته آذان الكلاب ؟ .

إنّ نظرات الكلب كان فيها ما يشبه التحذير ، وكانت تنتقل فى رجاء بين الشاب واتجاه الجنوب ؟ وهو الاتجاه الذى يتحتم على الماء أن يندفع منه إذا جاء السيل ، بناء على خريطة المناسيب . وأغمض عينيه يريد أن يبعد عن نفسه الظنون ، وعبثاً حاول أن ينام ، ظلّ يحادث نفسه كأنّ فى جوفه رجُلين لها رأيان متناقضان ، أحدهما يسفه فكرة خلع المعسكر ويرى تأجيل ذلك على الأقل حتى الصباح ، والآخر يحذر من التقاعس . . ويحث على سرعة اتخاذ القرار . واحتدم النقاش الصامت وأصبح جدلا وأخذ الشاب يكلم نفسه بصوت مسموع :

– إن معسكرى فى مأمن من خطر ما يسمى بالهيار ، وهو فيضان من الصخور ، تكون معلقة على جوانب الجبال ويعوقها عن الانهيار عائق ضعيف ، فإذا ما خوت السيول من تحتها فإنها تتحرك ، ثم تتزايد سرعتها وقدراتها . . وإذا ما دهمت أى معسكر . . جعلته كعصف مأكول .

ويجيب على نفسه قائلا :

– ولكن المعسكر يقع فى فم وادى الدباح . . والوادى طويل ومستقيم وينحدر نحو المعسكر . . وتغذيه روافد كثيرة على جانبيه ، بالماء . . وفتات الصخور ، وكذلك بالحصى والرمال ، وكلها تكسب الماء فى سرعتها قدرة إضافية على التدمير .

– ولو باغتنى السيل سأخطف الخريطة وأجرى نحو الجبل ، إنها أثمن شىء فى المعسكر كله . . فهى إنتاج البعثة كلها خلال سنة كاملة .

– والكتب هل هانت عليك ؟ إن منها مراجع أجنبية حصلت عليها بشق

الأنفس ، ومنها ما لا يمكن الحصول عليه مرة أخرى ، وحتى لو أمكن ذلك . . هل يهون عليك ملاحظاتك فى هوامشها ؟ . وكتب العقاد وطه حسين ونجيب محفوظ وأنيس منصور ، صحيح أنك تستطيع أن تحصل عليها مرة ثانية عندما تعود . . ولكن النسخ ذاتها لا تهون ، لازمتك فى السراء والضراء ولم يكن لك من صديق غيرها . . فى مجاهل الصحراء ، وربطت الوحدة بين صفحاتها وأفكارك . . برباط متين .

– تبًّا لهذه الهواجس . هل أستسلم لها حتى الصباح ؟

وتقلب على الجانب الآخر وأغمض عينيه وقد عزم على النوم . وهنا سمع خشخشة بسيطة خارج الخيمة . . ولكنها كانت كافية لكى يقفز بلا شعور من السرير . إذن فإن أعصابه مرهقة . تُرى هل هو ثعلب صغير أو أرنب مسكين . . شعر بقدوم السيل ، فألهمه الله أن يجرى أيضاً فى اتجاه الشمال ؟

وأخذ فى يده الفانوس ، وفك حبال الخيمة ونادى على الخفير .

وبادره الخفير بقوله :

– إننى كممت الكلب وقيدته ، ولكننى لم أستطع أن أجبره على السكوت . إنه كلب عنيد لا يكف عن الحركة ومحاولة الإفلات . وقد أثار الكلاب الأخرى بعناده .

فقال الشاب :

– ابعث إلىَّ بالعمال العبابدة فوراً .

وعاد إليه الخفير مهرولا . . وقد ظهرت علامات الخوف على وجهه وقال :

– لم أجد منهم أحداً ، فقد حملوا متاعهم ورحلوا ، بل إن بعضاً من الصعايدة والبحاروة تبعوهم إلى الجبال .

وكان الشاب فى تلك اللحظة قد عزم وقرر ، أن يأمر رجاله بأن يحملوا متاعهم

ويخرجوا إلى الجبال المتاخمة . وأخذ يفكر باضطراب ، ماذا يأخذ وماذا يترك . وقطع عليه حبل التفكير صوت ضعيف ، ولكنه شامل مثل الحفيف ، ونظر فرأى فى نور الهلال الخافت أكواماً من القش وشجيرات الشوك . . تغزو المعسكر . . فعرف أنها مقدمة السيول . فصاح بأعلى صوته على رجاله أن يخرجوا إلى الجبال ، ولكن صوته ضاع فى خضم صوت . . يزمجر من بعيد ، وإذا بفيضان من الرّيم الأبيض يلمع تحت أشعة القمر . . كأنه البحر يجور على المعسكر والناس نيام ، وإذا بهم يفيقون من سباتهم ويخرجون من الخيام . . كالجرذان تخرج من الجحور ، يصيحون : السيول . . السيول .

وهرول الشاب إلى خيمته ، ولكنّ بعضاً من الرجال اعترضوه ، فنهرهم بحزم . . ودخل خيمته غصباً وقد حاصرها الماء ، وانتزع خريطته من فوق المنضدة وطواها وجرى بها نحو الجبال .

وقضى الرجال ليلتهم فوق الجبل ساهرين ، يتأملون فى نور القمر معسكرهم الصغير وهو ينهار بالتدريج ، شاخصة أبصارهم إلى ما يسبح من حاجاتهم . . وما تعوقه الصخور . وعندما اشتد البرد . . اقتسم كلٌّ من الذين هجروا المعسكر مبكرين « البطانية » مع زميل له من الذين ولّوا متأخرين . كان صمت الليل طويلا . . ومضى كله بدون أن ينبس أحد منهم بكلمة .

* * *

وأشرق الوادى بنور النهار ونظر مراد أفندى فوجد أنّ الخيام كلها سقطت ، ولكنها لم تتحرك كثيراً عن أماكنها الأصلية ، ومنها ما شبكت بأوتادها فى الصخور المبعثرة بالوادى فعاقتها عن الحركة . وأثلج صدره عندما رأى الأكشاك ثابته فى مكانها لم تصب بسوء ، وأن الأرض لم تعد مغطاة إلا برغاوى بيضاء . . وماء ضحل لا يصح أن يمنعه عن النزول لتفقد حاجياته والبحث عن نقوده .

فقال :

— فيلحضر إلىّ هنا على الفور ثلاثة من العمال ، يساعدونى فى البحث عن حاجاتى بين الصخور .

فنهاه الجميع وأرادوا أن يشرحوا له خطورة النزول إلى الوادى فى ذلك الوقت بالذات ، ولكنه قاطعهم قائلا :

— إن « دولابى » الموجود فى كشك المخزن به فواتير السلفة واستمارات العهدة وإيصالات « الكهنة » وبه محاضر اللجان وصور الارتجاع ، فاذا أتلفها الماء . . من منكم يكون المسئول ؟

وعادوا يحاولون إقناعه بأن هذه مرحلة من مراحل السيل . . لا يجوز النزول فيها فقاطعهم مرة ثانية وقال بعناد :

— إنى أعلم من اللوائح والقوانين . . ما لا تعلمون .

وألقى بالبطانية التى كان يتدثر بها على الأرض وهب واقفاً ، ولكنهم تجمعوا حوله وأمسكوا به ومنعوه من النزول ، فجلس على مضض ، وهو يشعر بالسخط عليهم جميعاً . وتتابعت الأحداث بعد ذلك فحولت سخطه عليهم إلى شعور بالرضا والامتنان . فقد تعلّم أن السيل قد يحدث على دفعتين ، الأولى يسميها البعض بالطلق الصغير ، وهو ما حدث فى اللية السابقة ، وأنهم فى انتظار الطلق الكبير ، الذى قد يباغتهم فى أى لحظة مهما طال الانتظار .

كذلك عرف يومها أن البحث بين الصخور عن حاجاتهم المفقودة فى الفترة ما بين الدفعتين أمر محفوف بالخطر ، بسبب وجود الحشرات والثعابين الجريحة التى أقلقها السيل من رقادها الشتوى الطويل . . وحطم جحورها . . وقذف بها وبصغارها بين الصخور ، وعادة ما تعوقها الجلاميد الكبيرة الموجودة فى الوادى كما تعوق حاجات المعسكر ، وهم يعتقدون أن الثعابين والأفاعى الجريحة أشد فتكاً

بالإنسان لو عبث بها مما لو كانت سليمة . كما تعلّم أن من أخطر ما يهدد حياته وهو يبحث عن حاجاته المفرقعات التى كانت محفوظة فى معسكر البعثة واجتاحها السيل . . وقد تنفجر فيه علبة كاملة من الكبسول فتمزق لحمه وتفتت عظامه وتقذف بها فى أماكن متفرقة ، كما فعلت بزميل لهم من قبل .

* * *

وأقاموا صلاة الظهر فوق الجبل ، وما كادوا ينتهون من دعواتهم التى تعقب الصلاة ، حتى وجدوا الماء يندفع من الروافد فى وقت واحد . . وغطى الوادى وأغرقه كله وارتفع فيه حتى صاح أحدهم :

– إنه ليس سيْلا . . بل هو طوفان نوح .

وفى هذه المرة دمر الأكشاك وطهر الوادى تماماً من كل شىء لهم ، حتى الصندوق الحديدى الكبير الذى كانوا قد خلعوه من سيارة النقل وطرحوه أرضاً رأوه عائماً كأنه مركب ، وطفا خزان المياه الحديدى الكبير أيضاً بما فيه من ماء وغاب عن أنظارهم ، وانقلبت سيارة النقل على جانبها بعد أن خوى الماء الأرض من تحتها .

وبعد أن انتهى السيل ، انقسموا إلى جماعتين : الأولى عزمت على السير فى اتجاه مدينة القصير لإبلاغ المسئولين وطلب القوت الضرورى ، بعد أن تلفت السيارة الوحيدة التى كانت معهم . وجماعة أخرى كان عليها أن تبحث عن أشتات المعسكر المفقود ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه على بعد مسافة طويلة فى اتجاه الشمال . وتحصى الخسائر . وتكتب المحضر اللازم فى مثل هذه الأمور .

* * *

حدث ذلك منذ خمسة عشر عاماً أو يزيد . وأما أولئك القوم الذين ألفت بين قلوبهم السيول ، فقد فرقت بينهم الأيام والخطوب ، فمنهم من التحق ببعثة

جيولوجية أخرى تعمل فى مكان آخر من مجاهل الصحراء ، ومنهم من هاجر أو سافر للعمل فى إحدى الدول العربية الشقيقة ، ومنهم من أبعدته السن القانونية أو أقعدته الشيخوخة فانتقل ليعيش فى قريته يفلح الأرض أو ليفتح دكاناً صغيراً فيها ، وغيرهم انقطعت عنى أخبارهم فلا أعرف عن أحوالهم شيئاً .

وأما الجيولوجى الشاب ، فقد أصبح الآن أستاذاً فى إحدى الجامعات المصرية وقد اشتهر فى الجامعة بأنه أستاذ كثير الشغب ، وله جولات لا تنتهى ضد الروتين ، وكل مشاكله مع إدارة الجامعة تنبع من أصل واحد . وهو أنه يؤمن بأن الجيولوجى الحق . . لا يتخرج إلا فى الصحراء وأن الخير كل الخير لتلاميذه أن يتدربوا تدريباً طويلا فى المناطق الجبلية البعيدة ، لذلك فهو دائماً يجوب صحارى مصر ومعه تلاميذه . . ومعهم معسكر صغير . . يتنقلون به بين الجبال والسهول والأودية ومنذ فترة قريبة حط رحاله ومعه الطلبة . . وعددهم قليل . . فى وادى الدباح ، وكان أول ما فعل أن بحث عن قبر الشيخ العبادى الطيب الذى حذّره من السيل قبل وقوعه ، بعد أن علم من أحد الرعاة أن المنية وافته قريباً من ذلك المكان فدفن تحت شجرة غير بعيدة ، وجلس الأستاذ خاشعاً أمام القبر وقرأ الفاتحة وأجزاءً من القرآن الكريم على روح الرّاحل الأمين ، ولم يجد بأساً فى أن يتخذ من تقاليد العبابدة ما يناسب المقام ، فوضع كمية من السكر والشاى وبعض الأكل المحفوظ بجوار القبر ، هدية منه للزائرين . . وعابرى السبيل .

وعندما جلس ليرتاح من عناء العمل الشاق ، فوق جبل الدباح ، نظرَ إلى الوادى وحملق فى مكان المعسكر القديم الذى لم يبق منه حتى الأطلال . نظر فى صمت طويل . . لم يقطعه عليه أحد من تلاميذه ، ربما لشعور خفى غمرهم بأن الأستاذ يتعبد فى محراب الذكريات . وإذا به يرى بعيون الذكرى . . المعسكر المفقود . . كاملا بكل تفاصيله كأنه قائم حتى الآن . تذكر أصدقاءه القدامى أفراد

البعثة . . وحكايات كل منهم ونوادره . وجالت عيناه فى كل موضع من المعسكر ووقف كثيراً أمام المكان الذى كانت فيه خيمة نومه .

وانتقل ببصره إلى الطرف الشرقى من المعسكر القديم . وإذا به يشعر بأسى عميق على كلبه الوفى الذى دفنته السيول حيًّا ، وهو مقيد الحركة . . مكمم الفم . . فمات نتيجة لوفائه . . وقسوة صاحبه .

وأخذ يتمتم بين الفينة والفينة بكلام لا يسمعه تلاميذه .

فيقول :

– سبحان الله العزيز الحكيم . . ألهم سكان الصحراء صواباً لا يوجد فى الكتب ، وعلم الفأر ما لا يعلم الإنسان .

* * *

قبل الشروق

« من زرع حصد »

قول معروف . . ومعقول ، ولكنه فى العادة لا ينطبق على من يعملون فى مجال الثروة المعدنية ، ففى هذا المضمار تجد جيلا يزرع . . وجيلا آخر يجنى الثمار ، ذلك لأن الفرق الزمنى كبير بين أولئك الذين يقومون بمهمة البحث والتنقيب . . أى أفراد البعثة الجيولوجية ، وهؤلاء الذين يتولون عملية الاستخراج . . أى رجال المناجم .

تمضى أعوام طويلة . . يعيش المستكشفون خلالها متنقلين فى مجاهل الصحراء ، وربما يقضون حياتهم كلها فى البحث والتنقيب ، وعندما يعثرون على ثروة معدنية هامة ، يأتى دور الدراسات التفصيلية ، وهى دراسات مستفيضة تجرى على الموقع المكتشف . . قد تستغرق أعواماً أخرى ، وربما يمضى جيل أو أكثر

قبل أن تنتهى الإنشاءات اللازمة للمناجم والمساكن ، ووحدات تركيز الخام والإنتاج . . وإنشاء الخط الحديدى الذى يصل بين المنجم والعمران . . وهو ضرورى لنقل المعدات الثقيلة والمواد الخام . . هى فترة قصيرة من عمر الدولة . . ولكنها عادة ما تكون أطول من عمر الأفراد .

وتسلط أضواء التكريم على أولئك الذين يعملون فى المناجم الجديدة..فى جوف الصحراء . . ويمسى زملاؤهم القدامى الذين اكتشفوا المكان الجديد . . فى غياهب النسيان . ربما أدركت بعضهم السن القانونية . . أو أقعدتهم الشيخوخة . . أو أمراض الصحراء وأمراض الاغتراب ، وغيرهم وافتهم المنية قبل أن يروا شمس الإنتاج والعمران تشرق على المكان الجديد . أما من كان حيًّا . . ولم يزل قادراً على العمل فإنه فى العادة يبقى فى تخصصه الذى تمرس عليه .. وهو الاستكشاف . . لذا فإنه يواصل السعى فى القفار . . بحثاً عن اكتشاف جديد .

وقد يقوده البحث ذات يوم إلى قمة جبل يشرف على مكان المنجم الذى اشترك فى اكتشافه أيام الشباب ، فإذا به ينظر إلى أسفل فى الوادى البعيد فيرى مدينة صغيرة عصرية . . أو قرية منجمية نموذجية . فتحل سعادة غامرة فى نفسه تزيل عنه مشاعر الوحشة والإرهاق ، ويمعن النظر إلى المدينة فى فخر وابتهاج . وكأنه شيخ شقى فى الحياة يرى ابنه الوحيد وقد تخرج من الجامعة فيشعر بأن عمره لم يذهب هباء . . وها هى ذى أمامه ثمار السعى والكفاح . ويمضى إلى القرية سريع الخطوات . . يفيض عليه شعور طيب بالحب والانتماء . . هذه بلدته التى قضى على أرضها أيامه الأولى . . يعود إليها بعد طول الغياب .

ولكنه يمر فى شوارعها غريباً لا يعرفه أحد . . ولا يعرف فيها أحداً ، يطلب قربة من الماء أو شيئاً من الدواء أو بعض الوقود لسيارته ، أو يبحث عن مطعم عام ليتناول فيه وجبة ساخنة وفاكهة طازجة . . تريح أمعاءه من الخبز اليابس والأكل

المحفوظ الذى أرهقة خلال الشهور الماضية ، وهو فى العادة لا يجد مثل ذلك المطعم . . فالجميع يتناولون طعامهم فى نادى المنجم ، ولا يوجد محلات عامة يبتاع منها ما يريد . . بل جمعية تعاونية لا تتعامل إلا مع موظفى الشركة . . وبالمواعيد .

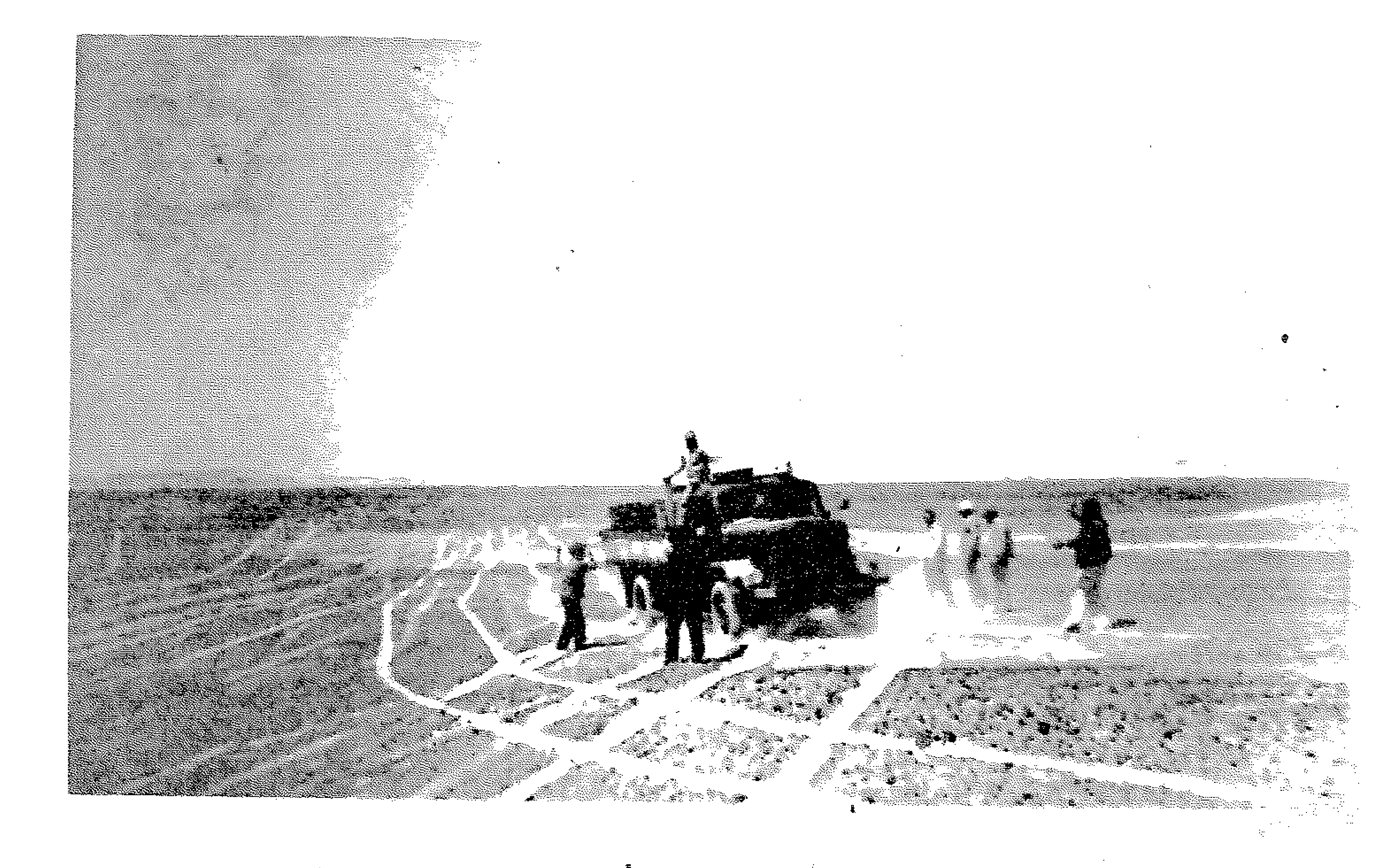
وقد يعترض طريقه بعض الخفراء ، لأنه رجل غريب فضلا عن ذقنه الطويل وشعره الأشعث المحمل بالأتربة والرمال ، ربما ظنوا أنه أحد الخارجين على القانون أو الأشقياء ، فيبرز لهم بطاقته ويشرح لهم أنه أحد الأفراد الذين يعملون فى بعثة جيولوجية تقوم بالتنقيب فى الصحراء . وعندما يعرف الناس هويته ويأنسون إليه . . يرحبون به ويصحبونه فى جولة قصيرة ليشاهد بلدتهم الجميلة التى تقع فى قلب الصحراء . وربما يدعوه بعضهم إلى شرب الشاى أو إلى تناول الطعام فى نادى الشركة ، وهناك . . يتحدث إليهم كالمجنون ، ويقول لهم إنه أول من وطئت قدمه هذا الوادى منذ ربع قرن أو يزيد ، فيلتفون حوله باهتمام وترحاب ، ويسأله شاب صغير :

— حدثنا يا عمنا كيف كانت هذه الأرض قبل أن يطأها منا أى إنسان .

فيشعر بسعادة فائقة لهذا السؤال ، وكأنه نال به كل التقدير والتكريم ويصمت قليلا ثم يقول :

— سبحان من له الدوام ، كل شئ تغير . . نعم كل شئ . والله يا بنى لولا هذه الرواسى الشامخة التى تحيط بالوادى الفسيح لظننت أننى ضللت الطريق ، أو أننى انتقلت فى غمضة عين على ظهر البراق . . من جوف الصحراء المصرية إلى بلدة جميلة فى الريف الأوربى . لم تكن هناك يا ولدى عمارات وحدائق ، أو طرق مرصوفة وخط سكة حديد ، أو حمام سباحة ومكتب بريد ، أو ناد أو مدرسة ، أو أزهار جميلة وأشجار . .

وهنا يتوقف مستدركاً ثم يقول :



وأقبل الصيف . وصعب علينا الحصول على الماء . وأصبحت المسافة التى يقطعها اللورى ،
من أجل الوصول إلى القصير طويلة . . وكثرت أعطاله فى الطريق

– بل كانت هُنا شجرة واحدة . . فى هذا المكان ، بالله عليكم لماذا قطعتموها . . إنها كانت عزيزة علينا ، ولنا عندها ذكريات .

ويقول :

– أما استراحه كبار الزائرين فقد كان مكانها « رجم » من الأحجار المرصوصة ، بنيناه لكى نهتدى به إلى مكان الاكتشاف . ثم يضحك قائلا :

– ولم يكن هنا بالطبع نساء أو أطفال .

ويمضى فى ذكرياته فيقول :

– وهل تعرفون الطرف الشرقى من البلد الذى تطلقون عليه . . « حى الشريف » إنه منسوب إلى سائق اسمه محمد الشريف ، احترقت سيارته ذات يوم فى هذا المكان ونُجِّى بحمد الله . ويومها ضقت ذرعاً بالصحراء وتمردت على الجيولوجى رئيس البعثة ، رحمة الله عليه .

ويبات المستكشف القديم ليلته مُحاطاً بكل التكريم . . من جميع العاملين ، وفى الصباح يغادر البلدة ، ويصعد بسيارته الهضبة المتاخمة ، وهو يشعر بقوة جبارة يكاد أن يقرع بها الجبال ، وينظر من فوق الجبل إلى القرية . . ، كأنّ العاملين بها أولاده ، والأطفال الذين يتزاحمون أمام المدرسة . . حفداؤه . وقد تغلغل تكريمهم له فى أعماق نفسه ووجدانه ، هو تكريم طبيعى يشعر به رجال المناجم . . نحو البعثات الجيولوجية التى سبقتهم إلى الأماكن المجهولة ، تجده فى كل أوان وكل مكان .

وأشهد أننى لاحظت ذلك التكريم فى كل بلدة من بلاد المناجم . . التى قمت بزيارتها سواء فى صحارى مصر أو فى الدول الأجنبية ، كنت أرى فى مكتب المدير صورتين ، الأولى قبل نشأة البلد . . مبين فيها معسكر صغير يتكون من خيام قليلة . . هو معسكر البعثة الجيولوجية التى اكتشفت هذا المنجم ، وأما الصورة الثانية فهى

لنفس الموقع بعد أن تم العمران وحل الرخاء . . وقد التقطت هذه الصورة الأخيرة للمدينة الجديدة من الجو فظهرت عماراتها العصرية . . وحدائقها الغنّاء . . فى شكل خلاب . . ومكتوب على الصورة الأولى : « كيف كنا » ، وعلى الثانية : « وكيف أصبحنا » .

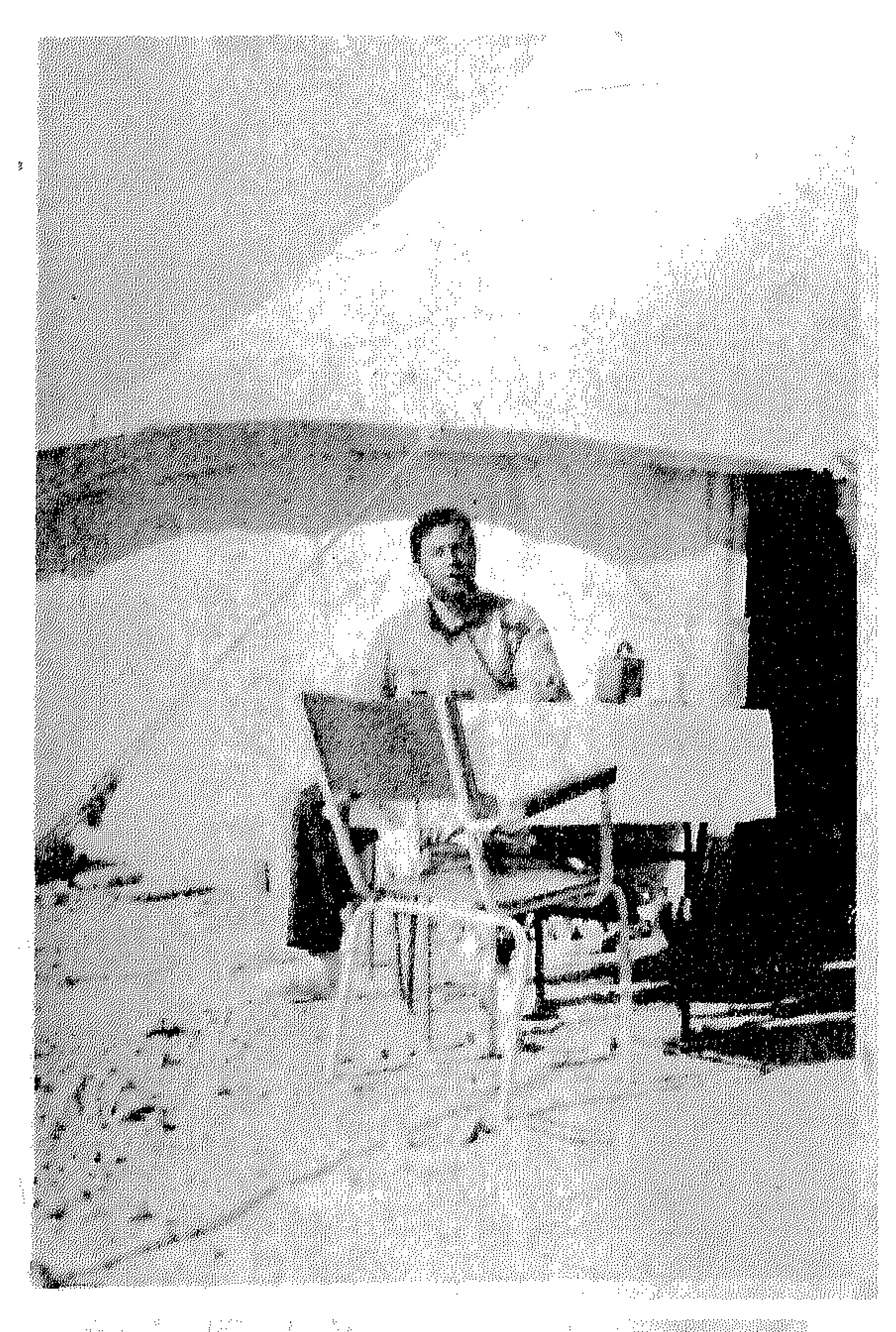
* * *

وسوف تشرق عما قريب . . على الجزء الأوسط من الصحراء الشرقية فى مصر . شمس الإنتاج . . إنتاج اليورانيوم . سوف نرى فى بلاد العبابدة طرقاً مرصوفة ومستعمرات سكنية وسكة حديد ، وبلاداً جديدة . وربما نسمع فى المستقبل عن قرية منجمية حديثة اسمها مثلا قرية « العطشان » نسبة إلى وادى العطشان ، أو قرية الدباح ، أو العرضية ، أو أم حيوط .

وقد تظهر مدينة صغيرة فى وسط هذه القرى ويطلقون عليها اسم المعدن المستغل فيكون اسمها « مدينة اليورانيوم » ، على غرار « يورانيوم سيتى » فى شمال كندا ، و « مدينة الحديد » التى تقع شمال الواحات البحرية .

كان العثور على اليورانيوم فى مصر حُلماً وخيالا يشبه المستحيل ، هكذا كان الرأى عند خبراء الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالأمم المتحدة عندما زاروا مصر فى منتصف الخمسينيّات ، والسبب فى ذلك كما جاء فى تقريراتهم « صعوبة المعيشة فى الصحراء واستحالة التنقل فى الأماكن المجهولة فيها » ولكن هذا الرأى لم يزد الإنسان المصرى إلا إصراراً على تحقيق ذلك المستحيل .

وشهدت جبال المنطقة غزواً جريئاً من شبان يتسلقون قممها الوعرة ويمسحون حوافها القاتلة بكل دقة وإصرار ، كما شهدت طائرات استكشاف تجوب الاودية على ارتفاع منخفض خطير ، تسجل . . بأجهزة بالغة التعقيد . . قراءة الإشعاع فى الجبال . . ومن وراء أولئك جميعاً جهاز قدير من رجال المعامل . . كانوا دائماً فى



فى معسكر البعثة . . قبل الخروج فى إحدى رحلات الاستكشاف

معاملهم ساهرين .

ومرت الأعوام . . ونحن نتنقل بين السهول والجبال ، ما من جبل فى الصحراء الشرقية الوسطى إلا وتسلقناه . وما من هضبة إلا ومسحناها بأجهزتنا وأخذنا منها العينات اللازمة للتحليل . وفى كل مكان كانت لنا بصمات من تلك الرحلات . . خنادق فى الجبال ومغارات وكهوف عميقة الأغوار . وكنا فى سعينا هذا نستخدم أجهزة حديثة نقيس بها درجة إشعاع الصخور . . اسمها « السنتللومترات » أى أجهزة العد الومضية . . وهى أكثر تطوراً من تلك الأجهزة المعروفة بعدادات « جيجر » . ومن هذه الأجهزة . ما كان مُصمَّماً بحيث يركب على طائرة استكشاف ، أو على سيارة ، ونوع آخر كان صغير الحجم بحيث يحمله الإنسان على ظهره أو بين يديه ليصل به إلى الأهداف التى تغيب عن الطائرة . وتعجز عن بلوغها السيارات .

كنا نخرج من المعسكر كل يوم قبل مشرق الشمس ونعود إليه بعد الغروب . واعتاد كل رجل أن يمضى يوماً عسيراً بين الجبال ، ويعود بلا نتائج تذكر . كنا كمن يبحث عن سمكة ضالة فى المحيط . أصبحت النتائج السلبية لا تؤرقنا . . أَلِفْناها . . وألفنا معها اليأس ، ولكننا لم نكف عن السعى وكأننا أصبحنا فى غنى عن أى تشجيع ، حتى النتائج الإيجابية النادرة لم تكن تفرحنا ، وهى عبارة عن مواقع جديدة تكون درجة الإشعاع فيها مرتفعة بشكل ملحوظ ، لأننا نعرف أنها سوف تتعرض بعد ذلك لاختبارات تفصيلية عسيرة ربما تلقى بها فى جانب السلبيات ، ويلغى ذكرها من الخريطة . . وكأن الجهد الشاق الذى بذل من أجل اكتشافها لم يكن ، والأحداث التى عاصرتها قد محيت من حياة المستكشفين .

ومع كل يوم من أيام الفشل . . كانت عزيمتنا تزداد بغير سبب مفهوم ، وكأن الإرادة كانت مع اليأس فى سباق ، والعزيمة مع القنوط فى عناد . ربما كان وراء

ذلك « طاقة الاستكشاف » التي وهبها الله بنى الإنسان ليعينهم على السعى وحب المعرفة . وخوض كل مكان جديد ، وجعلها سبحانه لا ترتبط بأى آمال فى الحياة . . لا الشهرة ولا المجد ولا المال .

وبمرور الأعوام تجمعت النتائج الإيجابية على ندرتها فأصبحت كثيرة ، وازداد عدد المواقع التي ثبت فيها وجود اليورانيوم وأصبحت تحصى بالمئات .

وأخذ معسكرنا يواصل الحركة ببطءٍ نحو الغرب ، واستمر بنا الانتقال من مكان إلى آخَر حتى أصبح التغيير هو الأمر الثابت والاستقرار لفترة ما فى أحد الأودية هو الأمر الغريب . وتوغلنا كثيراً فى جوف الصحراء ، وإذا شاطئ البحر الأحمر بعيداً ، والطريق إليه طويل ، وأقبل الصيف ، وصعب علينا الحصول على الماء ، وأصبحت المسافة التي يقطعها « اللورى » من أجل الوصول إلى القصير ، طويلة ، وكثرت أعْطَالُه فى الطريق ، وكثيراً ما كان يخذله مكْثف القصير ، فلا يرضى السائق أن يرجع إلينا بغير الماء فهو يعرف أننا نمُّر بليالٍ عسيرة من الظمأ والانتظار . . فيسافر إلى قنا ، وعلى الرغم من هذا فكثيراً ما كنا نكتشف بعد رجوعه أن معظم الماء فقد أثناء الطريق بفعل « المطبات » التي تقذف به من الخزانات ، وربما وجدنا أن الخزانات نفسها قد كسرت من أسفل وأصبحت خاوية تماماً من الماء .

وذات يوم من أيام القيظ ، وقد بلغ بنا العطش مداه بعد أن نفد الماء كله ، وجمعنا المتبقى منه فى الأوانى القذرة ، ولحس الناس صدأ الماء فى قاع الخزان ، ومرّ يوم . . ثم يومانِ ونحن عن الكلام صائمون . . توفيراً للماء فى اللعاب ، إذا بصمت الصحراء المهيب ، يقطعه صوت يشبه صوت سيارة قادمة ، وخرج الناس من خيامهم مهللين ومكبرين . وصعدت فوق التل القريب ونظرت بالمنظار فلم أجد إلا الفراغ الكئيب ، إنه صوت سمعناه بالظمأ وأحلام الارتواء ، فقد هبت الرياح



فترة راحة فى أثناء البحث فى الصحراء ، ويُرى إلى اليمين رجل من العبابدة .. الذين التحقوا بالبعثة الجيولوجية للعمل بها

فجأة فأحدث احتكاكها بقمم الجبال صوتاً جسّمه أمل الحياة على ما نهوى ونريد .

وبعد صمت طويل قال قائل منا :

– ألم يحن الوقت بعد . . لكى تحرروا أنفسكم من ربقة المكثف الذى يمنحكم الماء مرة ويحرمكم منه مرات ؟ كفوا عن الذهاب إلى القصير ، واهبطوا وادى النيل واقصدوا النهر العظيم . . ماذا يضيرنا لو نتجه إلى الغرب بدلا من الشرق ؟ إنّ النيل كريم أصيل ، ولن ترجعوا منه مرة خائبين ، ونظرنا إلى الخريطة فإذا الطريق لم يزل إليه طويلاً ، وإذا به جدّ عسير ، ولكن الرحلة مهما كانت صعبة ففى نهايتها الماء مضمون .

ومنذ ذلك اليوم انقطعت صلتنا تماماً بشاطئ البحر الأحمر وأصبحت علاقتنا كلية بمدينة « إدفو » ونقلنا عنواننا من مكتب بريد القصير إلى مكتب بريد إدفو .

ومضت أيامنا رتيبة ، لا يقطعها إلا فرحة وصول الماء ، كنا نشعر مع كل مرة تصل فيها السيارة سالمة وكأننا بعثنا من جديد .

وذات يوم وصلت هذه السيارة ، وفيها خطاب رسمى له أهمية كبيرة بالنسبة لنا ، كل ما فيه أخبار سارة ، ومن الخطابات ما يكون نقطة تحول حقيقية فى الحياة . وهكذا كان ذلك الخطاب بالنسبة لنا . يوجه قسم الجيولوجيا والخامات الذرية الشكر للبعثة . على ما اكتشفت من مواقع مشعة هامة .

ويبلغنا بأن وادى العطشان الذى عملنا فيه منذ سنين وهجرناه كما هجرنا غيره من الأودية ، تقرر أن يبدأ فيه أول منجم تجريبى لليورانيوم . . فى تاريخ مصر ، كذلك تقرر وقف العمل فى البعثة لكى تستأنف عملها فى الخريف القادم فى مكان آخر جديد .

وفى الخطاب خبر آخر يخصنى : إننى رشحت للسفر إلى أوربا .

وانتهت رحلتى . . فى بلاد العبابدة ، لكى تبدأ رحلة جيولوجية جديدة . . فى القارة الأوربية .

فهرس

رقم الإيداع	١٩٨٠/١٥٧٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٩٠٩ - ٥

١/٧٩/٢٨٨

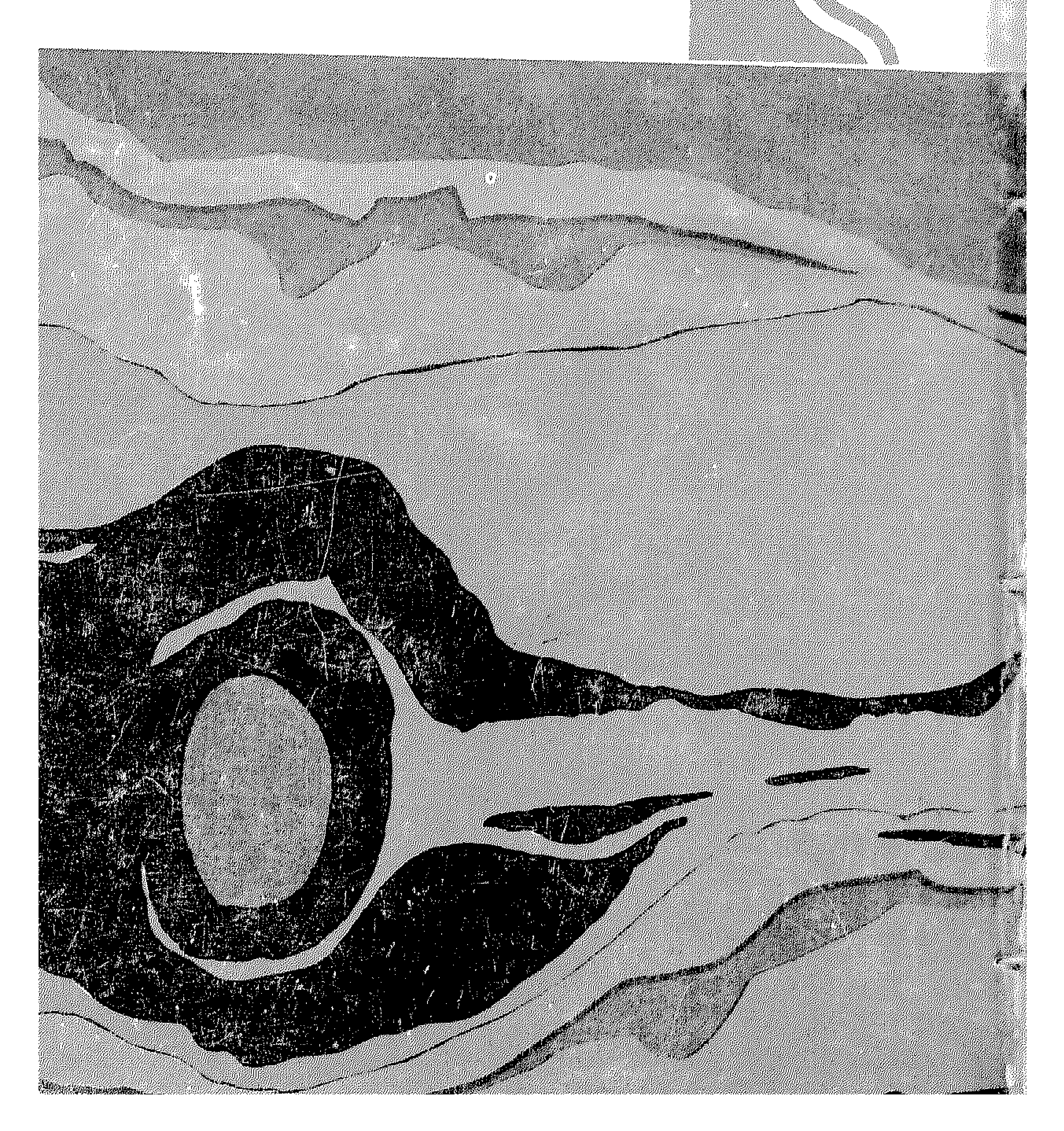
طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



اقرأ

فتحي رضوان

الخليج العاشق



اقرأ
تصدر أول كل شهر
[٤٥٥] - إبريل - ١٩٨٠

رئيس التحرير أنيس منصور

فتحى رضوان

الخليج العاشق



دار المعارف

تصميم الغلاف : **شريفة أبو سيف**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

فهرس

مملكة الطفولة

لقد كشف لنا تاريخ الإنسانية على مر عصوره وأدواره أن الحدود هى مبعث الخلافات ، ومثار الحروب بعد المنازعات . تنازعت القبائل ، وهى تبحث عن المرعى من جراء حدود الأراضى ، واختلفت الدويلات على ما يدخل فى أرضها وما يخرج من أرض الجيران ؛ لأن بضعة فراسخ تروح يمينا ، أو تمضى شمالا تعنى منبعا لنهر ، أو منجما من ذهب ، أو بئرا من نفط ، أو ثغرا على بحر ، أو قمة فوق جبل ، أو موقعا منيعا يصد الغزاة ، أو مدخلا سهلا ، يتسلل منه العداة .

وقد كنت أحسب أن الحدود المثيرة للنزاع ، هى الحدود المرسومة بالقلم والمسطرة على خريطة ، فلما عزمت أن أكتب قصة هذا الصبى المصرى بعد أن فرغت من كتابة قصة طفولته فى كتاب « خط العتبة » رأيت جانبا طريفا من مشكلة الحدود ؛ فقد كنت أحسب أن الحدود بين أدوار عمر الإنسان واضحة المعالم ، بينة المواقع لا

يختلف فيها اثنان ، ولا ينتطح عنزان ! ولكن لم ألبث حتى عرفت عكس ما وهمت ؛ ففي أدوار العمر الإنسانى حلقات يتنازعها الجيران ، حتى لا تكاد تعرف لها فى حياة الإنسان حيزا تقنع به ، ويقنع بها : فالطفولة دور له مقام يقربه الجميع ، وتؤلف فيه الكتب وتنظم القصائد ، وتنشأ حبا وتقديرا له ، المؤسسات وتقام من أجله الدور ، وينافسه فى كل هذه المزايا الشباب ؛ فالطفولة هى البداية ، وهى البراءة ، والطفل هو ابتسامة الحياة ، وقرة أعين الأبوين ، وضحكته فى البيت الحزين ناقوس من ذهب ، يبدد ظلام الحزن .

أما الشباب فهو ربيع الحياة تصل به إلى قمتها ، وتبلغ أجمل فتنتها ، وتصبح الدنيا أمامه ، ساحة فسيحة يتألق الجمال على جانبيها ، تتخللها الينابيع الضاحكة بمائها المتلألئ ، وخريرها المهموس ، وجريانها المتوارى غير المحسوس ، وهى مع ذلك ميدان معركة يطيب فيها الصولان والجولان بحثا عن الحب والمجد ، والتضحية التى توهم بالخلود ، وتوحى بالعظائم .

ولكن قل لى بربك : ماذا يكون دور (الصبا) ، بين مراحل الحياة ؟ وماذا يكون الصبى بين الطفل والشاب ؟ لا هو البداية ، ولا هو النهاية ، ولا هو أقصى القوة ، ولا هو غاية الضعف ، لا يذكره ذاكر ، ولا يطربه ناثر أو شاعر ، وإذا سألت الكتب أو الناس عن السن التى يبدأ بها الصبى صباه لم تجد جوابا شافيا ولا ردا هاديا وقد فرحت إذ ذكرت أن القرآن الكريم جاء فى موضعين منه لفظ الصبى مقرونا باسم نبيين كريمين ، وفى سورة واحدة هى سورة مريم ، ولكن الأمر زاد غموضا عندما لجأت إلى تفسير المفسرين :

فى أحد الموضعين : جاءت مريم عليها السلام تحمل عيسى ، وهى لم يمسسها بشر ، فهال الأمر قومها ، فسألوها كيف تلد وهى لم تزف إلى رجل ولم يعرف عنها

ولا عن أمها سوء ؟ فكان جوابها كما قال الله تعالى : « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ » .

ولعلك معى فى أن اجتماع لفظى « المهد » و« صبيا » يزيد الباحث حيرة . ويزيد البحث تعقيدا : فالمهد من خصائص الطفل ولوازمه ، أما الصبى الذى تقول كتب الطب إنه يكون فى السابعة – فكيف يحمل وهو فى هذه السن أو حتى الرابعة فى مهد ؟ وإن جاز أن يحمل على كتف بشىء من التجاوز والتسامح . ولجأت إلى كتب التفسير ، فلم أظفر منها بما ينقع الغلة ، فقد قال القرطبى : « وروى أن عيسى عليه السلام إنما تكلم فى طفولته بهذه الآية ثم عاد إلى حالة الأطفال ، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان ، فكان نطقه إظهار براءة أمه » .

فعيسى عليه السلام فى رأى المفسر العظيم ، كان طفلا يحمل على الأيدى . أو يرفع فى المهد ، ولكنه حينما تكلم كان صبيا ، انتقل من الطفولة إلى الصبا للحظة ، وعاد إلى طفولته ، ولكن تبقى الطفولة والصبا متداخلتين ، بل إن بعض الشراح يقولون : إن عيسى كان يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة ، وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار إليهم بسبابته اليمنى .

وفى موضع آخر من سورة مريم ، جاء عن نبى الله « يحيى » عليه السلام : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا) وجاء فى تفسير القرطبى عن الرازى عن « معمر » أن الصبيان قالوا ليحيى ، اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقت . فأنزل الله تعالى (وآتيناه الحكم صبيا) وقال قتادة : كان ابن سنتين أو ثلاث سنين . وقال مقاتل : كان ابن ثلاث سنين . ومن هنا ترى أن اثنين من كبار رواة الحديث الشريف ، يعتبران الصبى من بلغ الثانية أو الثالثة ، ولست أدرى : كم يكون عمر الطفل إذن ؟ كما لا أدرى إلى كم من السنين تمتد سنوات الصبا ؟

وهأنتذا ترى أن شكواى من ميوعة الحدود بين الطفولة والصبا شكوى تقوم على رجلين ، وأنها تخلو من المبالغة . ولا ذنب لعهد الصبا إلا فى أنه بين عهدين عظيمين ، ظفرا من أهل الأدب : كتابا وشعراء ومفكرين من العناية ، ما استنفد اهتمامهم ، فلم يعد باقيا منها ما يمكن صرفه إلى عهد الصبا الذى حرمه الله جاذبية الطفولة ، ورواء الشباب .

فإذا طالت قامة الصبى ، واشتد عوده ، ودبت إلى صوته خشونة ، وامتلأ بدنه بالقوة ، وأصبحت له لحية كثيفة تتدلى على صدره ، وشاربان حادان ، تصل أطرافهما كنصلى السيف إلى ما فوق الوجنات ، قريبًا من جفون العيون فإن طفولة الإنسان تبقى من خلف هذه المظاهر الغليظة وذلك التنكر الثقيل : فالرجل طفل كبير ، حسبه أن تنزل به النازلة ، أو يستبد به هوى شىء مما يسيل له لعاب الرجال : امرأة يهواها ، أو منصب يحلم به ، أو صفقة يتمناها ، أو مكيدة يفتل حبالها ، حتى تتعرى طفولته ، وتسقط عنها الأستار ، فإذا هو يبكى بكاء الأطفال ، أو يفرح فرحهم ، أو يتحلل من أسر الوقار ، أو يخرج من حدود الاحتشام ، فإذا تكلم وهو فى حالة من تلك الحالات – أدهشك أن ينقلب الجاد المترمت الرصين فى لحظة إلى طفل لا يضبط نفسه ، ولا يلزمها جانب الاعتدال ، بل يتركها على سجيتها تهزل وتسف ، وتبكى وتصرخ ، أو تقفز فى الهواء ، أو ترتمى فى الأرض لا تبالى أن يراها الناس على هذه الصورة ، وأن يكون الحافز على كل هذا أهون من أن يستدر من العيون دمعة ، أو يبعث من الصدور أنة .

والغريب أنه كلما تقدم بالإنسان العمر ، اقترب من الطفولة ، فبدت عليه مخائلها ، لا فى تصرفاته ومسلكه ، وما يحب وما يكره بل فى خصائصه البدنية فصوته يرق وخطاه تقصر وحاجته إلى رعاية الناس تزيد ، وميله إلى الثرثرة يشتد ،

ومن هنا ترى أن الأجداد والحفدة يتبادلون الحب والود . وطيب الأحاديث . ويسهل عليهم التعامل والتفاهم . فإذا وصل الإنسان الى أرذل العمر ، انقلب طفلا كامل الطفولة !

فلا عجب بعد ذلك أن يبهت دور الصبى إلى جانب دور الطفل ؛ وأن يصبح الحديث عن قصة الصبى أصعب من الحديث عن الطفل ، وغرائب أطواره ، ولطائف أدواره ، وأشق من قصة الشاب ، بمجازفاته فى دنيا الحب ، ومغامراته من أجل المجد ؛ ولكن لابد ، مما ليس منه بد !

فما دمت قد فرغت من قصة « خط العتبة » التى رويت فيها قصة هذا الطفل المصرى الذى كان بطلها فالترتيب إذن على قصة الصبى الذى استحال إليه الطفل .

طالت قامته وإن بقى نحيفا ، وأصبح أقل حركة وإن بقى قلقا لا يستقر على حال ، سريعا لا يعرف المسير إلا عدوا : والنزول على السلم إلا قفزا ، والصعود إلاوثبا . وتناول الطعام إلا خطفا . لا تراه أبدا إلا وفى يده « منديل » كأنه العلم المنشور . يضعه بين أسنانه حينا ، ولكنه فى جميع الأحوال لا يفارقه ، ثم هو محتقن الوجه . متصبب العرق لاهثا . يلقف أنفاسه : كأنه فى سباق مستمر مع منافس مجهول فى حلبة غير منظورة ومن أجل خاتمة غير مرئية يمارس كل ما يمارسه الصبيان وربما ساهم فى لعبتين أو ثلاث خلف المرمى (البلى) بين كل هجمتين أو يرى فى يد صبى مثله طائرة من الورق فيأخذها منه غصبا أو عن رضا . فيفرح بمرآها وهى تصعد وتعلو وتتأرجح فى الهواء . وتكاد تهوى على الأرض . فإذا ما اقترب الأعداء من الحمى الذى يحميه أسلمها لصاحبها وأنقذ الشرف ، وأدى الواجب . وعاد يبحث عن شىء آخر ، ولكن إذا كانت المباراة حامية الوطيس واللعب يستأهل

التركيز رأيته فى المرمى ، أو على خطوط الدفاع على الرغم من ضعف جسمه ونحوله متوثبا متأهبا ، تكاد نفسه تذهب حسرة وألما . لو أفلتت منه الكرة .

والحق أنه حمل جسمه أكثر مما يحتمل فقد كان كثير المرض ، لا يكاد يشفى من التهاب فى لوزتيه حتى يصاب بألم فيها من جديد ، وفى كل مرة يعد بأنه لن يعود إلى العنيف من عدوه وركضه ، ووثبه وقفزه . وصياحه وصراخه ، وتشتت ذهنه بين الألعاب ، حتى يكمل شفاؤه ، ولكنه ما كاد يستطيع أن يرفع رأسه عن وسادة المرض – والصفرة بادية فى وجنتيه . والضعف مطل من عينيه حتى تراه فى الطريق ومنديله فى يده يعلو ويهبط ، وينشر ويطوى ، وهو كريشة فى مهب الريح ، قلة وزن ، وكثرة تأرجح ، وسرعة عطب ، ولكن مغالبة المرض وإنكار حقه فى طلب الراحة والاستجمام كانت لذة هذا الصبى الضعيف الواهن ، وكأنها لعبة من ألعابه الكثيرة بيد أن هذا الصبى المسكين كان أشبه شىء « بدون جوان » أحب كثيرا ، لأنه لم يحب واحدة . فلو استأثرت به إحدى معشوقاته فآمن بها . واطمأن إليها ، ما أحب سواها ، ولانقطع لها ، فهو عاشق فاشل وإن بدا عاشقا غازيا فهو كشهريار قتل معشوقاته ، لأنهن جميعا كن لا يصمدن لتذبذبه . وتقلب هواه !

كذلك أحب الصبى كرة القدم والملاكمة والمصارعة ، ولعب « البلى » وركوب « الدراجات » وممارسة الألعاب الأخرى على اختلاف أسمائها وتباين قواعدها : فمن لعبة « الرستة » أو « الأولى » وإن كانت لعبة بنات ، أو لعبة الحجلة المعروفة باسمها الفرنسى (اتانسيو) أى الاهتمام ، والقفز على الحبل . وإن لم يتقنه قط ، دع عنك ألعابا لا أدرى هل كنت قد سمعت عنها ؟ مثل (الجديد) و (اليدس) والنطة « الإنجليزى » والطرة ، والقطة العمياء . وألعاب « الكوتشينة » والطاولة والدومينو . ومغازلة الشطرنج عند الاقتراب من سن الشباب ، وألعاب الذاكرة ، والذكاء ،

والألغاز والفوازير. عشرات من الألعاب لكل منها سحر ولكل منها وقت ، ولكل منها موسم يشتد الإقبال فيه عليها. ثم تُنسى ثم يتجدد الاهتمام بها والإقبال عليها. كأنها عرفت لتوها.

ففي الشتاء تحلو ألعاب البيت ، وتحلو هذه الألعاب في الأمسيات والليل ، أما في الصيف فتحلو ألعاب الطريق العام ، والأندية التي لم تكن نسميها « الشعبية » لأن هذه الكلمة لم تكن قد عرفت بعد. ولم نكن نقول قط عن أحد من الكبار أو الصغار : إن له «شعبية» لأننا كنا نقول : رجل طيب أو محبوب. أو «عشرى» : أو «خدوم» ، أو «شهم».

والحق أننا كنا سعداء بألفاظنا المتواضعة تؤدى لنا معانيها ، على أحسن منوال : وتزيد علائقنا توثقا كأننا أسرة واحدة تضم جميع الصبيان في جميع الأحياء في القاهرة كلها. وكأنهم نشئوا في بيت واحد. وتلقنوا في التربية أسلوبا مشتركا ، فما من مرة تجاوزنا الحي الذي نعيش فيه ، إلا رأينا أنفسنا أمام نفس الألفاظ ، وذات الألعاب ، وعين القواعد !

ولقد ماتت الألفاظ التي كان قاموسنا يعرفها ، اختفت ولم يعد أحد يذكرها ، بل لم يؤبنها أحد ، كأنها لم تضع نفسها في خدمتنا طويلا ، وكأنها لم تمنح كلامنا حرارة ولطفا وأنسا ، لم نكن نقول : « تخمني » لبيان محاولة إدخال الغش والخديعة والغفلة علينا ، ولكن كنا نقول : تستغفلني وتستكردني ، وكنا نقول عن الخام غير المجرب كروديا ، ونخشني ، كما كنا نقول عمن أعوزته رقة الإحساس : « بأف » و « دغف ».

لم تكن قد ولدت بعد ذلك ألفاظ مثل : هنبكة وبعككة ، و «على ودنه» ، ولكن هذه كلها ألفاظ الطريق في أيامنا لا تصل أبدا إلى حجرة الدراسة ، ولا إلى

البيت ، ولا تتسرب إلى لغة الصحف ، ثم قل أن تسمعها فى المسرحيات الفكاهية ، حتى لوكانت فى مسارح الدرجة الثالثة . كان الناس فى تلك الأيام أشد حرصا على استعمال الألفاظ : وأكثر إحساسا بالجمال والقبح ! ربما لأن كل شيء كان يتم فى نطاق محدود . يخلو من الزحام والتدافع ومن ثم ينجو من الضجيج والصراخ الذى يعود الإنسان كل ما هو غليظ وجاف . ولم يكن هناك سوى « الفونغراف » وقد كان صوته بالنسبة إلى أصوات مكبرات الصوت المستعملة فى السرادقات ، والمدارس والأندية وفى الحفلات رقيقا متواريا محتشما . أما صوت أجهزة الإذاعة التى تعمل اليوم بالكهرباء أو بالبطاريات الجافة — فقد عودت الناس فرقعة كدوى القنابل حتى أصبحت الأعصاب فى حاجة إلى غلاف خارجى غليظ فى مثل غلظه ، ظهر التمساح أو الفيل ، وفى ظروف كهذه تجد الألفاظ السمجة الجارحة الباب مفتوحا تدخل منه إلى البيت والجامعة والصحيفة .

ولد هذا « الصبى » القلق الكثير الحركة . السقيم البدن : الضعيف البنية فى عصر كله حركة ، وكانت لهذا العصر مفاخره العظيمة ، ومآثره الرائعة . ولكنه لم يكن عهدا بلا أسقام وبلا علل ، بل كانت أزماته ومآزقه وسقطاته وعيوبه فى مثل ضخامة أمجاده وجلال آثاره !

مات مصطفى كامل قبل أن يولد « الصبى » بثلاث سنوات ، ولكن بقى العصر موسوما بميسم منسوب إليه ، متأثر به ، كانت جنازته التى احتشد لها الشعب كله أول حدث من نوعه فى مصر منذ قرون ، ولعل مصر لم تشهد مثله من قبل ، وكانت صور هذه الجنازة حية فى الأذهان والنفوس ، وما هزت به وجدان المصريين ، وما استثارت من شعر الشعراء وقول الكتاب وتعليق الساسة ، وما أدت إليه من خروج السيدات والعقائل إلى الشوارع يشهدن ويخطبن ، وما أعلنته من

إرادة الشعب وتصميمه بكل طبقاته . فى مقدمة هذه الطبقات جميعا . الفلاحون الذين مثلهم سجناء دنشواى الذين فك قلم مصطفى كامل ولسانه إسارهم . . وأعادهم إلى الحرية .

وكان قد سبق مصطفى إلى ختام رحلة الحياة . محمد عبده ، ولحق به فى العام نفسه قاسم أمين . وكان فريد قد نزل إلى الساحة جادا صارما . لا يحسن المداورة ولا يعرفها : فاشتد الصراع بفضله بين الشعب ممثلا فى الحزب الوطنى ، وبين الإنجليز ، فحمى وطيس المعركة وسقط أول قتيل من الساسة فى معركة الوطنية ، وخفت صوت أصدقاء الاحتلال البريطانى . وتواروا عن المسرح إلا أن يكونوا وزراء تقتحمهم الأعين وتسلقهم الألسن . وتسيء الأمة بهم الظن ، ثم لم تلبث الحرب العالمية الأولى أن انفجرت فى دوى هائل هز أركان العالم ، حتى كاد يتهاوى واشتد أوارها حتى رأت الإنسانية على ضوء نيرانها المشبوبة عالما جديدا تتداعى فيه عروش الأباطرة والقياصرة وتخرج من أحشاء التاريخ القديم مواليد جديدة لم يسمع الناس بها من قبل : كحق تقرير المصير والديموقراطية للشعوب المغلوبة على أمرها ، والاشتراكية بأنواعها ودرجاتها ، والشيوعية بمصطلحاتها ومدلولاتها .

وفى مصر ساد الظلم ، فكسرت الأقلام ، وكممت الأفواه ، ونهبت الأرزاق ، وفتحت السجون ، وابتعلت المعتقلات شباب مصر الرافضين لسلطة الغاصب ، ولو دجج بالسلاح جيوشه ، ولو غطت الشمس أعلامه ، فأصبحت مصر كلها تهجس بالثورة ، وإن كانت لا تعرف كيف تندلع ولا على أى صورة تبدأ ، وأثمرت دعاية الحزب الوطنى وإن غاب زعماؤه بالموت والنفى ثمرتها ، فما كادت الحرب تضع أوزارها حتى اندلعت ثورة مصر فى التاسع من مارس سنة ١٩١٩ بتلقائية ، ولم يعرف التاريخ لها نظيرا ، وتشابهت أعمال أبطالها فى أقصى

الشمال ، وأقصى الجنوب دون زعامة توحى ولا قيادة ترسم ، واختفت تماما كل عبارات الظن الحسن فى الاحتلال البريطانى والرغبة فى التعاون معه ، وبدا هذا الاحتلال على حقيقته شيطانا مريدا ، لا يبغى إلا الفساد فى الأرض واسترقاق الأحرار واستعباد الأمم والشعوب .

فى هذا العصر الحر الملىء بإرهاصات مستقبل جديد ومجيد تتنفس فيه الآراء الجريئة وتخرج بفضله بطولات - طال انتظار مصر لها ولد « الصبى » .

وقد تأثر « الصبى » بهذه الثورة ، لأنها كانت فى الهواء الذى يستنشقه هو ، ويستنشقه كل الناس ، وقد دخلت إلى بيته . ووصلت إلى مدرسته . وسمعها ورآها فى الحى الذى يقيم فيه أناشيد ترتل ، وجنازات للشهداء تخترق الطرق ، ومظاهرات تبدو له فى الأفق . ويهل عليه صوتها الهادر من بعيد . ثم تقترب ، فيرى الأعلام تخفق وتهتز فى أيد ترتعش من فرط الحماسة قد امتلأت وجوه أصحابها بالدم وهم يتصورون عدوا ينازلونه : ويحاصرونه ويقضون عليه ، حتى يظهر هذا العدو حقا فى سيارات مصفحة وبنادق مصوبة ، ومدافع مسلطة ، ووجوه كريهة تعلوها خوذات ثقيلة تهدد بالموت وتنذر بالشر ! ثم تقع الواقعة فيدمدم الرصاص فى صوت متلاحق مكتوم ، ثم تسقط الضحايا ، فيغسل وجه الأرض دم فى مثل لون العلم المصرى الأحمر الذى كان يرفرف فوق الرءوس ، ويعلو على الهامات .

لوحات إثر لوحات تصل إلى أعمق الأعماق ، فتهز النفوس هزا ، وتنفض عنها أقبح عيوبها ، وأسوأ أمراضها : الخوف والحرص على الحياة وتبعث فيها أجمل فضائلها : استهداف الخطر من أجل خير عميم ، وأمل عظيم .

ولكن هذه الثورة التى صاحبت صبا الصبى لم تلبث أن خبا أوارها . واختفى نهارها . وحلت محلها حرب أهلية دبر لها الغاصب ، فأحسن التدبير . وتورطنا فيها

فى غفلة ليس لها نظير ، وقد كان لهذا كله ، صداه فى حياة الصبى ، فقد كان يرى ويسمع ، وكان ما يراه ويسمعه يعلمه ، عن طريق أن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة ، وأنه كما يمرض هو ويطول مرضه ، تضعف النفوس وتمرض الشعوب ، ولكنها تعود إلى الشفاء . ربما على مهل وفى بطء ، وقد تكون العلة بابا إلى عافية أكمل ، وقد يكون المرض درسا يقى من علل أعظم .

الزمان والمكان

الإنسان يحسب أنه يتأثر بالمكان أكثر من تأثره بالزمان ، وهو لذلك يرد كل تاريخه إلى الأمكنة التى عاش فيها واتصل بها . وانتقل إليها . تاريخنا : تاريخ مدن وبلدان ، الوقائع منسوبة إلى موقع من الأرض ، لا إلى فترة من زمن ، فنحن نقول : « بدر » و « القادسية » و « جبل طارق » و « العلمين » و « ترلو » و « رشيد » و « إمبابة والأهرام » ، ولا أحد منا يقول موقعة السابع عشر من رمضان ، فى السنة الثانية من الهجرة . ولو قال ما فهم عنه السامعون شيئا إلا أن يكون بين السامعين عالم بالتاريخ أو دارس له .

وتفسير هذا سهل ميسور ، فالإنسان مجبول على فهم المادى من الأمور ، والإحاطة به أما المجرد فلا تطيقه إلا عقول الفلاسفة والشعراء ، ومن ثم هبط العامة ، بالدين من الكليات إلى الجزئيات ، ومن المجرد إلى الملموس ، فهم

يقسمون بالنبي ، أكثر مما يحلفون بالله ويعرفون المصحف أكثر مما يعرفون القرآن . ويعرفون الولى أكثر مما يعرفون النبي ، ويحبون الضريح والقبة ويتبركون ويتمسحون بها أضعاف ما يتأثرون بالمعانى المجردة فى دينهم . كلها حركات متصلة بالمكان . ولهذا كله أحببت أن أحدثك عن ثلاثة بيوت عاش فيها الصبى ، حياة صباه وكلها فى حى السيدة زينب وأنا أروى لك قصة طفولة هذا الصبى .

أقول لك عن البيت الأول . فى (خط العتبة) أن صاحبته كانت ممثلة مشهورة فى أيام صبا هذا الغلام ، لأنها كانت الممثلة الأولى فى فرقة المطرب الأول فى مصر فى تلك الأيام ، كان اسمها «مليا ديان» . كانت تؤدى الأدوار النسائية الأولى فى تراجيديا سلامة حجازى ، ولقد صورها له الخيال سيدة طويلة القامة . مملوءة الجسم فى غير ترهل ، ذات أذرع بيضاء سمينة وطلعة بهية ، وصوت جهورى يملأ القاعة فأمن على هذا التصور من رآها رأى العين . وسمعها على المسرح تشارك سلامة حجازى فى أدوارها . وقد درج الصبى على القول بأنها حين كانت تزوره فى بيتنا الذى استأجرناه منها ، فى عربة تجرها الخيول ، تبعث زيارتها فى الشارع حركة ، فيجتمع الناس ، ليروها وهى تهبط من عربتها الفاخرة ذات الخيول المطهمة ، فيبعث ذلك كله فى نفس الصبى شعوراً بالزهو ، لأنه يقيم فى بيت تملكه فنانة جميلة مهيبة ذائعة الصيت . تشارك فى البطولة أحب المطربين إلى قلوب أهل بلدنا والبلاد العربية المجاورة ، وأستطيع أن أعترف لك الآن أن شيئاً من هذا لم يحدث ، فلا أنا أذكر أنها كانت تملك عربة فاخرة ، ولم يخبرنى أحد أن هذه العربة كانت تجرها الخيول المطهمة ، ولا أن هذه الزيارة كانت تبعث فى الحى حركة . وفى الشارع زحاماً أمام دارنا ، ولكن بقى أن تفسر لى ما الذى حملنى على أن أقول هذا الكلام فى أكثر من موضع دون أن أعنى تزييف الواقع ، ولا تجميله ،

ولا أطرف السامع بشيء يرضى فى الواقع صورا يتمناها ، أى يتمنى لو حصلت فعلا فى حياته ، لتضفى عليه أهمية وخطرا ، ثم يحسب الخيال حقيقة ، ثم يستولى الواقع على الوهم ، ويدمجه فى ذاته ويأبى النزول عنه ، ويرفض أن يطلقه من قيده وأسره .

هأنذا أروى الواقع . وأضعه بين يديك ، وأدع لك أن تحكم كما تشاء ، ولن أرفع أصبعى احتجاجا واعتراضا ، بل حسبى أننى كذبت نفسى . وأنا طفل وصبى ، لينتفع الأدب وعلم النفس إن كان فى حياة هذا الصبى شيء ينفع الناس .

ولست أدرى ما الذى جعل الصبى يتصور هذا البيت الأول على هذه الصورة أيكون مرد ذلك إلى أن الصبى كان – فى أثناء إقامته فى ذلك البيت – فى مطلع حياته ، فكان كل شيء وكل شخص يكبره كبيرا ، ولكنه حينما تقدم به العمر أصبح إحساسه بكبر الآخرين بالنسبة إليه ، وصغره هو أضعف .

فى هذا البيت – عرف الصبى أول امتحان فى حياته ، ولم يكن امتحاناً فى العلم ، وإنما كان كشفاً صحياً ، فقد كان دخول التلميذ إلى المدرسة الحكومية معلقاً على نتيجة الكشف الطبى ، وقد كان من أكبر عناصر هذا الامتحان امتحان قوة إبصار التلميذ . ولما كان . قادراً على أن يقرأ الصحيفة أو الكتاب على بعد أمتار فقد كان نجاحه مضمونا . ولكنه عاد إلى بيته شاعراً بالنصر . ولم يقلل من هذا الشعور أن جميع الذين اختبروا معه نجحوا نجاحه فقد كان يداخله شعور بأن نجاحه هو من نوع يخالف نجاحهم ، إذ ليس فيهم من يدانيه فى قوة النظر !

وفى أثناء إقامته بهذا البيت وقع أول تماسك بالأيدى بينه وبين زميل له ، والتماسك بالأيدى – وإن كان جزءاً عادياً من نشاط الصبيان – كان بالنسبة لهذا الصبى حدثاً ذا قيمة نفسية بارزة فقد عرف نفسه فى ذلك اليوم . وبقى ما عرفه

جزءا من تجربته النفسية ، لم تغيره الأيام ، فقد أدرك أنه لا يصلح لهذا اللون من النشاط الحيوى الطبيعى ، لا لأنه فقط ضعيف البدن كثير الأمراض ، فقد لاحظ أن أقدر زملائه على الشجار ، وأبرعهم فيه وأحبهم له ليسوا أقوى زملائه بدنا ، فالقدرة على الصراع البدنى نوع من اللياقة العصبية أكثر منه لياقة جسمية . وأبطال المعارك فى حارات القاهرة ، لم يكونوا قط من ذوى الأجسام الطويلة العريضة منهم ، بل كانوا فى الغالب على النقيض من ذلك رجالا أميل إلى القصر منهم إلى الطول ، ومن الهدوء إلى الصخب ، ومن النحول إلى البدانة ، ولكنهم عندما يجد الجد تبدو عليهم شراسة لا تدرى من أين جاءت ، وميل إلى الإيذاء لا يوقفه دم سائل ، ولا سلاح مشهر ، ولا سلطة تهدد بالعقاب والجزاء .

فى ذلك اليوم أمسك الصبى بتلابيب زميله ، وأمسك زميله بتلابيبه ، وكان الزمان ساعة مبكرة فى صباح اليوم المدرسى . وساحة المدرسة لم تمتلئ بعد بالتلاميذ . وهو لا يذكر سبب هذا الشجار ، ولكنه يذكر تماما اليوم — ماذا كان يساوره فى تلك اللحظات ، كانت كل لحظة جزءا منفصلا عما قبلها ، وعما بعدها ، يذكر موقفه من صاحبه ، ويرى فى وضوح كامل يده على ملابس زميله ، فهو لم يغب قط عن وعيه : ولم يصرفه الغضب ، ولا الرغبة فى النصر عن تتبع حركاته وحركات خصمه ، فأدرك فى الحال ، أن هذه معركة خاسرة ، أو بعبارة أخرى أنها ليست معركة إطلاقا ، فلا هو حريص على الوصول بها إلى غايتها ، ولا هو مؤمن بضرورتها . وحتميتها فليس هو إذن مقاتلا فى هذا الطراز من الصراع ، فأكبر ضرورات القتال أن ينسى الإنسان نفسه وألا يشغله مطلقا ماذا سيصيبه من هذا القتال أو ماذا سيصيب عدوه ؟ وأن يأبى أن ينهى المعركة متدخل .

أدرك الصبى أن طاقته الغضبية محدودة إذا ما وصلت إلى نطاق الأيدى ، وأنها

تبلغ أقصى الغاية حينما تكون فى نطاق الإحساس والفكرة . لقد مزق لزميله شيئا فى ثيابه . ومزق زميله ياقة حلته ، وجاء شيخ الفراشين فقال « أمسكوهم ! » . وتدخل التلاميذ وانتهت المعركة !

ولكن الصبى شعر بإهانة بالغة سممت حياته أسبوعا أو أكثر ، لا لأنه هزم ، فهو لم يهزم ، ولا لأن حلته تمزقت ، فقد كان قليل الاحتفال بخسائر من هذا القبيل ، ولكنه أدرك – كما قلت لك – أنه ليس من طراز المقاتلين الذين يراهم من زملائه ، يدخلون فى اليوم الواحد عشرات المعارك . يضربون ويتلقون الضربات ، ويجندلون فى الأرض ضحاياهم . ويسقطون معهم ، ثم يقفون ويستأنفون القتال فى إيمان وثقة وتلذذ !

آه لو كان واحدا من هؤلاء وإن كان أكثر هؤلاء من أقل التلاميذ حظا من النجاح فى الدراسة ، وأقلهم نصيبا من احترام المدرسين والزملاء ! ولكن إلى الجحيم الدراسة والنجاح فيها ، وإلى الجحيم الاحترام إلى جانب أن يكون الإنسان طليقا من القيود النفسية قادرا على أن يستغرقه الغضب ، فتهوى قبضة يده على الوجه والعين حيثما اتفق الضرب بلا تفكير فى النتيجة ، ولا حساب لها .

هذا التنبه الدائم لنتائج الكلام ونشاط الأيدى عبء يحمله الإنسان على صدره ، وكأنه ظهر السلحفاة الثقيل الذى يذهب معها أينما ذهبت ، أما هذا التفجر بالغضب وانطلاق ألفاظ السباب كأنما هى حمم من بركان – فتلك هى الحرية حقا !

وقد زاد من شعور الصبى بالإهانة أنه حينما رأى زميله فى المشاجرة بعد ذلك لم يحس له بالكره ولا بالرغبة فى معاودة القتال معه ، بل إنهما اجتمعا فى صف واحد ، فكلمه زميله فى لهجة المتودد ، فأوجعته هذه اللهجة ، لا لأنه ألفى صاحبه

متسامحا ، فيكون أكثر منه سموا . فمثل هذا المعنى لا يرد على خاطر هذا الصبي ، مهما أردنا أن نصفه بالنضج العقلي أو العاطفي ، وإنما كان مصدر الشعور بالإهانة أن هذا التلطف البالغ أطلعه على أن خصمه في الشجار لم يأخذه مأخذ الجد ، ولم يأخذ شجاره كما يفعل المتشاجرون عادة عراكا بحق ، وقد يدهشك أن تعلم أن الصبي عاش سنين يتحاشى الاتصال بهذا الصبي أو الاقتراب منه ، لأنه كلما كلمه رآه لا يذكر من واقعة الشجار شيئا ، وهو اليوم يؤكد لنفسه أنه يجهل اسم هذا الزميل ، ولا يستطيع أن يتذكر ملامحه ، وأغلب الظن أن نسيانه لاسم خصمه وملامحه ضيق بالمشاعر التي خلفتها هذه الموقعة .

وفي هذا البيت مرت بالصبي تجربة نفسية أخرى لم يحدث بها أحدا لا عند وقوعها ولا بعد وقوعها . حتى ظن أنه نسيها تماما . ولكنه حينما بدأ يستعيد ذكريات صباه إذ بها تقفز بقوة مملوءة بالحياة وبالحيوية معا ، وإذا به يحس بكل آلام الغربة التي كابدها يوم وقعت هذه الحادثة البسيطة التي كانت عنده يوم ذاك كبيرة وضخمة .

كان يلعب مع صاحبه « محمد » في حجرة « بيدرون » المنزل ، وكان هو يعيش مع أسرته في الدور الأعلى ، و« محمد » وأهله في الدور الثاني ، وما يتبعه من حجرات في أسفل المنزل ، وكان أبوه ووالد محمد مهندسين تخرجا في مدرسة واحدة ، ولكن والد الصبي اشتغل في مصلحة الري ، واشتغل والد زميله في إدارة بمصلحة المساحة تسمى « إدارة نزع الملكية » . وكان والد محمد ينتمي إلى أسرة تنتسب إلى « باشا » ، ثم خرج منها فيما بعد رجلان اشتغلا بالسياسة ، ووصل كل منهما إلى رياسة الوزارة كما خرج محام شهير اختير عضوا بالوفد عندما التهبت البلاد بالثورة ، فأسرة صديقه إذن أسرة لها مكانها في المجتمع . ولكن ما كان يدخل شيء

من ذلك فى عقل الصبى ولا تقديره ، فهو وصاحبه متساويان ، بل إنه يحس أن فى صاحبه سذاجة تدنيه شيئا ما من الغفلة وقلة الحيلة ، ولكن إحساسا جديدا غمر الصبى ، وأوجعه ، إذ فُتح الباب ذات يوم عليهما وهما يلعبان ، وإذا بهما فجأة أمام والد محمد ، دخل وهو يزم شفتيه وأنفاسه تتردد فى صدره ، مضطربة ، كأنما قطع شوطا ، ثم جلس على مقعد كان قريبا من الباب الذى فتحه ، ثم سحب ابنه من يده وبلا كلام أو مقدمات ، ثم وضع رأس محمد على أحد فخذيه ، وراح يضربه على إليتيه ضرباً متلاحقاً بكف يديه بطريقة لا توجع ، ثم دفعه إلى الوراء وانطلق من الباب لا ينظر إلى وجوهنا ، ولا يقول شيئاً .

تمت هذه العملية فى سرعة خاطفة ، ثم وقع نظر الصبى ، على وجه صاحبه . فإذا صاحبه حائر لا يدرى ماذا يقول مستخذيا لا يستطيع أن يرفع عينيه فى وجه الصبى الذى شعر بأن صدره يكاد ينفجر ألما ؟ وشعر بأن والد صاحبه ، جبار يستحق أن يعاقب أشد ما يكون العقاب ، ولكنه شعر أيضا بأنه عاجز عن أن يفعل شيئا ! فانطلق من نفس الباب دون أن يقول لصاحبه حرفا ، فلما بعد عنه انفجر فى البكاء ، ومضى يعدو حتى وصل إلى أولى درجات السلم المؤدى إلى الدور الذى يقيم فيه وكان له باب مطل على شارع آخر ، لا يفتح عليه « البدرون » الذى كان يلعب فيه الصبيان .

والغريب أنه لم يجد عنده الرغبة فى الصعود إلى بيته ، فقد جلس على الدرجة الأولى ، وراح ينتحب حتى شعر بأن ما كان عنده من دموع نفد ! ثم قام يصعد السلم كأنه يعانى من دوار ، فما كاد يصل إلى بيته حتى هال أمه منظره ، فاحتوته بين ذراعيها ، وهى تكاد تذهب نفسها حسرة على منظره الباكى ، وشعر بالحاجة إلى البكاء تتجدد . ومضى يبكى زمنا ، فلما هدأت نفسه روى لأمه ما جرى ، وهو يود

لو ينعت والد صاحبه بأقسى النعوت . . ثم طيبت أمه خاطره ، فانتحى جانبا شاعرا بالميل إلى العزلة ، فترة ولكن الصبى لم يلبث أن أدرك أن بكاءه لم يكن كله إشفاقا على صاحبه ، ولا مشاركة له . بل رأى فى أعماق نفسه شعورين لا يكاد يستطيع أن يحدث الناس عنهما ، كان أولهما شعورا عاديا مفهوما أن يساور مثله ذلك شعور الرعب من الوالد . والقسوة التى اتسم بها أداء العقاب ، مع أن العقاب نفسه كان بسيطا وهينا ، ولكن انفعال الوالد المكتوم الذى عاقه عن الكلام أضفى على الوالد – وهو مشهور بالطيبة – شكل الجلاد ، أما الشعور الغريب الذى أحس به الصبى – يوم ذاك أيضا . والذى لم يفض به إلى أحد – فذلك هو إحساسه بأن محمدا ووالده من طبقة أعلى من طبقته . فهذا الأسلوب فى العقاب لا يجرى فى بيته . وهذا الصمت الوقور الذى صاحب العقاب بدا كأنه علامة من علامات الحياة الرفيعة . وضايق الصبى أن يرى هذا كله . وقد كان ذلك فى الواقع مبعث تألمه ، وإحساسه بأنه جرح . كان إحساسه غامضا بطبيعة الحال ، فلم يستطع أن يصفه لأمه ، ولو وجد من يستمع إليه لفرج عن ضيقه وسرى عن نفسه . .

ومضت الأيام وأصبح والد صاحبه « باشا » ، وما من مرة رآه الصبى إلا تداعت صورة ذلك اليوم وما جرى فيه ، واضحة أكثر ما يكون الوضوح . . . وكبر الصبى ، حتى أصبح شبابه مقلقا لبعض الناس . . ومنهم الحكام فأودع السجون فى قضية الشروع فى قتل رئيس الوزراء ، وأحكمت الرقابة على الزنازين التى نزل فيها ، ونزل فيها زملاؤه فى القضية وشددت الحراسة . وندبت مصلحة السجون كل ليلة ضابطا يقضى الليل فى السجن ساهرا زيادة فى التوقى والاحتياط ، على أن باب السجن الرئيسى كان يغلق بمفتاح فى ذلك الباب . . ويودع المفتاح ظرفا يختم بالشمع الأحمر ، ولا يفض إلا فى صباح اليوم التالى بمحضر يثبت فيه أن الختم لم يمس .

وفى ذات ليلة . وكان السكون يشمل السجن . . وكان المساجين قد أخلدوا إلى الراحة أو كادوا ، فهدأ صياحهم ، وغناؤهم وشجارهم ، وانقطع كلام المحبوسين على ذمة القضية السياسية من شراعات الزنازين ، ثم دبت حركة غير عادية ، أفزعت الجميع . فنفى النائمون النوم عن عيونهم ، وانتبه الذين كانوا قد لاذوا بالصمت فى إغفاءة تمهيدا للنوم أو استحضارا له ، وسمع لمزاليج الباب الكبير دوى فى الليل الساكن ، كما سمع وقع أقدام تروح وتغدو ، كأن حدثا هاما قد وقع ، أو شخصية كبيرة رأت أن تفاجىء السجن ، وأن تتيقن من يقظة الحراس . وسلامة إجراءات الأمن والاحتياط ، وانتبه الصبى ، أو انتبه الشاب الذى نحكى قصة صباه . وتساءل بدوره ماذا يكون قد حدث ؟ أتطور جديد فى القضية ، أم قضية جديدة مماثلة ، أم مسجون لفظ أنفاسه فى الزنزانة ، أم اشتدت به العلة أو الوجع ؟

وفيما هو يتساءل إذا بباب زنزانته قد فتح ، وبدا على الباب ضابط سمين . تتردد على شفتيه ابتسامة خجلة . وكرت الأيام إلى الوراء فى لحظة أو جزء من لحظة ، ونسى كل ما كان حوله : نسى السجن ، والزنزانة والقضية التى حبس من أجلها ، بل نسى الضابط الذى كان واقفا على الباب ، وخجله يمنعه من أن يتصرف كما كان زملاؤه يفعلون : فقد رأى الصبى الذى أصبح سجينا سياسيا : رأى محمد صديقه فى بيت شارع سلامة . . ورآه صبيا صغيرا ، واقفا خلف باب حجرة فى « البدرون » بعد أن ضربه أبوه . على طريقة أهل الأرستقراطية وبأسلوب الذوات ، ومد الضابط له يده ، والسعادة والألفة والامتنان تشمله ، وأمر الضابط ، فى حيائه الذى لايفارقه السجان أن ينصرف ، وأغلق الباب خلفه . وجلس يتحدث إلى صاحبه ، حديث صبيين صغيرين ، ومضت الساعات فى كلام من هنا ، ومن هناك لا انتظام له ولا ارتباط ، فقد كان « محمد » ممن لم تمنحهم السماء موهبة

الحديث الطلى ، ولكن فى مثل تلك الظروف يصبح أى حديث من ضابط مع مسجون طليا وشهيا معا ، وزاد من طلاوته ومن حلاوته أن رئيس ديوان الملك القائم آن ذاك فى الحكم كان قريبا لمحمد . . . أما المساجين الآخرون فقد تعبت أقدامهم من طول ما وقفوا على مقاعدهم الخشبية ، ليعرفوا ماذا هناك وكلت أذهانهم من طول ما تساءلوا : ما معنى هذه الزيارة ؟ ومن الزائر ؟ وما وراءه ؟ وعرفوا فى الصباح شيئا عنها من الصبى الذى أصبح شابا ، وتكررت الزيارة ، كلما جاء دور محمد ليؤدى واجب الحراسة ، ثم أفرج عن الصبى ، وأنسته الأيام كل ماكان فى السجن ، وفى ذات يوم قرر أن يبحث عن صاحبه ، وأن يزوره : فى بيته أو فى عمله ، ثم نسى ذلك أياما ، ثم تذكر ، وخرج من بيته على نية أن يؤدى الزيارة لصاحبه بأى ثمن حالما يفرغ من قضية كان عليه أن يترافع فيها ، وفى أثناء جلوسه فى مقعد المحامين ، ينتظر بصبر نافد أن يحضر السادة القضاة ، مد يده إلى جريدة الصباح ، وأجال فيها نظره ، لغير غرض واضح ، سوى دفع السأم الذى تملكه ، وسقطت الجريدة من يده حقا لا مجازا ، فقد قرأ فى رأس العمود الأول فى صفحة الوفيات اسم صاحبه وزميل طفولته ، ولم يستطع أن يفكر ، كما لم يستطع أن يبقى فى مكانه ، والتفت بمشقة إلى زميل كان يشاركه فى الجلوس فى المقعد بقاعة المحكمة أن يحضر عنه فى القضية ، ويلتمس التأجيل فيها لأنه قرأ الآن نبأ وفاة عزيز عليه ، ومضى تائهاً فى الشوارع لا يدرى أين يذهب ؟ ولا ماذا يفعل ؟ وكلما رأى والد صاحبه بعد ذلك ود لو يأخذ يده ليقبلها وما من مرة نظر إلى وجه الباشا والد محمد ، إلا رأى فيها صورة من تقاطيع والده هو ، وإن كان الشبه بينهما فى الواقع ضعيفاً . فكيف تحول والد «محمد» من جلاد إلى والد حنون ومحبوب ؟

وفى بيت شارع سلامة ، وقعت حادثتان صغيرتان ، غاية الصغر للصبى ككل

حوادث صباه ، ولكن بقى أثرهما – كالعادة أيضا – فى نفسه طويلا . . وجرت الحادثتان فى المدرسة !

كان من بين الذين درسوا للصبى . فى مدرسة محمد على شاب طويل من خريجى دار العلوم الذين اختاروا البذلة الأوربية والطربوش زيا لهم ، ونضوا على أنفسهم ، العمامة والجبة والقفطان وكان أفراد هذه الطليعة الثائرة آن ذاك قليلين . وغاب المدرس عن المدرسة وقيل : إنه مريض ، ثم قيل إنه توفى ، وكان هذا أول نبأ وفاة يقع فى محيط الصبى ، ومر على النبأ دون أن يستوقفه طويلا ، فإن أحدا من زملاء المدرس لم يكلف خاطره أن يقول شيئا عن الزميل الذى غاب ، ولكن أصبح لهذه الوفاة معنى أكبر ، حينما وصل عدد مجلة اللطائف المصورة إلى بيت الصبى ، إذ رأى فيها صورة غير صغيرة لأستاذه ، وقد كتب تحتها أنه مات على إثر عملية جراحية بسبب « قيلة مائية » ! ارتفع مقام المدرس الفقيد فى عين الصبى ، فقد كانت اللطائف المصورة عنده ذات خطر ، فلم يكن يرى فيها إلا صور أناس كان يعرف من ذوى قرباه أنهم أشخاص مهمون وعظماء ، فإن ينضم إلى قائمتهم أحد معلميه فلابد أن يكون عظيماً بدوره . ولكن الذى احتاج إلى تفسير وبيان ، هو ما جاء تحت الصورة عن العملية الجراحية وعن القيلة المائية . وقد كانت العمليات الجراحية فى تلك الفترة غاية فى الندرة ، لذلك احتاج الصبى أن يشرح له خاله معناها ، وتيسر له أن يفهم هذا الشرح . ولكن الذى صدمه ، أن يعرف أن «القيلة المائية» فتق فى الخصية وأذهله أن يموت مدرسه لهذا السبب . وزاد من دهشته أن تنشر الصحف صورة رجل مات لعملية جرت له بسبب هذا المرض . وعبثا حاول خاله أن يفهمه أن هذه عملية ككل عملية أخرى . وأن مدرسه لا يد له فى وفاته ، وأن المجلة لم تخطئ إذ نشرت صورته ، فلابد أن يكون رجلاً فاضلاً وأن عليه أن يهنئ نفسه أن

يكون فى مدرسة تنشر المجلات صور العاملين فيها أحياء أو أمواتا !

وفى نفس السنة الدراسية وإلى نفس الفصل المدرسى الذى كان يدرس فيه المدرس الفقيد ذهب الصبى إلى المدرسة ببذلة من قماش « السكروتة » ، وحول عنقه ربطة عنق من نوع (البابيو) ولكنها كانت ربطة عنق حريرية حمراء فاقعة الحمرة . فمر به مدرس الرسم ، وهو يوزع عليهم أقلام « الباستيل » فقال للصبى دون أن يتوقف : أأنت بولشفيكى ؟ .

وسأل الصبى جميع زملائه عن معنى الكلمة ، وخشى أن تكون لفظا مهينا فلم يجد عند أحدهم الجواب ، ومضى إلى خاله ، وسأله ، ما معنى هذه الكلمة . . وأجهد خاله نفسه فى شرحها ولكن الأمر ازداد عند الصبى غموضا ، كان عليه أن ينتظر وقتا غير قصير . حتى يفهم معناها ، فهما كاملا . .

منازل وأرواح

وجد العقاد يوما فى رفوف مكتبته مسرحية « عطيل » لشكسبير ، إلى جوار رواية « الزنبقة الحمراء » لاناتول فرانس ، وكلتاهما تدور حول عاطفة الغيرة ، فهتف : إن للكتب أرواحا فشبيه الشيء منجذب إليه ، لذلك سعت الزنبقة إلى عطيل أو سعى عطيل إليها ، فتجاورا ، ولا يعلم إلا الله ، ماذا قالت إحداهما للأخرى . .

ولكن يبدو أن لكل شيء فى هذا الكون الرحيب روحا . ومن بين عناصر هذا الكون ، التى تتضح آثار روحها ، وتعبيراتها ناطقة معبرة المنازل من قصور وأكواخ .

والصبى الذى نروى ذكريات حياته يأبى أن يترك حديثه عن منزله بشارع سلامة . من حى السيدة زينب . وهو شارع يكاد يبز شوارع القاهرة جميعا ، إذ اجتمع فيه فى جوار حميم عدد من كبار الكتاب لم يجتمع فى وقت واحد فى شارع

آخر ، أما الذين اجتمعوا فى الشوارع القريبة غاية القرب من شارع سلامة ، فافذاذ مرموقون ، وهم كثيرون أيضا مع آخرين من ذوى الصيت الذائع والشهرة المستفيضة . فى دنيا الفن والفكر .

فقد كان يلاصق بيت الصبى فى شارع سلامة ، الشاعر على الجارم ، وكان آن ذاك معما عاد لتوه من إنجلترا بعد بعثة ضمت عددا من الصفوة من أبناء دار العلوم الذين سهروا على اللغة العربية ، وجددوا شبابها ، فكان منهم الكتاب والخطباء والمربون .

ولا ينسى الصبى أن أول مظاهرة سمع بها ، أو سمع هتافها كانت المظاهرة التى اجتمعت فى مساء ذات يوم من أمام منزل على الجارم ، ثم هتفت بسقوطه ، فأطل من شرفة منزله ، وأطلت عشرات من الرءوس . رءوس الصبيان والفتيات والنساء والرجال ، وهم لا يعرفون ماذا يجرى ، ولا يفهمون لهذا الصياح معنى ، فقد كان عهد المصريين بالمظاهرات جديدا غاية الجدة وخصوصا إذا كانت مظاهرات محلية ، فى شوارع جانبية ولو أن المناسبة التى هتف فيها المتظاهرون بسقوط الجارم كانت مناسبة عامة ، فإن الخلاف بين سعد وعدلى كان قد اشتد ، وكان كل من يقف مع عدلى ، يعتبر خائنا للوطن ، وخارجا على الإجماع ويستحق أن يهتف بسقوطه ، وقد كان هوى الشاعر الجارم كأكثر كبار الموظفين فى تلك الأيام مع عدلى باعتباره ممثل الصفوة الرصينة ، فى حين كان سعد ممثل الرعاع وأصحاب الجلاليب الزرقاء ، وقد كان ذلك مصدر تفوق سعد على خصومه الذين كانوا من نفس مدرسته وسر التفاف الناس حوله دونهم . .

وغير بعيد من منزل الجارم كان يسكن مدرس فى المدرسة الإعدادية ، الثانوية التى أنشأها عبد العزيز جاويش يدرس فيها الترجمة والتاريخ ، ولم يكن اسمه قد

بزغ ، ولا شهرته قد بدأت ، ذلك هو إبراهيم عبد القادر المازنى . وفى ذات ليلة عادت أخت الصبى الكبرى مع خاله وخالها ، وكانت نافذة حجرة المازنى مضاءة ، فأشار إليها وهو يقول : هذا بيت مدرس سيكون له شأن كبير : وبقيت الكلمة فى ذاكرة أخت الصبى . ! فذكرته بها مرارا ، كلما وجدت فى يده كتابا للمازنى .

وفى نفس الشارع . عاش طالب فى مدرسة الحقوق السلطانية ، لم يكن أحد قد سمع بشىء مما يؤلفه ، ولم يكن الفرع الذى اختاره ميدانا لقلمه ، مما اعتادت أقلام الكتاب والمؤلفين المصريين والعرب أن تقترب منه ، أو تجول فيه ، ذلك ميدان التأليف المسرحى ، ولم يكن ذلك الطالب سوى توفيق الحكيم الذى اتخذ من شارع سلامة وداره فيها ميدانا لحوادث روايته « عودة الروح » .

وخلف شارع سلامة أو بعده بشارعين اثنين منزل أحب كتاب مصر وإلى قلوب شبابها ورجالها فى ذلك العهد ، ألا وهو السيد مصطفى لطفى المنفلوطى صاحب « مجدولين » والعبرات والنظرات ، والتاج والفضيلة الذى جعل النثر العربى مزاجا من الموسيقى السهلة ، والأناقة المرسلة .

وفى نفس البقعة كان يقيم الشيخ عبد العزيز البشرى وهو كاتب فحل آخر لانت العربية الفصحى فى يده فاستعملها فيما لم تستعمل فيه من قبل ، حتى استطاعت أن تحمل إلى قلوب وعقول نكات ومداعبات وقفشات « أبناء البلد » ، فى لغة من الفصحى النقية ، فى رصانة لا تصد الناس عن تذوقها ، وكأن « الجاحظ » قد بعث ليكتب فى شئون حياة المصريين اليومية ، وجلساتهم على أفاريز الشوارع فى المقاهى والأندية و« البارات » وفى الأفراح والسهرات ، وقد كانت له فكاهات ومداعبات تروج على ألسنة ظرفاء أيامه كشاعر النيل حافظ إبراهيم . والشاعر إمام

العبد وعميد الظرفاء محمد البابلى ، وقد ذاعت له دعابة لاذعة . عندما خلع الجارم العمامة ولبس البذلة الأوربية . فقد قال : إن حافظا والبابلى يذهبان كل مساء بالجارم وهو يعتمد على ذراعيهما من يمين ويسار ، إلى ميدان عابدين يعلمانه المشى بالبذلة وقد كان ميدان عابدين المكان الذى يتمرن فيه الصبيان على ركوب الدراجات . عند بداية التعليم .

وقبل أن أصف لك شخصية بيت شارع سلامة ، كما وقعت صورتها فى نفس الصبى ، وبالقدر الذى كان يعى به الأمور ويفهمها – أحب أن أروى لك ، آخر ما بقى فى ذاكرة الصبى عن هذا المنزل من وقائع ، فقد عرف فيه أول السيدات العاملات اللاتى صادفهن ، فقد كانت المرأة العاملة كالمدرسة والطبيبة أو الحكيمة أو الممثلة أندر من الكبريت الأحمر . ففى محيط عشرات بل مئات من الأسر لا يسمع الإنسان عن واحدة ، تخرج كل صباح إلى عملها فى ديوان من دواوين الحكومة أو فى مكتب أو فى شركة . ولذلك كان من الطريف الذى يستحق الذكر أن يكون أمام دار الصبى فى شارع سلامة سيدة تعمل ضابطة فى إحدى مدارس البنات الحكومية . وهو لا يزال يذكرها طويلة عريضة ، مملوءة بالحيوية ، وبالطيبة وكان زوجها على النقيض منها قصيرا نحيلا ولكنه رجل يجمع بين الطيبة أيضا والذكاء والهمة ، وكان عائدا لتوه من إنجلترا ، فكان بدوره شخصية جديرة بأن تثير الاهتمام فى النفوس ، إذ كان العائدون من أوربا كالعائدين من القمر ! وكان ما يروونه عن مشاهداتهم فى بلاد بره ، أشبه بمجازفات أبطال المغامرات فى أدغال أفريقيا ، ولا ينسى الصبى ، أنه سمع فى غرفة المحامين بمدينة الزقازيق ، حديث المحامى الأستاذ السيد حامد فهمى ، شقيق أستاذ القانون محمد حامد فهمى . الذى درس « المرافعات » بعد ذلك بعشر سنوات وقد تحلق المحامون حول زميلهم ، وهو

يروى لهم شيئا غريبا غاية الغرابة ، رآه فى باريس فماذا تظن أن يكون هذا الشيء الغريب . كان تحدث المستمعين إليه عن « المنادى » الذى يفتح لك باب السيارة ، أو « التاكسى » من غير أن تدعوه لذلك . ثم تكون بعد ذلك ملزما بأن تدفع له مبلغا من المال . لم يصدق المحامون ذلك ، وانهالوا على زميلهم بالأسئلة : ماذا يحدث لك إذا لم تدفع «البقشيش» . وهل الحكومة تترك هؤلاء الأشخاص يفرضون أنفسهم على الناس وهل جرؤت على عدم دفع هذه الضريبة التى يفرضها هؤلاء السمجاء ؟ ولم يدر هؤلاء السامعون أن هذا الذى أثار تعجبهم . وتساؤلهم واحتجاجهم سيصبح ظاهرة عادية ومألوفة فى بلادنا بعد حين .

وقد كان لهذه الأسرة الكريمة فى المنزل المقابل أثر فى حياة الصبى أى أثر ، لا لأن هذه الأسرة . رزقت أول ما رزقت من الأطفال بنتاً ولا لأن أم الطفلة خطبته – وهو صبى – لابنتها – على عادة الأسر التى تربط الصداقة والمودة إحداها بالأخرى – والصبى يسمع عن هذه الخطبة ولا يشعر بشىء لا من الزهو ولا من الرضا ولا من السخط ، لأنه لا يدرى من هذا الكلام شيئا ، وإنما كان أثر هذه الأسرة فى حياته ، على وجه آخر ، فقد رشحت هذه الأسرة لأخت الصبى الكبرى زوجا ، وكان من أصدقاء الزوج الحميمين ، فشهد الصبى ، مراحل الخطبة وعقد القران والزفاف . وهى تجارب تحفز ذهن الأطفال ، وتطلعهم على جانب من الحياة ، يثقف وجدانهم . . ويوسع إدراكهم . ولكن كان لهذه الخطبة فى نفس وحياة الصبى ، أثر أعمق ، فخطيب أخته ثم زوجها بعد ذلك أصبح للصبى صديقا حميما مع أن فارق السن فى ذلك الحين كان ربع القرن أو يقل قليلا ، كان زوج أخته من تلاميذ مصطفى كامل ، فثبت عند الصبى حبه لمصطفى ، وإعجابه به . وإيمانه بمبدئه وكان قارئانهما ، لا يكف عن القراءة ، فقوى الميل فى نفس

الصبى إلى القراءة ، وكان ميالا للدراسة القانونية ، فانتسب إلى كلية الحقوق مع أنه كان قد أتم تعليمه العالى بنجاح ، فجعل عزم الصبى على أن يكون محاميا ومن رجال القانون قرارا لا رجعة فيه ، وهو بعد يكاد (يفك الخط) متعثرا .

ومن أمتع المشاعر التى مرت بالصبى حينما كبر ، وشاب رأسه — أن يسمع بولدين . لهذه الأسرة المحبة المجاورة (ولدا فى صباه ، ورأى أحدهما فى المهد ، ورأى صورة الآخر طفلا تسنده يد من خلفه « لبصور » وقد أصبحا ضابطين كبيرين أديا فى حياة مصر ، فى الحرب والسلم دورين كبيرين ، وما زال دورهما ممدودا إلى اليوم . وقد تعجب أنه لم يلتق بأى منهما قط وأنهما إذا رأياه فقد لا يعرفان من هو . وماذا يكون منهما ؟ وقد بقى جاهلاً لاسميهما حتى نبهته إحدى أخواته ، وهو يطالع خبراً فى الصحف ، أن ذلك الضابط الكبير هو الطفل الذى سمعت بمولده إبان كنا فى شارع سلامة . . وسكت الصبى — وكان آن ذاك رجلاً بل كهلاً — وهو يعجب من دورة الزمان !

وإذا كنا نود أن نخرج من نطاق ذكريات الصبى فى شارع سلامة ، لننتقل إلى سواها — فلابد أن نذكر أن قاضيا شابا عاش فى هذا الشارع على ما روى الصبى فى قصة طفولته . وقد أبى الشارع الذى اجتمع فيه وحوله الأدباء إلا أن يدرك بآفته آفة الأدب . هذا الشاب القاضى . فأحب بدوره الأدب . فلما عمل فى مكتب النائب العام محمد عبد الخالق ثروت باشا الذى ترافع فى قضية الوردانى ، ثم فى قضية إمام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام الذين اتهموا بالشرع فى قتل اللورد كتشنر والخديو عباس ورئيس الوزراء محمد سعيد باشا — وجد أن أستاذه ثروت باشا محب للأدب ، والأدب القديم ، أدب العقد الفريد والكامل ونفح الطيب وصبح الأعشى حتى كانت مرافعاته فى تلك القضايا قطعا من أدب القضاء والقانون ،

فنسج القاضى الشاب على هذا المنوال ، فلما أصبح نائباً عاماً بدوره ، وحصل على الباشوية وأصبح محمد لبيب عطية باشا ، وترافع فى قضايا الاغتيال السياسى ، كما ترافع أستاذه من قبل ، ومنها قضية «الفلال» الذى شرع فى قتل رئيس الوزراء صدقى باشا ألقى مرافعة حسنة الديباجة ، ولكن الوفديين الذين كانوا خصوماً للبيب عطية باشا ، تندروا ما استطاعوا على عبارات فى هذه المرافعات ، ووصموها بالتكلف . وهكذا دخل شارع سلامة فى تاريخ الأدب المصرى . لا بمن أقام فيه من الأدباء فقط ، بل بمن سكنوه من أدباء القضاة . . ولا تنس أن الشيخ عبد العزيز البشرى لم يكن أديباً منقطعاً للأدب ، وإنما كان قاضياً فى المحاكم الشرعية ، كما كان الحكيم وكيلاً للنائب العام ، فكلهم أدباء قانونيون أو قانونيون أدباء .

فماذا كانت صورة منزل الصبى فى شارع سلامة فى نفس الصبى أيام صباه .

كان يبدو له هذا المنزل كرجل قليل الكلام ، يحترمه الناس . ولا يعرفون ماذا يدور فى نفسه . أنيق بغير إسراف . يطل على الناس من عل ، ولكن بغير استكبار ولا تعال .

فماذا كان من أمر البيت الثانى الذى عاش فيه الصبى فى نفس الحى ، المعبق بذكريات الماضى ، وبآثار الأولياء ، وبأحداث تاريخ مصر الحديث الكبرى .

يكفى تقديمه . بأن أقول لك ، إن هذا المنزل حينما هدم أقيم على جزء من أرضه سينما كاملة ، هى السينما الأهلى ، بميدان السيدة زينب ، ولما أقيمت هذه السينما ، ذهب الصبى ، إليها ، لا ليشاهد فيلما . فإن الأفلام التى تعرضها ، لم تكن لتستهوى الصبى . وإنما ذهب ، ليرى كيف أقيمت على الأرض التى كانت مرتعا من مراتع صباه دارٌ عامة . تؤمها المئات فى الساعة الواحدة أو فى الوقت الواحد

مئات لا يعرف بعضهم بعضا ، بعد أن كانت هذه الأرض ذاتها تقل بيتا يضم أسرة صغيرة لا يزيد عدد أفرادها عن سبعة . ومعهم ثلاثة آخرون يعينونهم على شئون الحياة . سيدة وشابة ورجل . .

ولم يكن من خصائص الصبى الحنين المفرط للماضى فهو يذكره ، ولا يتجاهله ولا يتنكر له ، ولكن لا تنتابه عواطف الحزن ، ولا الأسف على الأيام التى انقضت ، ربما لفرط انشغاله بالحاضر ، أو لشدة تشوفه وتطلعه للمستقبل ، وربما لطبيعة مزاجه الذى لا يد له فيه ، والذى يختلف الناس بعضهم وبعض فى نصيبهم منه ، ثم يفلسفون الأمور بعد ذلك ، واهمين أن طبائعهم تخضع لفلسفاتهم وأن العكس ليس صحيحا . .

ولكن لنبادر بسؤالنا عن شخصية هذا البيت الذى يتكون من ثلاثة أدوار غير سطحه والذى كان يضم فناء ، طالما اتخذه الصبى ميدانا للعب كرة القدم مع لداته وأصحابه .

حاول الصبى حينما سمع هذا السؤال أن يسترجع صورة هذا البيت فى نفسه ، وبعد جهد استطاع أن يقول إنه بين البيوت كرجل لا شخصية له بين الآدميين ! وكثيرا ما نلقى من الرجال أو النساء فردا نحار فى وصف أثره فى نفوسنا . وإذا كان من الأسهل تقريب الأشخاص إلى النفوس والعقول باستعارة مذاق الأطعمة والأشربة : فنقول – هذا حامض ! وذاك لاذع . وذلك حريف ، والرابع حلو ، والخامس مر – فهذا البيت لا طعم له ! فهو لا يبعث البهجة ، ولا الانقباض ، ولا يستمتع بالهيبة ، ولا بالتواضع . تمر به فلا يستوقفك ، وتدخله فلا تحس أنك دخلت مكانا جديدا ، وإن كان تصميمه غريبا نوعا ، بل غريبا ممعنا فى الغرابة :

فعلى السلالم عدد من الحجرات الصغيرة التى تسمى بمصطلح المصريين

« المسروقة » . وكل دور فيه على اتساعه يضم أربع حجرات فقط ، لا تلتزم منهجا ذا منطق . تصل بين طرفيه طرقة طويلة رفيعة ، لا يمكن الانتفاع بها فى شىء . وفى أحد الطرفين حجرة فسيحة تكاد تصلح قاعة للمحاضرات ، ثم فى الطرف الآخر . حجرة أقل منها اتساعا تفضى إلى حجرة صغيرة ضيقة ، فما الذى انتاب عقل المهندس مصمم المنزل . ليبدد هذه المساحة الكبيرة على هذه الصورة التى تكاد تكون سفها . وكان المنزل يطل على شارعين أحدهما جديد . يجرى فيه « الترام » هو شارع الخليج المصرى ، والآخر قديم غاية القدم والطريف أن هذا الشارع القديم اسمه « الدرب الجديد » وأن الشارع الجديد . هو فى الواقع أقدم شوارع القاهرة لأنه الشارع الذى كان منذ قرون خليجاً تجرى فيه المياه . وكأنه شارع من شوارع البندقية . التى تحل فيها القنوات محل الطرقات . وتحل فيها قوارب الجندول محل العربات والسيارات .

ولكن هذا الخليج ردم ، فقد ألف المصريون أن يلقوا فيه جيف الحيوانات والدجاج والكلاب والقطط ، وأن يملئوه بأقذار القمامة ، حتى إذا أصبح مستودعا للنجاسة ، ومصدرا للأمراض ، اغتسلوا فيه وغسلوا فيه أوعيتهم ومواعينهم التى يأكلون فيها ويشربون ، فكان لا مفر من ردمه .

وكان هذا الخليج يشق القاهرة من أقصى الجنوب عند مصر القديمة ، وبالضبط عند فم الخليج حتى غمرة . فلما ردم الخليج . حل محله شارع جديد ، طويل غاية الطول ، تبلغ أرقام المنازل فيه بالمئات وتكاد تصل إلى الألف أو تتجاوزه .

وقد كان فى المنزل شرفات . تطل على شارع الخليج مصنوعة على طراز « المشربيات » التى يرى المناظر منها الناس ، وهم لا يرونه ، مما يؤكد أن المرأة حتى فى أشد عصور الحجاب . كانت على صلة بالحياة الخارجية ، بل لعل صلتها بتلك

الحياة كانت أقوى ، لأنها صلة ممزوجة بالشعور بالحرمان . مما يرهف الإحساس بالدقيق والرقيق والخفى من الأمور . ذلك لأن الحرمان يزيد إحساس المحرومين بلذائذ الحياة . فيحصلون منها على مالا يحصل عليه المتنعمون المتخمون . فكسرة الخبز عند الجائع الفقير تمنحه من المتعة والشبع . مالا يمنحه خروف حنيذ لمترف غنى .

ولقد كان الصبى يقف وراء نوافذ هذه الشرفات ، وينظر من خلال ثقوبها ، أو من النافذة الصغيرة التى تتوسط الضلع الأكبر من أضلاع الشرفة ، ويغطى هذه النافذة غطاء مصنوع من خشب المشربيات يدفع إلى الأمام ، فيرى الناظر بغير حجاب ولا ساتر . ولما كان أهم عناصر شارع الخليج هو « الترام » وكان الترام فى ذلك العهد سيد الشوارع التى يمر فيها . إذ لم تكن القاهرة نعرف من وسائل الانتقال ما تعرفه الآن ، وما عرفته بعد أيام صبا بطل قصتنا من الأتوبيسات وسيارات الأجرة والسيارات الخصوصية ، ووسائل النقل الخفيف من دراجات بخارية ، فكان « الترام » محورا لحياة متعددة الصور ، وكأنها شريط من الصور المتحركة ، لا نهاية له .

وقد زاد من ضخامة دور الترام فى حياة الصبى أن بيته كان على مرمى حجر من ميدان السيدة زينب ، وقد كان هذا الميدان نهاية خطوط عدة من خطوط الترام . فكانت المحطة الانتهائية عالما حافلا بالحركة والحياة ، تلتقى فيه طوائف من البشر ، من النساء والرجال والأطفال من أهل المدينة ، ومن أهل الريف ، من الأغنياء والفقراء ومتوسطى الحال ، فى أزياء لا حصر لها ، أشار إليها الصبى فى قصة طفولته . وكان إلى جانب ركاب الترام سائقو الترام ومحصلوه « الكمسارية » ثم المفتشون من المصريين . ثم كبار المفتشين من الأجانب ، ثم الشيالون الذين ينتظرون فى المحطات ، ثم بائعو الخردوات ، من « الفراتيك » والفلايات والأمشاط

والدبابيس والأزرار . ثم بائعو الحلوى ، وبائعو الصحف . وبائعو لعب الأطفال . . وفى كلمة ، كان سلم الترام ، سوقاً تتحرك معه . ويتوالى فيها عرض البضائع وقد تبلغ هذه البضائع من الجسامة بحيث تشمل قطع القماش أو الكتب والمصاحف . والنظارات وورق اليانصيب .

والطريف الممتع أن هؤلاء الباعة . عرفوا كيف يتقنون فنون البهلوانية الخاصة بهذا الترام ، فهم يقفزون إليه وهو سائر بأقصى سرعته ويقفزون منه ، ووجوههم متجهة إلى اتجاه الترام . إذ يديرون وجوههم ، ويقفزون فى اتجاه مضاد . وبضائعهم فوق أكفهم ، ولا تسقط ، ولا يسقط منها شىء ثم تدربوا وتقدموا فى هذا الفن الرائع ، فأصبحوا يقفزون من الجانب الأيسر من الترام ، وهو جانب تمد عليه قضبان حديدية لتمنع النزول منه ، ويرفع فيه سلم الترام ، فيصبح المتعلق بقطاره أو عربته من هذا الجانب كأنه متعلق بالهواء ، ولكنهم على هذا الجانب المحفوف بالخطر لا تطرف لهم عين ، ولا تقف فى أجسادهم شعرة ، ويستمرون فى عرض البضائع والسلع ، كأنهم فى حوانيتهم على مقاعد وثيرة ، لا يحسون بخطر ، ولا يهددهم الموت .

وقد جردت المحافظة أعوانا لها لا هم لهم إلا مطاردة هؤلاء الباعة الأبطال ، ومنعهم من القفز إلى الترام والقفز منه ، ولا سيا القفز من الجانب الأيسر ، فأصبحت هذه المطاردة لونا طريفا من ألوان « سيرك الترام » ، يطيب لمحبى التأمل فى حياة الشوارع أن يتابعوه ، وكأنها فصل فذ من فصول رواية ، من روايات مغامرات السينما التى بدأت تغزو قلوب وعقول وجيوب الصبيان والشبان ، ولا سيا شبان هذه الجماعة المجاهدة من باعة الطريق ، وممارسى الرياضة المحفوفة بالمخاطر على سلالم الترام .

ولقد كان للسيدات قسم خاص فى كل عربة ترام ، مكتوب على بابها « حريم » وكانت هذه الكتابة فى لوحة من الصاج ، وكانت الكتابة بالمينّاء البيضاء على أرضية زرقاء . وقد كان للشبان الذين يقفزون إلى الترام تشبها بالجماعة الجائلين ، غرام شديد بالوقوف على باب حجرة الحريم ، ليغازلوا علنا أو على استحياء ، سيدات وآنسات ، أسدلن على وجوههن ، براقع بيضاء من الموسلين الرقيق ، فزادتهم هذه الغلالة جمالا وإغراء ، إذ أخفت التقاطيع التى لا تستقيم كثيرا فى وجوه المصريات ، وتركت العيون التى هى أجمل ما فى المرأة المصرية ، لتؤدى دورها ، فى إثارة شجون ، وأوهام المحرومين .

وكثيرا ما كانت تسفر المغازلة عن ظفر الشاب الذى غامر بحياته ليقترب من حرم «الحريم» بصفعتين قويتين من شرطى يرتدى جلبابا للتخفى ، ثم يضع يده على كتف الشاب لجره إلى قسم الشرطة ، ولكن الشاب عادة يقفز إلى الطريق ويعدو ، ومن خلفه غريمه ، فتضحك السيدات والآنسات من هذه المفاجأة التى أنهت مغامرة ، وقعت من أجل سواد عيونهن حقا لا مجازا .

فلا عجب أن يكون « الترام » صديقا للصبى . يتابعه خارجا من المحطة النهائية فى ميدان السيدة زينب وعائدا إليها محملا بحمولته البشرية ، وكأنه مدينة صغيرة تتنقل فى بطء من مكان إلى مكان فى المدينة العظيمة . وقد أصبحت للصبى دراية أكبر بأرقام خطوط الترام واتجاهات مسارها ، ثم معرفة بوجوه سائقى القطر الذين كانوا يقفون أمام جهاز التسيير البسيط . ويميز بين عادات الواحد منهم عن الآخر . وكان فى المحطة النهائية مطعم خاص لعمال الترام من قادة و« كمسارية » ومفتشين صغار ، وهو عبارة عن منضدة يباع فيها لحم رأس الضأن ، فى أرغفة . كأنها الوالد الشرعى ، لما عرف بعد ذلك « بالساندويتش » الإنجليزى الذى كان غرامه بالقمار

سببا فى ابتكار هذا الأسلوب الميسر لتناول الطعام على المائدة الخضراء !

وكان أكثر قادة الترام يفضلون تناول طعامهم من لحم الرأس فى أرغفة يتصاعد منها بخار الموقد ، وهم يقودون قطرهم فيقضمون قضمات كبيرة ، تتضخم لها أشداقهم ، فتثير فى الصبى شهيته للطعام على الرغم من ضعف هذه الشهية وعزوفه عن الأكل لكثرة أسقامه . وقل أن أرى الصبى قائدا لترام يحمل بين يديه ، كوب شاى فلم يكن الغرام بالشاى قد استشرى استشراءه الآن ، فقد استأثرت القهوة بحب الناس فى تلك الأيام . وكأن الناس يتناولونها فى هدوء . وصفو مزاج لا وقوفا ولا متحركين كما يفعل الآن قادة «الأوتوبيسات» فى مصر بالشاى الذى أصبح مرضاً عضالاً لا علاج له ، ولا شفاء منه !

وكان «للترام» دور آخر فى حياة الصبى . فقد كانت مظاهرات تلك الأيام تبدأ أحيانا ، وتنتهى أحيانا ثانية وتجرى مرة ثالثة فى الترام ، فإذا حدث فى البلد حدث سياسى مرت قطر الترام أمام الصبى مملوءة بتلاميذ المدارس ، وقد ركزوا علم معهدهم عند السائق ، ثم تعلقوا بسلم الترام من الجانبين ، وغيروا مسار الترام وراحوا يهتفون ملء رئاتهم ، وإلى أكثر ما تستطيع حناجرهم . فإذا اشتد بهم الغضب . واستبد بنفوسهم اليأس انقلبوا على صديقهم الترام فأحرقوه ، وقلبوه على الأرض ! كانوا يفعلون ذلك بطريقة لا شعورية يوحى بها العقل الباطن ، فانتظام سير الترام معناه استقرار الحال ، وانقطاع سيره معناه أن الأمور لا تجرى مجراها العادى ، وأن الناس غاضبون وساخطون ، ومظهر المدينة الخالية من الحركة ومنظر العربات المقلوبة ، والمحروقة ، بلا شك منظر كئيب قاتم ، وهو يناسب تماما بلدا لا ترضى عن حالها ، ولا عن القائمين بالأمر فيها .

وقد كان من حظ الصبى أن يشارك فى مظاهرة كهذه المظاهرات ، وأن ينتقل

من دور المتفرج إلى دور الممثل ، وإن كان دورا ضئيلا شاركه فيه مئات الألوف من أمثاله من الصبيان ، وممن يكبرونه قليلا وكثيرا ، ومن السيدات ، والآنسات ، ممن كن يسمين فى ذلك العهد بالعقيلات وربات الخدور.

وكان ذلك فى اليوم الثلاثاء الثامن من شهر يونيو سنة ١٩٢٠ ، عندما نقل جثمان الزعيم محمد فريد من برلين إلى القاهرة على نفقة تاجر من تجار الزقازيق وهو الشيخ عفيفى خليل فقد خرجت القاهرة كلها ، بل مصر بأسرها . تستقبل هذا الجثمان . وهى تعرف أن صاحبه استشهد فى الغربة وحيدا . لا زوجة معه ولا ابن ولا رفيق ، مجردا من المال ومن السلطة فقيراً معدما لا يجد طعام يومه . ولا ثمن الدواء ليسكن آلام علة اشتدت به . وبرحت به أوجاعها . كل ذلك من أجل مصر ، ومن أجل استقلالها وحريتها . قصت عليه أمه .

قصت عليه أخواته قصة هذا البطل ، فلم يستوعبها ويفهم معناها . فحسب . بل إنه أحب صاحبها مع أنه كان يجد نفسه حائرا أمام هذه الهتافات التى كانت تملأ الجو بسقوط أشخاص وحياة أشخاص ولا أحد من أهله قادر على أن يقرب إلى ذهنه لماذا هذا الرضا ، ولماذا ذاك الغضب ولا الفارق – بين المغضوب عليهم ، والذين أنعم الوطن عليهم .

أما يوم الثامن من يونيو سنة ١٩٢٠ يوم أن ذهب الصبى ليستقبل جثمان رجل أبى إلا أن يحارب الإنجليز وقد تصور أنه قادر على أن يجليهم عن أرض وطنه ، فكان سعيدا غاية السعادة بأن يكون فردا فى هذا الجيش اللجب ، وأن يأخذ مكانه ضمن صفوف لا حصر لها ، وأن يسير على قدميه من ميدان السيدة زينب إلى ميدان المحطة ، وهى مسافة لا شك فى أنها طويلة وبعيدة لصبى ضعيف كثير الأمراض ؛ ثم سار فى نفس اليوم وبعد ساعات طويلة من ميدان المحطة فى أقصى المدينة ، إلى

مدافن السيدة نفيسة فى أقصى المدينة من الطرف الآخر لها ، ثم يدخل إلى المدفن الذى لم يتسع إلا لمائة أو مائتين ، فكيف استطاع أن يكون ضمن هذا العدد القليل فى ذلك اليوم الذى يشبه يوم الحشر. وسمع يومها واقفا خطبة رجل صاحب صوت مجلجل ومدو ، عرف فيا بعد أنه على فهمى كامل ، وحفظ كلامه ، وسرته طريقة نطقه لأسماء عواصم أوربا قال : سمعتكم تذكرون جهاد فريد فى برلين وباريس فقط . . وكأنه لم يجاهد فى فيينا وبروكسل ولوكسمبورج أيضا . .

كان يطيل هذه الأسماء ، وينطقها كما ينطق الفرنسيون ، فخيل إلى الصبى أنه طاف بهذه البلدان ، وعاد إلى بيته سائرا على قدميه يكاد يطير من فرط النشوة ، ولكن رحلة ذلك اليوم كانت أكبر من أن يحتملها بدنه الواهن ، فمرض مرضا طويلا ، ليكون المرض تدشينا وتكريسا لحبة لفريد ، ولما يمثله فريد فى حياته ، وفى حياة مصر . .

الخليج العاشق

الخليج العاشق هو – كما سبق القول – الخليج المصرى الذى كان يشق القاهرة من أقصاها جنوباً عند «فم الخليج» أو مصر العتيقة إلى أقصاها شمالاً عند منطقة غمرة .

هذا الخليج القديم كانت تقام على جانبيه الحدائق والبساتين وقصور الخلفاء الفاطميين ، كما حدثنا عنه على مبارك فى خططه التوفيقية ، كان نزهة للعيون ، وفرجة للنفوس ، ومنتجعا لطالبى الراحة والتسرية ، فى القوارب والمراكب الشراعية تتهادى فوق سطحه الهادئ ، وفيها أحيانا الطبل والدف والمزمار ، مما يستعمله من يسميهم المقريزى «أهل الخلاعة» ، حتى أمر الحاكم بأمر الله منع ركوب القوارب فى الخليج . ولكنى لم أكن أعرف أن هذا الخليج نفسه قد انتابته لواعج الهوى والغرام ، فأحب فلم يجد محبوبة تشابهه ، وتصلح مطمحا لقلبه ، وغاية لشطحات

وجده إلا «بركة الرطلى» ينتهى إليها ، ويصب ماءه فيها ، ويختلطان معا ، ويجد عندها ، بعد طول السفر الراحة والسكينة .

وقد شاء خيال المصريين «الفولكلورى» إلا أن يتخذ للقاء الحبيبين : الخليج والبركة ، عيدا ، تقام له زينات الأفراح ، وتتقاطر جموع القاهريين ، ومعهم وسائل الطرب ، يغنون ويرقصون ، كأنهم فى مولد من موالد الأولياء الصالحين ، ثم تضرب الخيام ، لفنون التمثيل الشعبى من خيال الظل إلى الـ «قره قوز» ، ويعرض أصحاب المطاعم ما لذ وطاب من صنوف الحلوى وألوان اللحوم التى تتصاعد لها أبخرة تدير الرءوس ، وتنشط شهية من أتخمهم كثرة الطعام كما أتخمتهم الفلوس ، ثم تدار الكئوس ، لتبلغ النشوة غايتها ، وتصل المتعة قمتها ، ولكن يبقى لمن لا يشبعون بهذا القدر من اللذات الحلال والحرام بقية من نشاط فى زوايا مستورة ومفضوحة ، تبذل فيها ذوات الجمال ما اختفى أو اتضح ، من مواطن الفتنة ، وعبث الشهوة . وقد اتسع مجال اللهو والإثارة ، وتعددت صوره ، حتى لم يعد للحياء مكان ، ولا للفضيلة زمام ، فوصل الأمر إلى السلطان ، فجمع أهل الرأى والفتوى ، فأمروا أن يمنع هذا المولد ، العجيب ، فضاع على الفن عيد أى عيد !

وقد فاتنى أن أخبرك أن ختام حفلات هذا الموسم الفريد كان زفاف الخليج إلى عروسه «البركة» . وكان يرمز إلى الخليج بشاب ، ممشوق القوام جميل المحيا تفوح من أردانه أجمل العطور يتمخطر على وقع الطبول والزمور ، وترشقه الأوانس بالورود والزهور ، إذ يرون فى شخصه الجميل ، وقده النحيل ، فارس أحلامهم ، وبطل غرامهم ، أما العروس وهى بركة الرطلى فلم يجرؤ أهل القاهرة على أن يرمزوا لها بفتاة ، فأصبح العريس لا يؤانسه إلا الخيال ، وهو ليس بالقليل على كل حال .

ولم يكن الصبى الذى نروى قصته وهو يطل من نافذته فى شرفته المصنوعة من

خشب المشربيات على شارع الخليج المصرى يعرف من قصة هذا الشارع شيئا ، بل لعل اسمه ، لم يسترع نظره إلى أصله . لأنه لم يكن يرى فيه ، إلا شارعا ككل شوارع القاهرة ، ولم يكن أحد من أهله ولا معاصريه يلتفت إلى ما توحى إليه أسماء الشوارع من تاريخ قديم لها مثل بركة ، وقنطرة ، وساقية ، وبئر ، فلا يتصور انه كان فى هذه الشوارع فى يوم من الأيام ، قنطرة حقا ، وساقية صدقا ، وبركة وبئر ، بل لم يفكر قط فى أن حى « البغالة » فى قسم السيدة زينب الذى عاش فيه وتنقل فى نواحيه كان فعلا موطنا لتربية البغال ، وأن حى « الفجالة » كان غيطا لزرع الفجل وهكذا وهكذا . .

نعود إلى الصبى ومنزله فى الخليج . وقد شهد فى هذا الشارع شخصية غريبة جديرة ، بأن تصور وتذكر ، وحادثة مؤلمة حقيقة بأن تروى وتقرأ ، ومأساة إنسانية ، سالت لها دموع الصبى حينما وقعت ، وبقيت أياما وليالى ، تؤرقه ويطارده خلالها شبح بطلتها التعسة الحظ .

أما الشخصية فلرجل قصير القامة متين البناء ملتح كانت لحيته السوداء الشديدة السواد ، تدور حول وجه جميل التقاطيع ، تلمع فى صفحته عينان براقتان فوقهما حاجبان غليظان ، يتلاقيان ولا ينفرجان ، وكان الرجل لا يرتدى زيا من أزياء المصريين ، لا القاهريين ولا أهل الريف ، فلا هو ممن يلبسون الجلباب المصرى ولا الريفى ، ولا الجبة ولا الكاكولة ، ولا البذلة والطربوش ، وإنما يصطنع لنفسه رداء أشبه شىء برداء بدو سوريا وفلسطين ، ينتعل « خفا » فى قدميه ، وشالا أبيض على رأسه ، يكوره بأسلوب خاص ، وتنسدل على ظهره من تحت هذا الشال ، ضفيرتان طويلتان . وكان عمل الرجل ، أغرب الأعمال ، لم يكن يشاركه فيه رجل آخر فى مصر ، على الأقل ، إلى حد علم الصبى آن ذاك ، فقد كان يصنع أحذية

وجهها من قماش أبيض كأحذية الألعاب الرياضية ، ولكن نعلها لا يصنع من المطاط ولا من الجلد ولا من الخشب ، وإنما من خيوط الحبال ، يضمها بعضها إلى بعض ، فوق قطعة من الخشب ، تنتثر فوقها بعض المسامير ، فيلف الحبال حول هذه المسامير ، ويدقها بمطرقة صغيرة من حديد ، لها يد من خشب ، ثم يستعين بفتاة قصيرة وفقيرة ودميمة لتشد وجه النعل إلى خيوط الحبل ، فتصبح حذاء خفيفا رخيصا .

ولكن العجيب هو أن أحدا لم يشارك « الشيخ سليم » فى مهنته هذه ، وقد اتخذ لممارستها حانوتاً يواجه منزل الصبى تماما ، وكان الشيخ سليم يتخذ من حانوته مصنعاً ومسكنا ومصلى وخلوة ، فهو يعمل فيه ، فإذا جاء المساء نام داخله على أريكة ، فإذا حانت ساعة الصلاة صلى ، وإذا فرغ من كل ذلك انتحى جانبا ، وتلا ما لم يدر الصبى كنهه : أدعية هى أو تراتيل أو تعاويذ أو « تعازيم » سحرية ؟

كان الرجل يعيش وحده ، كأنه يقيم فى جزيرة وسط المحيط ، ليس له أقارب ولا أصدقاء ولا عملاء ، ولكنه لا يقاطع جيرانه ، ولا يزورّ عنهم ولا يتعالى عليهم بدليل أن الصبى كان يتردد عليه ، ويتحدث إليه ، فلا يضيق به ، ولا يصرفه حتى برفق فضلا على أن يشتد فى الكلام معه . ويحاول الصبى أن يذكر ماذا كان لديه من حديث . يهتم به هذا الرجل الغريب فلا يستطيع ، ولكن تعلق بذاكرته حادثتان أو ثلاث ، أولاهما أن كتاب حديث عيسى بن هشام وقع فى يد الصبى ، وكان فى طبعته الأولى ، فقرأ سطورا فى أول الكتاب ، تروى كيف سار عيسى بن هشام فى صحراء الإمام ، وقد خلا إلى خواطره ينادمها ، وإلى نفسه يناجيها والقبور من حوله يشملها سكون عميق ، والصحراء أمامه ، يظللها ليل بهيم ؛ فخيل إلى الصبى أن هذا الكلام شبيه بما يقوله الشيخ سليم ، فأسرع بالكتاب إليه ، وقرأ منه سطورا ،

فأنصت الشيخ وكف عن طرق حباله قليلا ، فلما رأى أن الأمر كله وصف طويل ممطوطة ، وأنه لا يبش بفكرة عميقة ولا جديدة عاد إلى عمله ، وطوى الصبى كتابه .

الأمر الآخر يذكره الصبى عن هذا الشيخ أنه سأله يوما عن صلاته . فوعده الشيخ ، أن يصلى أمامه بصوت جهير حينما يوافى موعد الصلاة ، وأنجز الشيخ وعده ، ووقف يصلى صلاة قريبة من صلاة المسلمين ، ولكنها لا تطابقها ، فلعل الشيخ سجد ولم يركع ، أو لعله ركع ولم يسجد ، وما تلاه لم يكن الفاتحة . وقد حارت البرية فى مذهب الشيخ وملته : فمن قائل : إنه درزى : ومن قائل : إنه علوى ؛ ومن قائل : إنه ينتمى إلى طائفة من الطوائف الكثيرة التى تخلفت عن الحركات المعادية للإسلام ، والحركات الباطنية التى يختلط فيها الإسلام بالمانوية الفارسية ، وبعض عقائد الهنود غير الإسلامية

وقد حدث أن قرأ الصبى فى كتاب على فهمى كامل عن سيرة أخيه الزعيم مصطفى كامل أن الزعيم ولد مختونا ، فسأل الصبى عن معنى هذه اللفظة ، فقيل : إنه ولد على حال لا يحتاج فيها إلى عملية الطهارة التى يعانى منها كل صبى ، وتبقى من ذكريات طفولته المريرة ، وقيل للصبى أيضا : إن الصبى الذى يولد هكذا لابد أن يكون ممن ترضى عنهم عناية الله ، وفهم فيما فهم يوم ذاك ، أن عملية الختان جزء من طقوس الإسلام لا يكمل إسلام المسلم إلا بها ، فاختزن هذا كله فى ذاكرته ولما جاءت المناسبة سأل « الشيخ سليم » : هل قام بعملية الختان مادام يقول إنه مسلم ؟ وسكت الرجل ، ولم يبد عليه غضب ولا ضيق ، ولكن الصبى ذهب يوما إلى حانوت « المكوجى » المجاور لداره ، فإذا صاحب المحل يقول وهو لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الضحك : ماذا قلت للشيخ سليم ؟ إنه يشكو من أنك سألته :

هل هو مختون؟. وشعر الصبى بحرج شديد، فلما أفضى إلى ذوى قرابته بماسمع هالهم أن ابنهم اجترأ على طرح هذا السؤال على رجل لا تربطه به صلة حميمة بل على مجرد رجل. وبقى هذا الأمر كله من ذكريات الصبى غير السعيدة.

ولا ينسى الصبى صورة الشيخ سليم فى يوم كان الصبى فيه فى منزله مطلا على شارع الخليج، فقد رأى يومها الشيخ وقد ترك عمله، ورفع إلى السماء عينيه يديرهما فى الفضاء وقد ارتسم على وجهه من آيات القلق ما استطاع الصبى أن يطالعه من هذا البعد، واستمر الشيخ يفعل ذلك، وهو جامد فى مكانه لا يترك وضعه، وحار الصبى فى سر هذا الموقف حتى ادار رأسه مصادفة إلى المنزل المجاور، فرأى فتاة، واقفة على قاعدة نافذة مفتوحة، وبيدها خرقة، وهى تمسح بها زجاج النافذة، فى همة وفى حركة سريعة متصلة، وأشفق الشيخ على الفتاة من السقوط، واستبد به الخوف، حتى حال بينه وبين العمل، الأمر الذى قل أن يصدر عنه. وكانت أسنان الشيخ البيضاء تبدو لامعة ناصعة، وهو يفتح فمه من فرط القلق، وانطبعت هذه الصورة فى رأس الصبى، وأحس أنها صورة إنسانية تفيض بحب الإنسان للإنسان وجزعه لمصاب من لا يعرفه، فأحب الشيخ حبا عميقا.

وكان والد الصبى يزور الشيخ سليم فى حانوته بين الحين والحين، زيارات قصيرة يتبادلان فيها التحية والسؤال عن الصحة، ولكن قل أن يعود الوالد من إحدى زياراته دون أن يروى لأهل بيته ومنهم الصبى، شيئا طريفا أو جميلا أو مؤثرا أو غريبا من حياة الشيخ.

وفى أحد الأيام أفضى الوالد إلى الأسرة، بأن الشيخ واقع فى غرام الفتاة الفقيرة الضعيفة والدميمة التى تعاونه فى عمله، والتى تأتى كل مساء لتسلم ما انتهت من إعداده من النعال، وتتسلم الدفعة الجديدة منها، وأن الشيخ بدأ يتحدث عن

اهتمامه بالفتاة على استحياء ؛ فهو يتحدث عن ضعفها وشدة حاجتها إلى المعين ، وارتقى من ذلك إلى الحديث عن أمانتها واستقامتها . فإلى الحديث عن ذكائها وخفة ظلها ، حتى ترقرقت عيناه بالدموع يوما ، وهو يتحدث عن مرضها ، وانقطاعها عن العمل لهذا السبب وواساه الوالد ، ودعا الله أن تكون الوعكة خفيفة وسريعة الزوال ، فمست هذه المواساة الرقيقة شغاف قلب الرجل الوحيد الغريب ، فانهمرت عيناه بالدموع ؛ حتى أخجله أن يضبط فى هذه الحالة من الوجد واللوعة . . .

وبقيت هذه القصة القصيرة تساور خيال الصبى ، وتتردد عليه ، وتدعوه لأن يتأملها من جديد فيتخذها موضوعا لقصة أو رواية ولكنها كانت بذرة لا تثمر.

أما المأساة التى وقعت والصبى فى بيت شارع الخليج فهى جديرة بهذا الاسم بلا مبالغة ، إنها قصة زينب الفتاة التى عانت فى طفولتها من كساح ، فخرج بناء جسمها مختلا ، تحمل رأسا ضخما ، وكتفين عريضتين قويتين ، على جسم قصير ، وساقين ملتويتين قليلا ، وحوض ضيق ، ولكن زينب التى كان الناس يسمونها «زينب المكسحة» . وربما نادوها مباشرة بهذا اللقب ، كأنه اسم أبيها ! كانت فتاة ذات حيوية قوية البدن ، تتكلم فى لفظ بين ، وتعى الأمور وعيا حسنا ، وتقوم بالعمل فى البيت الذى كانت تشتغل فيه على وجه لا يدعو إلى الشكوى . كانت تعتنى بزينتها ، فتشترى لشعرها ضفائر مستعارة تضيفها إلى شعرها الأصيل . فيبدو شعرا طويلا ، وتشترى لهذه الضفائر المستعارة قروشا ذهبية تسمى «خريات» تعلقها بهذا الشعر ، لتزيده جمالا ، وكانت فوق ذلك تقتصد من أجرها ، فتشترى من المصوغ الزائف عقدا يسمى «كردانا» .

وربما وضعت فى شعرها وثوبها رائحة رخيصة ، ولكنها تنم عن حرصها على أناقتها .

وكان الصبي يألفها ، ويضحك معها ، كلما رآها ، وكان أحيانا يدس يده فى صدرها فى براءة الطفل وسذاجته ، وشقاوته ، فتضحك ، وتتظاهر بالغضب ، والطفل لا يرى فى كل ذلك ، ما يدعو إلى اللوم ، ولا يستوجب النقمة . وفى ذات يوم شكت زينب من ألم مجهول ، ومرض غامض ، وحار أصحاب الدار التى كانت تعمل فيها فى تشخيص علتها ، ولما غم عليهم الأمر استعانوا « بأم جليلة » التى كانت تعمل فى بيت الصبي ، وخلت أم جليلة بزينب التعسة حينا ، ثم خرجت لتعلن لأهل الدار شيئا بصوت هامس مرتعش ، وقد علا وجهها مظهر حزن صادق وعميق . . مم تشكو زينب المسكينة ؟ أى علة دهمتها ؟ ولم يطل الأمر ، فقد استدعى أصحاب الدار عربة يجرها حمار ، ووضعوا « زينب » فوقها ، وتطوعت « أم جليلة » بالذهاب معها . . إلى أين ؟ عرف الصبي بعد ذلك أن العربة بحمارها ومن تحمله ذاهبة إلى قصر العينى ! وأن قصر العينى هذا مستشفى ، وأن المستشفى مكان لمعالجة المرضى الميئوس منهم عادة ، وأنه قل من نجا من شر المستشفيات التى كانت تسمى فى أحيان كثيرة « الأشلا » ، لا نسبة إلى الأشلاء ، باعتبار أنه لا يذهب إليها إلا من أصبح أشلاء ، كما كان يظن الصبي ، بل تصحيفاً لكلمة تركية هى القشلاق .

وأدرك الصبي من الهمس أن « زينب » ارتكبت خطيئة ، وأنها تدفع ثمن هذه الخطيئة ، ولا ينسى الصبي شكل هذه الفتاة المسكينة التى كان يلعب معها ويعابثها ، ويخاصمها ويصالحها ؛ فقد كان وجهها شاحبا تعلوه صفرة الموتى ، وكان جبينها يتفصد عرقا ، وكانت تقاطيعها تتحدث عن ألم عميق ، يعتصرها اعتصارا ، وكان مع ألم الجسم ألم ممض ، وهو ألم الشعور بالعار . ومضت العربة بحمارها الهزيل ، والفتاة التعسة ، ملقاة على ظهرها ، كأنها جثة لفظت أنفاسها ،

وظهر أم جليلة على العربة كأنه يروى ويتحدث ويبكى ويصرخ . . لا لمأساة زينب «المكسحة» ، بل لآلام الإنسانية كلها ، وضعفها ، وهوانها وقلة حيلتها .

ولم يبك الصبى ، ولكنه وقف أمام باب داره ، وقد تثلجت يداه ، وتخشبت ساقاه ، وزاغت عيناه ، وغص بريقه ، وصمت واجما حائرا لا يدرى ماذا يقول ؟ ولا ماذا يفعل ؟

كان بوده أن يصحب زينب ، لولا أنه لا يدرى بالضبط بالأمر ، ولا إلى أى مكان تذهب ؟ ولما اختفت العربة خيل إلى الصبى أن كل شىء اختفى : بيته ، والشارع والترام ؛ وأنه نفسه لم يعد له وجود !

وشمله حزن غريب ، وقلت حركته ، وهو لا يكف عن الحركة ، وانقطع كلامه وهو لا ينقطع عن الثرثرة ، وسمع بعد ذلك من الأقاصيص والحواشى مازاده ألما ، وما بقى فى ذاكرته من هذه الأقاصيص والحواشى أن أحد أهل الشارع روى أنه كان عائداً متأخراً إلى بيته فى ذات ليلة فاصطدم هو برجل مخمور يتخبط فى الشارع ويصيح : يا بت يا زينب . . وقيل : إن هذا الرجل «عربجى» ، وأنه كان يلقى «زينب» فى ليال كثيرة فى حوش الدار التى تعمل فيها ولا أحد يحس بما يجرى هناك !

هل هذا خيال يوحى إلى الناس عند كل حادثة تقع ، أو أنه الحقيقة ؟ ولكن ما الفارق وقد اختفت زينب ولم يعد يسمع عنها أحد شيئا ؟ وقد قطع الجميع أنها لتشوه جسمها لم يكن وضعها للجنين إلا موتا محققا .

وإذا كان الصبى لم يشهد حادثة من الحوادث من شرفة منزله المطلة على شارع الخليج الذى يجرى فيه الترام أكثر مما يجرى فى أى شارع آخر بحسبان شارع الخليج هو أطول شوارع القاهرة فإنه تأثر بحادثة ترام لم يشهدها ، والغريب أنه لم يتأثر بها فور

وقوعها بل بعد وقوعها بشهور :

ففى ذات يوم خرج من مدرسته إلى داره فرأى جمعا حاشدا على مقربة من ميدان السيدة زينب عند اتجاه الترام إلى شارع خيرت فميدان لاظوغلى . وسأل عن الخبر فعلم أن صبيا كان يحاول التعلق فى الترام فسقط تحت عجلاته ، وأنه سيحمل فى عربة إسعاف إلى المستشفى . وتمهل الصبى قليلا ثم مضى إلى حال سبيله ، فاذا كان اليوم التالى علم أن المصاب فى حادث الأمس زميل من زملاء الفصل ، فذكر أنه كان صبيا أبيض اللون مستدير الوجه هادئا لا تعرف عنه رعونة ولا خفة ، ومضت شهور ، وعاد الزميل المصاب . وقد فقد إحدى ساقيه ، واستعاض عنها بأخرى صناعية ، وتهيب الصبى أن ينظر إليه ، وخاف أن تلتقى عيناه بعينى الزميل ، ولكن الزميل المصاب ، كان طبيعيا هادئا لم يبد عليه أنه شعر بأهمية خاصة لنفسه بعد هذه الإصابة ، فلم يشجع تصرفه هذا إخوانه على الالتفاف حوله ، والترحيب به . ومضت الأيام فإذا خلق هذا الصبى يتضح كلما كبر ، واشتد إحساسه بفقده ساقه ؛ فقد اتسم خلقه بالغلظة والجفاء ، وأصبح خطابه لإخوانه أقرب إلى العدوان والرغبة فى المخاشنة ، وبقى هذا طابع مسلكه ، حتى بعد أن أتم تعليمه ، ونزل معترك الحياة العملية .

وكان من المشاهد التى كانت من صور الحياة الثابتة فى شارع الخليج على مقربة من منزل الصبى صورة أسرة مكونة من زوج وزوجته . كانت أسرة فقيرة مدقعة ، يعمل الزوج فى مصنع للسرر الحديدية على بعد خطوات من دار الصبى ، ولكنه لم يكن صانعا بل حمالا ، يرفع السرر إلى العربات التى تنقلها إلى حوانيت التجار أو بيوت العملاء أو ينزلها من العربات إذا كانت فى حاجة إلى طلاء أو ترميم أو إصلاح . وهو يتقاضى لقاء هذا العمل التافه قروشا قليلة ، لم تعنه على شراء خرقة

تستر بدنه ؛ فقد كان يلبس أجزاء من ثياب ، وكانت زوجته فى مثل سوء حاله ؛ ولما كان أكثر وقتهما فراغا فقد كانا يشاهدان جالسين الواحد إلى جوار الآخر يتحدثان أو يأكلان معا قطعة من خبز ، وقليلا من أدام رخيص .

ولكن هدوء هذه الأسرة يفارقها فجأة ، فكانا يبدءان النهار بشجار كلامى يحتدم قليلا ، فإذا أوشك النهار أن ينتصف تحول إلى صراع ، يحاول الرجل فيه أن يضرب زوجته فلا يستطيع ؛ لأنها أسرع منه حركة ، وأقوى منه بدنا ، فهى قادرة على أن تناله بأسنانها وأظفارها ، فيدمى وجهه ، وتقع من ثيابه الممزقة قطع ، فيزداد جسمه عريا ، ثم تظفر يد المرأة بأجزاء حساسة من جسم رجلها ، فيسقط مغشيا عليه ، فيتدخل من الجيران بين الرجل وزوجه ، من يفصلها الواحد عن الآخر ، فيتفرقان ثم يهدءان ويعودان كأن لم يكن بينهما شجار . ثم يبدأ بينهما حوار عنيف فجأة ، ويزداد عنفا ، فيفضى إلى التماسك ، ويقع الصراع من جديد ، وتسقط أجزاء من الخرق التى يرتديها الرجل ويزداد جسمه تعريا ، ثم يغمى عليه فيثوب إلى رشده ، وهكذا دواليك . .

أيام وراء أيام والحال على هذا المنوال ، لم يشبعا قط من الضرب والصفع والركل والعض ، ولم يتغير وضع أحدهما من الآخر : المرأة دائما أقوى وأشد افتتانا فى العراك ، والرجل دائما مغلوب على أمره ، ولكن لم يفترقا قط ، ولا تبدو عليهما نية الانفصال أو الاتفاق أو مبارحة المكان ، ولا يتدخل أحد من الجيران ولا من عمال المصنع ، ليصلح ذات البين بين هذين الرفيقين الغريبين ، ولكن الخاتمة وافت أخيرا ، فقد سمع صراخ عنيف رهيب . ذات ضحى ، وخرج الناس من البيوت ، وأطلت النسوة من النوافذ فرأوا عجبا : رأوا الزوج لأول مرة وقد لف شعر المرأة على يديه ، وراح يلويه بعنف وهى تتلوى وتصرخ ، ثم أمسك بفتحة ثوبها القديم البالى

فشده إلى ذيله ، فإذا هى عارية تماما ، وأغمى على المرأة ، وعبثا حاول الناس ، إعادتها إلى صوابها ، وبقيت هكذا ، حتى تبرعت لها سيدة بثوب ، وقميص فأعادها ذلك إلى صوابها وبدأت تدير عينيها ، واستخذى الرجل ، فذهب بعيدا ، فلما تحركت امرأته قام فسار بهدوء بعيدا عن المكان فى خطا متثاقلة ، وأسندت المرأة ظهرها للجدار ، فلما مد رجل يده نحوها برغيف فيه بعض الطعام أخذت تقضم الرغيف وما بداخله فى هدوء وتثاقل وحزن ، فلما حل المساء مشت بدورها فى خطى متثاقلة ، ولم يعد أحد يرى أيا منهما أو يسمع عنهما .

حلاق الزعيم

أما الحلاق فهو الحاج طه ، وأما الزعيم فهو سعد زغلول .

وعلاقة الصبى الذى أروى لك حكايته بالحلاق وبالزعيم — أنه انتقل من بيت فى شارع الخليج إلى بيت يملكه الحاج طه .

ولم يكن الحاج طه شخصا عاديا بأى معيار قسته أو وزنته ؛ فقد كان حلاقا لرجل ، أحبته مصر حبا كاد يجاوز حبها وافتتانها ، بأى رجل سواه ؛ فقد نسجت حوله الأساطير ونسبت إليه المعجزات ، ورفعته إلى مراتب القديسين وأولياء الله ، ورفعه أقوام آخرون إلى مصاف أعلى وأسمى . وفى حياة الأمم والشعوب ، فترات يتقد فيها وجدانها ، وتلتهب مشاعرها ؛ حتى تصبح فى حاجة إلى ضرب من الوله تبحث له عن إنسان يجسده : ففرنسا مثلا فتنت بقائد لم يبلغ مبلغ «نابليون» فى البريق ، ولم يتمتع بما تمتع به الكورسيكى البطل من مخائل العبقرية وشارات

النبوغ ، هو الجنرال «بولانجيه» ، وكاد تاريخ فرنسا يتغير بسبب هذا الوله المفاجئ ، لولا أن بطلها المرموق وضع حدا لموجة التدله فى حبه ، بأن وضع حدا لحياته كلها على قبر معشوقة ، لم تره أهلا للاستئثار بقلبها .

ما علينا . .

وددت أن أحدثك عن الحاج طه ، وعن بيته الذى أدى فى حياة الصبى دورا بل أدوارا عظيمة وطويلة لولا أن لبيت الخليج المصرى ، فى ذمة التاريخ البسيط المتواضع الذى نرويه حقوقا صغيرة يجب أن نؤديها .

فقد مرض الصبى فى بيت الخليج مرضا طويلا يمكن أن نسميه مرضا عضالا أعيا نطس الأطباء حقا لا مجازا ، حسبك أن تعلم أن هذا المرض ألزم الصبى فراشه ستة أشهر أو يزيد ، منقطعا عن الدراسة تلح عليه آلام شديدة ، يحس بنارها الملتهبة ، وشوكها الحاد فى مفاصل يديه ورجليه . ولم يقنع هذا الداء الكريه ، بما يسببه للصبى من أوجاع حتى أضاف إليها مضاعفتين : صعوبة الحركة ، وورما عند الركبتين ، قيل : إنه ناجم عن «ماء» تفرزه الأجزاء الغضروفية فى المواضع المريضة ، فيصبح محسوسا ، تتضخم له الركبة ، ويترجرج عند الحركة . وكان يعالج الصبى آن ذاك ، أكبر أطباء مصر الباطنيين وواحد من عباقرة العلماء فى مصر ، ذلك هو الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا ، وكان فى فترة مرض الصبى فى مطلع شهرته ، قليل العناية بملبسه وبأثاث عيادته ، قليل الكلام مع مرضاه ، لا يهش لهم ، ولا يبش ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة العبوس والتقطيب والخشونة .

وكان هذا الطبيب العظيم قد عالج الصبى نفسه من قبل من أمراض أخرى خطرة كالتيفود ، ولكن الذى يعنينا من مرض الصبى أن طبيبا آخر كان يقوم بمساعدة الدكتور عبد العزيز إسماعيل ، وكان لهذا الطبيب الشاب بأسرة الصبى أكثر

من علاقة : فقد كان زميل خال الصبي فى الدراسة الثانوية ، وكان يساكن أسرة الصبي فى منزل شارع سلامة الذى حدثتك عنه ، وكان إلى جانب هذا كله الطبيب الخاص للصبي ، فلا ينقضى شهر حتى يعوده من أجل مرض بسيط أو خطير.

ومرت الأيام وكبر الصبي ، وأصبح شابا ، ورأت السلطات أن تزج به إلى سجن الاستئناف ، وكان طبيبه هذا من أطباء مصلحة السجون . وشاءت المصادفة أن يكون الصبي فى صباح أحد الأيام الشتوية يتنزه فى ساحة السجن ، فإذا به وجها لوجه مع طبيبه وجاره السابق ، وصديق أسرته فاستولت عليه فرحة لم يشعر بها حينما أفرج عنه من قبل فى قضايا سياسية ، ولم تكن فرحته بالطبيب راجعة لأمل يعقده على الطبيب ، ولا لخدمة يطمع فى الحصول عليها فى السجن ، فقد كان أكثر موظفى السجن حريصين على التلطف للمسجون السياسى أيا كان مذهبه ؛ حتى اختلفوا معه فى الرأى ، إلا أن يكون موظف السجن دنيئا ضيق العقل ، قليل المرءوة . وقد كان أمثال هؤلاء قليلين فى تلك الأيام ، لتفاهة الصراع الحزبى ، وقلة جدواه فى نظر الناس ، وإن لم يصرحوا بذلك أو يدركوه بعقولهم .

فرح الصبي إذ رأى طبيبه يتكلم مع موظف آخر من موظفى السجن ، ولم ينتظر الصبي حتى يقبل عليه الطبيب ، ويحييه بحرارة ، ويسأله عن صحته ، وصحة الأسرة فرداً فرداً ، ويذكره بأيام شارع سلامة ، وأيام شارع الخليج . وتصور الصبي العبارات التى سيقولها له الطبيب ، فخيل إليه أنه سيمسك بيده ، ثم يتأمل فى وجهه ثم يقول له : لقد مضت الأيام سراعا . . ولقد أصبح الطفل المريض شابا ، بل أصبح سياسيا . . دعنى أتأملك ؛ فإنى لا أصدق عينى ثم يلتفت الطبيب إلى زميله موظف السجون قائلا : إنك لا تتصوركم كان طفلا ضئيلا ، وضعيفا . . » .

ولكن شيئا من كل هذا لم يحدث ؛ فقد مد الطبيب إلى الصبي — الذى أصبح

شابا – يدا لا حياة فيها ، وقال ما نسيه الصبى لشدة الصدمة وقبح المفاجأة ، وكأنه كان معه فى الأمس القريب : وحارت ابتسامة على شفتى الصبى لا يدرى كيف يتخلص منها ؟ واسترد يده ، وهو يحس بأنها أصيبت ببلولة ، لم يدر أين مصدرها ، وعاد إلى الحائط الذى كان يسند إليه ظهره ، قبل أن يرى طبيبه القديم وعلى وجهه من آيات خيبة الأمل والحسرة ما لا وصف له . .

ولا تحسب أن الرجل فعل ذلك عن خوف من الحكومة ؛ فقد كان يرى ويعرف أن موظفين أصغر منه وآخرين أكبر منه كانوا يجاملون المتهمين السياسيين ، ويتنافسون فى التسرية عنهم ، وإجابة طلباتهم الصغيرة التى لا تخالف قانونا ، ولا تسبب للحكومة أذى ، وإنما كان تصرفه راجعاً إلى فتور فى الإحساس ، وبلادة فى الشعور ، وثقل فى اللسان . ولقد غفر الصبى له فى الحال ؛ لأنه كان يعرف خلقه ، وهو الخلق الذى كان يسميه الصبى – عندما شب عن الطوق – بالمزاج الليمفاوى – وهو لا يدرى حتى الآن نصيب هذا الاصطلاح من الصحة .

على أن الصبى لم يتعظ ، فقد عرف وهو طالب فى المدرسة الثانوية جارا آخر كان يعمل قاضيا فى محكمة أسيوط ، وكانت والدة القاضى صديقة حميمة لوالدة الصبى على الرغم من أنها تكبرها بكثير ، وعلى الرغم من أنها كانت دائمة الشكوى من تعصب المسلمين ضد الأقباط .

وكانت هى من أسرة قبطية كبيرة ، وكانت والدة الصبى ، تحب هذه السيدة العجوز ، وتحب ما تصور به أعمال المسلمين وتجنيهم على الأقباط وتضحك ما يشاء لها الضحك ، وتروى للصبى وأخواته ما يدور بينها وبين جارتها من طرائف ولطائف ، بل كانت هذه السيدة تحب الصبى ، وتؤثره بحلواها وكعكها ، وتجلسه إلى جانبها ، وتقبله فى جبينه وتدعو له بخير كثير ، ثم تختم هذا كله بضحكة تداريها

بيدها الصغيرة النحيلة وهى تقول : بس إياك يتمر فيك . . وما تطلعش زى بقية المسلمين ! فيقبل الصبى يدها ويقول لها : نحن لا نقبل الرشوة ؛ فتتظاهر بالغضب وتدعى أنها ستخطف ما أمام الصبى من كعك أو فطير أو حلوى !

فذكريات الصبى مع القاضى وأمه كثيرة وحية وحميمة ، ومضت الأيام وتخرج الصبى فى كلية الحقوق واشتغل بالمحاماة ، وكانت له قضايا غير قليلة فى محكمة عابدين ، ونقل القاضى الجار إلى هذه المحكمة ، وفى ذات يوم لمح الصبى رجلا يشبهه يسير نحو حجرة القاضى ، فسأل الحاجب بلهفة : من يكون هذا الذى دخل الآن إلى غرفة المداولة ؟ فقال الحاجب : زكى بك . . » وانتابت الصبى أو المحامى الشاب الذى كان صبيا من قبل فرحة شبيهة تماما بفرحته وهو فى سجن الاستئناف حينما رأى جاره الطبيب وهى فرحة بريئة خالية من الغرض ، لم يكن الباعث عليها أنه سيجد قاضيا يعرفه معرفة وثيقة ، فقد كان المحامى الشاب ، على صلة غاية فى الجودة بأكثر القضاة ، وكان منهم من يزوره فى مكتبه وفى بيته ، بل كان منهم فى القاهرة على الأقل ثلاثة من أبناء أسرته ، ولكن أن يرى الإنسان صديقا فى حال ثم يراه وقد اكتسب مكانا رسميا ، وقد كتب عليه أن يعامله فى حدود القانون فهذه هى السعادة . سعادة أشبهها بتظاهر الأب بعضّ ابنه مزاحا ودعابة ؛ ففرحُ الطرفين بهذه الدعابة – ترجمته : أنا أستطيع أن أعضك أو أؤلمك ، ولكنى لا أفعل ؛ لأنى أحبك . . وأنا أتظاهر بالعض ، لأقول لك : الآخرون يعضون حقا ؛ فما يسعد أن يوجد من يستطيع أن يؤذينا ، ولكنه بدل الإيذاء يضحك معنا ويلعب . .

كذلك يقف المحامى الصديق أمام القاضى الصديق ، وكأنهما غير متعارفين ، ويتجهم القاضى ، ويعترض المحامى ، ويأخذ القانون كل حقه ، ولكن يحس الاثنان أن من وراء هذا كله حبا لا ينكر ، ومودة لا تنقض ، وعدل لا يميل . . .

وهم المحامى الشاب أن يندفع إلى حجرة القاضى ليرحب به ويحييه ويدعوه إلى بيته ويسأله عن والدته ! ولكنه قد كبر وأصبح شديد التحكم فى نفسه ، قليل الاندفاع إلا فى المسائل العامة . وانتظر حتى حانت الساعة التى وقف فيها أمام القاضى بعد أيام ونظر إليه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة لا تكاد تلحظ ، وفوجئ بأن القاضى تجاهله تماما ولم يرد على هذه الابتسامة بمثلها أو بأقل منها . وعزّى الشاب نفسه أن ذلك فرط حيدة من القاضى . وتصادف أن الاثنين تقابلا فى نهاية النهار ، وقد فرغ كلاهما من عمله ، والتفت الشاب إلى القاضى فى حرارة مضبوطة جدا ، فإذا به يرى القاضى مندفعا فى النزول على درجات السلم ، ثم التفت فى سرعة خاطفة إلى الشاب وقال له : إزيك يا أستاذ ، وخيل للأستاذ الذى وجهت إليه التحية ، أن السماء أطبقت على الأرض ، ولكن حياته العامة ، وما رآه خلالها من سقطات الناس ، وأكاذيبهم ، ووضاعاتهم ودناياهم — كانت قد زودته بمناعة ضد الآلام الناجمة عن مثل هذه المواقف فقال للقاضى وهو يهبط درجات السلم بخطى أسرع من خطاه : الله يحفظك » .

وطال عمل القاضى فى محكمة عابدين ، وتعددت المناسبات التى يتلاقى فيها والمحامى الشاب الذى عرفه صبيا ولم تخرج العلاقة بينهما عن حدود الرسميات المخففة بالمودة الناشئة عن كثرة التلاقى وعن احترام المحامى لزملائه : محامين وقضاة . وبقى الصبى الذى أصبح شابا يتساءل : ألم يئن لهذا الحاجز الزجاجى أن ينكسر؟ وفى ذات يوم ذهب إلى محكمة جنايات الجيزة ليترافع فى جناية من أعقد ما مر به من قضايا ، قضية محيرة حقا ، لكن المستشارين لا يقرءونها حتى يستقر فى يقينهم أن عقوبة المتهم فى تلك الجناية يجب ألا تقل عن الموت شنقاً بحال . وترافع الشاب فى القضية مرافعة أراد الله أن تزلزل عقيدة المستشار الجار فى وجوب الحكم بالموت ،

ولكنها لم تصل به إلى يقين آخر . يطمئن إليه ويرتاح . . وفى اليوم التالى للمرافعة وكانت القضية قد نظرت أياماً رأى المحامى الشاب جاره القديم ، ورئيس محكمة الجنايات آن ذاك يتلطف معه ويسأله عن الصحة والأسرة . وهو مأخوذ لا يدرى ما هذا التحول المفاجئ ؟ ولكنه سر به على كل حال . بيد أن عجبه لم يطل ، فقد خلت المحكمة للمداولة ؛ وإذا بالمستشار رئيس المحكمة يؤجل الجناية لسبب تافه إلى دور مقبل ، وكان أحد المستشارين تربطه بالشاب المحامى صلة ، فلم ير حرجاً فى أن يقول للمحامى بعد ذلك بأيام «زكى بك . . استأذننا فى التأجيل ؛ لأن صلاتكما وثيقة تكاد تكون فى مرتبة القرابة» وسرنى أن تكون هذه الصلة قد كانت ذات نفع على أى وجه ، للمستشار الجار فقد أنقذته من حيرة لم يكن يجد منها مخرجاً !

نعود إلى بيت شارع الخليج ، لنؤدى له ما بقى فى الذمة : أى فى الذاكرة من حقوق : أى من ذكريات . .

وقد حدثتك عن مرض الصبى الطويل العضال فى أثناء إقامته فى هذا البيت ، وأريد أن أروى لك من ذكريات هذا المرض : اثنتين أولاهما هى فى واقع الأمر ظاهرة نفسية فى حاجة إلى محلل نفسى ؛ ليدرسها ، ويستخرج منها دلالتها ؛ فقد كان الصبى طوال مرضه يكتب بإصبعه السبابة على غطاء فراشه حرف الحاء بخط الرقعة بلا قلم ، عشرات المرات فى اليوم الواحد ، بل مئاتها ، وقد كانت المدارس الابتدائية فى تلك الأيام حريصة على أن تعلم الأولاد الكتابة المحسنة المتقنة بالحروف العربية ، وكانت توزع عليهم كراسات مستطيلة ، فى أعلى كل صفحة من صفحات هذه الكراسة سطر مطبوع إما بالخط الثلث وإما بالخط النسخ ، وإما بالخط الرقعة وكانت هذه الكراسات تسمى «مشقا» .

ولما كان خط الصبى رديئا إلى أقصى الحد ، فقد كانت حصة الخط ، وهى مرة

فى الأسبوع ، من أثقل الحصص عنده ، ومن أكرهها إلى قلبه فقد قل أن تمر حصه من تلك الحصص دون أن ينال من مدرس الخط وبخاصة فى السنة الثالثة ، من الأستاذ عبد الحافظ عصا على كتفه ! وكانت مع الصبى ساعة لا ينظر إليها إلا فى حصة الخط . فإذا نسيها أو تعطلت ، استعاض عنها بعد الستينات باعتبار أن كل ستين تساوى دقيقة فإذا انتهت الحصة والمدرس فى بداية الفصل تنفس الصبى الصعداء ، وارتفعت معنويته إذ نجا من ضريبة الضرب ، واستقبل الجزء الباقى من اليوم المدرسى سعيداً ، فإذا قاده سوء الخط ، إلى العصا المعهودة انقضى باقى يومه بغيضاً مراً .

وكان المفروض أن يكون الخط ، وكل ما يتصل به أبعد الأشياء عن خاطر الصبى المريض ، ولكنه بقى طوال الأشهر الستة ، يتمنى أن يبرأ . وأن يستطيع أن يمسك القلم بين أصابعه المريضة الموجعة ، ليكتب حرف الحاء بخط الرقعة . . لماذا الكتابة على الإطلاق ، ولماذا حرف الحاء ، ولماذا خط الرقعة ؟ ؟ معميات بقيت إلى اليوم ، بغير حل . والطريف أن الصبى حينما شفى من مرضه نسى تماما أمنيته القديمة .

وكان فراش الصبى غير بعيد عن الحجرة التى يتناول فيها باقى أسرته طعامهم وقد كانوا يجتمعون عند تناول وجبات الأكل ، وقل أن يتخلف أحد عن الغذاء بخاصة ، وإن كانت مواعيد الطعام جميعا محل احترام عظيم . وكان يترامى إلى سمع الصبى المسكين أصوات أبيه وأمه وأخوته وربما بعض الضيوف ، وهم يتناولون الطعام ، فكان يعذبه من هذه الأصوات ، دون باقيها : صوت المضغ أحيانا إذا وصل إلى سمعه ، والصوت الناشئ عن اصطدام « دورق » زجاجى بالأكواب التى على المائدة ؛ ففى هذه اللحظات كان يحس بالحرمان من متعة الطعام على الرغم من

أنه كان يشكو أغلب سنى طفولته وصباه من فقد الشهية !

وفى الفترة السابقة على إصابة الصبى بالمرض بدأت صلاته بعالم الحيوان ، فاقتنى قطا صغيرا . وأطلق عليه اسم « جناكليس » لأن أباه كان يشرب سجائر يعدها مصنع أجنبى أغلب الظن أنه يونانى ، اسمه جناكليس ، وقد كانت مصانع السجائر فى ذلك العهد موزعة بين الأرمن . وبين اليونانيين وقليل منها للطليان وكان من أشهر السجائر الأرمنية « سجائر ماتوسيان » ثم سجائر « ملكونيان » ، وكان من أشهر سجائر اليونانيين جناكليس ، وأشهر سجائر الطليان كوتاريللى وكريازى . .

ووقع الصبى فى تناقض ؛ إذ بقدر حبه للقط « جناكليس » أحب الفئران البيضاء ، فاقتنى منها اثنين أو ثلاثة وأودعها قفصا من خشب بأسلاك رقيقة من النحاس ، وأحسن تغذيتها . فتضخمت ولكن شاءت المصادفة أن تكون كلها من جنس واحد : ذكور أو إناث ؛ ولذلك لم تتوالد ، ولم يكتشف الصبى هذه الحقيقة . حتى كبر . . والغريب أن القط لم يفكر قط فى أن يمس الفئران البيضاء بسوء ، حتى بعد أن شب عن الطوق : وهاج هائج شبابه ، والتمس لنفسه رفيقة تكمل حياته ، فلما لم يجدها فى البيت انطلق يعوى فى الليل البهيم صارخا كأنه وحش جريح . .

ولكن حدث والصبى مريض لا يكاد يقوى على تحريك عضو من أعضاء جسمه ، وأسرته تتناول الغذاء أن سمع فى المنزل صوت ارتطام جسم ما بالأرض ، ومضت لحظة دون أن ينتبه الصبى إلى أن هذا الصوت قد يكون سببه سقوط القفص الصغير المعلق فى ردهة المنزل الذى تعيش فيه فئرانه العزيزة ، وانفجرت هذه الفكرة كأنها ضوء برق خاطف لمع فى الظلام ، ثم اختفى فجأة ، وأحس الصبى بأن حياة جديدة لا عهد له بها ، وعزماً مفاجئاً لا يدرى من أين مبعثه قد

أستوليا عليه ، ليرفعاه من سريره رفعاً ؟ وصرخ فى مكانه ، وأسرعت الأسرة إليه الأم والأب والأخوات وغيرهم ، فرأوا وجهاً مصفرا ، ويدين ترتعشان ، وشفتين تختلجان وبكاء مكتوماً لا يستطيع أن ينفجر ، وبعد لأى أدركت الأم أن الطفل المريض قد عرف بحدسه أن الصوت الذى سمع هو صوت سقوط قفص الفئران ، فأسرعوا جميعاً إلى حيث وجدوا القفص فى الأرض ، وقطًّا غازياً قد تسلل إلى الدار ، ووقف فى عصبية وخوف يدور حول القفص وهو يرى هذه الفريسة الشهية فئران بيضاء سمينة ، لا يدرى كيف يطولها ؛ فأسلاك القفص لا تسمح له بأن يدخل يده ، وهو يشعر بغريزته أنه فى موقف خطر ، وأن عليه أن ينهى مجازفته سريعاً ، فلما شعر بدنو أهل الدار جرى فى حيرة وهو يتخبط بين الجدران باحثاً عن منفذ ! وحمل القفص إلى الصبى فرأى الفئران فى حال من الاضطراب ، جعلها لا تستقر فى قفصها تروح وتغدو ويصطدم بعضها ببعض ولم يطق الصبى المريض أن يرى هذا المنظر ، فأغمض عينيه ، وهو يكاد يختنق بالخوف على أصدقائه الذين كان يحبهم حقًّا !

وفى هذا الوقت نفسه كان الصبى قد بدأ يربى «دودة القز» بنجاح ؛ فهو يرى الدودة وقد تحولت إلى شرنقة ورأى الفراشة ، وهكذا دواليك وأدرك أنه يجب أن يقتل الفراشة حتى لا تقطع الخيوط الحريرية حينما يكمل ميلادها وتود أن تنطلق ، ولكن صعب عليه أن ينفذ الجزء الباقى من وضع الشرنقة فى ماء ساخن ، وأن يبدأ فى سحب الخيوط الحريرية البالغة غاية الدقة والرقة .

ومن غرائب ذكريات تلك الفترة أن الصبى بقى أعواماً يعتقد أنه كان إلى جوار بيته بيت قديم مبنى على الطراز الإسلامى الذى بنيت عليه دور أخرى فى القاهرة كدار السحيمى والسنارى وعثمان الكاشف المجاور لمدرسة السنية ، وأن هذا البيت

القديم كان مهجوراً ، وأن من بين حجراته ، حماماً مزيناً بالنوافذ الزجاجية الملونة التى فى سقفه ، والتى تسكب فيه ضوءاً جميلاً خاصًّا بهذا الطراز من الحمامات ، وما أكثر ما رأى الصبى نفسه بعين الخيال أو بعين الذكرى ! فى هذا الحمام ينظر إلى السقف ، ويسلم نفسه للإحساس الغريب الذى يغمره وهو ينظر إلى النوافذ الزجاجية ، ثم ينتقل من هذا الإحساس المريح المنعش إلى شعور من الاشمئزاز ، والانقباض ، وهو يرى الأحجار المتساقطة ، بفعل الزمن من أسقف وجدران هذه الدار القديمة ، وما اختلط بها من أقذار الناس الذين اتخذوا من هذا المبنى الأنيق الجميل مرحاضاً دون أن تأخذهم رحمة بهذا العمل الفنى الذى . يدل على مهارة صانعه وحسن ذوقه ، ولطف إحساس صاحبه . والترف الذى كان يعيش فيه .

ولكن أهل الصبى جميعاً لا يؤيدون أنه كانت إلى جوار المنزل الذى فى شارع الخليج ، دار بالصفة التى يرويها لهم .

أكان ذلك كله خيالاً ؟ ولكن ما سر انبعاث هذا الخيال فى رأس الصبى ؟ وما سر ملازمته للصبى أعواماً بعد أعوام ؟

إن للصبى أن يرحل عن شارع الخليج وداره فى شارع الخليج إلى شقة بعمارة لا يفصلها عن دار الخليج إلا صف من المنازل ، أزيل بعد ذلك بأعوام فأصبح الشارعان شارعاً واحداً ، وكان يمكن أن تبقى الداران ، دار الخليج ودار شارع السيدة زينب متناظرتين ، تنظر إحداهما إلى الأخرى ، وتقول لها : بفضل هذا الصبى أصبحنا متكاملتين : إحدانا تفضى إلى الأخرى لولا أن يد الدهر أبت إلا أن تزيل الدار الأولى ، وأن تعفى على آثارها ، وأن تقيم مكانها داراً للسينما إحدى مفاخر العصر الحديث ، وإحدى آفاته أيضاً . ويقتضينا المنطق أن نبدأ الحديث عن دار شارع السيدة زينب ، بصاحبها زعيم الحلاقين وحلاق الزعماء

والحق أن الصبي لم يحترم أيام صباه أحد كما احترم هذا الحلاق الزعيم أو حلاق الزعيم ، أو زعيم الحلاقين .

فقد كان المنزل الذى يملكه بمقاييس تلك الأيام شيئاً ذا قيمة ، يتكون من خمسة أدوار بعشر شقق ، وكانت العمائر ذات الأدوار المتعددة والشقق الكثيرة أمراً نادراً فى تلك الأيام ، وقد بدأت تظهر العمائر فى المناطق التجارية ، ولغير أغراض السكنى ، فقد كانت هناك مثلا عمائر الخديو عباس التى أقيمت فى شارع عماد الدين ولا تزال قائمة إلى الآن . ولكن أن تكون هناك عمارة بهذا الارتفاع فى حى سكنى محض ، وفى حى محافظ كحى السيدة زينب ، وعلى مقربة من ضريح أم العواجز ، وأم هاشم . وحفيدة الرسول – فأمر غريب غاية الغرابة .

ولكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة . هو الرجل الذى بنى هذه العمارة فى تلك الأيام ، فالحلاقون لم يعرف منهم آن ذاك من يستطيع أن يجمع المال الذى يعينه على أن يملك هذا المبنى الفريد ، ولكن صاحب المبنى لم يقنع بهذا التفرد بين زملائه ، بل زاد عليه أنه بعث بأولاده جميعاً إلى المدارس يتعلمون العلم ويتهيئون لأن يكونوا أطباء وقضاة ومحامين ! ثم بقى فى جعبة هذا الرجل المجدد شىء أكثر طرافة ، وأكثر استحقاقاً للاحترام : ذلك أنه بعث بابنته الوحيدة إلى مدرسة السنية فأكملت التعليم فيها ، ثم بعث بها إلى مدرسة المعلمات . ولم يكن الآباء ينظرون إلى إرسال بناتهم لتحصيل العلم ثم تلقينه نظرة رضا واطمئنان إلا أن يكونوا على قدر من الشجاعة يخرجهم من نطاق أمثالهم وأشباههم .

ولذلك لا يزال الناس يذكرون هؤلاء الآباء الذين سبقوا جيلهم ، فعلموا بناتهم ، فخرجت منهن المدرسة والطبيبة والكاتبة ، وفى مقدمة هؤلاء بلا جدال الكاتب الشاعر القاضى حفنى بك والد المجاهدين مجد الدين وعصام الدين ناصف ،

ووالد ملك حفني ناصف باحثة البادية ، وكوكب الطبيبة وأختها حنيفة ، ثم تبعه الأستاذ أحمد الصدر المحامي الوطني الذى علم بناته ، فكانت منهن ودودة ودولت وكلتاهما بلغت أعلى وظائف التربية والتعليم فى مصر والخارج . ثم الدكتور السعيد الذى كانت من بناته كريمة وعظيمة وأمينة السعيد ، ثم والد مفيدة عبد الرحمن المحامية ، وأختها كبيرة طبيبات وزارة التربية والتعليم ، .

ولكن لا يزال الحاج طه فى ذاته شخصاً فريداً ؛ فقد كان بيته يضم عشر أسر لكل أسرة رب ، وفى كل أسرة أولاد وبنات ، ومن هنا كانت العمارة تموج بالحركة من الصباح إلى المساء ، وكان كل فرد من سكان العمارة ينادى على أحد ما فى مناسبة ما ولو مرة فى السنة ، أو يسمع له صوت أو قهقهة ، أو سعال . وهو صاعد أو هابط . إلا شخصاً واحداً لم يره أحد عند صعوده أو عند هبوطه . وقد رآه الصبى مرة واحدة على السلم لم تعزز بأخرى ، فرآه يصعد متسللاً لا يسمع لخطاه وقع كأنه لص ينتظر اللحظة التى يستطيع معها أن يدخل إلى شقة بعينها مع قبح هذا التشبيه ، وإن كان هو أقرب الصور إلى بيان هذا الرفق البالغ ، والاحتشام المسرف من هذا الرجل الحيى .

وصعد الصبى إليه يوماً ليزوره مع والده ، وكان الصبى فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره ، ولكن كان عهده باللطائف المصورة ، المجلة المصورة الفريدة فى ذلك الوقت قد قدم وكانت قدرته على قراءة الكتب والصحف قد توطدت فعرف ممن عرف من ساسة أوربا الرئيس الفرنسى «كليمانصو» كبير وزرائها إبان الحرب العالمية الأولى . وكان من سماته الجسمية رأس كبير أصلع ، ولما كان الحاج «طه» متمتعاً بهذه الخصائص فقد خيل إلى الصبى أنه فى حضرة «كليمنصو» .

فقد رأى رجلاً طويلاً هادئاً إلى أقصى الحد ، مؤدباً خفيض الصوت ، يتكلم

فى أناة وكأنه يفضى بتصريح خطير إلى صحفيين أذكياء ألباء يتربصون به المزالق ! والعجيب أنه تحدث عن الحرب العالمية الأولى ، وقال كلاماً عن الألمان والفرنسيين مما أكمل الإحساس لدى الصبى بأنه كليمنصو حقاً . ولم يفض الصبى لأبيه بشعوره هذا ، ولكن بقى يطوى الصدر عليه . ويذكره بين الحين والحين ، ويحمل معه إحتراماً لهذا الرجل .

وفى ذات يوم سار الصبى فى شارع خيرت ، فرأى دكان الحاج طه ، وقد انسدلت على بابه هذه الخيوط التى تنتظم حبات من الخرز الكبير الملون أحمر وأخضر وأزرق وأصفر ، وهى حبال ألف الحلاقون أن يستعملوها بديلاً عن الباب المغلق ، فتحقق الناس فى الداخل الستر ، تحول دون دخول الذباب الثقيل ، ولا تمنع الهواء . .

رأى الحاج طه وفى يده المقص وهو يحلق شعر رأس ، فراح فى خواطر متشابكة . أهذا الرجل الوقور المحترم الشبيه برئيس وزراء فرنسا يتواضع إلى حد استعمال المقص والفرشاة ؛ ليزين رءوس الناس وقال لنفسه : أأستطيع أن أدخل إلى هذا الحانوت ، وأجلس على كرسى من كراسيه . فيكون لى شرف الحلاقة ، على يد حلاق الزعيم الكبير ؟ . ثم ماذا يفعل الزعيم حينما يخلو به حلاقه : أيطأطئ الرأس امتثالاً لأمره ؟ وهل يدير هذا الرأس يميناً ويساراً ؟ ثم كيف لم يتزاحم الناس على حانوت الحاج طه لتلمس رءوسهم وشعورهم الأنامل التى تلمس رأس وشعر الرجل الذى أحبوه حتى العبادة ؟

بيت الزعيم الحلاق

تحدث الصبي الذى نروى له ، ونروى عنه ذكريات صباه فقال :

لم أكن أعرف أن لبيت الحاج طه الذى أقمنا فيه سنين دوراً كبيراً ومؤثراً فى حياتى حتى اليوم الذى جلست فيه أستعيد أيام صباى ، وانبعثت من الذاكرة شوارد الذكريات أجمع ما تناثر من فتات أحداثها . وقد تعاظمنى أن يكون لهذا البيت الذى كان يملكه حلاق الزعيم ، أو زعيم الحلاقين ، أو الحلاق الزعيم ، كل هذا الأثر الباقى ، وأنا غافل منه ، غير مدرك لمقامه ، فتبينت أن شخصية الإنسان كطيات الثوب ، يعلو بعضها بعضاً ويخفى بعضها بعضاً ، حتى كأن ما اختفى قد زال من الوجود وانعدم ، وهو فى الواقع حى يتحرك ، وينتج ، فإذا سدت فى وجهه المسالك ، واشتد ظلم الناس له ، وتجاهلهم إياه آثر أسلوب التخريب والتدمير ؛ ليعلن عن وجوده ، ولينتقم من ظالميه . ولعل هذا بعض ما قاله «فرويد» فى تبرير

ما يستتر فى خبايا العقل الإنسانى ، من ذكرياته وتجاربه المؤلمة هرباً من الضوء ، وخجلا من المواجهة أوكرها للعلانية ، فإذا طال الأمد بدأ يفعل فعل النجار . يبحث عن نقطة ضعيفة فى قشرة الكرة الأرضية ؛ ليمزقها وينطلق منها فى صخب مدمر وضجيج مخرب !

ولكن ذكريات الصبا فى بيت الحلاق الزعيم ، ليس فيها ما يخجل ولا يحزن ، بل حتى ولا ما تضيق له النفس ؛ فإن كان قد غبن فعملا بقانون الحياة البشرية الذى يغبن بعض الفضلاء لغير علة مفهومة حتى ينصفهم الدهر ، بعد حين وهم أحياء ، أو بعد حين وهم موتى .

ويقول الصبى :

لقد جرت لى فى هذا البيت أمور غريبة إذا قيست بمقياس الصبا وما يصح أن يقع فى أيام الصبا للصبيان ، وفريدة إذا قدرت الشخصيات التى تعرفت عليها خلال تلك الأيام وماكان من أمر هؤلاء فى حياته وحياة الناس بعد ذلك .

عرفت إبان إقامتى فى ذلك البيت الفريد الذى يملكه شخص فريد – «أحمد سالم» الذى كان آن ذاك تلميذاً بالمدرسة الخديوية ، أشهر مدارس مصر الثانوية وأقدمها جميعاً ، وأحمد سالم قام بدور فى الحياة العامة ، طياراً وممثلاً ، ومغامراً ، وصاحب قضايا ، ثم تعرفت بشاب كان صاحب دور غريب جدا فى الصحافة والسياسة ، لم تكتب له الشهرة التى كان يطمح لها ، ويعمل لها ، ويحلم بها . ولم يكتب له النجاح الذى كان يؤمن بأنه يستحقه ولا المركز العظيم الذى كان يقول بلسانه وبكل جارحة فيه إنه إذا لم يسع المركز إليه ، ويرجُه أن يعلو هامه ، ويرتقى سنامه – ركله بقدمه ، وأدار له ظهره . . ولم يكن هذا الشاب سوى عبد الرحمن العيسوى .

ثم عرفت الأستاذ «حافظ محمود» وكان بيته على مقربة من بيت الحلاق الزعيم أو الزعيم الحلاق لا يفصله عنه سوى بيت أو بيتين . وكان قد فرغ لتوه من تأسيس جمعية القلم . وبدأ يلقى خطبه وأحاديثه علينا . ورأينا لونا جديداً من الخطابة فيه من توفيق دياب أشياء ومن منصور فهمى وحافظ رمضان وسعد زغلول شيء ، والباقى كله لحافظ محمود ذاته .

وعرفت فى ذلك البيت نفسه شبانا صغاراً ، غابوا فى زحمة الحياة ، ولم يطف على سطحها منهم قليل أو كثير ، ومع ذلك بقيت وفياً لذكراهم ، أستعيد ما كان منهم ، من قول وفعل ، فأضحك فى وحدتى فى أنس وراحة بال ؛ حتى تدمع عيناى . وأذكر ما كانوا يعانونه من مشقات الحياة وشظفها ، ومن قلة وفائها وكثرة جحودها ، فأبكى لهم وأرثى لحالهم .

وكيف أنسى الأستاذ «بدر» الذى كان يجلس ومعه أنداد له فى سنه ، وهم جميعاً يرتدون جلابيبهم تعلوها «جاكتات» ، ويسندون مقاعدهم إلى جدار منزل على الرصيف الذى فوقه بيتنا العتيد ، ثم يتكلمون فى السياسة والأدب والطب والتاريخ واللغة ويروون الفكاهات ، ويتندرون على المارة دون أن يجرحوا إحساساً أو يخرقوا قانوناً أو يؤذوا سمعاً !

وكان من بينهم «محسن» الضخم السمين ، الطيب الذى عاد من أوربا دون أن يحصل على شهادة مكتفياً «بآلة تصوير» كانت بمقياس أيامنا ثروة لا يستهان بها ؛ فقد كانت تصور الصور فى حجم «كابينت» وهو حجم يساوى ضعف «الكارت بوستال» ، فكان يحمض الصور ويخرجها . وانضم إلى جمعية رحلات ضمت طالباً فى مدرسة الحقوق ، كان جديراً بأن يكون محامياً متفوقاً ؛ فقد كان جهير الصوت ، خفيف الظل حاضر البديهة ، يضع على رأسه عمامة فيتلو القرآن كقارئ

متمكن قوى الأداء ، حلو النبرات ، ثم يخلع العمامة ويتربع على كرسى ليتلو شعراً من طراز الشعر «الحلمنتيشى» الذى كان ينظمه حسين شفيق المصرى ، وبيرم التونسى مقلداً المعلقات وقصائد الكبار ! ثم يضع حول وسطه شالاً فيرقص ، ثم يختم هذا النشاط كله ، بخطبة يرتجلها ، فيأتى فيها بالقول المحكم والعبارة الرصينة وإن كانت كلها هذراً وسخرية بالناس والأشياء .

ولكن هذه المواهب كلها قبرها صاحبها فى وظيفة معاون إدارة فى الفيوم ، وقد أدهشنا أن فتاة من أصل شركسى جميلة وميسورة الحال تعيش فى حينا قبلت أن تتزوج هذا المهرج مع أن والدته كانت تسير فى الشوارع المحيطة بنا بالملاءة والشبشب ! وزادت دهشتنا أن حياتها الزوجية كانت سعيدة ؛ فإن زوجها كان معاون إدارة ناجحاً ، ينسى كل مواهبه على عتبة مكتبه الحكومى ، ويضع على وجهه نقاباً من الوقار والصرامة ، فاستطاع أن يرتقى الدرجات الحكومية واحدة فى إثر الأخرى .

ولكن لو اطلعنا على الغيب ما رأينا فى أيامنا فى ذلك شيئاً من الغرابة ، فقد أسندت الآن وزارة التربية إدارة مدارس كبيرة لها لممثلين فكاهيين فى بلادنا ، لا يعرضون نشاطهم فى الحفلات الخاصة فقط ، بل فى كل بيت عن طريق الشاشة السحرية التى اسمها «التليفزيون» باللاتينية و«المرناء» بعربية المجمع اللغوى !

على أنى لن أحدثك عن كل الشخصيات الكبيرة التى مرت فى بيت زعيم الحلاقين إلا بعد أن أحدثك عن الشخصيات الثانوية أولاً :

وأولى هذه الشخصيات بالحديث هو الأستاذ «بدر» الذى كنا نجهل نحن الصبيان وظيفته ولا المصلحة أو الوزارة التى يعمل فيها ، ولا الدرجة أو المرتبة التى وصل إليها ، وإنما كان يبدو لنا أنه مرجعنا فى شئون الثقافة والكتابة ، وكان يعاملنا

ببساطة لا يتعالى علينا ، ولا يدعنا نألفه أكثر مما يجب . لقد كان له فضل على عظيم ؛ ذلك لأنني مدين له بأول سطور تنشر لى مطبوعة وممهورة باسمى الثلاثى الذى اختفى منه الاسم الأول بعد سنوات من الصبا !

وجملة الحكاية أن مجلة ظهرت تحمل اسم « الصور المتحركة » ، وكان ظهورها آن ذاك فى حياة الصبيان أمثالى ، بل فى حياة الشبان الذين يكبروننا حدثاً يروى ويذكر ويؤرخ : ذلك أن السينما كانت لنا متعة وسحراً ، ومصدراً للإلهام ، ومدرسة نتعلم فيها فنون الشر ، وبعض أعمال الخير . فأصبحت أسماء الممثلين ولاسيما أبطال المسلسلات مثال : أيدى بولو ، ودوجلا فيرابنكس ، وآرت أكورد ، دع عنك مسلسلات القوة مثل : ماشيست البطل الهرقلى الذى يصرع الرجال . ويخلب ألبابنا بقوة بدن رائع وجميل ومتناسق ، وطرزان الذى علمنا من التاريخ الطبيعى ، وشئون الغابة ، وصور الأدغال – ما عجز التاريخ الطبيعى ودروسه أن يلقننا إياه . فإذا أضفت إلى هذا كله حلقات المضحكين والمهرين الذين لم يسمع أبناء الجيل الجديد من أسمائهم إلا باسم (شارلى شابلن) لأنه عمر فوق ما يستطيع العاديون من الناس ، أما « زيجوتو » و« هارولد لويد » . ولا « لارى سيمون » الذين لم يأت الزمن بأشباههم ، والذى لم يلحق بغبارهم « لوريل وهاردى » وإخوان ماركس ، و« لويس دى فنيس » والمهرج البريطانى « نورمان ويزدوم » . فهؤلاء حرم أبناء هذه الأيام لذائذ وطرائف فنهم .

ومن أجل ذلك كانت مجلة « الصور المتحركة » امتداداً لحياتنا فى السينما ، فكان يسكرنا ، ويدير رءوسنا أن نجد بين أيدينا مجلة تنقل إلينا صور الممثلين وأنباءهم ، وتجعلنا على علم بزواجهم وطلاقهم ، وشرائطهم التى مثلت ورأيناها ، وشرائطهم التى مثلت ولم نرها ، لقد استطاعت هذه المجلة ، أن تفطن إلى ما لم تفطن إليه

الصحافة المصرية إلا بعد أجيال إذ فتحت صفحاتها لأقلام قرائها ، وأقامت منبراً خطيراً وحرًّا يقترحون فيه ويعترضون ، ويناقشون .

وكان من بين الموضوعات التي طرحتها مجلة الصور المتحركة هي « السينما الناطقة » وكانت هذه السينما التي تتكلم وتغني ، وتسمعنا فرقعة البنادق ، ودوى القنابل ، وهدير المدافع ، وزئير السباع ونباح الكلاب ، ووقع القبلات ، وهمس المحبين والمحبات - كانت هذه السينما بكل سحرها الأخاذ ، وجوها الفتان - غيباً من الغيب ، ولكنا كنا نسمع أنباء إرهاصاتها ، فسألتنا مجلة الصور المتحركة : هل نحن من أنصار السينما الناطقة أو خصومها ؟ ولما كنت عاشقاً من عشاق فن « شارلى شابلن » لا أقدم عليه بطلاً من أبطال الضرب واللكم والقفز على ظهور الخيل ، وكنا قد سمعنا أن شارلى العظيم ضد السينما الناطقة ، وأنه قال : إن نطق السينما يذهب بسحر صمتها ، وإنه يحد من عالميتها ؛ إذ تخاطب السينما الصامتة الناس جميعاً باللغة الإنسانية الخالدة : الإشارة ، تصدر عن اليد ، وتصدر عن الفم - فقد اعتنقت هذا المبدأ ، وجلست أكتب سطوراً ، تعبر عن اقتناعى « لا عن قناعتى » ، وأسرعت إلى أستاذنا « بدر » ، فالتمسته فى مكانه على الرصيف ، فوجدته بجلبابه ، و« جاكتته » على كرسيه ، وعرضت عليه سطورى ، فابتسم ابتسامة الأستاذ الذى وجد أول ثمار غرسه ، ولم يكن يزعجه أن تكون هذه الثمار فجة غير ناضجة ، مرة غير حلوة ؛ فقد كان يعلم أنها البداية ، إذ اكتفى بأن أدار عينيه فيما كتبت ، وأضاف كلمة هنا ، وحذف حرفاً هناك ، ثم قدم وأخر ، وتبرع لى بجملة ضخمة لم يكن علمى باللغة قد ارتقى إليها . فضمنها هذه السطور المتواضعة ، فأصبحت مقالاً صغيراً ، ثم أرسلتها إلى المجلة بشارع محمد على ، بعمارة فى مواجهة دار الكتب فى البريد . ولم يمض أسبوع ، حتى كانت مجلة « الصور المتحركة » فى يدى وفى يد كل

صبيان الحى ، يحدقون فيها ، قبل أن يقرءوها ثم أخذوا يقرءونها . ، ثم يستعيدونها . وذهبت إلى الأستاذ «بدر» فالتمسته فى الأصيل فى مكانه على الرصيف فى جلبابه وجاكتته ، فأمسك المجلة ، وتصفح ما كتبه ، وعلى شفتيه ابتسامة رصينة تليق بأستاذ ، وهنأنى إذ كنت سعيد الحظ بنشر هذه السطور غير القليلة فى رأس الصفحة ، قبل أى كلمة أخرى مماثلة . وسرنى أننى لم ألمح فى كلامه أثراً ولو خفيفاً من الغيرة . وكثيراً ما يغار الأستاذ من تلميذه وخصوصاً إذا عق التلميذ أستاذه صاحب الفضل عليه !

ولقد كان لهذه السطور أثران : أولها أن مربياً فاضلاً عائداً من إنجلترا لتوه ، وقد حدثتك عنه فى موضع سابق زارنا ، فقدمت له المجلة فقرأها ، والتفت إلى وقال : أكل هذه السطور لك ؟ فأرضى هذا السؤال كبريائى «أكل هذه السطور لك ؟» ؛ إذ معنى هذا أنها سطور كثيرة ، ولما كنت أبعد الناس عن عالم المطابع والسطور ، ومعايير الشهرة والقيمة – فقد صدقت هذا السؤال المنطوى على مديح عظيم .

أما الأثر الآخر فقد تمثل فى أن هذه السطور نقلتنى من نطاق التفكير إلى مجال الحركة ؛ فقد ذهبت وحدى دون أن يصحبنى أحد إلى مقر مجلة «الصور المتحركة» وشعرت بسعادة لا تقل عن سعادة «خروستوف كولمبْ» حينما وصل إلى جزر الهند الغربية التى حسبها جزر الهند الشرقية ، حينما اهتديت إلى مقر المجلة ، ولم يكسر خيالى ولم يصبنى بخيبة أمل حينما اكتشفت أن مقر المجلة كله ، تحريراً وإدارة وتصحيحاً وإخراجاً ، هو أقل من حجرة ؛ إذ لم يزد عن أن يكون «قاطوعاً» خشبيًّا ؛ به ألواح زجاجية من الزجاج «المصنفر» ، وأن هذا الجانب المقتطع من الحجرة لا يضم سوى مكتب واحد ، وراءه مقعد واحد ، ويعلو المكتب أكداس من الورق !

وكدت أحرم التشرف بمقابلة صاحب المجلة العزيزة ومحررها لولا أننى استطعت أن ألحق به وهو يهم بإقفال الإدارة متأبطاً مجموعة من الصحف والمجلات . ثم استطعت أن أختلس نظرة إلى داخل المكتب وأن أرى بساطته التى أسكرتنى ، وأسعدتنى أضعاف ما أسعدنى بعد ذلك بسنين أن أجول فى المكاتب وطرقات جرائد العالم الكبرى : الديلى تلجراف ، والديلى هرالد ، والتيمس نفسها فى شارع «فليت ستريت» بلندن ، ودار وكالة الأنباء البريطانية «رويتر» التى فى عمارة بذاتها . . .

وقد بلغ من استغراق هيام الصحافة والسينما لى أن فرحتى بهذه المناسبة لم تقل ولا بمقدار خردلة حينما رأيت أن صاحب المجلة المرموقة كان يرتدى نفس الزى الذى يرتديه أستاذى «بدر» على رصيف شارع السيدة زينب : الجلباب والجاكتة .

وكان صاحب المجلة فى ذلك اليوم يعانى من عملية جراحية صغيرة فى عنقه لعلها أجريت له لفتح «خراج» ؛ فقد كانت الأربطة الطبية حول عنقه ، مما جعل إدارته عنقه صعبة ، فكان يحدثنى من زوايا غير مألوفة بين المتحدثين عادة ، تقليلاً لحركة العنق ، فخيل إلى أن كل هذا من مستلزمات العظمة الصحفية . فإن يكن صاحب الجريدة مصاباً بجرح ، وإن يكنْ حول الجرح أربطة طبية ، وإن يكن تحت ذراعه حمل مجلات وصحف ، وإن يكن حديثه معى مقتضباً – فهذه هى سمات العظمة وخصائصها . وقد بلغت نشوتى قمتها حينما ذكرت لأول صحفى أراه فى حياتى ، على عتبة مقر الجريدة التى سعيت إليها بنفسى ، غير معان ولا مصحوب بأحد – اسم ممثل فكاهى أمريكى هو «فاتى» . فقد بادرنى بالقول بأنه لن يكتب عنه حرفاً واحداً لأنه صدر ضده حكم من محكمة فى بلاده ، لتهربه من أداء الضرائب . ولم أفهم ساعتها أكثر من هذا الكلام ، فالضرائب لم تكن معروفة فى

بلادنا بفضل وجود الامتيازات الأجنبية التى كانت تحمى الأجانب من دفع ضرائب الدخل بأنواعها والإيراد العام ، فعوفى المصريون مساواة لهم بالأجانب ، ولكن الصحفى الأول فى حياتى قال : نحن نهتم بالأخلاق !

وإنى أدع لك أن تتصور مدى فخرى واعتزازى بصاحب المجلة التى نشرت لى أول سطور فى حياتى ؛ لأنه لا يكتب عن السينما فحسب ، بل يحرص على الأخلاق ، ولو عرفت يومها مادا يفعل الناس فى العالم كله ، ليفروا من أعباء الضرائب – لاعتبرت أستاذى الجديد قديساً لشدة حرصه على حقوق الخزانة العامة فى أمريكا لا فى مصر؟

ولكن بقيت لهذه السطور الأولى فى مجلة الصور المتحركة آثار ظهرت بعد ثلاثين عاماً من ظهورها . ذلك أننى بعد سنين طويلة أسندت إلى أمور وزارة ما ، لفترة كان فيها وزير الوزارة الأصل فى الخارج ، فلما عاد إلى بلاده ، رأيت أن نمر معاً على مكاتب الموظفين ، أنا أودِّع وهو يحيى .

وفرغنا من زيارة المكاتب الفاخرة ، مكاتب الوكلاء فمكاتب الوكلاء المساعدين فالمديرين حتى نزلنا إلى الحجرات الأرضية التى نسميها «البدرون» ، ووجدت فى ركن من اركان هذه الحجرات شخصاً ارتبك لمرآى ، ثم ابتسم ، ثم صافحنى ، وفى الحال رأيت ذكريات ثلاثين عاماً ، تتدفق على متدافعة ، متزاحمة كسيل اكتسح أمامه سدًّا . . فلم يكن أمامى سوى أستاذى «بدر» صاحب الفضل على فى أولى خطواتى فى طريق الكتابة والنشر فى الصحف والمجلات .

وأرجوك أن تعفينى من محاولة – مجرد محاولة – وصف مشاعرى فى هذه اللحظة : ولكن المرور على الموظفين كان سريعاً ، وكنت مرتبطاً بزميلى ، فخرجت من الحجرة ، وأنا أكاد أتعثر أو أنكفئ على وجهى من فرط الانفعال !

وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى الأصيل فى الوزارة ، فجاء من أخبرنى أن بالباب ساعياً يحمل إلى خطاباً من وزارة أخرى ، وأدخلت الساعى ، وأخذت الخطاب الذى كان يحمله ، والذى جاء لينقله إلى ، فماذا تظن فحوى هذا الخطاب ؟

إنه أولاً من الأستاذ بدر ، وكانت هذه وحدها كافية ؛ لتجعلنى هدفاً لانفعالات لا أقوى على احتمالها ، وكان الخطاب أخيراً يتضمن طلب قرض مبلغ عشرة جنيهات ، ومعه صك بهذا المبلغ وتعهد بسداده أقساطاً !

لست أدرى أى شيطان ألقى فى وهمى أن التعامل على هذه الصورة لا تسمح به واجبات الوظيفة ولا ظروفها ، وصرفت الساعى ، ولم أرسل المبلغ المطلوب ، ورددت بطبيعة الحال الصك ، بل رددت معه الخطاب ذاته فى ظرف جديد .

ثم جرت الأحداث بشدة غير عادية ، فنسيت تماماً هذا المطلب الإنسانى البسيط ، فلما ذكرته كانت أيام وأسابيع كثيرة قد مرت . ومرة أخرى لم أجرؤ على الاتصال بالأستاذ « بدر » والجلوس معه ؟ كما كنا نجلس على رصيف الشارع ؛ لأعتذر له ، وأستعيد ذكريات سنين سعيدة . وعشت بعد ذلك لا أذكر هذه الواقعة إلا أحس بالألم بل الخزى !

ولعل إطالتى الوقوف أمام هذه الذكرى المحزنة نوع من تعذيب النفس ، شعوراً بالإثم . على أن مجلة الصور المتحركة ، وسطورها لم تكن التجربة الصحفية الفريدة فى أيام صباى ، إبان إقامتى فى بيت « الحلاق الزعيم » ؛ فقد كنت من قراء مجلة « النديم الروائى » التى كان يصدرها أحد أفراد أسرة صروف وهم أصحاب جريدة المقطم ، وقد بدأت صلتى بها فى أثناء إقامتى فى بيت شارع الخليج الذى أسميه « بالخليج العاشق » ، وقد كانت مجلة النديم الروائى ، تنشر مسلسلة بوليسية لكاتب مصرى بقى من اسمه فى ذاكرتى لقبه « خير الله » . أما سائر القصص التى كانت تنشر

فى هذا النديم الروائى ، فكانت مترجمة ، وفى ذات أصيل قصدت إلى مقر النديم الروائى ، فى شارع متفرع من شارع محمد على ، ولعله أول شارع فرعى بعد العتبة الخضراء فى طريقنا إلى القلعة . . وقد كانت إدارة متواضعة على الرغم من انتساب صاحبها إلى أسرة أثرت ثراء فاحشاً من الصحافة والاتجار بها فى دنيا السياسة ، ولاسيما دنيا سياسة الاستعمار . فلم يزد مقر الجريدة على بيت ، فى أسفله المطابع ، وفى جانب منه سلم خشبى يؤدى إلى شرفة خشبية معلقة فوق المطابع ، يؤدى إليها هذا السلم ، وفى هذه الشرفة مكاتب التحرير ، وتهبط أصول المقالات ، وتصعد التجارب عن طريق سلة مربوطة بحبل ، يشده رئيس التحرير ومعاونوه ويرخونه ، فيتم الاتصال بين عالمى التحرير والطباعة فى يسر وسهولة . كان الكاتب « خير الله » هو المثل الذى نرجو نحن الصبيان ، قراء النديم الروائى أن نحاكيه ، ونتأسى به ، لنصل إلى مقامه الرفيع ومكانه العالى . وفى اليوم الذى زرت فيه دار النديم وقفت أتحدث مع صاحب المجلة وكاتبها الأول ، فى الشارع أمام مقرها وذكرت بالتجلة والاحترام الكاتب المصرى الذى كان يكتب سلسلة المفتش « ماكنتوش » ولم نسترسل طويلاً فى الحديث ، حتى أهل علينا شاب – يكبرنى بسنين – يرتدى جلباباً « أيضاً » وفوقه جاكتة . ولم أكن أتصور أنه صاحب هذه السلسلة العظيمة ، ولكنه اقترب منا وحيا ، فحسبته أول الأمر أحد المعجبين بالمجلة من قرائها ؛ ولذلك كانت سعادتى لا توصف حينما رأيت – بعد أن تمت عملية التعارف بين القارئ والكاتب – أنى أضع يدى فى يد كاتب مرموق ، نقرأ له الصفحات ، وننتظر العدد القادم ؛ لنتابع الأحداث المدهشة التى يرويها لنا .

وبقيت أياماً لا أخلو إلى نفسى حتى تقفز من مكان ما من خيالى صورة خير الله قادماً من بعيد ، والهواء يعبث بذيل جلبابه ، وعلى شفتيه ابتسامة الثقة بالنفس والنجاح !

ولقد كانت مجلة النديم هى أولى المجلات التى قبلت أن توجه إلى خطاباً ، فقد أرسلت إليها شيئاً ما للنشر فأرسلت إلى «كارت بوستال» كانت تعده مصلحة البريد وعليه طابع بريد يغنى عن شراء «الكارت» ، ثم شراء الطابع ، وقد تفضل المحرر بتسميتى الأديب الفاضل ، ووقع باسمه الكريم «صروف» ، ولكن أحد أهل البيت تلقى البطاقة ، فضحك ملء شدقيه وقال لى : خروف . . أرسل إليك خطاباً !

وقد كانت هذه الملابسة المؤلمة جديرة بأن تنقص كثيراً سعادتى بوصول البطاقة ، ولكن البطاقة نفسها كانت قادرة على أن تنسينى كل شىء سواها ، فقضيت وقتاً سعيداً حقًّا ، فلما نشرت لى النديم الروائى فى آخر صفحات عدد من أعدادها ، وفى ذيل هذه الصفحة خمسة عشر سطراً ، بعنوان : هل تعرف ؟ . . . وأوردت فى هذه السطور حقائق لم أكن أعرفها أنا بطبيعة الحال ؛ لأنى نقلتها من هنا وهناك ، ولكن سعادتى بنشرها لم تكن توصف .

شخصيات ونماذج

قال صاحبنا الذى نحكى قصة صباه والذى نروى عنه ما سمعه ورآه :

أرى نفسى بعد نصف قرن من الزمان بعين الذكرى على سطح المنزل الذى كنت أسكنه ، بشارع السيدة زينب غير بعيد من ميدان ضريحها وجامعها الشهير ، فأرانى واقفاً فى جلباب فى حين جلس على سور بهذا السطح صبى مثلى أكبر منى ببضع سنين ، وقد ارتسمت على شفتيه علامة اشمئزاز خفيفة ، عرفت فيما بعد أنها لازمة من لوازم أهل المال أوالشهرة أوالمكانة ، تعبر عن برمهم بالناس ، وإحساسهم بالتميز الذى يجعل تحدث الناس إليهم شاقاً فعلاً أو ادعاء . وهذه الحركة شبيهة بما يرتسم على شفتى راقصات البطن فى بلادنا ، وهن يؤدين رقصهن فشفاههن تلتوى قليلاً ، بما يشبه البسمة ، لولا أنها تمتزج بالقرف ، فتدل بمعنييها المتناقضين : الابتسام والاشمئزاز بأنها ترقص لنا ، ولكنها لا تفعل ذلك إلا عن

تقضل . وبعض الناس يرى فى هذا إغراء يزيد من جمال الراقصة وفتنتها .

وفيما بعد حينما كبرت لم أكف عن ملاحظة ظاهره « القرف » التى يعانى منها المشهورون وأصحاب المكانة ، ولاسيما المحدثون منهم ؛ فإنهم ينطقون بالألفاظ وكأنهم يبصقونها ، وهم يبدءون الجملة ، ولا يتمونها ، وفى عباراتهم القصيرة ، تكثر الجمل الاعتراضية ، وأغلبها جمل تدل على الشك وعدم التيقن وعدم الاهتمام ، وكلمة « يعنى » التى كثرت وشاعت هذه الأيام واحدة من قاموس هذه الطائفة .

وقد وقفت فى ذلك اليوم فى سطح منزل الحاج طه ، أمام « أحمد سالم » الذى جلس على السور يتحدث – بأسلوبه – عن جماعة أنصار السينما التى أنشئت فى هذا التاريخ المبكر من حياة السينما فى بلادنا . وكان أحمد سالم يعد بين تلاميذ المدارس الثانوية أقرب إلى الأغنياء منه إلى الفقراء وأوساط الناس . وكان يتردد على بيتنا ليزور خالته ، وكلما جاء لإحدى زياراته سمعنا لمقدمه دوياً وضجيجاً حقا وصدقاً ؛ فقد كانت وسيلته للانتقال دراجة بخارية : وهى « موتوسيكل » أحمر فخم ضخم ، فلم يكن اقتناء السيارات قد بدأ أو عرف بين الأغنياء ، ولم يكن لأولادهم مندوحة عن شراء « الموتوسيكلات » إذا أرادوا أن يشبعوا فى أنفسهم حب الاقتناء والتميز . ولا أحسب أن السيارة الفاخرة أشبعت هذه الغرائز بالقدر الذى أشبعها به الموتوسيكل فى أيامه ؛ فالسيارة لا تصدر عنها من الأصوات ما يصدر عن الموتوسيكل ، والسيارة لا تثير الشعور بسرعتها وانطلاقها ، مثلما يثيره الموتوسيكل . وكان الموتوسيكل من ماركة « انديان » ، علامة تفوق فى مجتمع القاهرة سنة ١٩٢٠ ، وما بعدها ، لا يدانيها ، حتى التمتع بملكية سيارة من ماركة « رولزرويس » فيما بعد ، أوسيارة مارسيدس هذه الأيام .

ولذلك كان من حق أحمد سالم أن يتحدث إلى من أعلى السور بلهجة المتفضل ، وأن تزداد على شفتيه الغليظتين علامة البرم بى والضيق بوجودى ، وربما زاد شعوره بهذا أنه لم يبد عليّ أنى مقدر لمزاياه فى حين أن وصوله إلى دارنا بدراجته الغالية الجديدة اللامعة ، وهو يديرها بمهارة وسهولة وثقة نفس – كان يحمل الآنسات على أن يطللن برءوسهن الجميلة من النوافذ !

فإذا صعد درجات السلم وقفن خلف الأبواب يختلسن النظر إليه ! ولم أعبر عن إعجابى به – علم الله – لا عن رغبة فى المكايدة ، ولا عن كتمان لإحساس موجود ، ولا عن غيرة أو حسد ، ولكنى كنت صبيا قليل المعرفة بجوانب الحياة الاجتماعية التى توقفنى على مكانة مثل «أحمد سالم» فى دنيا الوجاهة والفتيات ! ولكن الذى أغراه باحتمال حديثى معه أننى كنت ندا له على صورة من الصور ؛ فقد كنت من رواد السينما النشيطين وكنت فوق ذلك من قراء مجلة الصور المتحركة ، فعرفت فيها من أسرار وأنباء عالم السينما فى عاصمتها الكبرى «لوس أنجلوس» ما لا تعرفه جماعة عشاق السينما من الصبيان أمثالى ، ولا يبعد أن تكون مجلة «بكتشر شو» الإنجليزية قد وقعت فى يدى مرة أو مرتين ، فذكرت اسمها ، فعَلا مقامى عند هذا الغنى الشاعر بمقام قوامه اللدن ، وجاذبيته المبكرة للنساء !

ولقد هون عليه الأمر اننى أخطأت خطأ أرضى كبرياءه ، وحفظ له – غير منازع ولا مدافع – تفوقه على لا بالموتوسيكل ، ولا بكونه طالباً بمدرسة الخديوية الشهيرة ، ولا بغناه ، ولكن بعلمه أيضاً أو قل بجهلى ؛ فقد اقترحت على جماعة أنصار السينما ، فى شخصه – أن تخرج مجلة لتكون لسان حال الأحرار الدستوريين وقد كانت هذه سقطة ضخمة ، وسببها أننى كنت أطالع جريدة السياسة من قبيل الاجتهاد ، وكانت تكتب تحت اسمها عبارة لسان حال الأحرار الدستوريين

فحفظت هذه العبارة ، فلما جاء ذكر مجلة أخرى لتكون لسان حال جماعة أخرى ، غلب على ما حفظته ، فرددته بلا فكر ولا وعى فضحك وقفز من السور ، كأنه يقول . إنه لم يعد هناك مبرر لإطالة صبره علىّ .

وشعرت بالإهانة وبقيت زمناً لا يقع نظرى على جريدة السياسة حتى تقفز إلى رأسي صورتى أنا وأحمد سالم ، على سطح المنزل ، كل منا فى جلباب ، مقرونة بالشعور بالخجل .

ومضت الأيام وراح نجم أحمد سالم يصعد ، فتنقل من طالب فى إنجلترا إلى رائد مغامر جسور من رواد الطيران المصرى الأوائل ، وصل فى سنة ١٩٣٠ إلى وطنه على متن طائرة يقودها بنفسه بعد الطيار محمد صدقى ، وفشل الطيار أحمد حسنين الذى أصبح أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى ، ثم احتل أحمد سالم مكانة بارزة فى المجتمع المصرى : فتى رشيقاً ، لا يمضى خطوة ، إلا تعلقت به قلوب فتيات وآنسات المجتمع ، وصاحبته أنباء المحلات التى تروى ما يدور فى دنيا الوجهاء المتأنقين والأغنياء والمشهورين . واتصلت الأسباب بين أحمد سالم وزعيم مصر الاقتصادى طلعت حرب فأصبح مدير مكتبه ، المقرب إليه ، ثم أصبح مديراً لأستوديو مصر عند إنشائه سنة ١٩٣٤ ، فكبيراً للمذيعين فى الإذاعة الرسمية عند إنشائها سنة ١٩٣٥ ، ثم اقترن اسمه بمغامرات السياسة والحب ، فأصبح زوجاً لأمينة البارودى نجمة المجتمع المتألقة ، وحفيدة البطلين محمود سامى البارودى ، وطلبه عصمت من زعماء ثورة عرابى ورفقائه فى المنفى ، واسمهان المطربة الذائعة الصيت ، ثم الراقصة تحية كريوكا ، وأطلق الرصاص فى هذه المغامرات وسقط فيها جرحى من كبار الشرطة !

وانتهت به مغامراته إلى اتهامه فى قضية عسكرية نسب إليه فيها بأنه ورد للجيش

خوذات مزيفة ، وحاكمته المحكمة العسكرية العليا برياسة المستشار سليمان حافظ وحكم عليه بالحبس سنتين ، واقتيد إلى السجن ، سجن مصر ، وكنت آن ذاك محبوساً على ذمة مقتل الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس وزراء مصر .

وفى ذات صباح كنت أتمشى فى حوش السجن فى فترة الراحة ، فإذا بضابط شاب يعدو نحوى ويقول : أحمد سالم يود أن يرانى فهل أسمح ؟ وابتسمت قائلاً لنفسى : منذ متى ، أُستأذن فى شيء وأنا فى السجن ، وكل ما يصيبنى فيه من خير وشر لا أخطر به قبل وقوعه ، دع عنك استئذانى فيه ؟ فقلت : أهلا وسهلاً . وجاء أحمد سالم يرتدى قيصاً بأكمام قصيرة وبنطلوناً قصيراً أيضاً مما نسميه الآن « شورت » وحيانى بحماسة شديدة ، وقد ذهب عنه تحفظه ، ثم قال لى كلاماً لا أحسب أننى سمعت تحية من أحد قبل ذلك أو بعده ، أثرت فى نفسى كما أثرت تحيته تلك يوم ذاك . فقد قال لى : إننى عرفت أكثر الواقفين على مسرح الحياة العامة فى مصر من الصف الأول إلى الصف الأخير إلا أنت . ولقد بقيت زمناً مشوقاً إلى أقصى الحد لأن أراك ، وأتحدث إليك . . وأضاف كلاماً آخر موجزاً ومركزاً ، ولكنه تضمن شهادة مسرفة فى حسن الظن . وعلانى ارتباك ؛ فقد أخجلنى هذا الثناء الذى لم يكن متوقعاً فى هذا الوقت ، ولا فى هذا المكان ، ولقد عهدت فى نفسى أننى حينما أمتحن بمثل هذا الموقف ، أسيء التصرف : فإما أن أسيء إلى نفسى بكلام لا معنى له ولا مبرر ، وإما أن أسيء إلى محدثى بغير داع ولا مقتض ، ولكن الله أنقذنى فسكَت ! ثم وقفنا نتكلم بضع دقائق فقال أحمد سالم كلاماً جيداً إلى أقصى الحد عن سليمان حافظ قاضيه الذى زج به إلى السجن ، فقد قال لى :

كان يجب أن يكون سليمان حافظ أكره الناس إلى قلبى ، فقد حبسنى وقضى بإدانتى فى قضية كنت أومن ببراءتى فيها ، وكان الصحفيون الذين يشهدون جلسات

القضية يؤمنون بذلك مثلى ، بل أكثر منى ، فلما سمعت حكم الإدانة وقع منى موقع الصاعقة ؛ لذلك كان المحتم ألا أطيق سماع اسم سليمان حافظ ، وأن يكون الشيطان أحب إلى منه ، ولكنى مازلت على حبى وتقديرى له ، فقلت له : أنا سعيد أن أسمع منك هذا الكلام فهو صديقى ، فبدت عليه المفاجأة وصاح : والله . . !

فلما قلت له : إننا تعرفنا – أحمد سالم وأنا – منذ خمس وعشرين سنة حينما كنا صبيين ، فتح عينيه وحدق فىّ دقائق وهو لا يصدق أذنيه !

وجاء الضابط يطلب إلينا أن نتفرق ، فقال له أحمد سالم بثقة : ما هذه الحركات البهلوانية يا حضرة الضابط ؟ دعنا فإن الحديث لم يبدأ ، ولكن الضابط رفض ، وأبدى لذلك عذرا ، وسار أحمد سالم إلى عنبر آخر من عنابر السجن غير عنبرى ، وكان ذلك آخر لقاء بيننا لم نتم الحديث ، ولم نكمل التعارف ، ثم مات بعد ذلك ، إثر عملية عادية غير خطيرة ، ولعلها استئصال المصران الأعور ، وغاب عن مسرح الحياة العامة ، وعن مسرح الحياة المصرية بخاصة إلى الأبد . .

أما الشخصية الثانية التى عرفتها فى هذا المنزل فلم يكتب لها أن تظفر من اهتمام الرأى العام ، وببعض ما ظفر به أحمد سالم ، أو أقل القليل منه ، ولكنه شغل من حياتنا نحن الصبيان فى هذا الجانب من حى السيدة زينب مكانا غير قليل ، وترك أثراً غير ضئيل . وكان صاحب هذه الشخصية هو محى الدين الطالب بمدرسة المعلمين العليا ، استأجر من منزل الحاج طه الزعيم الحلاق الدور الأرضى ، ولكنه لم يلبث حتى فتح باب الحجرة الأولى من هذه الشقة وهو الباب المتصل بباب العمارة العام ، فأصبحت هذه الحجرة بلا إجراءات ولا دعوة ناديا نؤمه ، كلما طاب لنا ذلك . وانضممت إلى هذا النادى ، فكان أول ناد أرتاده ، وكان لطالب مدرسة المعلمين العليا زميلان : أحدهما كان طالبا فى مدرسة أعدت لتخريج مدرسى المدارس

الابتدائية سميت بالمعلمين الثانوية ، والآخر لم نعرف ماذا يعمل فى الحياة ، وبقيت أجهل صناعته حتى لقيته بعد ربع قرن من الزمان كاتبا فى وزارة الأوقاف . يشكو إهماله ونسيانه ، ويلتمس المعونة ، ليحصل على حقه . ومع ذلك كان يبدو لنا هذا الشاب سليل أسرة عريقة ، فقد كان أنيقا ، رقيقا مهذبا ، لا يؤذى أحدا ، أما زميله طالب المدرسة الثانوية للمعلمين ، فقد كان حريصا على وقاره عظيم الاعتداد بنفسه ، وكان مصدر هذا الاعتداد أن شقيقه كان ناظر مدرسة المعلمين الثانوية بذاتها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد بدأت فى هذه السن المبكرة فى قراءة ما كتبه محمد فريد وجدى فى دائرة معارفه « دائرة معارف القرن العشرين » عن مذهب التطور المعروف باسم العالم البريطانى « داروين » فأعددت محاضرة عن هذا المذهب لإلقائها فى هذا النادى ، فامتلأ بعدد كبير من الرجال والصبيان من الفتيات والفتيان ، ومهما أردت أن أصطنع من أسباب التواضع الصادق فإننى سأبقى بعد ذلك مندهشا ، كيف جذبنى مذهب داروين إلى دراسته وأنا بعد تلميذ فى المدرسة الابتدائية وتزداد الدهشة درجات ودرجات من جرأتى على التفكير فى إلقاء محاضرة على هذا المذهب فى نادينا ، أى فى حجرة طالب مدرسة المعلمين العليا ، ثم لا تنفع الدهشة بعد ذلك ، وتنفد كل طاقاتها ، ويبدأ مالا تفسير له ، ولا تبرير ، وأعنى به إقبال أطفال الحى وبناته وبعض رجاله على الاستماع لهذه المحاضرة ، بل على التزاحم على سماعها . وأغلب الظن أنهم سمعوا بلفظ « المحاضرة » لأول مرة فى حياتهم ، والراجح الذى يكاد يكون يقينا أنهم إذ سمعوه لم يعوا من معناه قليلا أو كثيرا . فكيف أقبلوا على المحاضرة ؟ إذا قلنا : إن الذى جذبهم هو الاجتماع فى ذاته ، والأطفال بطبعهم ، يتقاطرون على ما فيه احتشاد للناس وتزاحم وتدافع ، فما تفسير أن بعض الكبار من الرجال وشباب الحى أقبلوا وحضروا وعلقوا

على المحاضرة ، ومازلت أذكر منهم إلى اليوم المرحوم عبد الحميد قناوى المحرر آن ذاك فى جريدة المقطم ، والذى عرفته بعد ذلك فى القضايا الكبرى ، يسجل وقائعها ، وينقل إلى القراء مرافعات المحامين ، ومناقشة الشهود .

وجملة القول إن هذه المحاضرة كانت فى حياتى كلها ، لا فى فترة صباى التى أسجلها وأرويها ، ظاهرة محيرة ، فقد درجت بعد ذلك حينما شببت عن الطوق ثم حينما استقام العود ، وثبتت أقدامى على طريق الخطابة والمحاضرة شيئا ما أن أتهيب موقف المحاضرة ، وأعد له الإعداد الطويل إذا اضطررت إليه ، فأدخل إلى القاعة مضطرب الأعصاب مشتت النفس ، أكاد أتعثر ، فإذا فرغت من المحاضرة ، وسمعت أقل عبارات الثناء ولو من قبيل المجاملة و « جبر الخاطر » تنفست الصعداء ، فقلت بينى وبين نفسى : هذا آخر عهدى بمثل هذا الموقف .

وقد شهد محاضرتى عن « داروين » فيمن شهد صديقى « محى » طالب المدرسة الثانوية للمعلمين ولعله كان يتلقى فى مدرسته شيئا من علم الحياة ، فانتهز فرصة هذه المحاضرة ، فنثر علينا بعض علمه ، فذكر من بين ما ذكر من حقائق علم الحياة ، لفظى « الأميبا » و « البرتوبلازما » وأول اللفظين يطلق على الخلية الفريدة إذا لم أكن مخطئا – وفرحنا وفرح غيرنا من الصبيان بلفظ الأميبا ، فكررناها ، معجبين ، وكررناها ضاحكين ، وأصبح اسم « أمين » صديق « محى » مرادفا للفظ الأميبا ، وإن كان لم يصب مقامه بهذا الترديد بقليل من الأذى أو كثير .

ولكن مقام (أمين) ازداد رفعة بفضل اسم آخر . هو (الدكتور وارنوك) ، ولم يكن (الدكتور وارنوك) سوى المدير البريطانى لمستشفى الأمراض العقلية فى حى العباسية ، وقد درج المصريون على أن يرمزوا للمجنون أو من يتهمونه بالجنون بلفظى « العباسية » و « الخانكة » حيث كان يقوم المستشفيان الخاصان بمرضى العقول ،

وكان أولهما للمرضى فى الدرجتين الأولى والثانية أما الثانى فلمرضى الدرجة الثالثة ، فكان التجديد الذى جاء به «أمين» أنه استعمل اسم مدير المستشفى بدلاً من اسم المستشفى بالعباسية ، ولما كان الاسم أجنبيا فإن الناطق به يعتبر مثقفا . وأحق بالاحترام تماما كما يتقدم فى المجتمع من يقول « مرسى » على من يقول « أشكرك » ومن يقول « بردون » على من يقول « لا مؤاخذة » !

ولكنْ الشخصية التى عرفتها عن طريق – « نادى محيى الدين » أى غرفته التى فتحها لنا فكانت أياديها أى أيادى الحجرة – علينا عميمة تستحق منا أن نقف أمامها طويلا ، فهى شخصية مدرس إلزامى ، بحسب ما سيكون ، إذ لم يكن عندما وفد إلى النادى أكثر من تلميذ بمدرسة عبد العزيز الأولية التى بشارع عبد العزيز الذى يصل ميدان عابدين بميدان العتبة الخضراء . وكان هذا التلميذ من أبناء دمياط أسمر اللون خشن الشعر ، ذا عينين مستديرتين ، تحدقان فى الناظر إليه ، فى دهشة ممزوجة بالتحدى ، والرغبة البادية فى الصدام والعراك . وكان عندما يزور النادى يرتدى الزى المعتاد فى تلك الأيام ، أى الجلباب فوقه «الجاكتة» مع الطربوش ، لا الجبة والقفطان ، ولم نتنبه إليه حتى وقعت الواقعة التى استرعت نظرى إليه ، والظاهر – على حسب ما استنتجته على ضوء ما عرفته فيما بعد من أخلاق هذه الشخصية أن إنسانا ما بدرت عنه عبارة أو حركة اعتبرها ، ولنسمه «عبده» مساسا بشخصه ، وكان شعوره بالإهانة ، شعورا متقدا ، فبدأ يهاجم المعتدى ، بأسلوب خطابى متدفق ، وبعبارة عربية فصيحة أدبية . وقد اتسعت حدقتاه المتسعتان أصلا ، وزاد تحديقه الغاضب فى الجالسين ، وكأنما يود أن يقتحمهم بعيونه غيظا وغضبا ، وراعنى أن صوته أسكت الحاضرين جميعا ، وأنه لم يتلعثم ولم يتوقف ، وبقى فى ذاكرتى من معانى خطبه تهديده بأنه قادر على أن ينبذ

من يتآمرون عليه . أو يفكرون فى المساس به بطرف إصبعه فيطيروا فى الهواء ، ثم انتفض واقفا ، وانطلق مسرعا من مكانه كالقذيفة ! .

هذا المشهد المسرحى أعجبنى ، واستأثر بمكانة خاصة به فى ذكرياتى ، فلم يمحه مر الأيام ، ولا ما شهدته بعد ذلك ، من مواقف كبار الخطباء والزعماء ، ولعل مرد تلك المكانة أنه المشهد الأول من نوعه فى حياتى ، وأنه مشهد طبيعى ، لا افتعال فيه ، ولا إعداد يسبقه ، ولست أدرى ماذا حدث بعد ذلك من « عبده » وهل عاد إلى النادى ، كما أنى لا أذكر أين لاقيته ثانية طوال السنوات التالية التى قضيت بعضها فى القاهرة فى مدرسة محمد على وبعضها تلميذا فى مدرسة أسيوط الثانوية ، ولكنى أذكر فقط أننى رأيت « عبده » فى مدينة بنى سويف ، حينما وفدت إليها ، مع أبى ، وإن كنت لا أذكر ماذا كانت الظروف التى جمعتنى به فى بنى سويف ، وكيف كان اللقاء الأول بينى وبينه فى هذه المدينة ، فما أذكره فقط أننى أصبحت أراه فيها ، وكأن العلاقة بيننا لم تنقطع طوال السنوات التى سبقت هذا اللقاء ، وكان المكان المفضل لشباب بنى سويف للقاء اليومى هو محل حلوانى يديره كالعادة يونانى ، وكان يطلق عليه اللفظ الفرنسى « باتسيرى » ، وكان رواده يشربون فيه القهوة والمياه الغازية ، ويجدون ألوانا محدودة من الفطائر ، ويلعبون « الطاولة » وربما احتسى بعضهم الزبيب « العرقى » أو الكونياك .

ثم أخذ « عبده » يزورنى فى البيت ، ولم أستطع أن أعرف بالضبط ماذا يفعل فى بنى سويف ، سوى أنه مراسل مجلة فنية مجهولة يصدرها صحفى فى مصر اسمه «كمال الحلى » . وكانت فى المجلة أبواب ، لنقد الأشخاص العاديين كالعمد والمشايخ وصغار الموظفين من رؤساء الأقلام فى ديوان المديرية أو المحافظة وأحيانا ضباط الشرطة وخصوصا من كان منهم مشغولا « بالمباحث » .

وكانت المجلة تكسب من وراء ما تنشره من الملاحظات اللاذعة لهؤلاء فإما أن يدفعوا قيمة الاشتراك ولم تكن تزيد على ٢٥ قرشا فى السنة أو يعاونوا على تحصيل اشتراكات من غيرهم ، أو أن يمنحوا المراسل مكافآت عينية أو نقدية من مالهم الخاص أو المال العام .

وقد عرفت من « عبده » أن هذه المجلة — على ضآلة شأنها — استطاعت أن تجعله قريبا إلى ذوى السلطة من ضباط المدينة وبعض الموظفين ، ولما قدم عهده بينى سويف أصبحت علاقاته بكبار أعيانها ، والعمد والمشايخ واسعة النطاق . . وأنه بفضل هذه العلاقات أصبح قريبا من مدير المديرية نفسها . هل كان يروى الحق . أو أنه كان يروى تمنياته وأحلامه التى لم تفارقه حتى آخر أيامه حينما اشتد به المرض ، ووافته نهاية الأجل ، وانتهت كل الأحلام العظيمة والعريضة ! .

ومن الأيام الأولى لاحظت أنه يزيل الكلفة بينه فى حديثه معى وبين هؤلاء الضباط والأعيان والعمد ، بل المدير نفسه ؛ فهو يشير إليهم بأسمائهم المجردة : فعبد السلام ، هو عبد السلام الشاذلى مدير المديرية . وسعيد أباظة رئيس مباحث المدينة ، وهو يصر على أن يروى أنه يناديهم هكذا ، فيهرعون إليه ، ويترضونه إذا غضب ، ويتملقونه إذا عاد من القاهرة بعد زيارة منه « لمحمد » أو « لمحمود » أو « لداود » ومحمد هو محمد محمود باشا رئيس الوزارة ومحمود هو محمود فهمى القيسى باشا وكيل الداخلية ، أما « داود » فهو داود بركات بك رئيس تحرير الأهرام !

ولست أدرى هل صدقت هذه الحكايات أو كذبتها ، ولكن الذى أعرفه على سبيل الجزم والقطع أنها لم تكن تثير اهتمامى ، ولا تزيد من احترامى له ، أو إعجابى به ، ولو انقطع عنها ، ما استزدته منها ، أو سألته عن شىء فيها ، بل كان ينفرنى منه إذا سرت فى الطريق معه أن يحيى عمدة ، أو يمازح عينا من أعيان مركز من مراكز

المحافظة « المديرية سابقا » . ولكنى بقيت أجهل أن « لعبده » وظيفة أخرى ، وأنها وظيفة متواضعة غاية فى التواضع ، وأنه نجح نجاحا باهرا إذ اتخذ من صلته بهذه المجلة الصغيرة المجهولة ، سبيلا إلى التحليق فى عالم ملؤه السلطة والجاه ، وأطايب الحياة تعويضا له عن صغر مقامه ، وقلة ماله ، وحرمانه من الجاه والنفوذ !

وفى ذات يوم أفضى لى عبده أنه مجرد مدرس إلزامى فى قرية « منقريش » من قرى محافظة بنى سويف ، وأنه فى أشد الضيق من هذا العمل الحقير ، ومن ضآلة مرتبه ، وأن السلطة ، أى المحافظة ، لا يكفيها أن يقبل رجل فى مثل علمه وقوة شخصيته ، وصلاته بالحكام وأهل الرأى ، أن يسرف فى التواضع فيقبل هذه المهانة على نفسه ، ويرتضى هذا العمل الدنىء ، فتكيد له ، وتنغص عليه حياته النكدة أصلا بأوامر وسخافات لا غرض منها إلا إحراجه . ورثيت لهذا البائس وكاد قلبى يتفطر حزنا عليه ، فقد تصورت كم يعانى شخص فى مثل إيمانه بعظمته ، وغرامه بالرياسة والجاه ، فى الوظيفة الحقيرة التى وضعه القدر فيها ، وقد تجلد وصبر ، لأنه لم يكن يدرى ماذا يفعل ، لو ترك هذا العمل على تفاهة شأنه ، وقلة جدواه !

ولكن جاء أخيرا القرار المحتوم ، واستقال « عبده » وأسرع إلى العاصمة ، وطاف على دواوين الحكم ، ودور الصحافة ، ومقار الأحزاب ، والله وحده يعلم كم احتمل شعوره المرهف بالإهانة ، وهو يلقى – بطبيعة الحال – الصدود والعزوف عنه . ثم حصلت أنا على إجازة الثانوية العامة ودخلت الجامعة ، واتخذت مع صديقى «كمال» بيتا على شاطئ النيل ، غير بعيد من كوبرى الجيزة . ولقد شاءت المصادفة العجيبة أن يكون هذا البيت بذاته هو بيت أبى منذ خمس عشرة سنة خلت . فكان « عبده » واحدا من الشبان الكثيرين الذين كانوا يترددون على بيتنا الصغير ، وقد

أتيح لكثيرين منهم بعد ذلك أن يظفر بالمكانة والنجاح فى الحياة العامة : السياسية أو العلمية . وتأكدت ملامح شخصية « عبده » فلم يعدل قط عن ثقته التى لا حد لها بنفسه وبمواهبه ، وبخوف الناس منه ، وحبهم له ، كما لم يكف عن رواية وقائعه مع العظماء والوزراء والزعماء ، واختلاطه بهم ، ووقوفه على أسرارهم ، واعتمادهم عليه ، وثقتهم به ، وهو فى كل هذا لا يذكر إلا أسماءهم الأولى بدون ألقاب . وإن كان فى أحيان قليلة لا يرى حرجا فى أن يقترض منك عشرة قروش أو أن يعترف لك بأنه جائع منذ الصباح ، ولكن دون أن تحس فى اعترافه أو طلبه ، برنة الضعف أو التسليم بفشله أو بسوء حالته .

ولما طال إلفه إيانا لم يخجل من أن يقول إنه يكتب تقارير سياسية لبعض رجال الأمن ، بل إنه كان يخلو بنفسه بعض الوقت فى بيتنا ويسود سطورا فى ورقة ، ويضعها أمامنا فى جيبه ، وهو يعلن أن فى هذه الورقة من الأسرار الخطيرة ما لا يعرفه سواه ، ومن هنا أصبح من حقنا أن نعابثه ، وأن نداعب أحلام عظمته ، فيقبل منا هذه المعابثة وتلك المداعبة ، باعتبار أن الصداقة وحدها هى التى تمنحنا هذه الميزة التى لا يتمتع بها كبار رجال الدولة ولا أهل الحل والعقد فيها . بل لا يحلمون بها .

ولقد كان « عبده » بالنسبة لى لغزا لا يحل ، فقد كان يتمتع بأسلوب عربى جيد ، ومحصول لفظى غير قليل ، وعبارة أدبية حسنة الديباجة ، وكان يتكلم أو قل يخطب ، كما لا يستطيع الكثيرون من مرتزقة السياسة ، وكان على سبيل التأكيد على صلة ببعض رجال السياسة والحكم ، أيا كانت طبيعة هذه الصلة ، ثم إنه ألف كتابا فى الإسلام ، جيد الموضوع والعبارة معا . فما الذى قعد « بعبده » هذا عن أن يتقدم فى عالم السياسة أو الصحافة أو يزيد دخله وقد ازدحم ميدانها فى أيامه

بالألوف ممن يبزونه فى نواحي ضعفه ، ولا يتحلون بشيء من مواهبه ومزاياه .

وتراخت الصلة بيننا حتى لم نعد نتصل بعضنا وبعض إلا لماما . ولكنه لا يرانى مصادفة أوعن موعد ، إلا فاضت عواطفه ، وتحدث عن أيامه فى بنى سويف بلهجة صادقة حقاً . ثم غاب عنى طويلا ، وفى ذات يوم كنت فى سرادق انتخابى أقمته لأعرض نفسي على الناخبين فى مصر الجديدة ، فرأيت من يشق صفوف الواقفين والجالسين ، ليصعد على المنبر ، ثم ينطلق يسبغ على ويضفى على شخصى من الصفات والنعوت ، ما كنت أعرف أن باعثه عليه هو عاطفة الخطيب الصادقة الذى لم يكن سوى « عبده » بعينه ودارت الأيام وأسندت إلى إحدى الوزارات ، وجاء الموظفون يحيون ، ورأيت شبحا يتمايل من فرط المرض ، فإذا بى أمام « عبده » بذاته وهو لا يكاد ينطق ، من شدة نوبة الربو الذى كان يعانى منه واستبقيته ، وتحدثت إليه طويلا ، كما يتحدث الأخوان ، وحاولت أن أخفف عنه ، ولكن عهده بدنيانا بعد ذلك لم يطل . . فقد تركها دون أن يحقق من آماله العريضة ، وأوهامه الكثيرة أملا واحدا .

قلت إننى عرفت فى أثناء وجودى فى منزل الحاج طه بشارع السيدة زينب « حافظ محمود » الكاتب الخطيب ، ونقيب الصحفيين الأسبق ، ولست أدرى إلى اليوم ، ما الذى قادنى الى بيته المجاور لبيتى ، وما الذى عقد الصلة بيننا ؟ بل لست أذكر اليوم الأول الذى رأيته فيه ، وما الذى دعانى ودعا معى رفيق الصبا والشباب « أحمد » إلى الانضمام إلى الجمعية التى أسسها حافظ ، واختار لها « القلم » اسما ، وهو اختيار فى رأيى غاية فى التوفيق ؟ ولو أن جمعية « القلم » التى أسسها ورأسها حافظ كانت فى الواقع جمعية « اللسان » فقد كان نشاطها كله خطابيا ، وكان أكثر هذا النشاط الخطابة جهد حافظ وحده ، إذ كان دور بقية الأعضاء الاستماع إلى

خطبه ، والإعجاب بها ، فلم يكن فى الأعضاء من هياته مواهبه ليكون من فرسان دنيا البيان المنطوق أو المكتوب ، فهم بين مقاول مبان أو موظف حسابى ؛ وكنت وصديقى أحمد لا نزال طالبين فى المدرسة الثانوية نحاول أن نكتب ونخطب ، ويحاول أحمد فوق ذلك أن يمثل .

ولقد كان حافظ فريدا فى الشارع الذى يحيا فيه ؛ فقد كانت عادة الشبان والصبيان فى القاهرة كلها أن يتخذوا من رصيف شارعهم . محلا مختارا ، يباشرون فيه نشاطهم من حديث أو شجار ، أما حافظ فلم يقف على رصيف منزله يوما ، ولم أشاهده قط فى جلباب أو جلباب وجاكتة ، وهما الزى الذى لا زى غيره إلا فى المناسبات الكبرى من زفاف أو مأتم أو حفلة مسرح ؛ حتى السينما كان أولاد المدارس يترددون عليها بجلابيبهم وعليها «الجاكته» أو بغيرها . كانت البذلة والكرافتة أو «البابيون» والطربوش هو الزى الذى يطالع به حافظ الناس محافظاً على أناقته ، مثابرا على الحرص على مظهره وجده وبعده عن الناس .

وكان حافظ منذ البداية مشغولا بالكتابة والخطابة وبالحديث عن أساتذته فى الجامعة منصور فهمى وطه حسين ، فلم يلعب كرة القدم التى كانت هواية كل صبى وكل شاب ، ولم يعد فى طريق ، ولم يشتبك فى مشاجرة بالأيدى ، ولا مشادة باللسان ، ولم يلعب الورق أو الطاولة على قارعة شارع أو رصيف .

وربما لا يعرف أحد أنه صاحب صوت جميل ، وأنه طالما أسمعنا من أغانى عبد الوهاب القديمة بداية قصائد متفرقة لشوقى ، ولكنه لم يكن يتم قصيدة واحدة منها ، ولو أحب الغناء ، لبلغ فيه درجة يحسده عليها المطربون الذين انقطعوا للغناء ، وقد ألف بعض الأغانى ، ليلحنها بنفسه ، وليغنيها لأصدقائه ، مازلت أذكر منها :

البنت البيضا الفلاحة واقفة ع النيل مرتاحة
واقفة والبدر قصادها طالع على وشه جمالها
والهـــــوى بيجرى على خدها الخمرى

ولقد كان يواجه منزل حافظ ، منزل الشاب « حسين الداغستانى » ، وهو من أصل داغستانى حقا ، إنه جدير بأن يشار إليه هنا ، فقد كان أول طالب يحصل على دكتوراه من كلية من كليات الجامعة المصرية الحديثة ، وقد كانت رسالته عن « السكك الحديدية فى مصر » قدمها إلى كلية الحقوق ، وقد حضرنا مناقشتها ، ومازلت أذكر كيف ألهبنا أكفنا بالتصفيق حينما أعلنت لجنة الامتحان أنها منحته « درجة الدكتوراه » ، فقد كان هذا الحدث فى نظرنا يوما مشهودا فى تاريخنا العلمى والثقافى ؛ فقد أثبتت الجامعة فى هذا اليوم أنها استقامت واستقرت ، لا تعلمنا فقط ، ولكن تمنح علماءنا أكبر الشهادات وتجعل منهم أساتذة ودكاترة .

كتب ومدارس

قال الصبي الذى نروى ذكرياته :

طالت قاماتنا ، وغلظت نوعا ما أصواتنا ، وبدا تحت أنوفنا ظل خفيف يبشر بأن شواربنا ستنبت بعد قليل ، وأن نسائم ربيع الحياة ستهل علينا ، ولكننا كنا فى الحقيقة صبيانا أقرب أن نكون أطفالا نلعب ونلهو وإن قرأنا الكتب ، وطالعنا الصحف ، واقتنينا المجلات ، ولكن أكثر ماتحب ونهوى كان مما يشغل الصبيان ، كرة قدم ، أوملاكمة فى الطريق ، أومصارعة فى المنزل ، أوصياح بلا مقتضٍ أشبه شيء بالصراخ من ألم الفراغ الذى لايطيقه الإنسان بعامة ، والصبى الملىء بالحيوية بخاصة .

ولست أريد أن أنساق مع الرغبة الصادقة فى التواضع ، فأغمط نفسى حقها فى أن تتحدث عن المجلد محمود حنفى ، الذى كان حانوته أودكانه ، على مرمى حجر من

دار الكتب . إن فى مكتبتى إلى اليوم كتبا جلدها هذا الصانع الماهر رحمه الله . ولاتزال إلى الآن آية من آيات فن التجليد بعد أن انقضى عليها نصف قرن أويزيد ، فقد عرفت طريقى إليه وأنا دون العاشرة ، وتعاملنا كما يتعامل صاحب العمل ، والعميل ندا لند ورأسا برأس . ولم أجلد قصصاً فقط ، بل جلدت كتب تاريخ وعلم ، جلدت ترجمة حياة أوتاريخ مصطفى كامل الذى وضعه شقيقه المغبون على فهمى كامل وجلدت كتاب : رسائل فرنسية مصرية الذى يضم بين دفتيه الرسائل المتبادلة بين مصطفى كامل وأمه الروحية مدام جوليت آدم ، هده الرسائل التى تعتبر من عيون أدب الوجدان لفرط ما اشتملت عليه من آيات البلاغة التلقائية التى يجريها الله سبحانه وتعالى على لسان وأقلام عباده الذين يصطفيهم ويختارهم ، لما يراه من جلائل الرسالات البشرية . .

وإلى جانب هذه الكتب الجادة جلدت قصص مسامرات الشعب ، وهى أم السلاسل التى عرفناها فيما بعد ، وقد كان يسكرنى وأنا دون العاشرة أن أسمع على أفاريز محطات السكك الحديدية ، ولاسيما محطة القاهرة نداء باعة الصحف ، على حلقات سلسلة مسامرات الشعب المنغمة « مسامرات الشعب ، المسامرات ، المسامرات . . الشعب . . الشعب » فإذا رأيت إنسانا ينادى على البائع ، ورأيت البائع يمد ذراعه إلى المنادى ، بنسخة من المسامرات ثم يدفع له الثمن ، ثم يقلب النسخة بين يديه ، ثم يأخذ مكانه فى عربة القطار ، ويروح يطالع القصة – تمنيت أن يكون فى مقدورى أن أفعل فعله ، وأن أشترى قصة من مسامرات الشعب ، وأن أضع بين يدى الكتاب وهو بعد جديد ، فلما شببت عن الطوق وأصبحت قادرا على أن أعبث فى مكتبة والدى ، وأن أكتشف فيها عددا من مسلسلات مسامرات الشعب – كان بودى أن أقبل هذه القصص ، من فرط حبى للكتاب ، وفرحى باقتنائه ، وتجليده وجمعه .

ثم جاء الوقت الذى أستطيع أن أقرأ فيه هذه القصص ، وأن أشتريها من أرصفة المحطات ، ومن مكتبات شارع عبد العزيز ، فقرأت قصة منها ثم شغلت بهذه القصة وبروايات المنفلوطى ومجلات أخرى فى مقدمتها « المحاسن المصورة » التى سبقت السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى : رصانة فى الأسلوب ، وتجديدا فى الموضوعات وجدية فى البحوث ، وأناقة فى الإخراج ، ثم مجلة « المضمار » أولى المجلات الرياضية فى مصر ولعلها آخرها . وقد أخرجها « خليل داغر » ليحدثنا عن أبطال المصارعة والملاكمة وكرة القدم والتنس فى بلادنا وفى الخارج . ويضيف إلى أحاديث الرياضة قصة مسلسلة ، مازلت أذكر أن إحداها كانت بعنوان « الانتقام العذب » . ومجلد المضمار الموجود فى أرفف مكتبتى المتواضعة لا يزال شاهدا على ريادة هذه المجلة الفريدة فى دنيا الرياضة . ثم جاءت مجلة اللطائف المصورة ، لتكون نديم الصبيان والشبان والرجال فى ذلك العهد المبكر ، من حياة الصحافة الأسبوعية فى مصر .

ولكن بقيت مسامرات الشعب فى مكان فريد خاص بها ، لاينافسها فيه صحيفة ولامجلة ، لأنها كانت تصل القراء فى مصر بأدب القصة فى الغرب ، ولم تكن الصلة به قد توطدت بعد ، ولم تكن الأفلام التى تترجم هذه القصص ، من المتطفلين على مائدة الأدب فى مصر ، كما أصبحت الحال ، حينما كثرت وتعددت المسلسلات القصصية فى بلادنا ، بل الذى عرفته أن عددا من كبار أدبائنا ومترجمينا أسهموا فى ترجمة حلقات هذه السلسلة المبكرة ، ولعل منهم « سلامة موسى ، ولطفى جمعة ، وراشد رستم وصادق راشد وطاهر حقى » . وأنا أورد هذه الأسماء على سبيل التخمين ، وإن كنت قد قرأت فى موضع ما فى شيء كتبه سلامة موسى أنه أسهم فى ترجمة هذه القصص .

ولقد مضى صاحب هذه السلسلة الرائدة ، وهو المرحوم خليل صادق منسيا من مؤرخى الأدب مغمورا كأنه أساء إلى بلده فى حين أن إخراج سلسلة بهذه الضخامة ، وبما تمتعت به من انتظام ومثابرة –كان يقتضى القائم عليها إنفاقا وجهدا وعناية ، وقد مهد الطريق بحق للسلاسل الشهرية التى فى مقدمتها سلسلة «كتاب الشهر» التى تعد مفخرة من مفاخر مصر الفتاة الثقافية والتى أتبعتها بعد ذلك سلسلة « اقرأ » لدار المعارف التى كانت ولاتزال درة من درر الثقافة العربية المعاصرة . ثم سلسلة «كتابك » التى هى جديرة بالإعجاب حقاً .

وإذا كان « خليل صادق » الذى لاأعرف عنه ، ولا عن ثقافته ، ولا عن بيئته أقل القليل – قد غبن ونسى فضله – فلعله يجد العزاء فى الدار الأخرى فى أنه لم يتفرد بهذا النصيب ، فقد شاركه فيه كثيرون منهم اثنان لاأنساهما أبدا : عبد الرازق عنايت الذى بذل فى سبيل المسرح المصرى مالم يبذله أحد من مواطنيه ، إذ حسْبه أنه أقام مسرحا من حر ماله ، فاحترق ، فأقام مسرحا جديدا دون أن تثنى الخسارة الفادحة عزمه ، أوتفل فى إرادته . أما الآخر فهو محمود مراد ، رائد الثقافة المسرحية المدرسية ، ومؤلف « مجد رمسيس » المسرحية الموسيقية ، ورئيس الجمعية المسرحية فى المدرسة الخديوية الثانوية ، وقد حاولت أن أرد له بعض جميله ، والتمست المعونة فى ذلك من ذوى قرباه المصور السينمائى المرحوم حسن مراد ، ونجله الذى علمت أنه يعمل فى إدارة التمثيل التجارى بوزارة الاقتصاد ، ولكن لم أوفق إلى شىء ذى قيمة ، وقد رجوت بعض دور النشر أن تعيد نشر كتاب ترجمه عن الإنجليزية المرحوم محمود مراد ، وكان عنوانه « اعترافات آكل أفيون » فلم يكن حظى فى هذا المسعى أسعد منه فى المسعى الأول وهو كتاب فريد فى نوعه ، ولايزال جديرا بالقراءة وبالنشر ، ولو على سبيل إحياء التراث المصرى الحديث .

وقد جرنا إلى هذا الاستطراد الطويل محل محمود حنفى للتجليد الذى إلى جوار دار الكتب فى شارع محمد على ، ولايزال قائما فى مكانه إلى الآن ، وقد قام أولاده عليه بعد وفاة أبيهم رحمه الله .

ولقد نفعنى التردد على هذا المصنع الصغير ، كثيرا ، فقد كنت أرى عددا من صغار وكبار الأدباء والخطباء والساسة ، وكنت أبادلهم الحديث وأستمع إليهم وأفرح بالاقتراب منهم ، وملاحظة مايقولون ومايفعلون . وكان من المترددين على هذا المصنع – مصنع التجليد – محمد شكرى كيرشاه ، الذى كان خطيب ثورة سنة ١٩١٩ ، لم يدع منبرها فى الجامع الأزهر يوما قط ، وكان ينطلق فى خطبه كأنه القذيفة ، تتتابع وتتوالى على لسانه التشبيهات الرائعة ، والألفاظ الغريبة والنادرة ، ويهز مشاعر المصلين فى الجامع العتيق ويثيرهم على الإنجليز ، ويحرضهم على الجهاد . وكان فوق قدرته الخطابية الفائقة من أكثر الناس نهما فى القراءة ، وكان يقرأ فى الإنجليزية كما يقرأ فى الأدب العربى القديم شعره ونثره .

ومن غرائب الأمور أن يكون هذا الكاتب المثقف المستنير الواسع الاطلاع – قليل الحظ من النجاح فى المحاماة . مع أن الخطابة ، والقدرة البيانية ، وكثرة الاطلاع من أدواتها ، ثم لم ينجح كذلك فى القضاء حينما عين قاضيا ، فقد عجز المنصب الحكومى ومقتضيات وقار القضاء عن أن ترده عن صراحته ، وأسلوبه الثورى ، إلى حد أنه أثر عنه أنه حينما كان يفتح جلسة المحكمة قوله : فتحت صالة بديعة . . !

وقد كان أشبه الناس به ثورة على المجتمع ، وهزءا بالتقاليد ، وفشلا فى الحياة العملية الأستاذ أحمد وفيق المحامى ، والكاتب الوطنى ، ومؤلف الكتب الدستورية ، والقانونية . وقد اشتغل من مطلع شبابه بالسياسة كاتبا ومحررا فى جرائد

الحزب الوطنى ، بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد ، وبعدهما ، ولقى من شظف العيش ، والحرمان فى مصر وخارجها مايهد عزائم الرجال ، فقد تشرد فى أوروبا وجاع ، ودخل السجن فى مصر ، مرارا ، فلما سادت روح المساومة مع الإنجليز ، وتفرق زعماء الحزب الوطنى انصرف إلى التأليف ، فوضع مايشبه الموسوعة فى القانون الدولى ، بعنوان « علم الدولة » — بكسر العين . وكان يهدى إلى كل مايصدر من هذه الموسوعة جزءا بجزء ، وقد تورطت معه فى كذبه ، لاأدرى إذا كانت ممايسمى بالكذب الأبيض أم كانت كذبا صراحا يحاسب عليه الإنسان ، ولابد له من استغفار وتوبة ، وكفارة ولو لم تقترن بقسم ، فقد لقينى الأستاذ وفيق يوما ، فسألنى هل قرأت الجزء الثانى من كتابه ، وقد قام فى وهمى أنه أهدى إلى الجزء الثالث أيضاً ، وكان هذا الجزء فى المطبعة ، تحت التغليف ، فقلت من باب المجاملة : لقد قرأت الجزء الثانى والثالث أيضاً «وما كاد الأستاذ وفيق يسمع لفظ « الثالث » حتى صرخ وكأنه لدغ ، ولم أفهم لأول وهلة ، سر هذه الصرخة المدوية ، ثم فهمت بعد ذلك أنه كان كثير التشكك فى أمانة الناشر والطابع ، كأنه يتهمه بأنه يسرب إلى السوق نسخاً من خلف ظهره ليستأثر بربحها دونه ، واعتبر وصول نسخة من الجزء الثالث لا يزال يعد للتوزيع فى المطبعة دليلاً على لصوصية هـذا الطابع الناشر ورجانى فى إلحاف شديد وبعصبية بادية أن أطلعه على النسخة التى اشتريتها من الجزء الثالث ، وأن أدله على المكتبة التى حصلت منها على هذه النسخة ، ووقعت فى شر كذبى فقد وعدته بذلك بدعوى أننى لم أشترها بنفسى ، وإنما اشتراها زميل أو صديق ، يعرف حرصى على اقتنائى لهذه المجموعة .

ولم أكد أصل إلى مكتبى حتى سمعت جرس التليفون يدق وبسذاجة رددت فإذا المتكلم هو أحمد وفيق ، وإذا هو يريد أن يعرف الجواب على سؤاليه ، واضطررت

إلى كذبة ثانية لمعالجة الكذبة الأولى ، فزعمت أنه اتضح لى أننى أخذت الكتاب معى إلى البيت ، ولم أكد أصل إلى البيت ، حتى لاحقنى تليفون من الأستاذ وفيق ، فاضطررت إلى كذبة ثالثة ، وبقيت أضيف كذبة إلى كذبة ، حتى اضطررت آخر الأمر ، أن أطلعه على الحقيقة ، أوبعض الحقيقة ، فكف عن مطاردتى ، وفى نفسه ، شك منى ؛ إذ ظن أننى لم أرد أن أعطيه الجزء الثالث ، ولا أن أدله على المكتبة التى اشتريته منها إشفاقا على الناشر الذى سرقه !

وكان من رواد مصنع تجليد شارع محمد على ، محام ثالث ، هو الأستاذ أحمد قراعة ، وقد كان محاميا لايشبهه كثيرون من المحامين ، فقد كان من هواة التمثيل والنقد الفنى ، ومن المترددين على دور الصحف الفنية ، والمسارح ، وعلى صلة بنقاد الأعمال المسرحية أمثال عبدالمجيد حلمى صاحب مجلة « المسرح » ورائد النقد التمثيلى فى مصر ، ثم « الأحنف » وهو حنفى مرسى ، وهو طالب حقوق وكان يوقع بهذا الاسم المستعار ، و « أحمد حسن » الذى كان طالبا بمدرسة المعلمين العليا ، ولم يتم تعليمه بها واشتغل بالمسرح هاويا ثم انقطع للصحافة وعمل فى مجلة روز اليوسف حتى توفاه الله ، وربما محمد التابعى ، منشئ روز اليوسف وآخر ساعة ، الذى هجر النقد المسرحى بعد أن بدأ عمله فى الصحافة ، فى مقالات يوقعها بإمضاء « حندس » .

ولم ألق عند الأسطى محمود حنفى – الوطنى الكبير والمؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى ، وإن رأيت كتبه هناك قبل تجليدها ، وبعد تجليدها .

قلت إن نسائم الربيع ، بدأت تهب علينا ، خفيفة ضعيفة ، لم تغير كثيرا منا ، ولامن حياتنا فنحن صبيان أبرياء ، لايشغل بالنا ، إلا كل ماهو برىء ونظيف . . نلهو كما قلت لهوا يجهد أجسامنا ، حتى إذا جاء المساء نمنا ملء الجفون أو لهوا يتخذ

صورة عقلية أوفكرية . . فنقرأ القصص ، ونطالع المجلات ، ونحاكى الكبار ، فننشئ مدارس ، يكون بعضنا فيها مدرسا ، ويكون بعض آخر فيها تلميذا ، بل إن خيالنا امتد ، فجعلنا من أنفسنا « برلمانا » وكانت الانتخابات السابقة ، على قيام أول برلمان مصرى فى مارس سنة ١٩٢٤ ، قد شغلت الصغير والكبير ، فأغرتنا أن نقتبس منها مايرضى خيالنا .

وقد كانت أول مدرسة أشارك فى تأسيسها وأنا صبى المدرسة التى لعبت فيها أختى التى تكبرنى ، والتى زاملتنى طوال حياة طفولتى وصباى ، مزاملة ملأت على أيامى سرورا ومتعة . وكانت أختى حادة الطبع فى صباها ، وفى كهولتها ، فنالنى من حدة طبعها وأنا تلميذ فى مدرستها الكثير ، ولكنى أفدت من هذه المدرسة ، وإن كانت لعبا ولهوا الكثير ، كذلك تعلمت أول ماتعلمت فيها فن « القص » ، ورواية الوقائع ، الخيالى منها والحقيقى ، فقد كانت أختى قادرة على سرد الحكايات بأسلوب ممتع مملوء بالصور المصنوعة من الألفاظ المعبرة والمؤثرة .

قصت على قصة ماجدولين التى وضعها الكاتب الفرنسى « ألفونس كار » والتى ترجمها إلى العربية الكاتب العظيم مصطفى لطفى المنفلوطى ، فأثرت على خاتمة « ماجدولين » التعسة ، فبكيت وعلا صوت نحيبى ، فأسرع أهل البيت على هذا الصوت ، مشفقين أن يكون قد أصابنى سوء فلما دخلوا علينا الشرفة التى اتخذناها مقرا للمدرسة رأونى دامع العينين ، وسمعونى أصيح : ماجدولين ماتت ! وبعض من خفوا لنجدتى ، كانوا لايعرفون من تكون ماجدولين ، فانتابهم فزع شديد ، فصاحوا من الذى مات ، كفانا الله السوء ؟

وفى يوم آخر كان الدرس تلخيصا لرواية « غادة كربلاء » التى وضعها « جورجى زيدان » مؤسس مجلة الهلال ، كانت أختى قد سمعتها ملخصة من شقيقتها التى

تكبرها ، فروتها لى فبكيت لمقتل الحسين رضى الله عنه واستشهاده ، ولكن فى صوت مكتوم وذهبت إلى النوم محزون القلب . وكانت المدرسة تشغلنا ، فلايسمع لنا صوت . فيخيل إلى أهل البيت أننا تسللنا منه فيبحثون عنا هنا وهناك ، وهم لايصدقون أن نكون فى البيت ، وألايسمع لنا ضجيج لايطاق ، لايهدأ إلابالتأديب المباشر ، أوبالتهديد به ، فإذا اكتشفوا أننا فى الشرفة ، نقوم بطقوس المدرسة ، ونحترم تقاليدها ، كما لم تحترم هذه الطقوس وتلك التقاليد فى مدرسة حقيقية من قبل أخذ منهم العجب كل مأخذ .

غير أن هذه المدرسة كانت تستحيل أحيانا عذابا مريرا لى ، وذلك عندما يسوء مزاج أختى ، وترانى جديرا بالعقاب ، فتنهال على ضربا « بمسطرة » أعدت لهذا الغرض ، ولم تستعمل قط فى تلقينى علما ، وقد يقول قائل ، وما الذى ألجأك لقبول الانتساب إلى هذه المدرسة ؟ والجواب حاضر ، فقد كان فى وسعى أن أخرج منها طواعية واختيارا ، ولكن مقابل حرمانى من صداقة وزمالة أختى ، ومن براعتها فى القص ، وحيويتها فى الحركة ، ولقد هددتنى مرارا ، بفض المدرسة وإغلاق أبوابها ، ووضع حد لنشاطها ، إذا أنا شكوت من شدة العقاب وقسوته فيها ، وقد فكرت مرارا كذلك فى هذا الاختيار الصعب ، وقررت مكرها مرغما أن المدرسة بعقابها وميل ناظرتها ومعلمتها الفريدة والعنيفة إلى الشدة خير من عالم تسوده الوحشة ، وتنقصه حرارة المشاركة وأنس الزمالة .

والغريب أن ماينالنى من عقاب كان لايصدر عن أختى عن رغبة فى التعذيب ، ولافرح بوجود فريسة لاحول لها ولاقوة ، لاتملك أن ترد الضرب بالضرب ، والعدوان بالعدوان ؛ فقد طبعت أختى على الصدق والصراحة ، ولوكان الأمر مزاحا أولعبا ولهوا ، فقد كان فى مسلكى مايغضبها بحق ، وكانت ترى أنها تخون رسالتها إذا

لم تقومنى بحد السيف ، وحد السيف هنا ، هو حد « المسطرة » .

ولكن لكل أمر نهاية ، ولكل صبر حدود ، ولابد من غضبة الحليم ، وقد وقعت هذه الغضبة فى يوم ، فعوضت على كل مانالنى من مسطرة أختى ، وصدق غضبها ، فقد أعطانا أبى واجبا فى اللغة الإنجليزية نحفظه ، فأقبلت عليه ، فحفظته عن ظهر قلب ، ولم تعن أختى بحفظه لعلمها بأن مشاغل أبى كثيرة ، وأنه سينسى الواجب ، وينسى أن يمتحننا فيه ، فقررت أن انتقم لنفسى انتقاما مشروعا تقره القوانين وعلاقة الأخوة ، وولاء التلميذ لأستاذته : وإن قسا ضربها واشتد عقابها فقد هم والدى بالخروج ، فاقتربت منه وقلت له : لقد حفظت الواجب ، فعاد والدى أدراجه قائلا : كتر خيرك ، لقد نسيت ، وسألنى عن كلمة من هنا وكلمة من هناك ، وأثنى على ثم نادى أختى فتلكأت على أمل أن ينصرف والدى لضيق وقته ، فغاظه هذا التلكؤ ، وألح فى دعوتها ، وجاءت مكرهة ، وهى تنظر إلى عاتبة . ففاض قلبى شفقة لها وألما لهذا المكر الذى بدا لى حسنا ، ثم تبينت أنه مكر سيئ ، فسألها وهو غاضب : فلم تجب ، وسأل ثانية وثالثة ، فلم توفق إلى شىء ، فانطلق يبحث ، فلم يجد أمامه إلا «المسيطرة» ، المسطرة الملعونة بذاتها ، فانهال بها ضربا على وجهها ورأسها وظهرها ، وكانت معنا آن ذاك ابنة خالة ، فاندفعت نحو أبى صارخة ، ثم وصلت إلى أصبع يده فعضتها ، فبدا عليه الألم ، وزاد غضبه ، فانفجرت أنا باكيا . . ورأى أبى نفسه أمام مناحة ، وكان رقيق القلب ، شديد الإحساس بألم كل الناس الحقيقى والمتخيل ، ففاضت عيونه بالدموع وضمنا جميعا بين ذراعيه .

لا أزعم لنفسى أننى كنت فى هذه المرحلة قادرا على فلسفة الأمور ، وإن كان مدرس اللغة الإنجليزية فى مدرسة محمد على ، ورائد كرة القدم الحديثة فى مصر ،

«حسين سليمان» ركلنى يوما لفرط ضيقه بى وهو يقول : «قل يافيلسوف» أما أنه ركلنى فذلك لأنه كان يحب الكرة . ويحب ركلها بالقدم . وكان كل ما عنده يركل ، ولم أغفر له فقط – مع إعجابى به وحبى لحبه للكرة – لم أغفر هذه الإهانة التى لا مبرر لها والتى لم ينلنى مثلها من أستاذ ولا زميل .

مع هذه الركلة التى بورك بها لقبى «كفيلسوف» . فإنى لاأزعم أننى كنت قادرا على فلسفة مأساة الانتقام من ناظرة مدرستى ، ومعلمتى وأختى فى ذلك الأصيل الأغبر ، ولكنى أستطيع أن أقول صادقا غير مبالغ ، إننى آويت إلى ركن من أركان حجرتى ، فى بيتى كحيوان جريح ، ولم أستطع حتى لعق جرحى ، فقد شملنى شلل نفسى كامل ، عجزت معه عن الحركة ، وعن التفكير حتى عن الشعور بالألم .

هل حدث ذلك لأنى أحسست بالإثم ، إذ اتخذت من المباهاة بالعلم ، سبيلا للانتقام من أختى التى كنت ألقى التعذيب على يديها ، ساخطا وثائرا وإن كنت قد ارتضيت هذا العذاب ، مقابل متع روحية ونفسية لاتقدر بمال .

ولو استطعت أن أصف شعورى يوم ذاك ، وأن أصوره لقلت : إننى كنت أحس أن حبى لأختى وولائى لها وتعلقى بها ، بدا لى كإنسان حى طعن ، وترك موضع الطعنة لينزف دما . وفى صباح اليوم التالى تلاقت عيوننا ولم نتكلم ، ولعلها كانت راغبة فى الكلام ومقبلة عليه ، ولكنى أنا الذى رفضته وعزفت عنه . فقد عاشت حياتها بسيطة ومتسامحة وذات نظرة للأمور كلها العامة والخاصة تتسم بالتسامى والملائكية ، ولكن منظر أختى وهى تضرب وهى تصيح وهى تحتج بقى ماثلا لعينى كالكابوس ، وقد زاده إيلاما للنفس وتعذيبا لها خيالى الذى عرفت نشاطه منذ وعيت الدنيا وماحولى فيها .

ولكنى مهما أردت أن أرفع من قدر نفسى فوق حقيقة هذا القدر ، فقد كنت

صبيا . وقد خلق الله الصبيان والأطفال ، ومعهم قدرات طبيعية تعين على لأم الجروح ، والامات أكثر أهل الأرض ، لكل جرح أورض أوكسر يصابون به فى أول أيامهم ، وبقيت ذكرياتهم السيئة منذ لحظة الخروج من الرحم حتى يدخلوا فى دور الشباب مروراً بعملية الختان وعذاب المشى والنطق ، وكل نشاطهم الإنسانى كالقرح الملتهبة ، ولأصابهم الخبل والجنون ، إن لم يضعوا لحياتهم نهاية بأيديهم . .

مرت أيام الحزن بسرعة ، وعدنا كما كنا طفلين بريئين نلعب ونلهو ، وأقمنا المدرسة وضممنا إليها من يفد إلى دارنا من أبناء الأهل والجيران ، وطردنا أكثرهم ، لأن لعبة المدرسة والمسطرة والحكاية التى تعلو على أفهام وأذهان الصبيان لاتروق كثيرا لأغلبيتهم .

وكان لابد أن ينقضى عمر غير قصير ، حتى تصبح أستاذتى ومعلمتى ومدرستى وأختى تلميذة لى ، تبحث عنى ، لأحدثها فيما يمر بها وببلدنا وبالعالم من أحداث ، فإن حالت دون ذلك مشاغلى ، أوأمراضى ، أوسوء مزاجى – غضبت وحزنت ، وانصرفت وهى تلعن الدهر . . رحمها الله وغفر لها ، ولأخيها وتلميذها ، الذاكر فضلها .

مشايخ وخواجات

قال الشيخ الذى نروى ذكريات صباه :

فى أيام صباى تقاسمت طائفتان السيطرة على حياة المصريين ، إحداهما اشتغلت بدنيا النفوس الباطنية ، أى بدنيا الوجدان والمشاعر والمخاوف والآمال واستلهام القوة واستنباء الغيب ، والبحث عن الهداية والظفر بالتوبة والمغفرة ، والترويح عن القلوب بالكلام الممتع والطرائف المستملحة والنوادر المستحبة .

واستأثرت الأخرى ، بعالم المادة من المال والتجارة وصنع الأدوات النافعة وتجميل الحياة وتحسين وسائلها من ملبس ، ومأكل ، وأثاث وزينة ، والتماس المعرفة الحديثة ، والتقدم فى مجالات الرقة والتلطف ، والحديث والاجتماع .

أما الطائفة الأولى فسميها للتبسيط :
طائفة المشايخ ، وأما الطائفة الأخرى فنسميها طائفة الخواجات .

وطائفة المشايخ واسعة الميدان مترامية المجال ، تضم ذوى القيمة والمكانة الحقيقية ، يقف على رأسها آل البيت فى أضرحتهم من الرجال والنساء فنها الإمام الحسين بن على رضى الله عنه ، والإمام زين العابدين ، والإمام الشافعى وأضرابهم من الشهداء الصادقين ، والعلماء المجتهدين ، وأسباط رسول الله المقربين رضى الله عنهم جميعاً ، وفيهم نساء ينافسن الرجال فى العلم والصبر والثبات فى وجه الشدائد كالسيدات زينب ونفيسة ، وعائشة ، ورابعة العدوية ، ثم يأتى بعد ذلك عدد ضخم من المتصوفين الكبار ، انتثرت قبورهم فى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، فنهم السادة أحمد البدوى والأباصيرى وإبراهيم الدسوقى ، والمرسى أبو العباس ، والشاطبى ، وسيدى جابر ، وسيدى أبو الحجاج الأقصرى ، وعبد الرحيم القنائى ، وجلال السيوطى ، وفرغل ، وننتهى إلى مشايخ لهم أضرحة لا يدرى أحد شيئاً من تاريخهم ، ولا يستطيع أحد أن يقطع باحتمال أنه تحت قبة كل ضريح من أضرحتهم شيخ أو وهم يتجر به مشعوذ أو دجال !

ويدخل فى طائفة المشايخ علماء أجلاء خدموا الدين والدنيا بأقلامهم وألسنتهم ، وعلمهم وفضلهم ، ازدانت بهم مشيخة الأزهر ، وأطلق عليهم الناس والحكومة ألقابا جليلة ، وأفاض الشخصية والوقار عليهم علمُهم وسمتهم ، وأسلوبهم فى المشية ، وطريقتهم فى الجلسة ، وأداؤهم للكلام ، وتصديهم للسلطة ، واتصالهم بالعامة ، وبذلهم للمال ؛ وآخرون عضوا على الدنيا بالنواجذ ، وبذلوا الغالى من ماء الوجه وحسن السمعة ليكونوا على مقربة من الحاكم ، مصريا كان أو أجنبيا ،

صالحاً كان أو طالحاً ، فخلفوا الدار والعقار ، وخافهم الناس ، وبعدت عنهم الرعية ، فعوضوا عن الجاه الحقيق ، بذقون مسترسلة ، وعباءات منتفخة ، وسبح حباتها منتقاة ، ورناتها عندما تتوالى بين الأصابع مسموعة ، مع تؤدة فى الكلام ، وتثاقل فى الجلوس والقيام ، وإطراقة عند كل سؤال ، وعبث فى العثنون ، وهو الشعر الذى يأتى أسفل الشفة السفلى ، قبل الإدلاء بالفتوى ، أو النطق بفصل الخطاب .

وبين هؤلاء وهؤلاء ، أزهريون انتسبوا إلى الأزهر ، ولم يتموا تعليمهم فيه ، ثم تفرقت بهم السبل ، فنهم الصحفيون ، والأدباء ، ومنهم موظفون صغار فى المحاكم الشرعية ، ودواوين الحكومة ، ومكاتب الأزهر ومعاهده ، ومصححون فى الجرائد . والمطابع ، وخطباء وشعراء «تحت الطلب» يقدمون إنتاجهم للأحزاب والأغنياء ، ويعملون ندماء فى المجالس وعند أصحاب الجاه فى الريف والمدن ، وكتاب عرائض وبلاغات كاذبة ، ومنهم من أتم تعليمه فأصبح قاضياً جليلاً ، أو محامياً شرعيا ناجحاً ، أو أستاذاً فى الأزهر ، أو فى دار العلوم ، أو فى الجامعة عندما نشأت ، أو معلماً فى المدارس الابتدائية والثانوية ، أو أديبا صاحب مكانة ، أو خطيباً ، لا يتحامى مواطن الخطر ولا يتحاشاه ، ويؤلب الجماهير فى ساعات الشدة ، ويؤيد الزعامات الصادقة فى أوقات المحنة .

ويتقدم هؤلاء جميعاً بطبيعة الحال ، فى عهد صباى شيخ الأزهر ، المسمى بالأستاذ الأكبر ، والمعروف من عهد الأتراك «بشيخ الإسلام» ، وكان اسمه فى تلك الحقبة الشيخ سليم البشرى ، وكان قد سبقه إلى هذه المشيخة فى عهد الخديو عباس الشيخ حسونة النواوى ، وجاء بعده الشيخ أبو الفضل الجيزاوى فالشيخ الظواهرى ، وتلاه الشيخ المراغى ، وكانوا جميعاً تنتهى أسماؤهم بياء النسبة ، وكان

ذلك تقليداً تراه واضحاً قبل عهد محمد على حتى اختير الشيخ عبد المجيد سليم ، قبيل الثورة فانكسر هذا التقليد ، ولم يعد قط ، فقد توالى على المشيخة ، شيوخ لا ينتسبون إلى قرية أو إقليم ، فكانوا على التوالى الشيخ الخضر حسين ثم الشيخ عبد الرحمن تاج ، فالشيخ محمد الفحام ، فالشيخ عبد الحليم محمود ، وقد استعاض شيوخنا الأجلاء عن ياء النسبة كالشرقاوى والمهدى والعباسى بلقب الدكتور ، فقل أن تجد الآن فى منصب دينى كبير عالماً لا يضع قبل اسمه لقب دكتور ، وبعض هؤلاء الدكاترة ، لم يحصلوا على لقب دكتور من جامعة أجنبية أو مصرية ، ولكن لقب العالمية فى التخصص ، اعتبر مساوياً لقب دكتور فكثر عدد الدكاترة فى عالم الشيوخ ، وهى ظاهرة لاتسر أحداً ، لا لأن التماس العلم فى أوروبا أو فى مصر خارج الأزهر شيء نكرهه لعلمائنا ، بل لأن لقب شيخ فى رأينا لا يعدله لقب ، وهو يدل على انتمائنا إلى تاريخنا ، ولذلك لا أسمى أحداً من علمائنا إلا مقروناً بلقب «الشيخ» ، وأنا أضمر فى نفسى وأعلن الاحترام والتبجيل ، لهذا اللقب الجليل ، ولكل من يحمله ، وخصوصاً إذا كان يعرف قدره ويحفظ مقامه .

وقد كان لكل حزب فى مصر ، فى الأيام التى أروى وقائعها ، عدد من الشيوخ ينتمون إليه ، ويتحدثون عنه ، ويغشون مجالس زعمائه . وقد كان أكبر هؤلاء الشيوخ ، وأوسعهم شهرة ، وأبقاهم أثرا ، شيخ الحزب الوطنى ، الشيخ عبد العزيز جاويش ، وقد كانت له طلعة جميلة ، ولحية تزيد وجهه جمالاً ، وقد تولى رياسة تحرير اللواء بعد وفاة مصطفى كامل ، فذاعت شهرة مقالاته ، لفرط حدتها وعنفها مع متانة نسيجها ، وفصاحة عبارتها ، وكان الشبان يحفظونها عن ظهر قلب ، فلما حوكم على إحدى مقالاته ، ثم قضى ببراءته حل الشبان سيور العربة ، وسرحوا خيولها ثم جروها بأنفسهم ، ولما حبس فى قضية أخرى ثم خرج من السجن

بعد نهاية مدة العقوبة ، اكتتب الشعب لشراء وسام من الفضة والذهب ووشاح من الحرير والقصب ، وأهدوه إليه فى حفلة حافلة توالى فيها الخطباء والشعراء ، ذاكرين مآثره ، مشيدين بأياديه . وقد كان للشيخ جاويش فضل على شيوخ آخرين كان لهم دور أى دور فى حياتنا العامة ، وكان من هؤلاء واحد من ألصق تلاميذه به هو الشيخ طه حسين فقد رعاه الشيخ جاويش منذ كان طالباً ، ثم أوحى إليه أن يلتمس العلم فى الجامعة المصرية الأهلية ، ثم أن يتعلم الفرنسية ، ثم أن يسافر إلى فرنسا ليطلب مزيداً من العلم والمعرفة ، ثم بقى وراءه يدفعه إلى مواقف الخطابة ، بعد أن شجعه على النقد العنيف لأئمة الكتاب فى ذلك العهد ، وفى مقدمتهم شيخ أزهرى آخر هو مصطفى لطفى المنفلوطى . وكان من تلاميذ الشيخ جاويش الأفذاذ الشيخ على الغاياتى ، صاحب ديوان وطنيتى الذى قدم لديوانه محمد فريد زعيم الحزب الوطنى بكلمة ، كما قدم له الشيخ جاويش بكلمة أخرى ، فقادت النيابة الثلاثة ، صاحب الديوان ، واللذين قرظاه إلى محكمة الجنايات فحكم على «محمد فريد» بالحبس ستة أشهر وعلى الشيخ جاويش بثلاثة وعلى صاحب الديوان بسنة ، ولكنه لم يدخل السجن إذ فر إلى تركيا فسويسرا فأقام بها نحو ربع قرن من الزمان ، بنى خلالها بسيدة سويسرية فاضلة ، وأنشأ مجلة «منبر الشرق» وعاد يتقن الفرنسية كأحد أبنائها كتابة وحديثاً وخطابة وشعراً .

أما حزب «الأحرار الدستوريين» فكان من شيوخه الشيخ الزنكلونى ، والشيخ المراغى ، أما الشيخان والشقيقان مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق فكانا من زعماء الحرب ، إذ كان أخوهما حسن باشا عبدالرازق أحد مؤسسى الحزب ،وأول وكلائه ، وقد قتل على باب الحزب . وقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق نموذجاً لجمال الرجال ، تلمع جبهته ببريق عجيب ، لم أر مثله على جبهة أحد سواه ، وكان

دمثا رقيق العاطفة ، خافت الصوت حلو الابتسامة عظيم الحياء ، تكاد تحسبه من فرط حيائه ولطف تقاطيعه عذراء خفرة لا تكاد تقوى على رفع عينيها إلى وجه محدثها ؛ ومع ذلك فقد كان حازماً يحسن ضبط تلاميذه ، حينما كان يدرس الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب ، وكان له لازمة يكررها . إذا ما سئل عن شيء يستهجنه ، أولا يعرفه أولا يود أن يجيب عليه : فقد كان يقول : «يجوز . . . أنا ما أعرفش» وكان يعطش «الجيم» إذ كان من ناحية (أبو جرج) فى إقليم المنيا

أما أخوه على فكانت له لحية صغيرة على طريقة علماء وأساتذة فرنسا ، ولم تكن له وسامة أخيه مصطفى ، ولا بريق وجهه ، ولا لطف ابتسامته ، ولكنه كان فى مثل وداعة شقيقه ، وتواضعه وخفوت صوته ، وقد ذاع اسمه بعد اتهامه بالخروج على الدين ، عقب تأليفه كتابه «الإسلام وأصول الحكم» . فلما شلحوه من الأزهر خلع عمامته واصطنع لنفسه الزى الأوربى وحلق ذقنه ، ففقد وجهه الكثير من حلاوته ولطف تأثيره .

أما شيوخ الوفد أو مشايخه فكان أشهرهم ، وأخطبهم وأكثرهم نشاطاً الشيخ مصطفى القاياتى ، وكان من خطباء ثورة سنة ١٩١٩ ، خطب كثيراً فى جامع الأزهر فى أثناء احتدام وقائع الثورة ، فقبض عليه الإنجليز ، ونفوه إلى ألماظة ، وساقوه للمحاكمة العسكرية وحكموا عليه ، وكان من الشيوخ الوفديين الشيخ عبد المجيد اللبان ، كان عضواً فى البرلمان الأول الذى انتخب سنة ١٩٢٣ وانعقد لأول مرة فى سنة ١٩٢٤ ، ولكنه ترك الوفد وبعد عن السياسة فعين شيخاً لكلية أصول الدين .

وكان سكرتير سعد زغلول ، شابا أزهريا تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى ، هو الشيخ إبراهيم الجزيرى ، وقد ألف كتاباً عن سعد بعد وفاته روى فيه بعض ذكرياته فى أثناء عمله مع الزعيم ، وعنوانه «آثار الزعيم الجليل» .

وكان من شيوخ الوفد فى الفترات التالية لوفاة سعد زغلول الشيخ محمد البنا وأخواه الشافعى وكامل ، ومدرس إلزامى من محافظة بنى سويف ، وهو الشيخ محمود عمار الذى عرف فيما بعد بشاعر الرعاع ، وذاع لقبه وغطى على اسمه .

أما شيخ السعديين فهو الشيخ عبد الرحمن الجديلى اتهم فى قضية المؤامرة الكبرى ، مع عبد الرحمن فهمى قائد ثورة سنة ١٩١٩ خلال السنوات ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ إبان تغيب سعد وزملائه زعماء الوفد فى أوربا ، فزامل فى هذا الاتهام إبراهيم عبد الهادى الذى أصبح رئيساً للوزراء سنة ١٩٥٠ ، فبقيا على صلة وثيقة ، فلما ألف أحمد ماهر والنقراشى الهيئة السعدية انضم إليهما ، فلما توليا الحكم أسند إليه وكالة وزارة الشئون الدينية ، فكان أول وكيل وزارة أزهرى ، وقد تخرج أصلاً فى مدرسة القضاء الشرعى ، وكان صديقاً لأمير الشعراء أحمد شوقى ، ومستشاراً أدبيًّا له ، يستعين برأيه فى تذوق شعره ونقد عيوبه ، وكان الشيخ محمد عبد اللطيف دراز من شيوخ السعديين أيضاً وهو أصلاً من أبناء الحزب الوطنى وقد كان له دور بارز فى أحداث الفترة الأولى من ثورة سنة ١٩١٩ .

وقد حفلت صفوف مصر الفتاة بعدد غير قليل من الشبان الأزهريين الذين أثبتت الأيام سعة علمهم ، وإخلاصهم لدينهم ، ومن هؤلاء الشيخ عبد الرحيم فودة مدير مجلة الأزهر الذى لحق بالرفيق الأعلى أخيراً ، والشيخ عبد المنعم النمر مدير الشئون الدينية فى دولة الإمارات المتحدة ورئيس مجلة المنار ومدير المعاهد الدينية الآن ، والشيخ عبد الرحمن الصوالحى الذى انقطعت عنى أخباره من زمن طويل .

وكانت الصحف تذكر فى تلك الأيام أسماء عدد من الأزهريين فتنشر لهم المقالات ، وتذكر طرفاً من نشاطهم ، وكان أظهر هؤلاء الشيخ محمود أبو العيون ،

الذى وجه كل نشاطه لإلغاء البغاء العلنى ، وكان من قبل ، خطيباً من خطباء ثورة سنة ١٩١٩ ممن عرفوا السجن والنفى الداخلى ، وقد توفى إلى رحمة الله ، فى حادثة مفجعة . إذ علق طرف قفطانه بقطار «المترو» وهو يصعد أو ينزل منه ، فجره القطار مسافة لفظ بعدها أنفاسه .

وكانت الأهرام تنشر مقالات للشيخ محمد سليمان عنارة الذى اختار لنفسه لقباً قلميا هو «أبو التلاميذ» وكان هذا الشيخ هواه مع حزب الاتحاد والقصر ، ولكنه لم ينغمس فى السياسة علناً ، وإن كان خصومه قد اتهموه بأنه وصل إلى المحكمة الشرعية العليا بسبب صلاته بالسراى . وقد ألف الشيخ عنارة كتاباً جيداً بعنوان «من أخلاق العلماء» أما الذى عاون حزب الاتحاد جهرة من كبار علماء الأزهر الشريف ، فهو الشيخ حسين والى . وقد بدأ حياته الأدبية ، وهو فى مطلع شبابه ، قبل أن يحصل على العالمية بمقالات فى مجلة «روضة المدارس» التى أسسها رفاعة الطهطاوى منذ قرن كامل وخمس سنوات ، وكان الشيخ حسين والى عالماً محققاً وقد تولى أمانة الجامعة الأزهرية ، كما عين عضواً فى المجمع اللغوى ، فكان من أكثر أعضائه نشاطاً .

وقد أحب عدد من علماء الأزهر وشبابه جريدة الأخبار التى كان يصدرها ويحررها أمين الرافعى ، فاتخذوها ميداناً لأقلامهم ، وكان من هؤلاء ، عالم فاضل هو الشيخ عبد الباقى سرور نعيم ، وقد نشر سلسلة من المقالات عنونها بالآية الكريمة «وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً» .

ويبدو أن هذه السلسلة طالت ، ولذلك ، فقد أطلق بعض محبى الدعابة الصحفية على الشيخ نعيم ، الشيخ «أشر أريد» ، وكان من الشبان الأزهريين الذين راسلوا الأخبار الشيخ «صادق عرجون» الذى عين فيما بعد ، عميداً لكلية أصول

الدين ، والذى أخرج للناس أخيراً كتاباً من جزأين ضخمين بعنوان « سماحة الإسلام » .

ومن أصحاب العمائم المشهورة فى تلك الأيام . ثلاثة ، كلهم كان ينتمى إلى طائفة المتصوفين أولهم سماحة السيد عبد الحميد البكرى ، شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وكان يلبس عمامة على الأسلوب التركى ، أى طربوشاً من طرابيش الأفندية ، ثم شالا أبيض يلتف حوله ، وكان لسماحة السيد البكرى سمات الأعيان وقد كان فعلاً من الأغنياء ، كما كان عضواً فى حزب الأحرار الدستوريين ، حزب كبار الأغنياء من أصحاب الفدادين ، وقد رأس الرابطة الشرقية ، وهى جماعة ضمت بعض أدباء وأعيان المصريين والسوريين وآخرين يتوطنون مصر من أصول فارسية « كرفيع مشكى ميرزا مهدى » التاجر الإيرانى أو أصول هندية أو تركية ، وكانت غايتها أن تدعم العلاقات بين دول الشرق المترامى الآفاق ، ولم تفعل فى هذا السبيل ، أكثر من الدعوة إلى بعض المحاضرات ولعلها أصدرت مجلة باسمها ، ولقد لبيت دعوتها لسماع محاضرة ألقاها يوم ذاك أحمد زكى باشا الذى عرف فيما بعد بشيخ العروبة ، وارتدى العقال ، ليطابق المظهر المخبر ، أو الاسم المسمى ، وكانت محاضرته عن زيارة له قام بها فى فلسطين ، حدثنا فيها عن مدن هذا القطر الشقيق اللصيق وكأنه قام برحلة فى أحد القطبين ، وقد تحلقنا يوم ذاك حول نافورة ماء ، يسمع لها خرير ضعيف ، وكانت تتوسط مدخل الدار التى استأجرته الرابطة غير بعيد من ميدان لاظوغلى فى شارع خيرت .

أما المعمم الثانى من أهل التصوف فقد كان شبيها بالسيد البكرى من حيث الزى ، وعلى النقيض منه ، من حيث المزاج والطبع ، وأعنى به السيد محمد الغنيمى التفتازانى ، شيخ الطريقة التى يدل عليها اسمه ، وكان مصرى التقاطيع ، وإن كانت

له جبهة بارزة ، لا تشاهد كثيراً فى وجوه المصريين ، وعينان تختلفان عن عيون أهل الريف المصرى الذى لابد أن السيد قد انحدر منه ، وكان بعد ذلك ذكيا ، عظيم الحركة ، يتردد على كل الصحف ، وتربطه بكل كبار محرريها صلات ود ، ويجالس «شوقى» أمير الشعراء ، و«حافظ» شاعر النيل ومطران شاعر القطرين. وتراه فى كل الندوات التى تعقد فى المقاهى العامة ، والتى تضم زعماء البلاد العربية اللاجئين من عسف فرنسا وإيطاليا ، أمثال الأستاذ عبد العزيز الثعالبى ، الذى لم يكن اسمه يذكر فى صحفنا إلا مقروناً «بزعيم تونس الأكبر» . كندوة بار اللواء . وبار الأنجلو ، وقهوة متاتيا ، وكان له بيت قديم فى حى الحنفى بالقرب من ميدان السيدة زينب ، وقد زرته فى هذا البيت لأمر يتعلق بمدفن لأصهارى ، فقد كان السيد التفتازانى ، عضواً فى لجنة الجبانات ، وقد رأيت هناك موظفين كباراً ، وشباناً ممن أتموا تعليمهم فى الجامعات ، وعرفوا العلم الحديث ، يقبلون يد السيد ، ويطلبون منه الدعاء فيقسو على بعضهم ، ويشد آذانهم ، وهم صاغرون ، ويلاطف الآخرين فى اقتضاب وإيجاز ، وكان هذا المشهد طريفاً عندى ، فقد كنت أعرف أن السيد كان ممن ينفذون قول الله تعالى «ولا تنس نصيبك من الدنيا» وقد داعبه الأستاذ الصاوى فى مجلة «مجلتى» يوماً فنشر صورته على طريقة أشخاص «الكوتشينة» التى تضم رأسين للشخص فى كل جانب من الصورة رأس ، وكتب تحتها «شيخ الطرق والكبارى» ، وكانت الأهرام - على جلال قدرها - تترك له حديث رمضان شهراً كاملاً . يملؤه بخواطره الدينية ، ربما نزولاً على مقتضى حسن علاقته بداود بركات رئيس تحرير الأهرام ولصلاته المتعددة بالجهات المختلفة بما فيها دار المندوب السامى البريطانى .

وكان المعمم الثالث من أهل التصوف ، الشيخ الدمرداش ، الذى منح لقب

الباشوية ، تقديراً لمنحته الخيرة الكبيرة ، التى كان قوامها وقفه لقطعة أرض مجاورة لضريح المحمدى ، وبنائه لمستشفى عام عليها من ماله ، باعتبار أن الأرض ملكه ، وكان قد اشترط فى الوقفية أموراً تستحق التأمل لصدورها من شيخ طريقة مسلم . فقد نص فى وقفيته على أن يقام له تمثال فى مدخل المستشفى ، وقد أقيم فعلاً التمثال ولا يزال يطالع الداخلين إلى مستشفى الدمرداش إلى اليوم ، كما اشترط أن يكون مدير المستشفى طبيباً بريطانيا ذكره بالاسم ، على أن يبقى هذا الطبيب الإنجليزى فى منصبه ، لا يعزل مادام على قيد الحياة ، وقد أجيب الشيخ إلى طلبه ، وكان لا يخفى ولاءه للإنجليز ، وحبه لهم ، وقد حضر المندوب السامى حفلة افتتاح هذا المستشفى ، وقد ورثت السيدة قوت القلوب ابنته نصف ثروته . وقد أعانتنى الظروف على أن أعرف طرفاً من تاريخ الأرض التى تبرع بها الدمرداش باشا للمستشفى ، فقد رفعت السيدة قوت القلوب دعوى طرد ضد عدد من فقراء حى المحمدى ، بحجة أنهم اغتصبوا أرضها بدون سند ، ووكلت السيدة توفيق دوس باشا فى هذه القضية وكنت مرشحاً عن دائرة مصر الجديدة ، التى كانت تشمل حى المحمدى ، فحضرت عن الفقراء المدعى عليهم متطوعاً ، ولم يكن لى فضل فى هذا التطوع فقد كانوا من أنشط مؤيدى فى المعركة الانتخابية ، ويوم الجلسة امتلأت قاعة المحكمة بأهل المحمدى ، كما ازدحمت الطرق المؤدية إلى دار المحكمة والمتصلة بها بزوجاتهم وأولادهم ، وفى هذا الجو المشحون بحماسة الفقراء وأنفاسهم الحارة ترافع توفيق دوس باشا ، وكان واحداً من أبرع المحامين فى مصر ، ثم جاء دورى ، فتهيبت الموقف من جميع جوانبه ، ولكن دعوى السيدة قوت ، كانت بلا أساس حقا ، فلم تكن هذه الأرض أرضها ، وأنصف الله الحق ، فرفضت الدعوى ، فانطلقت هتافات موكلى ، مجلجلة مدوية ، حتى كادت جدران المحكمة تنقض . فارتفعت من

ثم ، أصوات النساء وزغاريدهن ، فكانت خدمة للمعركه الانتخابية ، لم تدخل فى حسبانى ولم تأت عن تدبيرى ، عرفت منها حقيقة تبرع من أشهر التبرعات فى تلك الأيام . .

ولم يكن الشيوخ الذين أثروا على المصريين وعلموهم وثقفوهم وأمتعوهم كلهم من رجال العلم والدين ، فقد كان أكثر أهل الفن ، شيوخاً ، لا يناديهم الناس الواحد منهم إلا بلقب شيخ ، وربما لا يذكر اسم الواحد منهم اكتفاء بلفظ الشيخ فيعرف السامعون من المقصود ، وفى مقدمة هؤلاء ، الشيخ سلامة حجازى فالشيخ سيد درويش ، فالشيخ زكريا أحمد فالشيخ أبو العلا فالشيخ صبح .

أما قارئو القرآن المجيدون أمثال الشيخ على محمود فالشيخ محمد رفعت فالشيخ أحمد ندا فقد كانوا شيوخاً لا بحكم الزى وحده ، وإنما بحكم الصنعة أيضاً ، وكان الشيخ محمد يونس القاضى من أشهر مؤلفى الأغانى فى تلك الأيام ، وكان من الممثلين من خرج من صفوف الأزهريين ، وبقى اللقب عالقا به كالشيخ عبد الحميد عكاشة شقيق زكى وعبد الله عكاشة الذين ورثوا فن الشيخ سلامة حجازى ، والذين استأثروا لفترة بمسرح حديقة الأزبكية الذى أنشأه طلعت حرب باشا ، وكانت الصحف الفنية تسميهم العكاكشة وكان معظم الملقنين فى المسارح ، ممن انتسبوا إلى الأزهر ولم يتموا تعليمهم فيه ، كذلك المصححون فى الصحف والمطابع وقد دخل نجيب الريحانى فى زمرة المعممين ، حينما اصطنع لنفسه شخصية «كشكش بك» ، وارتدى الجبة والقفطان واللحية ، وراح يمثل شخصية عمدة أثرى من ارتفاع سعر القطن الذى علا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى علوا جنونيا ، فجاء يبعثره ويوزعه على راقصات شارع عماد الدين من بنات إسرائيل وبنات الدول الأجنبية الفقيرة ، فى تلك الحقبة أمثال اليونان وبلغاريا . فأصبح

بجبته وقفطانه ولحيته البيضاء أشهر شيخ فى مصر ، وإن كان شيخاً زائفاً ، فقد تجاوبت طرق القاهرة وحواريها بأغانى نجيب الريحانى وفى مقدمتها : يا أبو الكشاكش كان جرى لك ايه ، يا هل ترى ؟ وكان ينافس كشكش فى الشهرة شيخ زائف آخر هو الشيخ متلوف الذى ذاعت شهرته منذ ترجم عثمان بك جلال رواية موليير الشهيرة تارتوف باسم «الشيخ متلوف» إلى الزجل المصرى المتقن ، بعد أن مصر أحداث الرواية تمصيراً بارعاً ، وكان ثمة شيخ زائف ثالث ، هو الشيخ «رويتر» ، وكان رجلاً أميا يختلف على الندوات السياسية فى نوادى الأحزاب وفى المقاهى ، فيسمع ما يدور فيها ، وينقله إلى سواها ، ويتسمع الأخبار ويبشر المستوزرين بسقوط الوزارات القائمة ، وبترشيحهم لها ، كما يبشر الطامعين فى الباشوية والبكوية . بالإنعام الملكى السامى ، فى مناسبات الإنعام فى الأعياد ، من جلوس للملك ولميلاده ، وميلاد ولى عهده ، وكان إذا أهل على ناد فى حزب ، أو ندوة فى مقهى رحب به الكبار ، وأفسحوا له ، ولإشاعاته ومفترياته وتلفيقاته صدورهم ، ونفحوه إذا طابت لهم الأخبار بالكثير . . والحق أن قضية الجبة والقفطان والعمامة فى مصر ، فى أيام صبانا ، وبعبارة أخرى قصة المشايخ والشيوخ ملتهبة ، فقد كانت المسرحيات والقفشات والمداعبات والنوادر لا تكف عن اتخاذ المشايخ هدفاً للهجوم الصريح حيناً ، والغمز الخفى حيناً ، ذلك لأن العمامة لم تكن وقفاً على أهل العلم والدين ، باعتبارها مع الجبة والقفطان زيا علميا ، فقد لبسها جميعاً عدد لا يحصى من أعيان الريف ممن لا يقرءون ، ولا يكتبون ولبسها عدد كثير من أهل الحرف من مأذونى الشرع وخدمة المساجد ، وكذلك المتسولون الذين يتخذون من القرآن وسيلة للاستجداء وعمال المدافن ، ولما كان هؤلاء أكثر اتصالاً بالناس من علماء الدين بحق وكان من جهة أخرى مدرسو اللغة العربية ، ممن يلبسون

العمائم والجبب والقفاطين ، وتلاميذ المدارس لا يرحمون مدرسيهم من ضروب شقاوتهم اللفظية والعملية ، فقد أصاب لقب الشيخ أذى كبير ، وكانت الحياة الحديثة قد هزت أسس المجتمع القديم ، فاندفع أكثر أهل المدن إلى اصطناع أساليب الحضارة الحديثة فى الزى والمظهر ، وقطعوا صلتهم بالماضى ، وادعوا علمهم باللغات الأجنبية ، وبأنهم ممن بلغوا الغاية فى التأنق ، والتحضر ؛ فقد كان الأزهرى تجسيداً حيا للماضى المراد الانفصال منه ، والابتعاد عنه ، وامتحن الأزهريون امتحاناً شديداً ، فإن احتفظوا بزيهم تكلموا العربية الفصحى ، وحرصوا على مقومات المجتمع القديم أحسوا أنهم غرباء ، وأنهم قطعة متلكئة من الماضى ، جديرة بأن تزاح عن طريق التقدم والتطور ، وإن تخففوا شيئاً ما من مظاهر حياتهم الأصيلة والقديمة كان كالغراب لا هو احتفظ بأصله ، ولا هو نجح فى محاكاة الطاوس .

وأعانت على شدة الأزمة أن الحياة السياسية القائمة على صراع الأحزاب بدأت فى شدة ضارية ، فى أعقاب صدور الحرب العالمية الأولى ، ثم زادت ضراوتها ، وتطلبت هذه الأوضاع الجديدة من علماء الأزهر مواقف محددة ، ولكن بعضهم تذبذب أو انحاز إلى أحزاب غير المتمتعة بتأييد الأغلبية ، فزاد ذلك من حدة النقد الموجه إلى علماء الأزهريين ، وقد ذاع على الألسن يوم ذاك بيت شعر للشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية معناه أنه «مع الوفد والأمرا والشعب والوزرا» أى أنه مع الجميع ولا يدرى أحد ما : هل هذا قوله أو قاله تهكما على المذبذبين أو كان الشعر تلفيقا من خصومه ؟

واستغل الإنجليز بفظاظة هذا الموقف المتأرجح ، فصوبوا إلى مقام الأزهر والأزهريين ، سهما مميتاً ، إذ ألفوا أن يدعوا إلى دار المندوب السامى ، فى السابع

والعشرين من رمضان كل عام شيخ الأزهر وكبار علمائه من المفتى إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، إلى شيوخ المعاهد ، ليحتفلوا مع المندوب السامى البريطانى بليلة القدر ، ويتوجهوا إلى الله العلى الكبير بطيب الدعاء . ولم يكن فى وسع واحد من هؤلاء العلماء أن يرفض هذه الدعوة الآثمة ، لأن رفضها معناه عزله من منصبه إن عاجلاً أو آجلا وحرمانه من مزاياه ، وسد لطريق التقدم فى الحياة الدنيا بكل لذائذها ومتعها .

وزاد الطين بلة أن هذه الدعوة المتحدية لكل مبادئ الشرف والدين ، أيا كان هذا الدين ، مضت عاماً فعاماً توجه على مسمع ومشهد من الرأى العام فى عهد الاحتلال ، وفى عهد حكم الأغلبية الشعبية بعد صدور دستور سنة ١٩٢٣ دون أن تعلو معارضة عنيفة وصارخة ضد الإنجليز وشيوخ الأزهر ، ودون أن يقع اعتداء رادع على هؤلاء الذين كانوا يذهبون إلى دار الحماية البريطانية أو دار المندوب السامى ، فى هدوء النفس ، وراحة البال ، كأنهم لا يأتون أمراً إدًّا ؛ لذلك كله لم يكن غريباً ، وإن كان مؤلماً إلى أقصى الحد ، أن تؤلف أغان وعبارات تنال من قدر الأزهريين العالى ، مثل قولهم «أزأز فى الأزعر» ولحن بيرم وسيد درويش : «الحق يا شيخ قفاعة ، تلغراف آخر ساعة اللى فى جرنال البورص» .

وفى تلك الأيام ذاع اسم أزهرى فاسد ، وهو الشيخ عبد الظاهر السمالوطى ، الذى تقدم كشاهد ملك ضد عبد الرحمن فهمى قائد ثورة سنة ١٩١٩ ، والمشرف على توجيه حركتها ، وتنفيذ خطتها والنفخ فى جذوتها ، وجمع صفوف المقاتلين تحت رايتها ، والتضييق على خصوم عقيدتها ، فقد اتهم الإنجليز عبد الرحمن فهمى فى مايو سنة ١٩٢٠ ومعه سبعة وعشرون من الشباب بأنهم كونوا «جمعية الانتقام» بقصد خلع السلطان فؤاد وقلب حكومته والتحريض على العصيان والقتل .

وفى الثلاثاء ٢٠ من يولية سنة ١٩٢٠ عقدت محكمة بريطانية برياسة جنرال اسمه « لوصون » أولى جلساتها فى قاعة محكمة الاستئناف بميدان باب الخلق لمحاكمة الزعيم العظيم عبد الرحمن فهمى وزملائه واستمرت ثلاثة أشهر ، وهى شغل الأمة الشاغل ، وكان الاتهام يقوم على افتراءات عبد الظاهر السمالوطى هذا الذى زود النيابة بكل ما كانت فى حاجة إليه لتلفيق هذه القضية ، فأصبح عبد الظاهر قريناً للشيطان عند الناس ، يلعنونه فى الليل والنهار ، فى البيوت والأندية والطرقات العامة ، ولكن لم يكن أحد يعُده من الشيوخ ولا من المشايخ ، وإن كان يلبس العمامة والجبة والقفطان وكان قد انتسب إلى المسجد العتيق ! .

على أنه فى وسعنا أن ننسى كل هذه القبائح فنختتم الحديث عن الأزهر والأزهريين باسمى رجل وشاب لبسا العمامة وطلبا العلم فى الأزهر ، ونبغا بفضله فكانا نموذجين للأزهريين العظماء : أولهما السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والآخر الشيخ زكى مبارك .

أما المنفلوطى فقد عرفه قراء العربية فى مصر سنة ١٩٠٨ بمقالات أسبوعية بدأ ينشرها فى تلك السنة فى جريدة « المؤيد » التى أخرجها أزهرى آخر هو الشيخ على يوسف ، وما كاد يتوالى ظهورها فى هذه الجريدة اليومية الذائعة تحت عنوان « النظرات » حتى استرعت الأنظار ، ثم أثارت الإعجاب ، وفى أقل القليل أصبح المنفلوطى أحب الكتاب إلى قلوب القراء ، فلما جمع هذه المقالات فى مجموعة باسم هذه الأسبوعيات « النظرات » فى كتاب ونشره على الناس سنة ١٩١٠ ضم إليه ثلاثة وثمانين مقالا ، واثنتى عشرة قصيدة ومقطوعة شعرية ، حتى تهافت الناس على اقتنائها ، فبيع من الطبعة الأولى منها – على ما أخبرنى المرحوم محمد راشد رستم الذى فقدناه أخيراً عشرة آلاف نسخة ، وهو رقم لم يصل إليه حتى اليوم عدد المبيع

من كتب أكبر الكتاب ، إلا فى القليل والنادر ، وقد أهدى المنفلوطى الطبعة الأولى من النظرات إلى ثلاثة كانوا جميعاً من الشيوخ المعممين الذين طلبوا العلم فى الأزهر وانتسبوا إليه هم على حد عبارته هو فى الإهداء : «ولى نفسى والدى السيد محمد لطفى . وولى عقلى وأستاذى الشيخ محمد عبده . وولى أمرى سيدى سعد زغلول باشا» .

ولكن ولاء المنفلوطى لأستاذه ، وولى نعمته حقا ، سعد زغلول ، لم يخرجه ، كما أخرج الآخرين من ذوى النفوس الضعيفة عن طريق الوطنية الصحيح ، فعرف قدر مصطفى كامل ، كباعث للوطنية فى مصر ، وقائد لحركتها ورمز لنهضتها ، فلما قبض مصطفى إلى بارئه أحسن توديعه فقال :

« مات مصطفى كامل فعرفنا الموت ، وما كنا نعرفه قبل ذلك لأننا ما كنا نرى إلا أمواتا ينقلون من ظهر الأرض إلى بطنها ، أما مصطفى كامل فكان حياة حقيقية فكان موته كذلك .

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما جاء مصطفى كامل علمهم كيف يصيحون فلما صاحوا وأسمعوا عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجهورى ولولاه ما كانوا يعرفون .

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن بها فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال فولتير وهوجو وغاريبالدى وواشنطون ، فلما نبغ بينهم مصطفى كامل عرفوا أن تربة مصر لا تختلف كثيرا وتربة غيرها لو تعهدها الزارعون .

فيايها القارئ الكريم إن كان لك ولد تحب أن تجعله رجلا فاجعل بين يديه حياة مصطفى كامل ليتعلم منها الشجاعة والإقدام !

أيها الراحل المودع ، طبت حيا وميتا ، خدمت أمتك فى حياتك وبعد مماتك ،

لولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية فى نفوس المصريين ، ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع أن الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة وهى حب الوطن وحب رجاله العاملين » .

وقد توالت بعد ذلك للمنفلوطى آثار ، كانت قصصا ، ومسرحيات فرنسية ، فنقلها إلى العربية عن ترجمة لبعض أصدقائه طلبوا إليه أن يهذبها وينشرها على الناس بلغته وأسلوبه هو لتكون أنصع عبارة ، وأجمل صياغة ، وأعذب فى آذان الناس ، وأقرب إلى قلوبهم ، وظاهرٌ هذا بوضوح من مقدمته لمسرحية سيرانودى برجراك التى وضعها شعرا أدمون روستان فقد قال المنفلوطى : « أطلعنى حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندى على هذه الرواية التى عربها عن اللغة الفرنسية تعريبا حرفيا حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة وطلب إلى أن أهذب عبارتها ليقدمها إلى فرقة تمثيلية . . . » .

ويستشف هذا المعنى بدرجة أقل وضوحا فى مقدمة رواية فى سبيل التاج التى وضعها الكاتب والمترجم القدير الأستاذ حسن الشريف عليه رحمة الله .

أما االأزهرى الآخر ، وهو الشيخ زكى مبارك ، فقد خاض غمار ثورة ١٩١٩ ، وعلى رأسه العمامة وعلى جسده الجبة والقفطان ، نحيفا ضعيفا ، ولكن كان مليئا بالعزم ، يتوثب لنزال أعداء البلد بالقلم واللسان واليد ، يخطب على منبر الأزهر ، وغيره من المساجد والأماكن العامة مستلهما روح مصطفى كامل سائرا فى دربه ، ويكتب المقالات فى جرائد الحزب الوطنى ، كما يدبج المنشورات المهيجة للخواطر ، والمؤلبة للجموع ، يود أن يقتلع الإنجليز من جذورهم فى بلاده ، وأن يراهم خارج حمى هذا الوطن ، والسيوف فى أعناقهم ، والأحذية فى أعجازهم ، واللعنات تصاحب خطاهم وتسبقهم ، فاعتقل ونفى النفى الداخلى ، إلى صحراء

مصر الجديدة وصحراء الإسكندرية فى سيدى بشر ، فزاد عزما على النضال ، وكرها للإنجليز ، واحتقارا للمساومين ، من زعماء الأحزاب الأخرى ، الذين يتخذون من السياسة سبيلا للجاه ، وأداة لاقتناص المغانم . .

على أنه إلى جانب هذا العالم الظاهر الذى يعيش فيه المشايخ ، ويؤثرون فى الناس رضا وسخطا وإعجابا واستهجانا - عالم سفلى لنوع آخر من المشايخ لا يظهرون إلا فى الظلام ، ولا يعملون إلا فى الخفاء ولهم مع ذلك تأثير أكبر ، وقد كونوا جيشا عرمرما .

غير أنه لحق بهم ، من الرجال والنساء ، منهم دجالون ومشعوذون ، فأسطوات « زار » ، يدعون الكرامة ، والقدرة على معرفة الغيب ، وشفاء المرضى ، وجمع الأحبة ، وإزالة العمل السيئ وتحقيق المعجزات بالسحر والاتصال بالأرواح والاستعانة بالأشباح واستخدام الجن ، واستعمال السحر ، وقد راجت سوق هؤلاء حتى كاد يكون لكل بيت شيخ يستعان به فى الملمات ، كما أن لكل بيت طبيبا يقصد عند الأمراض والآفات ، وهؤلاء لا يقنعون بأكل المال الحرام بترويج بضاعتهم الزائفة من أحجبة وتعاويذ بل يضيفون إليها قائمة طويلة من جرائم الأخلاق من تحسين الفحشاء إلى ممارستها مع ضحاياهم من الرجال والنساء .

ولقد زرت شيخا من هؤلاء أيام صباى ، ومازالت أذكر داره فى ناحية قريبة من سراى عابدين : دخلت فى شقة هادئة ، ضوءها قليل ، استجلابا للرهبة ، وإضفاء المهابة على المكان ، ثم دلف إلينا رجل بطىء الحركة يسبقه بطن متدلٍّ ، ومد يدا سمينة رخصة تحس بلينها وامتلائها عند المصافحة له وكأنها قطعة من عجين ، واستمع فى هدوء ، ثم صمت وشرد ، ولم يهتز ولم يبسمل أو يحوقل ، وإنما تكلم فى صوت خافت فكأنه طراز خاص بين وحوش هذه الغابة ، التى منها آكلو

اللحوم ومنها الأفاعى السامة ومنهم من يتسلق الأشجار ومنهم من يتسلل ولا يصدر عنه صوت ولا يخلف وراءه أثرا ، فأرهفت الأذن لسماعه ، وانصرفت السيدة التى كانت معى ، والتى لا أذكر من تكون الآن ، وقد سرى عنها ، وبدا ذلك واضحا فى صوتها ووجهها كأنما حاجتها قضيت لها ؛ وسمعت بعد ذلك اسم الشيخ « محمد » يتردد . ولكن الذى أذكره وأؤكده أن بيتنا لم يكن ممن يعتقد صدق هذه الطائفة من القوم ، أو يلتمس منها العون ، أو يوسطها عند الله لقضاء الحاجات ، بل إن أمى كانت معى فى زيارة السيد أحمد البدوى فى طنطا ذات يوم . فلما رأيت الناس يقتربون من الضريح ، ويتعلقون بشباكه النحاسى ، ويهمسون بشىء ، وددت أن أحاكيهم ، وليس لدى حاجة أطلبها ، إنما هو حب التقليد . فردتنى أمى بعنف وكأنى أجرمت . ولقد كنت أسمعها وأسمع أبى يقولان عن هؤلاء الصالحين : إنهم ناس طيبون ! ولا يزيدون . بل إن أمى رأت فى المنام . السيد أحمد البدوى ، وهى حامل بى ، فبشرها بمقدم صبى وكان أولادها الذكور لا يعيشون وأصبح الولد الذكر أملا يرتجى وقال لها : سموا المولود فتح الله ! وجئت أنا بعد ذلك المنام بقليل فأسمونى « فتحى » ولم يسمونى « فتح الله » ، لأن أحدا لم يتصور أن هذا أمر من السيد أحمد البدوى ، أو أنه يملك أن يأمر أو أن ينهى .

* * *

ويبدو أن حديث المشايخ لو تركنا أنفسنا على السجية ، ولم نضع عليها قيودا ، ما انتهى ، ولابد لنا من أن ننتقل إلى حديث الخواجات ، فلا مفر من فرض وقفة حيثما اتفق . ولا بأس من أن يكون ختام حديث المشايخ ، حديثا عن المجاهد المغربى السيد أحمد البدوى .

أما حديث الخواجات فيبدأ من الحملة الفرنسية ، فقد عرف المصريون

الأجانب ، وعرفوا أسلوبهم فى الحياة ، وطريقتهم فى التفكير ، ومبادئهم فى الحكم ، وأدواتهم فى ارتياد المجهول وتحصيل المعرفة عندما اصطدم المجتمع المصرى الإسلامى الراجع إلى القرون الوسطى ، فى الماديات والمعنويات وجيش الثورة الفرنسية ، ليفتح عينيه على عالم جديد غاية الجدة ، جديد حتى على أوربا نفسها ؛ فقد كان جيش أمة ثائرة ، فرغت لتوها من ثل عرش ملوكها القديم ، وفى هدم مجتمعها الموروث ، وفى إزالة الأحكام والقوانين والأفكار التى سادت أوربا قرونا .

ومنذ ذلك اليوم وأوربا تعالج أن « تغرب » الشرق ، أى أن تحبب لأهل الشرق أفكار الغرب وأساليب حياته ، ومبادئه ، وأن تنفره من أفكاره وحياته وحضارته وثقافته وجميع ما ورثه عن الآباء والأجداد ، وكانت عملية التغريب هى ضمان الغزاة والفاتحين فى إسكات صوت ضمائر أهل الدول المفتوحة التى تدعوهم إلى المقاومة ، وإضعاف حافز الرفض عندهم . ولقد سارت أوربا شوطا بعيدا فى هذه الحملة القوية التى ثابرت عليها ، وبذلت فى سبيلها الكثير ، ودبرت لها فأحسنت التدبير ، حتى استمالت أكثر أهل البلاد المفتوحة ، وما بقى على مقاومته ، إما أن يشعر بأنه متروك ومتخلف وعاجز عن مسايرة الحياة ، وإما أنه صاحب رسالة لا أنصار لها ولا أعوان ولا مستقبل .

لقد فتحت عينى على الدنيا ، فرأيت كل ما هو مصرى وعربى وشرقى ينسحب ويذبل ويتوارى تاركا مكانه للبريطانى والفرنسى والطليانى ، فنحن نلبس البذلة الأجنبية ، ونشتريها من محال تحمل أسماء أجنبية صريحة مثل « موروم » ، أو « شيكوريل » ، أو « بلاتشى » أو « سلامندر » ، وكنا نحرص على أن يكون حذاؤنا من متجر إنجليزى اسمه « روبرت هيوز » وقمصاننا من محل إنجليزى آخر اسمه « ديفز براين » . وكانت ملابسنا تحمل بدورها أسماء إنجليزية أو فرنسية : فالسترة هى

الجاكت ، التى نقول عنها جاكتة ويقول عنها العوام « زاكتة » ، والسراويل هى « البنطلون » ، وربطة الرقبة هى الكرافت . وملابس السيدات كلها أجنبية فالصدرية هى « الشميزيت » والقسم الأدنى من ملابس السيدات هى « الجونيلا » بالإيطالية والمخرمات هى « الدانتيلا » والشريط هو « الفيونكا » ، وما نركبه هو « الترماى » والمحصل هو الكومسارى أى الكوميسير . وأطعمتنا كلها أو أكثرها تحمل أسماء أجنبية فالبسطة باليونانية أو الجاتوه بالفرنسية . والصحيفة اليومية هى « الجورنال » والخطاب يصل بالبوستة ، وما نستعمله فى الانتقال والاتصال إما الوابور ، وإما التلغراف أو التليفون ، والشركة هى « الكوبانية » والمصنع هو (الفابريقة) تصحيفا للفظ « فابريك » أو الورشة تصحيفا للفظ « ورك شوب » ، وآلاف من ألفاظ الحياة اليومية كالكارت والقومندان والباسبور والقومسيون والفيزا والاسبتالية والروشتة ، وهى ألفاظ تجرى على ألسنة الأميين والمتعلمين على السواء ، ومنهم من يفهم معناها ومنهم من يرددها وهو لا يدرى لها أصولا !

وأحاول أن أتذكر الذين كنت أعاملهم من الأجانب فأجدهم يتجاوزون الحصر ؛ فالمصور الذى أحمض عنده الصور هو « ينى إسباناكيدس » فى الحى و« زولا » فى وسط المدينة ، والحلوانى الذى نشترى منه الفطائر والحلويات هو جروبى أو لاباس أو تسيباس أو صولت أو ليمونيا . والفرن الذى نحصل منه على الرغيف « الفينو » هو فرن « كوستى » وهكذا . . وهكذا .

والأجانب هم الرؤساء فى الشركات والمرافق العامة ، يتقدمهم ويتصدرهم الإنجليز ، ثم يأتى بعدهم الفرنسيون والطليان ، والبلجيكيون ، ثم تأتى طبقة أجانب من الأروام أو اليونانيين والبلغار ثم فئة ثالثة من اليهود الأجانب فاليهود المصريون ثم اللبنانيون والسوريون المسيحيون ، ثم يأتى المصريون ليعملوا فى المؤسسات الأجنبية

العامة والخاصة خدما بجلابيب .وإن كانت جلابية من الصوف الغالى . والألفاظ كلها فى التعامل مع هذه المؤسسات سواء كنت متعلما أو أميا ألفاظ أجنبية ، والأوراق والإيصالات والخطابات والإنذارات والعقود كلها بالفرنسية وأقلها بالإنجليزية . فقل أن يتاح لمصرى أن يقابل مديرا من مديرى هذه المؤسسات أو نائبه أو مساعد نائبه ، فالمصرى لا ينال إلا شرف التحدث إلى أجنبى يتوطن فى مصر ، يتكلم العربية بطلاقة ولكن بلكنة أجنبية واضحة . ولا يصل إلى شرف مقابلة الرؤساء الأجانب إلا الوزراء الحاليون والسابقون والباشوات وأصحاب الضياع الواسعة والأموال الوافرة !

وكل أجنبى يتقدم على كل مصرى أو عربى أو شرقى حتى الكلاب : فالكلب الرومى هو أفضل وأنظف وأقوى من الكلب المصرى ، أى البلدى ، والرومى هو عنوان على الأجنبى ، سواء كان بريطانيا أو فرنسيا كالبولدوج أو الوولف .

والأعياد المصرية ، قاومت كثيرا ، بفضل روح الشعب فى الأحياء الوطنية وفى الريف ، فاحتفظت بحيويتها وبصحتها وخصائصها الزاهية ، ولكن لم تنفع هذه المقاومة إلا قليلا فأصبح عيد رأس السنة والكريسماس ، هى الأعياد التى يهتم بها الجميع ويسهرون حتى الصباح ،واختفت شيئاً فشيئاً المأكولات المصرية الشهية والمشروبات البلدية الشهيرة ، والتقاليد المصرية الرائعة التى تقوى روح الجماعة ، وتجدد نشاط النفوس وإقبالها على الحياة . وحلت محلها تقاليد مهجنة ، اختفت «المنادر» من البيوت ، وما كانت تستقبله كل مساء ، من الأصدقاء وجيران الحى ، للسمر الأدبى والاجتماعى ، وتوارت نهائيا الاحتفالات برؤية هلال رمضان ، وبوفاء النيل حتى قبل إقامة السد العالى بسنين طويلة ، ولم يعد لمدننا شخصية ، وزحفت المعايير الغربية الجافية الخالية من الروح على أحيائنا القديمة

والجديدة معا .

وأصبح الخواجة هو المثل الأعلى ؛ فهو الرجل الأمين العالم النظيف المنظم الكفء . وكل ما يعمله صحيح . وكل ما يقول به صواب ، وكل ما يشير به واجب ، كذلك أصبحت المرأة الأجنبية مثالا تحتذيه المرأة المصرية فى الملبس والمظهر وأسلوب التفكير ، وأصبح الإنسان المصرى تقليدا ومحاكاة ، واختفى الإنسان المصرى الأصيل ، حتى حينما يفكر ، يفكر بعقل غيره ، وحينما يتذوق ، يستعر ذوق سواه ، ونضبت موارد الابتكار والخلق ، وزالت أسباب الثقة بالنفس والاطمئنان إليها ، وتناقص دور المشايخ باختلاف طوائفهم وطبقاتهم !

وقد كانت الخسارة فادحة ؛ لأن الاستعمار الغربى لم يصل إلى هذه النتيجة إلا بعد عملية تدمير مادية وروحية استمرت قرنا من الزمان فى دأب عجيب . فالخواجة وقف على رأس المجتمع المصرى ، وقد تمثل الخواجة الأكبر فى المندوب السامى البريطانى ، فأصبح هو حاكم مصر الحقيقى ، ينهى ويأمر ، ويخيف الملك المصرى ، كما يخيف الوزراء ، ويغريهم ويمنيهم ، فالذى يتحدى إرادته ، أو يتجاهل وجوده — يفقد مستقبله السياسى فور اللحظة ، وقد قالها صريحة اللورد كيلرن آخر الطغاة الإنجليز فى مصر ، فى رسائله السرية لوزير خارجية بريطانيا ، وكانت كل سفارة أجنبية تحتمى بالاحتلال البريطانى من جهة ، وبالامتيازات الأجنبية من جهة أخرى ، فتمارس سلطانا غير شرعى خاصا فى دويلة تقيمها فى مصر .

وكان من آثار هذا السلطان غير الشرعى أن يكون فى مقدور أى حاجب فى أى قنصلية أجنبية أن يعترض على حكم نهائى صدر من محكمة مصر ومتوج باسم رئيس البلاد .

ولقد زال هذا العدوان السافر بعد سقوط الملك والملكية وانسحاب الاحتلال البريطانى ، ولا سيما بعد تأميم قناة السويس ، وهزيمة الغرب الأوربى الكبرى بعد هذا التأميم .

ولست أنسى يوما رأيت فيه أستاذى المرحوم الدكتور محمد مصطفى القللى وقد تعلمنا على يديه قانونى العقوبات وتحقيق الجنايات فى كلية الحقوق فى الطريق ، فاستوقفنى وهو دامع العينين ، وقال : ألم تر اليوم الصورة المنشورة فى صدر الجرائد ؟ قلت له : رأيتها ؛ قال : ألم تر فى قفص الاتهام أعضاء السفارة الفرنسية ، وعلى مقربة منهم كبار المحامين الفرنسيين جاءوا ليراقبوا المحاكمة ويشهدوا ولا يتكلمون ، من كان يصدق أن هذا كان يمكن أن يحدث فى مصر التى انتهك استقلالها قناصل الدول الصغيرة والحقيرة استمراء للنفوذ المسلوب منا بفضل الاحتلال ، ولم يكتف الأجنبى بذلك فقد أقام لاستعماره الثقافى صروحا وقلاعا فى المدارس الأجنبية ، فكانت تعلم أولادنا وبناتنا كل شيء إلا تاريخنا وجغرافية بلادنا ولغتنا وديننا ، ولم يكن فى وسع وزير التربية المصرى ، أن يقتحم هذه القلاع الآثمة ، ولكن حينما سقط الملك ، وزالت الملكية ، وانتهى الاحتلال أصبحت هذه المدارس ، مدارس لمصر ، تعلم لغتها ودينها وتاريخها وتدعو لأمجادها ، فلنذكر ذلك فإن نسيانه من الجحود الذى يعاقب عليه الله العظيم ؛ ولم يقنع الأجنبى بكل هذا الخراب الروحى فأقام لكل عشرة من الأجانب الذين ينتمون إلى طائفة فى دين محكمة تحكم فى قضية هذه الطائفة ، ويكفى أن تختم هذه المحكمة الهزلية ورقة بخاتمها لتكون حكما ، ولينحنى القضاء المصرى والإرادة المصرية له ، ويتركه يسرح ويمرح . . . هذه المحاكم الملية أو المجالس الملية كما كانوا يسمونها ، زالت بجرة قلم بعد أن سقطت الملكية والاحتلال ، وذهب الخواجة البغيض إلى غير رجعة ،

فلنذكر ذلك أيضا ، ولا ننسه ، فقد كان عدوانا صارخا ومهينا لاستقلال قضائنا وكرامة محاكمنا . .

والمصارف الأجنبية التى كانت تنهب ثرواتنا ، وتحولها للخارج دون أن تستورد من الخارج مليما ، تلك المصارف التى عاشت سنين تزعم أنها تمول اقتصادنا ، وتعين تقدمنا المادى ، عادت إلينا ، بعد أن كنا لا ندخلها – كما قلنا – إلا فى شكل خدم يلبسون الجلابيب ، والخواجات من حثالات الأمم يترأسون ويأمرون وينهون . . . ومن واجبنا أن نحسن استغلالها ونجعلها أدوات حقا لا ادعاء للتنمية القومية .

انتهى عهد الخواجة البغيض . .

فلنحمد الله على ذلك ، ولنتحدث به ، ونتحدث عنه ، فإنه زاد للمستقبل لا غنى عنه لأنه لايزال أمامنا الكثير .

ولكن كيف تكون مصر ، بعد زوال حكمه وطغيانه ؟ ما صورتها الجديدة ؟ وماذا يكون فيها دور شيوخها الأماجد ، وثقافتها التليدة ، وروحها التى قاومت الزمن ؟

أسئلة لايزال علينا أن نجيب عنها وبأسرع مما نتصور ، وإلا سبقنا الزمن ، وتركنا حيارى !

أخواتى الثلاث (١)

لو لم يمنحنى الله أولئك الأخوات الثلاث ، وحبهن ، والمثل الذى ضربنه ، لكان ممكناً أن تشكل حياتى ، على صورة أخرى .

وحب الأخت ، لأخيها ، ميراث عربى مصرى ، فالخنساء التى بكت أخاها « صخرا » فى شعر يفيض أسى ودموعاً ، رمز على المرأة العربية ، المصرية ، على طول التاريخ ، وقد كنت الولد الوحيد ، وكنت أصغر الأولاد ، وأكثر أفراد الأسرة مرضاً ، وقد كان لى شبيه فى فرع آخر من الأسرة ، فقد كان ابن خالة أمى ، الولد الوحيد مع ثلاث من الشقيقات ، وكان رجلاً فاضلاً ووطنيا شجاعاً ، مثل بلده فى الجمعية التشريعية ، وكان من نواب الحزب الوطنى آن ذاك ، وأثبتت تحقيقات قضية السردار « لى ستاك باشا » المفتش العام للجيش المصرى . أن قريب أمى هذا كان عوناً لهذه الجماعة الوطنية الباسلة . التى تصدت للمحتلين بالحديد والنار ،

فقتلت من ضباط جيش الاحتلال وجنوده وموظفيه عدداً غير قليل ، فكان يعطيها السلاح . وينقل أفرادها بعربته ، وقد تضامن فى هذا العمل السرى الباهر ، مع مجاهد وطنى عظيم هو المرحوم عبد اللطيف الصوفانى . وقد أصدرت النيابة أمراً بالقبض على كليهما ، وكان من غرائب المصادفات أن كلا منهما مات قبل أن ينفذ عليه هذا الأمر . . وقد بلغ من حب الناس له أنه أسقط فى أول انتخابات سنة ١٩٢٤ فكرى أباظة الكاتب والخطيب والمحامى فى دائرة بلبيس .

وقد كنت صبيا صغيراً عندما سمعت بوفاة هذا القريب الوطنى عمر بك مراد وهذا اسمه ، ورأيت من دلائل حزن اخوته عليه ، كأنه الأب ، والابن والزوج فى آن واحد ، ما جعلنى أدرك وأنا بعد فى مطالع الحياة ، كيف تحب المرأة المصرية أخاها ، وقد سرنى أن أكون شبيهاً بمجاهد وطنى منكر لذاته ، كاره للشهرة ، مستهدف للخطر ، فى صمت عميق ووقور ، وبقيت أذكر ليلة ، من ليالى رمضان ، صحبنى فيها هذا القريب العظيم إلى منزل عبد اللطيف الصوفانى ، فى الحلمية ، فقد لبثنا فى قاعة الضيوف ، حتى أدى الصوفانى فريضة العشاء ، ثم دخل علينا ، فى جبته وقفطانه وعمامته . تأخذ العين ، تقاطيع وجهه الضخمة ، واحمرار بشرته الشديد ، وثقته بنفسه ، ولما رأيته بعد ذلك ، فى مجلس النواب ، يجادل «سعد زغلول» استولى على لون من البهجة والاعتزاز ، حتى خيل إلى أن من حتى أن أعلن لمن كان معى من زوار المجلس فى الشرفة المطلة على قاعته ؛ أنى أعرف هذا الرجل العظيم .

وقد أبى القدر إلا أن يكون أزواج أخواتى الثلاث ، أصدقاء لى ، لا مجرد أصهار ، وأن يكون اثنان منهم من المدرسة الوطنية التى أنتمى إليها ، وأن تنشأ الصداقة بينى وبين أكبرهم ، وهو زوج أختى الكبرى ، والفارق فى السن بينى

وبينه ، يكاد يكون ربع قرن من الزمان . ومع ذلك استطعنا أن نتبادل الأحاديث ، وأن تتقارب أمزجتنا ، حتى يزول فارق السن ، فلا يعود أحد منا يذكره .

ولما كان أبى مهندساً للرى كثير الغياب عن بيته لفرط حبه لعمله من جهة ، ولأن والدتى آثرت أن نعيش فى القاهرة نتعلم فى مدارسها وننشأ فى أحيائها ، على أن نصحب والدنا فى مراكز الصعيد التى تنقل بينها من الجيزة إلى سوهاج مركزاً مركزاً — فقد كنت ممثل الأسرة ، ورجلها حينما خطبت أختى الكبرى إلى زوجها ، وهذا منحنى قدراً مبكراً من الثقة بالنفس أعاننى على أن أنظر إلى نفسى ، على الرغم من شدة ميلى للحركة والركض والقفز وكرة القدم والملاكمة كأنى رجل ، دون اصطناع الوقار ، أو ادعاء المكانة .

أما زوج أختى الوسطى ، فقد تقدم لخطبتها وأنا تلميذ فى مدرسة أسيوط الثانوية أشرف على تحرير مجلتها التى كانت آن ذاك أولى مجلات المدارس الثانوية ، فى ريف مصر وصعيدها معاً ، وقد نسجت فى تحريرها وتبويبها على منوال صحيفة المدرسة الخديوية فى القاهرة التى كانت زعيمة المدارس الثانوية فى الرياضة والفنون . فإذا بى أظفر فى شخص هذا الصهر الجديد بصديق يختلف فى كل شىء ، وعن زوج أختى الكبيرة :

فقد كان أولهما رجلاً جادًّا رصيناً ، لا يكف عن القراءة ، حصل على شهادة البكالوريا مرتين ، واحدة للقسم الأدبى ، وأخرى للقسم العلمى ، وحصل على الليسانس مرتين ، مرة من مدرسة الحقوق ، وأخرى من مدرسة المعلمين العليا ، فى حين كان الثانى طفلاً مرحاً ، لا يستقر فى مكان صاحب صوت جميل ، ولكنه لا يتم أغنية ، يضحك ، من أعماق قلبه ويحب أهله وذوى قرابته ، وأصدقاءه ،

ولا يطيق استماع كلام أحد إلى آخره ، وهو لا يروى لأحد قصة كاملة وإنما ينتقل من شيء إلى آخر ، ومن نبأ إلى خبر ، ومع ذلك يحب مهنة المحاماة التى كانت مهنته ويحيط بقضاياه ، من قراءة سريعة خاطفة ويترافع فى طلاقة دون جهد ولا عناء . يكتب بخط جميل مقروء كلاماً حسناً يطلقه على سجيته . ثم لا يكربه هم ولا يشغله الغد ولا تهمه الشئون العامة فى قليل أو كثير .

وكان إذا جاء يوم الخميس من مدينة طهطا حيث كان يمارس عمله انتزعنى من كتبى . ولو كنت على أبواب الامتحان ، لا يهمه أن أنجح أو أسقط ، وأهرب منه فلا يكف عن التماسى فى كل مكان حتى يجدنى . وقد أوشكت فعلاً أن أسقط فى امتحان شهادة الكفاءة وهى تساوى الآن شهادة الإعدادية ، لانشغالى طول السنة بمجلة المدرسة وجمعية الخطابة فيها ، ولانشغالى فى الأسابيع الأخيرة من السنة ، بصهرى العزيز ، وصور مرحه التى تنسى الإنسان همومه ووساوسه ، وتنتزعه من مخاوفه وهواجسه .

أما أختى الصغيرة ، فقد كان زوجها قريباً لى من جهة ومن جهة أخرى زميلاً لى فى مصر الفتاة وفى الحزب الوطنى ، وكان نموذجاً يخالف عديليه ؛ فقد كان سليل باشوات ، عن طريق أمه وأبيه : جده الأعلى باشا ، وجداه ظفر كل منهما بالباشوية فى العهود الخديوية ، وتركا لأبنائهما وبناتهما آلاف الأفدنة . فى عشرات العزب والضياع فى أكثر من محافظة ، ولكنه خرج من هذه الألقاب ، وتلك الثروات فلاحاً بسيطاً ، غنيا بمواهب لا عد لها ، فقد كان مصوراً باليد والفوتغرافية نجاراً ، تخرج من تحت يده قطع الأثاث الفاخر ، صياداً يصطاد الطائر المحلق فى أجواز الفضاء ، وهو يحمل بندقيته بيد واحدة ثم يصف عشرات الزجاجات فيصيب أعناقها الواحدة إثر الأخرى بقذائف بندقيته لا يخطئ واحدة منها ، ثم هو نحال

لا يباريه فى العلم بالنحل ، بالمطالعة والتجربة نحال محترف آخر ، ثم هو عالم بالزراعة العلمية ، وهو آخر الأمر ، صامت متواضع يجلس بين الناس يستمع إلى أقلهم علماً ، وكأنه لا يعرف فى الحياة شيئاً ، يحب بلده ، إلى درجة العبادة . فى حرب السويس ، حينما صار الإنجليز على مقربة من الإسماعيلية ، أخذ أولاده وعدداً من الفلاحين ، وربض ومعه بندقيته ، تاركاً أرضه وزراعاته ، فقد كانت عزبته فى طريق الإنجليز من بورسعيد إلى القاهرة .

وقد يعترض معترض فيقول هل الحديث عن أخواتك أو عن أزواجهن؟ والجواب حاضر ، فقد كانت علاقتى بهؤلاء الرجال ، صدى لصلتى بزوجاتهم ، وأنى أترك نفسى على سجيتها فى هذه الذكريات ، لا ألزمها خطا حازماً ، وإلا فقدت تلقائيتها وبساطتها ، وأصبحت بحثاً أدبيا ، لا صورة نفسية ، لصبى ، يعيش فى بساطة السنوات الأولى ، بغير تكلف أو اصطناع .

وقد جرى فى دم أخواتى الثلاث ، حب بلادهن والانشغال المقيم المقعد بشئونها العامة ، فقد ورثن ذلك عن أمهن ، وبقى هذا الهوى معهن حتى توفى الله كبراهن وصغراهن ، ولكيلا تحسب أن ما أقوله عنهن ، من قبيل تعصب الأخ لأخواته ، فإنى سأروى لك شيئاً عن آخر ذكرياتى عن آخر أيام أختى الكبرى التى اختارها الله لجواره ، منذ عام وبعض العام . فقد أصابتها علة القلب . وكان يعودها ، طبيب قلب شاب ذاعت شهرته ، وأعنى به الدكتور حمدى السيد . فقد أخبرنى صديقى المستشار إبراهيم حسنين حلمى أنه سمع من الدكتور حمدى ذاته وصفاً لدهشته لما كانت تبديه أختى ، وهى تعالج سكرات الموت ، من الحرص على التعليق على شئون مصر وما يجرى فيها ، كأنها فى أتم صحتها وكأن العمر ممدود أمامها . ولقد كان من أولادها من غرق فى السياسة إلى أذنيه ، واختار بين دروب

العمل العام وسبله ، أشدها خطراً . وأكثرها اتصالاً بالسجون والمعتقلات ، فبقيت أختى حريصة على أداء واجبها نحوه . لا تشكو ولا تتململ . ولا تحاول أن تثنى عزمه ولا أن تطلب منه الرأفة بها أو التخفيف عليها . بل إنها لم تلجأ إلى ، وابنها يزج به إلى السجون والليمانات وينفى إلى أقصى الأرض ، وربما كان فى وسعى ، أن أخفف عنه ، ولست أنسى يوماً ، كنت متجهاً بسيارة الدولة إلى عمل فى حلوان فمررت فى طريقى إليها . بليمان طرة . وإذا بشقيقتى هذه – تغمدها الله بواسع رحمته وأسكنها فسيح جناته – على باب الليمان وفى يدها حقيبة ، لابد أنها كانت تحوى ملابس ابنها السجين ، ولمحتها فى هذه الحال ، والسيارة تمرق كالسهم ، فصدرت عنى أنة ، هزت نفسى هزا . فالتفت إلى سائق السيارة وقد خَشى أن يَكونَ قد أصابنى مكروه فتجلدت وتماسكت ، وفى عينى دموع ، وقلت متصنعاً : «مررنا بمدافن هنا ، فذكرت عزيزاً ، لحده بها . .» فهز السائق الحاج عبد العزيز حسيب رأسه متظاهراً بالتصديق ، والطريف أن سائقى هذا كان من أنصار الحزب الوطنى عرفته فى اجتماعات الحزب ، منذ ترددت على ناديه ، وأنا بعد طالب فى الجامعة ، ثم عرفت أنه اعتقل ، فى عيون موسى ، فترة من الزمن غير قصيرة لمجرد أنه زار منزل المرحوم حسن البنا ، ليعزى ذوى قرابته فى وفاته .

وقد أصابت أختى الكبرى الحمى الروماتزمية وهى بعد طفلة ، وخيف يومئذ على حياتها ، فقد كادت تصل هذه الحمى الملعونة إلى قلب أختى ، فلما تزوجت كان والداها مشفقين عليها غاية الإشفاق من الحمل والوضع وتربية الأولاد ، وما يقتضيه كل هذا من سهر وجهد ، ولكن مضت حياتها الزوجية ، ميسرة ، وكان أولادها جميعاً أصحاء البدن ، والأعصاب . ولم أسمع طوال عمرها أنها شكت حتى من زكام ، فالمرض الوحيد الذى عانت منه ، هو المرض الأخير ، أو قل هو

المرض الأول ، الذى اتصل بالوفاة ، وقد واجهت الموت ، كما فعلت أختها الصغرى ، ووالدها قبل أختها فى شجاعة وعدم اكتراث إلى حد أنها كانت تمازح طبيبها ؛ وهو يكتب الدواء ، ويشرح سبيل العلاج قائلة : وفيم هذا الجهد كله ، ولا نفع منى لأحد ، وقد بليت أعصابى . حتى بات كل منها فى حاجة إلى ترميم وترقيع ! » . ولعلى لم أعرف فى حياتى إنساناً رجلاً كان أو امرأة ، فى مثل صفاء طبع ، وسلامة مزاج أختى الكبيرة ، فقد مضت سنوات حياتها متصلة دون أن أراها ، ولو للحظة غاضبة من شىء أو من شخص ، ولم أسمع طوال هذه الحياة ، منها لفظة واحدة ، تجرح أو تسىء .

وعلى الرغم من وداعتها ، وسعة صدرها لم تعرف التردد ، ولم يطف بها طائف من ضعف ، فى أحلك الساعات فقد كنت معها حينما ماتت أمى ، وحينما مات أبى ، وحينما فارقتنا أختنا الصغرى بعد مرض وبيل هو بين الأمراض أشدها قسوة ، وأفدحها ألماً ، ثم رأيتها حينما فقدت زوجها ، فكانت دائماً هى هى . ثابتة الجنان ، هادئة النفس ، لا ينالها اضطراب ، ولا تند عنها صرخة ، ولو خافتة ، وفى قلبها من الحزن ما فيه .

ولقد تعلمت أختى فى سنى حياتها المبكرة بفرع مدرسة «فكتوريا» فى مدينة المنيا ، حينما كان يعمل أبى فيها مهندساً للرى . ثم تلقت نصيباً أكبر فى مدارس القاهرة ، ولكنها لم تواصل تعليمها ، وتولت تثقيف نفسها ، وفى تلك السنين المبكرة ، تلقت بعض دروس فى «البيانو» . ولكنها انقطعت عن هذه الدروس وإن بقيت فى شوق دائم إلى معاودتها واستئنافها ، إنها لم تكن تقع فى حيرة لفترة . أو يشرد ذهنها لسبب من الأسباب حتى ترى أصابعها تؤدى دوراً من أدوار البيانو القديمة على ظاهر يدها ، أو على علبة الكبريت أو على المنضدة التى تقف أمامها ، وقد كنا نمازحها

ونداعبها بسبب هذه اللازمة التى لا تفارقها . وفى ذات يوم ، أصدرت وأنا تلميذ فى المدرسة الثانوية مجلة «عائلية» كان من بين أبوابها باب «فى المرآة» وكانت هى موضوع هذا الباب ، فى العدد الأول فصورتها فيه بقلمى الساذج ، وداعبتها ما شاء لى أسلوبى الصبيانى من الدعابة لأدوارها الموسيقية التى تعزف فى الهواء ولغير جمهور ، وبلا (نوتة) .

وكان الفارق فى السن بينى وبينها وأنا صبى قد جعل علاقتى بها خالية من الأزمات الحادة التى انتابت علاقتى بأختى اللتين تصغرانها» ولكن حدث أن ضايقتها يوماً ، فربطتنى إلى عمود السرير ، لتقييد حركتى ، التى لم تكن تهدأ قط ، وبقيت زمناً طويلاً لا أعفيها من غضبى لهذا العقاب المهين الذى لم يجرؤ عليه أحد غيرها ، ولما كانت جدتنا لأمنا سيدة قصيرة ، فقد حسبت أن مصير السيدات حين يكبرن أن تقصر قامتهن ، فتوعدتها بأنى حينما تكبر ، وتقصر . سأعاقبها بمثل ما عوقبت به ، وتداولت الألسن فى الأسرة هذا التهديد الصبيانى ، حتى إذا زفت أختى إلى زوجها ، وقد لبست ثوب العرس وجلست إلى جانب عريسها نادتنى ، فاقتربت منها فقالت وهى تضحك : أمصر أنت على أن تثأر لنفسك ، أم أنك سامحتنى ! » . .وعرفت يومها أنها «دبلوماسية» موهوبة ، فقد أحسنت اختيار اللحظة . ففى المناسبات السعيدة ، تصدر الدولة قرارات العفو عن المذنبين ، فقلت ودموع الفرح ، تنساب على خدى : «لقد عفوت عنك ، ولا فضل لى ، فقد علمت أنك لن تقصرى مهما كبرت» فضحكت وقالت : «لقد خدعوك ! . »

ولقد عرفت الأبوة قبل أن أتزوج وأرزق الأولاد ؛ فقد كان أولاد أختى بمثابة أولادى ، أحببتهم ، وقد كان أكبرهم ، يقضى معنا ، ولا سيما فى فترة الإجازات وقتاً غير قصير ، ولا أنسى أنى قضيت فى صيف إحدى السنوات ، شهراً فى

الإسكندرية ، وكانت سيدى بشر ، مصيفاً بدائيا ، أقيمت فيه عشش شبيهة بعشش رأس البر ، وإن لم تبن من البوص المعروف «بالكياب» . فصحبت أكبر أولاد أختى إلى هذا المصيف ، واشتريت له قرعتين من القرع الإسطمبولى لتحملاه فوق سطح الماء ، وانتظر إخوته أن تأتى عليهم نوبة السفر إلى الإسكندرية فلما طال الانتظار خشوا ألا ينالهم حظ السفر فقرروا أن يؤدوا الصلوات الخمس ، ليدعوا فى أعقاب كل صلاة أن تصلهم الدعوة المرجوة وكان أحدهم لا يعرف من الصلاة إلا حركاتها الظاهرة من ركوع وسجود ، فكانت صلاته دعاء واحداً وبسيطاً ومكرراً : يارب أسافر إلى الإسكندرية . ثم يركع ، يارب أسافر إلى الإسكندرية ، ثم يسجد . . فلما لم يستجب لدعائِهِ لم يصل بعد ذلك .

أما أختى الوسطى فقد كانت رائدة السياسة فى عائلتنا ؛ فقد كانت تلميذة فى المدرسة السنية ، وكانت هذه المدرسة فى فترة اندلاع ثورة ١٩١٩ ، هى كبيرة مدارس البنات الحكومية ، وقد كانت أختى أولى بنات فصلها ، فلما قامت الثورة ، كبر عليها أن يكون دور زعيمة المدارس ، دور المتفرج بحجة أنها مدرسة بنات ، فوقفت بين زميلاتها ، وخطبت فيهن ، خطبة ، تدعو إلى الجهاد ، وكانت تحفظ من شعر حافظ إبراهيم الوطنى ، ومن الأناشيد . ما ضمنته خطبتها ، فإذا بها ، تبرز بين زميلاتها خطيبة لا يشق لها غبار ؛ ونجحت دعوتها ؛ واقتحمت الفتيات وراء زعيمتهن باب المدرسة وأزحن من طريقهن الناظرة الإنجليزية الحازمة «مس كارتر» وانطلقن إلى الطريق العام يهتفن بالعربية والإنجليزية معاً ، لمصر وللاستقلال التام ، وبسقوط الاحتلال والإنجليز .

كيف فعلت هذه الزعيمة التى لم تر مظاهرة ، ولم تر خطيباً ولا خطيبة ؟ وكيف أطاعتها جموع تلميذات المدرسة ؟ وكيف لم تخش هذه الجموع الناظرة التى كان

كلامها قانوناً ، وصوتها مرهوباً وشخصها مخوفاً ؟

إن ذلك كله وحى الفطرة الإنسانية .

وحى الفطرة الإنسانية السليمة بلا شك

وطردت أختى الزعيمة من المدرسة ، فبقيت أياماً فى المنزل ، ننظر إليها ، وتنظر إليها زميلاتها ، وجيراننا ، باعتبارها شخصية سياسية ، تستحق الإعجاب ، وتشبه– فى محيط الأسرة– الزعماء الذين نفوا إلى مالطة فى محيط الأمة .

ولكن الإنجليز ، قوم مرنوا على ملاينة الشعوب حين تثور ، لا ليعطوا الشعوب ما تطلب ، بل ليستديروا حول الحركة الوطنية الثائرة الهائجة بحثاً عن نقطة ضعف فيها ، فينفذوا إلى صميمها ويضربوا الثوار بعضهم ببعض ، وفى أكثر الحركات التى تقوم فى البلاد التى طال عهدها بالاحتلال يجرف التيار الوطنى العنيف المتدفق فى وجهه بعض الذين لا يؤمنون بالحركات الوطنية ، ويحسبونها جنوناً مدمراً ، واندفاعاً وخيم العواقب ، وهؤلاء يستجيبون لمغريات المحتلين ، ولا يلبثون حتى ينقلبوا على الحركة ، فتقع فى صفوفها الفرقة

وجريا على هذا الأسلوب عفت السلطة عن الطلاب والطالبات الثائرين والثائرات وأعادوهم إلى المدارس مقابل وعد شفوى من ولى الأمر ومن التلميذ بألا يشارك فى الاضطرابات مرة أخرى ، وقد عادت أختى كغيرها ، ولكن المظاهرات اجتاحت مصر مرة أخرى ولم تستطع أختى الزعيمة أن ترى أمواج البحر تدعوها ، إلى إلقاء نفسها فى عبابه ، ثم تمنع نفسها من تلبية الدعوة ، فما لبثت أن رأت نفسها على رأس تلميذات المدرسة ، وإذا بالشعر يتدفق على لسانها ، وإذا هى خطيبة تثير الحماسة ، ثم تندفع إلى باب المدرسة العتيق والثقيل ، فيفتح ، وتجرى ناظرة المدرسة وراءها وتمسك بثوبها من أعلاه عند ظهرها ، وتقول لها بالإنجليزية :

«تذكرى وعدك» فترد عليها أختى وهى فى أعلى درجات الحماسة : «وطنى قبل وعدى» . وتتلقف البنات هذه الكلمة ، وكأنها قول مأثور ، فيصحن : «وطنى قبل وعدى» . وربما أفاءت عليهن اللحظة وحيها فقال : «لا وعد لمن لا عهد له . . لاعهد مع أعداء الوطن» .

وعادت أختى مرة أخرى إلى البيت ، وقد زاد قدرها كزعيمة ، حتى هدأت الثورة وقبض على مؤجج نارها ، ومنظم ثوارها . عبد الرحمن فهمى ، ثم سيق إلى المحكمة العسكرية البريطانية وأطلق سراح الزعماء الباشوات الذين قضوا فى مالطة شهراً واحداً ثم ذهبوا إلى أوربا ، حيث أقاموا فى أكبر فنادق باريس ولندن يفاوضون ملنر ، وممثليه عامين كاملين ، وانقسم المصريون إلى سعديين وعدليين . وقيل عن الأوائل متطرفون وقيَل عن الأواخر معتدلون ، ولم ينقض على هذا الحلف ، إلا عامان حتى عاد الجميع فى عهد الائتلاف يفاوضون ويكون على رأس المفاوضين معتدل ، هو عبد الخالق ثروت ، فى حين أن الأغلبية رفضت منذ سنتين فقط أن يفاوض الإنجليز هذا المعتدل نفسه . ضاعت الثورة وهدأت الأمور وبدأت لعبة الكراسى فى الانتخابات والوزارات ، ثم استمرت نحو ثلاثين عاماً . لا يصيب صدور الإنجليز خلالها من رصاص الوطنيين ، إلا ما صوبه تلاميذ الحزب الوطنى : الصوفانى والدكتور شفيق منصور ، حتى إذا ما أعدمت هذه الكتيبة المقاتلة ، تلقف العلم منها ، شباب الحزب الوطنى الجديد حتى قامت ثورة سنة ١٩٥٢ .

ولكن بعد أن وصلت أختى إلى مرتبة الزعامة : أصبحت فى البيت مجرد شقيقة لصبى : رذل استغل فيها أعظم فضائلها . فضيلة الحياء وراح يطاردها ، ماتقول شيئاً ، ولاتصدر عنها حركة ، أو تمشى فى المنزل أو فى الطريق ، مجرد المشى الذى يمارسه كل الناس ، إلا سخر منها ، بالقول والإشارة ، فإذا فعلت ذلك ، حزنت أشد

الحزن ، وضاقت فى وجهها الدنيا ، وأنا أواصل هذا العمل الشيطانى القبيح . ولم يدر بخلدى يومها أن أفكر . لماذا أوجه هذا العدوان لأختى التى تكبرنى مباشرة ، أو التى تكبرنا جميعاً ، والعادة بين أبناء الأسرة الواحدة . أن يكون ما يسمى « بالنقار» على أشده بين من كانوا « فوق رأس بعض » أى الذين يتتابع ترتيبهم بين الأبناء ذكوراً كانوا أو إناثاً ، ولكن حينما كبرت أدركت تفسير ذلك ، فأختى الكبيرة تزوجت قبل أن أشب تماماً عن الطوق فخرجت من حلبة المنافسة ، وأختى التى تكبرنى مباشرة ، كانت سريعة الغضب ، نشيطة اللسان ، ميالة إلى العنف ، وكانت الرفيقة الوحيدة المتاحة أمامى لتؤنس طفولتى وصباى ، ولذلك فقد اضطررت أن أعقد معها محالفة عدم اعتداء لأنجو من بطش يدها ولسانها ، ثم أصبحت المعاهدة معاهدة حسن جوار ثم استحالت إلى معاهدة حماية وتبعية . فلم يبق أمام ميولى العدوانية ، التى ثبت أنها جزءمن كل نفس ، ومن نفس كل صبى على وجه خاص ولاسيا من كان مثلى فى صباى كثير المرض ، شديد الحساسية ، متأجج الخيال ، مشمولا بالتدليل المسرف حيناً وبالتأديب المسرف حيناً آخر ، ولكن حينما تقدم بى العمر ، عرفت أن أختى فوق كونها عظيمة العقل ، سريعة الحفظ . مثالية المسلك ، فنانة ترسم بالفحم والقلم الرصاص ، الشخصيات رسماً أنيقاً ، ولكم وددت أن تجد من أبيها ، وهو مهندس عناية بموهبتها ، ولو واتاها هذا الحظ ، لكانت حساسيتها المفرطة ، وعصبيتها الشديدة ، موردين لا ينضبان ، لفنانة ، تزداد على الأقل نضجاً ، وقد عرفت شاباً من هواة الرسم ، فسألته عن شىء يثبت الصور الفخمة ، ومازلت أذكر أنه أرشدنى إلى مادة اسمها الفكستيف ، عرفت فيا بعد أنها الترجمة الحرفية لكلمة مثبت . وقد عقدت العزم ، على أن أشتريها لأختى ، ولكنى لم أفعل ، وفى ساعات الصفاء ، كانت أختى ترسم لى خرائط

الجغرافيا ، ومايطلب منى من واجبات الرسم ، فكانت كراسة الخرائط الخاصة بى متحفاً ، يتفرج عليه الزملاء ، ويقدمها مدرس الجغرافيا مباهيا بها عند مفتش الجغرافيا حين يمر على فصلنا ، أما كراسة الرسم ، فقد كانت ملتقى للنقائض ، فما أرسمه فى حجرة الدرس ، لا يمكن تبين حقيقته ، فإذا طلب منا أن نرسم قلة أو وردة ، أو تفاحة ، اختلطت الأمور على الرائى . فلم يعد يعرف : هل رسمت حيواناً أو فاكهة أو نخلة ؟ فإذا طلب منا أن نرسم شيئاً فى المنزل ، وضعت الكراسة تحت نظر أختى ، وأحسنت علاقتى بها ، وحبست لسانى عن النقد اللاذع ، وضبطت تقاطيع وجهى عن أن تعبر عن « الشقاوة » و« العفرتة » وظفرت بلوحة ممتازة ، والعجيب أن مدرس الرسم ؛ لم يستوقفه الفارق الرهيب بين رسم يصل إلى أقصى الغاية فى الإتقان ، ورسم يهبط إلى الحضيض فى السوء ولعله اعتبرنى فناناً ذا نزوات ، تصفو نفسى ، ويستجم خيالى ، فأتلقى الوحى صافياً ثم تضعف أعصابى ، ويتعكر مزاجى ، فأنتج أسوأ ما تخرجه ريشات الفنانين وأقلامهم .

وحدث ذات يوم وأنا تلميذ فى أسيوط الثانوية أن طلب منا مدرس الرسم — وكان ممن تعلموا الفن فى إنجلترا ، وهو المرحوم عبد الحميد الفوال — أن نرسم شيئاً مما كنا نرسمه فى تلك الأيام ، وفى الأغلب كان زيرا فوق حمالة . وكانت علاقتى بأختى مقطوعة آن ذاك ولم تنفع المحاولات الدبلوماسية لتحسينها فاعتمدت على نفسى ، ورسمت كالعادة بالطريقة « السريالية » قبل أن تغزو هذه الطريقة بلادنا . . وضاق المدرس بهذا العبث ولم يكن يدرى أن العبث سيصبح فنا قائماً بذاته تنحنى له الرءوس ، وتتسابق فى حلبته المواهب ، فأوقع بى عقاباً صارماً ، لم ينلنى مثله فى سنى الدراسة ، فقد حبسنى ستة أيام متوالية . كنت أبقى خلالها فى المدرسة بعد أن ينصرف زملائى . ولما كنت فى تلك الفترة من لاعبى الكرة — فيما يسمى

«السكندتيم» أى الفريق الثانى أو الاحتياطى ، فقد كنت أقضى فترة الحبس لاعباً ، وربما سجلت انتصاراً ، بإصابة الهدف ، أتلقى بعده التهانى والتصفيق ، وأخفيت على أختى تماماً أنها أحسنت الانتقام لنفسها ، حتى مضت السنوات ، ولم يعد لهذا الإخفاء معنى ، فأطلعتها على الحقيقة فتأثرت لى أبلغ التأثر ، ولامتنى إذ أخبرتها بما نالنى من وراء عدم تعاونها معى .

ومضت الأيام ، وتلقيت من محكمة جنايات القاهرة ، خطاباً يخبرنى فيه القلم الجنائى أننى ندبت لأترافع عن جزار قتل مفتش تموين بقسم مصر الجديدة ، وتصفحت على عجل اسم القاتل واسم القتيل ، فعلمت أن الجزار القاتل هو والد فنانة كانت فى بداية شهرتها عند وقوع الجناية اسمها الفنى «أميرة أمير» وأن القتيل هو مدرس الرسم الذى قسا على– مع أنه فنان– لمجرد أنى كنت من طلائع رواد السريالية فى مصر . . فقد ندبته وزارة التموين من وزارة التعليم فأصبح مفتش تموين قسم مصر الجديدة .

فذهبت إلى رئيس محكمة الجنايات وطلبت منه إعفائى من الندب لأنى لا أستطيع أن أترافع عمن قتل أستاذى ، ولوكان هذا الأستاذ قد أنزل بى أشد العقاب بحكم أنى «سريالى» قبل الأوان ، وقبل رئيس المحكمة اعتذارى .

أخواتى الثلاث (٢)

قال الشيخ الذى نروى ذكريات صباه :

لما تزوجت أختى الوسطى شعرت أنا وأختى الصغرى ، بفراغ عظيم ، فقد كنا نؤلف نحن الثلاثة أسرة صغيرة ، وكنت قد انتهيت تقريباً من فترة « المكايدة » الشيطانية ، التى لقيت فيها أختنا الوسطى ، على يدى ، آلاماً مبرحة ، أسأل الله أن يعفينى مما أستحقه عنها من عقاب وعذاب .

ولكن لا يعنى هذا أن مضايقاتى المجوجة قد انتهت تماماً ، فقد دخلت ونحن فى أسيوط الثانوية مرحلة الاهتمام بالأدب وأنا آن ذاك على رأس مجلة المدرسة وقد تلاحقت نذر أو بشائر اهتماماتى الأدبية والفنية ، وما يصاحبها عند الصبيان ، من خروج على مألوف الناس ، فى السير والحركة ، والعلاقة بالناس ، والاتصال بهم .

وقد كانت أولى ثمار هذه المرحلة الفجة ، التى لم يصقلها نضج ولا عمق ، أنى

وضعت مسرحية كاملة بعنوان « يوسف بلانكت الجميل » ، وكتبتها بخط مقروء . وعلى وجه من التنسيق والترتيب ، لم أعرفه من بعد ، فخطى كلما تقدم بى العمر ، زاد سوءاً ، وأصبح من قبيل الألغاز التى لا تحل ، والرموز التى لا تفهم ، كما أصبح كل ما أكتبه ، ضرباً من النشاط العصبى ، الناجم عن نفاد الصبر ، وشدة القلق ، والرغبة التى لا تكبح ولا تضبط ، فى سرعة الإفضاء بما فى النفس وبما يجرى على الخاطر ، فإذا هدأت ، ونحيت ما كتبت جانباً ، وكأنى نسيته تماما ، عدت إليه ، وكأنى أتجرع دواء مرا ، لا يساغ ، فأهويت عليه بالقلم شطبا وحذفا ، وقلبا ، حتى تخرج الورقة من تحت يدى ، مثخنة ، وكأن عدوا لدوداً أهوى عليها ، بخنجر تمزيقاً ، وتمزيعاً ، حتى لفظت الأنفاس ، وفارقت الحياة ، لتبعث من جديد ، خلقاً آخر ، بعد حين يطول أو يقصر . .

فما بال مسرحية « يوسف بلانكت الجميل » قد نجت من عمليات المخاض والولادة العسرة فخرجت فى سطور متتالية متناسقة بلا حذف ولا إضافة ، ولا « شطب » ولا مسخ ، ولا تغيير ولا تعديل . وما بال الكلام ، متصلاً . مفهوماً خالياً من الاضطراب والقلق . .

وفكرة مسرحية يوسف بلانكت ، صغيرة لست أدرى من أين استقيتها ، وإن كان أغلب الظن عندى ، أنى وقعت عليها فى صحيفة أدبية ، تروى خاتمة حياة هذا الشاعر الأيرلندى الذى أحببته لا لشعره لأنى لم أقرأه ، ولا لشىء من ماضى حياته ، لأنى لم أقف عليها ، بل لهذه الخاتمة الرائعة التى قرأت حكايتها فى الجريدة أو المجلة . ثم « لأيرلنديته » أى لكونه من « إيرلندا » .

وقد كنت قد وقعت فى غرام مصطفى كامل ، وأنا بعد تلميذ فى المدرسة الابتدائية ، وكلما قرأت له شيئاً ، أو سمعت عنه نبأ ، أو رأيت له صورة أحسست

هذا الغرام ، يقوى ويستشرى ، ويتحول مع الأيام ، هوى مبرحاً ، لا غراماً لفكرة ، ولا هياماً بمبدأ ، فقد تجسد لى حبا للوطن ، وصورة من لحم ودم ، للفضائل الإنسانية ، وعلى رأسها التضحية ، وإنكار الذات والفناء فى العقيدة .

ثم بدأت فى المدرسة الثانوية أقرأ فصولاً متفرقة للكاتب والمترجم العظيم حسن الشريف ، فى مجلة الهلال ، عن الكفاح الإيرلندى وأبطاله ، «إيمون ديفاليرا» ، و«مايكل كولنز» و«آرثر جريفث» ، فبدا لى هؤلاء الأبطال ، وأعوانهم وتلاميذهم وأتباعهم ، فى حربهم المسلحة ضد البريطانيين والحكم البريطانى الآثم الظالم ، امتداداً لحركة الفدائيين المصريين ، تلاميذ مصطفى وفريد وشاويش والصوفانى ، من أمثال إبراهيم الوردانى ، وشفيق منصور ، وعبد الحميد عنايت ، والعامل العظيم «إبراهيم موسى» والحاج أحمد جاد الله ، ثم المجهولين أضراب محمد خليل «من المنصورة» ، ونظير و«محمد فهمى على» اللذين شنقا دون دمعة تسفك على قبرهما ، ولا كلمة وفاء ،

ولما كانت الفصول التى ترجمها حسن الشريف ، لا تروى تاريخاً كاملاً للحركة الوطنية الأيرلندية ، فقد كانت هناك ثغرات ، لا يملؤها إلا الخيال ، وقد توليت بالفعل ملء هذه الثغرات ، واستطعت بعد ذلك أن أخلق مسرحية من ثلاثة فصول ، من القطعة التى قرأتها فى الجريدة ، والتى روت كيف أن يوسف بلانكت ، شاعر الحركة الأيرلندية الوطنية ، حكم عليه بالموت ، وكانت تربطه علاقة حب بزميلة له فى الجهاد ، فقرر أن يعقد عليها قرانه فى السجن من وراء ظهر السلطات البريطانية العرفية ، مستعيناً فى ذلك ، بقسيس من أنصار الحركة الوطنية وقد بقى الشاعر ينتظر مقدم عروسه . فى صبر وقلق ، مشفقاً أن يسبقها الجلاد الذى سيسوقه إلى المشنقة ، ولذلك كان يعد الدقائق ومعه زميل له فى الحركة اسمه

«جان» ، يسأله كل بضع دقائق ، وأحياناً كل بضع ثوان ، «كم الساعة الآن يا جان؟» فإذا أجاب الصديق والزميل : عقب الشاعر أجل . . أجل لم تبق إلا ثلاث ساعات . . وتتناقص الفترة الفاصلة بين الموت والحياة ، ويكرر الشاعر : أجل . . أجل . . لم تبق إلا ساعتان وخمسون دقيقة . . ساعتان وثلاثون دقيقة . . » ويدق باب الزنزانة ، ويظهر على عتبته الجلاد فيسقط فى يدى الشاعر ، ويعتقد أن الموت سيسبق القسيس وعروسه وعقد الزواج . . ثم يتضح له أن الجلاد ليس سوى زميل فى الحركة الوطنية ، ومن خلفه القسيس ومن خلف القسيس ، عروس الشاعر ، وتحسب العروس ، أن ذلك كله تمهيد وتوطئة ، لفرار رجلها من السجن ، وقد كانت لعبة الفرار من السجن ، لعبة يتقنها الأيرلنديون الثوار ، فما أكثر ما فر « ديفاليرا » من أعتى السجون ، وما أكثر ما فر « مايكل كولنز» من قبضة فرق المطاردة الإنجليزية ، موقعاً إياها فى الحيرة ، هازئاً بها ، ومثيراً لسخرية الصحف فى العالم كله ، من تدبيراتها المحكمة ، وخططها المتقنة . . ولكن هذه المرة لم يكن الفرار ممكناً ، ولم يكن باقياً للشاعر الثائر ، وعروسه ، إلا أن يعقد العقد ، ثم تصبح زوجته ، أمام الله والقانون فقط ، لساعة او بعض ساعة ، ثم لا يلمسها إلا بقبلة على الجبين ، وتمضى هى إلى الحياة ، مجاهدة ، ويمضى هو إلى الموت شهيداً ، ورمزاً ، ومثلاً وذكرى !

ولما كانت هذه المسرحية هى باكورة إنتاجى ، ولم يكن هناك مسرح ولا فرقة ، ولا ممثلون فقد مثلتها على مسرح خيالى ، وأصبح المقطع الأول فيها هو العبارة التى أصابح فيها وأماسى أهل بيتى ، وبعبارة أدق أختى المسكينتين كم الساعة الآن يا جان . . «أجل أجل . . » ولقد كرهتا الساعة وجان والمسرح وأيرلندا ، وكرهتا صوتى ، وكل ما يتصل بى ولما تألفت الفرقة المسرحية ، فى مدرسة أسيوط الثانوية ،

دفعت بعملى المسرحى الأول ، إلى مدرس وقع عليه الاختيار ليكون المشرف على النشاط المسرحى ، وقد عرفت لفرط دهشتى أنه لم يشاهد طوال حياته مسرحاً ، وكان ينطق اسمه فى تلك الأيام مرسحاً ، ولم يكن يدرى من أين يبدأ عمله ، فلما تقدمت إليه بهذه المسرحية ، خيل إليه ، أن خاتم سليمان قد وقع فى يده ، وأنه ضغط عليه ، فأخرج له من الأرض عفريتا من الجان ، لم يحمل إليه عرش بلقيس ملكة سبأ ، كما فعل ، مع نبى الله سليمان عليه السلام ، بل حمل إليه ما هو أعظم- وقت ذاك- وهو مسرحية ، وأخذها منى ، وكأنه يختطف عقد شراء قطعة أرض بمائة ألف جنيه . . ولفرط لهفته ، ظن أن اسمى «رمضان» فراح يكرره ، ولم أرد أن أصحح له الاسم ، رغبة منى فى ألا يرجع فى قراره بأن تكون هذه المسرحية هى باكورة نشاط جمعية التمثيل فى مدرسة أسيوط ، عاصمة الصعيد ، الذى لم تكن ترى المسرح إلا كل بضع سنوات مرة ، لمدة ليلتين ، أو ثلاث على الأكثر .

وفى الصباح التالى ركبت دراجتى ورحت أنهب بها الأرض نهباً- إن كانت الدراجة تستطيع أن تنهب شيئا حتى لو كانت دراجة من صنع شركة «رالى» الإنجليزية الشهيرة- وما كدت أصل إلى المدرسة حتى انطلقت كعادتى فى تلك الفترة من حياتى- كصاروخ بشرى- سبق الصواريخ السوفييتية والصواريخ الامريكية إلى الوجود ، وقصدت حجرة مدرسى التاريخ والجغرافيا ، فاقتحمت بابها ، فارتاع المدرسون ، وأدرت عينى فى الحجرة بحثاً عن الأستاذ «إمام» لأسأله عن المسرحية ، ولخيبة أملى المروعة لم أجده ، ولم أظفر من هذه الغزوة إلا بكلمتى تأنيب لاذعتين من مدرس آخر يعرفنى ، بوصفى تلميذا نابهاً فى التاريخ ورئيساً لتحرير مجلة المدرسة أو مديراً لتحريرها ، لأن رئيس التحرير كان الدكتور محمود الشربينى العالم المصرى الكبير ، الذى أصبح عميداً لكلية العلوم .

ووقفت متفزراً متحفزاً على باب الحجرة ، حتى أهل الأستاذ إمام ، فى بطء وتثاقل ، وبرود ، فقد كان مثلاً للفتور . ونقيضاً لى فى الحجم والسن والطبع ، وكانت به لثغة فى حرف الراء ، فلما دنا منى نظر إلى ، وكأنه لم يرنى ، وقفز قلبي فى صدرى ، ثم دخل دون أن يلتفت إلى ، فلحقت به ، فسأل فى دهشة : فيه إيه ؟ فقلت له : الرواية ! » . ولم نكن آن ذاك نقول المسرحية . فقال : رواية إيه ! يعنى رواية إيه ! فقلت له : الروايه التى سلمتها لحضرتك أمس ، فقال ، وكأنه يتذكر تاريخاً من عهد رمسيس أو مينا : آه . . هى دى . . وأخرجها من تضاعيف جريدة : فكادت تخرج عيناى حقا وصدقاً من وجهى : نعم . . قلت ذلك وأنا ألهث ، وقد تضبب عرق ، لا من مجهود رحلة الدراجة ، بل من توقع للقرار التاريخى الذى سيصدره المدرس الفاضل : إمام . . ثم قال : اسمع . . فخيل إلى أن أذنى تداولتها الطبول والمدافع والرعود « الوواية دى » فكدت أصرخ الوواية قل ياسيدى برب السماء ، ثم قال : الرواية دى . . حلوة . . حلوة خالص . . بس أنت كتبتها صحيح ، ولم أسمع شيئاً إلا أنها حلوة . . حلوة خالص فقلت : حلوة . . خالص . . فقال الرجل مندهشاً ، لأنه لم يكن يعرف أن فى الدنيا كلها ما يدعو لهذا الانفعال فقال : وهو يقلب فيها — ويفتح صفحاتها وينظر هنا وهناك فى برود لا مثيل له : . «أنا يا يح »رايح لسعادة الناظى . . » وقام ووجدت أن هذا كلام يمكن السكوت عليه إذ حسبى من المجد أن تكون هذه المسرحية قد كتبت بخط مقروء ، لسبب مجهول ، وفى كراسة نظيفة ، وأن تكون قد وجدت مدرساً بمدرسة ثانوية قد قرأها ، وقال شهادة جيدة فى حقها — ثم أضاف : أنا ذاهب من أجلها لناظر المدرسة ، لناظر المدرسة الثانوية الأولى فى الصعيد كله ، فلم تكن مدارس بنى سويف والمنيا وسوهاج وقنا ، قد أنشئت بعد ، ولما انقضى اليوم المدرسى — لست

أدرى كيف– ذهبت إلى البيت ، لكى أصرخ هذه المرة ، ولى كل الحق : «كم الساعة الآن يا جان» ؟

وعرفت أختاى هذا الحدث المروع الذى وقع فأدركتا أن عذابهما سيزيد ضعفين ، فقد كنت أطاردهما بهذه الجملة اليتيمة ، وأنا مؤلف مسرحى ، غير معترف به ، فماذا سيحدث لها وقد اتصلت مسرحيتى بالسلطة . .

ولست أريد أن أروى لك قصة هذه المسرحية التى لا يزال نصها تحت يدى كاملاً فى الكراسة النظيفة . . بالخط المقروء ، وبالحبر الأزرق ، إنما أريد أن أقول لك ، إن زواج أختى الوسطى ، كان إيذاناً ، بنجاتها من هذه الجملة الممقوتة ، التى كانت بدورها عنواناً على عدد من السخافات التى أطاردها بها ، والتى كانت لا تحتملها إلا بمشقة . . فلما جاء يوم السفر ، سفرها إلى بيت زوجها ، اختلطت فى نفسى مشاعر من السرور والفراغ والحزن ، لم أشعر بها مجتمعة من قبل ، . . ولست أود أن أسترسل فى وصف الأحداث التى جرت بعد هذا السفر ، لأن موضع ذلك سيكون بإذن الله حينما أتحدث عن شبابى ، ولكنى أريد أن أجتزئ بشيء من حياة أختى بعد الزواج ، لأنى بسبيل تقديمها ، كنموذج إنسانى ، ولا يكمل الحديث عنها بهذه الصفة ، إلا إذا رويت للناس ماذا فعلت فى بيت زوجها مما يستأهل أن يذكر فى كتب علم النفس ، الذى يشغل به الناس كثيراً هذه الأيام . .

سافرت أختى إلى بيت زوجها ، وكان كما قلت ، فى الفصل السابق ، محامياً ، فى طهطا وسفره إلى طهطا– وهو من عائلة كبيرة بالشرقية– له قصة تستأهل أن تذكر . فقد تخرج فى مدرسة الحقوق قبل أن تكون كلية ، وكان له فى تاريخ تخرجه قريبان فى مدينة أسيوط ، أولهما خاله ، وكان رئيس محكمة ، والآخر زوج أخته وكان قاضياً . فاقترحا عليه أن يقضى فترة تمرينه فى المحاماة فى مدينة أسيوط حيث يعملان

كعضوين فى سلك القضاء ، فيجد من الرعاية لهذا السبب ما لا يجده فى مدينة أخرى ، ولو كانت الزقازيق عاصمة المحافظة التى ينتمى إليها . وكانت أسيوط فى ذلك الحين تحفل بعدد من أكبر المحامين الجنائيين ، كان منهم محمد على علوبة ، وتوفيق دوس ، وكان يأتى بعدهما من الجيل الأصغر سنا عدد من المحامين الموهوبين فى مقدمتهم إبراهيم ممتاز وحامد جودة . وحامد جودة . كان محامياً جنائيا فريداً إذ لم تكن قدرته كمحام مصدرها البلاغة وحسن العبارة ولطف الأداء ، ولكن كان مصدرها علمه التام بأخلاق الريفيين ، وبفَنِّيات الجريمة ، فقد كان الشائع عنه ، أنه يدرى من أمر قاطعى الطرق فى منطقته ما لا يعرفونه عن أنفسهم وأنه كان يعرفهم بالاسم كأنه واحد منهم ، وبعض خصومه فى المنطقة ومن الأحزاب المعارضة . كانوا يقولون إنه منهم بالفعل ، وقد كان من حظ زوج أختى أن يتمرن فى مكتب هذا المحامى «الفحل» حقيقة لا مجازا ، ولما كان لحامد جودة مكتب فى مدينة طهطا ، فقد كان يوفد زوج أختى ليباشر القضايا فيها عنه ، ثم رأى آخر الأمر أن يترك له المكتب هناك .

ولكن المحاماة مهنة تحتاج إلى المثابرة والانقطاع والتفرغ ، فإنها لا تدع للمحامى وقتاً ليستريح فيه ، ويستجم : فى الصباح فى المحكمة وفى المساء فى المكتب ، وفى الليل لقراءة الأوراق ، وإعداد المذكرات ، حتى أيام العطلات فمخصصة للاطلاع ، والمحامى الناجح دائم الأسفار ، وهو كالطبيب يطلب أحياناً فى الليل البهيم ليحضر تحقيقاً فى جناية ، وقد يستمر فى عمله حتى الصباح التالى ، ثم يصله فى اليوم الذى يليه ، وزوج أختى خلق للمحاماة من جهة ، ولم يخلق لها من جهة أخرى ، خلق لها لأنه يحبها ، ويحب جوها ، ويحب الجلسة والمرافعة والتحقيق ، ولأنه لا يلقى عناء فى قراءة أوراق القضايا والاطلاع على ما فيها تعينه فى ذلك ذاكرة

قوية ، ولا عناء فى شرح أفكاره ، يعينه لسان خال من العيوب وكان محبباً إلى نفس القضاة ، يودونه ويستخفون ظله ، ويثقون فى أمانته وعفته وبعده عن هجر القول وفحشه ، ولكنه لم يكن يطيق البقاء فى مكانه دقائق متصلة وكان يعوزه الجلد على سماع الموكلين ، والاتصال بهم ، على الرغم من حبهم له ، وحرصهم على توكيله ، يبحثون عنه فى المكتب ، فيجدونه فى المحكمة ، يلتمسونه فى المحكمة ، فيسمعون أنه فى النادى ، فإذا هو فى الطريق ، يلاطف هذا ويداعب ذاك ، فإذا جاء المساء فهو فى النادى ثم عند هذا الصديق من الأعيان ، ثم عند غيره ، ثم عند ثالث . فإذا انتهى من طوافه ، أوى إلى فراشه ، قرير العين ، هادئ النفس ، كأنه أدى واجبه ، وأراح ضميره ثم نام . . ولم تكن معالجة هذا الطفل الكبير ، الذكى اللطيف المحبوب ، أمراً هيناً ، فلقد عاش طوال حياته يضيق بالنظام والقيود والمواعيد ، وكان كل ذلك يجنى على مواهبه ويبددها ، فتتناوله أختى بالرفق ، وراحت تبدل فيه ، وتعدل . وكان يعينها فى هذه المهمة الشاقة سعة صدر ، ثم إنها أحبت البلد وأهلها وعرفت الموظفين فيها والأعيان وموظفى مكتب زوجها وأقاربهم بالاسم والرسم ، حتى أصبحت واحدة من أهل طهطا وما حولها ، وبقيت تحبها وتحب أهلها وتذكرهم ، ويحبونها ويذكرونها ، وعلى سبيل المثال فإن جميع تجار الفاكهة الصغار والكبار من مركز طهطا ، لما كانت تقابلهم فى القاهرة والإسكندرية ، تذكر لهم أسماء القرى والأسر ، فيحسبونها من أهل طهطا . حقاً : الأقباط ينسبونها إلى أسرة من أسر الأقباط ، على سبيل التخمين ، والمسلمون ينسبونها إلى أسرة من أسر المسلمين على سبيل الحدس ، وهى لا تصحح ، وتقبل النسبة فى الحالين وتضحك . . وإذا مر بنا بائع فاكهة جائل ، دون أن تناديه أختى وتسأله على أهله فى طهطا ، يداعبها من يكون فى صحبتها آن ذاك قائلاً : لماذا

أفلت هذا من سؤالك وكلامك» .

وتعلم زوج أختى الاستقرار فى المكتب قليلاً ، ثم أحبه كثيراً . ثم عرف كيف يقابل الموكلين ويطيل صبره عليهم ، فكثر عمله ، فلما زاد رزقه ، وأصبح شخصاً آخر ، وقبل أن يجنى ثمار هذا النجاح ، اختير ليعمل فى القضاء ، وقبل أن يطول عهده بالقضاء وافاه الأجل المحتوم فى مقتبل العمر ، ولم يكن قد رزق من الذرية ولداً أو بنتاً ، وكانت وفاته صدمة لأختى مروعة ، ولكن كأنما أراد الله بهذه الصدمة أن يكشف عن الدور الذى خلقها له ، فقد تفجرت فى نفسها ، ينابيع رحمة ، ارتفعت بها عن مستوى مثيلاتها من السيدات اللواتى امتحنهن الله بالترمل فلم تكد تفقد زوجها حتى فقدت والدتها ، فعاشت مع أبيها ، وكأنها أمه وأخته وابنته ، ولكن لم يكن هذا كافياً لتروى جوعها المتجدد إلى فعل الخير ، فى صوره المتعددة ، ولست أود أن أحرج تواضعها ، فأورد شيئاً من هذه الصور ، وإن كانت الغاية أن أرسم للناس صورة إنسانة ، فى غير تزيد ولا مبالغة . ولكن يكفى أن أذكر أن القدر ساق لها أفراد أسرة ريفية ، فقيرة فقدت الأم ، وكان من بين أعضائها بنات فى سن الطفولة ، فاعتبرت نفسها أمهن جميعاً ، ولم تقنع بإيوائهن ، بل علمتهن حتى تزوجت إحداهن طبيباً فى الأردن ، واحتملت فى سبيل تنشئتهن وإعدادهن للحياة من أذى الناس ، ونقد بعض ذوى قرباها ممن كبر عليهم هذا الإسراف فى الحب والبذل الشىء الكثير ، ثم ذهبت كل فتاة فى حال سبيلها بعد أن تزوجن جميعاً ، وأختى لا تشكو ولا تتبرم ، بل لا تذكر من كل هذا لا قليلاً ولا كثيراً . ودعت أختى ، صديقات لها ، لتعمل معهن فى ميدان العمل الاجتماعى التى كانت تمارسه بعض الجمعيات النسائية ، فلبت الدعوة فى صمت ودأب ، دون أن تنشر لها صورة ، أو يذكر لها اسم ، وقد سافرت من أجل هذا اللون الجديد من النشاط فى

الداخل وفى الخارج ، فى غير ادعاء ولا تفاخر .

ولكن كل هذا مما يمكن أن تقدم عليه ، سيدة أخرى ، أما الذى يتردد أمامه الرجال والنساء على السواء فهو المجازفة التى يكون الثمن فيها ، السجن والأشغال الشاقة ، ولكن أختى لم تتردد لحظة ، فى أداء ما اعتبرته واجباً إنسانيا قبل أن يكون واجباً وطنيا .

لقد قرأ المصريون وشاهدوا مسرحية وفيلم « فى بيتنا رجل » وعرفوا من كل هذا أن « حسين توفيق » بطل هذه الرواية لجأ إلى بيت الأستاذ إحسان عبد القدوس يومين أو ثلاثة ، كانت كافية لإلهامه بهذه القصة المثيرة ، ولكن لا أحد يعلم أن « حسين توفيق » ، لجأ بعد ذلك إلى بيت أختى أسابيع حتى أتيح له أن يفر إلى فلسطين ، ولقد أحسنت أختى كتمان مشاركتها فى هذه المجازفة الخطيرة . حتى على أنا نفسى ، فبقيت أجهل كلما زرتها أن « حسين توفيق » فى الشقة المقابلة لشقتها ، وهى شقة تملكها أختى الصغرى ، وتتركها طوال فترة الصيف ، إذ تقضيها مع زوجها وأولادها ، فى عزبة بالشرقية ، ولقد كانت الحكومة ، قد فرضت مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه لمن يرشد عن حسين توفيق . وكان العقاب لمن يأويه بوصفه مرتكباً لجريمة قتل عمد مع سبق الإصرار ، مصحوبة بجنايات أخرى فادحاً . ونحن نهينها إذ نقول إن هذه المكافأة لم ترد لها على خاطر ، لأن الطاهى الذى كان يعمل عندها وهو المواطن الفاضل أحمد محفوظ ، لم تغره هذه المكافأة حينما دخل يوماً إلى الشقة المقابلة للشقة التى يعمل بها ، ليرى نفسه وجهاً لوجه أمام حسين توفيق ، أى أمام عشرة آلاف جنيه ، كاملة ، فأغلق الباب وراءه فى صمت ، وفى اليوم التالى ، ترك العمل عند أختى لعذر انتحله خوفاً من أن يكون وجوده إلى جانب حسين توفيق مغرياً له بالانزلاق . . وأحسن الله إليه ، وكافأه على هذا الخلق

السامى ، فقد اتجر فى البقالة ، فدرت عليه هذه التجارة أخلاف الرزق ، وأعانته على إحسان تربية وتنشئة أولاده ، فبارك الله له فيهم .

وبودى أن أطيل الحديث عن الأسابيع التى استضافت فيها أختى – بعلم والدها – رجلاً فارا من وجه القانون ، تتعقبه الشرطة والنيابة والسلطات كلها ، غير مبالية لا بخطر السجن ، ولا بخطر إغضاب السلطات ، وما يجره وراءه من متاعب ، إنما بخطر . تجفل منه ، وتخشاه كل امرأة وكل رجل فى العالم . وهو ما نسميه بالعامية البليغة : «البهدلة» . فأنْ يساق الإنسان إلى قسم . ويلقى به فى حجز ، وأن ينتظر على باب محقق تحرسه جنود ، تأمرهم القوانين بالشدة والغلظة والجفوة ، ثم يترك ساعات ، وربما أياماً . لا يدرى متى يطلب ، وما مصيره ، ويخاطب بعنف ، ولو تظاهرا وينكر عليه أن يطلب قضاء حاجاته الحميمة من كوبة ماء ، وكسرة خبز – هذا هو الشقاء الحقيق الذى وصفه كافكا . بأبلغ بيان ، فى قصة « القضية » .

على أن فى المجازفة التى أقدمت عليها أختى غير هيابة ، جانباً من العذاب اسمه الترقب والتوقع والتوجس ، ففى كل طرقة على باب مجاور ، وعندسماع وقع أقدام أى صاعد على درجات السلم ، ولدى كل صوت فى الشارع ينادى ، أو صوت عربة أو عربات تقف فجأة على باب المنزل أو على باب قريب ، يظن من ينتظر خطراً مفاجئاً ، أن البلاء قد وقع ، وأن المصاب قد تحقق . . وإلى جانب هذا كله ، ما يثيره الخيال المضطرب ، وما تبعثه الأعصاب المتعبة . ولقد حدثنى صديق كان قد فر من وجه الشرطة فى قضية من القضايا السياسية ، ثم قل اهتمام السلطات بالقضية وأفرج عن كل المتهمين فيها ، وبقى هو فى مخبئه ولم يعد ثمة خطر ، من الاهتداء إلى مكمنه ، ولكن غلبت عليه روح لعبة «الاستغماية» إلى حد أنه كان

يحس بالفزع ، كلما خيل إليه أن على الباب شرطيا يدقه بيده . . ولقد كان لدى أختى ما يفزعها على نفسها . وما يفزعها على اللاجئ إلى حماها ، وما يفزعها على أبيها الشيخ ، وكل من فى البيت ، ولكنها تماسكت وبدت للناس ، ولى أنا فى مقدمة الناس هادئة ، لا تظهر على أسارير وجهها علامة واحدة من علامات الخوف أو الاضطراب ، بل لقد عجزت أنا نفسى أن أميز من مظهرها خلال الفترة التى كانت تستضيف بها هذا الفار من وجه العدالة أن لديها ما يشغلها أيا كان هذا الشاغل فقد بقيت هى هى : هدوء نفس ، وحضور ذهن ، وصفاء خاطر ، وميلاً إلى الدعابة ، وحرصاً على المجاملة ، واهتماماً بسماع الأخبار العامة . .

ومضت السنوات والأيام ، والناس جميعاً يتكالبون على أسباب الشهرة والظهور ، الحقيقية والمدعاة ، المشروعة ، والباطلة ، وأختى لا تحدث أحدا بما فعلت ، ولو تلميحاً ، وإذا ذكرت تلك الأيام ، تحدث كل من حضر المجلس ، إلا هى

ولست أدرى ما الذى ستقوله أختى ، حينما تقرأ هذه السطور ، وأنا أزيح عن شخصها ستائر الزهد والصمت والترفع ؟ ولكنى لا أفعل ذلك ، إطراء لها ولا ثناء عليها ، ولا اعتزازاً بأن تكون شقيقتى على هذا القدر العظيم من ضبط النفس ، وإنكار الذات ورباطه الجأش ، وإنما أفعله ، لأن من حق بلادنا علينا ، أن تقدم للناس العاديين البسطاء ، نماذج حقيقية للإنسان المصرى الذى يتصدى للمخاطر والمكاره ، من أجل العقائد والمبادئ ، مؤمناً إيمانا هادئاً بسيطاً ، بها ، وكأنه يتنفس . .

هذه الأخت ، بعد أن صقلت نفسها التجارب الكبرى والصغرى ، بعد أن

مات من حولها أعز الناس عندها : زوجها ، وأمها وأبوها وأختاها ، وبعد أن قرأت ما قرأت ، ورأت ما رأت مازال فى حياتها جوانب جديرة بأن يطل الإنسان عليها ، ولو من « طاقة » صغيرة ، فإن فى ذلك كسباً للإنسان : الإنسان العادى البسيط ، الذى تقوم على أكتافه ، مصر ، ثم الإنسانية كلها .

أخواتى الثلاث (٣)

قال الشيخ الذى نروى ذكريات صباه :

أوت أختى الوسطى ، « حسين توفيق » المحكوم عليه فى جناية سياسية ، المطلوب للعدالة ، تتعقبه أعوانها وتشم آثاره فى كل مكان ، وتغرى الناس بالقبض عليه ، وتسليمه لها ، بمبلغ عشرة آلاف جنيه ، تساوى الآن مائة ألف على الأقل. فقد أعانها فى تنفيذ هذه المغامرة الوطنية الإنسانية معا ، أنها كانت تسكن فى شقة فى حين كانت أختها الصغرى تسكن فى شقة مقابلة ، وكانت الأخت الصغرى كما مر بنا زوجة رجل من أغنياء الريف ، له عزبة فى محافظة الشرقية ، فكانت هى وزوجها وأولادها ، ينتقلون بقضهم وقضيضهم إلى الريف ، بين بطه وأوزه ، وأبقاره وثيرانه ، ونوارجه ومحاريثه ، شهورا ثلاثة ، ومن ثم استطاع هذا اللاجئ السياسى ، أن يجد مكانا خاليا لايشاركه فيه شريك ، ولايزعجه طارق . وفيما كان

الشاب متمتعا بهذه العزلة ، لايفكر في شيء ، إذ بمفتاح الشقة يدور فى قفلها بحركة واثقة خالية من العصبية ، بدون إنذار له ولاتنبيه ، ولم يستطع الشاب أن يفسر هذا الغزو المفاجئ ، فلم يبق أمامه إلاأن يأخذ للأمر عدته ، ويتهيأ لأسوأ مايأتى به المستقبل ، فحمل مسدسه فى يده ، بعد أن ملأه بالقذائف ، وجعله فى حالة استعداد ، ووقف هو فى مدخل الشقة ، موقف المدافع الذى عزم على أن يستبسل ، وألايسلم إلى أحد إلابعد أن يسلم آخر أنفاسه . . فإذا به أمام رجل سمح لاتفارق البسمة قسمات وجهه وإن كنت لاتستطيع أن تحدد مكانها ، فهى ليست على الشفتين ، وانما هى روح تشمل الجبهة والوجنتين ، وجانبى الفم ، والعينين ، وتقدم هذا الرجل المطمئن ، إلى الشاب الذى كان كل عصب فيه يهتز استعدادا للقتال ، فإذا بالرجل ، يفتح ذراعيه للشاب ، ويحتويه بينهما ، ثم يعانقه ، ويقول له : مرحبا . . وزال الفزع من الشاب فى التو ، وذهب الشك فى لحظة ، فلم تداخله ريبة فى هذه الحركة ، ولم يقل لنفسه : هذه حركة خداع مضللة ، يريد صاحبها أن أخرج من حالة التهيؤ ، وأن أدع جانبا سلاحى ، ثم يدعو أعوانه الواقفين فى الخارج ليقبضوا على ويجرونى من خطامى إلى حيث العقاب المضاعف ، فإن لكل حركة ولفظة ، وخطوة وسكنة روحا تعكس عنها ، وتشى بها ؛ فالصادق يفيض صدقه عنه ، والكاذب يفوح كذبه منه ، وإن تزيا الكاذبون فى ثوب الصادقين فهم أغلب الأمر لايخدعون إلا من كان يريد أن ينخدع لهم . . وقدم الرجل للشاب نفسه ، ولم يقل له مطلقا إنه صاحب الشقة التى لجأ إليها ، وإنما ذكر له صلته بصاحبه الذى هيأ له هذا الملجأ الآمن ، ثم جلسا يتسامران فى هدوء واستقرار ودعة ، وتناولا العشاء معاً حتى كاد يطلع عليهما الصبح ، فأوى كل منهما إلى سرير ، كأنما هما صاحبان قديمان طالت صحبتهما ، وقدمت مودتهما . .

وإذا رجعنا إلى ماقبل هذا اللقاء غير المنتظر بين شاب أحب بلده ، وغامر من أجلها ، ورجل هام حبا بوطنه ، وقبل فى سبيله مواجهة الأخطار ، فى غير من ولاتفاخر كان علينا أن نعرف أن أختى الصغرى جاءت على غير موعد ، ومعها زوجها ، وأرادا أن يتجها إلى شقتهما ، إلا أن الأخت الوسطى ، اعترضت طريقهما ودعتهما إلى شقتها المقابلة ، وقالت لأختها إن فى بيتك ضيفا . فسألت الأخت الصغرى : ومن يكون ؟ . . وأشفقت أختها أن تفضى إليها بالحقيقة دفعة واحدة فتفجأها ، وتدعوها المفاجأة إلى الاحتجاج والاعتراض والممانعة وهى صريحة لاتخفى شيئا من عواطفها ، تعبر عن نفسها بلفظ بين جلى قوى ، فحاولت الأخت الوسطى أن تبحث عن مقدمة أو تمهيد ، ثم استخارت الله ، وقالت لها الحقيقة كاملة ، فإذا بأختنا الصغرى تتهلل ، وتتساءل لتتيقن أن الأمر حق كله ، ولانصيب للمداعبة والمعابثة فيه ، فلما اطمأنت إلى صدق الخبر ، اندفعت الى زوجها تبشره ، فضحك ضحكته القصيرة وسأل بدوره سؤالا واحدا ، ليتيقن ثم انطلق إلى الشقة ، ومعه مفتاحها ، وقد حاولت أختى أن تدعوه إلى الاتئاد والتريث خشية أن يكون دخوله المفاجئ على الشاب مزعجا له ، وخشية أن تدعوه المفاجأة إلى الاعتداء على الداخل غير المنتظر ، ولكن عواطف زوج أختى التى لم تكن تعرف مواربة ولا إخفاء ، دفعته الى باب الشقة ، فكان هذا العناق ، وتلك المودة المنبثقة من القلب ، والتى لايمكن أن تفشل فى كسب قلب الآخرين وحبهم ومودتهم . .

هذه هى أختى الصغرى . وماجرى منها فى ذلك اليوم ، ليس سوى التعبير الطبيعى والدائم لشخصيتها : حب للناس لايقف عند حد ، وانشغال بالوطن ، لايعرف الاعتدال ولاالقصد ، وإفضاء بذات النفس ، وكان كلامها ، هو رائحة الوردة ، تصدر عنها ، بلا تدبير أو عمد . . .

نشأنا معاً ، وكبرنا معا ، وذهبت كل من أختى الكبرى والوسطى ، إلى بيتى زوجيهما ، وبقيت معى ، وما كان بيننا ونحن صغار ، لازمنا ونحن كبار ، فالخلاف والشجار والمقاطعة فالمخاصمة فالصلح هى دستور حياتنا ،يجدد فيها ، ويبعث الحرارة والدفء ويجعلنا كل حين وآخر ، أشبه بصاحبين يتلاقيان لأول مرة ، ويتعارفان ، ويكتشف كل منهما نفس صاحبه ، ومزاياه ولقد طاف بخاطرى الآن فقط ، بعد أن ماتت أختى ، وانقضى على رحيلها عن عالمنا هذا أكثر من عشر سنوات ، أننا لم نتبادل الشكوى ، من هموم القلب ، لاقبل الزواج ولابعده ، وإن كانت علاقتنا حميمة ، وصلتنا وثيقة ، وطبيعة كل منا قائمة على المصارحة والمكاشفة .

فى طفولتنا كدنا نكون توءمين ، وبلغ من تشابهنا فى المظهر ، الحد الذى عجز معه مفتش فى مدرسة خاصة ، أن يميز بيننا فقد حلقوا لها شعرها الخفيف ، على أمل أن يغزر وليس كلانا قبعةالمدرسة وزيها ، وذهبنا إلى المدرسة ، وكنا فى الصف متعاقبين : فلما جاء دور أختى قال لها المفتش : ما اسمك ياشاطر؟ فقالوا له : هذه بنت ، فضحك وسألنى بعدها ما اسمك ياشاطرة؟ فقالوا : هذا ولد. فقال الرجل شىء يلخبط ، فأضافوا : هما شقيقان ، فاجاب : بل هما شقيق واحد ، ولم نعرف يومها أن هذه شهادة ، يجب علينا أن نفرح بها ، ولكن كنا أصغر من أن ندرك معناها ، وكان ذوونا ضيقين ، بما نسببه لهم من متاعب ، فلم يكن يسرهما أن نكون شيئين ، أوشيئا واحدا ، لأن هذه المتاعب لم تكن لتنقص ، إذا عدنا الناس شخصا واحدا ، فإن شيطان الاثنين إذا اندمجا فسيصبح شيطانا مريدا .

ولقد كان يجدد تعلقى بأختى إلى جانب نوبات الخصومة والقطيعة والصلح والمودة ، ومايتبع كل دور منها ، من تأجيج العواطف وإشعال الأشواق أنه كان

لأختى ملجأ سياسى ، تلوذ به وتهرب إليه كلما لم يعجبها الحال فى بيتنا ، ذلك هو بيت جدتها ، فقد كان لها من حدة الطبع ، ونشاط اللسان ، مايجعلها أكثر منى تمرداً على نظام البيت الشديد الرصين الذى لايعرف استثناء ولاتراخيا والذى لايطيق التدليل ولايدخله فى نظامه : نظام لم يسمح قط ، لفتاة أوصبى أن يحمل اسما من أسماء الإعزاز ، والتحبب التى كانت ولاتزال شائعة فى كل البيوت ، تطلق على الصبيان كما تطلق على البنات ، وإذا كان الغرباء قد أطلقوا على أختى الوسطى اسم تدليل ، فقد فقد معناه ، وأصبح هو الاسم الأصلى ، لأن هذا الخروج على الأصل الثابت والمستقر لاينتج أثره إلا فى جو يعرف أسلوب التلطف ، ومن هنا كانت أختى الصغرى لاتكاد ترى فى البيت مالايعجبها ، حتى تحمل ثيابها ، وتلجأ إلى بيت جدتها ، وكان لايبعد عن بيتنا إلا بأمتار ، ولم تكن هناك هذه السلطة المستقرة الثابتة التى تأمر وتنهى ، وتعلم وتلقن ، وتوبخ وتندد ، وتلزم الكبار قبل الصغار ، لابقانون الأخلاق ، بل بمقتضيات الذوق ، فمن يقرض أظفاره مجرم يناله أشد التقريع ، ومن يعلو صوته أكثر ممايجب أويليق ، خارج على الدولة ، تتعقبه بكل عنف ، والجلسة لها وضع مرسوم ، والضحكة لها شكل معلوم ، والوقفة لها قياس موزون وهكذا وهكذا . ولقد كان لهذه التقاليد آثار فى كل منا ، فأختى الكبرى ، واءمت بين نفسها وبين كل القيود ، باللطف والمداراة والاحتمال وضبط النفس ، فخرجت « دبلوماسية » وأعانها ذلك أن قواها كلها داخلية ، لايبدو عليها شىء منها ، فإذا صاحبت السيدات اللواتى يبدو أنهن من المجتمع متمرسات لبقات محنكات ، يلعبن بالبيضة والحجر ، ويتبدين بزينتهن ومواهبهن بمايبهر صاحبتهن ، دون أن تحس بنقص ثم سبقتهن إلى المكانة ، فحرصن على مودتها ، وعلى محاكاتها ، والأخذ بنصيحتها ، وواجهت أختى الوسطى أهوال هذا النظام ، بفرط

من الحساسية . جعلها فنانة ، تحس مايحس به الناس ضعفين . فما كان يضايق غيرها ، يدميها تماما .

وأما أختى الصغرى ، فقد قوى عنصر التمرد والثورة عندها ، فهى لاتطيق نقدا ، ولاتحتمل توجيها ، ولاتصبر على توبيخ ، صوتها عال ولفظها قارص ، وكل مافيها صريح وواضح ومعلن . فإذا آوت إلى بيت جدتها وجدت تسامحا ورفقا ، بل وجدت نفسها هى سيدة الدار تأمر وتنهى ، وتطلب وترفض ، وجدتها تفنى فى إجابة رغائبها بل نزواتها ، وخالها ، يجد فيها مايرفه ويسبغ على جو البيت الهادئ ، الرتيب حركة ولطفا ، فإذا حدث أن نسى أحد أهل بيت الجدة نفسه فعاتبها ، جمعت أختى حاجاتها وملابسها ، وعادت إلينا دون أن تحس خجلا ، أوتشعر بأنها فى حاجة إلى تفسير أوبيان . وربما ترددت بين البيتين فى اليوم الواحد ، مرات ولايستطيع بيت الجدة أن يقلل من ترحيبه بها ، وفرحه بعودتها ، أمابيت الأبوين ، فيتقى إثارة غضبها ، لاخوفا منها بل إشفاقا على أهل البيت الآخر .

ولم يكن ثمة ضحية لهذا الطبع الحاد ، واللسان القوى ، المعبر ، إلاأنا . وقد قلت أول الأمر : إنها اتخذت منى تلميذا ، ثم أعانها خيالها ، فأقامت مدرسة ، واستطاعت بهذا الخيال أن تضيف إلى شخصى الضعيف عددا من زملائى كانت تأمرهم أن يجلسوا إلى جوارى فيجلسوا ، وأن يسمعوا الدرس فيطيعوا ، وأن يلتزموا الأدب ، فيذعنوا ، فإذا خرج واحد من هؤلاء التلاميذ الذين يخلقهم خيال أختى الخصب ، فالويل لى أنا ، إذ لا يوجد من يتلقى العقاب والعذاب سواى ، وإذا رفضت قبوله صاغراً راضياً ، فقرار عسكرى معد ، بحل المدرسة ، وإعادة تلاميذها إلى بيوتهم ، وبقطيعة منكرة تقوم بينى وبين صاحبة المدرسة ومديرتها ومدرستها . وعربون العودة إلى المدرسة نصيب من العذاب أكبر .

والعجيب أنني رضيت بهذه المحنة مع أنه كان لى فى الشوارع المحيطة بالمنزل متع وبديل ، والأحواش التى كانت تجاور بيتنا والتى كانت مراتع وميادين للاعبى الكرة العالميين والمحليين ، والذين زاملتهم ، وكدت أكون واحدا منهم ، لولا أننى لم أثابر مثابرتهم ، فقد كانت هذه الشوارع والحلقات ، أمامى تدعونى ، وأنا أقبل دعوتها ، وأعود إلى البيت وقد احتقن وجهى وتصبب عرقى ، وانقطعت أنفاسى ، ولاأزال أكابر حتى أصاب باحتقان اللوزتين ، يلقى بى فى فراش المرض أياما طويلة ، والحمى تسلمنى فى أغلب الأحوال إلى مايشبه الغيبوبة والهذيان .

فما الذى جعلنى أقبل استبداد أختى ، وعنف نظارتها ، وبطش أستاذيتها ؟ أكانت أحاديثها تستهوينى ، أم كان تعلقى بها ، تطبيقا لقانون نفسى اهتدى إليه علم أهلنا الفطرى ، حينما قالوا : « القط مايحبش إلا خناقه » : أى القط لايحب إلا من يخنقه ، لأن الخنق نوع من العناق أولأن الخنق صورة أقصى من صور الاهتمام ، وأن الاهتمام مهما بلغ سوء التعبير عنه فإنه أفضل عند المحبين من عدم المبالاة والإهمال ، ولوطاوعنا أنفسنا وصدقنا علماء النفس المحدثين لقلنا إن الحب والكره ، مصدرهما واحد وأن الخلاف بينهما اختلاف فى الاتجاه لا اختلاف فى الطبيعة ، ويقول عوامنا « مامحبة إلابعد عداوة » ، باعتبار أن العداوة محبة فاشلة فالإنسان الذى يود أن يظفر بحب إنسان ، ثم لايوفق ، تتحول مشاعره إلى كراهية ، من قبيل ماقاله الذئب الذى حاول أن يطول العنب ، فلما لم يصل إليه قال عنه « حصرم ! » .

وأيا كان نصيب هذه الفلسفة ، من الصحة والصدق ، فأنا وأختى الصغرى كنا نعيش كائنين محكوما عليهما بالأشغال الشاقة ، ربطا فى قيد واحد ، نتشاجر ونتصالح ، ونتبادل ألطف الكلمات . وأقساها ، ولاينفصل أحدنا عن الآخر .

ولاأنسى يوما ، كنت أنا وهى على درجات سلم منزلنا الرخامى الذى كانت تملكه « بريمادونه » ذلك الزمان مليان ديان ، فقد أسندت أختى ساقها إلى طرف قدمها ، فراح ساقها يهتز هزة عنيفة وسريعة ، وتظاهرت هى بأنها أصيبت بشلل مفاجئ ، وكانت تكبرنى وكنت فى السادسة أودونها وصدقت ماقالته ، وانفجرت باكيا ورحت أقبلها ، وأرجو أن تعود إلى الشفاء ، وهو طلب غريب لأنه يدل على اعتقادى بأن المرض كان بناء على رغبتها ، فمن الممكن أن تعود إلى الشفاء ، وتظاهرت بأنه لاأمل ولارجاء . وأنا لاأدرى ماذا أفعل وقد أبت حكمتى يوم ذاك أن أعلن لأهل البيت المصاب الذى حل بأختى ، لا إشفاقا منى عليهم ، بل خوفا من العقاب ، فأنا أعلم أن أمى كانت سترى فيما أصاب أختى عدوانا منى عليها ، ولم تكن محكمة « أمى » لتسمع بمرافعة ولادفاع ، وبعد أن شبعت أختى من تعذيبى خلال المدة التى قررتها أعلنت أنها شفيت ، وأنى إذا ضايقتها مرة أخرى فإن هذا الشلل سيعاودها وإن عاودها فلاشفاء ، وأنها ستبقى إلى الأبد كأم « نجية » ، وأم نجية هذه كانت سيدة مسنة تمت إلينا بقرابة ، وكانت تسير وهى تختلج ، أى وهى تهتز ، وقد جعلها هذا الشلل الخفيف ، أقرب ماتكون إلى البلاهة ، فنمت طوال الليل ، أحلم بأختى ، وبأم نجية فلما كان صباح اليوم التالى أفضيت إلى أمى بمخاوفى ، ورجوتها أن تدعو الله ألاتصاب أختى بالشلل ، وسألت وهى لاتكاد تضبط غضبها ، عن سبب هذه المخاوف ، فأفضيت إليها بالسبب ، فكانت النتيجة غريبة غاية الغرابة ، فإن أمى ضربت أختى ضرباً شديداً ، على خديها ويديها ، وحذرتها العودة إلى هذا التظاهر السخيف ، وقبلت أختى العقاب ، لأول مرة فى رضا ، ولم تعلن احتجاجها ، كالمعتاد ولم تلجأ إلى ملجئها السياسى المألوف ، ولم أجرؤ على سؤالها عن هذه الاستجابة غير المتوقعة ، ولكنى حينما كبرت قالت لى : إن

من اللحظات التى لاتنساها والتى تعذبت فيها أكثر مماتعذبت أنا لحظة تظاهرها بالشلل ، لأن ماكان يبدو على وجهى يومها ، كان يدل على شدة خوفى وألمى ، مما دعاها إلى إنهاء هذا الموقف وعدم تطويره ، فقد كان فى نيتها أن تضيف إليه ألوانا من هذا الشلل يجعلها تتمايل وتهتز وتقع على الأرض . .

ولقد قارنت ماحدث منى من ضبط النفس ، وأنا أرى هذه الأخت العزيزة تعانى شللا مفاجئا ، وبمافعلته هى يوم أن أصبت بالدفتريا ، وكانت يومها مرضا لايسمع الناس فى مصر عنه ، إذ كانوا يسمونه بأسماء أخرى كالخناق مثلا ، ولم تكن الأمصال المضادة له قد ذاعت ، إذ ماكادت أختى تسمع من الطبيب أن حلقى سد حتى أسرعت إلى بيت جدتى ووقفت فى ساحته وصاحت : أخى قد سد حلقه . فأثار هذا الصياح فزعا فى البيت ، أدع لك أنت تصوره ، وأنا الولد الوحيد فى بيوت الأسرة كلها .

ولكن كم أفدت من هذه الأخت ، فلقد تلقيت على يدها كما قلت من قبل أول دروس البيان ، فقد قصت على من القصص الدينى والأدبى والتاريخى ، ماعلمنى أول الأمر فضيلة الاستماع ، ثم ماعلمنى فضيلة تذوق القص والحكاية ، وأسمعتنى قصة ماجدولين وأبكتنى عليها ، وأسمعتنى قصة الحسين سيد الشهداء وأبكتنى عليه ، وقصة « ابنة مونتزوما » لشارلس جارفس ثم أصبحت أكبر نقادى ، وأقساهم ماقرأت لى شيئا إلا أظهرت من الضيق لغموض ماكنت أكتبه فى محاولاتى الأولى وكانت تعقد المقارنات بين خطاباتى وخطابات أصدقائى حينما كبرنا ووصلنا إلى مرحلة التعليم الثانوى ثم وصلنا الجامعة وتراسلنا ولكم كانت تحب خطابات صديقى وزميلى « كمال » وكان فى المنصورة ، وكنت فى بنى سويف ، وكان يصف مايراه فى المنصورة من مظاهر الحياة اليومية وصفا سهلا ولطيفا ، حتى كانت تنتظر

خطاباته وتفضلها قبل عودتى إلى البيت ، وتقرؤها . أما خطابات « أحمد » التى كان يكتبها من القاهرة عن المسارح والمحاضرات والندوات ، فكانت عندها أشهى وأمتع من القصص ، فلما سافر إلى فرنسا وأرسل إلى خطابات فى شكل مذكرات يومية قرأتها مراراً .

ثم تزوجت شابا يمت إليها بصلة قربى قريبة عن طريق أمها ، وذهبت معه إلى الريف ، فكأنما خلقت لهذا الريف ، فأحبته وأحبها الناس فيه من فلاحات يعملن فى البيت ، ومن رجال يعملون فى الحديقة ، وحظائر الحيوان وفى إدارة العزبة ، ولم تحاول أن تحدد عدد أولادها ، فكأنها قروية تحب الأولاد ، كما تحب الدجاج والعجول . والبط والوز ، وما سألتها يوما عن أولادها إلا كان ردها الدائم « حلوين » ، وتحس من هذه الكلمة الصغيرة البسيطة ، الإعزاز والتعلق ، والرضا . وقد ولدت بعض أولادها فى الريف ، كما تلد الفلاحة دون أن يعينها طبيب ، ولم أرها يوما منزعجة لطفل مرض . فقد انتقلت إليها بطريق العدوى . طمانينة وسكينة القرويات ، اللواتى دخلن فى حياتها وسقط عندها الحاجز القائم بين المدينة والقرية . بطريقة لاوعى فيها ، فهى لم تقصد أن تكون رائدة اتجاه اجتماعى ، غايته أن يرفع مستوى بنات القرية روحيا وأن يدخل فى قلوبهن ونفوسهن إحساسا بالثقة ، ولكن كان السر فى شخصيتها التى تكره كل تعالٍ على الضعفاء والفقراء ، إذ لم يخالطها قط شعور بأنها أغنى من سواها ، ولابفقر الفقراء حولها وإن كانت نفسها تذهب حسرات على مايعانونه من حاجة وحرمان ، ولم أجد ظرفا ظهر فيه اتحادها مع الفلاحات واندماجها معهن ، إلايوم شيعت القرية جثمانها ، مع أنها ماتت فى القاهرة ولكن زوجها أبى إلا أن تخرج جنازتها من عزبة له اسمها كفر عياد كريم ، ليتاح لجميع أهل العزبة من النساء والرجال أن يحيوها التحية الأخيرة ، وكانت تحية

بسيطة وصادقة ومؤثرة ، فقد خلت من هذا الصراخ الذى يشبه نعيق البوم وصياح الغربان ، وسار الجميع فى صمت وإطراق ووجوم ، أما صديقاتها وزميلاتها من نساء القرية ، فقد وقفن إلى أحسن وأجمل مايودع به مسافرة فقد تعالى صوتهن بين الحين والحين : مع السلامة ياأختى مع السلامة ياحبيبتى .

ولكم أحسست بأن الحزن الذى ملأ قلبى قد تبدد ، وأن الذاهبة عنا ، الماضية إلى طريقها الذى لايعرف أحد عنه شيئا ، هى فى رحلة وأنها فى حاجة إلى الدعاء لها بالسلامة ككل مسافر . .

ولكن قد كان لها قبل أن تموت دورها فى العمل وكانت العزبة التى تقيم فيها هى وسيلتها فى هذه الخدمة العامة ، فقبل أن تنتقل إلى الشرقية كانت مع زوجها فى عزبة فى القليوبية ولقد أوت هذه العزبة بعض الوطنيين فى خلال الحرب العالمية الثانية وظلام الأحكام العرفية العسكرية ، يسود البلاد ، والوطنيون ، مطاردون تتعقبهم السلطة فى هذه الأيام العصيبة لم تتردد أختى ولا زوجها . أن تأوى هؤلاء بهدوء وبدون أدنى شعور بأنهما يأتيان عملا عظيما . لجأ إليهما أحمد حسين ولجأت أنا إليهما ، ولجأ آخرون فلم يجد أحد من هؤلاء جميعاً شيئاً أقل من الفرح بقدومهم ، والسرور بإقالتهم ، والرغبة فى أن يطيلوا زيارتهم وإن كانت زيارة مفروضة .

وأصبح لأختى الصغيرة ، شاغل يلح عليها ، ولايدعها تستريح ليلا أونهارا ، ذلك هو الانشغال بشئون بلدها ، وقد أعانها على هذا الانشغال تزاحم الأحداث ، منذ تدهورت سمعة الملك ، واشتدت الحملة عليه ، ثم على الإنجليز ، وعلى المعاهدة ، حتى ألغيت ، وبدأ نشاط الفدائيين المصريين ، يظهر جديا ، وكانت عزبة زوجها فى الشرقية ، قريبة غاية القرب من خط النار الأول إذ كانت على بعد

كيلو مترات قليلة من أبوحماد وكانت المطارات البريطانية فى «أبوصوير» غير بعيدة عنهم ، ولذلك أحسست بأنها هى التى تقف فى خط الدفاع الأول عن وطنها ، فراحت تتعقب كل مايكتب فى الصحف والمجلات ، ومايذاع فى المحطات المصرية والعربية والأجنبية للإذاعة وهى وسط هذه المتابعة المحمومة التى لاتنتهى لاتكف عن قراءة الكتب على اختلاف أنواعها ، فمن الأدب إلى التاريخ ، إلى الدين ، إلى السياسة ، ولم أر قارئة فى مثل سرعة التهامها لما تقرأ ، وحسن إحاطتها بما تطالع .

وكان الكتاب الذى تقرؤه وقودا يلقى إلى النار فيزيدها ضراما ، واشتعالا ، فماتنتهى من كتاب إلالتبحث عن غيره ، ولم يعقها عن هذا الاطلاع الواسع المتجدد المتنوع أنها أم لستة أطفال ، وأن ظروف الحياة فى القرية تزيد من أعبائها ، ففى القرية حظيرة للدواجن ، وأبقار تحلب ، وزبد تصنع وعيش يعجن ويخبز ، وأنواع من المخللات تعد وتحفظ ، وتعبأ فى صفائح وزجاجات وإن كان حولها من الأعوان الكثير من الرجال والنساء ، وقد كان بعض هذا ، يكفى أن يكون عذرا عند غيرها ، لكيلا تقرأ شيئا ، ولكنها لم تشك قط من أعباء البيت ، ولامشاغل الأولاد ، التى تحول بينها وبين القراءة ، فالقراءة عندها أشبه شيء بالأنفاس تتردد فى صدرها ، لاتعتبرها واجبا يؤدى ، ولاشغلا يشكى منه .

وكانت تبحث عمن تناقشهم فى شئون بلدها ، فى الداخل والخارج ، فإذا وجدت عنها انصرافا ، ضاقت بهذا الانصراف ، وعدته نقصا فى الوطنية ، وتخلفا عن أداء الواجب ، وكم من مرة جاءت لزيارتى ولاهدف لها إلا أن تسمع وتعارض ، وتقترح وتستفسر وتعلق ، فإن وجدت منى تكاسلا فى الحديث ، أوفتورا فى الاستماع خرجت وقد اعتل مزاجها ، وأحست بسوء ضيافتها ، وانصرفت شاكية محتجة !

وقد امتحنت فى وطنيتها امتحاناً شديداً ، فقد أربك الإصلاح الزراعى ، أمور زوجها المالية ، وضاقت موارده ، وزادت أعباؤه ، فى وقت كان أولادها قد كبروا ، وكثرت مطالبهم ، وكانت كبرى بناتها تطلب العلم فى أمريكا ، وأكثر أولادها ، فى الجامعات ، فلم يزعزع كل ذلك إيمانها بالإصلاح الزراعى ، ولافرحها به ، ولا إصرارها على أن الفلاح يحتاج إلى مزيد من المنح والبذل ، وأن الريف يفيض ببواعث الشكوى ، لكثرة ماعشش فيه الظلم ، وملأ أرجاءه الطغيان ، وكان كل من حولها يهاجم الثورة وينتقد عبد الناصر ويضرب الأمثال لها على أن الثورة عقيمة ، وأن مابدا خيرا وبركة ، انقلب شرا ونقمة ، فكانت لاترى فى كل مايقال لها الاحرصا على الماضى ، وكرها للتغيير ، واستعجالا للأمور ؛ فإذا أصاب مصر شر أوسمعت من يتهجم عليها أو يسىء إليها من أبنائها الفارين منها ، أومن أعدائها المتربصين بها احتدم غضبها ، واحتقن وجهها ، واستمطرت اللعنات على هؤلاء وأولئك . وعجبت لرجال فى مصر يرون كل هذا ، ولايفعلون شيئا فى رد عادية الجميع .

وفى وسط هذا الانفعال الوطنى ، المتأجج ، تبدأ مأساتها التى ختمت حياتها ، فقد كنا فى حفلة بمسرح الأزبكية ، أقامتها مدرسة الخليفة المأمون التى كانت تضم بعض أولادها ، وواحدا من أولادى ، وكنت خطيب هذه الحفلة ، فلما فرغت منها ، سألت عن أختى فقيل لى إنها ذهبت مع زوجتى إلى الدكتور عباس حلمى أستاذ الجراحة بجامعة عين شمس لأنها تشكو منذ فترة ألما فى صدرها ، وفى المساء علمت أن الجراح أمر بوجوب تحليل جزء من الورم الذى وجد فى مكان من صدرها وتوالت الأنباء ، كما يحدث دائماً عندما تصل الرواية إلى أعلى أزمتها ، فقد ظهر أن عملية جراحية لاستئصال الصدر يجب أن تعمل ، وأجريت العملية ،

ولا أنسى أنني يوم أن أجريت خرجت من مكتبي ومعي الدكتور لويس فانوس وهو أحد أعضاء مجلس الشيوخ قبل الثورة ، ولم أنجح فى أن أصرفه عن مرافقتى بقولى له إنى ذاهب إلى أختى لأعودها بعد العملية ، فركب السيارة معى ، وهو يؤكد أن العملية ناجحة وأن الأورام السرطانية ليست مخيفة كما نتصور جهلا ، وأن آخر الإحصاءات تدل على كذا وأن الجراح البريطانى المشهور الذى اسمه كيت ، كتب فى بحث له منشور فى مجلة لانسيت الطبية أشياء . . !

وذهبت إلى حجرة أختى . وقد أفاقت من المخدر فوجدتها بين اليقظة والنوم : يعلو وجهها الأبيض ، هدوء واستسلام للواقع ، ولم أسألها عن الصحة فقد تبادلنا النظرات ولست أدرى ماالذى جعلنى أحس أنها بداية النهاية . فأختى لاتعرف هذا الصمت ، ولاهذه التعليقات البسيطة ، ونسيت أنها لاتزال تحت تأثير المخدر . . وتركت المستشفى ، وعادت إلى بيتها وحياتها ، بنفس الحيوية والإقبال على الحياة ، والثقة فى المستقبل ، ولكن كان يخالط هذا شيء من الحزن العميق ، الذى لاتسمح له أختى بالظهور ، وأحبها أطباؤها حبا جعلها صديقة لامريضة ، أحبها دكتور عباس حلمى ، فكان يفرح كلما جاءته تزوره فى العيادة مع شقيقتها أومع زوجتى .

وكان يوصى بها زملاءه الدكاترة « حسين عرفان ومحمود محفوظ » اللذين تناوبا علاجها بالأشعة حتى سبقها هو إلى الموت وبنفس المرض ، وكان الجميع يناقشونها ويسمعون كلامها ، ويعابثونها ثم عاودتها العلة ، فكان لابد لها أن تسافر إلى لندن ، وسافرت إلى لندن ، وأجرى لها الدكتور زيفن أكبر أطباء جراحة السرطان عملية ، ولكن المهم أن الرجل فتن بها ، إلى حد أنه كان يرسل وهو فى طريقه من إنجلترا إلى الشرق ، أو من الشرق إلى بلاده ، إلى الجراحين فى مصر ليعدوا له مكاناً فى المطار يرى فيه أختى ويكشف على الجرح ، ويتحدث إليها ويضحك معها ، ويطمئنها ،

وفى آخر مرة خرج من المكان الذى كانت قد تمددت فيه ، ليرى تطور المرض فيه ، ووقف على عتبة الحجرة فى المطار ساهماً واجماً . . فقد كانت النهاية ! .

وبقيت أختى ، بعد أن اشتدت وطأة هذا المرض القاسى الذى لايرحم ، وتحملت آلامها التى لاينفع فى تهدئتها مخدر ولامنوم ، تذكر كيف اعتنى بها الأطباء والممرضات والحكيمات فى مستشفى لندن ، وقالت وهى تضحك : لقد كانوا يزينوننى كل يوم ، ويضعون فى شعرى الأشرطة الحريرية ، يغدقون على وجهى وجسمى العطور ، ويزينون حجرتى بالأزهار ويغنون لى ، فياله من وداع جميل ويبكى كل الذين حولها وهم يسمعون كل هذا الكلام ، وهى هادئة صابرة لاتطرف ، ولاتدمع ، وكانت ابنتى قد تحدد موعد لحفلة عقد قرانها ، وكانت أختى تحس أن أجلها قد دنا ، فلم أرها شاعرة بالذنب ، وخجلة من نفسها مثل شعورها وخجلها تلك الأيام ، لأنها كانت تدرك أن وفاتها ستؤجل الحفلة التى تهيأ الجميع لها فكانت تقول همسا : يارب . . لكم دعوتك لأن تدعونى إلى جوارك . . والآن أنا أدعوك ، أن تمهلنى أياما ، أياما قليلة فقط يارب ! !

لك الله أيتها الأخت التى لم أعرف فى النساء ولافى الرجال أحدا فى مثل فنائها فى المثل الأعلى . .

وقد كانت تواجهها فى مقعدها صورة ، لأبيها ، صورت له يوم انتهى عمله الرسمى ، وقد أحاط به زملاؤه ، وكانوا جميعا قد ماتوا بعد أخذ هذه الصورة بأعوام ، فكانت تنظر إلى الصورة وتقول : كل هؤلاء ماتوا . . ويأبى الله لحكمة إلا أن أبقى . . متلكئة متشبثة بالحياة ، كضرس يرفض أن يخلع من مكانه ! !

ولكنى لاأستطيع أن أسترسل فى تصويرها ورسم شخصيتها ، بأكثر ممافعلت ، فإن ذلك عناء لى لاأقوى عليه ، ولكنى أذكر شيئين عنها : أولها ، يوما كنت أسير

فيه فى الطريق ، معها ، ناحية قسم مصر الجديدة ، حيث كان الفريق عزيز المصرى معتقلا ، وكان يتمشى فى سطح دار مأمور القسم الذى يعلو مبنى القسم نفسه ، فبادلته التحية بالأيدى ومضيت فى طريقى ، وفى اليوم التالى ، كنت عنده أزوره ، فما كدت أصل إلى عتبة الشقة التى كان معتقلا فيها حتى قال : من هذه التى كانت معك ؟ . . قلت له : ولماذا ؟ قال : أمصرية هذه ؟ قلت نعم ، قال : أحقا هى مصرية ؟ إن قامتها المرفوعة ، ومشيتها الطليقة ، وقوامها الذى لاتجد مثله بين المصريات كثيرا ، كل ذلك أعجبنى ، فقلت له : هذه أختى ، قال : هذا إذن أثر الدم الشركسى فيها ؟ . وكان رحمه الله شديد التعصب لشركسيته . .

أما الأمر الآخر فإن أختى ذهبت إلى الحج ، وكنت آن ذاك أحد الوزراء ، فاجتمعت مع والدة السيد أنور السادات التى كانت تحج أيضا وحسنت رفقتهما وأطالتا الجلوس معا ، فى الحرم المكى وتواعدتا على أن تحرصا على صلتهما عند العودة . . ثم أبت أختى عندما عادت أن تبذل جهدا فى أن تتصل بالسيدة والدة الرئيس ، فسألتها يوما : ماسر هذا المسلك ؟ فقالت : لقد كانت معرفة حج فندعها صحبة لله ، لاشىء فيها من الدنيا ، ولاشىء فيها للدنيا . . ! »

هذه أنت ياأختاه ، هذا مظهرك ، وهذا مخبرك ، وأنت بين المظهر والمخبر ، شىء بين ملائكية البشر ، وسماوية أهل الأرض . . !

بيت العباقرة

إن عجبى من غرائب الذاكرة وحيلها مع صاحبها الإنسان ، فى الإخفاء والإظهار ، والإيهام والخداع ، لا تنتهى . وإذا كان بعض الذين يتحدثون عن أصول الألفاظ ، يزعم أن الإنسان سمى كذلك ، لكثرة نسيانه ، فإن فضيلة نسيانه – ولا أقول آفة نسيانه ، – أسدت إلى هذا المخلوق المسكين أيادى لا حصر لها ، منها أن نسيانه حفزه إلى الكتابة والتسجيل ، ورغبة التسجيل حفزته إلى إقامة الصروح الضخمة والهياكل الرائعة ، وإخراج الصور البارعة ، والقصائد الرصينة والرقيقة . فكل هذه وسائل الإنسان ليحاصر الحاضر ، ويمنعه من الإفلات منه والضياع . .

ولو كنت أقيد مذكراتى وأنا صبى غافل لكتبت فى يوم ما فى سنة ١٩٢١ : أننى لقيت صبياً فذا ، فتعلقت به وأن بداية تعرفى عليه ، وتعرفه على ، واتصال الواحد

منا بالآخر – أنه قال لى ، كذا ، أو قلت له كيت . . وأن هذا التعرف كان فى مكان ما من مدرسة محمد على ؛ ذلك لأن هذا اليوم وما جرى فيه يوم تاريخى بحق . . تاريخى فى حياة كلينا ، أو حياتى أنا على الأقل ؛ فلقد امتدت صداقتنا منذ ذلك اليوم القديم المجهول حتى تجاوزت نصف القرن . وإن كان قد انقضى علينا أخيراً سنوات لا نتقابل . ونأى الواحد منا عن الآخر فى فترات الاتصال اليومى . ولكنى لم أكتب مذكرات وأنا صبى ، مثلى فى ذلك مثل كل صبى آخر ، لذلك فقد حاولت أن أتذكر حينما شعرت بأن كتابة هذا الفصل من ذكريات الصبا قد قاربت الحلول – حاولت أن أتذكر كيف تلاقينا أحمد وأنا ، وما الذى جذب الواحد منا إلى صاحبه وقد كنا فى فصل لا يقل عدد تلاميذه عن الثلاثين ، وكيف كان اللقاء الأول ؟ وما الحديث الذى دار بيننا فيه ؟ وما الذى وثق العلاقة بيننا ، وجعلها فى المتانة والقوة التى صمدت معها لأحداث أجيال شهدت من الوقائع والأحداث والتغيرات والانقلابات ما لم تشهده حقبة أخرى فى تاريخ مصر الحديث ؟ . فلم أوفق إلى شىء من هذا كله ، والحق أننى لا أزال أحرص وأشوق ما أكون إلى معرفة هذا الجانب من حياتى ؛ لأنه يفسر لى ، أمراً منها غامضاً أشد الغموض :

ذلك أن ظاهر الأمور كان يؤدى إلى استحالة قيام صداقة ، بينى وبين أحمد ، لا فى قوة الصداقة التى ربطت بيننا بالفعل ، ولا أضعف منها ، فقد كان الواحد منا على النقيض من الآخر . كان أحمد ، صبياً صحيح البدن ، يكاد يطفر الدم من وجنتيه ، ويشع نور قوى من عينيه ، ويمتلئ ثقة بنفسه ، يتكلم بصوت واضح عال ، وربما آمر ، لا يخشى الناس ولا يتحاماهم ، ويقف من الرجال موقف الند ، ويحسن الأخذ والعطاء معهم ، وعند الاقتضاء يشتد عليهم فى القول ، فيعلو

صوته على أصواتهم ، ويرد إليهم كل كلمة قاسية بمثلها أو أقسى منها ، في حين كنت صبيا عليلاً ، لا أشقى من مرض إلا لأصاب بعلة أشد منه ، ناحلاً ، خجولاً أتحاشى الناس ، ولا أحسن التعامل معهم ، ولا أقوى على الصمود لمخاشنتهم ، ولا احتمال غلظتهم أو فظاظتهم ، فأنأى عنهم ، نأياً يبدو تعالياً وكبرياء ، وهو يعيش في الواقع ، ولا يفلت منه ، شديد التحكم في خياله ، يحفظ دروسه أولاً فأولاً ، ويعرف ما يريد ، وكان يريد أن يكون على رأس فرقته ، ويحتفل بهذا العرض ، ويبذل في سبيله جهداً .

أما أنا فقد كان يطيب لي الاسترسال مع الخيال ، حتى أكاد أنسى الواقع الذى أعيش فيه ، لا أكره أن أكون من المتفوقين ، ولكني لا أبذل في سبيل هذا جهداً ، ولا أحرم نفسي من أجله متعةً من متع الصبيان . ولست أنسى إلى اليوم أنه فرض علينا حفظ عدد من قصار السور ، ونحن في السنة الثانية الابتدائية ، وكان كل واحد منا ، يتمنى ألا يصل إليه دور الامتحان أو ما نسميه « التسميع » إلا أحمد ؛ فقد كان يعرض على الشيخ محمد رزق أن يمتحنه في هذا المقرر دفعة واحدة ، يتلو سورة وراء سورة سعيداً بهذه القدرة على الحفظ والأداء . وقد كانت لي صلة بمدرس اللغة العربية والدين ، وحدث أن زرته في مساء اليوم الذى كان أحمد قد نجح فيه في إقناع مدرسه بأن يستمع إليه ، فقال الشيخ : « هو شاطر » ومضت السنون حتى رأيت أحمد يسحب وراءه مدرس اللغة الفرنسية في السنة الأولى من كلية الحقوق . وكنا نتلقى العلم فيها بكلية الآداب ، إلى حجرة المدرس الأجنبي ليسمعه النصوص الأدبية الفرنسية المقررة علينا ، وأكثر الطلاب يفرون من موقف كهذا . . !

وليس هذا سوى مثل على نضج هذا الصبي الغريب ، وقد كانت تصرفاته

معى ، ونحن صبيان ، تسير كلها على منوال واحد ينضح بهذا النضج ، ويدل عليه. خاصمته يوماً ، فإذا به يحضر والدته - رحمها الله - ويأتى معها لزيارتنا ، متوسلاً بوالدته إلى والدتى لتصلح ذات بيننا ، وقد كنت أرى فى هذا المسلك دليلاً على تعلقه بى ، وحرصه على استبقاء صداقتنا ، ولكن حينما تقدمت بى السن ، عرفت أن هذا الموقف إرهاص بنضج أحمد المبكر.

ثم تخاصمنا مرة ثانية ، فأرسل إلى خطاباً قصيراً ، يقول لى فيه : «إنك لا تهدى من أحببت» وقد هزنى يوم ذاك أن يكون فى مقدور صاحبى الاستشهاد بمثل هذا الكلام الكبير ، الذى لا يتناسب هو وسن وتجربة كل منا . وقد كان ذلك ونحن فى السنة الثالثة الابتدائية ، ولكن الدهشة جديرة بأن تتضاءل حتى تزول ، إذا علمنا أن هذه السنة هى نفس السنة التى شهدت أغرب مجازفة وقعت فى تاريخ التعليم الابتدائى فى تلك الحقبة من الزمن . صحيح أننا كنا فى سنى الحمل الثورى .

ولكن مهما تكن تلك الفترة موحية للشبان بالمجازفة ، وتحدى السلطة التى نزعت الثورة الخوف منها من القلوب ، فقد كانت السياسة وقفاً على الرجال والشيوخ والشبان ، فلم يتسع نطاقها للصبيان ، ولكن أحمد وأنا ، طلعنا على الناس أى على تلاميذ مدرسة محمد على ومدرسيها وناظرها وإدارييها بعمل غير مسبوق ، ومن ثم فقد كان مثيراً حقا للدهشة ، وكان ما طلعنا به يوم ذاك منشوراً مطبوعاً نوزعه على زملائنا . فيتخاطفونه ، لا حرصاً على قراءة ما فيه ، فقد كانوا أصغر من أن يدركوا معنى المنشور ، ولكن ألف الناس أن يمدوا أيديهم إلى كل من يوزع شيئاً ، حتى لو كان إعلاناً لمسرح أو ملهى فإنه يعز عليهم أن يوزع شىء على الجماهير ، ولا يحصلون على نصيب منه .

أخذ تلاميذ مدرسة محمد على الابتدائية فى حى السيدة زينب يتخاطفون هذا

المنشور التاريخى ، وقد حمل على رأسه اسم جمعية ، وكان اسم هذه الجمعية على بساطته فريداً بين أسماء الجمعيات المعروفة والمتداولة فى تلك الأيام ؛ فقد كان «نصر الدين الإسلامى» قارن اسمها هذا الثورى ، بأسماء الجمعيات الإسلامية الكبرى مثل : الخيرية الإسلامية ، والعروة الوثقى ، والمواساة والمساعى المشكورة . أسماء هادئة ، لا تتحدث عن نصر ولا تأييد ، فهى أسماء اختارها شيوخ شابت رءوسهم ، وشاخت نفوسهم فى العمل العام ، أما هذا الاسم فهو أليق ما يكون بصبيين لم يضعا أقدامهما بعد على العتبة الأولى من الطريق نحو المجاهدة والنضال والتصادم مع السلطة . ومازلت أذكر هذا المنشور الذى شغل صفحة من «الفولسكاب» فى مطبعة حسنة الحروف ، ولا بد أن يكون قد خلا من الأخطاء المطبعية إذ لا بد أن يكون قد كتبه أحمد أو على الأقل بيضه بخطه الذى لا يقل كثيراً عن خطى سوءاً وإن كان يبزه ويتفوق عليه فى الوضوح .

ماذا دار فى نفس هذين الصبيين . فاحتقنت به رءوسهما والتهبت حتى رغبا فى التخلص منه ، بالإفضاء به بهذه الطريقة غير المطروقة ؟ من الذى قادهما إلى المطبعة ، ومن علمهما التحدث إلى الناس بهذه الطريقة ؟ أين رأيا منشوراً يوزع ؟ وإذا كانا قد قرآ منشوراً من منشورات الثوزة ، يوزع فى الخفاء أو فى العلن ، أفلم يدركا أن تلك منشورات السياسة وفى السياسة ، وأن أحداً لم يوزع منشور الدين ؟ ومن هما حتى يدعوا الإخوان والزملاء ، وهم بعد فى «بنطلوناتهم» القصيرة إلى الجهاد ؟ ومن الذى أوحى إليهما بخواطر وأفكار هذا المنشور ، ولم تكن الأحاديث التى يتداولها الناس وتتناولها الصحف ، مما يتصل بالدين : عشرات من الأسئلة ، كان يخفف من حدتها : لو أن نسخه من هذا المنشور ، استطاعت أن تنجو من الضياع ، وأن تبقى ذكرى لهذا العمل الصبيانى الصغير .

والطريف فى الأمر أننا وجدنا ثلاثة من الزملاء، يقبلون الانضمام إلينا، والاشتراك معنا فى هذا العمل المحفوف بالمخاطر، وأحسب أنه لم يخطر ببالهم أنهم مقدمون على شيء تغضب منه السلطة. ومازلت أذكر أسماء الزملاء الثلاثة مؤسسى أول جمعية توجه الدعوة للناس كافة من أجل العمل العام، سبقت جماعة الإخوان المسلمين المؤسسة فى سنة ١٩٢٧ ومصر الفتاة التى بدأت حياتها فى الربع الأخير من سنة ١٩٣٣. كان هؤلاء الزملاء: عباس حلمى حتحوت، وعبد الجليل الذى اتصل بى مرة أو مرتين بعد سنة ١٩٥٢ ووعدنى بالزيارة ولم تمكنه الظروف الوفاء بوعده وأغلب الظن أنه كان يعمل فى الريف كصاحب أرض زراعية أما الثالث فهو إما محمد حسن وإما حسن محمد، وقد اعتاد أحمد أن يسميه «هرقل» لأنه كان على نحف جسمه، وضآلة بدنه، كان ذا عزم عصبى، لا يهاب من يكبرونه فى السن، ويفوقونه فى بسطة الجسم.

ما الذى قلناه لهؤلاء الزملاء الثلاثة حتى ارتضوا أن يوقعوا على هذا المنشور الخطير؟ ولم يطل الأمر، فقد انتبهت، السلطة إلى هذه النبتة الثورية، بعد أن كتبت أنا منشوراً ثانياً، طبعناه كالأول، وإن كان دون الأول ثورية. فقد كان شرحاً تقليديا لأركان الإسلام الخمسة، وإن بقى حظه من الثورية غير قليل، لكونه مجرد منشور من ناحية، ولأنه صادر من صبيان فى مدرسة ابتدائية من ناحية ثانية.

وقع المنشور فى يد ضابط من ضباط المدرسة، فأسرع به إلى ناظرها المرحوم محمد توفيق البردعى واصطففنا أمامه، وتساءل ما الذى حدا بنا للإقدام على هذا العمل الغريب؟ أولم نتبين أننا تجاوزنا قدرنا إذ نصبنا أنفسنا هداة ومرشدين، وأن لكل إنسان مقاماً، وأن على كل إنسان أن يلزم حده، ويصطنع زيه، فمن كان رجلاً كبيراً، ولبس طربوشاً قصيراً، دعا الناس إلى الضحك عليه، والسخرية

منه . وأشار إلى طربوشه ، وكان بالصدفة المحض بين طرابيش الرجال ، طربوش قصير ، وقد تنبه أحمد إلى هذه الملاحظة وبقى يذكرها ويتندر بها ، فى حين كان أعضاء الجماعة فى خوف من المسئولية التى رأوا أنفسهم أمامها وجهاً لوجه . وقنعت السلطة بهذا التوجيه اللطيف ، وأخذت علينا تعهداً بألا نعاود هذا العبث الخطير . وقضى علينا أن نقنع بالخطوة الأولى ، وأن نحرم ما بعدها ، وكان ذلك نذيراً بما سنلقاه فيما بعد ؛ فمؤتمر الطلبة الشرقيين الذى دعوت إليه ، لم يتجاوز التحضير ، وإصدار الأعداد الخاصة من الجرائد والمجلات الكبرى ، وتأليف لجنته التحضيرية من أكبر أساتذة وزعماء العالم العربى ، ثم دهمته السلطة فقضت عليه . ومشروع القرش الذى دعا إليه أحمد ، والذى يبدو أسعد حظا على الأقل لأن الآلاف من تلاميذ المدارس الثانوية والعليا والمتوسطة قد اشتركوا فى جمع التبرعات له ، ولبسوا شارته ، ومشوا فى صفوفه لا سنة واحدة بل ثلاث سنوات ثم كان من ثماره ، مصنع لا يزال فى شارع برج الظفر ، ينتج ويتحدث إلى الناس ، عما يمكن أن تفعله إرادة ، ولو كانت إرادة طالب لم يتم تعليمه .

وإذا كانت هذه التجربة المثيرة ، «عينة» من حياة هذين الصبيين ، فإن حياتهما لم تكن كلها ، مجازفات ، تضطرب لها النفس ، وتأتزم لها الأعصاب ، وإن لم تخل من ذلك بين الحين والحين . فقد كانت صداقتهما مصدر السعادة ، ما أحسب أن صبيين نعما بمثلها ، فقد كانا قادرين على أن يتحدثا معاً الساعات تلو الساعات ، ويتناقشا ويختلفا ويختصما ، ثم يتصالحا من جديد ، دون أن تخف رغبتهما فى الحديث ، والمشاركة فى مداعبة مئات من الأفكار التى تعلو على سنهما ، وحسبك أن تعلم أن من بين ما مارساه من اللعب ، أن أقاما «برلماناً» فى حوش منزل أحمد بشارع مراسينة غير بعيد من ميدان السيدة . وقد حاولت أن أذكر أعضاء

البرلمان ومداولاته ، فلم أظفر إلا بمنظر مائدة فى الصدر ، ومقاعد قد تبلغ السبعة أو الثمانية قد يكون نصفها خالياً من الأعضاء ، ومع ذلك يواصل البرلمان عمله بهمة وإخلاص ربما تزيد عن همة وإخلاص أعضاء كثير من برلمانات ومجالس تشريعية شهدتها مصر بعد ذلك التاريخ

وما دمت قد ذكرت منزل شارع «مراسينه» ، فلا بد أن يسمح لى القارئ الكريم ، أن أقف أمامه وأن أحنى الرأس تحية له ولصاحبه الذى بناه أو اشتراه ، ولذكرياتى فيه ، أنا الذى لا أحس بالحنين إلى الأماكن التى صاحبتها أو عشت فيها ، فى طفولتى أو صباى ، أو شبابى ، فإن لدى القدرة على الفصل بين الذكريات ذاتها ، ووعائها الذى احتواها من الأمكنة والدور .

ولكن — بعد قليل من التأمل — وبمناسبة كتابة هذه الذكريات : أحسست بأن هذا المنزل ، صاحب دين فى عنقى ، وأن على أن أؤديه ، فقد كان أحد منزلين شهدا وقائع صبانا .

صاحب هذا البيت هو والد أحمد ، وقد كان — فى الوقت الذى بدأت صداقتنا فيه — موظفاً بوزارة المالية ، وما أحسب أحداً من زملائه بالإدارة التى كان يعمل بها فى وزارة المالية ، جرؤ على التفكير فى أن يقيم منزلاً بمدينة القاهرة قريباً من ميدان السيدة ، وعلى بضعة أمتار من قسم الشرطة ، ولكن والد أحمد ، كان رجلاً عظيم الهمة ، طموحاً ، محباً للإنشاء والتعمير فاقتنى هذا البيت وعهده بالعمل بالريف قريب — على ما أتصور — وكان البيت يضم ثلاثة أدوار ، عرفت فيه السيدة والدة أحمد ، رحمها الله رحمة واسعة ، فكانت كأمهات ذلك العهد ، نموذجاً للطيبة والبساطة ، والرحمة والفضيلة ، والفناء فى زوجها وأولادها . كنت أصافحها ، وأنا صبى فتمد يدها إلى ملفوفة بطرف قطعة قماش ، تغطى رأسها بها

عند الصلاة ، خشية أن ينقض وضوءها ، لأنها شافعية ، وقد بقى صوتها فى أذنى سنوات حتى بعد أن توفاها الله ، فى سن مبكرة ، وأحمد بعد فى المدرسة الابتدائية أو الثانوية على الأكثر ، فلما ذهبت إلى أسيوط ، وجاءت إحدى السيدات تزور أمى اضطربت اضطراباً ، فسألونى ماذا أصابنى ، فقلت : هذا صوت والدة أحمد ثم غبت تماماً عن الحاضرين فترة ، وعدت بخاطرى إلى أيام ذلك البيت ، فلما أفقت عاد الصوت يطرق أذنى ، لم أعد أحتمله ، فخرجت من بيتى هائماً على وجهى ، وأنا أعجب لنفسى ، فلم أكن أعهد فى نفسى الاستسلام لنوبات الوفاء العاطفية الشبيهة بهذه النوبة . وقد عرفت مع الوالدة ، ولديها مصطفى وعبد الفتاح الذى يطلق عليه تدليلاً «حلمى» . ولم أفطن وأنا صبى فى العاشرة أو دونها ، أن هذا البيت بالوالد والأولاد الثلاثة ، والأم جدير بأن يسمى «بيت العباقرة» ، وإن لم تكن العبقرية لفظة متداولة فى أيام صبانا ، ولم أكن قد اطلعت بعد على الآداب الأجنبية وعرفت بفضلها صوراً من الشخصيات الإنسانية الفذة التى تجمع بين الذكاء طرافة أسلوب الحياة والتمرد على تقاليد الناس ، وطرائق عيشهم وتفكيرهم ، وقد كان الوالد ، بصوته القوى ، الذى يخيف حقا وشاربيه المتدليين على شفتيه وبنائه المتين . ومع كرش ككرش الآباء جميعاً تتوسطه سلسلة ساعة ذهبية ، ورجلين مقوستين قليلاً ، لا تنقصان من هيبة طبيعية —كان بكل هذه الخصائص ، نموذجاً للوالد ، الذى يحتل فى بيته وبين أولاده ، مكانة السيد المطاع ، الذى يرعى الجميع ، ويحترمه الكل ، كسلطة أعلى تستمد سيادتها من إرادة الله ، ويسلم أهل البيت قاطبة بها .

ولم أكن أتصور ، حينما كنت أراه من بعيد سائراً إلى البيت أو خارجاً منه ، أو حينما كنت أسمعه يتحدث إلى أحد أولاده بصوته المدوى فأنكمش وأتوارى ، أن يوماً

سيأتى أكون فيه صديقه أو يكون صديقى . وهذا ما حدث بالفعل . فقد ازداد هو تفهماً لتطورات الدنيا . وزاد مسايرة للعصر ، ولا سيا كلما كبر ابنه أحمد ، وزاد مقامه بين المواطنين – حتى تساقطت عناصر صورته القديمة والمهيبة ، وحلت محلها صورة رجل ودود ، يتذوق الحياة ، ويألف الناس ، ويضحك معهم ويداعبهم ، ثم وصلنا إلى الخاتمة ، حينما قصدنى من أجل قضية ضد الحكومة ، صديق له تركى الأصل . مصرى الجنسية اسمه فريد بك صدقى ، كان صديقه هذا من حاشية الخديو عباس حلمى الثانى ، ومن رجال عهده ، فجاء والد أحمد ، بفريد صدقى بك هذا ، وأودع يَدَىَّ قضيته ، وكانت قضية كبيرة حقا ، أو قل كانت أكبر منى . فقد كانت ضد الحكومة ، بشأن معاش طلبه ابن رمزى طاهر باشا الذى شغل وظيفة كبير ياوران الخديو عباس ، ولما أبدى الخديو عباس انتقاده لنظام الجيش المصرى على الحدود سنة ١٨٩٢ . هاج هائج اللورد كتشنر البريطانى ، قائد الجيش المصرى وأمر بطرد رمزى طاهر من حاشية الخديو العسكرية . وعينه وكيلاً لوزارة الحربية ، فلما أحيل إلى المعاش خرج من مصر لأنه لم يحتمل غطرسة الإنجليز وتوفى فى تركيا ، وترك من أولاده ولداً ناقص الإدراك ، فطلب معاشاً استثنائياً ، ورفضت الحكومة ذلك الطلب . لأنها استلزمت أن يأتى طالب المعاش إلى مصر ، ليوقع عليه أطباء الحكومة الكشف ، وكان دفاع شقيق هذا الولد المقيم فى تركيا أن نقله إلى مصر ، يعرض حياته للخطر ، ومن هنا كانت الدعوى دقيقة ، وكان المطلوب فيها مبلغاً ضخماً ، وقد كتب الله لى التوفيق فيها ، وكسب المدعى دعواه ، فسر والد صديقى أحمد ورضى عنى ، ولكن أهم من ذلك ، أن القضية استغرقت بضع سنوات ، كان والد أحمد يتردد على مكتبى خلالها ، فنتبادل الحديث ، حتى لم يعد ينقضى شهر دون أن أراه ، وأستمع إليه ،

ويستمع إلى ، حتى ألفت ضحكته ، وأحببتها ، على خشونتها ، وغرابة صدورها من رجل له مظهره . ولقد شعرت بما يطوى على صدره من الحب للناس والحرص على مجاملتهم ، حينما عرف أننى لن أقبض مقابل هذا الجهد الطويل المثمر قرشاً ولا مليماً لصعوبات إدارية . فقد كان مهموماً مشغول البال يقترح الحلول ، ويغير فيها ، رجاء أن أصل إلى حق .

وعرفت فى بيت العباقرة ، عبقريا بحق ، هو الأخ الأوسط لأخى أحمد وقد كان موظفاً فى قسم قضايا وزارة الأشغال ، عمل مع أحد أساتذتى المحبوبين والأفذاذ هو المرحوم الدكتور عبد المنعم رياض ، أستاذ القانون الدولى بكلية الحقوق ، وكان مصطفى – رحمه الله – موظفاً مشهوداً له بالكفاية ، وكان العمل فى عقود وزارة الأشغال التى أصبحت وزارة الرى – كله باللغة الإنجليزية ، ومن ثم فقد أتقنها ، وأذكر أننا تكلمنا معاً على أسلوب القانونيين فى صياغة العقود ، فانطلق يكرر أمثلة مما تمتلئ به تلك العقود من تحفظات واحتياطات مثل : ولا تسأل الوزارة عما يقع للطرف الآخر ، من أخطار محتملة أو غير محتملة ، أو تنتج عن العقد مباشرة أو بطريق غير مباشر فى أثناء تنفيذ العقد أو بعده ، من موظفى الوزارة أو من غيرهم . وقال كل ذلك بلغة إنجليزية سليمة وطلاقة عرفت منها كيف تمكن من هذه اللغة ؟

غير أن هذا ليس سوى جانب ثانوى وقليل الشأن إذا قورن بما اتسعت له نفس هذا الشاب الذى وافاه الأجل وهو فى غضارة العمر ونضارته . فقد انصرف فجأة وبلا تمهيد إلى الدراسات الدينية فقرأ الغزالى ، وقرأ غيره من أمهات الكتب الإسلامية ، ورأيته يوماً ، يقرأ البخارى ويستخرج منه الأحاديث التى يخيل إليه أنها مصنوعة كحديث جناحى الذبابة الذى فى أحدهما داء وفى الآخر دواء ثم غلبته نزعة

للتصوف ، فضؤل شأن الدنيا فى حياته ، حتى زهدها وانصرف عنها ، مخلصاً غير مدع ، ولا متظاهر ، ولا راغب فى التحدث عن تصوفه للناس ، وقد شهدته فى تلك الفترة ومازلت أذكر عينيه اللتين رفعها إلى يوماً ، وقد امتلأتا بفرحة طفل ، وفاضتا بذكاء عجيب ، وأؤكد أنه كان للمرحوم مصطفى أثر فى حياة أحمد ، بقى معه إلى اليوم .

وسأروى للقارئ حادثة طريفة من طرائف شبابنا ، تؤكد هذا الاستنتاج . وقد يعجب الإنسان من هذا التطور الضخم فى حياة مصطفى إذا علم أنه كان رياضيا من أوائل الذين اقتحموا ميدان سباحة المسافات الطويلة ، وأنه كان يقوم بتمرينه من مصر القديمة إلى المنيل وأحياناً إلى روض الفرج ، وقد اتفق يوماً مع شقيقه أحمد ، لينتظره بثيابه عند المنيل ، والظاهر أنهما اختلفا على المكان الذى تواعدا عليه ، فبقى مصطفى فى الماء ولست أدرى ما الذى ساقنى إلى هذا الموقع من النيل ؟ فلما رآنى ، رجانى أن أعدو إلى المنزل لأحضر له ملابس ، وانطلقت كما طلب ، ولكنى لقيت والده فى البيت ، ولما سألنى عن طلبى ، ترددت قليلاً ، ولكن لم يكن ثمة مناص من المصارحة ، فثار الرجل ، وأرغى وأزبد ، واستنزل لعناته على مصطفى ونزواته ، وأقسم ألا أتسلم من البيت قطعة واحدة من الملابس ، ولكن رحمة الأم وحنانها ، لم تحفل بهذا الفيض المتدفق من الحمم ، وأحسنت التدبير وسلمتنى لفة فى جريدة ، وانطلقت ثانية إلى النيل ، فإذا بى أرى أحمد عائداً ، فسألته أين كان ؟ وكبر عليه أن يضبط متلبساً بهذا الخطأ الجسيم ، فتركنى ومضى فى حال سبيله دون أن يرد على سؤالى ، وأنا فى غاية الحنق ، من هذا الصمت الفياض بالتعالى .

أما العبقرى الثالث فهو الأستاذ عبد الفتاح ، الذى لم يتم تعليمه ، ومع ذلك ،

كان رياضيا موهوباً ، وكان فوق ذلك فيلسوفاً بحق ، لا يسمع شيئاً إلا استخرج منه معنى ، أو علق عليه تعليقاً طريفاً ذكيا ، ولقد ألف أن يكتب خواطر فى كراسات من كراريس المدارس ، يقيدها بغير اكتراث ولا احتفال ويكتبها فى منتصف الصفحة حيناً ، وفى جانب منها حيناً آخر ! ويبدؤها وربما لا يكملها . . وعاش بعد ذلك عيشة الفلاسفة حقا وصدقاً ، لا يكترث بشيء ، ولا يحمل هما ، ولا يعتنى بملبس ، ولا يعالج مرضاً ، ويضحك من كل شيء ، ضحك العقلاء الأذكياء . ولقد توثقت علاقتى به ، ومحبتى له ، حتى كان مكتبى ، واحداً من الأماكن التى يألفها ويتردد عليها ، ويطيل الجلوس أيا كان موقع هذا المكتب . وقد كنت أفرح بمقدمه ، وأستمتع بحديثه ، وقد كان عندى ، قبل وفاته المفاجئة فى حادث ، بيومين أو ثلاثة . . وأؤكد أنى لو تمكنت من جمع كراساته ، ثم من طبعها ونشرها لوقع الناس على الكثير المثير واللطيف من الخواطر والأفكار .

وقد كان للمرحوم عبد الفتاح أو حلمى ولع بلعب النرد « الطاولة » وكان شقيقه أحمد أكثر منه تمكنا من اللعبة وتمرسا بها ، فكانا يلعبان معا الساعات الطويلة ، فإذا ذهبت إلى بيت شارع مراسينة ، وكانا فى حمى الوطيس لم يلتفتا إلى ، وقد كان للمرحوم عبد الفتاح قدرة ، إذا غلب أحمد يوما مرة ، على إغاظته ، مع أن أحمد يغلبه بالعشرات ، دون أن ينجح أحمد فى إغاظته أو إحراج صدره ولو لمرة واحدة .

أما أنا وأحمد ، فقد كانت لنا جولات وشطحات ، تتردد بين سهرات فى المسجد الزينبى ، نسمع الخطب ثم الدروس ، وبين سهرات فى نادى الشبيبة الرياضى الذى كان فى شارع الدواوين الذى أصبح شارع نوبار الآن ، وفى ذات ليلة نسينا أنفسنا ، ورحنا نشاهد عروض الملاكمة ، وكان بين المتلاكمين شاب

اسمه « مراد مينا » كان يوصف بإنه بطل الملاكمة . فلما عاد كل منا إلى بيته ، دخل أحمد إلى فراشه سالما ، فلم يكن فى بيته – مع شدة والده – نظام كنظام بيتنا الحديدى ، فقد استقبلتنى أمى ، بالكفوف ، حتى التهبت خدودى ، فتجلدت ولم أبك ، لأنى وجدت أنه لا يليق بى أن أبكى ، وقد كنت منذ قليل ، بين جمهور رياضى : كواحد من الرياضيين .

وفى فترة ، زادت فيها أشواقنا الروحية ، تواعدنا أحمد وأنا على أن نصلى الفجر حاضرا ، وجاء أحمد يطرق بابى فى غبشة الليل ، والدنيا هاجعة ، والشوارع خالية ، واستيقظ والداى منزعجين فقد توهما أن وراء الطارق نبأ مفزعا ، وإذا بى أتحرك فى فراشى ، وأنا لا أقوى على التكلم ، وأخيرا أفضيت لهما بما اعتزمنا القيام به استفتاحا لعهد من التصوف والتهجد ، والتقرب إلى الله ، فوضعا حدا لكل هذه الآمال العريضة بصرخة ومضى أحمد وحده فى الشارع المظلم ، وقد أبى عليه وفاؤه أن يصلى الفجر وحده ، وأجل دور التسامى الروحى إلى فترة أستطيع معه أن أتحرر من قيود المنزل .

وقد كان لأحمد جار فى حى طولون قبل أن يبنيا منزل شارع مراسينة ، وقد كان لهذا الجار ولع بالنشاط المسرحى إذ كان غالب الأمر ، من متعهدى الحفلات المسرحية ، الذين يستأجرون هذه الحفلات مقابل مبلغ يجعلونه لمدير الفرقة ثم يجربون حظهم فى توزيع تذاكر المسرح على الجمهور وأصدقائهم ومعارفهم ، فاستطاع هذا الجار أن يزود أحمد بتذاكر فى عدد من حفلات مسرح الأزبكية فى وقت كانت فرقة أولاد عكاشة تقدم فيه مسرحيات غنائية وغير غنائية ، وكان أحمد فى الأيام التالية لليلة التى يذهب فيها إلى المسرح ، يقص على ما شاهد ، ويمثل بعض المشاهد ، ويؤدى بعض الأغانى ، وأجلس أمامه وأنا مأخوذ اللب بهذا

المسرح الذى يقدمه صاحبى بهذه البراعة والقدرة والسهولة . وجاء ذات أصيل ليزورنى فلم يجدنى ، فانتظر عودتى ، فلما طال الانتظار ابتدأ يسلى نفسه وأخواتى بإسماعهم عشرات من الأغانى التى كانت شائعة آن ذاك ، وكان أكثرها من تلحين سيد درويش كلحن السقايين والشيالين ، فلما عدت فى المساء ، وجدت أخواتى ، كأسعد ما يكن بعد أن شَبِعْنَ من هذه الوجبة السخية من الأغانى والأدوار .

وأقيمت حفلة بمدرسة محمد على ، فهالنى أن علمت أن من بين العروض فى الحفلة ، حوارا تمثيليا بين اثنين ، مما يقدم عادة فى حفلات المدارس ، وأن « أحمد » قد تقدم ليكون أحد المتحاورين ، وشعرت بأن صديقى من قوة الأعصاب ، بحيث جرؤ على الإقدام على مجازفة كانت تساوى عندى الصعود إلى القمر ، ولم أعد أراه فى فترات الراحة بين الدروس فقد كان منهمكا فى تجارب التمثيل التدريبية ، ولكن هذه الحفلة لسوء الحظ ألغيت ولم نتمتع برؤية بواكير عبقرية أحمد الفنية والخطابية . ولكن هذه البواكير سرعان ما أعلنت عن نفسها بعدما سافرت إلى أسيوط ، وأصبحت من قراء مجلة « المسرح » أكبر المجلات الفنية ، فى ذلك العصر ، إن لم تكن المجلة الفريدة آن ذاك ، فقرأت يوما نقدا لحفلة المدرسة الخديوية التمثيلية ، عرفت منه أن صاحبى أحمد مثل دورا خطيرا فى مسرحية أبى مسلم الخراسانى الذى أعدها هو ، عن رواية جورجى زيدان ، وقد وصف الناقد الذى كان يوقع مقالاته بإمضاء « الأحنف » طريقة أحمد فى التمثيل فقال إنه يمثل وكأنه « شضلى » وشضلى تساوى عصبجى . وفى العدد التالى قرأت ردا طريفا على هذا النقد بإمضاء « أحمد محمود حسين الشضلى » وكان هذا المقال بداية اتصالنا معا بالصحف وبالكتابة فيها . ثم تلقيت منه خطابا قال لى فيه : إنه فى نهاية الحفلة تقدم إليه أمير الشعراء أحمد شوقى مهنئا .

وقد وعدتك أن أروى لك شاهدا على تأثر أحمد بأخيه مصطفى ، عندما زهد الدنيا وتصوف ، وهو شاهد طريف حقا ، فقد تعرفنا – فى فترة تالية مباشرة لصبانا – بالأستاذ المرحوم مصطفى العلوى الذى كان معاونا للمرحوم العلامة فريد وجدى فى المطبعة ودائرة المعارف التى كان يصدرها آن ذاك . وكان الأستاذ العلوى مشتغلا بالتنويم المغناطيسى وقد نجح فى تنويم أكثر من وسيط أمامنا ، وحاول أن ينيم أحمد ، فتظاهر أحمد بأنه نام فعلا ، وقد كان من بين ما حدثنا به المرحوم العلوى أنه يستطيع أو يوحى إلى وسيطه بأنه صغر سنا ، فتظهر على الوسيط علائم السن الصغرى حتى يبلغ سن الطفولة ، فيصبح صوته كصوت الأطفال ، وعندها يروى ذكريات طفولته وهذا ما يساعد على شفاء بعض الأشخاص المصابين بأمراض عصبية أو نفسية إذا كان سبب الإصابة ، صدمة جرت لهم فى الطفولة ، ثم زاد طموح الأستاذ العلوى فقال : إنه يستطيع أن يعود بالإنسان القهقرى ، حتى يصل به إلى ما قبل الولادة ، ثم إلى ما قبل ولادة آبائه وأجداده بمئات السنين ، وأوهم أحمد الأستاذ المنوم بأنه وصل بروحه إلى عهد الفراعنة ، وأبدى تألمه الشديد ، فلما سأله عن سبب هذا التألم قال : إنه يجلد بوصفه أحد العمال فى معبد فرعونى ، وخيل إلى الأستاذ العلوى أنه بذل طاقة روحية فى تلك الليلة أكبر مما يجب ، فانتفض انتفاضة أفزعتنا . . ولكن أحمد طلب ورقة وقلما وهو نائم لأن روحا من أرواح الموتى الأعزاء تحوم حوله وتود أن تملى شيئا فلما وضعنا القلم بين أصابعه كتب ما لم نستطع أن نقرأه ، فلما طلبنا إليه هو أن يقرأ ما كتب قال : هذه رسالة من أخى مصطفى يقول فيها : احذوا حذوى . . وقد أطاع أحمد – فى الجملة – هذا الأمر من أخيه ، فى كثير من مراحل حياته الحافلة الغنية الطويلة العريضة .

وداعاً أيام الصبا

هل حقا انتهت أيام الصبا ؟

وهل انتهت فى عامنا هذا الذى كتبت فيه ذكريات الصبا . أو أنها انتهت منذ نحو أربعين عاماً عندما بلغت الرابعة عشرة ، وقام فى وهمى ، أننى رجل ، لى حق الرجال ، فى أن أقول ما أشاء وأفعل ما أريد وأبدى الرأى فى شئون البيت والمدرسة والأمة ، وأرتاد مجامع الكبار ، وأختلف إلى حيث يخطب الزعماء ويتناقشون ، ويهاجمون بعضهم بعضاً ، فى رفق حيناً وفى عنف أحياناً .

نعم إنها انتهت عندما انتهيت من تحرير ذكرياتها .

فيوم أن وصلت وأنا بين الطفولة والصبا ، إلى عتبة الشباب أطمح إليه ، وأشفق منه ، وأحلم به ، وأتصوره ، وأتصور نفسى فيه لم أحس بأنها انتهت ، فالزمن الساحر ينقلنا من دور إلى دور ومن حال إلى حال ، ونحن لاندرك

ولا نشعر ، تفاجئنا الشعرات الأولى تحت الأنف ، وحول الذقن ، فنطيل النظر إلى وجوهنا فى المرآة ، وفى أعماق نفوسنا ، يدور سؤال هامس خجل ، ممزوج بالدهشة والسرور والاحتجاج متى حدث هذا ، وكيف وهل صحيح . ؟ هل صحيح أننا خرجنا من إهاب الفرح غير المسئول والنشاط غير المقيد ، والحرية غير المدركة لذاتها ، إلى عالم لا ندرى قواعده ، ولم نجرب الخضوع لقوانينه ؟

وعندما تلوح الشعرة البيضاء فى رءوسنا ، نهتز من منبت الشعر إلى أخمص القدم ، بنفس المشاعر ، ممزوجة بحزن خفى ، مع أن الشعرة البيضاء شىء جديد ، ولمقدم كل جديد فرحة ، ولكن هذه الشعرة شىء جديد مخوف ، إنها نذير بالنهاية ، التى تتأخر عقوداً ، وتتلكأ فى طريقها سنين ، ولكن آخر الأمر ، تشير إليها ، وتعلن قدومها . . ويالها من شعرة ، تتألق بياضاً ، وتبدو بريئة ضعيفة ، غريبة بين زميلاتها السوداء الحالكة السواد . وهى شعرة لا تعترف بالمنطق ، ولا تسلم به ، بدلالة أنها بيضاء فى رأس أحد من أبناء آدم الذين تواصوا ، على اعتبار البياض صنو النور ، والسواد صنو الظلام بجامع القتام فى كل ، والشعرة البيضاء ، نذير المغيب ، والمغيب هو غروب الشمس وقد قالت لى ، الشعرة البيضاء ، : أنا بيضاء رمز العلم والنضج ، والرضا ، والتجربة بعد الخفة والطيش وقلة العلم . إذا كان المغيب ، يعنى أفول الشمس فهو يعنى أيضاً شروق القمر بنوره الفضى الوضاء ، وقد جعل الله القمر ضياء ، وزين به السماء ، مع الكواكب والنجوم ، ثم منذ متى ولبنى آدم منطق مستقر ؟ فالسواد عندهم رمز الجلال والأبهة ، لا يلبس إلا فى أجل المناسبات ، وأعظمها مهابة ، وقد اتخذته حركات ذات شأن فى القديم والحديث شعارها المفضل ، ولونها المحبب !

وأرادت الشعرة البيضاء ، يوم ذاك أن تسترسل فى حديثها لولا أننى أحسنت

الاعتذار لها فقلت : علم الله أننى لم أحزن لمقدمك ، ولم أنقبض لمرآك ، بل فرحت بك ، فرحى بكل جديد ، وأطلت النظر فيك ، ثم عدت أتأمل داخل نفسى ، وخارجها ، وفى ظاهر بدنى ، وفى باطنه متسائلاً هل لهذه الشعرة البيضاء التى تعدها ضيفاً جديراً بالإكرام والإعزاز والتحية أثر فى هذه النفس ، أو فى ذاك البدن ؟ فلم أجد شيئاً ، بل وجدت كلا منهما غافلاً عنها ، زاهداً فى الحديث حولها ، فشكرت لها حسن نياتهما وعدم اهتزازهما ، وإن كنت قد أخفيت عنهما ، وعن الشعرة البيضاء ، رأيى فيهما من أنهما ساذجان ، لا يدريان ماذا يعنى هذا اللمعان الفضى فى ظلام شعرى الكثيف الذى لم ينل منى ما يستحقه من العناية والرعاية ، مع أنه عند غيرى عظيم المكانة ، كبير القدر . . ؟

لكن قبل أن تظهر الشعرة البيضاء التى وجدت من زميلاتها السوداء حبا شديداً فى محاكاتها ، ربما هرباً من السواد اللامع ، إلى البياض الناصع ، فقد تكاثرت الشعرات البيضاء ، حتى اشتعل الرأس شيباً قبل الأوان ، فبدوت بين الناس شابا شيخاً ، أو شيخاً شابا ؛ وألف الناس أن يواسونى فيقولوا ، إن هذا الشيب المبكر ، زاننى . فابتسمت يوم ذاك ابتسامة أسى حقيقى ، لأننى أدركت يومها ، أن هؤلاء الصحب ، رأونى جديراً بالمواساة ، فواسونى ، وليس أوجع لنفسى ، من أن أصبح ، هدفاً للمواساة ، لأنها تزيدنى إحساساً بقدر الإنسان ، يحمل وحده مصابه ، وأقرب الناس إليه يشاهدونه ، ولا يملكون له إلا دموعاً تترقرق فى المآقى يخفونها ، وآهات تتلهب فى الصدور يكتمونها ، وصدق الله تعالى إذ قال « وإن تدع مثقلة إلى حملها ، لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » وقد عرفت وأنا فى مطلع الشباب ، هذا الإحساس ، المر ، فقد وضعت على محفة تتحرك على عجلات ، ودفعت المحفة إلى أعماق حجرة ، انتظرنى فيها رجال مكممون يلبسون

أردية بيضاء ، فيخفون وجوههم ، فتبدو عيونهم ، وكأنها عيون أعوان شر ، وهى عيون رسل رحمة ، وقد وقف على باب الحجرة ، أخواتى ومعهن صديق الصبا «أحمد» ألمح – وأنا بين الموت والحياة – على وجوههم آيات الجزع ، فأشفق عليهم ، أكثر مما يشفقون لحالى ، لأنى أعرف مدى ما يعذبهم شعورهم بالعجز عن إنقاذى ومد يد المعونة لى فى محنتى .

ولكن لقد دلفت إلى الشباب ، بعد أن فرغت أيام الصبا ، دون ألم ، فلم أبكه ، ولم أودعه فقد كنت وأنا أستقبل الشباب ، أشبه ما أكون بإنسان فقد شيئا غالياً ، فى مناسبة سعيدة ، فأنسته المناسبة ، ألم الخسارة ، وبقيت غير مدرك أن الصبا ، أجمل عهود الحياة ، قد انتهى إلى غير رجعة ، حتى جلست لأكتب ذكريات هذا العهد ، فإذا به يعرض على مفاتنه ، ولطائفه وخفاياه وأسراره ، فأزداد إحساساً بغفلة الإنسان ، الذى يدع هذا الدور الجميل الذى أتقنت يد الله الخلاق العظيم نسج خيوطه ، من حيوية الطفل ومرحه ، ومن سذاجته وعدم تجربته ، ومن تفتح الشباب ، وإقباله على الدنيا فى دهشة وترقب وتطلع واحجام أكثر إمتاعاً من الاندفاع والجرأة ، التى لا تتهيب شيئاً لفرط الثقة .

وطوال الفترة التى كنت أكتب فيها ذكريات الصبا ، كنت أملأ رئتى من عبقه وأرجه وحلو رائحته ، كنت أمتع عينى من رؤية هذا الصبى ، الذى لا يستقر فى مكان ، ولا يشبع من القفز والوثب والركض والعدو ، والتعلق بأغصان الأشجار والتسلق فوق الجدران والأسوار . كنت أملأ أذنى بصيحات وصرخات لداته وزملائه من الصبيان ، وهم يتخاطفون الكرة ، ويتقاذفون بالطوب ، ويتدافعون للظفر بشىء يتسابقون إليه ، وعيونهم تلمع بالسرور ، ووجوههم تطفح بالسعادة ، وأصواتهم تفيض بالفرح . ولما وضعت القلم إلى جانبى ، بعد أن فرغت من آخر

كلمة فى آخر سطر ، شعرت بأنى كنت أشبه شيء بمتفرج فى دار سينما ، يتابع شريطاً متقناً لطيفاً مسلياً موحياً ، فنسى نفسه ، حتى إذا أضاءت الأنوار وبددت ظلام القاعة ، بددت معها الحلم ، تلفت حوله ، فإذا الناس يغادرون أماكنهم ، فى صفوف طويلة ، يجرون أرجلهم جراً ، فى حين بقى فى مكانه يأبى أن يسلم بأن الشريط انتهى ، أو بأن الحلم قد اختفى ، وأنه ترك للواقع جالساً على مقعد ، وأمامه حائط بارد ، لا تجرى عليه صورة ، ولا ينعكس فوقه ضوء ، ولا يبعث فى القلب شعوراً ، ولا يوحى للناظر إليه بإحساس . . ثم هو لا يدرى ماذا يفعل ؟ أيترك مكانه ، ويسير مع الناس ، ويفعل كما يفعلون . أيمكن أن يخرج من هذا الحلم الجميل ، كما يخرج الواحد منا من قاعة مسرح ؟

قد يبدو للإنسان أن ذلك سهل ، وهو فى الواقع سهل لو أن هذا كان حلماً ، ككل الأحلام التى نراها فيما يرى النائم ، ولكنه كان فترة من عمر ومرحلة من حياة ، وجزءاً من وجود ، وفصلاً من تجربة . وقد بعث من الماضى ، فأصبح حاضراً ، بكل حرارة الحياة ، وماديتها وإحساساتها حتى لقد نسيت تماماً ، ساعة أو ساعات من كل شهر ، أننى جاوزت الصبا والشباب والرجولة ، وأننى شيخ من الشيوخ الأمر الذى لم أحس به قط ، ولم أجد ما يدعونى إلى التفكير فيه أو التسليم به .

يوم أن تجاوزت عتبة الشباب ، لم أحس قط أن الصبا قد انتهى ، ولكن الآن أحس بشدة وبعمق ، أن هذا الصبا ، أصبح ماضياً بحق ، وأنه أفلت من يدى ، كعصفور ، طار إلى غصن عال من أغصان حديقة فسيحة لا نهاية لها ولا حدود . وأنه ليس لى منه إلا أن أروى وقائعه للناس ، ثم أقرأ ما كتبت .

ولقد عدت إلى مجلد يحوى صور الصبا ، يسميه الغربيون « البوم » ورحت أتأمل

فى هذا الصبى الذى أجلسه المصورون منذ طفولته على مقعد ، أو على عمود طويل ، بجانب إحدى شقيقاته أو والده ، ولم ينس هؤلاء المصورون فى جميع الأحوال أن يضعوا تحت إبط هذا الصبى أو بين يديه ، كتاباً . فهل كان هؤلاء الأجانب يعتقدون فى تلك الأيام أن الكتاب حلية للكبير والصغير معاً ، أو أنهم كانوا يقرءون الغيب فيعرفوا أن الكتاب سيصاحب هذا الصبى ، حينما يكبر ، فى الليل والنهار ، وفى الحل والترحال ، وفى العمل ، وعند الراحة ، وأنه سيكون أداته ، وعمله وتسليته وسلاحه الذى يقيه الاستسلام لآلام الدنيا ، ووسيلته للهرب من حقائقها ، فهو مقو ، ومخدر وملهم ، ومانع من الحركة ، بما يبعث فى النفس من رؤى وأحلام ، وأخيلة وأوهام .

ولكن أين هذا الصبى ، الذى يقف خُلافاً للحقيقة — هادئاً وادعاً ، يطبق الشفتين يفكر فى شىء ما ؟ لقد اختفى حقاً وصدقاً ، فلم يعد له وجود : وبعبارة أخرى لقد مات ، فلا سبيل إلى بعثه ، ولا إلى التحدث إليه ، ولا إلى العثور عليه ! ومع ذلك لم يشيعه مشيع ولم يبكه باك ، ولم ينعه ناع ؛ فحياتنا التى نحسبها دقائق متصلة من الوجود ، حلقات متصلة من الموت ، فما من لحظة تمر ، حتى يختفى شخص كنا إياه ثم انقضى ! ليوجد شخص آخر ، غير الأول ، وعندما تتراكم لحظات العدم ، يحل محل الطفل صبى ، ثم يحل محل الصبى ، شاب ، وفى كل دور ينتهى كائن حى بجسمه ونفسه وملامحه وقسماته ، وأخلاقه ومزاجه ؛ ليأتى كائن جديد بصورة جديدة وصوت جديد ، وعقل ونفس ، لم يعرفها الكائن السابق !

فهل نحزن لأن الواحد منا هو ألوف الألوف من الأشخاص يحمل اسمنا ، ويحسبه الناس حقيقة واحدة لا تتغير ، ولا ينقطع وجودها ، وهو فى الواقع ،

أموات إلى جانب أموات ، لأن تدفق الزمن لا ينقطع ، وهو مع استرساله واتصاله . يخفى فى طياته حقائق صغيرة ، ولكنها هى عناصر الحقيقة الكبرى .

غير أن هذا الصبى لم يمت ، كما لم يمت من قبل الطفل الذى كانه ، فقد قلت من قبل ، يبقى الطفل مختفياً فى ركن من أركان نفس الصبى ، كشأن الأطفال الذين يهربون من ذوى قرابتهم حينما يريدون أن يحملوهم معهم إلى مكان لا يحبونه . وقد تصادق الطفل والصبى ، وأنشأ معاً حلفاً ، فلما جاء الشاب تآمر عليهما واختفيا فى طيات إهابه ، وتعب حتى أخذاه معهما إلى جانب من الرجل الذى استحال إليه وهكذا .

لا موت ولا حياة ، وإنما صور تتلاحق ، تظهر وتختفى ، ونفرح بكل منها ومن تلاحقها السحرى الخفى تتكون حياتنا بما تنطوى عليه من عناصر نسميها حقائق . وعناصر أخرى نسميها أوهاماً ، كما تتلاحق الصور فى شريط ، يعرض علينا معكوساً على جدار أو قطعة من قماش ، فيضحكنا ، ويبكينا ، ويعلمنا ويلهمنا ، كما لا تفعل الحياة نفسها .

إذن هذا الصبا لم ينقض إنه معى ، داخل نفسى ، يشارك فى توجيهها ، ويبدى الرأى فى كل ما تقول وتفعل ، بل أحياناً فى كل ما يتداول فيه من شأن ونفسها . ولقد علمت الآن أنه ما من قرار تصدره النفس حتى يلتف حول مائدة مستطيلة أو مستديرة عدد من الأشخاص قد يبلغون الملايين ، بقدر ما مر على هذه النفس من لحظات الوجود والعدم : أطفال ، يخطئهم العد ، وصبيان لا يقوى على حصرهم إحصاء وشبان وكهول بنفس الكثرة ، ويحاول كل منهم أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة ، ولهذا لا نرى إنساناً يبحث عن قرار حتى يبدو لنا كأنه يسير على على نار ، لأن الدعوة إلى القرار دعوة لملايين وملايين من البشر بتجاربهم غير

المتشابهة ولا المتساوية ، وتجارب أطفال وصبيان وشبان ورجال وكهول . وربما شيوخ أيضاً إذا وصل الباحث عن القرار إلى الشيخوخة

فالمرء منا إنما هو فى الواقع عمارة طويلة ، تتركب من ملايين من البشر ، لو وضع أحدهم فوق رأس الآخر ، فقد يصلون بيسر وبلا أدنى عناء إلى المريخ أو أبعد من ذلك ، ومن هنا كان هذا المخلوق العجيب الذى نسميه « الإنسان » قادراً على إتيان عجائب وغرائب ، مما يحير ويذهل نفس الإنسان صانعها ومحققها . ولولا أنه « أمة » ما سخر الله له الشمس والقمر والأنهار والبحار والنجوم والكواكب ، وجعله سيدها ، وآمرها وما كان كل هذا التراث المتراكم من الحضارات والثقافات والفنون والآداب ، والمذاهب والفلسفات المقرونة بجرائم أخذت شكل حروب ، وغزوات ، أحرقت وأبادت ، ودمرت وخربت كل ما صنعه الإنسان الفنان والإنسان البناء ، والإنسان الكاتب والإنسان المقنن والمشرع والمهندس !

أيها الصبى الذى عرفته وعاشرته ، الذى عانى أهوال المرض ، والذى تحرك وجرى ، وأراد أن يكون ملاكماً ومصارعاً وعدّاء ، وممثلاً ؛ وخيل إليه أنه يستطيع أن يكون — لفرط جهله — نبيا أو وليا . . أيها الصديق العزيز ، الذى اختفى ، إنك لم تمت . إنك حى ترزق ، إنك معى ، إنك فى خفايا نفسى ، تقول وتوحى ، وتوافق وتعارض ، إنك تضحكنى وتكايدنى وتجلس معى ، وتتألم إلى جوارى ، وتقاسمنى اللقمة وتحاول أن تفهم ما أقر ، وأن تنقض ما أبرم !

لقد كتب الله علينا صحبة لا تفصم ، وجواراً لا ينتهى ، إنى أقبلك ولا أرفضك ، فلولاك ، لحرمت الحيوية ، والبهجة والأمل ؛ فكل ذلك من خصائص الصبا . . لم تأخذها كلها منى حينما اختفيت . فى الظاهر — لتفسح الطريق لأخيك الأكبر سنا والأكثر رواء ، والأعظم مسئولية ، والأعلى صوتاً ،

والأشد ادعاء . واختيالاً : الشباب !

ولكم ضبطت نفسى متورطاً فى نزوة أو فى حلم ، أو فى رغبة ، فأراك فيها أو على الأقل أدعى أنها من عملك ووحيك ؛ فقد تكون أيها الصبا العزيز بريئاً منها . ولكنها رغبة الإنسان – فى أى سن كانت – فى أن يتخفف من أخطائه . ويتخلص من عيوبه ، فيلقى بها على شىء أو شخص أو ظرف ، ولما كان يحس أنه فى الصبا غيره فى الشباب أو الرجولة ، فيقول : هذه نزوة صبيانية ، هذه هفوة صبيانية ، هذه بقية من أيام الصبا !

وأنت تظلم ، ولكنك تسكت ؛ لأنك ترى فى إلقاء اللوم عليك واتهامك بغير دليل دليلاً على أنك حى لم تمت ، وأن دورك لم ينته . . وهكذا تنتقل إليك عدوى الإنسان الذى يأبى إلا أن يتشبث بالحياة ، ولو كان ثمن ذلك ، تحمل آثام الآخرين ، وأخطائهم وادعاءاتهم .

وبعد فيأيها الصديق ، والصاحب الكريم ، أيها الصبا .

آن لنا أن نفترق ، ولعلك وأنت منصرف عنى ، وأنا منصرف عنك ، راضٍ ؛ فقد حدثت عنك الناس طويلاً وبعض هذا الحديث ألف هذا الكتاب وصنفه ، ولا أحسب أنك ظفرت من صاحب قلم بما ظفرت منى . والحق أنى تحدثت عن الشباب وعن الشيخوخة وأحياناً عن الطفولة . وأنا أتحدث عنك ، ولكن لم يكن هذا الحديث كله إلا فرعاً عن أصل وكنت أنا الأصل .

وأنت تعرف ، أن الكائن الملهم ، أعظم قدراً من الكائن الذى يقتصر الحديث عنه ولا يتفرع منه . ولقد أوحيت إلى بالكثير وأنا أشرق وأغرب ثم أعود إليك وكنت فى هذا الجولان أحس أننى أمارس هواية من هوايات الصبا ، فقد كنت خلال أيامك السعيدة لا أستقر فى مكان . ولا أستقر عند شىء ، ولا عند شخص ، وكان

الطواف والتشرد والتنقل شعار حياتى ، وقانونها .

وشيء آخر أيها الصديق العزيز؟

إذا قدر لى أن أتحدث عن دور آخر من أدوار حياتى فإنى أعدك أنى لن أنساك ، سأعود إليك ، المرة بعد المرة ، وسأذكرك ، وأذكر الناس بك ، وأقارن بين حكمه الصبا التى لا فضل لى فيها ، ولا يد ، وحكمة الشباب المستفادة من تجاربه المؤلمة والمرضية ، ومغاسراته الفاشلة والناجحة ، ثم حكمة ما بعد ذلك ، ولعلى غير قادر على أن أخدعك ؛ فأنت تعلم أننى كلما ذكرتك ذكرت نفسى ، وكلما أرضيتك أرضيتها فالذكرى هى كل ما يبقى للإنسان ، من كل ما مر به من حلو ومر ، وعظيم وتافه وداعاً أيها الصبا .

وداعاً . . .

رقم الإيداع	١٩٧٩/٥٠٧٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٨٦٢ - ٥

١/٧٨/١٢١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

